

للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء
إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤هـ

أشرف على تحقيقه: فضيلة الشيخ
مصطفى بن العدوي

خرج أحاديث هذا الجزء:
أبو يحيى محمد بن أحمد بن عبده

الجزء الثاني عشر

دار ابن رجب

رقم الإيداع : ٢٠٤٥٢ / ٢٠٠٤
I.S.B.N. : 977 - 390 - 043 - 6

ثم دخلت سنة سبعين وثلاثمائة

فيها: ورد الصاحب بن عبَّادٍ من جهة مؤيِّد الدولة إلىٰ أخيه عضد الدولة، فتلقَّاه عضد الدولة إلىٰ ظاهر البلد، وأكرمه وأمر الدولة باحترامه، وخلع عليه وزاد في أقطاعه، وردَّ معه هدايا كثيرةً جدًّا.

وفي جمادىٰ الآخرة منها رجع عضد الدولة إلىٰ بغداد، فتلقَّاه الخليفة الطائعُ، وضربت له القباب، وزيِّنت الأسواق.

وفي هذا الشهر دخل الخليفةُ بزوجته بنت عضد الدولة وحمل معها من الجهاز شيءٌ عظيمٌ. وفي هذا الشهر أيضًا وصلت هدايا من صاحب اليمن إلىٰ عضد الدولة وفيها أشياءُ حسنةٌ. وكانت الخطبةُ بالحرمين في هذه السنة لصاحب مصر، وهو العزيز بن المعزِّ الفاطميِّ.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان:

أحمد بن عليٍّ، أبو بكر الفقيه الحنفيُّ الرازيُّ، أحد أئمة أصحاب الرأي، وله من المصنَّفات المفيدة كتاب «أحكام القرآن»، وهو تلميذُ أبي الحسن الكرخيِّ، وكان عابدًا زاهدًا ورعًا، انتهت إليه رياسةُ الحنفية في وقته، ورحل إليه الطلبةُ من الآفاق، وقد سمع الحديث من أبي العباس الأصمِّ وأبي القاسم الطبرانيِّ وغيرهما، وقد أراده الطائعُ لله علىٰ أن يوليه القضاء، فلم يقبلْ.

وكانت وفاته في ذي الحجَّةِ من هذا العام، وصلَّىٰ عليه أبو بكر بن محمد بن موسىٰ الخوارزميُّ.

محمد بن جعفر بن الحسين بن محمد بن زكريا، أبو بكر الورَّاقُ[1]، ويلقب بغندر أيضًا، كان جوالاً رحالاً، سمع الحديث الكثير ببلاد فارس وخراسان، وسمع الباغنديَّ وابن صاعدٍ وابن دريد وغيرهم، وعنه الحافظ أبو نعيمٍ الأصفهانيُّ، وكان ثقةً حافظًا، رحمه الله تعالىٰ.

ابن خالويه: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبدالله النحويُّ اللغويُّ، صاحب المصنفات، أصله من همذان، ثم دخل بغداد، فأدرك بها مشايخ هذا الشأن؛ كأبي بكر بن الأنباريِّ وابن دريدٍ وابن مجاهد، وأبي عمر الزاهد، واشتغل علىٰ أبي سعيد السيرافيِّ، ثم صار إلىٰ حلبَ، فعظمت مكانته عند آل حمدان، وكان سيف الدولة يكرمه وهو أحد جلسائه، وله مع المتنبِّي مناظراتٌ.

وقد سرد له ابن خلكان مصنفات كثيرة منها «كتاب ليس»؛ لأنه كان يكثر أن يقول فيه: ليس في كلام العرب كذا، «وكتاب الآل» تكلم فيه علىٰ أقسامه وترجم فيه الأئمة الاثنيْ عشر، وإعراب ثلاثين سورةً من القرآن، وشرح الدريديَّة وغير ذلك، وله شعرٌ حسن، وكان فردًا في زمانه، رحمه الله تعالىٰ.

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ٢١٤-٢١٥).

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة

في ربيع الأول منها وقع حريقٌ عظيمٌ بالكرخ من بغداد.

وفيها: سرق شيءٌ نفيسٌ لعضد الدولة، فعجب الناس من ذلك؛ لشدة هيبة عضد الدولة، ثم مع هذا اجتهدوا كل الاجتهاد، فلم يعرفْ من أخذه. ويقال: إن صاحب مصر بعث من فعل هذا. فالله أعلمُ.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس، أبو بكر الإسماعيليُّ الجرجانيُّ[1] الحافظ الكبير الرحَّالُ الجوَّالُ، سمع الكثير، وحدَّث وخرَّج وصنَّف، فأفاد وأجاد، وأحسن الانتقاد والاعتقاد، صنَّف كتابًا على «صحيح البخاري» فيه فوائد كثيرةٌ، وعلومٌ غزيرةٌ.

قال الدارقطنيُّ: كنت عزمت غير مرة على الرحلة إليه، فلم أرزقْ.

وكانت وفاته يوم السبت عاشر رجب سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة، وهو ابن أربع وسبعين سنةً، رحمه الله.

الحسن بن أحمد بن صالح، أبو محمد السبيعيُّ، سمع ابن جرير وقاسمًا المطرِّز وغيرهما، وعنه الدارقطنيُّ والبرقانيُّ، وكان ثقةً حافظًا مكثرًا، وكان عسر الرواية، رحمه الله.

الحسن بن عليٍّ بن الحسن بن الهيثم بن طهمان، أبو عبدالله الشاهد، المعروف بالبادي، سمع الحديث، وكان ثقةً، عمر سبعًا وتسعين سنةً، منها خمس عشرة سنةً مقعدًا أعمى، رحمه الله.

عبد الله بن الحسين بن إسماعيل بن محمد، أبو بكر الضَّبِّيُّ القاضي، ولي الحكم بعدَّة بلاد كثيرةٍ، وكان عفيفًا نزهًا صيِّنًا ديِّنًا.

عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث، أبو الحسن التميميُّ الفقيهُ الحنبليُّ، له كلامٌ ومصنَّفٌ في الخلاف، وسمع الحديث، وروى عنه غير واحد.

وقد ذكر الخطيب البغداديُّ أنه وضع حديثًا، وردَّ ذلك أبو الفرج بنُ الجوزيِّ وقال: ما زال هذا دأب الخطيب في أصحاب أحمد بن حنبل. قال:

وشيخ الخطيب الذي حكى عنه هذا هو أبو القاسم عبدالواحد بن أسدٍ العكبريُّ لا يعتمدُ على قوله، فإنه كان معتزليًّا، وليس من أهل الحديث، وكان يقول بأن الكفار لا يخلدون في النار.

قلت: وهذا غريبٌ؛ فإن المعتزلة يقولون بوجوب تخليد أصحاب الكبائر فكيف لا يقول هذا بتخليد الكفار! قال: وعنه حكي الكلام في ابن بطة أيضًا.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ٢٩٢) وما بعدها.

عليُّ بن إبراهيم الحسن الحصريُّ الصوفيُّ الواعظُ، شيخُ المتصوِّفة ببغداد، أصله من البصرة، صحب الشبليَّ وغيره، وكان يعظ الناس بالجامع، ثم لما كبرت سنُّه بني له الرِّباطُ المقابل لجامع المنصور، ثم عرف بصاحبه الزَّوزنيِّ، وكان لا يخرج إلا من الجمعة إلى الجمعة، وله كلامٌ جيدٌ في التصوُّف على طريقهم.

ومما نقله ابن الجوزيِّ عنه أنه قال: ما عليَّ منِّي؟ وأيُّ شيءٍ لي فيَّ حتى أخاف وأرجو، إن رحم رحم ما له، وإن عذَّب عذَّب ما له.

توفي في ذي الحجَّة، وقد نيَّف على الثمانين، ودفن بمقبرة حرب من بغداد.

عليُّ بن محمد الأحدبُ المزوِّرُ، كان قويَّ الخطِّ، له ملكةٌ على التزْوير، لا يشاء يكتبُ على كتابة أحد إلا فعل، فلا يشكُّ ذلك المزوَّرُ عليه أنه خطُّه، وبلا الناس ببلاءٍ عظيمٍ، وختم السلطان على يده مرارًا فلم يفدْ، ثم كانت وفاته في هذه السنة.

الشيخ أبو زيد محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد المروزيُّ الشافعيُّ، شيخ الشافعية في زمانه، وإمام أهل عصره في الفقه والزهد والعبادة والورع، سمع الحديث، ودخل بغداد، وحدَّث بها، فسمع منه الدارقطنيُّ وغيره.

قال أبو بكر البزَّارُ: عادلتُ الشيخ أبا زيد في طريق الحجِّ فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئةً.

وقد ذكرت ترجمته بكمالها في «طبقات الشافعية». قال الشيخ أبو نعيمٍ: توفِّي بمروَ يوم الجمعة الثالث عشر من رجبٍ من هذه السنة، رحمه الله وأكرم مثواه.

محمد بن خفيف، أبو عبدالله الشيرازيُّ، أحد مشاهير الصوفية، صحب الجريريَّ وابن عطاءٍ وغيرهما.

قال ابن الجوزيِّ: وقد ذكرتُ في كتابي المسمَّى بـ «تلبيس إبليس» عنه حكايات تدُلُّ على أنه يذهبُ مذهبَ الإباحية.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين وثلاثمائة

قال ابن الجوزيِّ: في المحرَّم جرى الماء الذي ساقه عضدُ الدولة إلى داره وبستانه.

وفي صفر فتح المارستانُ الذي أنشأه عضد الدولة في الجانب الغربيِّ من بغداد، وقد رتَّب فيه الأطبَّاء والخدَمَ، ونقلَ إليه من الأدوية والأشربة والعقاقير شيءٌ كثيرٌ.

وقال: وفيها توفِّي عضد الدولة، فكتم أصحابه وفاته حتى أحضروا ولده صمصام الدولة فولوه الأمر، وراسلوا الخليفة، فبعث إليه بالخلع والولاية.

ذكر شيء من أخبار عضد الدولة

أبو شجاع بن ركن الدولة أبي عليٍّ الحسن بن بويه الديلميُّ، صاحب العراق، وملك بغداد وغيرها.

وهو أول من تسمَّىٰ «شاهنشاه»، ومعناه ملكُ الملوك. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أوضع اسم - وفي رواية: أخنع اسم - عند الله رجلٌ تسمَّى ملك الأملاك إلا الله عز وجل».

وهو أول من ضربت له الدَّبادب ببغداد، وأول من خطب له بها مع الخليفة.

وذكر ابن خلكان أنه امتدحه الشعراء بمدائح هائلة كالمتنبِّي وغيره، فمن ذلك قول أبي الحسن محمد بن عبدالله السلاميِّ في قصيدة له:

إليك طوى عرض البسيطة جاعلٌ   قصارى المطايا أن يلوح لها القصرُ
فكنتُ وعزمي في الظلام وصارمي   ثلاثة أشياء كما اجتمع النسرُ
وبشَّرتُ آمالي بملك هو الورى   ودار هي الدنيا ويوم هو الدهرُ

ثم قال ابن خلكان: وهذا هو السحر الحلال.

وقال المتنبِّي:

هو الغرض الأقصى ورؤيتك المنى   ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق

قال ابن خلكان: وليس في الطلاوة كقول السلاميِّ، ولا استوفىٰ المعنىٰ كله؛ فإنه لم يذكر الدهر.

وقال أبو بكر أحمد الأرجانيُّ القاضي في قصيدة له بيتًا، فلم يلحق السلاميَّ أيضًا، وهو قوله:

لقيته فرأيتُ الناس في رجلٍ   والدهر في ساعة والأرض في دار

قال ابن خلكان: وكتب إليه أفتكين مولىٰ أخيه صاحب دمشق يستمده بجيش يقاتل به الفاطميِّين، فكتب إليه عضد الدولة: غرَّك عزُّك، فصار قصارُ ذلك ذلك، فاخش فاحش فعلك، فعلك بهذا تهدا.

قال ابن خلكان: ولقد أبدع فيها كلَّ الإبداع.

وقد جرىٰ له من التعظيم من الخليفة ما لم يقعْ لأحد ممن كان قبله، وقد ذكرنا أنه كان ذا همة وصرامة وعزم، اجتهد في عمارة بغداد والطرقات، وأجرىٰ النفقات والصدقات علىٰ المجاورين بالحرمين وأهل البيوتات، وحفر الأنهار، وبنىٰ المارستان العضديَّ، وأدار السُّور علىٰ مدينة الرسول ﷺ، وهذا كلُّه من مدة ملكه علىٰ العراق، وكانت خمس سنين، وقد كان عاقلاً فاضلاً، حسن السِّياسة، شديد الهيبة، بعيد الهمَّة، إلا أنه كان يتجاوزُ في سياسته الأمور الشرعية؛ كان يحبُّ جاريةً، فألهته عن تدبير المملكة، فأمر بتغريقها.

وبلغه أن غلامًا له أخذ لرجل بطيخةً، فضربه بسيف فقطعه نصفين، وهذه مبالغةٌ.

وكان سبب موته داء الصرع، وحين أخذته علة موته لم يكن له كلامٌ سوى تلاوة قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

وحكى ابن الجوزيِّ أنه كان يحبُّ العلم والفضيلة، وكان يقرأ عنده «كتاب إقليدس» وكتاب النحو لأبي عليٍّ الفارسيِّ، وهو «الإيضاحُ والتكملةُ» الذي صنفه له، وغير ذلك.

وقد ذكر أن له شعرًا، فمنه قوله وقد خرج مرةً إلى بستان له فقال: أودُّ لو جاء المطرُ. فنزل المطرُ فأنشأ يقول:

ليس شـرب الكأس إلا في المطر	وغناءٌ من جوار في السحرْ
غـانيات سالبات للنُّهى	ناغمات في تضاعيف الوترْ
راقصات زاهرات نُجل	رافلات في أفانين الحبرْ
مطربات محسنات مُجَّن	رافضات الهمِّ إبّان الفكرْ
مبرزات الكأس من مَخْزَنها	مُسْقيات الخمر من فاق البشرْ
عضد الدولة وابن ركنها	مالك الأملاك غلّابُ القدرْ
سهل الله له بغيته	في ملوك الأرض ما دار القمرْ
وأراه الخير في أولاده	ليُساسَ الملك فيهم بالغُررْ

قال: فيقال: إنه منذ قال: غلاب القدرْ. لم يفلحْ بعدها. وذكر غيره أن هذه الأبيات آخر ما أُنشدت فيه بين يديه، ثم كانت وفاته عقب ذلك، وكانت وفاته في شوّال من هذه السنة، عن سبع أو ثمانٍ وأربعين سنةً، وحمل إلى مشهد عليٍّ، فدفن فيه.

وقد كتب على قبره في التربة التي بنيت له عند مشهد عليٍّ: هذا قبر عضد الدولة وتاج المملكة أبي شجاع بن ركن الدولة، أحبَّ مجاورة هذا الإمام المتّقي لطمعه في الخلاص ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] والحمد لله وصلواته على محمد وعترته الطاهرة.

وقد تمثل عند موته بهذه الأبيات، وهي للقاسم بن عبيدالله:

قتلت صناديد الرجال فلم أدعْ	عدوا ولم أمهلْ على ظنِّه خلقَا
وأخْلَيتُ دور الملك من كل نازل	فشرَّدتهم غربًا وشرَّدتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزا ورفعةً	وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقّا
رماني الردى سهمًا فأخمد جمرتي	فها أنا ذا في حفرتي عاطلاً ملقَى
فأذهبت دنياي وديني سفاهةً	فمن ذا الذي مني بمصرعه أشقَى

ثم جعل يكرِّرُ هذه الآية: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩]. إلى أن مات كما ذكرنا.

وأجلس ابنه صمصام الدولة على الأرض، وعليه ثياب السَّواد، وجاءه الخليفة الطائعُ معزِّيًا،

وناح النساء عليه في الأسواق أيامًا كثيرةً، ولما انقضى العزاءُ ركب صمصامه إلى دار الخلافة، فخلع عليه الخليفة سبع خلع، وطوّق وسوِّر وألبسه التاج، ولقبه شمس الدولة، وولاه ما كان يتولاه أبوه من قبله، وكان يومًا مشهودًا.

محمد بن جعفر بن أحمد بن جعفر بن الحسن بن وهب، أبو بكر الحريريُّ المعروف بزوج الحرَّة، سمع ابن جرير والبغويَّ وابن أبي داود وغيرهم، وعنه ابن رزقويه وابن شاذان والبرقانيُّ، وقال: كان جليلاً، أحد العدول الثُّقات.

قال الخطيب وابن الجوزي: سبب تسميته بزوج الحرَّة أنه كان يدخل إلى مطبخ ابنة بدر مولى المعتضد، التي كانت زوجة المقتدر بالله، فلما توفي المقتدر، بقيت هذه المرأة سالمةً من الكتاب والمصادرات، كثيرة الأموال، وكان هذا وهو غلامٌ شابٌّ حدث السنِّ يحمل شيئًا من حوائج الطعام على رأسه، فيدخل به إلى مطبخها مع جملة الخدم، وكان شابًّا رشيقًا حركًا، فنفق على القهرمانة فقدمته حتى جعلته كاتبًا على المطبخ، ثم ترقت به الحال إلى أن صار وكيلا ينظر في الضياع والعقار، ثم آل به الحال حتى صارت الستُّ تحدثه من وراء حجاب، فعلقت به وأحبته، وسألته أن يتزوَّج بها، فاستصغر نفسه، وخاف من غائلة ذلك، فشجَّعته وأعطته مالاً جزيلاً ليظهر من الحشمة والسعادة ما يناسبها، ليتأهل لذلك، ثم شرعت تهادي القضاة والأكابر، ثم عزمت على تزويجه، ورضيت به عند حضور القضاة، واعترض أولياؤها عليها، فغلبتهم بالمكارمات والهدايا، ودخل عليها فمكثت معه دهرًا طويلاً، ثم توفِّيت قبله، فورث منها نحواً من ثلاثمائة ألف دينار، وطال عمره بعدها حتى كانت وفاته في هذه السنة، رحمه الله تعالى وإيانا بمنِّه وكرمه.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة

فيها: غلت الأسعار ببغداد حتى بلغ الكرُّ من الطعام إلى أربعة آلاف وثمانمائة، ومات كثيرٌ من الناس من الضعف في الطرقات جوعًا، ثم تساهل الحال في ذي الحجَّة منها. وجاء الخبر بموت مؤيد الدولة بن ركن الدولة، وأن أبا القاسم بن عبَّاد الوزير بعث إلى أخيه فخر الدولة، فولاه الملك مكان أخيه، فاستوزر ابن عبَّاد أيضًا على ما كان عليه، وخلع عليه، وأحسن إليه. ولما بلغ القرامطة موت عضد الدولة قصدوا البصرة ليأخذوها مع الكوفة، فلم يتمَّ لهم ذلك، ولكن صولحوا على مال كثير، فأخذوه وانصرفوا.

وممن توفي فيها من الأعيان:

بويه مؤيدُ الدولة بن ركن الدولة، كان ملكًا على بعض ما كان أبوه يملكه كما تقدم، وكان الصاحب أبو القاسم بن عبَّادٍ وزيره، وقد تزوَّج مؤيدُ الدولة هذا بزبيدة بنت عمِّه معزِّ الدولة، فغرم على عرسه بها سبعمائة ألف دينار، وهذا سرفٌ عظيمٌ.

بلكين بن زيري بن مناد الحميريُّ الصنهاجيُّ، ويسمَّىٰ أيضًا يوسف، وكان من أكابر أمراء المعزِّ، وقد استخلفه علىٰ بلاد إفريقيَّةَ حين سار إلىٰ القاهرة، وكان حسن السِّيرة، له أربعمائة حظيَّة، وقد بشر في ليلةٍ واحدةٍ بسبعة عشر ولدًا، وهو جدُّ باديسَ المغربيِّ.

سعيد بن سلام، أبو عثمان المغربيُّ أصله من بلاد القيروان، ودخل الشام، وصحب أبا الخير الأقطع، وجاور بمكة مدة سنين، وكان لا يظهر في المواسم، وكانت له كراماتٌ، وقد أثنىٰ عليه أبو سليمان الخطابيُّ وغيره، وروىٰ له أحوالٌ صالحةٌ، رحمه الله تعالىٰ.

عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عثمان بن المختار، أبو محمد المزنيُّ الواسطيُّ، يعرف بابن السقَّا، سمع عبدان وأبا يعلىٰ الموصليَّ وابن أبي داود والبغويَّ، وكان فهمًا حافظًا، دخل بغداد، فحدَّث بها مجالس كثيرةً، من حفظه، وكان يحضره الدارقطنيُّ وغيره من الحفَّاظ، فلم ينكروا عليه شيئًا، غير أنه حدَّث مرةً، عن أبي يعلىٰ بحديث أنكروه عليه، ثم وجدوه في أصله بخطِّ الصِّبا كما حدَّث به سواءً، فبرئ من عهدته، رحمه الله تعالىٰ، والله أعلم بالصواب.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وثلاثمائة

فيها: جرىٰ الصُّلحُ بين صمصام الدولة الملقَّب بشمس الدولة وبين عمِّه فخر الدولة بن ركن الدولة ابن بويه، فأرسل الخليفةُ لفخر الدولة خلعًا سنيَّةً وتحفًا.

قال ابن الجوزيِّ: وفي رجبٍ منها عمل عرسٌ في درب رباح، فسقطت الدار علىٰ من فيها، فهلك أكثر النساء بها، ونبشن من تحت الرَّدْم، فكانت المصيبةُ عامةً.

وفيها: كانت وفاةُ الحافظ أبي الفتح محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين الأزديِّ الموصليِّ[1] المصنف في الجرح والتعديل، وقد سمع الحديث من أبي يعلىٰ وطبقته، وضعَّفه كثيرٌ من حفَّاظ زمانه، واتهمه بعضهم بوضع حديث رواه لابن بويه حين قدم عليه بغداد، فساق بإسناده عن النبيِّ ﷺ أن جبريل كان ينزل عليه في مثل صورة ذلك الامير. فأجازه وأعطاه دراهم كثيرةً. والعجب - إن كان هذا صحيحًا - كيف راج هذا علىٰ أحد ممن له أدنىٰ فهم وعقل، وقد أرخ ابن الجوزيِّ وفاته في هذه السنة، وقد قيل: إنه توفي سنة تسع وستين.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الخطيب أبو يحيى عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة - بطنٌ من قضاعة. وقيل: من إياد - الفارقيُّ، خطيب حلب أيام سيف الدولة بن حمدان، ولهذا أكثر ديوانه الخطب الجهادية، ولم يُسبقْ إلىٰ مثل ديوانه هذا، ولا يلحق فيه - إلا أن يشاء الله - لأنَّه كان فصيحًا بليغًا ذكيًا دينًا ورعًا.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ٣٤٧) وما بعدها.

روى الشيخ تاجُ الدين الكِنْديُّ عنه أنه خطب يوم جمعة بخطبة المنام، ثم رأى في ليلة السبت رسول الله ﷺ في جماعةٍ من أصحابه بين المقابر، فلما أقبل عليه قال له: مرحبًا بخطيب الخطباء. ثم أومأ إلى القبور، فقال لابن نباتة: كيف تقول؟ قال: فقلت: كأنهم لم يكونوا للعيون قرَّةً، ولم يعدُّوا في الأحياء مرَّةً. فتمَّم لكلام ابن نباتة حتى انتهى إلى قوله: يوم تكونون شهداء على الناس - وأشار إلى الصحابة - ويكون الرسول عليكم شهيدًا. وأشار إلى رسول الله ﷺ. فقال: أحسنتَ أحسنتَ، ادنُه ادنُه. فقبَّل رسول الله ﷺ وجهه، وتفل في فيه، وقال: وفَّقك الله. فاستيقظ وبه من السُّرور أمرٌ كبيرٌ، وعلى وجهه نورٌ وبهاءٌ، ولم يعشْ بعد ذلك إلا ثمانية عشر يومًا، لم يستطعم فيها بطعام، ويوجد من فيه مثل رائحة المسك حتى مات، رحمه الله.

قال ابن الأزرق الفارقيُّ: ولد ابن نباتة في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، وتوفي في سنة أربع وسبعين. وهي هذه السنةُ، رحمه الله وإيانا. حكاه ابن خلكان.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وثلاثمائة

فيها: خلع الخليفة على صمصام الدولة، وسوَّره، وطوَّقه، وأركب على فرس بسرج ذهب، وبين يديه جنيبٌ مثله.

وفيها: ورد الخبر بأن اثنين من سادة القرامطة - وهما إسحاق وجعفرٌ - دخلا الكوفة في جحفل كبير، فانزعجت النفوس بسبب ذلك، وذلك لصرامتهم وشهامتهم؛ ولأن عضد الدولة مع شجاعته قد كان يصانعهم، وأقطعهم أراضي من واسط، وكذلك عزُّ الدولة من قبله أيضًا، فجهَّز إليهم جيشٌ من بغداد، فطردوهم عن تلك النواحي التي قد أكثروا فيها الفساد، وبطل ما كان في النفوس منهم، ولله الحمد والمنةُ.

وفيها: عزم صمصامُ الدولة على أن يضع مكسًا على الثياب الإبريسميَّات، فاجتمع الناس بجامع المنصور، وهمُّوا بتبطيل الجمعة، وكادت الفتنةُ تقعُ بينهم، فأعفوا من ذلك.

وفي ذي الحجَّة ورد الخبر بموت ابن مؤيِّد الدولة، فجلس صمصام الدولة للعزاء، وجاء إليه الخليفة الطائعُ في ثياب السواد والقرَّاءُ والأولياءُ بين يديه فقام إليه صمصام الدولة، وقبل الأرض بين يديه وتخاطبا في العزاء بألفاظ حسنةٍ، وانصرف الخليفةُ راجعًا إلى داره، وكان وقتًا مشهودًا.

وفيها: توفي الشيخ أبو عليٍّ بن أبي هريرة، واسمه الحسن بن الحسين، أحد مشايخ الشافعية، وله اختياراتٌ كثيرةٌ غريبةٌ، وقد ترجمناه في «الطبقات» بما فيه كفايةٌ. ولله الحمد.

الحسين بن علي بن محمد بن يحيى، أبو أحمد النيسابوريُّ، المعروف بحسينك، كانت تربيته عند ابن خزيمة وتلميذًا له، وكان يقدمه على أولاده، ويقرأ له ما لا يقرأه لغيره، وإذا تخلف ابن خزيمة عن مجالس السلطان بعث حسينك مكانه. ولما توفي ابن خزيمة كان عمر حسينك ثلاثًا

وعشرين سنةً، ثم عمِّر بعده دهرًا طويلاً، وكان من أكثر الناس عبادةً وقراءةً، لا يترك قيام الليل في حضر ولا سفر، ولا صيف ولا شتاء، كثير الصدقات والبر والصلات، وكان يحكي وضوء ابن خزيمة وصلاته، ولم ير في الأغنياء أحسن صلاةً منه، رحمه الله وأكرم مثواه، وصلّىٰ عليه الحافظُ أبو أحمد النيسابوريُّ.

أبو القاسم الداركيُّ: عبدالعزيز بن عبدالله بن محمد، أبو القاسم الداركيُّ، أحد أئمة الشافعية في زمانه، نزل نيسابور، ثم سكن بغداد إلىٰ أن مات بها، قال الشيخ أبو حامد الإسفرايينيُّ: ما رأيت أفقه منه. وحكىٰ الخطيب عنه أنه كان يسأل عن الفتوىٰ فيجيب بعد تفكُّر طويل، فربما كانت فتواه مخالفةً لمذهب الشافعيِّ وأبي حنيفة، فيقال له في ذلك، فيقول: ويلكم! روىٰ فلانٌ عن فلان عن رسول الله ﷺ كذا وكذا، فالأخذ به أولىٰ من القول بمذهب الشافعيِّ وأبي حنيفة، ومخالفتهما أسهل من مخالفة الحديث.

وقال القاضي ابن خلِّكان: وله في المذهب وجوهٌ جيدةٌ دالةٌ علىٰ متانة علمه، وكان يُتهم بالاعتزال، وكان قد أخذ الفقه عن الشيخ أبي إسحاق المروزيِّ، والحديث عن جدِّه لأمِّه الحسن بن محمد الداركيِّ، وهو أحد مشايخ الشيخ أبي حامد الإسفرايينيِّ، وأخذ عنه عامةُ شيوخ بغداد وغيرهم من أهل الآفاق، وكانت وفاته في شوال - وقيل: في ذي القعدة - من هذه السنة، وقد نيَّف علىٰ السبعين، رحمه الله تعالىٰ.

محمد بن أحمد بن محمد بن حسنويه، أبو سهل النيسابوريُّ، ويعرف بالحسنويِّ، كان فقيهًا شافعيًّا أديبًا محدِّثًا، مشتغلاً بنفسه عمَّا لا يعنيه، رحمه الله تعالىٰ.

محمد بن عبدالله بن محمد بن صالح، أبو بكر، الفقيه المالكيُّ، سمع من أبي عروبة، والباغنديِّ وأبي بكر بن أبي داود وغيرهم، وعنه البرقانيُّ، وله تصانيف في شرح مذهب مالك، وانتهت إليه رياسةُ مذهب مالك، وعُرض عليه القضاءُ فأباه، وأشار بأبي بكر الرازيِّ الحنفيِّ، فلم يقبل الآخر أيضًا. وكانت وفاته في شوال منها عن ستٍّ وثمانين سنةً، رحمه الله تعالىٰ.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وثلاثمائة

قال ابن الجوزيِّ: في المحرَّم منها كثرت الحمِّيات في بغداد، فهلك خلقٌ كثيرٌ. ولسبع خلون من ربيع الأول، وهو العشرون من تمُّوز، وقع مطرٌ كثيرٌ ببرقٍ. وفي رجب غلت الأسعار جدًّا ببغداد، وورد الخبر فيه بأنه كانت بالموصل زلزلةٌ عظيمةٌ سقط منها عمرانٌ كثيرٌ، ومات من أهلها أمَّةٌ عظيمةٌ.

وفيها: وقع بين صمصام الدولة وبين أخيه شرف الدولة، فاقتتلا فغلبه شرف الدولة، وأسره ودخل بغداد، فتلقَّاه الخليفةُ، وهنَّأه بالسلامة، ثم استدعىٰ شرف الدولة بفراش ليكحل صمصام الدولة، فاتفق موته، فكحل بعد موته، وهذا من غريب ما وقع.

وفي ذي الحجَّة قبل قاضي القضاة أبو محمد بن معروفٍ شهادة الحافظ أبي الحسن الدارقطنيِّ وأبي محمد بن عقبة، فذكر أن الدارقطنيَّ ندم على ذلك وقال: كان يقبلُ قولي على رسول الله ﷺ وحدي، فصار لا يقبل قولي على نقلي إلا مع غيري. فلا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وثلاثمائة

في صفر منها عقد مجلسٌ بحضرة الخليفة، فيه القضاة وأعيان الدولة، وجددت البيعة بين الطائع لله وبين شرف الدولة بن عضد الدولة، وكان يومًا مشهودًا.

ثم في ربيع الأول منها ركب شرف الدولة من داره في طيَّار إلى دار الخليفة، وزينت البلد، وضربت الطبول والدبادب، فخلع عليه الخليفة وطوَّقه وسوَّره وأعطاه لواءين، وعقد له على ما وراء داره، واستخلفه على ذلك، وكان في جملة من قدم مع شرف الدولة القاضي أبو محمد عبيدالله بن أحمد بن معروفٍ، فلمَّا رآه الخليفة قال:

مرحبًا بالأحبَّةِ القادمينا أوحشونا وطالما آنسونا

فقبَّل الأرض بين يدي الخليفة، ولمَّا قضيت البيعةُ دخل شرفُ الدولة إلى عند أخته امرأة الخليفة، فمكث عندها إلى العصر، والناس ينتظرونه، ثم خرج وسار إلى داره للتَّهنئة، وجاء الخاصَّةُ والعامَّةُ يهنِّئونه.

وفي هذه السنة اشتدَّ الغلاءُ جدًا. ثم لحقه فناءٌ كثيرٌ.

وفيها: توفيت أمُّ شرف الدولة، وكانت تركيةً أمَّ ولدٍ، فجاءه الخليفة فعزَّاه فيها.

وفيها: ولد لشرف الدولة ابنان توأمان، فهنِّئ بهما. والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أحمد بن الحسين بن عليٍّ، أبو حامد المروزيُّ، ويعرف بابن الطبريِّ، كان حافظًا للحديث مجتهدًا في العبادة، متقنًا، بصيرًا بالأثر، متفنِّنًا، فقيهًا حنفيًّا، درس على أبي الحسن الكرخيِّ، وصنَّف كتبًا في الفقه والتاريخ، وولِيَ قضاءَ القضاةِ بخراسان، ثم دخل بغداد وقد علتْ سنُّه، فحدَّث بها وكتب الناس عنه بانتخاب الدارقطنيِّ.

إسحاق بن المقتدر بالله، كانت وفاته ليلة الجمعة لسبع عشرة من ذي الحجَّة عن ستين سنةً، وصلَّى عليه ابنه القادر بالله، وهو إذ ذاك أميرٌ، ودفن في تربة جدته شغب أمِّ المقتدر، وحضر جنازته الأمراء والحجَّابُ والأعيانُ من جهة الخليفة ومن جهة شرف الدولة، وأرسل شرف الدولة من عزَّى الخليفة فيه، واعتذر إليه من عدم الحضور لوجع حصل له.

جعفر بن المكتفي بالله، وكان فاضلاً، توفي في هذه السنة أيضًا، رحمه الله تعالى.

أبو عليٍّ الفارسيُّ: الحسن بن أحمد بن عبدالغفار بن سليمان أبو عليٍّ النحويُّ، صاحب المصنفات؛ منها: «الإيضاح والتكملة». ولد ببلده، ثم دخل بغداد، وخدم الملوك، وحظي عند عضد الدولة، بحيث كان يقول: أنا غلامُ أبي عليٍّ في النحو. وحصَّل له الأموال، وقد اتهمه قومٌ بالاعتزال، وفضَّله قومٌ من النُّحاة من أصحابه على المبرِّد. وممَّن أخذ عنه: أبو الفتح عثمانُ بن جنِّي وغيره. وكانتْ وفاته في هذه السنة عن بضْع وتسعين سنةً، رحمه الله تعالى.

ستيتة بنت القاضي أبي عبدالله الحسين بن إسماعيل المحامليِّ، وتُكنَّى أمَةَ الواحد، قرأت القرآن، وحفظت الفقه والفرائض والحساب والدورَ والنحوَ وغير ذلك، وكانت من أعلم الناس في وقتها بمذهب الشافعيِّ، وكانت تفتي به مع الشيخ أبي عليٍّ بن أبي هريرة، وكانت فاضلةً في نفسها، كثيرة الصدقة، مسارعة إلى فعل الخيرات، وقد سمعت الحديث وحدثتْ أيضًا. وكانت وفاتها في رمضان عن بضع وتسعين سنةً. رحمها الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة

في المحرم منها كثر الغلاء والفناء ببغداد، وفي شعبان كثرت الرياحُ العواصف، بحيث هدمتْ شيئًا كثيرًا من الأبنية، وغرقتْ سفنًا كثيرةً، واحتملتْ بعض الزَّوارق فألقتْه بالأرض من ناحية جوى، وهذا أمرٌ هائلٌ وخطبٌ شاملٌ. وفي هذا الوقت لحق أهل البصرة حرٌّ شديدٌ، بحيث سقط كثيرٌ من الناس في الطرقات، وماتوا من شدَّة الحرِّ.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الحسين بن عليٍّ بن ثابت، أبو عبدالله المقرئ الحافظ، ولد أعمى، وكان يحضر مجلس ابن الأنباريِّ، فيحفظ ما يمليه كلَّه. وكان ظريفًا حسن الزِّيِّ، وقد سبق الشاطبيَّ إلى قصيدةٍ عملها في القراءات السبع، وذلك في حياة النَّقَّاش المفسِّر، وكانت تعجبُه وتعجبُ شيوخ زمانه.

الخليل بن أحمد القاضي، شيخ الحنفية في زمانه، وكان مقدَّمًا في الفقه والحديث، سمع ابن خزيمة والبغويَّ وابن صاعد وغيرهم، وهذا سميُّ النحويِّ المتقدِّم.

زياد بن محمد بن زياد بن الهيثم، أبو العباس الخرخانيُّ؛ بخاءين معجمتين، نسبةً إلى قريةٍ من قرى قومس، ولهم الجرجانيُّ بجيمين، وهم جماعةٌ، ولهم الخرجانيُّ بخاء ثم جيم. وقد حرَّر هذا الموضع الشيخ أبو الفرج ابن الجوزيِّ في «منتظمه»، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وثلاثمائة

فيها كانت وفاة شرف الدولة بن عضد الدولة بن بويه الديلمي، وكان قد انتقل إلى قصر معز الدولة عن إشارة الأطبَّاء لصحة الهواء، وذلك لشدة ما كان يجده من الداء، فلما كان في جمادى الأولى تزايد به المرض ومات في هذا الشهر، وقد عهد إلى ابنه أبي نصر، وجاء الخليفة في طيَّار لتعزية أبي نصر في والده شرف الدولة، فتلقَّاه أبو نصر، والتُّرْكُ والديْلمُ بين يديه، فقبَّل الأرض بين يدي الخليفة، وكذلك بقيةُ العسكر، والخليفة في الطيَّار وهم يقبِّلون الأرض إلى ناحيته. وجاء الرئيسُ أبو الحسن عليُّ بن عبدالعزيز من عند الخليفة إلى أبي نصر، فبلغه تعزية الخليفة له فقبَّل الأرض ثانيةً، وعاد الرسول إلى الخليفة، فبلغه شكر أبي نصر، ثم عاد الرسول من جهة الخليفة لتوديع أبي نصر، فقبَّل الأرض ثالثًا، ورجع الخليفةُ في طيَّاره إلى داره.

فلما كان يوم السبت عاشر هذا الشهر، ركب الأمير أبو نصر إلى حضْرة الخليفة الطائع لله، ومعه الأشراف والأعيانُ والقضاةُ والأمراء، وجلس الخليفةُ في الرواق، فلمَّا وصل الأمير أبو نصر بن شرف الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه خلع عليه الخليفة سبع خلع، أعلاهن السَّوادُ وعمامةٌ سوداءُ، وفي عنقه طوقٌ، وفي يده سواران، ومشى الحجَّابُ بين يديه بالسيوف والمناطق، فلمَّا حصل بين يدي الخليفة قبَّل الأرض، فأومأ إليه بالجلوس، فقبَّل الأرض ثانيةً، ووضع له كرسيٌّ فجلس عليه، وقرأ الرئيسُ أبو الحسن عليُّ بن عبدالعزيز عهده، وقدَّم إلى الطائع لواءه، فعقده بيده، ولقبه بهاء الدولة وضياء الملة، ثم خرج من بين يديه، والعسكر معه حتى عاد إلى دار المملكة، وأقرَّ الوزير أبا منصور بن صالحان على الوزارة، وخلع عليه.

وفي هذه السنة بني جامعُ القطيعة - قطيعة أمِّ جعفر - بالجانب الغربيِّ من بغداد، وكان أصل بنائه مسجدًا أن امرأةً رأت في المنام رسول الله ﷺ في ذلك المكان يصلِّي، ووضع يده في جدار هناك، فلما أصبحتْ، تذكرت ذلك المنام، فوجدوا أثر الكفِّ في ذلك الموضع، فبُني مسجدًا، ثم توفيت تلك المرأةُ في ذلك اليوم، ثم إن الشريف أبا أحمد الموسويَّ جدَّد هذا المسجد، فوسعه وجعله جامعًا، واستأذن الخليفة الطائع لله في عقد جمعةٍ فيه فأذن له، وصُلِّيَ بالناس فيه في هذه السنة.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان:

شرف الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه الديلميُّ، تملك بغداد بعد أبيه، وكان يحبُّ الخير ويبغض الشرَّ، وأمر بترك المصادرات، وكان مرضه بالاستسقاء، فتزايد به حتى كانت وفاته ليلة الجمعة الثاني من جمادى الآخرة عن ثمان وعشرين سنةً، وخمسة أشهر، وكانت مدةُ ملكه سنتين وثمانية أشهر، وحمل تابوته إلى تربة أبيه بمشهد عليٍّ، وكلُّهم فيه تشيُّعٌ.

محمد بن جعفر بن العباس بن جعفر، أبو بكر النَّجَّارُ، ويلقبُ غندرًا أيضًا، روى عن أبي بكر

النيسابوريُّ وطبقته، وكان فهمًا يحفظ القرآن حفظًا حسنًا، ومن ثقات الناس.

محمد بن جعفر بن محمد بن عبدالكريم بن بديل، أبو الفضل الخزاعيُّ الجرجانيُّ، قدم بغداد، وحدَّث بها. قال الخطيبُ: كانت له عنايةٌ بالقراءات، وصنَّف أسانيدها، ثم ذكر لي أنه كان يخلط، ولم يكنْ مأمونًا على ما يرويه، وأنه وضع كتابًا في الحروف، ونسبه إلى أبي حنيفة، فكتب الدارقطنيُّ وجماعةٌ أن هذا الكتاب موضوعٌ لا أصل له، فافتضح وخرج من بغداد إلى الجبل، فاشتهر أمره هناك، وحبطت منزلته، وكان يسمِّي نفسه أولاً كميلاً، ثم غيَّره إلى محمد.

محمد بن المظفر بن موسى بن عيسى بن محمد بن عبدالله بن سلمة بن إياس، أبو الحسين البزَّاز الحافظ، ولد في محرَّم سنة ثلاثمائة ورحل إلى بلادٍ شتَّى، وروى عن ابن جرير والبغويِّ وخلقٍ، وروى عنه جماعةٌ من الحفَّاظ - منهم الدارقطنيُّ - شيئًا كثيرًا، وكان يعظمه، ويجلُّه ولا يستندُ بحضرته، وكان ابن المظفَّر ثقةً ثبتًا، وكان قديمًا ينتقي على المشايخ، ثم كانت وفاته يوم الجمعة، ودفن يوم السبت لثلاثٍ خلون من جمادى الأولى أو الآخرة من هذه السنة.

ثم استهلت سنة ثمانين وثلاثمائة من الهجرة

فيها: قلَّد الشريف أبو أحمد الحسن بن موسى الموسويُّ نقابة الأشراف الطالبيين، والنظر في المظالم وإمرة الحاجِّ، وكتب عهده بذلك، واستخلف له ولداه المرتضى أبو القاسم والرضيُّ أبو الحسن على النقابة، وخلع عليهما من دار الخلافة.

وفيها: تفاقم أمر العيَّارين ببغداد، وصار الناس أحزابًا، في كلِ محلةٍ أميرٌ مقدمٌ، واقتتل الناس، وأخذت الأموال، واتصلت الكبساتُ، وأحرقت الدورُ الكبار، ووقع حريقٌ بالنهار في نهر الدَّجاج، فاحترق بسببه شيءٌ كثيرٌ للناس.

وممن توفي فيها من الأعيان:

يعقوب بن يوسف، أبو الفرج بن كلس، وزير صاحب مصر العزيز بن المعزِّ الفاطميِّ، وكان شهمًا فهمًا، ذا همَّةٍ عالية، وتدبير جيد، وكلمة نافذة عند مخدومه، وقد فوَّض إليه أموره في سائر مملكته، ولما مرض عاده العزيز، ووصَّاه الوزير فيما يتعلَّق بمملكته، ولما مات دفنه في قصره، وتولى دفنه بيده، وحزن عليه كثيرًا، وأغلق الديوان أيامًا من شدة حزنه عليه.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة

فيها كان القبض على الخليفة الطائع لله، وخلافة القادر بالله أبي العباس أحمد بن الأمير إسحاق ابن المقتدر بالله، وكان ذلك في يوم السبت التاسع عشر من شعبان من هذه السنة؛ وذلك أنه جلس الخليفة على عادته في الرِّواق، وقعد الملك بهاء الدولة على السَّرير، ثم أرسل من اجتذب الخليفة بحمائل سيفه عن السرير، ولفُّوه في كساءٍ، وحملوه إلى الخزانة بدار المملكة، وتشاغل الناس

بالنَّهب، ولم يدْر أكثر الناس ما الخطب ولا ما الخبر، حتى إن كثيراً منهم يظنُّ أنَّ الملك بهاء الدولة هو الذي مسك، فنهبت الخزائن والحواصل وشيءٌ كثيرٌ من أثاث دار الخلافة، حتى أخذت ثياب الأعيان والقضاة والشُّهود، وجرت كائنةٌ عظيمةٌ جداً، ورجع بهاء الدولة إلى داره، وكتب على الطائع كتابًا بالخلع، وشهد عليه الأشراف والقضاةُ أنه قد خلع نفسه عن الخلافة وسلمها إلى القادر بالله، ونودي بذلك في الأسواق، وتشغبت الديلم والأتراك، وطالبوا برسم البيعة، وراسلوا بهاء الدولة في ذلك، وتطاول الأمر إلى يوم الجمعة، فلم يمكنوا من الدعاء له على المنبر بصريح اسمه، بل قيل: اللهم أصلحْ عبدك وخليفتك القادر بالله. ولم يسمَّ، ثم أرضى وجوههم وأكابرهم، وأخذت البيعةُ على الجماعة، واتفقت الكلمة، وأمر بهاء الدولة بتحويل جميع ما في دار الخلافة من الأواني والفرش والأثاث وغير ذلك إلى داره، وأبيحت للعامَّة والخاصَّة، فقلعوا أبوابها وشبابيكها وشعَّثوا أبنيتها، ثم منعوا بعد ذلك، هذا كلُّه والخليفةُ القادر بالله قد هرب إلى أرض البطيحة من الطائع حين كان يطلبه، ولما ركب إلى بغداد منعته الديلم من الدخول إليها حتى يعطيهم رسم البيعة، وجرت بينهم خطوبٌ طويلةٌ، ثم رضوا عنه، ودخل بغداد، وكان يومًا مشهودًا، وكانت مدة هربه بأرض البطيحة قريبًا من ثلاث سنين، وجلس في اليوم الثاني من مقدمه جلوسًا عامًّا للتهنئة وسماع المدائح والقصائد فيه، وذلك في العشر الأواخر من رمضان، وفي العشر الأواخر من شوال اجتمع الناس لبيعة بهاء الدولة وتفويض الخليفة إليه ما وراء بابه، وكان يومًا مشهودًا.

وقد كان الخليفة القادر بالله من خيار الخلفاء وسادات العلماء في أهل زمانه وأقرانه، رحمه الله، وكان كثير الصدقة، حسن الاعتقاد، وصنَّف عقيدةً فيها فضائل الصحابة وغير ذلك، فكانت تقرأ في حلق أصحاب الحديث كلَّ جمعةٍ في جامع المهديِّ، وتجتمعُ الناس لسماعها مدة خلافته، وكان ينشد هذه الأبيات يترنمُ بها، وهي لسابقٍ البربريِّ:

سبق القضاء بكل ما هو كائن ... والله يا هذا لرزقك ضامنُ
تعنى بما تكفي وتترك ما به ... تغنى كأنك للحوادث آمنُ
أو ما ترى الدنيا ومصرع أهلها ... فاعملْ ليوم فراقها يا خائنُ
واعلم بأنك لا أبا لك في الذي ... أصبحتَ تجمعه لغيرك خازنُ
يا عامر الدنيا أتعمُرُ منزلاً ... لم يبقَ فيه مع المنية ساكنُ
الموتُ شيءٌ أنت تعلمُ أنه ... حقٌّ وأنت بذكره متهاونُ
إن المنيَّة لا تؤامرُ من أتت ... في نفسه يومًا ولا تستأذنُ

وفي اليوم الثامن عشر من ذي الحجَّة من هذ السنة - وهو يوم غدير خمٍّ - جرت فتنةٌ بين الروافض والسُّنَّة، واقتتلوا فقتل خلقٌ كثيرٌ. واستظهر أهل باب البصرة، وخرَّقوا أعلام السُّلطان، فقتل جماعةٌ اتُّهموا بفعل ذلك، وصلبوا على القنطرة ليرتدع أمثالهم.

وفيها: ظهر أبو الفتوح الحسن بن جعفر العلويُّ أمير مكة، وادَّعى أنه خليفةٌ، وسمَّى نفسه

بالراشد بالله، فمالأه أهل مكة، وحصل له أموالٌ من رجل أوصَىٰ له بها، فانتظم أمرُه بسببها، وتقلَّد سيفًا زعم أنه ذو الفقار، وأخذ في يده قضيبًا زعم أنه كان لرسول الله ﷺ، ثم قصد بلاد الرَّمْلة ليستعين بعرب الشام، فتلقَّوه بالرُّحْب وقبَّلوا له الأرض، وسلَّموا عليه بأمير المؤمنين، وأظهر الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وإقامة الحدود، ثم إن الحاكم صاحب مصر - وكان قد قام بالأمر من بعد أبيه العزيز في هذه السنة - كتب إلىٰ عرب الشام ملطفاتٍ، ووعدهم من الذهب بألوف ومئاتٍ، وكذلك إلىٰ عرب الحجاز، واستتاب علىٰ مكة أميرًا، وبعث إليه بجاريةٍ وخمسين ألف دينار، فانتظم أمر الحاكم، وتمزَّق شمل الراشد، وتسحَّب إلىٰ بلاده كما بدأ منها، وعاد إليها، وكان عوده إليها كما رحل عنها، واضمحلَّ حاله، وانتقضت حباله، وتفرَّق عنه رجاله، والله يفعلُ ما يشاء ويختارُ.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أحمد بن الحسين بن مهران، أبو بكر المقرئُ[1]، وكانت وفاته في شوال منها عن ستٍّ وثمانين سنةً، واتفق له أنه مات في يوم وفاته أبو الحسن العامريُّ الفيلسوف، فرأىٰ بعض الصالحين أحمد بن الحسين هذا في المنام، فقال له: يا أستاذ، أيُّ شيءٍ فعل الله بك؟ فقال: أقام أبا الحسن العامريَّ إلىٰ جانبي وقال: هذا فداؤك من النار.

عبيدالله بن أحمد بن معروف، أبو محمد، قاضي القضاة ببغداد، روىٰ عن ابن صاعد، وعنه الخلال والأزهريُّ وغيرهما، وكان من العلماء الثقات الألباء العقلاء الفطناء، حسن الشَّكل، جميل الملبس، عفيفًا عن الأموال، وكان عمره يوم توفي خمسًا وسبعين سنةً، وصلَّىٰ عليه أبو أحمد الموسويُّ، فكبَّر عليه خمسًا، ثم صلَّىٰ عليه ابنه بجامع المنصور، فكبَّر عليه أربعًا، ثم دفن في داره، رحمه الله تعالىٰ.

جوهر بن عبدالله القائد، باني القاهرة المعزِّية، أصله روميٌّ، ويعرف بالكاتب، أرسله مولاه المعزُّ بن المنصور بن القائم بن المهديِّ المدَّعي أنه فاطميٌّ من إفريقية لأخذ مصر عند اضطراب جيشها بعد موت كافور الإخشيديِّ، فأقاموا عليهم أحمد بن عليِّ بن الإخشيد، فلم يجتمعوا عليه، فأرسل بعضهم إلىٰ المعزِّ يستنجد به، فأرسل مولاه جوهرًا هذا في ربيع الأول سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة، فوصل إلىٰ القاهرة في شعبان منها في مائة ألف مقاتل، ومعه من الأموال ألفٌ ومائتا صندوقٍ لينفقه في ذلك، فانزعج الناس وأرسلوا يطلبون منه الأمان فأمنهم، فلم يرض الجيش بذلك، وبرزوا لقتاله فكسرهم، وجدَّد الأمان لأهلها، ودخلها يوم الثلاثاء لثمان عشرة خلت من شعبان، فشقَّ مصر، ونزل في مكان القاهرة اليوم، وأسَّس من ليلته القصرين، وخطب يوم الجمعة الآتية، فقطع خطبة بني العباس وعوَّض بمولاه، وذكر الأئمة الاثنيْ عشرَ، وأذَّن بحيَّ علىٰ خير العمل، وكان يظهر الإحسان إلىٰ الناس، ويجلس كلَّ يوم سبتٍ مع الوزير

(١) ترجمته في «السير» (١٦/٤٠٦-٤٠٧).

جعفر بن الفرات والقاضي، واجتهد في تكميل القاهرة، وفرغ من جامعها سريعًا، وخطب به في سنة إحدىٰ وستين، وهو الذي يقال له: جامع الأزهر. ثم أرسل جعفر بن فلاح إلىٰ الشام فأخذها للمعزِّ، وقدم مولاه المعزُّ في سنة ثنتين وستين كما تقدَّم، فنزل بالقصرين، ولم تزلْ منزلته عاليةً عنده، ثم كانت وفاته في هذه السنة، وقام في منصبه وعظمته ابنه الحسين الذي كان يقال له: قائد القوَّاد. وهو أكبر أمراء الحاكم بن العزيز بن المعزِّ، ثم كان قتله علىٰ يديه في سنة إحدىٰ وأربعمائة، وقتل معه صهره زوج أخته القاضي عبدالعزيز بن النعمان، وأظنُّ هذا القاضي هو مصنف كتاب «البلاغ الأكبر والناموس الأعظم»، الذي فيه من الكفر ما لم يصل إبليس إلىٰ مثله، وقد ردَّ علىٰ هذا الكتاب القاضي أبو بكر الباقلانيُّ، رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين وثلاثمائة

في عاشر المحرَّم منها رسم الوزير أبو الحسن عليُّ بن محمد الكوكبيُّ - ويعرف بابن المعلم، وكان قد استحوذ علىٰ أمور السُّلطان - لأهل الكرخ وباب الطاق من الرافضة بأن لا يفعلوا شيئًا من تلك البدع التي كانوا يتعاطونها في عاشوراء؛ من تعليق المسوح وتغليق الأسواق والنياحة علىٰ الحسين، فلم يفعلوا شيئًا من ذلك، ولله الحمد.

وكان هذا الرجل من أهل السُّنة إلا أنه كان طماعًا؛ رسم بأن لا يقبل أحدٌ من الشهود ممَّن استحدث عدالته بعد ابن معروف، وكان كثيرٌ منهم قد بذل أموالاً جزيلةً في ذلك، فاحتاجوا إلىٰ أن جمعوا له شيئًا، فوقَّع لهم بالاستمرار.

ولما كان في جمادىٰ الآخرة سعت الديلمُ والتركُ علىٰ ابن المعلم هذا، وخرجوا بخيامهم إلىٰ باب الشَّمَّاسية، وراسلوا بهاء الدولة ليسلمه إليهم، لسوء معاملته إياهم، فدافع عنه السلطان مدافعةً عظيمةً، في مراتٍ متعددةٍ، ولم يزالوا يراسلونه في أمره حتىٰ خنق أبا الحسن بن المعلم في حبل، ومات ودفن بالمخرِّم.

وفي رجب من هذه السنة سلَّم الخليفة الطائع لله الذي خلع إلىٰ أمير المؤمنين خليفة الوقت أبي العباس القادر بالله، فأمر بوضعه في حجرة من دار الخلافة، وأمر أن تجري عليه الأرزاق والتحف والألطاف، مما يستعمله الخليفة القادر من مأكل وملبس وطيب، ووكل به من يحفظه ويخدمه، وكان يتعنَّتُ ويتعتب علىٰ القادر في تقلله في المآكل والملبس، فرتب من يخدمه ويحضر له ما يشتهيه من سائر الأنواع، ولم يزل كذلك حتىٰ توفي وهو في السجن.

وفي شوال منها ولد للخليفة القادر ولدٌ ذكرٌ، وهو أبو الفضل محمد بن القادر بالله، وقد ولاه العهد من بعده، وسمَّاه الغالب بالله، فلم يتمَّ له الأمرُ.

وفي هذا الوقت غلت الأسعار ببغداد حتىٰ بيع رطل الخبز بأربعين درهمًا، والجوزة بدرهم.

وفي ذي القعدة قدم صاحبُ الأصيفرُ الأعرابيُّ، والتزم بحراسة الحجاج في ذهابهم وإيابهم، وبشرط أن يخطب للقادر من اليمامة والبحرين إلى الكوفة، فأجيب إلى ذلك، وأطلقت له الخلع والأموال والألوية.

وممن توفي فيها من الأعيان:

محمد بن العباس بن محمد بن زكريا بن يحيى بن معاذ، أبو عمر الخزّاز، المعروف بابن حيّويه، سمع البغويَّ والباغنديَّ وابن صاعدٍ وخلقًا كثيرًا، وانتقى عليه الدارقطنيُّ، وسمع منه الأعيانُ، وكان ثقةً دينًا متيقظًا، ذا مروءةٍ، وكتب من الكتب الكبار كثيرًا بيده، وكانت وفاته في ربيع الآخر منها، وقد قارب التسعين، رحمه الله.

الحسن بن عبدالله بن سعيد، أبو أحمد العسكريُّ[1]، أحد الأئمة في اللغة والأدب والنحو والنَّوادر، وله في ذلك تصانيف مفيدةٌ، منها «التصحيف» وغيره، وكان الصاحب بن عبَّاد يودُّ الاجتماع به، فسافر إلى عسكر مكرم حتى اجتمع به، فأكرمه وراسله بالأشعار. توفي فيها وله تسعون سنةً. كذا أرخه القاضي ابن خلكان، وذكره ابن الجوزيِّ فيمن توفي في سنة سبع وثمانين كما سيأتي، إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة

فيها: أمر القادر بالله بعمارة مسجد الحربية وكسوته، وأن يجري مجرى الجوامع في الخطب وغيرها، وذلك بعد أن استفتى العلماء في جواز ذلك، فلمّا أفتوه به فعله وأمر به.

قال الخطيب البغداديُّ: أدركت الجمعة تقام ببغداد في مسجد المدينة، ومسجد الرصافة، ومسجد دار الخلافة، ومسجد براثا، ومسجد قطيعة أمِّ جعفر، ومسجد الحربية. قال: ولم يزل الأمر على هذا إلى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، فتعطلت في مسجد براثا.

وفي جمادى الأولى فرغ من الجسر الذي بناه بهاء الدولة في مشرعة القطانين، واجتاز عليه هو بنفسه، وقد زيِّن المكان واحتفل به. وفي جمادى الآخرة شغبت الديالم والأتراك لتأخُّر العطاء عنهم، وغلاء الأسعار، وراسلوا بهاء الدولة، فأزيحت أعذارهم وعللهم.

وفي يوم الخميس الثاني من ذي الحجة من هذه السنة تزوَّج الخليفة سكينة بنت بهاء الدولة، على صداقٍ مائة ألف دينار، وكان وكيل أبيها الشريف أبو أحمد الموسويُّ، وقد توفيت هذه المرأة قبل دخول الخليفة بها.

وفي هذه السنة ابتاع الوزير أبو نصر سابور بن أزدشير دارًا بالكرخ، وجدَّد عمارتها وبيضها،

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ٤١٣-٤١٥).

ونقل إليها كتبًا كثيرةً، ووقفها على الفقهاء، وسمَّاها دار العلم. وأظنُّ أن هذه أول مدرسةٍ وقفت على الفقهاء، والله أعلم. وارتفعت الأسعارُ في أواخر هذه السنة جدًا، وضاق الحال، وجاع العيال.

ومن توفي فيها من الأعيان:

أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن شاذان بن حرب بن مهران، أبو بكر البزاز، سمع الكثير من البغويِّ وابن صاعدٍ وابن دريد وابن أبي داود، وعنه الدارقطنيُّ والبرقانيُّ والأزهريُّ وغيرهم، وكان ثقةً ثبتًا صحيح السماع. كثير الحديث، متحريًا ورعًا. توفي في هذه السنة عن خمس وثمانين سنةً، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وثلاثمائة

فيها عظم الخطب بأمر العيارين، وعاثوا ببغداد فسادًا، وأخذوا العملات الثقال ليلاً ونهارًا، وحرَّقوا أماكن كثيرةً، وأخذوا من الأسواق الجبايات، وتطلبهم الشُّرط، فلم يفدْ ذلك شيئًا، ولا فكروا فيهم، بل استمروا على ما هم عليه من أخذ الأموال، وقتل الرجال، وإرعاب النساء والأطفال، في سائر المحالِّ. فلما تفاقم الحال بهم تطلبهم السلطان بهاء الدولة، وألحَّ في طلبهم، فهربوا من بين يديه، واستراح الناس من شرِّهم.

وفي ذي القعدة عزل الشريف أبو أحمد الحسين بن موسى الموسويُّ وولداه اللذان كانا واليَّيْ عهده من بعده عن نقابة الطالبيين.

ورجع ركبُ العراق في هذه السنة من أثناء الطريق بعد ما فاتهم وقت الحجِّ، وذلك أن الأصيفر الأعرابيَّ الذي كان قد تكفَّل بحراستهم اعترض لهم في أثناء الطريق، وذكر لهم أن الدنانير التي كانت أطلقت له من دار الخلافة كانت دراهم مطليَّة، وأنه يريد بدلها من الحجيج، وإلا لم يتركهم يجاوزوا هذا الموضع، فمانعوه وراجعوه، فحبسهم عن المسير حتى ضاق الوقت، ولم يبق منه ما يلحقوا الحجَّ فيه، فرجعوا إلى بلادهم، ولم يحجَّ منهم أحدٌ، وكذلك لم يحجَّ من الركب الشاميِّ ولا أهل اليمن أحدٌ، وإنما حجَّ أهل مصر والمغرب خاصَّة.

وفي يوم عرفة قلد الشريف أبو الحسن الزينبيُّ محمد بن عليِّ بن أبي تمام الزينبيُّ نقابة العباسيين، وقرئ عهده بين يدي الخليفة بحضرة القضاة والأعيان.

ومن توفي فيها من الأعيان:

أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون بن حبُّون الحرانيُّ الكاتب الصابئ، صاحب التصانيف والرسائل للخليفة ولعزِّ الدولة بن بويه، وكان على دين الصابئة إلى مماته، وكان مع هذا يصوم رمضان ويقرأ القرآن من حفظه، وكان يحفظه حفظًا حسنًا، ويستعمل منه في رسائله، وكانوا

يحرصون على أن يسلم، فلم يفعلْ، وله شعرٌ جيدٌ قويٌّ. وكانت وفاته في شوال من هذه السنة، وقد جاوز السبعين. وقد رثاه الشريف الرضيُّ، وقال: إنما رثيتُ فضائله.

عبيدالله بن محمد بن نافع بن مكرم، أبو العباس البشتيُّ الزاهد، ورث من آبائه أموالاً كثيرةً، فأنفقها كلها في وجوه الخير والقربات، وكان كثير العبادة، يقال: إنه مكث سبعين سنةً لا يستند إلى حائط ولا إلى شيء، ولا يتكئ على وسادة، وحجَّ من نيسابور ماشيًا حافيًا، ودخل الشام، وأقام ببيت المقدس شهورًا، ثم دخل مصر وبلاد المغرب، وحجَّ من هناك، ثم رجع إلى بلده بشت، وكانت له بقية أموال وأملاك، فتصدَّق بها. ولما حضرته الوفاة جعل يتألم ويتوجع، فقيل له: ما هذا؟ فقال: أرى بين يديَّ أمورًا هائلةً، ولا أدري كيف أنجو منها.

وكانت وفاته في المحرَّم من هذه السنة عن خمس وثمانين سنةً. وليلة موته رأت امرأةٌ أمَّها بعد وفاتها وعليها ثيابٌ حسانٌ وزينةٌ فقالت: يا أمَّهْ، ما هذا؟ فقالت: نحن في عيد من قدوم عبيدالله الزاهد علينا. رحمه الله تعالى.

عليُّ بن عيسى بن عليِّ بن عبدالله أبو الحسن النحويُّ المعروف بالرمانيِّ، روى عن ابن دريدٍ، وكانت له يدٌ طولى في النحو واللغة والمنطق والكلام، وله تفسيرٌ كبيرٌ، وشهد عند ابن معروف فقبله، وروى عنه التنوخيُّ والجوهريُّ. توفي عن ثمان وثمانين سنةً، ودفن في الشونيزيَّة عند قبر أبي عليٍّ الفارسيِّ.

قال ابن خلكان: والرمانيُّ نسبةً إلى بيع الرمَّان، أو إلى قصْرِ الرمَّان بواسطٍ.

محمد بن العباس بن أحمد بن محمد بن الفرات، أبو الحسن الكاتب المحدث الثقة المأمون: قال الخطيب البغداديُّ: كان ثقةً، كتب الكثير، وجمع ما لم يجمعه أحدٌ في وقته، بلغني أنه كتب مائة تفسير ومائة تاريخ، وخلف ثمانية عشر صندوقًا مملوءةً كتبًا، أكثرها بخطه سوى ما سرق منه، وكان خطُّه في غاية الصحة، ومع هذا كان له جارية تعارض معه ما يكتبه، رحمه الله تعالى.

محمد بن عمران بن موسى بن عبيدالله أبو عبيدالله، الكاتب المعروف بابن المرزبان، روى عن البغويِّ وابن دريد وغيرهما، وكان صاحب أخبار وآداب، وصنَّف كتبًا كثيرة في فنونٍ مستحسنةٍ. وكان مشايخه وغيرهم يحضرون عنده، ويبيتون في داره في فرش وأطعمة وغير ذلك، وكان عضد الدولة إذا مرّ بداره لا يجتاز حتى يرسل إليه ليخرج فيسلم عليه، وكان أبو عليٍّ الفارسيُّ يقول: هو من محاسن الدنيا. وقال العتيقيُّ: كان ثقةً. وقال الأزهريُّ: ما كان ثقةً. وقال ابن الجوزيِّ: لم يكنْ من الكذَّابين، وإنما كان فيه تشيُّعٌ واعتزالٌ، ويخلط السماع بالإجازة، وبلغ ثمانيةً وثمانين سنةً. رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وثلاثمائة

فيها استوزر فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه أبا العباس أحمد بن إبراهيم الضَّبِّيَّ الملقبَ بالكافي، وذلك بعد وفاة الصاحب إسماعيل بن عبَّاد، وكان من مشاهير الوزراء.

وفيها قبض بهاء الدولة على القاضي عبدالجبَّار، وصادره بأموال جزيلة، فكان من جملة ما بيع في المصادرة ألف طيلسانٍ وألفُ ثوبٍ مغربيٍّ.

وحجَّ بالناس في هذه السنة وما قبلها وما بعدها المصريون، والخطبةُ في الحرمين لهم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الصاحب بن عبَّاد وهو إسماعيل بن عباد بن عباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطالقانيُّ[1]، أبو القاسم الوزير الشهير الملقب بكافي الكفاة، وزر لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه. وقد كان من العلم والفضيلة والبراعة والكرم والإحسان إلى العلماء على جانب عظيم، كان يبعث في كل سنة إلى بغداد بخمسة آلاف دينار لتفرَّق على أهل العلم، وله اليد الطولى في الأدب، وله مصنفاتٌ في فنون العلم، واقتنى كتبًا كثيرةً كانت تحمل على أربعمائة بعير، ولم يكن في وزراء بني بويه الديالمة مثله ولا قريبٌ منه في مجموع فضائله، وقد كانت دولة بني بويه مائةً وعشرين سنةً وكانت وزارته ثمانية عشر سنةً وأشهرًا، وفتح خمسين قلعةً لمخدومه مؤيد الدولة، وابنه فخر الدولة، لصرامته وشهامته وحسن تدبيره وجودة آرائه، وكان يحبُّ العلوم الشرعية، ويبغضُ الفلسفة وما يشبهها من الآراء البدعية، وقد مرض مرةً بالإسهال، فكان كلما قام عن المطهرة وضع عندها عشرة دنانير؛ لئلا يتبرَّم به الفرَّاشون، فكانوا يودُّون أن لو طالت علَّته، ولما عوفي أنهب داره الفقراء، وكان قيمةُ ما تحتوي عليه نحوًا من خمسين ألف دينار، وقد سمع الحديث من المشايخ الجياد عوالي الإسناد، وعقد له في وقت مجلسٌ للإملاء، فاحتفل الناس بحضوره، فلما خرج لبس زيَّ الفقهاء، وأشهد على نفسه بالتوبة والإنابة مما يعانيه من أمور السُّلطان، وذكر للناس أنه إنما يأكلُ من حين نشأ إلى يومه هذا من أموال أبيه وجدِّه، ولكن يخالط السلطان، وهو تائبٌ مما مارسه من شئونه، واتخذ بيتًا في داره سمَّاه بيت التوبة، ووضع العلماء خطوطهم بصحة توبته، وحين حدث استملى عليه جماعةٌ لكثرة مجلسه، فكان من جملة من يكتب ذلك اليوم من الطلبة القاضي عبدالجبار الهمذانيُّ ومن شابهه من رءوس الفضلاء وسادات المحدثين والفقهاء.

وقد بعث إليه قاضي قزوين بهديةٍ؛ كتب كثيرةٍ، وكتب معها:

العميريُّ عبد كاف الكفاة	وإن اعتلَّ في وجوه القضاة
خدم المجلس الرفيع بكتبٍ	مفعمات من حسنها مترعات

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ٥١١) وما بعدها.

فلما وصلت إليه أخذ منها كتابًا واحدًا، وردَّ باقيها، وكتب تحت البيتين:

قد قبلنا من الجميع كتابًا ... ورددنا لوقتها الباقيات
لست أستغنمُ الكثيرَ وطبعي ... قولُ خذ ليس مذهبي قول هاتِ

وجلس الوزير ابن عبّاد مرةً في مجلس شراب، فناوله الساقي كأسًا، فلما أراد شربها قال له بعض خدامه: يا سيدي، إن هذا الذي في يدك مسمومٌ.

قال: وما الشاهد على صحة قولك؟ قال: تجرِّبه. قال: فيمن؟ قال: في الساقي. قال: ويحك! لا أستحلُّ ذلك. قال: ففي دجاجةٍ. قال: إن التمثيل بالحيوان لا يجوزُ. ثم أمر بصبِّ ما في ذلك القدح، وقال للساقي: لا تدخلْ داري بعد هذا. ولم يقطع عنه معلومه.

وقد عمل عليه الوزيرُ أبو الفتح بن ذي الكفايتين حتى عزله عن وزارة مؤيد الدولة، وباشرها عوضه، واستمرَّ مدةً، فبينما هو ليلةً في بعض أيامه قد اجتمع عنده أصحابه وندماؤه وهو في أتمِّ سرور، قد هيِّئ له مجلسٌ حافلٌ بأنواع اللذَّات؛ من المآكل والمشارب والملابس والتحف، وقد نظم أبياتًا، والمغنُّون يلحنونها له، وهو في غاية الطرب والسرور والفرح، وهي هذه:

دعوت الهنا ودعوتُ العلا ... فلما أجابا دعوتُ القدَحْ
وقلت لأيام شرخ الشباب ... إليَّ فهذا أوان الفرحْ
إذا بلغ المرءُ آماله ... فليس له بعدها مقترحْ

ثم قال لأصحابه: باكروني غدًا إلى الصبوح. ونهض إلى بيت منامه، فما أصبح حتى قبض عليه مؤيد الدولة، وأخذ جميع ما في داره من الحواصل والأموال، وجعله مثلةً في العباد، وأعاد إلى وزارته الصاحب بن عبَّاد.

وقد ذكر ابن الجوزيِّ أن الصاحب بن عبَّاد حين حضرتْه الوفاةُ جاءه الملك فخر الدولة بن مؤيد الدولة يعوده ليوصيه في أموره، فقال له: إني موصيك أن تستمرَّ في الأمور على ما تركتها عليه، ولا تغيرْها، فإنك إن استمررت بها نسبت إليك من أول الأمر إلى آخره، وإن غيرتها وسلكتَ غيرها نسبتْ هي والخير المتقدمُ إليَّ لا إليك، وأنا أحبُّ أن تكون نسبةُ الخير إليك، وإن كنتُ أنا المشير بها عليك. فأعجبه منه ذلك واستمرَّ على ما أوصاه به من الخير، وكانت وفاته في عشية يوم الجمعة لستٍّ بقين من صفر منها.

قال ابن خلكان: وهو أول من سمِّيَ من الوزراء بالصاحب، ثم استعمل بعده فيهم، وإنما سمِّيَ بذلك لكثرة صحبته الوزير أبا الفضل ابن العميد، فكان يقال له: صاحب ابن العميد. ثم أطلق عليه أيام وزارته، وقال الصابئ في كتابه «التاجي»: إنما سمَّاه الصاحب مؤيد الدولة بن بويه؛ لأنه كان صاحبه من الصغر، فكان يسميه الصاحب، فلما ملك واستوزره سمَّاه الصاحب، فاشتهر به،

وتسمَّىٰ به الوزراء بعده. ثم ذكر ابن خلكان قطعةً صالحةً من مكارمه وفضائله وثناء الناس عليه، وعدَّد له مصنفات كثيرةً، منها كتابه «المحيط» في اللغة في سبعة مجلدات، يحتوي على أكثر اللغة، وأورد من شعره أشياء، منها قوله وهو صنيعٌ لطيفٌ:

رقَّ الزجاج ورقت الخمر ... وتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ ... وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

قال ابن خلكان: توفي بالريِّ في هذه السنة، وله نحو ستين سنةً، ونقل إلى أصبهان، رحمه الله.

الحسن بن حامد بن الحسن بن حامد أبو محمد، الأديب، كان شاعرًا متمولا كثير المكارم، روى عن عليِّ بن محمد بن سعيد الموصليِّ، وعنه الصوريُّ، وكان صدوقًا. وهو الذي أنزل المتنبي في داره حين قدم بغداد، وأحسن إليه وأجرى عليه النفقات حتى قال له المتنبي: لو كنت مادحًا تاجرًا لمدحتك. وقد كان أبو محمد هذا شاعرًا ماهرًا، فمن جيد شعره قوله:

شريت المعالي غير منتظر بها ... كسادًا ولا سوقًا يقام لها أخرى
وما أنا من أهل المكاسب كلما ... توفرت الأثمان كنت لها أشرى

ابن شاهين الواعظ عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد بن أيوب بن أزداذ، أبو حفص بن شاهين[1]، الواعظ المشهورُ، سمع الكثير، وحدث عن الباغنديِّ وأبي بكر بن أبي داود والبغويِّ، وابن صاعد، وخلق. وكان ثقةً أمينًا، يسكنُ الجانب الشَّرْقيَّ من بغداد، وكانت له المصنفات العديدةُ المفيدة. ذكر عنه أنه صنَّف ثلاثمائة وثلاثين مصنفًا؛ من ذلك «التفسير» في ألف جزءٍ، و«المسند» في ألف وخمسمائة جزءٍ و«التاريخ» في مائة وخمسين جزءًا، و«الزُّهْدُ» في مائة جزء. توفي وكانت وفاته في ذي الحجَّة منها، وقد قارب التسعين سنةً، رحمه الله تعالى.

الحافظ الدارقطنيُّ، عليُّ بن عمر بن أحمد بن مهديٍّ بن مسعود بن النعمان بن دينار بن عبدالله، أبو الحسن الدارقطني[2] الحافظ الكبير، أستاذ هذه الصناعة، في زمانه، وقبلها بمدة وبعدها إلى زماننا هذا، سمع الكثير، وجمع وصنف وألف وأجاد وأفاد، وأحسن النظر والتعليل، والانتقاء والانتقاد والاعتقاد، وكان فريد عصره، ونسيج وحده، وإمام أهل دهره في أسماء الرجال وصناعة التعليل، والجرح والتعديل، وحسن التصنيف والتأليف، واتساع الرواية، والاطلاع التامِّ في الدراية، له كتاب «السُّنن الكبير» المشهورُ، من أحسن المصنفات في بابه، لم يسبقْ إلى مثله، ولا يلحقُ في شكله، إلا من استمدَّ من بحره، وعمل كعمله، وله كتاب «العلل» بين فيه الصواب من الزلل، والمتصل من المرسل والمنقطع والمعضل، وكتاب «الأفراد» الذي لا يفهمه، فضلاً عن أن

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ٤٣١) وما بعدها.
(٢) ترجمته في «السير» (١٦/ ٤٤٩) وهو غنيٌّ عن التعريف.

ينظمه، إلا من هو من الحفاظ الأفراد، والأئمة النقَّاد، والجهابذة الجياد، وله غير ذلك من المصنفات التي هي كالعقود في الأجياد.

وقد كان الدارقطنيُّ من صغره موصوفًا بالحفظ الباهر؛ جلس مرةً في مجلس إسماعيل الصفَّار، وهو يملي على الناس الأحاديث، والدارقطنيُّ ينسخ في جزء حديث، فقال له بعض المحدثين في أثناء المجلس: إنَّ سماعك لا يصحُّ وأنت تنسخ. فقال الدارقطنيُّ: فهمي خلافُ فهمك، أتحفظ كم أملى حديثًا؟ فقال: لا. فقال: إنه أملى ثمانية عشر حديثًا إلى الآن، فالحديث الأول منها عن فلان عن فلان. ثم ساقها كلها بأسانيدها وألفاظها. فتعجب الناس منه.

وقال الحاكم أبو عبدالله النيسابوريُّ: لم ير الدارقطنيُّ مثل نفسه. وقال ابن الجوزيِّ: وقد اجتمع له مع معرفة الحديث العلم بالقراءات والنحو والفقه والشعر، مع الأمانة والعدالة، وصحة العقيدة، وقد كانت وفاته يوم الثلاثاء السابع من ذي القعدة من هذه السنة، وله من العمر تسعٌ وسبعون سنةً ويومان، ودفن من الغد بمقبرة معروف الكرخيِّ، رحمه الله تعالى.

قال ابن خلكان: وقد رحل إلى الديار المصرية فأكرمه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل ابن حنزابة وزير كافور الإخشيديِّ، وساعده هو والحافظ عبدالغنيِّ على إكمال «مسنده»، وحصل للدارقطنيِّ منه مالٌ جزيلٌ. قال: والدارقطنيُّ: نسبةٌ إلى دار القطن، وهي محلَّةٌ كبيرةٌ ببغداد.

وقال عبدالغنيِّ بن سعيد المصريُّ: لم يتكلمْ على الأحاديث مثل عليِّ بن المدينيِّ في زمانه، وموسى بن هارون في زمانه، والدارقطنيِّ في زمانه.

وسئل الدارقطنيُّ: هل رأى مثل نفسه؟ قال: أمَّا في فنٍّ واحد فربما رأيتُ من هو أفضل مني، وأما فيما اجتمع فيَّ من الفنون فلا.

وقد روى الخطيبُ البغداديُّ عن الأمير أبي نصر عليِّ بن هبة الله بن عليِّ بن جعفر بن ماكولا قال: رأيت في المنام كأني أسألُ عن حال أبي الحسن الدارقطنيِّ، وما آل إليه أمره في الآخرة، فقيل له: ذاك يدعى في الجنة الإمام رحمه الله ورضي عنه.

عباد بن عباس بن عباد، أبو الحسن الطالقانيُّ، والد الوزير إسماعيل بن عبَّاد، سمع أبا خليفة الفضل بن الحباب وغيره من البغداديين والأصفهانيين والرازيين وغيرهم، وحدث عنه ابنه الوزير أبو القاسم، وأبو بكر بن مردويه، ولعبَّاد هذا كتابٌ في أحكام القرآن، وقد اتفق موته وموت ابنه في هذه السنة، رحمهما الله.

عقيل بن محمد بن عبدالواحد، أبو الحسن الأحنف العكبري الشاعرُ المشهور، له ديوانٌ مفردٌ،

ومن مستجاد شعره ما ذكره الشيخ أبو الفرج بن الجوزيّ في «المنتظم» قوله:

أقضى عليّ من الأجلْ ... عذل العذول إذا عذلْ
وأشدُّ من عذْل العذو ... ل صدودُ إلف قد وصلْ
وأشدُّ من هذا وذا ... طلب النَّوال من السفلْ

ومن شعره الجيِّد أيضًا قوله:

من أراد المَلك والرا ... حة من همٍّ طويل
فليكنْ فردًا من النا ... س ويرضى بالقليل
ويرى أن قليلاً ... نافعًا غيرُ قليل
ويرى بالحزم أن الـ ... حزم في ترك الفضول
ويداوي مرض الوحـ ... دة بالصبر الجميل
لا يماري أحدًا ما ... عاش في قال وقيل
يلزمُ الصمتَ فإن الصـ ... صَمت تهذيبُ العقول
يذرُ الكبْرَ لأهليـ ... ـه ويرضى بالخمول
أيُّ عيشٍ لامرئٍ يصـ ... ـبحُ في حالِ ذليلِ
بين قصدٍ من عدوٍّ ... ومداراة جهول
واعتلال مِن صديق ... وتجنٍّ من ملولَ
واحتراس من ظنون السـ ... ـسوءِ معْ عذْلِ العذولَ
ومماشاة بغيض ... ومقاساةِ ثقيلِ
أفٍّ من معرفة النا ... سِ على كلِّ سبيلِ
وتمامُ الأمْرِ لا يَعْـ ... ـرفُ سمحًا من بخيلِ
فإذا أكمَلَ هذا ... كان في ملكٍ جليلِ

محمد بن عبدالله بن سكرة، أبو الحسن الهاشميُّ، من ولد عليٍّ بن المهديٍّ بالله، كان شاعرًا أديبًا خليعًا ظريفًا، وكان ينوب في نقابة الهاشميين، فترافع إليه رجلٌ اسمه عليٌّ وامرأةٌ اسمها عائشةُ يتحاكمان في جمل فقال: هذه قضيةٌ لا أحكمُ فيها بشيءٍ لئلا يعود الحال خدعةً.

ومن مستجاد شعره ولطيفه قوله:

في وجه إنسانة كلفتُ بها ... أربعةٌ ما اجتمعن في أحد
الوجهُ بدرٌ والصُّدْغُ غاليةٌ ... والرِّيقُ خمْرٌ والثَّغْرُ من بَردِ

ومن مجونِ شعره قوله وقد دخل حمَّامًا، فسرق نعله، فعاد إلى منزله حافيًا فقال:

إليك أذمُّ حمَّام ابن موسى ... وإن فاق المنى طيبًا وحرًّا
تكاثرت اللصوص عليه حتى ... ليحفَى من يطيفُ به ويعرَى
ولم أفقدْ به ثوبًا ولكن ... دخلتُ محمدًا وخرجتُ بِشْرًا

يوسف بن عمر بن مسرور، أبو الفتح القواس، سمع البغويَّ وابن أبي داود وابن صاعد وغيرهم، وعنه الخلالُ والعشاريُّ والتنوخيُّ وغيرهم، وكان ثقةً نبيلاً، يعدُّ من الأبدال. قال الدارقطنيُّ: كنا نتبركُ به وهو صغيرٌ. وكانت وفاته لثلاث بقين من ربيع الآخر عن خمس وثمانين سنةً، ودفن بباب حرب، رحمه الله تعالىٰ.

يوسف بن أبي سعيد السيرافيُّ، أبو محمد النحويُّ ابن النحويِّ، وهو الذي تمَّم شرح أبيه لكتاب سيبويه، وكان يرجع إلىٰ علم ودين، وكانت وفاته في ربيع الأول منها عن خمسٍ وخمسين سنةً، رحمه الله تعالىٰ وإيانا بمنِّه وكرمه.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وثلاثمائة

في المحرم من هذه السنة كشف أهل البصرة عن قبر عتيق، فإذا هم بميتٍ طريٍّ، عليه ثيابه وسيفه، فظنُّوه الزبير بن العوام، فأخرجوه وكفنوه ودفنوه، واتخذوا عند قبره مسجداً، ووقفت عليه أوقافٌ كثيرةٌ، وجعل عنده خدامٌ وقوَّامٌ وفرشٌ وتنويرٌ.

وفيها: ملك الحاكم العبيديُّ بلاد مصر بعد أن هلك أبوه العزيز بن المعز الفاطميُّ، وكان عمره إذ ذاك إحدىٰ عشرة سنةً وستة أشهرٍ، وقام بتدبير المملكة معه أرجوان الخادم، وأمين الدولة الحسن بن عمار شيخ كتامة، فلما تمكن الحاكم قتلهما وأقام غيرهما، ثم قتل خلقًا، حتىٰ استقام له الأمر علىٰ ما سنذكره، إن شاء الله تعالىٰ.

وحجَّ بالناس في هذه السنة الأمير الذي من جهة المصريين، والخطبةُ لهم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أحمد بن إبراهيم بن محمد بن يحيى بن سختويه، أبو حامد بن أبي إسحاق المزكي النيسابوري، سمع الأصمَّ وطبقته، وكان كثير العبادة من صغره إلىٰ كبره، وصام من دهره سردًا تسعًا وعشرين سنةً، قال الحاكم: وعندي أن الملائكة لم تكتبْ عليه خطيئةً. توفي في شعبان من هذه السنة عن ثلاث وستين سنةً.

أبو طالب المكيُّ، صاحب «قوت القلوب»، محمد بن عليِّ بن عطيةَ، أبو طالب المكيُّ، الواعظ المذكر، الزاهد المتعبد، الرجل الصالح[1]، سمع الحديث، وروىٰ عنه غير واحد.

قال العتيقيُّ: كان رجلاً صالحًا، مجتهدًا في العبادة.

وصنَّف كتابًا سمَّاه «قوت القلوب»، و ذكر فيه أحاديث لا أصل لها، وكان يعظ الناس في الجامع ببغداد.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ٥٣٦) وما بعدها.

وحكى ابن الجوزيِّ أن أصله من الجبل، وأنه نشأ بمكة، وأنه دخل البصرة بعد وفاة أبي الحسن بن سالم، فانتمى إلى مقالته، ودخل بغداد فاجتمع عليه الناس، وعقد له مجلس الوعظ، فغلط في كلامه، وحفظ عنه أنه قال: ليس على المخلوقين أضرُّ من الخالق. فبدعه الناس وهجروه، وامتنع من الكلام على الناس، وقد كان أبو طالب ممن يبيح السماع، فدخل عليه عبدالصمد بن عليٍّ، فعاتبه في ذلك، فأنشد أبو طالب:

فيا ليل كم فيك من متعةٍ ويا صبحُ ليتك لم تقربِ

فخرج عبدالصمد مغضبًا.

وقال أبو القاسم بن بشران: دخلت على شيخنا أبي طالب المكيِّ وهو يموت، فقلت: أوصني. فقال: إذا ختم لي بخير فانثُر على جنازتي لوزًا وسكرًا. فقلت: كيف أعلم ذلك؟ فقال: اجلسْ عندي، ويدك في يدي، فإن قبضتُ على يدك، فاعلمْ أنه قد ختم لي بخير. قال: فجلستُ عنده ويدي في يده، فلما حان فراقه، قبض على يدي قبضًا شديدًا، فلما رفع على جنازته، نثرْتُ اللوزَ والسُّكرَ على نعشه. قال ابن الجوزيِّ: توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة، وقبره ظاهر بالقرب من جامع الرصافة. والله أعلم.

العزيز صاحب مصر

نزار بن المعز معد أبي تميم، ويكنَّى نزارٌ هذا بأبي منصور، ويلقب بالعزيز، توفي عن ثنتين وأربعين سنةً، منها ولايته بعد أبيه إحدى وعشرون سنةً وخمسة أشهر وعشرةُ أيام، وقام بالأمر من بعده ولده الحاكمُ، والحاكم هو الذي تنسب إليه الفرقةُ الضالةُ المضلَّةُ الزنادقة الحاكمية، وإليه ينسبُ أهل وادي التيم من الدرزيَّة أتباع هستكين غلام الحاكم الذي بعثه إليهم يدعوهم إلى الكفر المحض فأجابوه، لعنه الله وإياهم، وأما العزيز هذا فإنه كان قد استوزر رجلاً نصرانيًّا يقال له: عيسى بن نسطورس. وآخر يهوديًّا اسمه ميشا، فعزَّ بسببهما أهل هاتين الملتين في ذلك الزمان على المسلمين، حتى كتبت إليه امرأةٌ قصَّةً في حاجةٍ لها تقول فيها: بالذي أعزَّ النصارى بعيسى بن نسطورس، واليهود بميشا، وأذلَّ المسلمين بك إلا ما كشفت ظلامتي. فعند ذلك أمر بالقبض على هذين الرجلين، وأخذ من النصرانيِّ ثلاثمائة ألف دينار.

وفيها: توفيت بنت عضد الدولة التي كانت زوجة الطائع لله، فحملت تركتها إلى ابن أخيها بهاء الدولة، وكان فيها جوهرٌ كثيرٌ وتحفٌ ولطائفُ وغيرُ ذلك. والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وثلاثمائة

فيها : توفي فخر الدولة أبو الحسن عليٌّ بن ركن الدولة بن بويه، ورتب ولده رستم في الملك بعده، وكان عمره أربع سنين، وقام خواصُّ أبيه بتدبير الممالك والرَّعايا .

وممن توفي فيها من الأعيان:

أبو أحمد العسكريُّ اللغويُّ، وهو الحسن بن عبدالله بن سعيد، أبو أحمد العسكريُّ اللغويُّ[1]، العلامة في فنِّه وتصانيفه المفيدة في اللغة وغيرها، ويقال: إنه كان يميل إلى المعتزلة . ولما قدم الصاحب بن عبَّاد هو وفخرُ الدولة البلدة التي كان فيها أبو أحمد العسكريُّ - وقد كبر وأسنَّ - بعث إليه الصاحبُ بن عبَّاد برقعةٍ فيها هذه الأبيات :

ولما أبيتم أن تزوروا وقلتمُ ... ضعفنا فما نقوى على الوخدان
أتيناكمْ من بعد أرض نزوركم ... فكم منزل بكر لنا وعوان
نناشدكمْ هل من قِرًى لنزيلكم ... بطول جوار لا بملء جفان

فكتَب العسكريُّ الجوابَ في ظهرها :

أرومُ نهوضًا ثم يَثْني عزيمتي ... تعوُّذُ أعضائي من الرَّجَفان
فضمَّنتُ بيتَ ابن الشَّريد كأنما ... تَعَمَّدَ تَشْبِيهي به وعَنَاني
أَهُمُّ بأمر الحزْمِ لو أستطيعه ... وقد حِيل بينَ العَيْر والنَّزَوان

ثم تحامَل وركب بغلتَه، وصار إلى الصاحبِ، فوجَده مشغولاً في خيمته بأُبَّهةِ الوزارةِ، فصعِد أكَمَةً، ثم نادَى بأعلى صوتِه مُتَمَثِّلاً بقولِ أبي تمام:

مالي أرَى القُبَّةَ الفَيْحاءَ مُقْفَلَةً ... دوني وقد طال ما اسْتَفْتَحْتُ مُقْفَلَها
كأنها جنةُ الفِرْدوسِ مُعْرِضةً ... وليس لي عملٌ زاكٍ فأدْخُلها

فلما سمع الصاحبُ صوته ناداه: ادْخلها يا أبا أحمد ، فلك السابقة الأولى فلما صار إليه وقدِم عليه أكرَمه وعظَّمه وأحْسَن إليه .

تُوُفِّي العسكريُّ يومَ التَّرْوِيةِ من هذه السنة، وقال ابنُ خَلِّكانَ: وُلِد سنةَ ثلاثٍ وتسعين ومائتين، وتُوُفِّي سنةَ ثِنْتين وثمانين .

عبدُ الله بنُ محمد بن عبد الله بن إبراهيمَ بن عُبَيد الله بن زياد بن مِهْرانَ، أبوالقاسم الشاهدُ، المعروفُ بابن الثَّلاَّج؛ لأن جدَّه أهدَى لبعض الخُلفاءِ ثَلْجًا، فوقَع منه مَوْقِعًا، فعُرِف عندَ الخليفة بالثَّلاَّج، وقد سمع أبو القاسمِ هذا من البَغَويِّ وابنِ صاعدٍ وابنِ أبي داودَ، وحدَّث عنه التَّنُوخيُّ والأزْهَريُّ والعَتَقيُّ وغيرُهم من الحُفَّاظ . قال ابنُ الجَوْزيِّ: وقد اتَّهَمه المُحَدِّثون، منهم الدارَقُطْنيُّ، ونسَبوه إلى أنه كان يُرَكِّبُ الإسنادَ، ويَضَعُ الحديثَ على الرجالِ، فاللهُ أعلمُ، وكانت وفاتُه في ربيعٍ الأولِ فجأةً .

---

(١) سلفت ترجمته .

ابنُ زُولاق، الحسنُ بنُ إبراهيمَ بنِ الحسينِ بنِ الحسنِ بنِ عليِّ بنِ خلفِ بنِ راشدِ بنِ عبدِ الله بنِ سليمانَ بنِ زُولاق، أبو محمد المصريُّ الحافظُ، صنَّف كتابًا في قُضاةِ مصرَ، ذيَّل به على كتابِ أبي عمرَ محمدِ بنِ يوسفَ بنِ يعقوبَ الكِنْديِّ في ذلك، انتهى الكنديُّ إلى سنةِ ستٍّ وأربعين ومائتين، وذيَّل ابنُ زُولاقٍ من القاضي بكَّارٍ إلى سنةِ ستٍّ وثمانين وثلاثمائة، مُبَلِّغًا به أيامَ محمدِ بنِ النُّعمان قاضي العُبَيْديِّين، وأظنُّه مصنِّفَ كتابِ «البلاغ» الذي انتَصَب للردِّ عليه القاضي الباقِلَّانيُّ، أو هو مصنِّفُه عبدُ العزيزِ بنُ النُّعمان. واللهُ أعلمُ.

كانت وفاةُ ابنِ زُولاقٍ في أواخرِ ذي القَعْدة من هذه السنة عن إحدى وثمانين سنةً، رحمه اللهُ تعالى.

ابنُ بَطَّة، عُبَيدُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ حَمدانَ، أبو عبد الله العُكْبَريُّ[1]، المعروفُ بابنِ بطَّةَ، أحدُ علماءِ الحنابلة، وله الكتبُ والتَّصانيفُ الكثيرةُ الحافلةُ في فُنونٍ من العلم، سمع الحديثَ من البَغَويِّ وأبي بكرٍ النَّيسابوريِّ وابنِ صاعدٍ وخَلْقٍ في أقاليمَ مُتعَدِّدة، وعنه جماعةٌ من الحُفَّاظ؛ منهم أبو الفتحِ بنُ أبي الفَوارِس، والأَزَجيُّ، والبَرْمكيُّ، وأثنى عليه غيرُ واحدٍ من الأئمة، وكان ممَّن يأمُرُ بالمعروف وينْهَى عن المنكر، وقد رأى بعضُهم في المنامِ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، قد اختَلَفَتْ علَينا المَذاهبُ، فقال: عليك بأبي عبدِ الله بنِ بَطَّةَ. فلما أصبَح ذهَب إليه ليُبَشِّرَه بالمنام، فحينَ رآه ابنُ بَطَّةَ تبَسَّم إليه وقال له قبلَ أن يُخاطِبَه: صدَق رسولُ الله ﷺ. ثلاثَ مراتٍ. وقد تَصدَّى الخطيبُ البَغْداديُّ للكلامِ في ابنِ بَطَّةَ والطَّعنِ فيه؛ بسببِ ادِّعائه سماعَ «السُّنن» لرجاءِ بنِ مُرَجًّى و«معجم البَغَويِّ»، وأسنَد بعضَ الجرحِ فيه إلى شيخِه عبدِ الواحدِ بنِ عليٍّ الأسَديِّ المعروفِ بابنِ بَرْهانَ اللُّغَويِّ، فانتدَب ابنُ الجوزيِّ للردِّ على الخطيبِ والطعنِ عليه أيضًا، بسببِ بعضِ مَشايخِه، والانتصارِ لابنِ بَطَّةَ، فحكَى عن أبي الوَفاءِ ابنِ عَقِيلٍ أن ابنَ بَرْهانَ كان يَرَى مذهبَ مُرْجِئةِ المُعْتَزِلة، في أن الكفارَ لا يُخَلَّدون في النارِ دائمًا، وقالوا: لأن دوامَ ذلك ممن لا يَتَشَفَّى لا معنًى له هنا؛ مع أنه قد وَصَف نفسَه بأنه أرْحَمُ الراحمين. ثم شرَع ابنُ عَقِيلٍ يَرُدُّ على ابنِ بَرْهانَ.

قال ابنُ الجوزيِّ: فكيف يُقْبَلُ الجرحُ والتعديلُ من مثلِ هذا؟! ثم روَى ابنُ الجوزيِّ بسندِه عن ابنِ بَطةَ أنه سمع «المُعْجَمَ» من البغويِّ، قال: والمُثْبِتُ مُقَدَّمٌ على النافي. قال الخطيبُ: وحدَّثني عبدُالواحدِ بنُ بَرْهانَ قال: قال محمدُ بنُ أبي الفَوارِس: روَى ابنُ بَطةَ، عن البغويِّ، عن أبي مُصْعَبٍ، عن مالكٍ، عن الزهريِّ، عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «طلَبُ العلمِ فَريضةٌ على كلِّ مسلمٍ»[2]. قال الخطيبُ: وهذا باطلٌ من حديثِ مالكٍ[3]، والحَمْلُ فيه على ابنِ بَطةَ.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ٥٢٩).

(٢) لكن له طرق كثيرة أخرى.

وأخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (١٥) من حديث أنس وهو مرويٌّ عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود وأبي سعيد وابن عباس، والحسين بن علي بن أبي طالب وأبيه، وابن عمر، وجابر.

وهذا يدل على أن له أصلاً فهو حسن لشواهده إن شاء الله والله أعلم.

(٣) أي من الطريق السابق.

قال ابنُ الجوزيِّ: وجوابُ هذا من وجهين؛ أحدُهما، أنه وُجد بخطِّ ابنِ بَرْهانَ أنَّ ما حكاه عنه الخطيبُ من القَدْحِ في ابنِ بَطةَ باطلٌ، وهو شيخي أخَذْتُ عنه العلمَ في البداية. الثاني، أن ابنَ بَرْهانَ قد تقدَّم القَدْحُ فيه بما خالف فيه الإجماعَ، فكيف قَبِلْتَ منه القولَ في رجلٍ قد حكَيْتَ عن مَشايخِ العلماءِ أنه رجلٌ صالحٌ مُجابُ الدعوة، نَعوذُ باللهِ من الهوَىٰ.

عليُّ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ مَرْدَك؛ أبو الحسنِ البَرْدعيُّ، روَىٰ عن ابنِ أبي حاتمٍ وغيرِه، وكان كثيرَ المالِ، فترَك الدنيا، وأقبل علىٰ الاعتكافِ في المسجدِ، وكثرةِ الصلاةِ والعبادة.

فخرُ الدولة عليُّ بنُ رُكْنِ الدولة بنِ بُوَيْه الدَّيْلميُّ، ملكُ بلادِ الرَّيِّ ونواحيها، وحينَ مات أخوه مُؤيِّدُ الدولة كتَب الصاحبُ بنُ عبَّادٍ بالإسْراعِ إليه، فولاَّه المُلْكَ بعدَ أخيه، واسْتَوْزَرَ ابنَ عبَّادٍ علىٰ ما كان عليه في أيام أخيه مؤيد الدولة. توفي عن ستٍّ وأربعين سنةً، منها مدةُ مُلْكه ثلاث عشْرةَ سنةً وعشَرةُ أشهرٍ وسبعةَ عشرَ يومًا، وترَك من الأموال شيئًا كثيرًا؛ من ذلك من الذهبِ ما يُقاربُ ثلاثةَ آلافِ ألفِ دينارٍ، ومن الجواهرِ نحوًا من خمسةَ عشرَ ألفَ قطعةٍ، يُقاربُ قيمتُها ثلاثةَ آلافِ ألفِ دينارٍ، وغيرَ ذلك من أواني الذهبِ زِنَتُه ألفُ ألفِ دينارٍ، ومن الفضةِ زِنَتُه ثلاثةُ آلافِ ألفِ درهمٍ، ومن الثيابِ ثلاثةُ آلافِ حِملٍ، وخزانةُ السلاحِ ألفَ حِملٍ، ومن الفُرُشِ ألفٌ وخمسُمائةِ حِملٍ، ومن الأمتعةِ ما يَليقُ بالملوكِ، ومع هذا ليلةَ توفِّي لم يكنْ لهم وصولٌ إلىٰ شيءٍ من المالِ، ولم يَحْصُلْ له كفَنٌ إلا ثوبُ رجلٍ من المجاورين في المسجدِ، واشْتَغلوا عنه بالمُلْكِ حتىٰ تم لولدِه رُسْتُم من بعدِه، فأنْتَن المَلِكُ، ولم يَتَمكَّنْ أحدٌ من الوصولِ إليه، فربَطوه في حبالٍ، وجرُّوه علىٰ دَرَجِ القَلْعةِ، فتقطَّع، فلا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم.

ابنُ سَمْعُونَ الواعظُ، محمدُ بنُ أحمدَ بنِ إسماعيلَ، أبو الحسينِ بنُ سَمْعونَ الواعظُ، أحدُ الصُّلَحاءِ والعُلَماءِ، وكان يقالُ له: الناطقُ بالحكمة. روَىٰ عن أبي بكرِ بنِ أبي داودَ وطبَقتِه، وكان له يدٌ طُولَىٰ في الوعظِ والتَّدْقيقِ في المُعامَلاتِ، وكانت له كراماتٌ ومُكاشَفاتٌ؛ كان يومًا وهو يَعظُ الناسَ علىٰ المِنْبرِ، وتحتَه أبو الفتحِ بنُ القوَّاسِ، وكان من الصالحين المشهورين، فنعَس ابنُ القوَّاسِ، فأمْسَك ابنُ سَمْعونَ عن الوَعْظِ حتىٰ اسْتَيْقَظ، فحينَ استيقظ قال ابنُ سَمْعونَ: رأيْتَ رسولَ اللهِ ﷺ في مَنامِك؟ قال: نعم. قال: فلهذا أمْسَكْتُ عن الوعْظِ حتىٰ لا أُزْعجَك عما كنتَ فيه.

وكان لرجلٍ ابنةٌ مريضةٌ مُدْنَفةٌ، فرأىٰ أبوها رسولَ اللهِ ﷺ في المَنامِ وهو يقولُ له: اذْهَبْ إلىٰ ابنِ سَمْعونَ ليأتيَ منزلَك، فيَدْعُوَ لابنتِك، وهي تَبْرأُ بإذنِ اللهِ تعالىٰ. فلما أصبَح ذهَب إلىٰ ابنِ سمعونَ ليأتيَ، فلما رآه، نهَض ولبِس ثيابَه وخرَج معه، فظن الرجلُ أنه يَذْهَبُ إلىٰ مجلسِ وعْظِه، فقال: أقولُ له في أثناءِ الطريقِ. فلما مر بدارِ الرجلِ دخَل إليها الشيخُ فأحْضَر إليه ابنتَه، فدعا لها وانْصَرف، فبرَأَتْ من ساعتِها.

وبعَث إليه الخليفةُ الطائعُ للهِ مَن أحْضَره وهو مُغْضَبٌ، فخِيف علىٰ ابنِ سَمْعونَ منه، فلما جلَس

بينَ يَدَي الخليفة أخَذ في الوعظ، فكان أكثرَ ما أوْرَده من كلام أميرِ المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب، فبكَى الخليفةُ حتى سُمع شهيقُه، ثم خرَج من بين يديه وهو مُكرَمٌ، فقيل للخليفة: رأيناك طلَبْتَه وأنت غَضْبانُ. فقال: بلَغني أنه يَتَنَقَّصُ عليًا، فأرَدْتُ أن أُعاقبَه، فلما حضَر أكثَر من ذكرِ عليٍّ، فعلِمْتُ أنه مُوَفَّقٌ، قد كُوشِف بما كان في خاطري عليه.

ورأى بعضُهم في المَنام رسولَ الله ﷺ وإلى جانبه عيسى ابنُ مريمَ، عليه السلامُ، وهو يَقولُ: أليس من أُمَّتي الأحْبارُ؟ أليسَ من أمتي الرهبانُ؟ أليس من أُمَّتي أصحابُ الصَّوامع؟ فبينما هما كذلك إذ دخَل ابنُ سَمْعون فقال له رسولُ الله ﷺ: أفي أمَّتك مثلُ هذا؟ فسكَت عيسى عليه السلامُ.

كان مولدُ ابنِ سَمْعونَ في سنة ثلاثمائة، وتُوُفِّي يومَ الخميس الرابعَ عشَرَ من ذي القَعْدة في هذه السنة، ودُفِن بداره، قال ابنُ الجوْزيِّ: ثم أُخرِج بعدَ سنين إلى مَقْبَرة أحمدَ، وأكْفانُه لم تَبْلَ، رحمه اللهُ تعالى.

آخِرُ مُلُوك السامانية نوحُ بنُ منصورِ بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيلَ، أبو القاسم السامانيُّ، مَلِكُ خُراسانَ وغَزْنةَ وما وراءَ النهرِ، وَلِي المُلكَ وله ثلاثَ عشْرةَ سنةً، واستَمرَّ في الملك إحدى وعشرين سنةً وتسعةَ أشهرٍ، ثم قبَض عليه خَواصُّه، وأجْلَسوا أخاه عبدَ الملك مكانَه، فقصَدهم محمودُ بنُ سُبُكْتكين، فانْتَزَع الملكَ من أيديهم، وقد كان لهم في الملك مائةُ سنةٍ وسنتين وشهوراً، فباد مُلْكُهم في هذا العام، ولله النَّقْضُ والإبرامُ.

أبو الطيِّب سهلُ بنُ محمد بن سليمانَ بن محمد بن سليمانَ الصُّعْلُوكيُّ الفقيهُ الشافعيُّ، إمامُ أهلِ نَيْسابورَ، وشَيخُ أهلِ تلك الناحية، كان يَحْضُرُ في مَجْلسه نحوٌ من خمسمائة مِحْبَرة، وكانت وفاتُه في هذه السنة على المشهور، وقال الحافظُ أبو يَعْلَى الخَليليُّ في «الإرْشاد»: إنه مات في سنة ثنتين وأربعمائة. فاللهُ تعالى أعلمُ.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة

قال ابنُ الجَوْزيِّ: في ذي الحِجَّة من هذه السنة سقَط في بغدادَ بَرَدٌ شديدٌ، بحيث جمَد الماءُ في الحمامات وبولُ الدَّوابِّ في الطُّرقات.

وفيها: جاءت رسلُ أبي طالب رُستمَ بن فخرِ الدولة فبايَعه الخليفةُ، وأقرَّه على مُعامَلته ببلادِ الرَّيِّ، ولقَّبَه مجدَ الدولة وكَهْفَ الأُمَّة، وبعَث إليه بالخِلَع والولاية، وكذلك لبدرِ بن حَسْنَوَيْه، ولقَّبه ناصرَ الدين والدولة، وكان كثيرَ الصَّدَقات.

وفيها: هرَب عبدُ الله بنُ جعفرٍ - المعروفُ بابن الوثَّاب، المُنْتَسِبُ إلى جدِّه الطائع - من السجن بدارِ الخلافة إلى البَطيحة، فآواه صاحبُها مُهذِّبُ الدولة، ثم أرْسَل القادرُ بالله، فجيء به مُضَيَّقًا عليه فاعْتَقله، ثم هرَب من الاعْتقال أيضًا، فذهَب إلى بلاد كيلانَ، فادَّعى أنه الطائعُ لله، فصدَّقوه

وبايعوه، وأدَّوْا إليه العُشْرَ، وغيرَ ذلك من الحقوق، ثم اتَّفق مجيء بعضهم إلى بغدادَ، فسألوا عن الأمرِ، فإذا به ليس له صحةٌ ولا حقيقةٌ، فرجَعوا عنه، واضْمَحَلَّ أمرُه، وفسَد حالُه، فانْهَزم عنهم.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ أميرُ المصْريين، والخطبةُ بالحرمين للحاكم العُبَيْديِّ، قبَّحه اللهُ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

أبو سليمانَ حَمْدُ - ويُقالُ: أحمدُ - بنُ محمد بنِ إبراهيمَ بن الخطَّاب الخَطَّابيُّ البُسْتيُّ، أحدُ المَشاهيرِ الأعْيانِ، والفُقهاءِ المُحدِّثين المُكثرين، له من المُصنَّفاتِ «مَعالمُ السُّننِ» و«شَرْحُ البخاريِّ»، وغيرُ ذلك من التصانيفِ النافعةِ المُفيدةِ، وله شعرٌ حسنٌ، فمنه قولُه:

مَا دُمْتَ حيًّا فدارِ الناسَ كلَّهمُ	فإنما أنت في دارِ المُداراةِ
مَن يدرِ دارَى ومَن لم يَدْرِ سوف يُرَى	عمَّا قليلٍ نديمًا للنَّداماتِ

وكانت وفاتُه بمدينةِ بُسْتَ في ربيعٍ الأولِ من هذه السنةِ. قاله ابنُ خَلِّكانَ.

الحسينُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ الله بنِ عبد الرحمنِ بن بُكَيْرٍ، أبو عبد الله الصَّيْرَفيُّ الحافظُ المُطَبِّق، سمع إسماعيلَ الصَّفَّارَ وابنَ السَّمَّاك والنَّجَّادَ والخُلْديَّ وأبا بكرٍ الشافعيَّ. وعنه ابنُ شاهينَ والأزهريُّ والتَّنُوخيُّ، وحكَى الأزْهَريُّ أنه دخَل عليه وبينَ يديه أجزاءٌ كبارٌ، فجعَل إذا ساق إسنادًا أوْرَد مَتْنَه من حفظِه، وإذا سرَد مَتْنًا ساق إسنادَه. قال: وفعَلْتُ هذا معه مِرارًا، كلُّ ذلك يُوردُ الحديثَ إسنادًا ومتْنًا كما في كتابِه. قال: وكان ثقةً، فحسَدوه وتكلَّموا فيه. وحكَى الخطيبُ أن ابنَ أبي الفَوارسِ اتَّهَمه بأنه يَزيدُ في سَماعِ الشيوخِ، ويُلْحِقُ رجالاً في الأسانيدِ، ويَصِلُ المَقاطيعَ. وكانت وفاتُه في ربيعٍ الآخرِ منها عن إحدىٰ وستين سنةً.

صَمْصامُ الدولة بنُ عَضُدِ الدولة صاحبُ بلادِ فارسَ، خرَج عليه ابنُ عمِّه أبو نصرٍ ابنُ بَخْتيارَ، فهرَب منه، ولجأ إلىٰ جماعةٍ من الأكرادِ، فلما وغَلوا به في بلادهم نَهبوا خَزائنَه وحَواصلَه، ولحِقه أصحابُ ابنِ بَخْتيارَ، فقتَلوه وحمَلوا رأسَه في طَسْتٍ، فلما وُضِعَ بينَ يدَي ابنِ بَخْتيارَ قال: هذه سُنَّةٌ سنَّها أبوك. وكان ذلك في ذي الحِجَّةِ من هذه السنةِ، وكان عمرُه يومَ قُتِل خمسًا وثلاثين سنةً، ومدةُ مُلْكه منها تسعُ سنين وأشهرٌ.

عبدُ العزيز بنُ يوسُفَ الجكّارُ أبو القاسم، كاتبُ الإنشاءِ لعَضُدِ الدولةِ، ثم وزَر لابنِه بهاءِ الدولةِ خمسةَ أشهرٍ، وكان يَقولُ الشعرَ. تُوُفِّي في شعبانَ من هذه السنة.

محمدُ بنُ أحمدَ بن إبراهيمَ، أبو الفَرَجِ، المعروفُ بغلامِ الشَّنَبُوذِيِّ، كان عالمًا بالقراءاتِ وتفسيرِها، يقالُ: إنه كان يَحْفَظُ خمسين ألفَ بيتٍ من الشعرِ، شَواهدَ للقرآن. ومع هذا تكلَّموا في روايتِه عن أبي الحسنِ بن شَنَبُوذَ، وأساء الدارَقُطْنيُّ القولَ فيه. تُوُفِّي في صفرٍ من هذه السنةِ، وكان مولدُه سنةَ ثلاثمائةٍ.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وثلاثمائة

في هذه السنة قصَد محمودُ بنُ سُبُكْتِكين بلادَ خُراسانَ، فاستَلَب مُلكَها من أيدي السامانية، وواقَعَهم مرَّاتٍ مُتَعددةً في هذه السنة وما قبلَها، حتىٰ أزال اسمَهم ورسْمَهم عن البلاد بالكُلية، وانقرَضَت دولتُهم علىٰ يديه ثم صمَد لقتالِهم إيلكُ مَلكُ الترك بما وراءَ النهرِ - وذلك بعدَ موتِ الخانِ الكبيرِ الذي يقالُ له: فائقٌ - وجرَت له معهم حروبٌ وخُطوبٌ.

وفيها: استَولَىٰ بَهاءُ الدولة علىٰ بلادِ فارسَ وخُوزِسْتانَ.

وفيها: أرادت الشيعةُ أن تعملَ ما كانوا يَصنَعونه من الزِّينة يومَ غَديرِ خُمٍّ، وهو اليومُ الثامنَ عشَرَ من ذي الحجَّة فيما يَزعُمونه، فقاتَلَهم جَهَلةٌ آخَرون من المُنتَسِبين للسنة، فادَّعَوا أن في مثلِ هذا اليوم حُصِر النبيُّ ﷺ وأبو بكرٍ، رضي اللهُ عنه، في الغارِ، فامتَنَعوا من ذلك، وهذا أيضًا جهلٌ من هؤلاء، فإن هذا إنما كان في أوائلِ شهرِ ربيعٍ الأول من أول سِني الهجرة، فإنهما أقاما فيه ثلاثًا، وحينَ خرجا منه قصَدا المدينةَ فدخَلاها بعدَ ثمانية أيامٍ أو نحوها، وكان دخولُهما المدينةَ في اليومِ الثاني عشَرَ من ربيعٍ الأول، وهذا أمرٌ معلومٌ مُقرَّرٌ. ولما كانت الشِّيعةُ يَصنَعون في يومِ عاشوراءَ مأتَمًا يُظهِرون فيه الحُزنَ على الحسين بنِ عليٍّ، قابَلَتهم طائفةٌ أخرىٰ من جَهَلة أهلِ السنة، فادَّعَوا أن في اليومِ الثامنَ عشَرَ من المحرَّمِ قُتِل مُصْعَبُ بنُ الزبيرِ، فعملوا له مأتَمًا كما تَعملُ الشِّيعةُ للحسين، وزاروا قبرَه كما يُزارُ قبرُ الحسينِ، وهذا من بابِ مُقابَلة البِدْعة ببدعةٍ مثلِها، ولا يَرفَعُ البدعةَ إلا السُّنَّةُ الصحيحةُ. وبالله التوفيقُ.

وفيها: وقَع بَرَدٌ شديدٌ مع غَيْمٍ مُطْبِقٍ وريحٍ قوية جدًّا، بحيث أتلَفَت شيئًا كثيرًا من النَّخيلِ ببغدادَ، فلم يَتراجَعْ حَمْلُها إلىٰ عادتها إلا بعدَ سنين.

وحجَّ بركْبِ العراقِ الشَّريفانِ الرَّضيُّ والمُرْتَضىٰ، فاعتَقَلَهما أميرُ الأعراب ابنُ الجَرَّاحِ، فافتَدَيا منه بتسعة آلاف دينارٍ من أموالِهما فأطلَقَهما.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

زاهرُ بنُ أحمدَ بنِ محمد بنِ عيسى السَّرْخَسيُّ المُقْرِئُ الفقيهُ المُحَدِّثُ، شيخُ عصرِه بخُراسانَ، قرَأ علىٰ ابنِ مُجاهدٍ، وتفَقَّه بأبي إسحاقَ المَرْوَزيِّ إمامِ الشافعية، وأخَذ علْمَ اللغة والأدَبِ والنحوِ عن أبي بكرٍ ابنِ الأنباريِّ. وكانت وفاتُه في ربيعٍ الآخرِ عن ستٍّ وتسعين سنةً.

عُبَيدُ الله بنُ محمد بنِ إسحاقَ بنِ سليمانَ بنِ مَخْلَدِ بنِ إبراهيمَ بنِ مَرْوانَ، أبو القاسم المَعروفُ بابن حَبَابةَ، روىٰ عن أبي القاسمِ البغويِّ وأبي بكرِ ابنِ أبي داودَ وطبقتهما، وكان ثقةً مأمونًا مُسْنِدًا، وُلِد ببغدادَ سنةَ تسعٍ وتسعين ومائتين. وكانت وفاتُه في جُمادىٰ الأولىٰ من هذه السنة عن تسعين سنةً، وصلَّىٰ عليه الشيخُ أبو حامدٍ الإسْفَرايِينيُّ شيخُ الشافعية، ودُفِن في مُقابِل جامعِ المنصورِ، رحمَه اللهُ تعالىٰ.

ثم دخلت سنة تسعين وثلاثمائة

في هذه السنة ظهَر بأرضِ سجِسْتانَ مَعْدِنٌ مِن ذهبٍ كانوا يَحْفِرون فيه مثلَ الآبارِ، ويُخرِجون منه ذهبًا أحمرَ.

وفيها: قُتِل الأميرُ أبو نصرَ بنُ بَخْتِيارَ صاحبُ بلادِ فارسَ، واستَوْلَى عليها بهاءُ الدولةِ.

وفيها: قلَّد القادرُ بالله القضاءَ بواسطٍ وأعمالِها لأبي خازمٍ محمدِ بنِ الحسنِ الواسطيِّ، وقُرِئ عهدُه بدارِ الخلافةِ، وكتَب له القادرُ وصيةً حسَنةً طويلةً، أوْرَدها بحروفِها الشيخُ أبو الفرجِ بنُ الجوزيِّ في «مُنْتَظَمِه»، وفيها مَواعظُ وأوامرُ ونواهٍ حسنةٌ جدًّا. واللهُ أعلمُ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيانِ:

أحمدُ بنُ محمدِ بنِ أبي موسى، أبو بكرٍ الهاشميُّ، الفقيهُ المالكيُّ، القاضي بالمَدائنِ وغيرِها، وخطَب بجامعِ المنصورِ، وسمِع الكثيرَ، وروَى عنه الجَمُّ الغَفيرُ بانتخابِ أبي الحسنِ الدارَقُطْنيِّ الحافظِ الكبيرِ، وكان عَفيفًا نَزِهًا ثقةً ديِّنًا. تُوُفِّي في مُحَرَّمِ هذه السنةِ عن خمسٍ وسبعين سنةً.

عُبَيدُ الله بنُ عثمانَ بنِ يَحْيَى، أبو القاسمِ الدَّقَّاقُ، ويُعْرَفُ بابنِ جَنِيقا.

قال العلَّامةُ القاضي أبو يَعْلَى بنُ الفَرَّاءِ - وهذا جَدُّه -: والصوابُ جَلِيقا باللامِ، لا بالنونِ، وقد سمِع الحديثَ. سَماعًا صحيحًا. وروَى عنه الأزهريُّ والعتيقيُّ. قال ابنُ أبي الفوارسِ: وكان ثقةً مَأمونًا حسَنَ الخُلُقِ، ما رأينا مثلَه في معناه.

الحسينُ بنُ محمدِ بنِ خَلَفِ بنِ الفَرَّاءِ[1]، والدُ القاضي أبي يَعْلَى، وكان صالحًا فقيهًا على مذهبِ أبي حنيفةَ، أسْنَد الحديثَ، وروَى عنه ابنُه أبو خازمٍ محمدُ بنُ الحسينِ.

عبدُ الله بنُ أحمدَ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ البغداديُّ، نَزيلُ مصرَ، حدَّث بها، فسمِع منه الحافظُ عبدُ الغنيِّ بنُ سعيدٍ المصريُّ.

عمرُ بنُ إبراهيمَ بنِ أحمدَ، أبو حفصٍ، المعروفُ بالكتَّانيِّ المُقرئُ، وُلد سنةَ ثلاثمائةٍ، روَى عن البَغَويِّ وابنِ مُجاهدٍ وابنِ صاعدٍ، وعنه الأزهريُّ وغيرُه، وكان ثقةً صالحًا.

محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ الحسينِ بنِ عبدِالله بنِ هارونَ، أبو الحسينِ الدَّقَّاقُ، المعروفُ بابنِ أخي ميمي، سمِع البغويَّ وغيرَه، وعنه جماعةٌ، ولم يَزَلْ على كِبَرِ سنِّه يَكْتُبُ الحديثَ إلى أن تُوُفِّي وله تسعون سنةً، وكان ثقةً مأمونًا ديِّنًا فاضلًا، حسَنَ الأخلاقِ. وكانت وفاتُه ليلةَ الجمعةِ لثمانٍ وعشرين مِن شعبانَ هذه السنةِ.

محمدُ بنُ عمرَ بنِ يحيى بنِ الحسينِ بنِ أحمدَ بنِ يحيى بنِ الحسينِ بنِ زيدِ بنِ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عليٍّ

---

(١) ترجمته في «السير» (١٥/ ١١٨) وما بعدها.

ابن أبي طالب، رضي اللهُ عنه، الشريفُ أبو الحسنِ العَلَويُّ، الكوفيُّ، وُلد سنةَ خمسَ عشْرَةَ، وسمع مِنْ أبي العباسِ بنِ عُقْدةَ وغيرِه، وسكَن بغدادَ، وكانت له أموالٌ كثيرةٌ وضياعٌ، ودخلٌ عظيمٌ، وحُشْمةٌ وافرةٌ، وهمةٌ عاليةٌ، وكان مُقَدَّمًا على الطالبيِّين في وقته، وقد صادَره عَضُدُ الدولة في وقتٍ، واسْتَحْوَذَ على جُمْهور أموالِه وسجَنه، ثم أطْلَقه شرَفُ الدولةِ بنُ عَضُدِ الدولةِ، ثم صادَره بَهاءُ الدولةِ بألفِ ألفِ دينارٍ وأكثرَ، ثم سجَنه، ثم أطْلَقه واستَنابه على بغدادَ، ويقالُ: إن غلاّلَه كانت تُساوي في كلِّ سنةٍ ألفَيْ ألفِ دينارٍ، وله وَجاهةٌ كبيرةٌ جدًّا ورياسةٌ باذخةٌ.

الأُستاذُ أبوالفُتوحِ بَرْجَوانُ، الناظرُ في الأمورِ بالديارِ المِصْرِية في الدولةِ الحاكمية، وإليه تُنْسَبُ حارةُ بَرْجوانَ بالقاهرةِ المُعِزِّيَّة. كان أولاً مِن غِلْمانِ العزيزِ بنِ المُعِزِّ، ثم صار عندَ الحاكمِ نافذَ الأمرِ مُطاعًا كبيرًا في الدولةِ، ثم أمَرَ بقتلِه في القَصْرِ فضربَه الأميرُ رَيْدانُ - الذي تُنْسَبُ إليه الرَّيْدانيةُ خارجَ بابِ الفُتوحِ - بسِكِّينٍ في بطنِه فقتَلَه. وقد ترَك شيئًا كثيرًا مِن الأثاثِ والثِّيابِ، مِن ذلك ألفُ سراويلَ دبيقيٍّ بألفِ تكةٍ من حرير. قاله ابن خلكان في كتابه. وولي الحاكم بعده في منصبه الأمير حسين بن القائد جوهر.

الجريريُّ المعروف بابن طرارا، اسمه المعافى بن زكريا بن يحيى بن حميد بن حماد بن داود، أبو الفرج النهروانيُّ القاضي؛ لأنه ناب في الحكم، المعروف بابن طرارا الجريريُّ؛ لاشتغاله على ابن جرير الطبريِّ، وسلوكه وراءه في مذهبه، سمع الحديث من البغويِّ وابن صاعد وخلق، وروى عنه جماعةٌ، وكان ثقةً عالمًا فاضلاً كثير الآداب والتفنُّن في أصناف العلوم، وله المنصفاتُ الكثيرةُ، منها كتابه المسمَّى بـ «الجليس والأنيس»، فيه فوائدُ جمَّةٌ كثيرةٌ.

وكان الشيخ أبو محمد البافيُّ أحد أئمة الشافعية يقول: إذا حضر المعافَى فقد حضرت العلومُ كلُّها، ولو أوصى رجلٌ بثلث ماله لأعلم الناس لوجب أن يصرف إليه.

قال غيره: اجتمع جماعةٌ من الفضلاء في دار بعض الرؤساء وفيهم المعافى، فقالوا: هلمَّ نتذاكر في فنٍّ من العلوم. فقال المعافى لصاحب المنزل - وكانتْ عنده كتبٌ كثيرةٌ في خزانةٍ عظيمة -: مرْ غلامك هذا أن يأتيَ بكتابٍ من هذه الكتب أيِّ كتاب، فنتذاكر فيه. فتعجَّب الحاضرون من هذا التمكُّنِ والتبَحُّر.

وقال الخطيبُ البغداديُّ: أنشدنا الشيخ أبو الطيِّب الطبريُّ، قال: أنشدنا المعافى بن زكريا لنفسه:

ألا قلْ لمن كان لي حاسدًا ... أتدْري على من أسأتَ الأدبْ
أسأتَ على الله في فعله ... لأنَّك لم ترض لي ما وهبْ
فجازاك عني بأن زادني ... وسدَّ عليك وجوه الطلبْ

وكانت وفاته في ذي الحجَّة من هذه السنة عن خمسٍ وثمانين سنةً، رحمه الله.

ابن فارس، صاحب «المجمل»، وقيل: إنه توفي في سنة خمس وتسعين كما سيأتي.

أمة السلام بنتُ القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة، أمُّ الفتح، سمعت من محمد بن إسماعيل البصلانيِّ، وغيره، وعنها الأزهريُّ والتنوخيُّ وأبو يعلى بن الفرّاء وغيره، وأثنى عليها غير واحد في دينها وفضلها وسيادتها، وكان مولدها في رجب من سنة ثمان وتسعين، وتوفيت في رجب أيضًا من هذه السنة عن ثنتين وتسعين سنةً، رحمها الله تعالى.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة

فيها: بايع الخليفة القادر بالله لولده أبي الفضل بولاية العهد من بعده، وخطب له، ولقب الغالب بالله، وكان عمره حينئذٍ ثماني سنين وشهوراً، ولم يتم له ذلك، وكان سبب هذه العجلة أن رجلاً يقال له: عبدالله بن عثمان الواثقيُّ. ذهب إلى بعض الأطراف من بلاد الترك، وادعى أن القادر بالله جعله وليَّ عهده من بعده، فخطبوا له هنالك، فلما بلغ القادر أمره بعث يتطلبه، فهرب منه في الآفاق وتمزَّق شمله، ثم أخذه بعض الملوك، فسجنه في قلعة إلى أن مات، فلهذا بادر القادر إلى هذه البيعة.

وفي يوم الخميس الثامن عشر من ذي القعدة ولد الأمير أبو جعفر عبدالله بن القادر بالله، وهذا هو الذي صارت إليه الخلافة، وهو القائم بأمر الله.

وفيها: قتل الأمير حسان الدولة المقلد بن المسيب العقيليُّ غيلةً ببلاد الأنبار، وكان قد عظم شأنه بتلك البلاد، ورام المملكة، فجاءه القدرُ المحتوم، فقتله بعض غلمانه الأتراك، وقام بالأمر من بعده ولده قرواش. وحجَّ بالناس المصريون.

وممن توفي فيها من الأعيان:

جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات، أبو الفضل، المعروف بابن حنزابة الوزير، ولد سنة ثمانٍ وثلاثمائةٍ ببغداد، ونزل الديار المصرية، ووزر بها لأميرها كافور الإخشيديِّ، وكان أبوه وزيراً للمقتدر، وقد سمع الحديث من محمد بن هارون الحضرميِّ وطبقته من البغداديين، وكان قد سمع مجلسًا من البغويِّ، ولم يكنْ عنده، فكان يقول: من جاءني به أغنيته. وكان له مجلسٌ لإملاء الحديث بديار مصر، وبسببه رحل الدارقطنيُّ إلى هناك فنزل عنده، وخرَّج له مسنداً، وحصل له منه مالٌ جزيلٌ، وحدَّث عنه الدارقطنيُّ وغيره من الأكابر. ومن مستجاد شعره قوله:

من أخمل النفس أحياها وروَّحها ... ولم يبتْ طاويًا منها على ضَجَرِ
إن الرياح إذا اشتدَّت عواصفها ... فليس ترْمِي سوى العالي من الشَّجَرِ

قال ابن خلكان: كانت وفاته في صفر - وقيل: في ربيع الأول - من هذه السنة، عن ثنتين وثمانين سنةً، ودفن بالقرافة، وقيل: بداره. قال: وقيل: إنه كان قد اشترى داراً بالمدينة النبوية، فجعلها تربةً له، فلما نقل إليها تلقته الأشرافُ لإحسانه إليهم، فحملوه وحجّوا به، وأوقفوه بعرفات، ثم أعادوه إلى المدينة، فدفنوه بتربته.

ابن الحجاج الشاعر، الحسين بن أحمد بن الحجاج، أبو عبدالله الشاعر الماجن المقذع في نظمه بألفاظ يستنكف اللسان عن التلفظ بها، والآذان عن الاستماع إليها، وقد كان أبوه من كبار العمال، وولي هو حسبة بغداد في أيام عزّ الدولة بن معزّ الدولة بن بويه، فاستخلف عليها نوابًا ستةً، وتشاغل هو بالشعر السخيف والرأي الضعيف، إلا أن شعره جيدٌ من حيث اللفظ، وفيه قوةٌ جيِّدةٌ تدلُّ على تمكن واقتدار على سبك المعاني القبيحة، التي هي في غاية الفضيحة، في الألفاظ الفصيحة، وله غير ذلك من الأشعار المستجادة. وقد امتدح صاحب مصر، فبعث إليه بألف دينار.

وقول القاضي ابن خلكان: ويقال: إنه عزل عن حسبة بغداد بأبي سعيد الإصطخريِّ. قولٌ ضعيفٌ لا يسامح بمثله القاضي، فإن أبا سعيد توفي سنة ثمانٍ وعشرين وثلاثمائة، فكيف يعزل به ابن الحجاج؟! وهو لا يمكن عادةً أن يليَ الحسبة بعد أبي سعيد الإصطخريِّ؛ رلكبر قدر ابن خلكان في هذه الصناعة ناقشناه، فإنه أرخَ وفاة هذا الشاعر بهذه السنة، ووفاة الإصطخريِّ بما تقدم. وقد جمع الشريف الرضيُّ أشعاره الجيدة على حدة في ديوان مفردٍ، ورثاه حين توفي هو وغيره من الشعراء.

عبدالعزيز بن أحمد، أبو الحسن الخوزيُّ القاضي بالمخرم، وحريم دار الخلافة وغير ذلك من الجهات، وكان ظاهريًّا على مذهب داود، وكان لطيفًا ظريفًا، تحاكم إليه وكيلان، فبكى أحدهما في أثناء الخصومة، فقال له القاضي: أرني وكالتك. فناوله فقرأها ثم قال له: لم يجعلْ إليك أن تبكيَ عنه. فاستضحك الناس، ونهض الوكيل خجلاً.

عيسى بن الوزير عليِّ بن عيسى بن داود بن الجراح، أبو القاسم البغداديُّ، كان أبوه من كبار الوزراء، وكتب هو للطائع أيضًا، وسمع الحديث الكثير، وكان صحيح السماع، كثير العلوم، وكان عارفًا بالمنطق وعلم الأوائل، فرموه بشيءٍ من مذهب الفلاسفة. ومن جيد شعره قوله:

ربَّ ميْتٍ قد صار بالعلم حيًا	ومبقّى قد مات جهلاً وغيا
فاقتنوا العلمَ كي تنالوا خلودًا	لا تعُدُّوا الحياة في الجهل شيا

كان مولده في سنة ثنتين وثلاثمائة، وتوفي في هذه السنة عن تسع وثمانين سنةً، ودفن في داره ببغداد.

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وثلاثمائة

في المحرم منها غزا يمين الدولة محمود بن سبكتكين بلاد الهند، فصمد له ملكها جيبال في جيش عظيم، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ففتح الله للمسلمين، وانهزمت الهنود، وأسر ملكهم جيبال، وأخذ من عنقه قلادةٌ قيمتها ثمانون ألف دينار، وغنم المسلمون منهم أموالاً عظيمةً، وفتحوا بلادًا كثيرةً، ثم أطلق محمودٌ ملك الهند؛ احتقارًا له واستهانةً به، ليراه أهل مملكته في لباس المذلة، فحين وصل

جيبال، لعنه الله، إلى بلاده ألقى نفسه في النار التي يعبدونها من دون الله فاحترق، لعنه الله.

وفي ربيع الآخر منها ثارت العوامُّ على النصارى ببغداد، فنهبوا كنيستهم التي بقطيعة الرقيق وأحرقوها، فسقطت على خلقٍ فماتوا، وفيهم جماعةٌ من المسلمين؛ رجالٌ ونساءٌ وصبيانٌ. وفي رمضان منها قوي أمرُ العيَّارين، وكثرت العملاتُ والنهب ببغداد، وانتشرت الفتنةُ.

قال ابن الجوزيِّ: وفي ليلة الإثنين ثالث ذي القعدة انقضَّ كوكبٌ أضاء كضوء القمر ليلة التَّمام، ومضى الضياءُ وبقي جرْمُه يتموَّجُ نحو ذراعين في ذراعٍ برأي العين، ثم توارَىٰ بعد ساعةٍ.

وفي هذا الشهر قدم الحجَّاجُ من خراسان إلى بغداد ليسيروا إلى الحجاز، فبلغهم عيث الأعراب بالفساد، وأنه لا قاهر لهم ولا ناظر ينظر في أمورهم، فرجعوا إلى بلادهم، ولم يحجَّ من بلاد المشرقِ أحدٌ في هذه السنة.

وفي يوم عرفة ولد لبهاء الدولة ابنان توأمان؛ فمات أحدهما بعد سبع سنين، وبقيَ الآخرُ حتى قام بالأمر من بعد أبيه، ولقِّب مشرِّفُ الدولة. وحجَّ المصريون فيها بالناس.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أبو الفتح عثمان بن جنِّي الموصليُّ النحويُّ اللغويُّ، صاحب التصانيف الفائقة المتداولة في النحو واللغة، وكان أبوه جنِّي عبدًا روميًّا مملوكًا لسليمان بن فهد بن أحمد الأزديِّ الموصليِّ. ومن شعره في ذلك قوله:

فإن أصبحْ بلا نسبٍ ... فعلمي في الورَىٰ نسبي
علىٰ أنِّي أَئُولُ إلىٰ ... قرومٍ سادةٍ نجبِ
قياصرةٍ إذا نطقوا ... أرمَّ الدهرُ ذو الخطبِ
أولاك دعا النبيُّ لهم ... كفى شرفًا دعاءُ نبي

وقد أقام ببغداد، ودرس بها العلم إلى أن توفي ليلة الجمعة لليلتين خلتا من صفر منها.

قال القاضي ابن خلكان: ويقال: إنه كان أعور. وله في ذلك:

صدودك عنِّي ولا ذنبَ لي ... يدلُّ على نيةٍ فاسده
فقد وحياتك مما بكيتُ ... خشيتُ على عَينيَ الواحده
ولولا مخافةُ أن لا أراك ... لما كان في تركها فائدَه

ويقال: إن هذه الأبيات لغيره.

وله في مملوك حسن الصورة أعور:

له عينٌ أصابت كلَّ عينٍ ... وعينٌ قد أصابتها العيونُ

أبو الحسن عليُّ بن عبدالعزيز الجرجانيُّ، القاضي بالرَّيِّ، الشاعر الماهر، سمع الحديث وترقَّىٰ في العلوم حتى أقرَّ له الناس بالتفرُّد، وله أشعارٌ حسانٌ، من ذلك قوله:

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذُّلِّ أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهمْ ومن أكرمته عزَّةُ النفس أكرما
ولم أقضِ حق العلم إن كان كلَّما بدا طمعٌ صيرته لي سلما
إذا قيل هذا منهلٌ قلت قد أرى ولكنَّ نفس الحرِ تحتملُ الظمَا
ولم أبتذلْ في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرسًا وأجنيه ذلةً إذًا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهمْ ولو عظموه في النفوس لعظِّما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا محيَّاهُ بالأطماع حتى تجهَّما

ومن مستجاد شعره أيضًا قوله:

ما تطعمتُ لذة العيش حتى صرتُ للبيت والكتاب جليسا
ليس شيءٌ أعزَّ عندي من العلـ ـم فما أبتغي سواه أنيسا
إنما الذُّلُّ في مخالطة النا س فدعهمْ وعشْ عزيزًا رئيسا

ومن شعره أيضًا:

إذا شئت أن تستقرض المال منفقًا على شهوات النفس في زمن العسر
فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها عليك وإنظارًا إلى زمن اليسر
فإن فعلتْ كنت الغنيَّ وإن أبتْ فكلُّ منوعٍ بعدها واسعُ العذرِ

توفِّي، رحمه الله، في هذه السنة، وحمل تابوته إلى جرجان، فدفن بها.

* * *

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ثلاثمائة

فيها: كانت وفاةُ الطائع للَّه على ما سنذكُرُه.

وفيها: منَع عَميدُ الجُيوش الشّيعةَ من النَّوْحِ على الحسينِ في عاشوراءَ، ومنَع جَهَلَةَ السُّنَّةِ وبباب البصرةِ وبابِ الشَّعيرِ من النِّياحةِ على مُصْعَبِ بنِ الزبيرِ بعدَ ذلك بثمانيةِ أيامٍ، فامْتَنع الفريقان، وللَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ.

وفي أواخرِ المُحَرَّم خلَع بَهاءُ الدولةِ وزيرَه أبا غالبٍ محمدَ بنَ خلَفٍ عن الوِزارةِ، وصادرَه بمائةِ ألف دينارٍ قاسانيةٍ.

وفي أوائلِ صفَرٍ منها غلَت الأسعارُ ببغدادَ جدًّا، وعُدِمَت الحِنْطةُ حتى بِيع الكُرُّ منها بمائةٍ وعشرين دينارًا.

وفيها: بَرز عَميدُ الجيوشِ إلى سُورا، واستَدْعَى سيدَ الدولةِ أبا الحسنِ عليَّ بنَ مَزْيَدٍ، وقرَّر عليه في كلِّ سنةٍ أربعين ألفَ دينارٍ فالْتَزم ذلك وقرَّره على بلاده.

وفيها: هرَب أبو العباسِ الضَّبِّيُّ وزيرُ مَجْدِ الدولةِ بنِ فخرِ الدولةِ من الرَّيِّ إلى بدرِ بنِ حَسْنَوَيْه، فأكرَمه، وولي بعدَ ذلك وزارةَ مجدِ الدولةِ أبو عليٍّ الخطيرُ.

وفيها: استَتاب الحاكمُ على دمشقَ وجُيوشِ الشامِ أبا محمدٍ الأسودَ، ثم بلَغه أنه عزَّر رجلًا مَغْربيًّا على حبِّه أبا بكرٍ وعمرَ، رضي اللَّهُ عنهما، وطاف به في البلدِ، فخاف من مَعَرَّةِ ذلك، فبعَث إليه، فعزَله مَكْرًا وخَديعةً. وانْقَطَع الحجُّ في هذه السنةِ من العراقِ بسببِ الأعْرابِ.

وممَّن تُوُفي فيها من الأعْيان:

إبراهيمُ بنُ أحمدَ بنِ محمدٍ، أبو إسحاقَ الطَّبَريُّ: ، الفقيهُ المالكيُّ، مُقَدَّمُ المُعَدِّلين ببغدادَ، وشيخُ القراءاتِ، وقد سمع الكثيرَ من الحديثِ، وخرَّج له الدارَقُطْنيُّ خمسَمائة جزءِ حديثٍ، وكان كريمًا مُفَضِّلًا على أهلِ العلمِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

الطائع للَّه عبدُ الكريم بنُ المُطيع: ، تقَدَّم كيف خلَعه بهاءُ الدولةِ أبو نصرِ بنُ عضدِ الدولةِ، وأنَّه أُودع في غرفةٍ بدارِ الخلافةِ وأُجري عليه أرزاقٌ كثيرةٌ وألطافٌ غزيرةٌ إلى أنْ تُوُفِّي ليلةَ عيدِ الفطرِ من هذه السنةِ عن ستٍّ وسبعين سنةً، وقد باشَر الخلافةَ سبعَ عشْرةَ سنةً وستةَ أشهرٍ وخمسةَ أيامٍ، وصلَّى عليه القادرُ باللَّهِ، فكبَّر عليه خمسًا، وشهِد جنازتَه الأكابرُ والأعيانُ، ودُفِن بالرُّصافةِ.

محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ العباسِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ زكريا، أبو طاهر المُخَلِّصُ: شيخٌ كبيرٌ كثيرُ الرِّوايةِ، سمع البغويَّ وابنَ صاعدٍ وخَلْقًا، وعنه البَرْقانيُّ والأزهريُّ والخلَّالُ والتَّنوخيُّ، وكان ثقةً مِن الصالحين، تُوُفِّي في رمضانَ من هذه السنةِ عن ثمانٍ وثمانين سنةً، رحمه اللَّهُ.

محمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ، أبو الحسنِ السَّلاميُّ: الشاعرُ المُجيدُ، له شعرٌ مشهورٌ، ومَدائحُ في عَضُدِ الدولةِ وغيرِه.

مَيمونةُ بنتُ شاقولةَ: الواعظةُ، التي هي للقرآنِ حافظةٌ، ذكَرَت يومًا في وَعْظِها أن ثوبَها الذي عليها - وأشارَت إليه - له في صُحْبتِها تَلْبَسُه منذُ سبعٍ وأربعين سنةً وما تغَيَّر، وأنه كان من غَزْلِ أمِّها. قالت: والثوبُ إذا لم يُعْصَ اللَّهُ فيه لا يَتخرَّقُ سريعًا. وقال ابنُها عبدُالصمد: كان في دارِنا حائطٌ يُريدُ أن يَنْقَضَّ، فقلتُ لها: ألا نَدْعُو البَنَّاءَ ليُصلِحَ هذا الجدارَ؟ فأخَذَت رُقْعةً، فكتَبَت فيها شيئًا، ثم أمرَتني أن أَضَعَها في موضعٍ مِن الجدارِ، فوضَعْتُها، فمكَث على ذلك عشرين سنةً، فلما تُوُفِّيت أرَدْتُ أن أَستَعْلِمَ ما كتَبَت في الرُّقْعةِ، فحينَ أخَذْتُها مِن الجدارِ سقَط، وإذا في الرُّقْعةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]. بسمِ اللَّهِ يا مُمْسِك السَّمواتِ والأرضِ أمْسِكْه.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وثلاثمائة

فيها: ولَّى بَهاءُ الدولةِ الشريفَ أبا أحمدَ الحسينَ بنَ أحمدَ بنِ موسى المُوسَويَّ قَضاءَ القُضاة، والحجَّ والمَظالمَ، ونقابةَ الطالبيِّين، ولُقِّب بالطاهرِ الأوْحدِ ذي المَناقبِ، وكان التَّقْليدُ له بشيرازَ. فلما وصَل الكتابُ إلى بغدادَ لم يَأْذَنْ له الخليفةُ القادرُ في قَضاءِ القُضاةِ، فتوَقَّف حالُه بسببِ ذلك.

وفيها: ملَك أبو العباسِ بنُ واصلٍ بلادَ البَطيحةِ وأخْرَج منها مُهذِّبَ الدولةِ، فقصَده زعيمُ الجيوشِ ليَأْخُذَها منه، فهزَمه ابنُ واصلٍ، ونهَب أموالَه وحَواصلَه، وكان في جُملةِ ما أصاب في خَيْمةِ الخزانةِ ثلاثون ألفَ دينارٍ وخمسون ألفَ درهمٍ.

وفيها: خرَج الرَّكْبُ العراقيُّ في جَحفلٍ كبيرٍ وتَجَمُّلٍ كثيرٍ، فاعْتَرَضهم الأُصَيْفِرُ أميرُ الأعْرابِ لينهَبَهم، فبعثُوا إليه بشابَّين قارئَيْن مُجيدَيْن كانا معهم - يقالُ لهما: أبو الحسينِ بنُ الرَّفَّاءِ، وأبو عبدِ اللَّهِ ابنُ الدجَّاجيِّ. وكانا مِن أحسنِ الناسِ قراءةً - ليُكلِّماه في شيءٍ يَأْخُذُه مِن الحَجيجِ، ويُطْلِقُ سَراحَهم ليُدرِكوا الحجَّ، فلما جلَسا بينَ يديه قرأا جميعًا عَشْرًا بأصْواتٍ هائلةٍ مَطْبوعةٍ، فأدْهَشه ذلك

وأعْجَبه جدًّا، وقال لهما: كيف عيشُكما ببغداد؟ فقالا: بخيرٍ، لا يَزالُ الناسُ يُكرِمُوننا ويَبْعثون إلينا بالذهب والدراهم والتُّحف. فقال: هل أطْلَق لكما أحدٌ منهم ألفَ ألفَ دينار؟ فقالا: لا، ولا ألفَ دينارٍ في يومٍ واحدٍ. قال: فإنِّي أُطلِقُ لكما ألفَ ألفِ دينار. فأطْلَق بسببهما الحجيجَ، فلم يَعرِضْ لأحدٍ منهم، وذهَب الناسُ وهم سالمون شاكرون لذَيْنِك الرجلَيْن المُقرِئَيْن. ولما وقَف الناسُ بعرفاتٍ قرَأ هذان الرجلان قراءةً عظيمةً على جبلِ الرحمة فضجَّ الناسُ من سائرِ الرُّكوبِ لقراءتهما، وقالوا لأهلِ العراقِ: ما كان يَنْبَغي أن تَخرُجوا بهذين الرجلين في سَفْرةٍ واحدةٍ؛ لاحْتمالِ أن يُصابا جميعًا، بل كان يَنْبَغي أن تخرُجوا بأحدِهما، فإذا أُصيب سلِم الآخرُ. وكانت الحَجَّةُ والخُطْبةُ في هذه السنةِ أيضًا للمصْريِّين كما هي لهم من سنين مُتَقدمةٍ.

وقد كان أميرُ العراقيِّين عزَم على العَوْدِ سريعًا إلى بغدادَ على طريقِهم التي جاءوا منها، وأن لا يَسيرَ إلى المدينةِ النبويةِ؛ خوفًا من الأعْرابِ، وكثرةِ الخفاراتِ، فشقَّ ذلك على الناسِ، فوقَف هذان القارئان على جادَّةِ الطريقِ التي منها يُعْدَلُ إلى المدينة النبويةِ، وقرآ: ﴿**مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ**﴾ الآيات [التوبة: ١٢٠] فضجَّ الناسُ بالبُكاء، وأمالت النُّوقُ أعْناقها نحوَهما، فمال الناسُ والأميرُ بأجمعِهم مَيلةً واحدةً إلى المدينة النبويةِ، فزاروا وعادوا سالمين إلى بلادهم. ولله الحمدُ والمنةُ.

ولما رجَع هذان القارئان رتَّبهما وَلِيُّ الأمْرِ مع أبي بكرِ بنِ البُهْلولِ - وكان مُقرِئًا مُجيدًا أيضًا - ليُصلُّوا بالناس صلاةَ التَّراويحِ في رمضانَ، فكثُر الجَمْعُ وراءَهم لحُسْنِ تلاوتِهم، وكانوا يَتَناوَبون في الإمامةِ.

وقد قرَأ ابنُ البُهْلولِ يومًا في جامعِ المنصورِ قولَه تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ**﴾ [الحديد: ١٦] فنهَض إليه رجلٌ صُوفيٌّ وهو يَتَمايَلُ فقال: كيف قلتَ؟ فأعاد الآيةَ، فقال الصُّوفيُّ: بلى واللَّه. وسقَط ميتًا، رحمه اللَّهُ. قال ابنُ الجَوْزيِّ: وكذلك وقَع لأبي الحسنِ ابنِ الخَشَّابِ شيخِ ابنِ الرَّفَّا، وكان تلْميذًا لأبي بكرِ بنِ الآدَميِّ المتقدمِ ذِكْرُه، وكان جيدَ القراءةِ حسَنَ الصوتِ أيضًا، قرَأ ابنُ الخَشَّابِ ليلةً في جامعِ الرُّصافةِ في الإحْياءِ هذه الآيةَ: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ**﴾ فتواجَد رجلٌ صُوفيٌّ وقال: بلَى قد آن. وجلَس وبكَى بُكاءً طويلاً، ثم سكَت سَكْتةً، فحرَّكوه، فإذا هو ميتٌ، رحمه اللَّهُ تعالى.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

الحسنُ بنُ محمدِ بنِ إسماعيلَ، أبو عليٍّ الإسْكافيُّ، ويُلَقَّبُ بالمُوفَّقِ، كان مُقَدَّمًا عند بهاءِ

الدولةِ، فولاَّه بغداد، فأخَذ أموالاً كثيرةً مِن اليهود، ثم هربَ إلى البَطيحةِ، فأقام بها سَنَتَين، ثم قدِم بغدادَ، فولاَّه بهاءُ الدولةِ الوزارةَ، وكان شهْمًا مَنْصوراً في الحروبِ، ثم عاقَبه بعدَ ذلك وقتَله في هذه السنةِ، عن تسعٍ وأربعين سنةً.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وثلاثمائة

فيها: عاد مُهَذِّبُ الدولةِ إلى البَطيحةِ، ولم يُمانِعْه ابنُ واصلٍ، وتقرَّر عليه في كلِّ سنة لِبَهاء الدولةِ خمسون ألفَ دينارٍ. وفيها كان غَلاءٌ عظيمٌ وفَناءٌ ببلاد إفْريقيَّةَ، بحيث تعطَّلَت المَخابزُ والحَمَّاماتُ، وذهَب خَلْقٌ كثيرٌ مِن الفَناءِ، وهلَك آخرون مِن شدةِ الغَلاءِ، فللهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ، وهو المسئولُ المأمولُ أن يُحْسِنَ العاقِبةَ.

وفيها: أصاب الحَجيجَ في الطريقِ عَطَشٌ شديدٌ بحيث هلَك كثيرٌ منهم.

وكانت الخُطْبةُ للمِصْريين، كما تقدم.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ موسى بنِ جعفرٍ، أبو نصرٍ البُخاريُّ، المَعروفُ بالمَلاحِميِّ، أحدُ الحُفَّاظِ، قدِم بغدادَ، وحدَّث بها عن محمودِ بنِ إسحاقَ، عن البُخاريِّ، وروَى عن الهيثمِ بنِ كُلَيْبٍ وغيرِه، وحدَّث عنه الدارَقُطْنيُّ، وكان مِن أعْيانِ أصحابِ الحديثِ. تُوُفِّي ببُخارَى في شعبانَ من هذه السنةِ وقد جاوَز الثمانين.

محمدُ بنُ أبي إسْماعيلَ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ الحسنِ بنِ القاسمِ، أبو الحسنِ العَلَويُّ، وُلِد بهَمَذانَ، ونشَأ ببغدادَ، كتَب الحديثَ عن جعفرٍ الخُلْديِّ وغيرِه، وسمِع بنَيْسابورَ مِن الأصَمِّ وغيرِه، ودرَس فقهَ الشافعيِّ على أبي عليِّ بنِ أبي هريرةَ، ثم دخَل الشامَ، فصحِب الصوفيةَ حتى صار مِن كِبارِهم، وحج مراتٍ على الوَحْدة، وكانت وفاتُه في مُحَرَّمٍ هذه السنةِ.

ابنُ فارسٍ: أبو الحسنِ أحمدُ بنُ فارسِ بنِ زكريا بنِ محمدِ بنِ حَبيبٍ الرازيُّ اللُّغَويُّ، صاحبُ «المُجْمَلِ» في اللغةِ، وكان مُقيمًا بهَمَذانَ، وله رَسائلُ حِسانٌ، أخَذ عنه البَديعُ صاحبُ «المَقاماتِ»، ومِن رائقِ شعرِه قولُه:

مرَّت بنا هَيْفاءُ مَجْدولةٌ ... تُرْكيَّةٌ تَنْمي لتُرْكيِّ

تَرْنُو بطَرْفٍ فاتِرٍ فاتنٍ ... أضْعَفَ مِن حُجَّةِ نَحْويِّ

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرْسِلاً وأنت بهـا كَلِفٌ مُغْرَمُ
فأرْسِلْ حكيمًا ولا تُوصِه وذاك الحكيمُ هو الدرهمُ

وله أيضًا:

قال ابنُ خَلِّكانَ: تُوُفِّي سنةَ تسعين وثلاثمائة. وقيل: سنةَ خمسٍ وتسعين. والأول أشهرُ.

ثم دخلت سنة ست وتسعين وثلاثمائة

قال ابنُ الجَوْزيِّ: في ليلةِ الجمعةِ مُسْتَهَلِّ شعبانَ طلَع نجمٌ يُشْبِهُ الزُّهَرةَ في كِبَرِه وضَوْئِه عن يَسْرةِ القِبْلةِ يَتَمَوَّجُ، وله شُعاعٌ على الأرضِ كشُعاعِ القمرِ، وثبَت إلى النصفِ من ذي القَعْدة، ثم غاب.

وفيها: ولي محمدُ بنُ الأكْفانيِّ قضاءَ جميعِ بغدادَ. وفيها جلَس القادرُ للأميرِ قِرْواشِ بنِ أبي حَسَّانَ وأفْرَده في إمارةِ الكوفة، ولقَّبه مُعْتَمِدَ الدولة.

وفيها: قُلِّد الشريفُ الرَّضِيُّ نقابةَ الطالبيِّين، ولُقِّب بالرَّضِيِّ ذي الحَسَبَيْن، ولُقِّب أخوه المُرْتَضَى ذا المَجْدَيْن. وفيها غزا يَمينُ الدولةِ محمودُ بنُ سُبُكْتِكِين بلادَ الهند، فافْتَتَح مدنًا كبارًا منها. وأخَذ أموالاً جَزيلةً، وأسَر بعضَ مُلوكِهم، وهو ملكُ كَواشَى حينَ هرَب منه لما افْتَتَحها، وكسَر أصْنامَها، فألْبَسه مِنْطَقةً، وشدَّها على وسطِه بعدَ تَمَنُّعٍ شديدٍ، وقطَع خِنْصَرَه، ثم أطْلَقه إهانةً له، وإظْهارًا لعظَمةِ الإسلامِ وأهلِه.

وفيها: كانت الخُطْبةُ بالحرمَيْن للحاكمِ العُبَيْديِّ، وتجدَّد في حالِ الخُطْبةِ أنه إذا ذكَر الخطيبُ الحاكمَ يقومُ الناسُ كلُّهم، وكذلك بديارِ مصرَ مع زيادةِ السُّجودِ فكانوا يَسْجُدون عندَ ذكْرِه؛ يَسْجُدُ مَن هو في الصلاةِ، ومَن هو في الأسواقِ أيضًا يَسْجُدون لسُجودِهم، لعَنَهم اللهُ سبحانه وتعالى.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

أبو سعد إسماعيل بنُ أحمدَ بن إبراهيمَ بن إسماعيلَ أبو سعد الجُرْجانيُّ، المعروفُ بالإسماعيليِّ، ورَد بغدادَ والدارَقُطْنيُّ حيٌّ، وحدَّث عن أبيه أبي بكرٍ الإسْماعيليِّ والأصَمِّ، وابنِ عَديٍّ، وحدَّث عنه الخَلاَّلُ والتَّنوخيُّ، وكان ثقةً فاضلاً، فقيهًا على مذهبِ الشافعيِّ، عارفًا بالعربيةِ، سَخيًا جَوادًا على أهلِ العلمِ، وله ورَعٌ، والرياسةُ إلى اليومِ في بلدِه في ولدِه. قال الخطيبُ البغداديُّ: سمِعْتُ الشيخَ أبا الطيبِ الطبريَّ يقولُ: ورَد أبو سعدٍ الإسْماعيليُّ بغدادَ، فعقَد له الفُقَهاءُ

مجلسَيْن؛ تولّى أحدَهما أبو حامدٍ الإسْفَرايينيُّ، وتولّى الثانيَ أبو محمدٍ البافيُّ فبعَث البافيُّ إلى القاضي المُعافَى بنِ زكريا الجَريريِّ يَستَدْعيه إلى حُضورِ المجلسِ؛ ليتجمَّلَ بحضورِه، وكانت الرسالةُ مع ولدِه أبي الفضلِ، وكتَب على يدِه هذين البيتَيْن:

إذا أكْرَمَ القاضي الجليلُ وليَّه ... وصاحبَه ألفاه للشكرِ مَوْضِعًا
ولي حاجةٌ يأتي بُنَيَّ بذكرِها ... ويَسْأَلُه فيها التَّطَوُّلَ أجمَعَا

فأجابه الجَريريُّ مع ولدِ الشيخ:

دعا الشيخُ مِطْواعًا سَميعًا لأمرِه ... يُواتيه باعًا حيث يرسُمُ أصْبُعَا
وها أنا غادٍ في غدٍ نحوَ دارِه ... أُبادِرُ ما قد حدَّه ليَ مُسرِعَا

وكانت وفاةُ أبي سعدٍ الإسْماعيليِّ فجاةً بجُرْجانَ في ربيعٍ الآخِرِ وهو قائمٌ يُصلِّي في المحرابِ، في صلاةِ المغربِ، فلما قرأ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] فاضَت نَفْسُه فمات، رحمه اللَّهُ تعالى.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ جعفرِ بنِ محمدِ بنِ محمدِ بنِ بَحِيرٍ، أبو عَمرٍو المُزَكِّي: ، الحافظُ النَّيسابوريُّ، ويُعْرَفُ بالبَحِيريِّ، رحَل إلى الآفاقِ في طلبِ العلمِ، وكان حافظًا جيدَ المُذاكَرةِ، ثقةً ثبْتًا، حدَّث ببغدادَ وغيرِها مِن البلادِ، وتُوُفِّي في شعبانِ هذه السنةِ عن ثلاثٍ وستين سنةً.

أبو عبدِ اللَّهِ بنُ مَنْدَه الحافظُ: محمدُ بنُ إسحاقَ بنِ محمدِ بنِ يحيى بنِ مَنْدَه، أبو عبدِ اللَّهِ الأصْفهانيُّ الحافظُ:[1] ، مِن بيتِ الحديثِ والحفظِ، رحَل إلى البلادِ الشاسعةِ، وسمع الكثيرَ، وصنَّف «التاريخ»، و«الشيوخ». قال أبو العباسِ جعفرُ بنُ محمدٍ الحافظُ: ما رأيْتُ أحفظَ مِن أبي عبدِ اللَّهِ بنِ مَنْدَه.

تُوُفِّي بأصْفَهانَ في صفرٍ من هذه السنةِ، رحمه اللَّهُ تعالى وإيانا برحمته.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وثلاثمائة

فيها: كان خروجُ أبي رَكْوةَ على الحاكمِ العُبَيديِّ صاحبِ مصرَ.

ومُلَخَّصُ أمرِ هذا الرجلِ أنه كان مِن سُلالةِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ الأُمَويِّ، واسمُه الوليدُ،

(١) ترجمته في «السير» (١٧/ ٢٨).

وإنما لُقِّب بأبي رَكْوة لركْوةٍ كان يستَصْحِبُها في أسْفاره على طريقة الصُّوفية، وقد كان سمع الحديثَ بالديار المصْرية، ثم أقام بمكةَ، ثم باليمن، ثم دخَل الشامَ، وهو في غُبُونِ هذا كلّه يُبايعُ مَن انْقاد له، ممَّن يَرَىٰ عندَه همةً ونَهْضةً للقائم من ولدِ هشام بنِ عبدِ الملك الأمويِّ، ثم إنه أقام ببعضِ بلادِ مصرَ في حَلَّةٍ من حِلالِ العرب، يُعَلِّمُ الصِّبيانَ، ويُظهِرُ النُّسُكَ والتَّقَشُّفَ والعبادةَ والوَرَعَ، ويُخْبِرُ بشيءٍ من المُغَيَّبات، حتىٰ خضعوا له وعظَّموه جدًّا، ثم دعا إلىٰ نفسه، وذكَر لهم أنه الذي يدعو إليه من الأمويين، فاستجابوا له وخضَعوا، وخاطَبوه بأمير المؤمنين، ولُقِّب بالثائرِ بأمر اللَّهِ المُنْتَصِرِ من أعْداء اللَّه، ودخَل بَرْقَةَ في جَحفلٍ، فجَمع له أهلُها نحوًا من مائتَيْ ألفِ دينارٍ، وأخَذ رجلاً من اليهودِ اتُّهم بشيءٍ من الوَدائع، فأخَذ منه مائتَيْ ألفِ دينارٍ أيضًا، ونقَشوا الدراهمَ والدنانيرَ بألقابه، وخطَب بالناسِ يومَ الجمعةِ، ولعَن الحاكمَ في الخطبةِ، ونعمًا فعَل، فالْتفَّ علىٰ أبي رَكْوةَ من الجُنودِ نحوٌ من ستةَ عشرَ ألفًا، فلما بلَغ الحاكمَ أمرُه وما آل إليه حالُه بعَث بخمسمائة ألفِ دينارٍ وخمسة آلافِ ثوبٍ من الحرير إلىٰ مُقَدَّم جُيوشِ أبي رَكْوةَ، وهو الفضلُ بنُ عبدِ اللَّه يَسْتَميلُه إليه ويَثْنِيه عن أبي رَكْوةَ، فحينَ وصَلَتْه الأموالُ من الحاكمِ رجَع عن أبي رَكْوةَ وقال: إنا لا طاقةَ لنا بالحاكم، وما دُمْتَ بينَ أظهرِنا فنحن مَطْلوبون بسببِك، فاخْتَرْ لنفسك بلدًا تكونُ فيها. فسأل أن يَبْعَثوا معه فارسَيْن يُوصلانه إلى النُّوبَة فإن بينَه وبينَ مَلِكها مَوَدةً وصُحْبةً، فأرْسَله، ثم بعَث وراءَه مَن ردَّه إلى الحاكمِ بمصرَ، فلما وصَل إليه أرْكَبه جملاً وأشهَره، ثم قتَله في اليوم الثاني، ثم أكْرَم الحاكمُ الفَضْلَ، وأقْطَعه إقطاعاتٍ كثيرةً. واتَّفَق مرَضُ الفضلِ، فعاده الحاكمُ مرتين، فلما عُوفِيَ قتَله، وألْحَقه بصاحبِه أيضًا، وكافأه مُكافأةَ التِّمْساحِ.

وفي رمضانَ عُزِل قِرْواشٌ عما كان بيدِه ووليه أبو الحسنِ عليُّ بنُ مَزْيدٍ، ولُقِّب بسَنَدِ الدولةِ.

وفيها: هزَم يَمينُ الدولةِ محمودُ بنُ سُبُكْتكين أتلكَ ملكَ الترك عن بلاد خُراسانَ، وقتَل من الأتراك خلقًا كثيرًا.

وفيها: قُتِل أبو العباسِ بنُ واصلٍ صاحبُ البصرةِ، وحُمِل رأسُه إلىٰ بَهاء الدولةِ، فطِيف به بخُراسانَ وفارسَ.

وفيها: ثارت علىٰ الحَجيجِ وهم بالطريقِ ريحٌ سوداءُ مُظْلمةٌ جدًّا، واعْتَرَضهم ابنُ الجَرَّاحِ أميرُ الأعرابِ فاعْتاقهم عن الذَّهابِ ففاتهم الحجُّ في هذا العامِ ورجَعوا إلىٰ بغدادَ، فدخَلوها في يومِ التَّرْويةِ. وكانت الخُطْبةُ بالحرمَيْن للمصْريين.

ومِمن توفي فيها من الأعْيان:

عبدُ الصمد بنُ عمرَ بن محمد بن إسحاقَ، أبو القاسم الدِّيَنَوَريُّ:

الواعظُ الزاهدُ، قرَأ القرآنَ، ودرَس مذهبَ الشافعيِّ على أبي سعيدٍ الإصْطَخْريِّ، وسمع الحديثَ مِن أبي بكرٍ أحمدَ بنِ سلمانَ النَّجَّادِ، وروىٰ عنه الأَزَجيُّ، والصَّيْمَريُّ، وكان ثقةً صالحًا، يُضْرَبُ به المَثَلُ في مُجاهَدةِ النفس، واسْتِعْمالِ الصِّدْقِ المَحْضِ، والتَّعَفُّفِ والتَّقَشُّفِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، وحُسْنِ وعْظِه ونَفْعِه في القلوب.

جاءه يومًا رجلٌ بمائة دينارٍ فقال: أنا غنيٌّ عنها.

فقال: خُذْها ففَرِّقْها على أصحابك هؤلاء. فقال: ضَعْها على الأرضِ.

فوضَعها ثم قال للجماعة: لِيَأْخُذْ كلُّ واحدٍ منكم حاجتَه منها.

فجعَلوا يأْخُذون بقَدْرِ حاجاتهم حتىٰ أنْفَدوها، وجاء ولدُه بعدَ ذلك، فشكَىٰ إليه حاجتَهم فقال: اذْهَبْ إلى البَقَّالِ، فخُذ عليَّ رُبْعَ رِطْلِ تمرٍ.

ورآه رجلٌ وقد اشْتَرىٰ دَجاجةً وحَلْواءَ، فتعَجَّب مِن ذلك، فاتَّبَعه فانتهىٰ إلى دارٍ فيها أراملُ وأيْتامٌ، فدفَعها إليهم، وقد كان يَدُقُّ السُّعْدَ للعطَّارين بالأجْرةِ ويَقْتاتُ مِن ذلك. ولما حضَرَته الوَفاةُ جعلَ يقولُ: سيِّدي لهذه الساعة خبَأْتُك.

وكانت وفاتُه يومَ الثلاثاء لسبعٍ بقِين من ذي الحِجَّة مِن هذه السنةِ، وصُلِّي عليه بجامعِ المَنْصورِ، ودُفِن بمقبرة الإمام أحمدَ.

أبو العباس بنُ واصلٍ:

صاحبُ سِيرافَ والبَصرةِ وغيرِهما مِن البلادِ، كان أولاً يَخْدُمُ بالكَرْخِ، وكان مُتَصَوِّرًا له أنه سَيَمْلِكُ، فكان أصحابُه يَهْزءون به ويمجُنون عليه، فيقولُ أحدُهم: إذا ملَكْتَ فاسْتَخْدِمْني. ويقولُ الآخرُ: اخْلَعْ عليَّ. ويقولُ الآخرُ عاقِبْني. فقُدِّر له أن تتقَلَّبَ به الأحوالُ إلى أن ملَك سِيرافَ ثم البصرةَ، وأخَذ بلادَ البَطيحةِ مِن مُهَذَّبِ الدولةِ، وأخْرَجه منها طَريدًا، بحيث أنه احْتاج في أثناءِ الطريقِ إلى أن ركِب بقرةً.

واسْتَحْوذ ابنُ واصلٍ على ما هنالك مِن الأموالِ والحواصلِ، وقصَد الأهْوازَ، وهزَم بَهاءَ الدولةِ بها، ثم ظفِر به بَهاءُ الدولةِ، فقتَله في شعبانَ مِن هذه السنةِ، وطِيف برأسِه في البلادِ.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة

فيها: غزا يَمينُ الدولة محمودُ بنُ سُبُكْتِكِينَ بلادَ الهند، ففتَح حُصونًا كثيرةً، وأخَذ أموالاً جَزيلةً وجَواهرَ نَفيسةً، وكان في جُملة ما وجَد بيتٌ طولُه ثلاثون ذراعًا، وعرضُه خمسةَ عشَرَ ذراعًا مملوءًا فضةً، ولما رجَع إلى غَزْنَةَ بسَط هذه الحواصلِ كلَّها في صَحْنِ داره، وأذِن لرسلِ الملوك، فدخَلوا عليه فرأَوا ما بهَرهم وهالهم.

وفي يوم الأربعاء الحادي عشَرَ من ربيعٍ الآخرِ وقَع ببغدادَ ثَلْجٌ عظيمٌ، بحيث بقِي على وجه الأرض ذراعًا ونصفًا، ومكَث أسبوعًا لم يَذُبْ، وبلَغ سُقوطُه إلى تَكْرِيتَ والكوفة وعَبَّادانَ والنَّهْرَوانات. وفي هذا الشهر كثُرت العَمَلاتُ خُفْيَةً وجَهْرَةً، حتى من المساجد والمَشاهد، ثم ظفِر أصحابُ الشُّرْطة بكثير منهم فقطَعوا أيديهم وكحَلوهم وشهَروهم، فخَمَدَت الفتنةُ. ولله الحمدُ والمنةُ.

قصة مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وتحريقه عن فتيا الشيخ أبي حامد الإسفراييني مما ذكره ابن الجوزي في «المنتظم»

وفي عاشر رجبٍ جرت فتنةٌ بينَ الرافضة والسنة، سببُها أن بعضَ الهاشميين قصَد أبا عبد الله محمدَ بنَ النُّعمان، المعروفَ بابن المُعَلِّم - وكان فقيهَ الشِّيعة - في مسجده بدرب رِياح، فعرَض له بالسَّبِّ، فثار أصحابُه له، واستَنْفَر أصحابَ الكَرْخ، وصاروا إلى دار القاضي أبي محمد بن الأكْفاني والشيخ أبي حامد الإسْفرايِينيِّ، وجرَت فتنةٌ طويلةٌ، وأحْضَرَت الشِّيعةُ مُصْحفًا ذكَروا أنه مُصْحَفُ عبد الله بن مسعودٍ، وهو يُخالفُ المَصاحفَ كلَّها، فجُمع الأشْرافُ والقُضاةُ والفُقهاءُ في يوم جمعةٍ لليلةٍ بقِيت من رجبٍ، وعُرِض المصْحَفُ عليهم، فأشار الشيخُ أبو حامد الإسْفَرايِينيُّ والفُقهاءُ بتَحْريقه، ففعَل ذلك بمَحْضَرٍ منهم، فغَضِبت الشِّيعةُ من ذلك غضبًا شديدًا، وجعَلوا يَدْعُون ليلةَ النصف من شعبانَ على مَن فعَل ذلك ويَسُبُّونه، وقصَد جماعةٌ من أحْداثهم دارَ الشيخ أبي حامد ليُؤْذُوه، فانْتَقَل منها إلى دار القُطْن، وصاحوا: يا حاكمُ يا منصورُ. وبلَغ ذلك الخليفةَ، فغضب وبعَث أعوانَه لنصرة أهل السُّنة، فحُرِّقت دورٌ كثيرةٌ من دور الشيعة، وجرَت خطوبٌ شديدةٌ وبعَث

عَميدَ الجُيوشِ إلىٰ بغدادَ لِيَنْفِيَ عنها ابنَ المُعَلِّم، فأُخْرِجَ منها، ثم شُفِعَ فيه، ومُنِعَتِ القُصَّاصُ مِنَ التَّعرُّضِ للفِتَنِ والسؤالِ باسمِ أحَدٍ مِنَ الصحابةِ، وعاد الشيخُ أبوحامدٍ إلىٰ دارِه علىٰ عادته.

وفي شعبانَ زُلْزِلَت الدِّينَوَرُ زلزالاً شديداً، سقَطَت منها دُورٌ كثيرةٌ، وهلَك تحتَ الهَدْمِ ستةَ عشَرَ ألفًا غيرَ مَن ساخت به الأرضُ وهلَك للناسِ شيءٌ كثيرٌ من الأثاثِ والأمتعةِ.

وهبَّت ريحٌ سوداءُ بدَقُوقاءَ وتَكْريتَ وشيرازَ، فقَلَعَتْ كثيراً مِنَ المَنازلِ والنَّخيلِ والزَّيتونِ، وقتَلَت خلقًا كثيراً.

وسقَط بعضُ شيرازَ. ووقَعَت رَجْفةٌ بشِيرازَ، غرِق بسببِها مَراكِبُ كثيرةٌ في البحرِ. ووقَع بواسطٍ بَرَدٌ زِنَةُ الواحدةِ مائةُ درهمٍ وستةُ دَراهمَ.

ووقَع ببغدادَ في رمضانَ - وذلك في أيَّارَ - مطرٌ عظيمٌ سالَت منه المَزاريبُ.

ذكر تخريب قمامة في هذه السنة

وفيها: أمَر الحاكمُ العُبَيْديُّ بتَخْريبِ كنيسةِ القُمامةِ مِن بيتِ المقدسِ، وأباح للعامَّةِ ما كان فيها مِنَ الأموالِ والأمتعةِ وغيرِ ذلك، وكان سببَ ذلك ما أُنْهِيَ مِنَ البُهْتانِ الذي يَتَعاطاه النصارىٰ في يومِ الفِصْحِ مِنَ النارِ التي يَحْتالون لها، بحيثُ يَتَوهَّمُ الأغمارُ مِن جَهَلَتِهم أنها نزلَت مِنَ السماءِ، وإنما هي مَصْنوعةٌ بدُهْنِ البَلَسانِ في خُيوطِ الإِبْرَيْسَمِ الرِّفاعِ المَدْهونةِ بالكِبريتِ وغيرِه، بالصَّنْعةِ اللَّطيفةِ التي تَروجُ علىٰ الطَّغامِ منهم والعوامِّ، وهم إلىٰ الآنَ يَسْتَعْمِلونها في ذلك المكانِ بعينِه. وكذلك أمَر بهَدْمِ عِدَّةِ كنائسَ في هذه السنةِ ببلادِ مصرَ، ونُودِيَ في النصارىٰ بمِصْرَ: مَن أحَبَّ الدخولَ في دِينِ الإسلامِ دخَل، ومَن لا يَدْخُلْ فلْيَرْجِعْ إلىٰ بلادِ الرومِ آمِنًا، ومَن أقام منهم علىٰ دينِه فلْيَلْتَزِمْ بما شُرِط عليهم مِنَ الشروطِ التي زاد فيها علىٰ العُمَرِيَّةِ، مِن تَعْليقِ الصُّلْبانِ علىٰ صدورِهم، مِن خَشَبٍ زِنَةُ الصَّليبِ منهم أربعةُ أرْطالٍ، وعلىٰ اليهودِ تَعْليقُ رأسِ العِجْلِ زِنَتُه ستةُ أرْطالٍ. وفي الحَمَّامِ يكونُ في عُنُقِ الواحدِ منهم قِرْبةٌ زِنَةُ خمسةِ أرْطالٍ، وأجْراسٌ، وأن لا يَرْكَبوا خيلاً. ثم بعدَ هذا كلِّه أمَر بإعادةِ بناءِ الكَنائسِ التي هدَمها، وأذِن لمن أسْلَم منهم في الارْتِدادِ إلىٰ دينِه. وقال: نُنَزِّهُ مَساجدَنا أن يَدْخُلَها مَن لا نيةَ له. قبَّحه اللَّهُ تعالىٰ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

عبدُ اللَّه بنُ محمد؛ أبو محمد البافيُّ[1] : البُخاريُّ الخُوارزميُّ، أحدُ أئمة الشافعية في وقته، تفَقَّه على أبي القاسم الداركيِّ، ودرَّس مكانَه، وله معرفةٌ جيدةٌ بالأدب والفصاحة والشعر.

جاء مرةً ليَزورَ بعضَ أصحابه فلم يَجِدْه فكتَب إليه:

قد حضَرْنا وليس يَقضي التَّلاقي	نَسْأَلُ اللَّهَ خيرَ هذا الفِراقِ
إن تَغِبْ لم أغِبْ وإن لم تَغِبْ غِبْـ	ـتُ كأنَّ افتراقَنا باتِّفاقِ

وقد كانت وفاتُه في مُحَرَّم هذه السنة، وقد ذكَرْنا ترجمتَه في «طَبَقات الشافعية».

عبدُ اللَّه بنُ أحمدَ بنِ عليِّ بنِ الحسن، أبو القاسم المُقْرئ المعروفُ بالصَّيْدَلانيِّ، وهو آخرُ مَن حدَّث عن ابنِ صاعدٍ مِن الثِّقات، وروى عنه الأزْهَريُّ، وكان ثقةً مأمونًا صالحًا. تُوُفِّي في رجبٍ من هذه السنة وقد جاوَز التسعين، رحمه اللَّهُ تعالى.

البَبَّغَاءُ، عبدُ الواحد بنُ نصر بن محمد، أبو الفرج المَخْزوميُّ، الشاعرُ المُلقَّبُ بالبَبَّغَاءِ، تُوُفِّي في شعبانَ من هذه السنة، وكان أديبًا فاضلاً مُتَرَسِّلاً شاعرًا مُجيدًا، فمِن ذلك قولُه:

يا مَن تشابَه منه الخَلْقُ والخُلُقُ	فما تُسافِرُ إلا نحوَه الحَدَقُ
تَوريدُ دَمْعيَ مِن خَدَّيك مُختَلَسٌ	وسُقْمُ جِسميَ مِن جَفْنَيْك مُسْتَرَقُ
لم يَبْقَ لي رَمَقٌ أشكو هَواكَ به	وإنما يَتَشَكَّى مَن به رَمَقُ

محمدُ بنُ يحيى، أبو عبد اللَّه الجُرْجانيُّ، أحدُ العُلماءِ الزُّهَّادِ العُبَّاد، المُناظِرين لأبي بكرٍ الرازيِّ، وكان يُدَرِّسُ في قَطيعةِ الربيع، وقد فُلِج في آخرِ عمرِه، وحينَ مات دُفِن مع أبي حَنيفةَ.

أحمدُ بنُ الحسين بن يحيى بن سعيد، أبو الفضل الهَمَذانيُّ، الحافظُ المعروفُ ببَديعِ الزمان، صاحبُ الرسائلِ الرائقة، والمَقاماتِ الفائقة، وعلى مِنْواله نسَج الحَريريُّ، واقْتَفَى أثرَه وشكَر تقدُّمَه، واعتَرَف بفضله، وكان قد أخَذ اللغةَ عن ابنِ فارسٍ، ثم برَز، وكان أحدَ الفُضلاء الفُصَحاء، ويُذْكَرُ أنه سُمَّ، وأخَذَتْه سَكْتةٌ، فدُفِن سَريعًا، ثم عاش في قبرِه، وسمِعوا صُراخَه، فنَبَشوا عنه، فإذا هو قد مات، وهو آخذٌ على لحيتِه مِن هَوْلِ القبرِ، وذلك يومَ الجمعةِ الحادي عشَرَ من جُمادَى الآخرةِ من هذه السنةِ، رحمه اللَّهُ تعالى، وعفا عنه وسامَحه وإيَّانا بمَنِّه.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٥/ ١١٨) وما بعدها.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وثلاثمائة

فيها: قُتِل أبو عليِّ بنُ ثمالٍ نائبُ الرَّحْبةِ مِن طرَفِ الحاكمِ العُبَيديِّ، قتَله عيسى بنُ خلاطٍ العُقَيْليُّ، وملَكها، فأخرَجه منها عباسُ بنُ مِرْداسٍ صاحبُ حَلَبَ وملَكها.

وفيها: صُرِف عَمْرُو بنُ عبدِ الواحدِ عن قضاءِ البصرةِ، ووليه أبو الحسنِ بنُ أبي الشَّوارِبِ، فذهَب الناسُ يُهنُّون هذا ويُعزُّون هذا، فقال في ذلك العُصْفُريُّ:

عندي حديثٌ طريفٌ	بمثله يُتَغَنَّى
مِن قاضيَيْن يُعَزَّي	هذا وهذا يُهَنَّا
فذا يقولُ اكْرَهونا	وذا يقولُ استرَحْنا
ويَكْذبان ونهذي	فمَن يُصَدِّقُ منا

وفي شعبانَ من هذه السنة عصفَت ريحٌ شديدةٌ فألقت رملًا أحمرَ في طُرُقاتِ بغدادَ.

وفيها: هبَّت على الحُجَّاجِ ريحٌ سوداءُ مُظْلمةٌ، واعْتَرَضهم الأعْرابُ، فصدُّوهم عن السبيلِ، واعتاقوهم حتى فاتَهم الحجُّ في هذه السنةِ أيضًا فرجَعوا، وأخَذت بنو هلالٍ طائفةً مِن حُجاجِ البصرةِ نحوًا مِن ستِّمائةِ واحدٍ، وأخَذوا منهم نحوًا مِن ألفِ دينارٍ. والخُطْبةُ بالحَرَمَيْن للمصْريين.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعْيان:

عبدُ اللَّه بنُ بكرِ بنِ محمدِ بنِ الحسينِ، أبو أحمدَ الطَّبَرانيُّ: سمع ببغدادَ ومكةَ وغيرِهما مِن البلادِ، وكان مُكْثِرًا، سمع منه الدارقُطْنيُّ وعبدُ الغنيِّ بنُ سعيدٍ، ثم أقام بالشامِ بالقربِ مِن جبلٍ عندَ بانياسَ يَعْبُدُ اللَّهَ تعالى إلى أن مات في ربيعٍ الأولِ مِن هذه السنة.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عليِّ بنِ الحسينِ، أبو مسلمٍ: كاتبُ الوزيرِ ابنِ حِنْزابةَ، روَى عن البَغَويِّ وابنِ صاعدٍ وابنِ دُرَيْدٍ وابنِ داودَ وابنِ عَرَفةَ وابنِ مُجاهدٍ وغيرِهم، وكان آخرَ مَن بقي مِن أصحابِ البَغَويِّ، وكان مِن أهلِ العلمِ والحديثِ والمعرفةِ والفَهمِ، وقد تكَلَّم بعضُهم في روايتِه عن البغويِّ؛ لأن أصولَه كان غالبُها مَفْسودًا. وذكَر الصُّوريُّ أنه خلَط في آخرِ عمرِه. واللَّهُ أعلمُ.

أبو الحسنِ عليُّ بنُ أبي سعيدٍ عبدِ الرحمنِ بنِ أحمدَ بنِ يونُسَ بنِ عبدِ الأعْلَى الصَّدَفيُّ المَصْريُّ: صاحبُ كتابِ «الزِّيجِ الحاكميِّ» في أربعِ مُجلَّداتٍ، كان أبوه مِن أكابرِ المُحدِّثين من

الحُفاظ، وقد أرَّخ لمصرَ تاريخًا نافعًا يَرْجعُ إليه العُلَماءُ، وأما هذا فَاشْتَغل بعلمِ النُّجومِ فنال مِن شأنه مَنالاً جيدًا، وكان شديدَ الاعْتناءِ بعلمِ الرَّصْد، وكان مع هذا مُغَفَّلاً سَيِّئ الحالِ، رَثَّ الثيابِ، طويلاً يَتعمَّمُ على طُرْطُورٍ طويلٍ، ويَتَطَيْلَسُ فوقَه، ويَرْكَبُ حماراً، فمَن رآه ضحِك منه، وكان يَدْخُلُ على الحاكمِ فيُكْرِمُه، ويَذكُرُ مِن تَغَفُّلِه ما يَدُلُّ على عدمِ اعتنائِه بأمرِ نفسِه، وكان شاهدًا مُعَدَّلاً، وله شعرٌ جيدٌ، فمنه ما ذكَره ابنُ خَلِّكانَ:

أُحَمِّلُ نَشْرَ الرِّيحِ عندَ هُبوبِه ... رسالةَ مُشْتاقٍ لوجهِ حَبيبِه
بنَفْسي مَن تَحْيا النُّفوسُ بقُربِه ... ومَن طابتِ الدنيا به وبطِيبِه
وجَدَّدَ وَجْدي طائفٌ منهُ في الكَرَى ... سَرَى مَوْهِنًا في خُفْيَةٍ مِن رقيبِه
لَعَمْري لقد عَطَّلْتُ كأسيَ بعدَه ... وغَيَّبْتُها عنِّي لطولِ مَغيبِه

تَمَنِّي أمُّ أميرِ المؤمنين القادرِ باللَّه: مَولاةُ عبدِ الواحدِ بنِ المُقْتَدِرِ، كانت مِن العابداتِ الصالحاتِ، ومِن أهلِ الفضلِ والدِّينِ؛ تُوُفِّيَت ليلةَ الخميسِ الثاني والعشرين مِن شعبانَ مِن هذه السنةِ، وصلَّى عليها ابنُها القادرُ، حُمِلَت بعدَ العشاءِ إلى الرُّصافةِ.

سنة أربعمائة من الهجرة النبوية
على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

في ربيعٍ الآخِرِ نقَصَت دِجْلةُ نقصًا كثيرًا، حتى ظهَرت جَزائرُ لم تكنْ تُعرفُ، وامْتَنع سيرُ السفنِ في أماكنِها مِن أوانا والرَّاشديةِ، فأُمِر بكَرْيِ تلك الأماكنِ ولم تُكْرَ قبلَ ذلك.

وفيها: كمَل السورُ على المشهدِ بالحائرِ، وكان الذي بناه أبو محمدٍ الحسنُ بنُ الفضلِ بنِ سهلانَ عن نذرٍ نذَرَه حينَ زارَه.

وفي رمضانَ أَرْجَفَ الناسُ بالخليفةِ القادرِ باللَّه، فجلَس للناسِ يومَ جمعةٍ بعدَ الصلاةِ وعليه البُرْدَةُ، وبيدِه القَضيبُ، وجاء الشيخُ أبو حامدٍ الإسْفَرايينيُّ، فقبَّل الأرضَ بينَ يديه، وقرأ: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١] فتَباكَى الناسُ، ودَعَوا وانْصَرَفوا.

وفي هذه السنةِ ورَد الخبرُ بأن الحاكمَ أنْفَذ إلى دارِ جعفرِ بنِ محمدٍ الصادقِ بالمدينةِ، فأخَذ منها مُصْحفًا وآلاتٍ كانت بها، وهذه الدارُ لم تُفتَحْ بعدَ موتِ صاحبِها إلى هذه المدةِ، وكان مع المصحفِ قَعْبٌ خشبٌ مُطَوَّقٌ بحديدٍ، ودَرَقَةٌ خَيْزُرانٌ وحَرْبَةٌ وسَرِيرٌ، حمَل ذلك كلَّه جَماعةٌ مِن العَلَويين إليه

إلى الديار المصرية، فأطلق لهم أنعامًا كثيرة ونفقات زائدة، وردَّ السرير، وأخذ الباقي، وقال: أنا أحقُّ به. فردُّوا وهم ذامُّون له داعون عليه.

وبنى الحاكمُ في هذه السنة دارَ العلم، وأجلس فيها الفقهاءَ، ثم بعدَ ثلاث سنين هدَمها، وقتَل خلقًا كثيرًا ممَّن كان فيها من الفُقهاء والمُحدِّثين وأهلِ الخيرِ والديانة.

وعمَّر الجامعَ المنسوبَ إليه بالديار المصرية وهو جامعُ الحاكم، وتأنَّق في بنائه في هذه السنة.

وفي ذي الحجَّة منها أُعيد المؤيَّدُ هشامُ بنُ الحكم بن عبد الرحمن الأمويُّ إلى مُلكه بعدَ خلعه وحبسه مدةً طويلة.

وكانت الخطبةُ بالحرمين في هذه السنة للحاكم العُبيديِّ صاحبِ مصرَ والشَّام.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

الحسينُ بنُ موسى بن محمد بن إبراهيمَ بن موسى بن جعفر، أبو أحمدَ الموسَويُّ النَّقيبُ، والدُ الرَّضيِّ، والمُرتَضَى، ولِي نقابةَ الطالبيِّين مرات ببغدادَ نحوًا من خمس مرات، يُعزَلُ ويُعادُ، ثم أضرَّ في آخرِ عمرِه، وتُوفِّي عن سبعٍ وتسعين سنةً، وصلَّى عليه ابنُه المُرتَضَى، ودُفِن في مشهدِ الحسين.

وقد رثاه ابنُه المُرتَضَى هذا بقصيدةٍ حسنةٍ قويةِ المَنزعِ والمَطْلعِ منها قولُه:

سلامُ اللَّه تَنقُلُه الليالي ... ويَهْديه الغُدُوُّ إلى الرَّواحِ
على جَدَثٍ تَشَبَّث من لُؤَيٍّ ... بيَنْبُوعِ العِبادة والصَّلاحِ
فتًى لم يَرْوَ إلا من حلالٍ ... ولم يَكُ زادُه غيرَ المباحِ
ولا دَنِست له أُزُرٌ بوِزْرٍ ... ولا علِقَت له راحٌ براحِ
خَفيفُ الظهرِ من ثِقْلِ الخطايا ... وعُرْيانُ الجَوانحِ من جُناحِ
مَشوقٌ في الأمورِ إلى عُلاها ... ومَدْلولٌ على بابِ النجاحِ
من القومِ الذين لهم قلوبٌ ... بذكرِ اللَّه عامرةُ النَّواحِ
بأجْسامٍ من التَّقْوى مِراضٍ ... لمُبصِرِها وأديانٍ صِحاحِ

رحِمه اللَّهُ تعالى ورضِي عنه وتجاوز بمنِّه وكرمه.

الحجاجُ بنُ هُرْمُزَ، أبو جعفر: نائبُ بَهاءِ الدولةِ على العراقِ، وكان يَنتدِبُه لقتالِ الأعْرابِ والأكْراد، وكان من المُقدَّمين على عهدِ عَضُدِ الدولة، وكانت له خبرةٌ تامةٌ بالحرب، وحُرْمةٌ شديدةٌ، وشَجاعةٌ وافرةٌ، وهمةٌ عاليةٌ، وآراءٌ سَديدةٌ. ولما خرَج عن بغدادَ في سنةِ ثنتين وتسعين وثلاثمائة

كثُرت بها الفتنُ والشرورُ.

وكانت وفاتُه بالأهْوازِ في هذه السنةِ عن مائةِ سنةٍ وخمسِ سنين. رحمه اللَّهُ.

أبو عبد اللَّه القُمِّيُّ المصريُّ التاجرُ: كان ذا مالٍ جَزيلٍ جدًّا، اشْتَمَلت تَركتُه على أزْيَدَ من ألفِ ألفِ دينارٍ، من سائرِ أنواعِ الأموالِ. وكانت وفاتُه بأرضِ الحجازِ، ودُفِن بالمدينةِ النبويةِ عندَ قبرِ الحسنِ بنِ عليٍّ، رضِي اللَّهُ تعالى عنهم.

أبو الحسين بنُ الرَّفَّاءِ المُقْرِئُ: المتقدِّمُ ذكرُه، كان من أحسنِ الناسِ صوتًا بالقرآنِ وأحْلاهم أداءً، رحِمه اللَّهُ تعالى، وقد تقدم ذكرُه في سنةِ أربعٍ وتسعين وثلاثمائةٍ بما أغنَى عن إعادتِه هنا.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعمائة

في يومِ الجمعةِ الرابعِ مِن المُحَرَّمِ منها خُطِب بالموصلِ للحاكمِ العُبَيْديِّ عن أمْرِ صاحبِها قِرْواشِ بنِ مُقَلَّدٍ أبي مَنيعٍ، وقهَر رَعيتَه على ذلك، وقد سرَد ابنُ الجوْزيِّ صفةَ الخُطْبةِ يومَئذٍ بحروفِها، وفي آخرِ الخطبةِ صلَّوا على آبائِه من الخلفاءِ؛ المهديِّ، ثم ابنِه القائمِ، ثم ابنِه المنصورِ، ثم ابنِه المُعِزِّ، ثم ابنِه العزيزِ، ثم على ابنِه الحاكمِ صاحبِ الوقتِ، وبالَغوا في الدعاءِ لهم؛ ولا سيَّما للحاكمِ المذكورِ، وكذلك ببقيةِ أعْمالِه من الأنْبارِ والمَدائنِ وغيرِهما. وكان سببَ ذلك أن الحاكمَ ترَدَّدَت مُكاتَباتُه ورسلُه وهَداياه إلى قِرْواشٍ يَسْتَميلُه إليه، وليُقْبِلَ بوجهِه عليه، حتى فعَل ما فعلَ مما ذكَرنا، فلما بلَغ الخبرُ القادرَ باللَّه العباسيَّ كتَب يُعاقِبُ قِرْواشَ بنَ مُقَلَّدٍ على ما صنَع، ونفَذ بَهاءُ الدولةِ إلى عَميدِ الجُيوشِ بمائةِ ألفِ دينارٍ لمُحارَبةِ قِرْواشٍ، فلما بلَغ ذلك قِرْواشًا رجَع عن رأيِه، وندِم على ما كان منه، وأمَر بقطعِ الخطبةِ الحاكميةِ من بلادِه، وأعادها إلى القادرِ العباسيِّ على عادتِه.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: ولخمسٍ بقِين من رجبٍ زادت دجلةُ زيادةً كثيرةً، واسْتَمَرَّت الزيادةُ إلى رمضانَ، وبلَغَت أحدًا وعشرين ذراعًا وثلثًا، ودخَل الماءُ إلى أكثرِ دُورِ بغدادَ.

وفيها: رجَع الوزيرُ أبو غالبِ بنُ خلفٍ إلى بغدادَ، ولُقِّب فخرَ المُلْكِ بعدَ عَميدِ الجُيوشِ.

وفيها: عصَى أبو الفتحِ الحسنُ بنُ جعفرٍ العَلَويُّ، ودَعا إلى نفسِه وتلَقَّب بالراشدِ باللَّهِ. ولم يَحُجَّ في هذه السنةِ أحدٌ من أهلِ العراقِ أيضًا، فإنا للَّهِ وإنا إليه راجعون.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيانِ والأشرافِ:

أبو مسعود الدمشقيُّ، إبراهيمُ بنُ محمدِ بنِ عُبَيدٍ، أبو مسعودٍ الدمشقيُّ [١]، الحافظُ الكبيرُ،

(١) ترجمته في «السير» (١٧/ ٢٢٧ - ٢٣٠).

مُصنِّفُ كتاب «الأطراف على الصحيحَين»، رحَل إلى بلادٍ شتَّى كبغدادَ والبصرة والكوفة وواسط والأهواز وأصبهانَ وخُراسانَ، وكان من الحُفَّاظ الصادقين الأُمَناء الضابطين، ولم يَرْوِ إلا اليَسيرَ، روَىٰ عنه أبو القاسم الطبريُّ وأبو ذَرٍّ الهَرَويُّ، وحمزةُ السَّهْميُّ، وغيرُهم. وكانتْ وفاتُه ببغدادَ في رجبٍ، وأوْصَىٰ إلى الشيخ أبي حامدٍ الإسْفَرايينيِّ فصلَّىٰ عليه، ودُفِن في مقبرةِ جامعِ المنصورِ قريبًا من السُّكَّك رحمه اللَّهُ. وقد ترْجَمه ابنُ عساكرَ وأثْنَىٰ عليه. واللَّهُ أعلمُ.

عميدُ الجُيوش، الحسنُ بنُ أبي جعفر أُستاذ هُرْمُز، أبو عليٍّ[٢]، الملقَّبُ بعميد الجيوش، وزيرُ بهاءِ الدولة، وُلِد سنةَ خمسين وثلاثمائةٍ، وكان أبوه من حُجَّاب عَضُد الدولة، وولاه بهاءُ الدولة النظرَ في وِزاراتٍ سنةَ ثنتين وتسعين، والشرورُ عامةٌ كثيرةٌ، فمهَّد البلادَ وأخافَ العيَّارين، واستقامت به الأمورُ، وأمرَ بعضَ غلْمانه أن يَحْمِلَ صينيَّةً فيها دراهمُ مكشوفةٌ، من أول بغدادَ إلى آخرِها، في أزقَّتها، فإن اعتَرَضه أحدٌ فلْيَدفَعْها إليه، ولْيَعْرِفْ ذلك المكانَ، فذهَب الغلامُ، فلم يَعْترِضْه أحدٌ، ولِلَّه الحمدُ والمنةُ، ومنَع الرَّوافضَ مما كانُوا يتعاطَونه من النِّياحة في عاشوراءَ، وإقامة العيدِ المبتدَعِ في اليوم الثامن عشرَ من ذي الحِجَّة الذي يُقالُ له: غَديرُ خُمٍّ. وكان عادلاً مُنْصِفًا، رحمه اللَّهُ.

خلفُ بنُ محمد بن عليِّ بن حَمْدُونَ، أبو محمد الواسطيُّ، رحَل إلى البلاد، وسمع الكثيرَ، ثم عاد إلى بغدادَ، ثم رحَل إلى الشام ومصرَ، وكتَب الناسُ بانتخابه، وصنَّف أطرافًا على «الصحيحَين»، وكانت له معرفةٌ تامةٌ، وحفظٌ جيدٌ، ثم عاد إلى بغدادَ، واشتَغل بالتجارة، وترَك النظرَ في العلم حتى تُوُفِّي في هذه السنة، رحمه اللَّهُ وسامَحه. وممن روَىٰ عنه الأزْهَرِيُّ.

أبو عُبَيد الهَرَويُّ: صاحبُ «الغَريبَيْن»، أحمدُ بنُ محمد بن محمد بن أبي عُبَيد العَبْديُّ، اللُّغويُّ البارعُ، كان من عُلماء الناس في الأدب واللغة، وكتابُه «الغَريبَين» في معرفة غَريب القرآن والحديث، يدُلُّ على اطِّلاعه وتبَحُّره في هذا الشأن، وكان من تَلامذة أبي منصورٍ الأزْهَرِيِّ.

قال ابنُ خَلِّكانَ: وقيل: إنه كان يُحِبُّ البِذْلةَ ويَتَناوَلُ في الخَلْوة، ويُعاشِرُ أهلَ الأدب في مجالس اللَّذَّة والطَّرَب. سامَحه اللَّهُ تعالى.

قال: وكانت وفاتُه في رجبٍ سنةَ إحدىٰ وأربعمائةٍ.

وذكَر ابنُ خَلِّكان في هذه السنة أو التي قبلَها وفاةَ أبي الفتح البُسْتيِّ الشاعر وهو:

عليُّ بنُ محمد بن الحسين بن يوسُفَ بن محمد بن عبد العزيز: الكاتبُ، صاحبُ «الطريقة الأنيقة في التَّجْنيس الأنيس»، «البَديع التَّأسيس»، «والحَذاقة والنَّظْم والنَّثْر»، وقد أسلفْنا ذكرَه، ومما أوْرَد له ابنُ خَلِّكانَ قولُه: مَن أصْلَح فاسدَه أرْغَم حاسدَه. مَن أطاع غضَبَه أضاع أدبَه. من سَعادة

(١) ترجمته في «السير» (١٧/ ٢٣٠).

جَدُّك وقوفُك عندَ حَدِّك

المَنِيَّةُ تَضحَكُ من الأُمنِيَّة. الرِّشوةُ رِشاءُ الحاجات. حَدُّ العفاف الرِّضا بالكَفاف ومن شعره:

إنْ هزَّ أقلامَه يومًا ليُعمِلَها ... أنساكَ كلَّ كميٍّ هزَّ عاملَهُ
وإن أقرَّ على رَقٍّ أناملَه ... أقرَّ بالرِّقِّ كُتَّابُ الأنامِ لَهُ

وله:

إذا تحدَّثتَ في قومٍ لتُؤنسَهم ... بما تُحدِّثُ من ماضٍ ومن آتِ
فلا تُعِدْ لحديثٍ إنَّ طبعَهمُ ... مُوَكَّلٌ بمُعاداةِ المُعاداتِ

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعمائة

في المُحَرَّم أذن فخرُ المُلك للرَّوافض أن يَعمَلوا البِدعةَ الشَّنعاء، والفَضيحةَ الصَّلعاء، من الانتحاب والنَّوح والبُكاء، وتَعليق المُسوح، وتغليق الأسواق من الصباح إلى المساء، ودوران النساء حاسراتٍ عن وُجوهِهن ورُءوسهن، يَلطِمْنَ خُدودَهن، كفعل الجاهلية الجَهلاء، فلا جزاه اللَّهُ عن السنة خيرًا، وسَوَّد اللَّهُ وجهَه يومَ الجزاء، إنه سميعُ الدعاء، ربُّ الأرضِ والسماء.

وفي ربيعٍ الآخر أمَر القادرُ باللَّه بعمارة مسجد الكفِّ بقَطيعة الدقيق، وأن يُعادَ إلى أحسنِ ما كان، ففُعل ذلك وزُخرِف زَخْرفةً عظيمةً جدًّا.

ذكر الطعن في نسب الفاطميين من أئمة بغداد وغيرها من البلاد

وفي ربيعٍ الآخر منها كتَب هؤلاء ببغدادَ مَحاضرَ تتَضَمَّنُ الطعنَ والقَدْحَ في نسب الخلفاء المصريين الذين يدَّعون أنهم فاطميُّون وليسوا كذلك، ونسبتُهم إلى دَيْصانَ بن سعيدٍ الخُرَّميِّ، وكتَب في ذلك جماعةٌ من العُلماء والقُضاة والفقهاء والأشراف والأماثل والمعدِّلين والصالحين، شهدوا جميعًا أن الناجمَ بمصرَ - وهو منصورُ بنُ نزارٍ المُلقَّبُ بالحاكم، حكَم اللَّهُ عليه بالبَوار والخِزي والدَّمار، والنَّكال والاستئصال، ابنِ مَعَدِّ بن إسماعيلَ بن عبد الرحمن بن سعيد، لا أسعَده اللَّهُ، فإنه لما صار إلى بلاد المغرب تسَمَّى بعُبَيد اللَّه، وتلقَّب بالمهديِّ - ومن تقَدَّم من سَلَفه من الأنجاس والأرجاس، عليه وعليهم لعنةُ اللَّه ولعنةُ اللاعنين، أدعياءُ خَوارجُ، لا نسَبَ لهم في ولد عليِّ بن أبي طالبٍ، ولا يتَعلَّقون منه بسببٍ، وأنه مُنزَّهٌ عن باطلهم، وأن الذي ادَّعَوْه من الانتساب إليه باطلٌ وزُورٌ، وأنهم لا يَعلَمون أحدًا من أهل بُيوتات الطالبيين توَقَّف عن إطلاق القول في هؤلاء الخَوارج أنَّهم أدعياءُ، وقد كان هذا الإنكارُ لباطلهم شائعًا في الحرمَين، وفي أول أمرهم بالمغرب مُنتَشرًا انتشارًا يَمنَعُ من أن يُدلِّسَ على أحدٍ كذبُهم، أو يَذهَبَ وَهْمٌ إلى تصديقهم فيما ادَّعَوْه، وأن هذا الناجمَ بمصرَ هو وسَلَفه كفارٌ فُسَّاقٌ فُجَّارٌ، مُلحدون زَنادقةٌ مُعطِّلون، وللإسلام جاحدون، ولمذهب الثَّنوية والمَجوسية

مُعْتَقِدون، قد عطَّلوا الحدودَ، وأباحوا الفُروجَ، وأحَلُّوا الخمورَ، وسفكوا الدماءَ، وسبُّوا الأنبياءَ، ولعَنوا السلفَ، وادَّعَوُا الربوبيةَ، وكُتب في ربيعٍ الآخرِ سنةَ اثنتَيْن وأربعمائة.

وقد كتَب خطَّه في المَحْضَرِ خلقٌ كثيرٌ، فمِن العَلَوِيِّين المُرْتَضَى والرَّضِيُّ وابنُ الأزرقِ المُوسَوِيُّ، وأبو طاهرِ بنُ أبي الطَّيِّب، ومحمدُ بنُ محمدِ بنِ عمرَ، وابنُ أبي يَعْلَى. ومِن القُضاة أبو محمدِ بنُ الأكْفانيِّ، وأبو القاسمِ الجَزَرِيُّ، وأبو العباسِ بنُ السوريِّ. ومِن الفُقهاءِ أبو حامدٍ الإسْفَرايِينيُّ، وأبو محمدِ بنُ الكَشْفُلِيِّ، وأبو الحسينِ القُدُورِيُّ، وأبو عبدِ اللَّهِ الصَّيْمَرِيُّ، وأبو عبدِ اللَّهِ البَيْضاويُّ، وأبو عليِّ بنُ حَمَكانَ. ومِن الشُّهودِ أبو القاسمِ التَّنُوخيُّ، في خلقٍ كثيرٍ، وقُرِئَ بالبصرةِ وكتَب فيه خَلْقٌ كثيرٌ. هذه عبارةُ الشيخِ أبي الفرجِ بنِ الجوزيِّ.

قلت: ومما يَدُلُّ على أن هؤلاء أدْعِياءُ، كما ذكَر هؤلاء السادةُ العلماءُ، والأئمةُ الفُضلاءُ، وأنهم لا نسَبَ لهم إلى عليٍّ ولا إلى فاطمةَ كما يَزْعُمُون، قولُ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ للحسينِ بنِ عليٍّ حينَ أراد الدخولَ إلى العراقِ، وذلك عن كتُبِ عوامِّ أهلِ الكوفةِ إليه بالبَيْعةِ له، فقال له ابنُ عمرَ: لا تَذْهَبْ إليهم فإني أخافُ عليك أن تُقْتَلَ، وإنَّ جَدَّك قد خُيِّر بينَ الدنيا والآخرةِ فاختار الآخرةَ على الدنيا، وأنت بَضْعةٌ منه، وإنه واللَّهِ لا تَنالُها لا أنت ولا أحدٌ من أهلِ بيتِك. فهذا الكلامُ الحسنُ الصحيحُ المُتوَجِّهُ المَعْقولُ مِن هذا الصحابيِّ الجليلِ، يَقْتَضِي أنه لا يَلِي الخلافةَ أحدٌ من أهلِ البيتِ إلا محمدَ بنَ عبدِ اللَّهِ المَهْديُّ، الذي يكونُ في آخرِ الزمانِ وقتَ نزولِ عيسى ابنِ مريمَ من السماءِ إلى الأرضِ، كما سيأتي بيانُ ذلك مفَصَّلًا في أحاديثِ الملاحمِ، ومَعلومٌ أن هؤلاء قد ملَكوا ديارَ مصرَ مدةً طويلةً، فدل ذلك دَلالةً قويةً ظاهرةً أنهم ليسوا مِن أهلِ بيتِ النبوةِ، كما نص عليه سادةُ القضاةِ والشهودِ والفقهاءِ والكبراءِ، وقد صنَّف القاضي الباقِلّانيُّ كتابًا في الردِّ على هؤلاء القومِ المنتسبين إلى الفاطميين وسمَّاه «كشْفَ الأسْرارِ وهتْكَ الأسْتارِ» نثَر فيه فَضائحَهم وقَبائحَهم، ووضَّح أمْرَهم لكلِّ أحدٍ يفهَمُ شيئًا من مَطاوِي أفعالِهم وأقوالِهم، وقد كان يقولُ في عبارتِه: هؤلاء قومٌ يُظْهِرون الرَّفْضَ ويُبْطِنون الكفرَ المَحْضَ.

وفي رجبٍ وشعبانَ ورمضانَ أخرَج الوزيرُ فخرُ المُلْكِ صَدَقاتٍ كثيرةً على الفقراءِ والمَساكينِ والمقيمينَ بالمَشاهدِ والمقابرِ، وزار بنفسه المساجدَ والمشاهدَ وغيرَ ذلك، وأخْرَج خلقًا من المسجونين بالحُبوسِ، وأظْهَرَ نُسُكًا كثيرًا، وعمَّر دارًا عظيمةً عندَ سوقِ الدقيقِ هائلةً.

وفي شوالٍ عصَفَت ريحٌ شديدةٌ سوداءُ، فقصَفَت شيئًا كثيرًا من النخلِ، أكثرَ من عشَرةِ آلافٍ.

وورَد كتابٌ من يَمينِ الدولةِ محمودِ بنِ سُبُكْتِكين صاحبِ غَزْنَةَ، أيَّده اللَّهُ تعالى، بأنَّه ركِب بجيشِه إلى دارِ العدوِّ، فاجتاز بهم في مفازةٍ، فأعْوَزَهم فيها الماءُ حتى كادوا أن يَهْلِكوا عَطَشًا، فبعَث اللَّهُ لهم سَحابةً، فأمْطَرت عليهم حتى شربوا ورَوُوا، ثم تواقَفوا هم وعدوُّهم، ومع الأعداءِ نحوٌ من ستِّمائةِ فيلٍ، فهزَموهم، وغنِموا منهم شيئًا كثيرًا من الأموالِ، ولِلَّهِ الحمدُ.

وعملَت الشيعةُ يومَ غَديرِ خُمٍّ - وهو اليومُ الثامنَ عشَرَ من ذي الحجة - البدعةَ التي ابتدعوها لا لابتغاءِ وجهِ اللّه، وزُيِّنَت الحَوانيتُ، وتمكَّنوا بسببِ الوزيرِ وكثيرٍ من الأتراك تمكُّنًا كثيرًا.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

الحسنُ بنُ الحسينِ بن عليِّ بن العباسِ بن إسماعيلَ بنِ أبي سهلِ بن نُوبَخْتَ، أبو محمد النُّوبَخْتيُّ الكاتبُ، وُلِدَ سنةَ عشرين وثلاثمائة، وروىٰ عن المَحامِليِّ وغيرِه، وعنه البَرْقانيُّ، وقال: كان شيعيًّا مُعْتَزِليًّا، إلا أنه تبيَّنَ لي أنه كان صَدوقًا. والأزْهَريُّ، وقال: كان رافضيًّا رَديءَ المذهب. وقال العَتيقيُّ: كان ثقةً في الحديث يَذْهَبُ إلى الاعْتِزال.

عثمانُ بنُ عيسى، أبو عمرو الباقلاَّنيُّ، أحدُ الزُّهَّادِ الكِبارِ المَشْهورين، كانت له نَخلاتٌ يَأكُلُ منهن، ويَعْمَلُ بيده في البَواريِّ، ويَأكُلُ من ذلك، وكان في غايةِ الزَّهادةِ والعبادةِ الكثيرة، وكان لا يَخْرُجُ من مسجده إلا من الجمعةِ إلى الجمعة، يصلي في الجامع، ثم يَعودُ إلى مسجده، وكان مسجدُه لا يحصلُ له شيءٌ يُشْعلُه فيه، فطلَب منه بعضُ الأمراءِ أن يقْبَلَ منه شيئًا ولو زيتًا يُشْعِلُه في قَناديله، فأبَى الشيخُ ذلك.

ولما مات رأىٰ بعضُهم بعضَ الأمواتِ من جيرانِ قبرِه، فسأله عن جوارِه فقال: وأين هو؟! لما وُضع في قبره سمعْنا قائلاً يقولُ: الفِرْدوسَ الأعلىٰ.

أو كما قال، وكانت وفاتُه في رجبٍ من هذه السنة عن ستةٍ وثمانين سنةً.

محمدُ بنُ جعفرِ بن محمدِ بن هارونَ بن فَرْوَةَ بن ناجيةَ، أبو الحسنِ النَّحْويُّ، المَعْروفِ بابنِ النَّجَّارِ التَّميميُّ الكوفيُّ، قدم بغدادَ، وروىٰ عن ابنِ دُرَيْدٍ والصُّوليِّ ونِفْطَوَيْه وغيرِهم، وكانت وفاتُه في جُمادَىٰ الأولىٰ من هذه السنة عن تسعٍ وتسعين سنةً.

أبو الطَّيِّبِ سهلُ بنُ محمدٍ الصُّعْلُوكيُّ النَّيسابوريُّ، قال أبو يَعْلَىٰ الخَليليُّ: تُوُفِّيَ فيها. وقد تقدم في سنةِ سبعٍ وثمانين وثلاثمائة.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعمائة

في سادسَ عشَرَ المُحرَّم قُلِّد الشريفُ الرَّضيُّ أبو الحسنِ المُوسَويُّ نقابةَ الطالبيِّين في سائرِ المَمالك، وقُرِئَ تَقْليدُه في دارِ الوزيرِ فَخرِ المُلْك، بمَحْضَرِ القضاةِ والأعيانِ، وخُلِع عليه السَّوادُ، وهو أولُ طالبيٍّ خُلِع عليه السَّوادُ.

وفيها: جيءَ بأميرِ بني خَفاجةَ أبي فُلَيتةَ، قبَّحه اللّهُ، وجماعةٍ من رُءوسِ قومِه أُسارَىٰ، وكانوا قد اعْتَرَضوا الحَجيجَ في السنةِ الماضيةِ وهم راجعون، وغوَّروا المَناهلَ التي يَرِدُها الحُجَّاجُ، ووضَعوا فيها الحَنْظلَ، بحيثُ إنَّه مات من العطشِ نحو من خمسةَ عشَرَ ألفًا، وأخذوا بقيتَهم، فجعلوهم رُعاةً

لمواشيهم في أسوأ حالٍ، وأخَذوا جميعَ ما كان معهم من الأحمالِ والجمالِ، فحينَ أحضرَهم الوزيرُ فخرُ المُلْكِ سجَنهم، ومنَعهم الماءَ، ثم صلَبهم تِلْقاءَ دجلةَ يَرَوْن صَفاءَ الماءِ، ولا يَقْدِرون على شيءٍ منه، حتى ماتوا كذلك جزاءً وِفاقًا، ولقد أحسَن فخرُ المُلْكِ في هذا الصنيعِ واقتدى بحديثِ أنسٍ في الرِّعاءِ الذين كانوا في زمنِ النبيِّ ﷺ، والحديثُ في «الصحيحين». ثم بعَث إلى أولئك الذين اعتُقلوا في بلادِ بني خفاجةَ مِن الحُجاجِ فجِيءَ بهم، وقد تزَوَّجَت نساؤُهم، وقُسِمَت أموالُهم، فرُدُّوا إلى أهاليهم وأموالِهم. وللَّهِ الحمدُ والمنةُ.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: وفي رمضانَ انْقَضَّ كوكبٌ مِن المشرقِ إلى المغربِ، غلَب ضَوْءُه على ضوءِ القمرِ، وتقَطَّع قِطَعًا، وبقِي ساعةً طويلةً.

قال: وفي شوالٍ تُوُفِّيَت زوجةُ بعضِ رُؤساءِ النصارى، فخَرَجَت النَّوائحُ والصُّلُبُ معها جَهْرَةً، فأنكَر ذلك بعضُ الهاشميين، فضربَه بعضُ غِلْمانِ ذلك الرئيسِ النصرانيِّ بدَبُّوسٍ في رأسِه فشجَّه، فثار المسلمون بهم، فانهَزَموا ولجَئوا إلى كنيسةٍ لهم هناك، فدخَلَت العامَّةُ إليها فنهبوا ما فيها وما قرُب منها مِن دُورِ النَّصارى، وتتَبعوا النصارى في البلدِ، وقصَدوا دارَ المُناصِحِ وابنِ أبي إسْرائيلَ، فقاتَلهم غِلْمانُهم، وانتَشَرَت الفِتْنةُ ببغدادَ، ورفَع المسلمون المَصاحِفَ في الأسواقِ، وعُطِّلَت الجُمعةُ في بعضِ الأيامِ، واستَعانوا بالخليفةِ، فأمَر بإحْضارِ ابنِ أبي إسْرائيلَ فامْتَنع، فعزَم الخليفةُ على الخروجِ مِن بغدادَ، وقوِيَت الفتنةُ جدًّا، ونُهِبَت دُورٌ كثيرةٌ مِن النصارى، ثم أُحْضِر ابنُ أبي إسْرائيلَ، فبذَل أموالًا جَزيلةً، فعُفِي عنه، وسكَنَت الفتنةُ.

وفي ذي القَعْدةِ ورَد كتابٌ من يَمينِ الدولةِ محمودِ بن سُبُكْتِكين إلى الخليفةِ يَذْكُرُ أنه ورَد إليه رسولٌ مِن الحاكمِ صاحبِ مصرَ، يَدْعُوه إلى طاعتِه، فبصَق فيه وأمَر بتَحْريقِه، وأسْمَع رسولَه غَليظَ ما يقالُ.

وفيها: قُلِّد أبو نصرِ بنُ مَرْوانَ الكُرْديُّ إمْرَةَ آمِدَ ومَيَّافارِقينَ وديارِ بكرٍ، وخُلِع عليه بطَوْقٍ وسِوارٍ، ولُقِّب نصيرَ الدولة.

ولم يَتَمَكَّنْ رَكْبُ العراقِ وخُراسانَ في هذه السنةِ مِن الذَّهابِ إلى الحجِّ لفَسادِ الطريقِ، وغَيْبةِ فخرِ المُلْكِ في إصلاحِ الأراضي.

وفي هذه السنةِ عادَت مَمْلكةُ الأُمَويين بالأَنْدَلُس، فتولَّى فيها سليمانُ بنُ الحكمِ بنِ سليمانَ بنِ عبدِ الرحمنِ الناصرِ الأُمَويُّ، ولُقِّب بالمُسْتَعينِ باللَّه، وبايَعه الناسُ بقُرْطُبَةَ.

وفيها: مات بَهاءُ الدولةِ أبو نصرٍ فَيْروزُ بنُ عَضُدِ الدولةِ بنِ بُوَيْهِ الدَّيْلَميُّ صاحبُ بغدادَ والعراقِ، وقام بالأمرِ مِن بعدِه ولدُه سلطانُ الدولةِ أبو شُجاعٍ.

وفيها: مات ملكُ التركِ الأعْظمُ إيلك خان، فولِيَ أمرَهم من بعده أخوه طُغان خان.

وفيها: هَلك شمسُ المعالي قابوسُ بنُ وُشْمَكيرَ؛ أُدْخِل بيتًا باردًا في الشتاءِ وليس عليه شيءٌ من

اللباس حتى مات كذلك، وولي الأمرَ من بعده ولدُه منُوجِهْرُ، ولُقِّب فُلْكَ المَعالي، وخطَب لمحمودِ بنِ سُبُكْتِكين، وقد كان شمسُ المَعالي قابوسُ عالمًا فاضلاً أديبًا شاعرًا، فمن شعرِه قولُه:

قلْ للذي بصُروف الدهرِ عيَّرنا ... هل عانَد الدهرُ إلا مَن له خطَرُ
أما ترَى البحرَ يطفُو فوقَه جِيَفٌ ... ويَستقِرُّ بأقصَى قعرِه الدُّرَرُ
فإن تكُنْ نشِبَت أيدي الخُطوبِ بنا ... ومسَّنا من تَوالي صَرفِها ضَرَرُ
ففي السماءِ نجومٌ غيرُ ذي عَدَد ... وليس يَكسِفُ إلا الشمسُ والقمرُ

ومن شعرِه المستجادِ قولُه:

خَطَراتُ ذِكْرِكَ تَستَثيرُ مَوَدَّتي ... فأُحسُّ منها في الفؤادِ دَبيبا
لا عضوَ لي إلا وفيه صَبابةٌ ... فكأن أعضائي خُلقْنَ قُلوبا

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ عليٍّ، أبو الحسنِ البَتِّيُّ، كان يَكْتُبُ للقادرِ وهو بالبَطيحة، ثم كتَب له على ديوانِ الخَبَرِ والبَريد، وكان يحفَظُ القرآنَ حفظًا حسنًا، مَليحَ الصوتِ والتِّلاوة، حسنَ المُجالَسة، ظريفَ النادرةِ والمجَانة؛ خرَج في بعضِ الأيامِ هو والشَّريفان الرَّضيُّ والمُرْتَضَى وجَماعةٌ من رءوسِ الأكابرِ لتَلَقِّي بعضِ الملوك، فخرَج عليهم بعضُ اللُّصوص، فجعَلوا يَرْمُونهم بالحذَّافاتِ ويَقولون: يا أزْواجَ القِحَاب. فقال البَتِّيُّ: ما خرَج هؤلاء علينا إلا بعينٍ.

فقالوا: ومن أين علِمْتَ هذا؟ فقال: وإلا من أين علموا أننا أزواجُ قِحاب.

الحسنُ بنُ حامد بن عليِّ بن مَرْوانَ، أبو عبد الله الورَّاقُ الحنبليُّ، كان مُدرِّسَ أصحابِ أحمدَ وفَقيهَهم في زمانه، وله المُصنَّفاتُ المشهورةُ، منها كتابُ «الجامع» في اختلاف العلماء في أربعمائة جزءٍ، وله في أصولِ الدينِ والفقه، وعليه اشتَغل القاضي أبو يَعْلَى بنُ الفَرَّاء، وكان مُعظَّمًا في النفوسِ، مُقَدَّمًا عندَ السلطان، ولا يأكُلُ إلا من كَسْبِ يَدِه من النَّسخ، وروَى الحديثَ عن أبي بكرٍ الشافعيِّ، وابنِ مالكٍ القَطِيعيِّ، وغيرِهما، وخرَج في هذه السنةِ إلى الحجِّ، فلما عطِش الناسُ في الطريقِ استَنَد هو إلى حَجرٍ هناك في الحرِّ الشديد، فجاءه رجلٌ بقليلٍ من ماءٍ فقال له ابنُ حامدٍ: من أين لك هذا؟ فقال: ما هذا وقتَه، اشْرَبْ. فقال: بلى، هذا وقتُه عندَ لقاءِ اللهِ تعالى. فلم يَشْرَبْ ومات من فَوْرِه، رحمه اللهُ.

الحسينُ بنُ الحسنِ بنِ محمد بن حَليم، أبو عبد الله الحَليميُّ، صاحبُ «المنْهاج» في أصولِ الدِّيانة، كان أحدَ مشايخِ الشافعية، وُلد بجُرْجانَ، وحُمِل إلى بُخارَى، سمع الحديثَ الكثيرَ حتى انْتَهَت إليه رياسةُ المُحَدِّثين في عصرِه، وولي القَضاءَ ببُخارَى.

قال ابنُ خَلِّكان: انْتَهَت إليه الرِّياسةُ فيما وراءَ النهرِ، وله وُجوهٌ حسَنةٌ في المَذهبِ، وروَى عنه

الحاكمُ أبو عبد اللَّه، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

فَيروزُ، أبو نصر المُلَقَّبُ بُهـاءَ الدولة بنُ عَضُد الدولة الدَّيْلَمي، صاحبُ بغدادَ والعراق، وهو الذي قَبَض علىٰ الطَّائعِ ووَلَّىٰ القادرَ، وكان يُحبُّ المُصادَرات، فجمَع من الأموال ما لم يَجمَعْه أحدٌ قبلَه من بني بُوَيْه، وكان بَخيلاً جـداً، تُوُفِّي بأَرَّجانَ في جمادىٰ الآخرة من هذه السنة عن ثنتين وأربعين سنةً وتسعة أشهر وعشرين يومًا، وكانت مدةُ مُلكه أربعًا وعشرين سنةً وثلاثةَ أيام، وكان مَرَضُه بالصَّرْع، ودُفِن بمشْهَد عليٍّ إلىٰ جانب أبيه.

قـابوسُ بنُ وُشْمَكيـرَ، كان أهلُ دولته قد تغَيَّروا عليه، فبايَعوا ولدَه منُوجِهْرَ، وقتَلوا أباه كما ذكَرْنا في الحوادث، وكان قد نظَر في النجوم فرأىٰ أن ولدَه يَقتُلُه، وكان يَتَوَهَّمُ أنه ولدُه دارا؛ لما يَرَىٰ من مُخالفته له، ولا يَخطرُ بباله مِنُوجِهر؛ لما يَرَىٰ من طاعته له، فكان هَلاكُه علىٰ يديه، وقد قدَّمْنا شيئًا من شعره الحسنِ الجيد، في الحَوادث.

القاضي أبو بكر البـاقلانيُّ، محـمدُ بنُ الطيِّب، رأسُ المُتكلِّمين علىٰ مذهب الشيخ أبي الحسن عليِّ بن إسماعيلَ الأَشْعَريِّ، من أكثر الناس كلامًا وتَصنيفًا في الكلام، يُقالُ: إنه كان لا يَنامُ كلَّ ليلة حتىٰ يَكْتُبَ عشرين ورقةً، في مدة طويلة من عمره. فانْتَشَرت عنه تَصانيفُ كثيرةٌ، من جيِّدها كتابُ «التَّبصرة»، و«دَقائقُ الحَقائق»، و«التَّمْهيدُ» في أصول الفقه، و«شَرْحُ الإبانة» وغيرُ ذلك من المجَاميع الكبار والصِّغار، ومن أحْسنِ تصانيفه كتابُه في الردِّ علىٰ الباطنية، الذي سماه «كشفَ الأسْرار وهَتْكَ الأسْتار»، وقد اختَلَفوا في مذهبه في الفُروع؛ فقيل: شافعيٌّ. وقيل: مالكيٌّ. حكَىٰ ذلك عنه أبو ذَرٍّ الهَرَويُّ، وقد قيل: إنه كان يَكْتُبُ علىٰ الفَتاوىٰ: كتَبه محمدُ بنُ الطيب الحنبليُّ. وهذا غريبٌ جداً.

وقد كان في غاية الذَّكاء والفطْنة، ذكَر الخطيبُ البغداديُّ وغيرُه عنه أن عَضُدَ الدولة بعثَه في رسالة إلىٰ ملك الروم، فلما انْتَهىٰ إليه إذا هو يَدْخُلُ عليه من باب قصير، ففهم أن مُرادَه بذلك أن يَنْحَنيَ كهيئة الراكع للمَلك، فدخَل البابَ بظهره وجعل يمشي القَهْقَرَىٰ إلىٰ نحو الملك، ثم انْفَتَل فسلَّم عليه، فعرَف الملكُ مكانَه من العلم والفَهم، فعظَّمه.

ويُذكَرُ أن الملكَ أحْضَر إلىٰ بين يديه آلةَ الطَّرَب المُسَمَّاةَ بالأُرْغُل، ليَسْتَفزَّ عقلَه بها، فلما سمعها الباقلانيُّ خاف أن تَظْهَرَ منه حركةٌ ناقصةٌ بحَضْرة الملك، فجعَل لا يَأْلُو جَهْدًا أن جرَح رجلَه حتىٰ خرَج منها الدمُ الكثيرُ، فاشْتَغَل بالألم عن الطَّرَب، ولم يَظْهَرْ عليه شيءٌ من النقص والخِفَّة، فعجب الملكُ من كمال عقله، ثم استكشف الملكُ عن أمره فإذا هو قد جرَح نفسَه بما أشْغَله عن الطَّرَب، فتحقَّق وُفورَ علمه وعُلُوَّ فَهمه.

وقد سأَله بعضُ الأساقفة بحَضْرة ملكهم فقال: ما فعلَت زوجةُ نبيِّكم؟ وما كان من أمرها فيما رُمِيَت به من الإفك؟ فقال: مُجيبًا له علىٰ البَديهة: هما امرأتان ذُكِرَتا بسُوء؛ مريمُ وعائشةُ، فبرَّأهما اللهُ عز وجل، وكانت عائشةُ ذاتَ زوجٍ ولم تأتِ بولدٍ، وأتَت مريمُ بولدٍ ولم يكُنْ لها زوجٌ. يعني أن

عائشةَ أولى بالبراءة من مريمَ، عليهما السلامُ، فإن تطرَّق في الذِّهن الفاسد احتمالٌ إلى هذه فهو إلى تلك أسرعُ، وهما بحمد اللّه مُبرَّأتان من السماء بوَحْيٍ من اللّه عز وجل، رضي اللّهُ عنهما.

وقد سمع الباقلانيُّ الحديثَ من أبي بكر بن مالكٍ القَطِيعيِّ وأبي محمد بن ماسي وغيرهما، وقد قبَّله الدارَقُطنيُّ يومًا بين عينَيه وقال: هذا يَرُدُّ على أهل الأهواء باطلَهم. ودعا له. وكانت وفاةُ الباقلانيِّ يومَ السبت لسبع بقين من ذي القَعْدة، ودُفن بداره، ثم نُقل إلى مَقْبرة باب حرب.

محمدُ بنُ موسى بن محمد، أبو بكر الخُوارَزْميُّ، شيخُ الحَنَفية وفقيهُهم، وقد أخذ العلمَ عن أبي بكر أحمدَ بن عليٍّ الرازيِّ، وانتهت إليه رياسةُ الحَنَفية ببغدادَ، وكان مُعَظَّمًا عندَ الملوك، ومن تلامذته الرَّضيُّ والصَّيْمَريُّ، وقد سمع الحديثَ من أبي بكرٍ الشافعيِّ وغيره، وكان ثقةً دَيِّنًا على طريقة السَّلَف، ويقولُ: دينُنا دينُ العَجائز، لسنا من الكلام في شيء. وكان فصيحًا حسنَ التَّدْريس، دُعي إلى ولاية القَضاء غيرَ مرة فلم يَقْبَلْ. وكانت وفاتُه ليلةَ الجمعة الثامنَ من جُمادَى الأولى سنةَ ثلاث وأربعمائة، ودُفن بداره من دَرْب عَبدةَ.

الحافظُ أبو الحسن عليُّ بنُ محمد بن خَلَف المَعافريُّ القابسيُّ، مُصنِّفُ «التلخيص»، أصلُه قَرَويٌّ، وإنما غلَب عليه القابسيُّ؛ لأن عمَّه كان يَتَعَمَّمُ قابسيةً، فقيل لهم ذلك، وقد كان حافظًا بارعًا في علم الحديث، رجلاً صالحًا جليلَ القَدْر، ولما تُوفِّي في ربيع الآخِر من هذه السنة عكَف الناسُ على قبره لياليَ يَقْرَءُون القرآنَ ويَدْعُون له، وجاء الشُّعراءُ من كلِّ أوبٍ يَرْثُون ويَتَرحَّمون.

ولما أُجْلِس للمُناظَرة أنشدَ لغيره:

لَعَمْرُ أبيك ما نُسب المُعَلَّى	إلى كَرَمٍ وفي الدنيا كَريمُ
ولكنَّ البلادَ إذا اقْشَعَرَّتْ	وصَوَّحَ نَبْتُها رُعِيَ الهَشيمُ

ثم بكَى وأبكَى. وجعَل يقولُ: أنا الهَشيمُ، أنا الهَشيمُ، أنا الهَشيمُ. رحمه اللّهُ تعالى.

الحافظُ ابنُ الفَرَضيِّ، أبو الوليد عبدُ اللّه بنُ محمد بن يوسفَ بن نصر الأزْديُّ الفَرَضيُّ: قاضي بَلَنسيَةَ، سمع الكثيرَ، وجمَع وحصَّل وصنَّف «التاريخَ»، وفي المُؤْتلِف والمُختلِف، ومُشْتَبِه النِّسْبة وغيرِ ذلك، وكان عَلاَّمةَ زمانه، قُتل شهيدًا على يد البَرْبَر، فسُمع، وهو جَريحٌ، طريحٌ يَقْرأُ على نفسه الحديثَ الذي في الصَّحيح: «**ما يُكْلَمُ أحدٌ في سبيل اللّه، واللّهُ أعلمُ بمَن يُكْلَمُ في سبيله، إلا جاء يومَ القيامة وكَلْمه يَدْمَى، اللونُ لونُ الدم، والرِّيحُ ريحُ المسْك**». وقد كان سأل اللّهَ تعالى الشهادةَ عندَ أستار الكعبة، فأعطاه اللّهُ ذلك، ومن شعره قولُه:

تأسَّرُ الخَطايا عندَ بابك واقفُ	على وَجَلٍ مما به أنت عارفُ
يَخافُ ذُنوبًا لم يَغِبْ عنك غَيْبُها	ويَرْجُوك فيها فهْو راجٍ وخائفُ
ومَن ذا الذي يُرْجَى سواك ويُتَّقَى	وما لك في فَصْل القَضاء مُخالفُ
فيا سيِّدي لا تُخْزِني في صَحيفتي	إذا نُشِرَت يومَ الحِساب الصَّحائفُ
وكُنْ مُؤْنسي في ظُلْمة القَبْر عندَما	يَصُدُّ ذَوُو القُرْبَى ويجْفُو المُؤالِفُ
لئن ضاقَ عني عَفْوُك الواسعُ الذي	أُرَجِّي لإسْرافي فإنيَ تالِفُ

ثم دخلت سنة أربع وأربعمائة

في يوم الخميس غُرَّة ربيع الأول منها جلَس الخليفةُ القادرُ باللَّه في أُبَّهَة الخلافة، وأُحْضِر إلى بين يديه فَخْرُ المُلْك والحَجَبةُ بينَ يديه، فخلَع عليه سبعَ خِلَعٍ على العادة، وعمامةً سَوداءَ. وسيفًا وتاجًا مُرَصَّعًا، وسوارَيْن، وطَوْقًا، ولواءَيْن خلَعهما الخليفةُ بيده، ثم أعْطاه سيفًا، وقال للخادم: قَلِّدْه به، فهو شَرَفٌ له ولعَقِبِه، يَفْتَحُ به شرقَ الأرض وغربَها. وكان ذلك يومًا مشهودًا بحضَرِ من القُضاة والأُمراء والوُزراء. والأماثل والأعيان والكبراء بدار الخلافة.

وفيها: غزا محمودُ بنُ سُبُكْتِكين بلادَ الهند، ففتَح وقتَل وسبى وغنِم وسلِم، وكتَب إلى الخليفة القادر باللَّه أن يُوَلِّيَه ما بيده من مَمْلكة خُراسانَ وغيرِها من البلاد فأجابه إلى ذلك.

وفيها: عاثَت بنو خَفَاجَةَ ببلاد الكوفة، فبرَز إليهم نائبُها أبو الحسن بنُ مَزْيَد فواقعَهم، فقتَل منهم خلقًا وأسَر محمدَ بنَ ثمالٍ وجماعةً من رُءوسِهم، وانهَزم الباقون، فأرْسَل اللَّهُ عليهم ريحًا حارَّةً، فأهْلكت منهم خمسَمائة إنسان.

وحجَّ بالناس في هذه السنة أبو الحسن محمدُ بنُ الحسن الأَقْساسيُّ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

الحسينُ بنُ أحمد بن جعفر بن عبد اللَّه، المَعروفُ بابن البغداديِّ: ، سمع الحديثَ، وكان زاهدًا عابدًا كثيرَ المُجاهَدة، لا يَنامُ إلا عن غَلَبة، وكان لا يَدْخُلُ الحَمَّامَ، ولا يَغْسِلُ ثيابَه إلا بالماء وحْده، رحمه اللَّهُ.

الحسينُ بنُ عثمانَ بن عليٍّ، أبو عبد اللَّه المُقْرِئُ الضَّريرُ المُجاهديُّ: ، قرَأ على ابن مُجاهد القرآنَ وهو صغيرٌ، وكان آخرَ مَن بقي من أصحابه، تُوُفِّي في جُمادَى الأولى من هذه السنة وقد جاوزَ المائةَ سنة، ودُفِن في مَقابر الفَرَاديس.

عليُّ بنُ سعيد الإصْطَخْريُّ: أحدُ شيوخ المُعْتزلة، صنَّف للقادر باللَّه «الردَّ على الباطنية»، فأجْرَى عليه جِرايةً سَنِيةً، وكان يَسْكُنُ درب رَباحٍ، تُوُفِّي في شوال وقد جاوَز الثمانين.

ثم دخلت سنة خمس وأربعمائة

فيها: منَع الحاكمُ صاحبُ مصرَ النساءَ من الخروج من المنازل، أو أن يَطَّلِعْنَ من الأَسْطِحة أو الطاقات، ومنَع الخَفَّافين من عمل الأخْفاف لهن، ومنعهنَّ من الخروج إلى الحَمَّامات، وقتَل خلقًا من النساء على مُخالفته في ذلك، وهدَم بعضَ الحَمَّامات عليهن، وجهَّز عجائزَ كثيرةً يَطُفْن في البيوت؛ يسْتَعْلِمْنَ أحوالَ النساء مَن منهنَّ تَعْشَقُ أو تُعْشَقُ، بأسمائهن وأسماء مَن يَتعرَّضُ لهن، فمَن وجَد منهن كذلك أطْفاها، وأكْثَر من الدَّوَران في الليل في البلد في طلب ذلك، وغرَّق خلقًا ممن

يَطَّلعُ على فسقهم من الرجال والنساء، فضاق النِّطاقُ على النساء والفُسَّاق، ولم يَتَمكَّنْ أحدٌ أن يَصلَ إلى أحدٍ إلا نادرًا، حتى إن امرأةً نادتْ قاضيَ القضاة بالدِّيار المصرية، وهو مالكُ بنُ سعيدٍ الفارقيُّ، وحَلَفتْ بحقِّ الحاكم لَما وقف لها واستمع كلامَها، فوقف لها، فبكَت بُكاءً شديدًا وقالت: إن لي أخًا ليس لي غيرُه وهو في السِّياق، وأنا أسْألُك لَما وَصَّلْتَني إليه؛ لأنظُرَ إليه قبلَ الموت، فرقَّ لها القاضي رقَّةً شديدةً، وأمَر رجلَيْن معه أن يَكُونا معها حتى يُبلغاها إلى المنزل الذي تُريدُه، فأغْلَقَت بابَها، وأعْطَت المِفْتاحَ جارتَها، وذهَبت حتى وصَلَت مع الرجلين إلى منزلٍ، فطرَقَت ودخَلَت، وقالت لهما: اذْهَبا راشدَيْن. فإذا هو منزلُ رجلٍ تَهْواه ويَهْواها، فأخْبَرَته بما احْتالت به من الحيلة على القاضي، فأعْجَبَه ذلك، وجاء زوجُها من آخرِ النهار فوجَد بابَه مُغْلَقًا، فسأل عن أمْرِها، فذُكر له ما صنَعَتْ، فاستغاث على القاضي وذهَب إليه، وقال له: ما أُريدُ امرأتي إلا منك، فإنها ليس لها أخٌ بالكُلِّيَّة، وإنما ذهَبَت إلى عشيقها. فخاف القاضي من مَعَرَّةِ هذا الأمر، فركب إلى الحاكم وبكَى لديه، فسأله عن شأنه، فأخبَره بما اتَّفَق له من الأمر، فأرْسَل الحاكمُ مع الرجلَيْن اللذَيْن سارا بها من جهة القاضي مَن يُحْضِرُ الرجلَ والمرأةَ جميعًا على أيِّ حالٍ كانا عليه، فوجدوهما مُتعانقَيْن سُكارَى، فسألهما الحاكمُ عن أمرهما، فأخذا يَعْتَذران بما لا يُجْدي شيئًا، فأمَر بتَحْريق المرأة في باريَّةٍ، وضرَب الرجلَ بالسياط ضربًا مُبَرِّحًا، وازْداد احْتياطُ الحاكم على النساء حتى مات. ذكَره ابنُ الجَوْزيِّ.

وفي رجبٍ منها ولي أبو الحسن أحمدُ بنُ محمدِ بنِ أبي الشَّوارب قضاءَ الحَضْرة بعدَ موتِ أبي محمدِ بنِ الأكْفانيِّ.

وفيها: عمَّر فخرُ المُلْك مسجدَ الشرقية، ونصَب عليه شَبابيكَ من حديدٍ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

بكرُ بنُ شاذانَ بنِ بكر، أبو القاسم المُقْرِيءُ الواعظُ، سمع أبا بكرٍ الشافعيَّ، وجعفرًا الخُلْديَّ، وعنه الأزهريُّ والخَلالُ، وكان ثقةً أمينًا صالحًا عابدًا زاهدًا، له قِيامُ ليلٍ، وكَريمُ أخلاقٍ. مات في هذه السنة وقد نَيَّفَ على الثمانين، ودُفن بباب حربٍ.

بدرُ بنُ حسنَوَيْه بنِ الحسين، أبو النَّجْم الكُرْديُّ، كان من خيارِ المُلوك بناحية الدِّيْنَوَرِ وهَمَذانَ، له سياسةٌ وصدَقَةٌ كثيرةٌ، كنَّاه القادرُ بالله أبا النَّجْم، ولقَّبه ناصرَ الدولة، وعقَد له لواءً وأنْفَذه إليه، وكانت أعمالُه في غاية الأمن، بحيث إذا أعْيَا جملُ أحدٍ من المسافرين فتركه بما عليه في البَرِّيَّة، رُدَّ إليه -ولو بعدَ حينٍ- بما كان عليه لا يَنْقُصُ منه شيءٌ. ولما عاثَت أُمراؤُه في البلاد فَسادًا عمِل لهم ضِيافةً حسنةً، فقدَّمها إليهم ولم يأْتِهم بخبزٍ، فجلَسوا يَنْتَظِرون الخبزَ، فلما طال ذلك سألوا عنه، فقال: إذا كنتم تُهْلِكون الحَرْثَ، فمن أين تُؤْتَوْن بخبزٍ؟! ثم قال: لا أَسْمَعُ بأحدٍ أفْسَد في الأرض إلا أرَقْتُ دمَه.

واجْتاز مرةً في بعض أسْفارِه برجلٍ قد حمَل حُزْمَةَ حطبٍ وهو يَبْكي، فقال له: ما لك؟ فقال:

إني كان معي رَغيفان أُريدُ أن أتَقوَّتَ بهما، فأخَذهما مني بعضُ الجندِ. فقال له: أتَعْرِفُه إذا رأيتَه؟ قال: نعم. فوقَف به في مَضِيقٍ حتى مرَّ عليه الجندُ، فلما اجتاز به ذلك الرجلُ الذي أخَذ منه الرغيفين، قال: هذا هو.

فأمَر به أن يَنْزِلَ عن فرسِه، وأن يَحْمِلَ هذه الحُزْمَةَ مِن الحَطَّاب حتى يَبْلُغَ بها إلى المدينةِ، فأراد أن يَفْتَدِيَ مِن ذلك بمالٍ جَزيلٍ، فلم يَقْبَلْ منه، حتى تأدَّب به الجيشُ كلُّهم.

وكان يَصْرِفُ في كلِّ جمعةٍ عشَرةَ آلافِ درهمٍ على الفقراءِ والأراملِ والأيتامِ، وفي كلِّ شهرٍ عشرين ألفَ درهمٍ في تَكفينِ المَوْتَى، ويَصرِفُ في كلِّ سنةٍ ألفَ دينارٍ إلى عشرين نَفْسًا يحُجُّون عن والدَيْه وعن عَضُدِ الدولةِ؛ لأنه كان السببَ في تَمْليكِه، وثلاثةَ آلافِ دينارٍ في كلِّ سنةٍ إلى الحَدَّادين والحَذَّائين للمنقطِعين بين هَمَذانَ وبغدادَ، يُصْلِحون لهم الأحْذيةَ ونِعالَ دَوابِّهم، ويَصْرِفُ في كلِّ سنةٍ مائةَ ألفِ دينارٍ إلى الحرمَيْن صَدَقةً على المُجاوِرِين، وعِمارةِ المَصانعِ، وإصلاحِ المياهِ في طريقِ الحِجازِ، وإطلاقًا لأهلِ المنازلِ، وحفرِ الآبارِ وإصلاحِها، وما اجْتاز في طريقِه بماءٍ جارٍ إلا بنَى عندَه قَرْيةً، وعُمِّر في أيامه مِن المساجدِ، والخاناتِ ما يُنَيِّف على ألفَيْ مسجدٍ وخانٍ، هذا كلُّه خارجًا عما يَصْرِفُ مِن ديوانِه مِن الجِراياتِ، والنَّفَقاتِ والصَّدَقاتِ، والبِرِّ والصِّلاتِ، على أصْنافِ الناسِ، مِن الفُقهاءِ، والقضاةِ، والمُؤَذِّنين، والأشرافِ، والشُّهودِ، والفقراءِ، والمساكينِ، والأيْتامِ، والضعفاءِ، وكان كثيرَ الصلاةِ والذِّكْرِ، وكان له مِن الدوابِّ المرْتَبِطةِ في سبيلِ اللَّهِ وفي الجَشَرِ ما يُنَيِّفُ عن عشرين ألفًا.

وكانت وفاتُه في هذه السنةِ، ومدَّةُ إمارته اثنتان وثلاثون سنةً، ودُفِن بمَشْهَدِ عليٍّ، وترَك مِن الأموالِ أربعةَ عشَرَ ألفَ بَدْرةٍ، ونَيِّفًا وأرْبعين بَدْرَةً، البَدْرَةُ عشَرةُ آلافٍ، رحِمه اللَّهُ تعالى.

الحسنُ بنُ الحسينِ بنِ حَمكانَ، أبو عليٍّ الهَمَذانيُّ، أحدُ الفُقهاءِ الشافعيين ببغدادَ، عُنِيَ أولًا بالحديثِ، فسمع شيئًا كثيرًا، حتى قيل: إنه كتَب بالبصرةِ عن نحوٍ من خمسمائةِ شيخٍ. ثم اشتغَل بالفقهِ على أبي حامدٍ المَرْوَرُّوذِيِّ، وروَى عنه الأزْهَريُّ، وقال: كان ضعيفًا، ليس بشيءٍ في الحديثِ.

عبدُ اللَّهِ بنُ محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ إبراهيمَ، أبو محمدٍ الأسَديُّ، المعروفُ بابنِ الأكْفانيِّ، قاضي قُضاةِ بغدادَ، وُلِد سنةَ ستَّ عشْرةَ وثلاثمائةٍ، وروَى عن القاضي المَحامِليِّ، ومحمدِ بنِ مَخْلَدٍ، وابنِ عُقْدةَ وغيرِهم، وعنه البَرْقانيُّ والتَّنوخيُّ، يقال: إنه أنْفَق على طلبِ العلمِ مائةَ ألفِ دينارٍ. وكان عَفيفًا نَزِهًا، صَيِّنَ العِرْضِ. وكانت وفاتُه في هذه السنةِ عن خمسٍ وثمانين سنةً، ولِي الحكمَ منها أربعين سنةً نِيابةً واستقلالًا، رحِمه اللَّهُ تعالى.

عبدُ الرحمنِ بنُ محمدِ بنِ محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ إدْريسَ، أبو سعدٍ الحافظُ الإسْتِراباذيُّ، المعروفُ بالإدْرِيسيِّ، رحَل في طلبِ الحديثِ وعُنِيَ به، وسمع الأصَمَّ وغيرَه، وسكَن سَمَرْقَنْدَ، وصنَّف لها تاريخًا، وعرَضه على الدارَقُطْنيِّ فاسْتَحْسَنَه، وحدَّث ببغدادَ، فسمع منه الأزْهَريُّ

والتَّنوخيُّ، وكان ثقةً حافظًا، رحمه اللهُ تعالىٰ.

أبو نصر، عبدُ العزيز بنُ عمرَ بن محمد بن أحمدَ بن نُباتَةَ السعديُّ، الشاعرُ المشهورُ، امتَدَح سيفَ الدولةِ وغيرَه منَ الأكابرِ والأمراءِ والوزراءِ وشعرُه المشهورُ بالجَودةِ والإحسانِ، وهو القائلُ البيتَ المَطْروقَ المشهورَ:

وَمَن لم يَمُتْ بالسيفِ ماتَ بغيرِه ... تَعَدَّدَتِ الأسبابُ والداءُ واحدُ

ومن شعرِه أيضًا قولُه:

وإذا عَجَزْتَ عن العدوِّ فداره ... وامْزَحْ له إن المزاحَ وِفاقُ
فالماءُ بالنارِ الذي هو ضدُّها ... تُعْطي النِّضاجَ وطبعُها الإحراقُ

وكانت وفاتُه في شوالٍ من هذه السنة، رحمه اللهُ.

عبدُ الغَفَّارِ بنُ عبد الرحمن، أبو بكرٍ الدِّينَوَرِيُّ، الفَقيهُ السُّفْيانيُّ، وهو آخرُ مَن كان يُفْتي علىٰ مذهبِ سُفيانَ الثَّوْريِّ ببغدادَ في جامعِ المنصورِ، وكان إليه النَّظَرُ في الجامع والقيامُ بأمرِه. وكانت وفاتُه في شوالٍ من هذه السنة، ودُفِن خلفَ الجامع، رحمه اللهُ.

الحاكمُ النَّيْسابوريُّ، صاحبُ «المُسْتَدْرَك» محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمدِ بنِ حَمْدَوَيْهِ بنِ نُعَيْمِ بنِ الحكم، أبو عبدِ اللهِ الحاكمُ الضَّبِّيُّ الحافظُ، ويُعْرَفُ بابنِ البَيِّع، من أهلِ نَيْسابورَ، وكان من أهلِ العلمِ والحفظِ للحديث، وُلِد سنةَ إحدىٰ وعشرين وثلاثمائةٍ، وأولُ سماعِه في سنةِ ثلاثين وثلاثمائةٍ، سمع الكثيرَ، وطَوَّفَ في الآفاقِ، وصنَّف الكتبَ الكِبارَ والصِّغارَ، فمن ذلك «المُسْتَدْرَكُ علىٰ الصحيحَيْن»، و«علومُ الحديث» و«الإكْليلُ» و«تاريخُ نَيْسابور»، وقد روىٰ عنه من مَشايخه الدارَقُطْنيُّ وابنُ أبي الفَوارسِ وغيرُهما، وقد كان من أهلِ العلم والحفظِ والأمانةِ والديانةِ والصِّيانة، والضَّبْط، والثقة، والتَّحَرُّز، والوَرَع، رحمه اللهُ، لكن قال الخطيبُ البغداديُّ: كان ابنُ البَيِّع يَميلُ إلىٰ التَّشيُّع، فحدَّثني أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ محمدٍ الأُرْمَويُّ قال: جمَع الحاكمُ أبو عبدِ اللهِ أحاديثَ زعَم أنها صِحاحٌ علىٰ شرطِ البُخاريِّ ومسلمٍ، يُلْزِمُهما إخراجَها في «صحيحَيْهما»، فمنها حديثُ الطيرِ، و«من كنتُ مَوْلاه فعليٌّ مَوْلاه»، فأنْكَر عليه أصحابُ الحديث، ولم يَلْتَفِتوا إلىٰ قولِه ولا صَوَّبوه في فعلِه.

وقال محمدُ بنُ طاهرٍ المَقْدِسيُّ: قال الحاكمُ: حديثُ الطيرِ لم يُخَرَّجْ في «الصحيح»، وهو صحيحٌ. قال ابنُ طاهرٍ: بل مَوْضوعٌ، لا يُرْوىٰ إلا عن سُقَّاطِ أهلِ الكوفةِ من المَجاهيلِ، عن أنسٍ، فإن كان الحاكمُ لا يَعْرِفُ هذا فهو جاهلٌ، وإلا فهو مُعانِدٌ كذَّابٌ.

وقال أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ: دخَلْتُ علىٰ الحاكمِ وهو مُخْتَفٍ من الكَرَّامية، لا يستطيعُ أن يَخْرُجَ منهم، فقلتُ له: لو خَرَجْتَ فأَمْلَيْتَ حديثًا في فضائلِ مُعاويةَ لاسْتَرَحْتَ مما أنت فيه. فقال:

لا يَجيءُ مِن قَلْبي، لا يَجيءُ مِن قَلْبي. تُوُفِّي في صفرٍ من هذه السنةِ عن أربعٍ وثمانين سنةً.

يوسفُ بنُ أحمدَ بن كَجٍّ، أبو القاسم القاضي، أحدُ أئمةِ الشافعيةِ، وله وجُوهٌ غَريبةٌ يحكيها في المذهبِ، كانت له نِعْمةٌ عظيمةٌ جداً، وولِي القَضاءَ بالدِّيْنَوَرِ لبدرِ بنِ حَسْنَوَيْه، فلما تغَيَّرَت البلادُ بعدَ موتِ بدرٍ وثَب عليه جماعةٌ مِن العيَّارِين فقتَلوه ليلةَ سبعٍ وعشرين مِن رمضانَ مِن هذه السنةِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

ثم دخلت سنة ست وأربعمائة

في يومِ الثلاثاءِ مُسْتَهَلَّ المُحَرَّمِ مِن هذه السنةِ وقَعَت فتنةٌ بينَ أهلِ السنةِ والرَّوافضِ، فسكَّن الفتنةَ الوزيرُ فخرُ المُلْكِ، على أن تَعْمَلَ الرَّوافضَ بدعتَهم يومَ عاشوراءَ مِن تَعْليقِ المُسوحِ والنَّوْحِ.

وفي هذا الشهرِ ورَد الخبرُ بوقوعِ وَباءٍ شديدٍ في البصرةِ أعْجَزَ الحَفَّارِين والناسَ عن دفنِ موتاهم، وأنه أظَلَّت البلدَ سَحابةٌ في حَزِيرانَ، فأمْطَرَتهم مطرًا شديدًا كثيرًا.

وفي يومِ السبتِ ثالثَ صفَرٍ قُلِّد الشريفُ المُرْتَضى أبو القاسمِ نِقابةَ الطالبِيِّين والمَظالمَ والحجَّ، وجميعَ ما كان يتَوَلَّاه أخوه الرَّضِيُّ، وقُرِئ تَقْليدُه بمَحْضَرٍ مِن الوزيرِ فخرِ المُلْكِ والقضاةِ والأعيانِ، وكان يومًا مشهودًا.

وفيها: ورَد الخبرُ عن الحجيجِ بأنه هلَك منهم بسببِ العطشِ أربعةَ عشَرَ ألفًا وسلِم منهم ستةُ آلافٍ، وأنهم شربوا أبوالَ الجِمالِ مِن العطشِ.

وفي هذه السنةِ غزا محمودُ بنُ سُبُكْتِكِين بلادَ الهندِ، فسلك به الأدلاَّءُ على بلادٍ غريبةٍ، فانْتَهَوا إلى أرضٍ قد غمرَها الماءُ مِن البحرِ، فخاض بنفسِه الماءَ أيامًا، حتى خلَصوا بعد ما غرِق كثيرٌ من جيشِه، وعاد إلى خُراسانَ بعدَ جَهْدٍ جَهيدٍ.

لم يذهبِ الركبُ في هذه السنةِ مِن العراقِ، لفَسادِ البلادِ مِن الأعْرابِ، والله أعلم

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

الشيخُ أبو حامدٍ الإسْفَرايِينيُّ أحمدُ بنُ محمدِ بن أحمدَ الشيخُ أبو حامدٍ، إمامُ الشافعيةِ في زمانِه، ومولده في سَنةِ أربعٍ وأربعين وثلاثمائةٍ، قدِم بغدادَ وهو صغيرٌ سنةَ ثلاثٍ أو أربعٍ وستين وثلاثمائةٍ، فدرَس الفقهَ على أبي الحسنِ بنِ المَرْزُبانِ، ثم على أبي القاسمِ الدَّارَكيِّ، ولم يزَلْ يَتَرَقَّى به الحالُ حتى صارَت إليه رياسةُ الشافعيةِ، وعظُم جاهُه عند السلطانِ والعوامِّ، وكان ثقةً إمامًا فقيهًا جليلاً نبيلاً، شرَح المُزَنيَّ في تَعْليقةٍ حافلةٍ نحوٍ مِن خمسين مجلدًا، وله تَعْليقةٌ أخرى في أصولِ الفقهِ، وروَى عن أبي بكرٍ الإسْماعيليِّ وغيرِه.

قال الخطيبُ البغداديُّ: ورأيْتُه غيرَ مرةٍ، وحضَرْتُ تدْريسَه بمسجدِ عبدِ اللَّهِ بنِ المبارَكِ، في صدرِ

قَطيعة الرَّبيع، وحدَّثنا عنه الأزَجيُّ والخَلَّالُ وسمعْتُ مَن يَذْكُرُ أنه كان يَحْضُرُ تَدْريسَه سبعُمائة مُتَفَقِّهٍ، وكان الناسُ يقولون: لو رآه الشافعيُّ لَفرح به.

وقال أبو الحسين القُدُوريُّ: ما رأيتُ في الشافعيين أفقه من أبي حامدٍ، رحمه اللَّهُ. وقد ذكَرْتُ ترجمتَه مُسْتقصاةً في «طَبَقات الشافعية»، ولله الحمدُ.

وذكَر ابنُ خلِّكانَ في الوفيات أن القُدُوريَّ قال: هو أفقهُ وأنظَرُ من الشافعيِّ. قال الشيخُ أبو إسحاقَ: وليسَ هذا مُسلَّمًا إلى القُدُوريِّ؛ فإن أبا حامدٍ وأمثالَه بالنسبةِ إلى الشافعيِّ كما قال الشاعرُ:

نزلوا بمكةَ في قبائلِ نوفلٍ ونزلتُ بالبَيْداءِ أبعدَ منزلِ

قال ابنُ خلِّكانَ: وله من المُصنَّفات؛ «التَّعْليقةُ الكبرىٰ»، وله كتابُ «البُسْتان» وهو صغيرٌ، فيه غَرائبُ. قال: وقد اعتذَر إليه بعضُ الفُقَهاءِ في بعضِ المُناظَراتِ، فأنشأ الشيخُ أبو حامدٍ يقولُ:

جَفاءٌ جرَى جَهْرًا لدَى الناسِ وانبَسَطْ وعُذْرٌ أتَى سِرًّا فأكَّد ما فَرَطْ
ومَن ظنَّ أن يَمْحُو جَليَّ جَفائه خَفيُّ اعْتِذارٍ فهْو في أعظمِ الغَلَطْ

وكانت وفاتُه ليلةَ السبت لإحدىٰ عشْرةَ ليلةً بقيَت من شوالٍ من هذه السنةِ، ودُفِن بدارِه بعدَ ما صُلِّي عليه بالصَّحْراءِ، وكان الجَمْعُ كثيرًا، والبُكاءُ غزيرًا، ثم نُقل إلى مقبرةِ بابِ حربٍ في سنةِ عشْرٍ وأربعمائة.

قال ابنُ الجوزيِّ: وبلَغ من العمرِ إحدىٰ وستين سنةً وأشْهرًا، رحمَه اللَّهُ تعالَىٰ.

أبو أحمدَ الفَرَضيُّ، عبدُ الرحمن بنُ محمد بنِ أحمدَ بن عليِّ بن مِهْرانَ، أبو أحمدَ بنُ أبي مسلم الفَرَضيُّ المُقْرئُ: ، سمع المَحامِليَّ، ويوسفَ بنَ يعقوبَ، وحضَر مجلسَ أبي بكرِ بنِ الأنباريِّ، وكان إمامًا ثقةً، ورعًا وقورًا، كثيرَ الخيرِ، يُقرئُ القرآنَ، ثم يُسمعُ الحديثَ، وكان معظَّمًا جليلاً؛ إذا قدِم على الشيخ أبي حامدٍ الإسْفَرايينيِّ، نهَض إليه حافيًا فتلَقَّاه إلى بابِ المسجدِ، تُوُفِّي وقد جاوزَ الثمانين. رحمه اللَّهُ.

الشَّريفُ الرَّضيُّ محمدُ بنُ الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيمَ بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليِّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب: أبو الحسنِ العَلَويُّ، لقَّبه بهاءُ الدولةِ بالرَّضيِّ ذي الحَسَبَيْن، ولقَّب أخاه بالمُرْتضىٰ ذي المَجْدَيْن، وكان نقيبَ الطالبيِّين ببغدادَ بعدَ أبيه، وكان فاضلاً دَيِّنًا، قرأ القرآنَ بعد ثلاثين سنةً من عمرِه، وحفظ طرفًا جيدًا من الفقهِ وفُنونِ العلم. وكان شاعرًا مُطَبِّقًا، سَخيًّا جَوادًا ورعًا.

وقد قال بعضُهم: كان الشَّريفُ الرضيُّ في كثرةِ شعرِه أشْعَرَ قريشٍ. فمِن شعرِه المُستَجادِ قولُه:

اشْـتـرِ العِـزَّ بما شـئت ... فَـمـا العـزُّ بِغَـال
بالقـصـارِ الصُّـفـرِ إن شـئتَ ... أَوِ السُّـمْـرِ الطِّوالَ
ليس بالمَغْبونِ عقـلاً ... مَنْ شَرَى عزًا بمالَ
إنما يُدَّخَـرُ المالُ ... لحـاجـاتِ الرجـالَ
والفـتى مَن جعَـلَ الأموالَ ... أثْمَـانَ المَعَالي

ومن شعرِه، رحِمه اللَّهُ تعالىٰ:

يا طائرَ البـانِ غِـرِّيدًا على فَنَنٍ ... ما هاج نَوْحُك لي يا طائرَ البانِ
هل أنت مُبْلغُ مَن هام الفؤادُ به ... أن الطَّليقَ يُؤدِّي حاجةَ العَاني
جِنايةً ما جَناها غيرُ مُقْلَتِه ... يومَ الوَداعِ وواشَوقِي إلى الجاني
لَولا تَذَكُّرُ أيامي بذي سَلَمَ ... وعندَ رامةَ أوطاري وأوْطانَي
لَمَا قدَحْتُ بنارِ الوَجْدِ في كَبِدي ... ولا بلَلْتُ بماءِ الدمعِ أجْفاني

وقد نُسِب إلى الرَّضِيِّ قَصيدةٌ يَتَرامَىٰ فيها علىٰ الحاكمِ العُبَيْديِّ، ويَودُّ أن لو كانَ ببلده وفي حوزتِه، ويا ليت أن ذلك كان، حتىٰ يرىٰ كيف تكونُ منزلتُه عندَه، ولو أنَّ الخليفةَ العباسيَّ أجادَ السياسةَ، لسَيَّرَه إليه ليَقْضِيَ مُرادَه ويعلمَ الناسُ كيف حالُه. لكن حِلْمَ العباسيين غزيرٌ. يقول في هذه القصيدة:

أَلْبَسُ الذُّلَّ في بلادِ الأعادي ... وبمصرَ الخليفةُ العَلَويُّ
مَنْ أبوهُ أبي ومولاه مولا ... يَ إذا ضامَنِي البَعيدُ القَصِيُّ
لَفَّ عِرْقي بعِرْقِه سيِّدُ النا ... سِ جميعًا محمدٌ وعليٌّ
إنَّ خَوفي بذلك الربعِ أمْنٌ ... وأُوامِي بذلك الوِرْدِ رِيُّ

فلما سمع الخليفةُ القادرُ بأمرِ هذه القصيدةِ زَعَج، وبعَث إلىٰ أبيه الشَّريفِ الطَّاهرِ أبي أحمدَ المُوسَويِّ يُعاتِبُه، فأرْسَل إلىٰ ابنِه الرَّضِيِّ، فأنْكَر أن يَكُونَ قالَ ذلك بمرَّةٍ، والرَّوافضُ من شأنِهم التَّقِيَّةُ. فقال له أبوه: فإذا لم تَكُنْ قلتَها فقلْ أبياتًا تَذْكُرُ فيها أن الحاكمَ بمصرَ دَعِيٌّ لا نسَبَ له. فقال: إنِّي أَخافُ من غائلةِ ذلك. وأصَرَّ علىٰ أن لا يَقولَ ما أمَره به أبوه، وتَرَدَّدت الرسلُ مِن الخليفةِ إليهم في ذلك، وهم يُنْكِرون، حتىٰ بعَث الشيخَ أبا حامدٍ الإسْفَرايِينيَّ والقاضيَ أبا بكرٍ إليه، فأحلفاه باللَّه، وبالأيْمانِ المُؤكَّدة أنه ما قالها. واللَّهُ أعلم بحقيقةِ الحال.

تُوُفِّي في خامسِ المُحَرَّمِ من هذه السنةِ عن سبعٍ وأربعين سنةً، وحضَر جنازتَه الوزيرُ والقُضاةُ والأعيانُ، وصلَّىٰ عليه الوزيرُ فخرُ الملكِ، ودُفِن بدارِه بمسجدِ الأنْبارِ، ووَلِي أخوه الشريفُ المُرْتَضَىٰ ما كان يَلِيه، وزِيد علىٰ ذلك مَناصبَ أُخَرَ، وقد رثاه أخوه رحمه اللَّهُ، بمرثاةٍ حسنةِ المطلعِ.

باديسُ بنُ منصورِ بنِ بُلُكِّين بنِ زيري بن مَنَادٍ الحِمْيَرِيُّ: أبو المعزِّ مَنَادِ بنِ باديسَ، نائبُ الحاكمِ

على بلاد إفريقيَّةَ وابنُ نائبها، ولقَّبه الحاكمُ نَصيرَ الدولة، وكان ذا هَيْبَةٍ وسَطْوةٍ وحُرْمةٍ وافرةٍ، كان إذا هزَّ رُمْحًا كسَره، كانت وفاتُه بغتةً ليلةَ الأربعاء سَلْخَ ذي القَعْدة من هذه السنة، ويقالُ: إن بعضَ الصالحين دعا عليه تلك الليلةَ. وقام بالأمر من بعده ولدُه المُعِزُّ.

ثم دخلت سنة سبع وأربعمائة

في ربيعٍ الأوَّل منها، احْتَرَق مَشْهدُ الحسين بن عليٍّ بكَرْبَلاءَ وأَرْوِقَتُه، وكان سبَبَه أن القَوَمَةَ أشْعلوا شَمْعَتَين كبيرتَيْن، فمالَتا في الليلِ على التأزيرِ فاحترق، ونفَذَت النارُ منه إلى غيره حتى كان منه ما كان.

وفي هذا الشهرِ أيضًا احْتَرَقَت دارُ القُطْنِ ببغدادَ وأماكنُ كثيرةٌ بباب البصرة، واحْتَرَق جامعُ سامَرَّا.

وفي هذا الشَّهرِ ورَد الخبرُ بتَشْعيثِ الركنِ اليَمانيِّ من المسجدِ الحَرام، وسُقوطِ جدارٍ بينَ يدي قبرِ النَّبيِّ ﷺ، وأنه سقَطَت القُبَّةُ الكبيرةُ على صخرةِ بيت المَقْدس، وهذا من أغْربِ الاتفاقاتِ وأعجبها.

وفي هذه السنةِ قُتِلَت الشِّيعةُ الذين ببلادِ إفْريقِيَّةَ ونُهِبَت أموالُهم، ولم يُتْرَكْ منهم إلا مَن لا يُعْرَفُ.

وفيها: كان امتدادُ دولة العَلَويِّين بالأنْدَلُس، ولِيَها عليُّ بنُ حَمُّودِ بنِ أبي العيشِ العَلَويُّ، فدخَل قُرْطُبَةَ في المُحَرَّم من هذه السنة، وقتَل سليمانَ بنَ الحَكم الأُمَويَّ، وقتَل أباه أيضًا، وكان شيخًا صالحًا، وبايَعه الناسُ، وتلَقَّب بالمتوكلِ على اللَّه، ثم قُتِل في الحَمَّام في ثامنَ عشرَ ذي القَعْدة من هذه السنة عن ثمانٍ وأربعين سنةً، وقام بالأمرِ من بعده أخوه القاسمُ بنُ حَمُّودٍ، وتلقَّب بالمأمونِ، فأقام في المُلْك ستَّ سنينَ، ثم كان ابنُ أخيه يحيى ثم إدريسُ أخو يحيى، ثم ملَك الأُمَويون ثم أجانبُ حتى ملَك أميرُ المسلمين عليُّ بنُ يوسُفَ بنِ تاشفِين.

وفي هذه السنةِ ملَك محمودُ بنُ سُبُكْتِكين يمينُ الدولة بلادَ خُوارَزْمَ بعدَ مَلِكها خُوارَزْمَ شاه مأمونٍ.

وفيها: استَوْزَر سلطانُ الدولة أبو شجاعٍ أبا الحسنِ عليَّ بنَ الفضلِ الرامَهُرْمُزيَّ، عوضًا عن فخرِ المُلْك، وخلَع عليه خِلَعَ الوزارة، ولم يَحُجَّ أحدٌ في هذه السنةِ من بلادِ العراقِ لفَسادِ البلادِ والطُّرُقات، وعَيْث الأعراب.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمدِ بنِ يوسُفَ بنِ دُوسْتَ أبو عبد اللَّه البَزَّازُ: ، أحدُ حُفَّاظ الحديث والفُقهاء على مذهَب مالك، وكان يُذاكِرُ بحضْرة الدارَقُطْنيِّ، ويَتَكَلَّمُ في علم الحديث، فيقالُ: إن الدارَقُطْنيَّ تكَلَّم فيه بذلك السبب، وقد تكلَّم فيه غيرُه بما لا يَقْدَحُ فيه كبيرَ شيءٍ. قال الأزهَريُّ: رأيتُ كتبَه كلَّها

طَرِيَّةً، وكان يَذْكُرُ أنَّ أصولَه العُتُقَ غرِقَت. وقد أمْلَى الحديثَ مِن حِفْظِه والمُخَلِّصُ وابنُ شَاهِينَ حيَّان مَوْجودان. وكانت وفاتُه في رمضانَ عن أربعٍ وثمانينَ سنةً.

الوزيرُ فَخْرُ المُلْك محمدُ بنُ عليِّ بنِ خلف، أبو غالب، كان مِن أهْلِ واسِطٍ، وكان أبوه صَيْرَفِيًّا، فتنَقَّلَت به الأحْوالُ إلى أن وزَر لبَهاءِ الدولةِ بنِ عضدِ الدولة، واقْتَنَى أموالاً جزيلةً، وبنى داراً عظيمةً تُعْرَفُ بالفَخْرِيةِ، وكانت أولاً للخليفةِ المُتَّقِي للَّه، فأنْفَق عليها أموالاً كثيرةً ونفقاتٍ غزيرةً، وكان كريمًا جَوَادًا بذَّالاً، كثيرَ الصدقاتِ، كسا في يومٍ ألفَ فقيرٍ، وكان كثيرَ الصلاةِ أيضًا، وهو أولُ مَن فرَّق الحَلاوةَ ليلةَ النصفِ مِن شعبانَ، وكان فيه مَيْلٌ إلى التَّشَيُّعِ.

وقد قتَله سُلْطانُ الدولةِ في هذه السنةِ بالأهْوازِ، وأخَذ من أمواله شيئًا كثيرًا؛ من ذلك أزْيَدُ من ستِّمائةِ ألفِ دينارٍ، خارجًا عن الأمْلاكِ والأثاثاتِ والمَتاعِ، وكان عمرُه يومَ قُتِل ثنتَيْن وخمسين سنةً وأشْهرًا، وقد قيل: إن سببَ هَلاكِه أن رجلاً قتَله بعضُ غِلْمانِه، فاسْتَعْدَت امرأةُ الرجلِ عليه إلى الوزيرِ، ورفَعَت إليه قِصصًا، وكلُّ ذلك لا يَلْتَفِتُ إليها، فقالت له ذاتَ يومٍ: أرأيْتَ القِصصَ التي رفَعْتُها إليك ولا تَلْتَفِتُ إليها، قد رفعتُها إلى اللَّهِ، وأنا أنْتَظِرُ التَّوقيعَ عليها. فلما مُسِك الوزيرُ قال: قد واللَّهِ خرَج تَوْقيعُ المرأةِ. فكان مِن أمرِه ما كان.

* * *

ثم دخلت سنة ثمان وأربعمائة

فيها: وقَعَت فتنةٌ عظيمةٌ بينَ السنةِ والروافضِ ببغدادَ، فقُتِل خَلْقٌ كثيرٌ من الفريقين.

وفيها: ملَك أبو المُظَفَّرِ أرسلان خان بلادَ ما وراءَ النهرِ وغيرَها، وتلقَّب بشرفِ الدولة، وذلك بعدَ وفاةِ أخيه طُغان خان، وقد كان طُغان خان هذا دَيِّنًا فاضلاً، يُحِبُّ أهلَ العلمِ والدِّين، وقد غزا التركَ مرةً، فقتَل منهم مائتَيْ ألفِ مُقاتل، وأسَر منهم مائةَ ألفٍ، وغنِم من أواني الذهبِ والفضةِ، وأواني الصينِ شيئًا لم يُعْهَدْ لأحدٍ مثلُه، فلما مات ظهرَت ملوكُ التركِ في البلادِ الشرقية.

وفي جُمادَى الأولى منها ولِي أبو الحسينِ أحمدُ بنُ مُهَذَّبِ الدولةِ أبي الحسنِ عليِّ بنِ نصرٍ بلادَ البَطائحِ بعدَ أبيه، فقاتَله ابنُ عَمَّتِه فغلَبه عليها، وضرَبه حتى قتَله، ثم لم تَطُلْ مدتُه فيها حتى قُتِل، ثم آلت بعدَ ذلك إلى سلطانِ الدولةِ صاحبِ بغدادَ.

وفي هذه السنةِ ضَعُفَ أمرُ الدَّيْلَمِ ببغدادَ، وطمِع فيهم العامَّةُ، فنزَلوا إلى واسطٍ فقاتلهم أهلُها مع الترك أيضًا.

وفيها: ولِي نورُ الدولةِ أبو الأغَرِّ دُبَيْسُ بنُ أبي الحسنِ عليِّ بنِ مَزْيَدٍ بعدَ وفاةِ أبيه.

وفيها: قدِم سلطانُ الدولةِ إلى بغدادَ، وضُرِب الطَّبْلُ أوقاتَ الصَّلَوات، ولم تَجْرِ بذلك عادةٌ، وعقَد عَقْدَه على بنتِ قِرْواشٍ، على صَداقٍ مَبْلَغُه خمسون ألفَ دينارٍ.

ولم يَحُجَّ أحدٌ من أهلِ العراقِ لفَسادِ البلاد، وعَيْثِ الأعراب، وضَعْفِ الدولة.

وقال أبو الفرَجِ بنُ الجوزيِّ في «المُنْتَظَم»: أخبرَنا سعدُ اللَّهِ بنُ عليٍّ البَزَّازُ، أنبأ أبو بكرٍ الطُّرَيْثِيثيُّ، أخبرَنا هبَةُ اللَّهِ بنُ الحسنِ الطَّبَريُّ قال: وفي سنةِ ثمانٍ وأربعمائةٍ استَتاب القادرُ باللَّهِ أميرُ المؤمنين فُقهاءَ المُعْتَزِلةِ الحَنَفيَّةَ، فأظْهَروا الرُّجوع، وتبَرَّءوا من الاعتزالِ والرَّفْضِ والمَقالاتِ المُخالفةِ للإسلام، وأخَذ خُطوطَهم بذلك، وأنهم متى خالَفوه حَلَّ بهم من النَّكالِ والعُقوبةِ ما يَتَّعِظُ به أمْثالُهم، وامْتَثَل يمينُ الدولةِ وأمينُ المِلَّةِ أبو القاسمِ محمودُ بنُ سُبُكْتِكِين أمْرَ أميرِ المؤمنين، واسْتَنَّ بسُنَّته في أعماله التي استَخْلفه عليها من خُراسانَ وغيرِها، في قتلِ المعتزلةِ والرافضةِ والإسماعيليةِ والقَرامطةِ والجَهْميةِ والمُشَبِّهة، وصلَبهم وحبَسهم ونفاهم، وأمرَ بلعنهم على مَنابرِ المسلمينَ، وإبعادِ كلِّ طائفةٍ من أهلِ البدع، وطَرْدهم عن ديارِهم، وصار ذلك سُنَّةً في الإسلام.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

الحاجبُ الكبيرُ شُباشي أبو طاهر: مولى شرفِ الدولة، ولقَّبه بَهاءُ الدولةِ بالسَّعيد، وكان كثيرَ الصَّدقةِ والأوْقافِ على وُجوهِ القُرُباتِ، فمن ذلك أنه وقَف دَبَاها على المارَسْتان، وكانت تُغِلُّ شيئًا كثيرًا من الزُّروعِ والثِّمارِ والخَراج، وبنَى قَنْطَرةَ الخَنْدَقِ والياسِرِيَّةِ وغيرَ ذلك. ولما دُفِن بمَقْبَرةِ الإمامِ أحمدَ، أوْصَى أن لا يُبْنَى عليه فخالَفوه، فعقَدوا على قبرِه قُبَّةً فسقَطَت بعدَ موتِه بنحوٍ من سبعين

سنةً، واجتمع نِسْوةٌ عندَ قبرِه ينُحْنَ ويَبْكين، فلما رجَعْنَ رأت عَجوزٌ منهن - كانت هي المُقَدَّمَةَ فيهن - في المنام كـأن تُرْكيًّا خرَج إليها مِن قبرِه ومعه دَبُّوسٌ، فحمَل عليها وزجَرها، فإذا هو الحاجبُ السعيدُ، فانتَبَهت مَذْعورةً.

ثم دخلت سنة تسع وأربعمائة

في يوم الخميسِ السابعَ عشرَ مِن المُحرَّمِ قُرِئ بدارِ الخلافةِ في المَوْكِبِ كتابٌ في مَذْهَبِ أهلِ السنةِ، وفيه: إن مَن قال: إن القرآن مخلوقٌ. فهو كافرٌ حَلالُ الدمِ.

وفي النصفِ مِن جُمادَىٰ الأولىٰ من هذه السنةِ فاض ماءُ البحرِ المالحِ ووافىٰ الأُبُلَّةَ، ودخَل البصرةَ بعدَ يومين.

وفيها: غزا محمودُ بنُ سُبُكْتِكِين بلادَ الهندِ، وتواقَع هو وملكُ مُلوكِ الهندِ، فاقْتَتل الناسُ قتالاً عظيمًا، ثم انْجلَت عن هزيمةِ الهندِ، فأخَذ المسلمون منهم أموالاً عظيمةً مِن الجواهرِ والذهبِ والفضةِ، ومائتَيْ فيلٍ، واقْتَصُّوا آثارَ المُنهزِمين منهم، وهدَموا مَعاقِلَ كثيرةً جدًّا، ثم عاد إلىٰ غَزْنَةَ مُؤَيَّدًا منصورًا. وللَّهِ الحمدُ والمنةُ.

وفيها: استوزَر سلطانُ الدولةِ ذا السعادَتَين أبا غالبٍ الحسنَ بنَ منصورٍ، ولم يَحُجَّ في هذه السنةِ أحدٌ مِن أهلِ العراقِ؛ لفَسادِ البلادِ وعَيْثِ الأعْرابِ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها مِن الأعْيانِ:

رَجاءُ بنُ عيسى بنِ محمدٍ أبو العباسِ الأنْصِناويُّ، نسبةً إلىٰ قريةٍ مِن قُرىٰ مصرَ يقالُ لها: أنْصِنا. قدِم بغدادَ فحدَّث بها، وسمِع منه الحُفَّاظُ، وكان ثقةً، فَقيهًا مالكيًّا، عَدْلاً مَقْبولاً عندَ الحُكام مَرْضيًّا، فَرَضيًّا. ثم عاد إلىٰ بلدِه، وتُوُفِّيَ في هذه السنةِ وقد جاوَز الثمانين، رحمَه اللَّهُ تعالىٰ.

عبدُ اللَّهِ بنُ محمدِ بنِ أبي عَلَّانَ أبو أحمدَ قاضي الأهْوازِ، كان ذا يُسْرَةٍ كثيرةٍ، وله مُصَنَّفاتٌ، منها كتابٌ في مُعْجِزاتِ النبيِّ ﷺ، جمَع فيه ألفَ مُعْجِزةٍ، وكان مِن كبارِ شيوخِ المعتزلةِ، تُوُفِّيَ في هذه السنةِ عن تسعٍ وثمانين سنةً.

عليُّ بنُ نصرٍ أبو الحسنِ، مُهَذِّبُ الدولةِ، صاحبُ بلادِ البَطيحةِ، كانت له مَكارمُ كثيرةٌ، وكان الناسُ يَلْجَئون إليه في الشَّدائدِ، فيُؤويهم ويُحْسِنُ إليهم، ومِن أكبرِ مَناقبِه في ذلك إحْسانُه إلىٰ أميرِ المؤمنين القادرِ باللَّهِ حينَ اسْتَجار به، ونزَل عندَه بالبَطائحِ فارًّا مِن الطائعِ للَّهِ، فآواه وأحْسَن إليه، وكان في خِدْمتِه حتىٰ ولِي إمْرةَ المؤمنين، فكانت له بها عندَه اليدُ البيضاءُ، وقد ولِي البَطائحَ ثنتين وثلاثين سنةً وشهورًا، وتُوُفِّيَ في هذا العامِ عن ثِنْتَين وسبعين سنةً، وكان سببَ موتِه أنه افْتَصَد فانْتَفَخ ذراعُه حتىٰ مات، رحمَه اللَّهُ تعالىٰ.

عبدُ الغنيِّ بنُ سعيدِ بنِ عليِّ بنِ سعيدِ بنِ بشرِ بنِ مَرْوانَ بنِ عبدِ العزيز، أبو محمد الأزْديُّ المِصْريُّ الحافظُ، كان عالمًا بالحديثِ وفنونه، وله فيه المُصنَّفاتُ الكثيرةُ الشهيرة.

قال أبو عبدِ الله الصُّوريُّ الحافظ: ما رأت عَيْنايَ مثلَه في معناه. وقال الدارَقُطْنيُّ: ما رأيتُ بمصرَ مثلَ شابٍّ يقالُ له: عبدُ الغنيِّ. كأنه شُعْلةُ نارٍ. وجعَل يُفَخِّمُ أمْرَه ويَرْفَعُ ذِكْرَه.

وقد صنَّف الحافظُ عبدُ الغنيِّ هذا كتابًا فيه أوْهامُ الحاكمِ، فلما وقَف عليه الحاكمُ جعَل يَقْرَؤُه على الناسِ، و يَعْتَرِفُ لعبدِ الغنيِّ بالفضلِ، ويَشْكُرُه على ذلك، ويَرْجِعُ إلى ما أصاب فيه من الردِّ عليه، رحمهما اللهُ. وُلِد الحافظُ عبد الغنيِّ لليلتين بقيَتا من ذي القَعْدةِ سنةَ ثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وتوُفِّي في صفَرٍ من هذه السنة، رحمَه اللهُ تعالى.

محمدُ بنُ أميرِ المؤمنين القادرِ باللَّه، ويُكَنَّى بأبي الفَضْلِ، كان أبوه قد جعَله وليَّ عهدِه من بعدِه، وضُرِبَت السِّكَّةُ باسمِه، وخطَب له الخُطباءُ على المَنابرِ، ولُقِّب بالغالبِ باللَّه، فلم يُقَدَّرْ ذلك. وتُوُفِّي في هذه السنة عن سبعٍ وعشرين سنةً.

محمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ محمدِ بنِ يزيدَ أبو الفتحِ البَزّازُ، الطَّرَسُوسيُّ، ويُعْرَفُ بابنِ البَصْريِّ، سمع الكثيرَ عن المشايخِ، وسمع منه الصُّوريُّ ببيتِ المَقْدِسِ حينَ أقام به، وكان ثقةً مأمونًا، رحمه اللَّهُ تعالى ورحمنا أجمعينَ بمَنِّه وكَرَمه.

ثم دخلت سنة عشر وأربعمائة

فيها: ورَد كتابٌ من يَمينِ الدولة محمودِ بنِ سُبُكْتِكِين، يَذْكُرُ فيه ما افْتَتَحه من بلاد الهند في السنة الخالية، وفيه أنه دخَل مدينةً، وجَد بها ألفَ قصرٍ مَشيدٍ، وألفَ بيتٍ للأصنام، ومَبْلَغُ ما في الصنمِ من الذهبِ يُقاربُ مائةَ ألفِ دينارٍ، ومَبْلَغُ الأصنامِ الفضة زيادةٌ على ألفِ صنمٍ، وعندَهم صنمٌ مُعَظَّمٌ يُؤَرِّخون مُدَّتَه بجَهالتِهم بثلاثمائة ألفِ عامٍ، وقد عَمَّ المجاهدون هذه المدينةَ بالإحْراقِ، فلم يَبْقَ منها إلا الرُّسومُ، وبلَغ عددُ الهالكين من الهند خمسين ألفًا، وأسْلَم منهم نحوٌ من عشرين ألفًا، وأُفْرِد خُمُسُ الرَّقيقِ فبلَغ ثلاثًا وخمسين ألفًا، واستُعْرِض من الأفيالِ ثلاثُمائةٍ وستةٌ وخمسون فيلًا، وحُصِّل من الأموالِ عشرون ألفَ ألفِ درهمٍ.

وفي ربيعٍ الآخرِ جلَس القادرُ باللَّه وقُرِئ عهدُ الملكِ أبي الفَوارسِ، ولُقِّب قِوامَ الدولةِ، وخُلِع عليه بخِلَعٍ حُمِلَت إليه بولايةِ كَرْمانَ، ولم يَحُجَّ أحدٌ في هذه السنةِ من العراقِ؛ لفسادِ الأعرابِ في الطُّرُقاتِ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

الأُصَيْفِرُ المُنْتَفِقيُّ: الذي كان يَخْفِرُ الحاجَّ.

أحمدُ بنُ موسى بنِ مَرْدَوَيْهِ بن فُورك، أبو بكرٍ الحافظُ الأصْبهانيُّ[١]، تُوُفِّي في رمضانِ هذه السنة.

هِبَةُ اللَّه بنُ سَلامَةَ، أبو القاسمِ، الضَّريرُ المُقرِئُ المُفَسِّرُ، كان من أعلمِ الناسِ وأحْفظِهم للتفسير، وكانت له حَلْقةٌ في جامعِ المنصور.

روَى ابنُ الجوزيِّ بسنده إليه قال: كان لنا شيخٌ نَقرأُ عليه، فمات بعضُ أصحابه، فرآه في النوم، فقال له: ما فعَل اللَّهُ بك؟ قال: غفَر لي. قال: فما كان حالُك مع مُنْكَرٍ ونكيرٍ؟ قال: لما أجْلَساني وسألاني ألْهَمني اللَّهُ تعالى أن قلتُ: بحقِّ أبي بكرٍ وعمرَ دعاني. فقال أحدُهما للآخرِ: قد أقْسَم علينا بعظيمٍ فدَعْه. فتركاني وذهَبا.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وأربعمائة

فيها: عُدِم الحاكمُ العُبيديُّ صاحبُ مصرَ، وذلك أنه لما كان ليلةُ الثلاثاء لليلتين بقيتا من شوالٍ فُقد الحاكمُ بنُ العزيزِ بنِ المعزِّ الفاطميُّ صاحبُ مصرَ، فاسْتَبْشَر المؤمنون والمسلمون بذلك؛ وذلك لأنه كان جبارًا عَنيدًا، وشيطانًا مَريدًا، ولْنَذْكُرْ شيئًا من صفاته القَبيحة، وسيرته المَلْعونة:

كان قبَّحه اللَّهُ كثيرَ التَّلَوُّنِ في أفعاله وأقواله، جائرًا في كيفية بلوغه ما يأمُله من ضميره الملعون؛ لأنه كان يَرومُ أن يَدَّعِيَ الأُلوهيةَ كما ادَّعاها فِرْعونُ في زمانِ موسى، عليه السلامُ.

وكان قد أمَر الرعيةَ إذا ذكَره الخطيبُ على المنبرِ أن يقومَ الناسُ على أقْدامهم صُفوفًا؛ إعْظامًا لذكْرِه واحْترامًا لاسمه، فكان يُفْعلُ هذا في سائر مَمالكه حتى في الحرمَيْن الشريفين، وكان أهلُ مصرَ على الخُصوصِ إذا قاموا خَرُّوا سُجودًا، حتى أنه لَيَسْجُدُ بسُجودهم مَن في الأسْواقِ من الرَّعاعِ وغيرِهم.

وأمَر في وقتٍ أهلَ الكتابين بالدُّخول في دينِ الإسْلام كُرْهًا، ثم أذن لهم في العَوْدِ إلى أديانهم، وخرَّب الكنائسَ، ثم عمَّرها، وخرَّب قُمامةَ، ثم أعادها، وابْتَنى المَدارسَ وجعَل فيها الفُقهاءَ والمشايخَ، ثم قتَلهم وخرَّبها.

وألْزَم الناسَ بإغلاقِ الأسْواقِ نَهارًا، وفَتْحِها ليلًا، فامْتَثَلوا ذلك دَهْرًا طويلًا، حتى اجْتازَ مرَّةً بشيخٍ يَعْمَلُ النِّجارةَ في أثناء النهارِ فوقَف عليه فقال: ألم نَنْهَكم عن هذا؟ فقال: يا سيدي، أما كان الناسُ يسهَرون لَمَّا كانوا يتعيشون بالنهار، فهذا من جُمْلة السَّهَرِ، فتبَسَّم وترَكه، وأعاد الناسَ إلى أمْرِهم الأول، وكلُّ هذا تَغْييرٌ للرُّسوم، واخْتبارٌ لطاعة العامَّة، ليَرْقَى في ذلك إلى ما هو أطمُّ من ذلك، لعَنه اللَّهُ، وقد كان يَعْمَلُ الحِسبةَ بنفسه؛ يَدُورُ في الأسْواقِ على حمارٍ له، وكان لا يَرْكَبُ إلا

---

(١) ترجمته في «السير» (١٧/ ٣٠٨) وما بعدها.

حمارًا، فمَن وجَده قد غشَّ في مَعيشته أمرَ عبدًا أسْودَ معه يقالُ له: مسعودٌ. أن يَفْعَلَ به الفاحشةَ العُظْمَى جهارًا، وهذا أمرٌ مُنْكَرٌ مَلْعونٌ، لم يُسْبَقْ إليه، وكان قد منَع النساءَ من الخروجِ من مَنازِلهن، وقطَع الأعْنابَ حتى لا يتَّخذَ الناسُ خمرًا، ومنَعهم من طبخِ المُلُوخيَّة، وأشياءَ من الرُّعُونات التي لا تنضبطُ ولا تنحصرُ، وكانت العامةُ مُوَتَّورين منه يُبْغِضُونه كثيرًا، ويكْتُبون له الأوْراقَ التي فيها الشَّتيمةُ البليغةُ له ولأسْلافه وحريمه في صُورةِ قصصٍ، فإذا قرأها ازْداد حَنَقًا عليهم، حتى إن أهلَ مصرَ عملوا صُورةَ امرأةٍ من وَرَقٍ بخُفَّيْها وإزارِها، وفي يدها قصَّةٌ فيها من الشَّتْم واللعنِ والمُخالَفَةِ له شيءٌ كثيرٌ، فلما رآها ظنَّها امرأةً، فذهَب من ناحيتِها، وأخَذ القصَّةَ من يدها، فقرأها فرأى ما فيها، فأغْضَبه ذلك، فأمرَ بقتلِ تلك المرأة، فلما تحَقَّقها من ورَقٍ ازْداد أيضًا غضبًا على غضبه، ثم لما وصَل إلى القاهرة أمرَ العبيدَ من السُّودان أن يَذْهَبوا إلى مصرَ فيُحَرِّقوها ويَنْهَبوا ما فيها من الأموال والحريم، فذهَبت العبيدُ فامْتَثَلوا ما أمرَهم به، فقاتَلهم أهلُ مصرَ قتالًا عظيمًا ثلاثةَ أيام، والنارُ تَعْمَلُ في الدُّورِ والحَريمِ في كلِّ يومٍ، يخرجُ هو بنفسه، قبحه اللَّهُ، فيَقِفُ من بعيدٍ ويَبْكي ويَقولُ: مَن أمرَ هؤلاء العَبيدَ بهذا؟ ثم اجْتَمع الناسُ في الجَوامعِ، ورفَعوا المَصاحفَ، وجأروا إلى اللَّه عز وجل، واسْتغاثوا به، فرقَّ لهم التركُ والمَشارقةُ وانْحازوا إليهم، فقاتَلوا معهم عن حَريمِهم ودُورِهم، وتفاقمَ الحالُ جدًّا، ثم ركِب الحاكمُ، لعَنه اللَّهُ، يَفصِلُ بينَ الفريقَيْن، وكفَّ العَبيدَ عنهم، وقد كان يُظْهِرُ التَّنَصُّلَ من القصة، وأنَّ العبيدَ ارْتَكبوا ذلك عن غيرِ علمه وإذنه، وكان يُنْفِذُ لهم السلاحَ ويَحُثُّهم على ذلك في الباطنِ، لعَنه اللَّهُ تعالى، فما انجَلَى الحالُ حتى أُحرِق من مصرَ نحوٌ من ثلثِها، ونُهِب قريبٌ من نصفِها، وسُبِيتْ حريمُ خلقٍ كثيرٍ، ففُعِل بهن الفَواحشُ والمُنْكَراتُ، حتى إنَّ منهن من قَتَلَت نفسَها خوفًا من العار والفَضيحة، واشْتَرَى الرجالُ منهم مَن سُبِي لهم من النساءِ والحَريمِ من أيدي العبيدِ.

قال ابنُ الجوزيِّ: ثم زاد ظلمُ الحاكمِ، وعنَّ له أن يَدَّعِيَ الربوبيةَ، فصار قومٌ من الجُهَّالِ إذا رأَوه يقولون: يا واحدُ يا أحدُ، يا مُحْيِي يا مُميتُ.

صفةُ مَقتلِه، لعنَه اللَّهُ

كان قد تعَدَّى شرُّه إلى الناسِ حتى إلى أخته، يَتَّهِمُها بالفاحشة، ويُسْمِعُها أغلظَ الكلام، فتَبَرَّمَت منه، وعملت على قتله، فراسَلَت فيه أكبرَ الأُمراءِ، يقالُ له: ابنُ دَوَّاسٍ. فتوافَقَت هي وهو على قتله، وتواطآ على ذلك، فجهَّز من عنده عبدَيْن أسودَيْن من عبيده شَهْمَيْن، فقالت لهما: إذا كان في الليلة الفلانية فكُونا بجبلِ المُقَطَّمِ، ففي تلك الليلة يكونُ الحاكمُ هناك في الليلِ ليَنْظُرَ في النجوم، وليس معه أحدٌ إلا رِكابيٌّ وصبيٌّ، فاقتلاه واقتلاهما معه. واتَّفق الحالُ على ذلك وتقرَّر، فلما كانت تلك الليلةُ قال الحاكمُ لأُمِّه: عليَّ في هذه الليلة قطعٌ عظيمٌ، فإن نجَوْتُ منه عُمِّرْتُ نحوًا من ثمانين سنةً، ومع هذا فانْقُلي حَواصِلي إليك، فإن أخْوفَ ما أخافُ عليك من أختي. فنقَل حَواصلَه إلى

أُمُّه، وكان له في صناديقَ قريبٌ من ثلاثمائة ألف دينارٍ وجَواهرُ، فقالت له أُمُّه: يا مَوْلانا، إذا كان الأمْرُ كما تقولُ فارْحَمْني ولا تركَبْ في ليلتك هذه إلى موضعٍ وكان يُحِبُّها، فقال: أَفْعَلُ. وكان من عادته أن يَدورَ حولَ القصرِ كلَّ ليلةٍ، فدار ثم عاد إلى القصرِ، فنام إلى قريبٍ من ثلثِ الليلِ الأخيرِ، فاسْتَيْقَظَ وقال: إن لم أَرْكَبِ الليلةَ فاضَت نَفْسي. فركب فرسًا وصحبه صبيٌّ، وصعد الجبلَ المُقَطَّمَ فاسْتَقْبَلَه ذانك العبدان، فأنْزلاه عن مَرْكوبه، وقطَعا يديه ورجليه، وبقَرا جوفَه، وحمَلاه فأتَيا به مولاهما ابنَ دَوَّاسٍ، فحمَلَه إلى أختِه، فدفَنَته في مجلسِ دارِها، واسْتَدْعَت الأمراءَ والأكابرَ والوزيرَ، وقد أطْلَعَته على الحيلة، فبايَعهم لولد الحاكم أبي الحسنِ عليٍّ، ولُقِّب بالظاهرِ لإعْزازِ دينِ اللَّه، وكان بدمشقَ، فاسْتَدْعَت به وجعلَت تَقولُ للناسِ: إن الحاكمَ قال لي: إنه يَغيبُ سبعةَ أيامٍ ثم يَعودُ. فاطْمَأنَّ الناسُ، وجعلَت تُرْسِلُ رِكابِيِّين يصعَدون الجبلَ ويجيئون ويَقولون: ترَكْناه بالموضعِ الفلانيِّ. ويقولُ الذين بعدَهم: تركْناه في موضعِ كذا. حتى اطْمَأن الناسُ، وقدِم ابنُ أخيها وقد اسْتَصْحَب معه من تِنِّيسَ ألفَ ألفِ دينارٍ وألْفَيْ ألفِ درهمٍ، فحينَ وصَل ألْبَسَته تاجَ المعزِّ جدِّ أبيه، وحُلَّةً عظيمةً، وأجْلَسَته على السَّريرِ، وبايَعه الأُمراءُ والرؤساءُ، وأطْلَق لهم الأموالَ الجزيلةَ، وخلَعت على ابنِ دَوَّاسٍ خِلْعةً سَنِيةً هائلةً، وعملَت عَزاءَ أخيها الحاكمِ ثلاثةَ أيامٍ، ثم أرْسَلَت إلى ابنِ دَوَّاسٍ طائفةً من الجندِ ليكونوا بينَ يديه بسيوفِهم وُقوفًا في خدمتِه، ثم أمرتْهم في بعضِ الأيامِ أن يقولوا له: أنت قاتلُ مولانا. ثم يَهْبُرُونه بسيوفِهم، ففعَلوا ذلك، وقتَلَت كلَّ مَن اطَّلَع على سرِّها في قتلِ أخيها، فعظُمَت هَيْبتُها، وقويَت حُرْمتها، وثبَتَت دولتُها. وقد كان عمرُ الحاكمِ حينَ قُتِل سبعًا وثلاثين سنةً، وكانت مدةُ مُلْكِه من ذلك خمسًا وعشرين سنةً، لعنه اللَّهُ تعالى.

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة وأربعمائة

فيها: توَلَّى القاضي أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ محمدٍ السِّمْنانيُّ الحِسْبَةَ والمَواريثَ ببغدادَ، وخُلع عليه بالسَّوادِ.

وفيها: قال جَماعةٌ من المسلمين للملك الكبيرِ يَمينِ الدولَةِ محمودِ بن سُبُكْتِكين: أنت أكبرُ مُلوكِ الأرضِ، وفي كلِّ سنةٍ تَفْتَحُ طائفةً من بلادِ الكفرِ، وهذه طريقُ الحجِّ قد تعَطَّلَت من مدةِ سنين، وفتحُك لها أوجَبُ من غيرِها.

فتقَدَّم إلى قاضي القُضاةِ بعمله أبي محمدٍ الناصحيِّ أن يكونَ أميرَ الحجِّ في هذه السنة، وبعَث معه ثلاثين ألفَ دينارٍ للأعرابِ، غيرَ ما جهَّز من الصدقات إلى الحَرَمَيْن، فسار الناسُ صُحْبتَه، فلما كانوا بفَيْدَ اعْتَرَضهم الأعْرابُ، فصالَحهم القاضي أبو محمدٍ الناصحيُّ بخمسةِ آلاف دينارٍ فامْتَنَعوا، وصمَّم كبيرُهم، وهو جَمّازُ بنُ عديٍّ، على أخْذِ الحجيج، وركب فرسَه، وجال جولةً، واستنهَض مَنْ معه من شَياطينِ العربِ، فتقَدَّم إليه غلامٌ من أهلِ سَمَرْقَنْدَ، فرماه بسهمٍ فوصَل إلى قلبِه، فسقَط

ميتًا، وانهزَمَت الأعْرابُ، وسلَكَ الحجيجُ الطريقَ، فحجُّوا ورجَعوا سالمين آمنين. وللَّهِ الحمدُ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ إسماعيلَ بنِ حفص، أبو سعدٍ المالينيُّ الصوفيُّ، ومالِينُ قريةٌ مِن قُرَىٰ هَرَاةَ، كانَ مِنَ الحُفَّاظِ المُكْثِرين الرحّالينَ في طلبِ الحديثِ إلى الآفاقِ، وكتَب كثيرًا، وكان ثقةً صدوقًا صالحًا، مات بمصرَ في شوالٍ من هذه السنةِ.

الحسنُ بنُ الحسينِ بنِ محمدِ بنِ الحسينِ بنِ رامينَ القاضي، أبو محمدٍ الإسْترِاباذيُّ، نزَل بغدادَ، وحدَّث بها عن الإسماعيليِّ وغيرِه، وكان من كبارِ الشافعيةِ، فاضلاً صالحًا، رحمه اللَّهُ تعالى.

الحسنُ بنُ منصور، أبو غالب، الوزيرُ المُلَقَّبُ ذا السَّعادتَيْن، وُلِد بسيرافَ سنةَ ثنتين وخمسين وثلاثمائةٍ، وتنقلت به الأحوالُ حتى وزَر ببغدادَ، ثم قُتِل وصُودِر ابنُه على ثمانين ألفَ دينارٍ.

الحسينُ بنُ عمرَ، أبو عبدِ اللَّهِ الغَزَّالُ، سمع النَّجَّادَ، والخُلْديَّ، وابنَ السَّمَّاكِ وغيرهم. قال الخطيبُ: كتَبْتُ عنه، وكان شيخًا ثقةً صالحًا كثيرَ البُكاءِ عندَ الذِّكْرِ.

محمدُ بنُ عمرَ، أبو بكرٍ العَنْبريُّ الشاعرُ، كان أديبًا ظريفًا، حسنَ الشعرِ، فمِن ذلك قولُه:

إني نظَرْتُ إلى الزما ... ن وأهلِه نظرًا كفاني
فعرَفْتُه وعرَفْتُهمْ ... وعرَفْتُ عِزِّيَ من هَواني
فلذاك أَطَّرِحُ الصدِيـ ... ـقَ فلا أراه ولا يَراني
وزهِدْتُ فيما في يديـ ... ـه ودونَه نَيْلُ الأماني
فتعَجَّبوا لمُغالبٍ ... وهَبَ الأقاصيَ للأداني
وانسَلَّ مِن بينِ الزِّحا ... مِ فما له في الكونِ ثاني

قال ابنُ الجوزيِّ: وكان مُتَصَوِّفًا، ثم خرَج عنهم، وذمَّهم بقَصائدَ ذكَرْتُها في «تَلْبِيسِ إبليسَ» تُوُفِّي يومَ الخميسِ ثانيَ عشَرَ جُمادَىٰ الأولىٰ من هذه السنةِ.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ رَزِقِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ يزيدَ بنِ خالدٍ، أبو الحسنِ البَزَّازُ، المعروفُ بابنِ رَزْقَوَيْهِ.

قال الخَطيبُ: هو أولُ شيخٍ كتَبْتُ عنه في سنةِ ثلاثٍ وأربعمائةٍ، وكان يَذْكُرُ أنه درَس القرآنَ، ودرَس الفقهَ على مذهبِ الشافعيِّ، وكان ثقةً صدوقًا، كثيرَ السَّماعِ والكتابةِ، حسَنَ الاعْتِقادِ، جميلَ المذهب، مُديمًا لتلاوةِ القرآنِ، شديدًا على أهلِ البِدَعِ، ومكَث دهرًا على الحديثِ، وكان يقولُ: لا أُحِبُّ الدنيا إلا لذكرِ اللَّهِ وتلاوةِ القرآنِ وقراءتي عليكم الحديثَ. وقد بعَث بعضُ الأمراءِ إلى العلماءِ بذهبٍ، فقبِلوا كلُّهم غيرَه، فإنه لم يَقْبَلْ منه شيئًا. وكانت وفاتُه يومَ الإثنين السادسَ عشَرَ مِن جُمادَىٰ الأولىٰ من هذه السنةِ، عن سبعٍ وثمانين سنةً، ودُفِن بالقربِ مِن مَقْبرةِ مَعْروفٍ الكَرْخيِّ، رحِمه اللَّهُ تعالى.

أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ، محمدُ بنُ الحسين بن محمد بن موسى النَّيسابوريُّ، روَىٰ عن الأصَمِّ وغيرِه، وعنه مَشايخُ البَغَادِدة، كالأزهريِّ والعُشَاريِّ وغيرهما، وروَىٰ عنه البَيْهقيُّ وغيرُه.

قال ابنُ الجَوزيِّ: كانت له عنايةٌ بأخبارِ الصُّوفية، فصنَّف لهم تفسيراً، وسُنَنًا وتاريخًا، وجمَع شُيوخًا وتَراجمَ وأبوابًا، له بنَيسابورَ دارٌ معْروفةٌ، وفيها صُوفيةٌ، وبها قبرُه. ثم ذكَر كلامَ الناسِ في تَضْعيفِه في الرواية، فحكَىٰ عن الخطيبِ، عن محمدِ بنِ يوسفَ القَطَّانِ أنه قال: لم يَكُنْ بثقة، ولم يَكُنْ سمع من الأصَمِّ كثيرًا، فلما مات الحاكمُ روَىٰ عنه أشياءَ كثيرةً، وكان يَضَعُ للصوفيةِ الأحاديث. قال ابنُ الجوْزيِّ: وكانت وفاتُه في ثالثِ شعبانَ من هذه السنة.

أبو عليٍّ، الحسنُ بنُ عليٍّ الدَّقَّاقُ النَّيسابوريُّ، كان يَعِظُ ويَتكلَّمُ علَىٰ الأحوالِ والمعرفة، فمِن كلامِه: مَن تواضَع لأحدٍ لأجلِ دنياه ذهَب ثُلُثا دينِه؛ لأنه خضَع له بلسانِه وأركانِه، فلو خضَع له بقلبِه ذهَب دينُه كلُّه.

وقال في قولِه تعالىٰ: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]: اذكُروني وأنتم أحياءٌ أذكُرْكم وأنتم تحتَ التراب.

وقال: البَلاءُ الأكبرُ أن تُريدَ ولا تُرادَ، وتَدْنُوَ فتُرَدَّ إلىٰ الإبْعاد.

وأنْشَد عندَ قولِه تعالىٰ: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٨٤].

جُنِنَّا بليلى وهْي جُنَّت بغيرِنا ... وأخرى بنا مجنونةٌ لا نُريدُها

وقال في قولِه ﷺ: «حُفَّت الجنةُ بالمكارِه». إذا كان المخلوقُ لا وصولَ إليه إلا بتَحَمُّلِ المَشاقِّ، فما ظنُّك بمَن لم يَزَلْ؟!

صَرِيعُ الدِّلاء الشاعرُ أبو الحسن، عليُّ بنُ عبدِ الواحد، الفقيهُ البَغْداديُّ، الشاعرُ الماجنُ، المعروفُ بصَرِيعِ الدِّلاء، قَتيلِ الغَواشي ذي الرَّقاعَتَيْنَ، له قَصيدةٌ مَقْصورةٌ في الهزل، عارَض بها قصيدةَ أبي بكرِ بنِ دُرَيْدٍ، يَقولُ فيها:

وألفُ حِمْلٍ من متاعٍ تُسْتَرِ ... أنفعُ للمسكينِ من لَقْطِ النَّوَىٰ
مَن طبَخ الدِّيكَ ولا يَذْبَحُهُ ... طار من القِدْرِ إلى حيثُ انْتَهَىٰ
مَن دخَلَت في عينِه مِسَلَّةٌ ... فسَلْه مِن ساعتِه كيفَ العَمَىٰ
والذَّقْنُ شَعْرٌ في الوُجوهِ طالعٌ ... كذلك العَقْصةُ مِن خلفِ القَفَا
مِن أكَلَ الكِرْشَ، ولا يَغْسِلُهُ ... سال علىٰ لحيتِه شِبْهُ الخَرَا

إلىٰ أن ختَمها بالبيت الذي حُسِد عليه، وهو قولُه:

مَن فاتَه العلمُ وأخطَاه الغِنَىٰ ... فذاك والكلبُ علىٰ حَدٍّ سَوَا

قدِم مصرَ في سنةِ ثِنْتَيْ عشْرةَ وأربعمائةٍ، وامتَدَح فيها خليفتَها الظاهرَ لإعْزازِ دينِ اللَّهِ بنَ الحاكم، واتَّفَقَت وفاتُه بها في رجبِ هذه السنة، سامَحَه اللَّهُ.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وأربعمائة

فيها: جرت كائنةٌ غريبةٌ، ومُصيبةٌ عظيمةٌ، وهي أن رجلاً من المصريين من أصحاب الحاكم اتَّفق مع جماعة من الحُجَّاج المصريين على أمرِ سَوْءٍ، وذلك أنه لما كان يومُ الجمعة وهو يومُ النَّفْرِ الأوَّل طاف هذا الرجلُ بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر الأسود جاء ليُقَبِّلَه، فضربَه بدبُّوسٍ كان معه ثلاثَ ضرَباتٍ متواليات، وقال: إلى متى يُعبَدُ هذا الحجرُ؟ ولا محمدٌ ولا عليٌّ يمنعُني مما أفعلُه، فإني أهدِمُ اليومَ هذا البيتَ. وجعَل يرتَعِدُ، فاتَّقاه أكثرُ الحاضرين، وتأخَّروا عنه؛ وذلك أنَّه كان رجلاً طُوالاً جَسيمًا، أحمرَ اللون، أشقرَ الشعر، وعلى باب المسجد جَماعةٌ من الفُرْسانِ وُقوفٌ ليمنَعوه ممَّن أراده بسُوءٍ، فتقَدَّم إليه رجلٌ من أهلِ اليمن معه خَنْجَرٌ، فوجَأه بها، وتكاثر عليه الناسُ، فقتَلوه وقطَّعوه قطَعًا وحرَّقوه، وتتَبَّعوا أصحابَه، فقُتِلَ منهم جماعةٌ، ونهَبَت أهلُ مكة ركبَ المصريين، وتعَدَّى النَّهبُ إلى غيرهم أيضًا، وجرَت خَبْطةٌ عظيمةٌ وفتنةٌ كبيرةٌ جدًّا، ثم سكَن الحالُ بعدَ أن تُتُبِّع أولئك النَّفَرُ الذين تمالَئوا على الإلحاد في أشرف البلاد، غيرَ أنه سقَط من الحجر ثلاثُ فِلَقٍ مثلُ الأظفار، وبدا ما تحتَها أسمرَ يَضرِبُ إلى صُفرةٍ، مُحبَّبًا مثلَ الخَشْخاش، فأخذَ بنو شَيْبةَ تلك الفِلَقَ فعجَنوها بالمِسْك واللَّكِّ، وحشَوْا بها تلك الشُّقوقَ التي بدَت، فاستَمسَك الحجرُ واستَمَرَّ على ما هو عليه الآن، وهو ظاهرٌ لمن تأمَّله.

وفي هذه السنة فُتِح المارَسْتانُ الذي بناه الوزيرُ مُؤيِّدُ المُلك أبو عليٍّ الحسنُ الرُّخَّجيُّ وزيرُ شرفِ المُلك بواسطٍ، ورتَّب له الخُزَّانَ والأشربةَ والعَقاقيرَ، وغيرَ ذلك مما يُحتاجُ إليه، واللَّهُ تعالى أعلمُ، وهو حسبُنا ونعْمَ الوكيلُ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

ابنُ البَوَّاب الكاتبُ، عليُّ بنُ هلال، أبو الحسن بنُ البَوَّاب، صاحبُ الخطِّ المنسوب، صَحِبَ أبا الحسين بنَ سَمْعونَ الواعظَ، وكان يقصُّ بجامع المدينة، وقد أثنَى على ابن البَوَّاب غيرُ واحدٍ في دينه، وأمَّا خَطُّه وطَريقتُه فأشهَرُ من أن ينبَّهَ عليه، وخطُّه أوضَحُ تَعريبًا من خطِّ أبي عليِّ بنِ مُقْلةَ، ولم يكُنْ بعدَه أكتَبُ منه، وعلى طريقته الناسُ اليومَ في سائر الأقاليم إلا القليلَ.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: تُوُفِّي يومَ السبتِ ثانيَ جُمادَى الآخرة من هذه السنة، ودُفِن بمَقبرة بابِ حربٍ، وقد رثاه بعضُهم بأبياتٍ منها:

فللقُلوبِ التي أبهَجْتَها حَزَنٌ	وللعيونِ التي أقرَرْتَها سَهَرُ
فما لعيشٍ وقد ودَّعْتَه أرَجٌ	وما لليلٍ وقد فارَقْتَه سَحَرُ

قال ابنُ خَلِّكان: يقالُ له: ابنُ السِّتْريِّ. لأن أباه كان مُلازمًا لسِتْر الباب، ويقالُ له: ابنُ البَوَّاب. وكان قد أخَذ الخطَّ عن أبي عبد اللَّه محمد بن أسد بن عليِّ بن سعيد البَزَّار، وقد سمع ابنُ أسدٍ هذا على النَّجَّاد وغيره، وتُوُفِّي في سنة عشرٍ وأربعمائة، وأمَّا ابنُ البَوَّاب فإنه تُوُفِّي في جُمادَى الأولى

من هذه السنة، وقيل: في سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة. وقد رثاه بعضُهم فقال:

استشعرَ الكُتّابُ فَقْدَكَ سالفًا ... وقضتْ بصحةِ ذلك الأيامُ
فلذاك سُوِّدَتِ الدُّوِيُّ كآبةً ... أسفًا عليك وشُقَّتِ الأقلامُ

ثم ذكَر القاضي ابنُ خَلِّكانَ أولَ مَن كتَب بالعربيةِ، فقيل: إسماعيلُ عليه السلامُ: وقيل: أولُ مَن كتَب بالعربيةِ من قريشٍ حربُ بنُ أميةَ بنِ عبدِ شمسٍ، أخَذها من بلادِ الحيرةِ عن رجلٍ يقالُ له: أسْلَمُ ابنُ سِدْرةَ. وسُئِل عمَّن اقتبسها؟ فقال: من واضعها؛ رجلٍ يقالُ له: مُرامِرُ بنُ مُرَّةَ. وهو رجلٌ من أهلِ الأنبارِ. فأصلُ الكتابةِ في العربِ من الأنبارِ. وقال الهَيْثمُ بنُ عَديٍّ: وقد كان لحِمْيرَ كتابةٌ يُسَمُّونها المُسْنَدَ، وهي حروفٌ مُتَّصلةٌ غيرُ مُنْفَصلةٍ، وكانوا يَمْنَعون العامَّةَ من تَعَلُّمِها، وجميعُ كتاباتِ الناسِ تَنْتَهِي إلى اثْنَيْ عشرَ صِنفًا؛ وهي العربيةُ، والحِمْيَريَّةُ، واليُونانيةُ، والفارسيةُ، والسُّريانيَّةُ، والعِبْرانيةُ، والرُّوميةُ، والقِبْطيةُ، والبَرْبَريَّةُ، والهِنْديةُ، والأندَلُسيةُ، والصِّينيةُ. وقد اندَرَس كثيرٌ منها، فقلَّ مَن يَعْرِفُ كثيرًا منها.

عليُّ بنُ عيسى بنِ سليمانَ بنِ محمدِ بنِ أبانٍ، أبو الحسنِ الفارسيُّ، المعروفُ بالسُّكَّريِّ، الشاعرُ، وكان يَحْفَظُ القرآنَ، ويَعْرِفُ القراءاتِ، وصحِب القاضيَ أبا بكرٍ الباقلَّانيَّ، وأكثرُ شعرِه في مَديحِ الصحابةِ وذمِّ الرافضةِ. وكانت وفاتُه في شعبانَ من هذه السنةِ، ودُفِن بالقربِ من قبرِ معروفٍ الكرخيِّ، وقد أوْصَى أن يُكْتَبَ على قبرِه هذه الأبياتُ التي عملها، وهي قولُه:

نفسُ يا نفسُ كم تمادَيْنَ في الغَيِّ ... وتأتين في الفَعالِ المَعيبِ
راقبي اللَّهَ واحْذَري موقفَ العَرْ ... ضِ وخافي يومَ الحسابِ العَصيبِ
لا تَغُرَّنَّكِ السَّلامةُ في العيـ ... ـشِ فإنَّ السَّليمَ رَهْنُ الخُطوبِ
كلُّ حيٍّ فللمَنونِ ولا يَدْ ... فَعُ كأسَ المَنونِ كيدُ الأريبِ
واعْلَمي أن للمَنِيَّةِ وقتًا ... سوف يأتي عَجْلانَ غيرَ هَيوبِ
إن حبَّ الصديقِ في موقفِ الحشـ ... ـرِ أمانٌ للخائفِ المطلوبِ

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ منصورٍ، أبو جعفرٍ، البيِّعُ، ويُعْرَفُ بالعَتيقيِّ، وُلِد سنةَ إحدَى وثلاثين وثلاثمائةٍ، وأقام بطَرَسوسَ مدةً، وسمِع بها وبغيرِها، وحدَّث بشيءٍ يسيرٍ، رحمه اللَّهُ تعالى.

محمدُ بنُ محمدِ بنِ النُّعمانِ، أبو عبدِ اللَّهِ، المعروفُ بابنِ المُعَلِّمِ، شيخُ الإماميَّةِ، الرافضةِ والمُصَنِّفُ لهم، والمُحامي عن حَوْزتِهم، وكانت له وَجاهةٌ عندَ مُلوكِ الأطرافِ؛ لميلِ كثيرٍ منهم إلى التَّشيُّعِ، وكان مَجْلِسُه يَحْضُرُه كثيرٌ من العلماءِ من سائرِ الطوائفِ، وكان من جملةِ تلاميذِه الشريفُ المُرتَضَى، وقد رثاه بقصيدةٍ بعدَ وفاتِه في رمضانَ من هذه السنةِ، منها قولُه:

مَن لفضلٍ أخرجتَ منه حُسامًا ... ومعانٍ فضَضْتَ عنها خِتامًا
مَن يُثيرُ العقولَ من بعدِ ما كُنَّ ... هُمُودًا ويَفْتَحُ الأفهامَا
مَن يُعيرُ الصَّديقَ رأيًا إذا ما ... سلَّه في الخُطوبِ كان حُسامَا

ثم دخلت سنة أربعَ عشرة وأربعمائة

فيها: قدم الملكُ مشرِّفُ الدولة إلىٰ بغدادَ، فخرَج الخليفةُ في الطَّيَّار لتَلَقِّيه، وصَحِبَته الأُمراءُ والقُضاةُ والفُقهاءُ والوزراءُ والرؤساءُ، فلمَّا واجَهه مُشرِّفُ الدولة قبَّل الأرضَ بينَ يَدَي الخليفة مرَّاتٍ والجيشُ واقفٌ برُمَّته، والعامَّةُ في الجانبَيْن والخليفةُ يبعَث الرسلَ إليه بالسلام عليه، وكان يومًا مشهودًا.

وفيها: ورَد كتابٌ مِن يَمينِ الدولة محمودِ بنِ سُبُكْتِكِين إلى الخليفة، يَذْكُرُ فيه أنه دخَل بلادَ الهندِ أيضًا، وأنه فتَح بلادًا، وقتَل خلقًا منهم، وأنه صالَحه بعضُ ملوكِهم، وبعَث إليه بهدايا سَنِيَّة، فيها فُيولٌ عديدةٌ، ومنها طائرٌ على هيئة القُمْرِيِّ، إذا وُضع عندَ الخِوانِ وفيه سُمٌّ دمَعَت عيناه وجرىٰ منهما ماءٌ، وتحَجَّر، ويُحَكُّ ويُؤْخَذُ ما تَحَصَّل منه، فيُطْلَى به الجراحاتُ ذواتُ الأفواهِ الواسعةِ فيَلْحُمُها، وغيرُ ذلك.

وحجَّ أهلُ العراقِ في هذه السنة، ولكن رجَعوا على طريقِ الشامِ لاحْتِياجِهم إلىٰ ذلك. واللَّهُ تعالىٰ أعلمُ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

الحسنُ بنُ الفضلِ بنِ سَهْلانَ، أبو محمد الرامَهُرْمُزِيُّ، وزيرُ سُلطانِ الدولة، وهو الذي بنَىٰ سورَ الحائرِ عندَ مَشْهَدِ الحسين، قُتِل في شعبانَ مِن هذه السنة.

الحسينُ بنُ محمدِ بنِ عبدِ اللَّه، أبو عبدِ اللَّه الكَشْفُلِيُّ الطَّبَرِيُّ، الفَقيهُ الشافعيُّ، تفَقَّه على أبي القاسمِ الداركيِّ، وكانَ فهمًا فاضلاً صالحًا زاهدًا، وهو الذي درَّس بعدَ الشيخِ أبي حامدٍ الإسْفَرايِينيِّ في مسجده، مسجدِ عبدِ اللَّه بنِ المُبارَك في قَطيعةِ الربيع، وكان الطَّلَبةُ عندَه مُكْرَمِين، اشْتَكَىٰ بعضُهم إليه حاجةً، وأنه قد تأَخَّرَت عنه نفَقتُه التي ترِدُ إليه مِن أبيه، فأخَذ بيده، وذهَب إلىٰ بعضِ التُّجَّارِ بقطيعةِ الربيع، فاسْتَقْرَض له منه خمسين دينارًا، فقال التاجرُ: حتىٰ تأْكُل شيئًا. ومدَّ سماطًا، فأكَلوا، ثم قال: يا جاريةُ هاتي المالَ، فأحْضَرتْ شيئًا مِن المالِ، فوزَن منه خمسين دينارًا، ودفَعها إلى الشيخ، فلما قاما إذا بوجهِ ذلك الفقيه قد تغَيَّر. فقال له الكَشْفُلِيُّ: مالك؟ فقال: يا سيدي، قد سكَن قلبي حبُّ هذه الجارية. فرجَع به إلى التاجرِ، فقال: قد وقَعْنا في فتنةٍ أخرىٰ. قال: وما هي؟ فقال: إن الفقيهَ قد هوِيَ الجاريةَ. فأمَر التاجرُ أن تَخْرُجَ، فسلَّمَها إليه، وقال: ربما يكونُ قد وقَع في قلبِها منه مثلُ الذي قد وقَع في قلبِه منها. فلما كان عن قريبٍ قدمتْ على الفقيه النفقةُ مِن أبيه ستُّمائةِ دينارٍ، فوفَّى التاجرَ ما كان له عليه مِن ثمنِ الجاريةِ والقَرْضِ، وذلك بسِفارةِ الشيخ. وكانت وفاتُه في ربيعٍ الآخِرِ مِن هذه السنة، ودُفِن بمقبرةِ بابِ حربٍ.

عليُّ بنُ عبدِ اللَّه بنِ جَهْضَمٍ، أبو الحسنِ الصوفيُّ المكيُّ، صاحبُ «بَهْجةِ الأسْرارِ»، كان شيخَ الصوفيةِ بمكةَ، وبها تُوُفِّي.

قال ابنُ الجَوْزِيِّ: وقد ذكَروا أنه كان كذَّابًا، ويقالُ: إنه الذي وضَع حديثَ صلاةِ الرَّغائبِ.

القاسمُ بنُ جعفر بن عبد الواحد، أبو عمرَ الهاشميُّ البَصْريُّ، قاضي البصرة، سمع الكثيرَ، وكان ثقةً أمينًا، وهو راوي سننِ أبي داودَ، عن أبي عليٍّ اللُّؤْلُؤيِّ، تُوُفِّي في هذه السنةِ، وقد جاوزَ التسعين، رحمه اللَّهُ تعالى.

محمدُ بنُ أحمدَ بن الحسن بن يحيى بن عبد الجبار، أبو الفرج القاضي الشافعيُّ، ويُعْرَفُ بابنِ سُمَيْكَةَ، روَىٰ عن النَّجَّادِ وغيرِه، وكان ثقةً، تُوُفِّي في ربيعٍ الأولِ منها، ودُفِن بمقبرةِ بابِ حربٍ.

محمدُ بنُ أحمدَ، أبو جعفر النَّسَفيُّ، عالمُ الحَنَفيةِ في زمانه، وله طريقةٌ في الخلاف، وكان فقيرًا مُتزَهِّدًا، بات ليلةً قَلِقًا لما عندَه من الفقرِ والحاجةِ، فعرَض له فكرٌ في فرعٍ من الفُروعِ كان أشْكَل عليه، فانْفَتَح له، فقام يَرْقُصُ ويقولُ: أين الملوكُ وأبناءُ الملوكِ؟ فسألَتْه امرأتُه عن خبره، فأعْلَمها بما حصَل له، فتعَجَّبَت من شأنِه، رحمه اللَّهُ، وكانت وفاته في شعبانَ من هذه السنة.

هلالُ بنُ محمد بن جعفر بن سَعْدانَ، أبو الفتح الحَفَّارُ، سمع إسماعيلَ الصَّفَّارَ والنَّجَّادَ وابنَ السَّمَّاكِ وابنَ الصَّوَّافِ وكان ثقةً، تُوُفِّي في صفرٍ من هذه السنةِ عن اثنتين وتسعين سنةً، رحمه اللَّهُ وإيانا بمنِّه.

ثم دخلت سنةُ خمسَ عشْرةَ وأربعمائة

فيها: ألْزَم الوزيرُ المغربيُّ جماعةً من الأتراك والمُوَلَّدين والشَّريفَ المُرْتَضَىٰ ونظامَ الحَضْرةِ أبا الحسنِ الزَّيْنَبيَّ وقاضيَ القُضاةِ أبا الحسنِ بنَ أبي الشَّوارِبِ والشُّهودَ، بالحُضورِ لتَجْديدِ البَيْعةِ لمشرِّفِ الدولة، فلما بلَغ ذلك الخليفةَ توَهَّم أن تكونَ هذه البيعةُ لنيَّةٍ فاسدةٍ من أجله فبعَث إلى القاضي والرؤساءِ ينْهاهم عن الحُضورِ، فاخْتَلَفَت الكلمةُ بينَ الخليفةِ ومشرِّفِ الدولةِ، ثم اصْطَلَحا وتصافَيا، وجُدِّدَت البيعةُ لكلٍّ منهما من الآخَرِ.

ولم يَحُجَّ في هذه السنةِ من رَكْبِ خُراسانَ أحدٌ، واتَّفَق أن بعضَ الأمراءِ من جهةِ محمودِ بنِ سُبُكْتِكِين شهِد المَوسمَ في هذه السنةِ، فبعَث إليه صاحبُ مصرَ بخِلَعٍ عظيمةٍ ليَحْمِلَها للملك محمودِ ابنِ سُبُكْتِكِين، فلما رجَع بها إلى أستاذِه الملك محمودٍ أرْسَل بها إلى بغدادَ، فحُرِّقَت بالنارِ على بابِ النُّوبي للخليفة القادرِ باللَّه العباسيِّ، رحمه اللَّهُ تعالى وجزاه خيرًا عن قصده وسيرته الحسنة.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمد بن عمر بنِ الحسن بن عبيد بن عَمرو بن خالد بن الرُّفَيْل، أبو الفرج، المُعَدِّلُ المَعْروفُ بابنِ المُسْلِمَةِ، وُلد سنةَ سبعٍ وثلاثين وثلاثمائة، وسمع أباه وأحمدَ بنَ كاملٍ والنَّجَّادَ والخُطَبيَّ ودَعْلَجَ بنَ أحمدَ وغيرَهم، وكان ثقةً، يسكُنُ الجانبَ الشرقيَّ من بغدادَ، ويُمْلي في أول كلِّ سنةٍ مجلسًا في المُحَرَّمِ، وكان عاقلاً فاضلاً، كثيرَ المعروفِ، دارُه مَأْلَفٌ لأهلِ العلمِ، وكان قد تَفَقَّه

بأبي بكر الرازيِّ، وكان يَصومُ الدهرَ، ويَقرأُ في كلِّ يوم سُبُعًا ويُعيدُ بعينه في تهَجُّده، وكانت وفاتُه في ذي القَعْدة من هذه السنة.

أحمدُ بنُ محمد بن أحمدَ بن القاسم بن إسماعيلَ بن محمد بن إسماعيلَ بن سعيد بن أبان الضَّبِّيُّ، أبو الحسن المحَامليُّ، نسبةً إلى بيعِ المحَامل، تفقَّه على الشيخ أبي حامد الإسْفَرايينيِّ، وبرَع في الفقه، حتى كان الشيخُ أبو حامد يقولُ: هو أحفظُ للفقه مني. وله المصنفاتُ المشهورةُ، منها «اللُّبابُ»، و«الأوْسطُ» و«المُقْنعُ»، وله في الخلاف، وعلَّق عن الشيخ أبي حامد تَعْليقةً كبيرةً. قاله ابنُ خَلِّكانَ.

وُلد سنةَ ثمانٍ وستين وثلاثمائة، وتُوُفِّي يومَ الأربعاء لتسعٍ بقِين من ربيعٍ الآخرِ من هذه السنة، وهو شابٌّ، رحمه اللَّهُ تعالى.

سلطانُ الدولة بنُ بهاء الدولة، تُوُفِّي بشيرازَ، عن ثِنْتين وثلاثين سنةً وخمسة أشهرٍ.

عُبَيدُ اللَّه بنُ عَبد اللَّه بن الحسين، أبو القاسم الخَفَّافُ المَعْروفُ بابن النَّقيب، كان من أئمة السُّنَّة، وحين بلَغه موتُ ابن المُعَلِّم جلَس للتَّهْنئة، وقال: ما أُبالي أيَّ وقتٍ مِتُّ بعدَ أن شاهَدْتُ موتَ ابنِ المُعَلِّم. ومكَث دهرًا طويلاً يُصلِّي الفجرَ بوُضوء العشاء.

قال الخطيبُ: وسألتُه عن مَوْلده فقال: في سنة خمسٍ وثلاثمائة، وأَذْكُرُ من الخُلفاء المُقْتدرَ والقاهرَ والرَّاضيَ والمُتَّقيَ والمُسْتَكفيَ والمُطيعَ والطائعَ والقادرَ والغالبَ باللَّه. خُطب له بولاية العهدِ، وكانت وفاتُه في سَلْخ شعبانَ من هذه السنة عن مائةٍ وعشْرِ سنين.

عمرُ بنُ عبد اللَّه بن عمرَ بن تَعْويذ، أبو حفص الدَّلَّالُ. قال: سمعْتُ الشِّبْليَّ يُنْشدُ قولَه:

وقد كان شيءٌ يُسمَّى السُّرورَ ... قديمًا سمِعْنا به ما فَعَلْ
خَليليَّ إن دام همُّ النُّفوس ... قليلاً على ما نَراه قَتَلْ
يُؤمِّلُ دُنيا لتَبْقَى لهُ ... فماتَ المُؤمِّلُ قبلَ الأمَلْ

محمدُ بنُ الحسن، أبو الحسن الأقْساسيُّ العَلَويُّ: نائبُ الشَّريفِ المُرْتضَى في إمْرة الحَجِّ، فحجَّ بالناس في سنين مُتعددةٍ، وله فَصاحةٌ وشعرٌ جيدٌ، وهو من سُلالةِ زَيدِ بنِ عليِّ بنِ الحسين.

ثم دخلت سنة ست عشرة وأربعمائة

فيها: قوِي أمْرُ العَيَّارين ببغدادَ، ونَهبوا الدُّورَ جَهْرةً، واستَهانوا بأمرِ السُّلطان، وفي ربيعٍ الأوَّل منها تُوُفِّي مشرِّفُ الدولة بنُ بُوَيْه الدَّيْلَميُّ صاحبُ بغدادَ والعراقِ وغيرِ ذلك، فكثُرت الشُّرورُ ببغدادَ، ونُهِبت الخزائنُ، واستقرَّ الأمْرُ على تولية جَلالِ الدولة أبي الطاهر، وخُطب له على المَنابر، وهو على البصرة، وخلَع على شرف المُلْك أبي سعيدِ بنِ ماكُولا وزيرِه، ولُقِّب علَمَ الدين، سعدَ الدولة، أمينَ المِلَّة، شَرَفَ المُلْك، وهو أولُ مَن لُقِّب بالألْقابِ الكثيرة، ثم طَلب من الخليفةِ أن يُبايعَ

لأبي كاليجارَ إذ كان وليَّ عهد أبيه سُلطان الدولة، الذي استَخْلَفه بَهاءُ الدولة عليهم، فتوقَّف الجوابُ، ثم وافقهم على ما أرادوا من ذلك، وأُقيمَت الخُطْبةُ للملك أبي كاليجار يومَ الجمعة سادسَ عشرَ شوالٍ من هذه السنة، ثم تفاقَم أمرُ العيَّارين ببغدادَ، وكبَسوا الدُّور ليلاً ونهاراً، وضربوا أهلَها كما يُضْربُ المُصادَرون، ويَستغيثُ أحدُهم فلا يُغاثُ، واشْتَدَّ الحالُ، وهربَت الشرَطُ من بغدادَ، ولم تُغْنِ الأتراكُ شيئًا، وعُملَت الشَّرايجُ على أفواه السِّكَك، فلم يُفِدْ ذلك شيئًا، وأُحْرِقَت دارُ الشريف المُرتَضى، فانتقل منها، وغلت الأسعارُ ببغدادَ جدًّا، ولم يَحُجَّ أحدٌ من أهلِ العراقِ وخُراسانَ، في هذه السنة. واللَّهُ أعلمُ بالصواب.

وممن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

سابورُ بنُ أرْدَشير: وزَر لِبَهَاء الدولة أبي نصرِ بن عضُد الدولة ثلاث مرَّاتٍ، ووزَر لمشرِّف الدولة أيضًا، وكان كاتبًا سديدًا عفيفًا عن الأموالِ، كثيرَ الخيرِ، سليمَ الباطنِ، وكان إذا سمع المؤذنَ لا يَشْغلُه شيءٌ عن الصلاةِ، وقد وقَّف دارًا للعلم في سنةِ إحدىٰ وثمانين وثلاثمائةٍ، وجعل فيها كتبًا كثيرةً جدًّا، ووقَف عليها غلَّةً كثيرةً، فبَقِيت سبعين سنةً، ثم أُحْرِقَت عندَ مَجيءِ الملك طُغْرُلْبَك في سنة خمسين وأربعمائةٍ، وكانت محلَّتُها بين السُّورَين، وقد كان جيِّدَ المُعاشرة إلا أنه كان يَعْزِلُ عُمَّالَه سَريعًا، تُوُفِّي في هذه السنة، وقد قارَب التسعين.

عثمانُ النَّيسابوريُّ الخَرْكوشيُّ الواعظُ، قال ابنُ الجَوْزي: صنَّف كتابًا في الوعْظ من أبْرَد الأشْياء، وفيه أحاديثُ كثيرةٌ مَوْضوعةٌ، وكلماتٌ مرْذُولةٌ، إلا أنه كان خيِّرًا صالحًا، وكانت له وجاهةٌ عند الخلفاءِ والملُوك، وكان الملك محمودُ بنُ سُبُكْتكين إذا رآه قام له، وكانت محلَّتُه حمًى يُحتَمى بها من الظَّلَمة، وقد وقَع في بلدَته نَيْسابورَ موتٌ، وكان يُغَسِّلُ المَوْتَىٰ مُحتَسبًا، فغسَّل نحوًا من عشَرة آلافِ ميتٍ، رحمه اللَّهُ تعالى.

محمدُ بنُ الحسين بن صالحانَ، أبو منصور: الوزيرُ لمشرِّف الدولة ولِبَهاء الدولة أيضًا، كان وزيرَ صِدْقٍ جيِّدَ المُباشَرة، حسنَ الصلاة، مُحافظًا علىٰ أوقاتها، وكان مُحْسنًا إلى الشعراء والعلماء، تُوُفِّي ببغدادَ في هذه السنة عن ستٍّ وسبعين سنةً.

الملكُ مُشرِّفُ الدولة، أبو عليٍّ بنُ بَهاء الدولة، أبي نصر بن عَضُد الدولة ابن بُوَيْه الدَّيلَميُّ:، صاحبُ بغداد وغيرِها من البلادِ، أصابه مرضٌ حادٌّ، فتُوُفِّي لثمانٍ بقِين من ربيع الآخرِ عن ثلاثٍ وعشرين سنةً وثلاثة أشهرٍ وخَمسةٍ وعشرين يومًا.

التِّهاميُّ، عليُّ بنُ محمد التِّهاميُّ، أبو الحسن:، له ديوانٌ مشهورٌ، وله مَرْثاةٌ في ولده، وكان قد مات صغيرًا، أولُها:

حكمُ المَنيَّةِ في البَريَّةِ جاري ... ما هذه الدنيا بدارِ قرارِ

ومنها:

إني لأرحَمُ حاسديَّ لحرِّ ما ... ضَمَّتْ صدورُهم من الأوغارِ
نَظروا صَنيعَ الله بي فعيونُهم ... في جنةٍ وقلوبُهم في نارِ

ومنها في ذمِّ الدنيا، وكلُّ هذه القصيدة مَليحٌ مُختارٌ:

طُبِعَتْ على كَدَرٍ وأنت تُريدُها ... صَفْواً من الأقذارِ والأكدارِ
ومُكَلِّفُ الأيامِ ضِدَّ طِباعِها ... مُتَطَلِّبٌ في الماءِ جَذْوةَ نارِ
وإذا رجَوْتَ المُستحيلَ فإنما ... تَبْني الرَّجاءَ على شَفيرٍ هارِ

ومنها قولُه في ولدِه بعد موته:

جاوَرْتُ أعْدائي وجاوَرَ ربَّه ... شَتَّانَ بينَ جِوارِه وجِواري

وقد ذكَر ابنُ خَلِّكانَ أن بعضَهم رآه في النوم في هيئةٍ حسنةٍ، فقال: بمِ نِلْتَ ذلك. قال: بهذا البيتِ. تُوُفِّي بحبسِ خزانةِ البُنُودِ من القاهرةِ في هذه السنةِ، رحمه اللَّهُ.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وأربعمائة

في العشرين من المُحَرَّم وقَعَت فتنةٌ عظيمةٌ بين الأسْفَهْسلارِيَّة وبينَ العَيَّارين، وركِبَت لهم الأتراكُ بالدَّبادبِ، كما يُفْعَلُ في الحرب، وأُحْرِقَت أبوابٌ كثيرةٌ من الدُّورِ التي احْتَمَىٰ فيها العَيَّارون، وأُحْرِق من الكَرْخِ جانبٌ كبيرٌ، ونُهِب أهلُه، وتعَدَّىٰ النهبُ إلىٰ غيرِه أيضًا، وكانت فتنةٌ هائلةٌ شَنيعةٌ ثم خمَدَت في اليوم الثاني، وقُرِّر علىٰ أهلِ الكَرْخِ مائةُ ألفِ دينارٍ مُصادرَةً؛ لإثارتِهم الفتنَ والشُّرورَ.

وفي شهرِ ربيعٍ الآخِرِ شهِدَ أبو عبدِ اللَّه الحسينُ بنُ عليٍّ الصَّيْمَريُّ عندَ قاضي القُضاةِ ابنِ أبي الشَّوارِبِ بعدَما كان اسْتُتابه عما ذُكِر عنه من الاعْتِزال.

وفي رمضانَ انقَضَّ كوكبٌ سُمِع له دَوِيٌّ كدَوِيِّ الرعد، ووقَع في سَلْخِ شوالٍ بَرْدٌ لم يُعْهَدْ مثلُه، واسْتَمَرَّ ذلك إلىٰ العشرين من ذي الحجَّة، وجمَد الماءُ طُولَ هذه المدة، حتىٰ حافَّاتِ دجلَةَ والأنهارِ الكِبارِ، وقاسَىٰ الناسُ شدةً عظيمةً، وتأخَّر المطرُ وزيادةُ دِجْلةَ، وقلَّت الزراعةُ، وامْتَنع كثيرٌ من الناسِ عن التَّصَرُّف. ولم يَحُجَّ أحدٌ من العراقِ وخُراسانَ في هذه السنةِ لفسادِ البلادِ والطرقاتِ. واللَّهُ أعلمُ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

قاضي القُضاةِ ابنُ أبي الشَّوارِبِ، أحمدُ بنُ محمدِ بنِ عبدِ اللَّه بنِ العباسِ بنِ محمدِ بنِ

عبد الملك بنِ أبي الشَّوارب، أبو الحسنِ القرشيُّ الأمويُّ، قاضي قُضاةِ بغدادَ بعدَ ابنِ الأكْفانيِّ بثنتَيْ عشْرَةَ سنةً، وكان عَفيفًا نَزِهًا، وقد سمع الحديثَ مِن أبي عمرَ الزاهدِ وعبدِ الباقي بنِ قانعٍ، إلا أنَّه لم يُحَدِّثْ. قاله ابنُ الجَوْزيِّ.

وحكَىٰ الخطيبُ البغداديُّ عن شيخِه أبي العَلاءِ الواسطيِّ أن أبا الحسنِ هذا آخِرُ مَن ولِي الحكمَ ببغدادَ مِن سُلالةِ محمدِ بنِ عبدِ الملكِ بنِ أبي الشَّوارِبِ، وقد ولِي الحكمَ مِن سُلالتِه أربعةٌ وعشرون، منهم ثمانيةٌ وُلُّوا قَضاءَ قُضاةِ بغدادَ. قال أبو العَلاءِ: ما رأْينا مثلَ أبي الحسنِ هذا؛ جَلالةً ونَزاهةً وصيانةً وشرَفًا.

وقد ذكَر القاضي الماوَرْديُّ أنه كان له صديقًا وصاحبًا، وأن رجلاً مِن خِيارِ الناسِ أوْصَىٰ له بمائتي دينارٍ، فحمَلَها إليه الماوَرْديُّ، فأبَىٰ القاضي أن يَقبلَها، فجهَد عليه كلَّ الجَهْدِ فلم يَفْعَلْ. وقال: أسأَلُك باللَّهِ لا تَذْكُرْ هذا لأحدٍ ما دُمْتُ حيًّا. ففعَل، فلم يُخْبِرْ عنه إلا بعدَ موتِه. وكان ابنُ أبي الشَّوارِبِ فقيرًا إليها وإلىٰ ما هو دونَها، فلم يَقْبَلْها، رحِمه اللَّهُ. وقد تُوُفِّي في شوالٍ مِن هذه السنة.

جعفرُ بنُ بَاي، أبو مسلمٍ الجيليُّ:، سمع ابنَ بَطَّةَ، ودرَس فقهَ الشافعيِّ علىٰ الشيخِ أبي حامدٍ الإسْفَرايِينيِّ، وكان ثقةً دَيِّنًا فاضلاً، تُوُفِّي في رمضانَ من هذه السنة.

عمرُ بنُ أحمدَ بنِ إبراهيمَ بنِ عَبْدَوَيْه، أبو حازمٍ الهُذَليُّ النَّيسابوريُّ، سمع ابنَ نُجَيْدٍ والإسْماعيليَّ وخَلْقًا، وسمع منه الخطيبُ وغيرُه، وكان الناسُ يسمَعون بإفادتِه وانْتِخابِه، تُوُفِّي يومَ عيدِ الفطرِ منها.

عليُّ بنُ أحمدَ بنِ عمرَ بنِ حفصٍ، أبو الحسنِ المُقْرِئُ المعروفُ بالحَمَّاميِّ:، سمِع النَّجَّادَ والخُلْديَّ وابنَ السَّمَّاكِ وغيرَهم، وكان صدوقًا فاضلاً، حسَنَ الاعْتِقادِ، وتفرَّد بأسانيدِ القراءاتِ وعُلُوِّها، تُوُفِّي في شَعْبانَ مِن هذه السنة عن تسعٍ وثمانين سنةً.

صاعدُ بنُ الحسنِ بنِ عيسى الربَعيُّ البغداديُّ اللُّغويُّ:، صاحبُ كتابِ «الفُصوصِ» في اللغةِ علىٰ طريقةِ القالي في «الأمالي» صنَّفه للمنصورِ بنِ أبي عامرٍ، فأجازه عليه خمسةَ آلافِ دينارٍ، ثم قيل له: إنه كذابٌ مُتَّهمٌ فيما ينقُلُه، فأمرَ بإلقاءِ الكتابِ في النهرِ. فقال في ذلك بعضُ الشعراءِ:

قد غاص في الماءِ كتابُ الفُصوصْ   وهكذا كلُّ ثقيلٍ يَغُوصْ

فلما بلَغ صاعدًا هذا البيتُ أنْشَد:

عاد إلى عُنْصُرِه إنَّما   يخرجُ من قَعْرِ البُحورِ الفُصوصْ

قلتُ: كأنه سمَّىٰ هذا الكتابَ بهذا الاسمِ ليُشاكِلَ به «الصِّحاحَ» للجَوْهريِّ، لكنه كان مع فَصاحتِه وبَلاغتِه وعلمِه مُتَّهَمًا بالكذبِ فيما يَروِيه ويَنقُلُه، فلهذا رفَض الناسُ كتابَه، ولم يَشْتَهِرْ بينهم، وقد كان ظريفًا ماجِنًا سريعَ الجوابِ، سأَله رجلٌ أعْمَىٰ علىٰ سبيلِ التَّهَكُّمِ بحضرةِ جماعةٍ، فقال له: ما الجَرَنْفُلُ؟ فأطْرَقَ ساعةً، وعرَف أنه افْتَعَل هذه اللفْظَةَ، ثم رفَع رأسَه إليه فقال: هو الذي يأتي نساءَ

العُمْيان، ولا يَتَعَدَّاهن إلى غيره. فاستحيى ذلك الأعمى، وضحك الحاضرون. وقد كانت وفاته في هذه السنة، سامَحه اللهُ تعالى، واللهُ أعلمُ بالصواب.

القَفَّالُ المَرْوَزيُّ هو أبو بكر عبدُ الله بنُ أحمدَ بن عبد الله القَفَّالُ، أحدُ أئمة الشافعية الكبارِ علمًا ورُشْدًا وحفظًا وتَصْنيفًا وورَعًا، وإليه تُنْسَبُ الطريقةُ الخُراسانيةُ، ومن أصحابه الشيخُ أبو محمدٍ الجُوَيْنيُّ، والقاضي حسينٌ، وأبو عليٍّ السِّنْجيُّ، قال القاضي ابنُ خَلِّكانَ: وأخَذَ عنه إمامُ الحرمَيْن. وفيما قاله نظرٌ؛ لأن سِنَّ إمامِ الحرمَيْن لا يَحْتَمِلُ ذلك؛ فإنَّ القَفَّالَ هذا تُوُفِّي في هذه السنة، وله تسعون سنةً، ودُفِن بسِجِسْتانَ، وإمام الحرمَيْن وُلِد سنةَ تسعَ عشْرةَ وأربعمائةٍ بعد وفاة القَفَّالِ بسنتين. ومات سنةَ ثمانٍ وسبعين كما سيأتي، وإنما قيل له: القَفَّالُ. لأنه كان أولاً يَعْمَلُ الأقْفالَ، ولم يَشْتَغِلْ إلا وهو ابنُ ثلاثين سنةً، ثم أقبل على الاشتغال بعد ذلك رحمه اللهُ تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وأربعمائة

في ربيعٍ الأول وقَع بَرَدٌ أهْلَك شيئًا كثيرًا من الزُّروعِ والثمارِ، وقتَل خلقًا كثيرًا من الغَنَمِ والوحوشِ.

قال ابنُ الجَوزيِّ: وقد قيل: إنه كان في كلِّ بَرَدةٍ رِطْلان وأكثرُ، وفي واسطٍ بلَغَت البَرَدةُ أرْطالاً، وفي بغدادَ بقَدْرِ البَيْضِ.

وفي ربيعٍ الآخرِ سألَت الأسفَهْسلاريَّةُ والغِلْمانُ الخليفةَ أن يَعْزِلَ عنهم أبا كاليجارَ؛ لتهاونه بأمرِهم، وفساده وفسادِ الأمورِ في أيامه، ويُوَلِّي جَلالَ الدولة الذي كانوا قد عدَلوا عنه أوَّلَ مرةٍ، فماطَلهم الخليفةُ في ذلك، وكتَب إلى أبي كاليجارَ أن يَتَدارَكَ أمْرَه، وأن يُسْرِعَ الأوْبةَ إلى بغدادَ قبلَ أن يَفوتَ الأمرُ، وألحَّ أولئك على الخليفةِ في تَوْليةِ جَلالِ الدولةِ، وأقاموا له الخطبةَ ببغدادَ، وتَفاقَم الحالُ، وفسَد النِّظامُ.

وفي هذه السنة ورَد كتابٌ من يمين الدولة محمود بن سُبُكْتِكِين أنه دخَل بلادَ الهند أيضًا، وأنَّه كسَر الصنمَ الأعْظمَ الذي لهم المُسَمَّى بسومناتَ، وقد كانوا يَفِدون إليه من كلِّ فَجٍّ عَميقٍ، ويُنْفِقون عندَه من الأموالِ شيئًا كثيرًا جدًّا، وكان عليه من الأوْقافِ عشَرةُ آلافِ قريةٍ مشهورةٍ، وقد امْتَلأَت خزائنُه أموالاً، وعندَه ألفُ رجلٍ يَخْدُمونه، وثلاثُمائةٍ يَحْلِقون حَجيجه، وثلاثُمائةٍ وخمسون يُغَنُّون ويَرْقُصون على بابِ الصنمِ، وقد كان العبدُ - يعني الملكَ محمودَ بنَ سُبُكْتِكِين - يَتمنَّى قلْعَ هذا الصنمَ، وكان يَعُوقُه عنه طُولُ المَفاوزِ وكثرةُ الموانعِ، ثم استَخار اللهَ تعالى وتَجَشَّم بجيشه تلك الأهْوالَ إليه في ثلاثين ألفًا ممن اخْتارهم سوى المُطَّوِّعة، فسلَّم اللهُ تعالى حتى انْتَهينا إلى بلدِ هذا الوَثنِ، فملَكْناه وقتَلْنا من أهله خمسين ألفًا، وقلَعْنا هذا الوَثنَ وأوْقَدْنا تحتَه النارَ.

وقد ذكَر غيرُ واحدٍ أن الهندَ بذلوا أموالاً جزيلةً للملك محمودِ بنِ سُبُكْتِكِين ليَتْرُكَ لهم هذا الصنمَ

الأعظمَ، فأشار من أشار من الأُمراء بقبول تلك الأموال الجزيلة، فقال: حتى أستخيرَ اللَّهَ تعالى. فلما أصبحَ قال: إني فكرتُ في هذا الأمر فرأيتُ إذا نُوديتُ يومَ القيامة فيُقالُ: أين محمودٌ الذي كَسَرَ الصنمَ؟ أحبُّ إليَّ من أن يُقالَ: أين محمودٌ الذي ترك الصنمَ؟ ثم عزَمَ فكسَره، فوجَد عليه وفيه من الذهبِ واللآلئ والجواهرِ النَّفيسةِ ما يُنيِّفُ على ما بذَلوا بأضعافٍ مُضاعفةٍ، مع ما ادَّخر اللَّهُ تعالى له من الأجرِ الجزيلِ في الآخرة والثناء الجميلِ في الأولى، فرحمه اللَّهُ، وأكرَم مثْواه.

وفي يوم السبتِ ثالثَ رمضانَ دخَل جَلالُ الدولة إلى بغدادَ، فتلَقَّاه الخليفةُ في دجْلةَ في الطيَّارِ ومعه الأكابرُ والأعيانُ، فلما واجَه جَلالَ الدولة قبَّل الأرضَ دَفَعاتٍ، ثم سار إلى دارِ الملك، وعاد الخليفةُ إلى داره، وأمرَ جلالُ الدولةِ أن يُضْرَبَ له الطَّبْلُ في أوقات الصلوات الثلاث، كما كان الأمْرُ في زمنِ عَضُدِ الدولة وصَمْصامِها وشرفِها وبَهائِها، وكان الخليفةُ يُضْرَبُ له الطَّبْلُ في أوقاتِ الصَّلواتِ الخمسِ، فأرادَ جَلالُ الدولة ذلك، فقيل: لا يَحسُنُ مساواةُ الخليفة.

ثم صمَّم على ذلك في أوقات الصلوات الخمسِ.

قال ابنُ الجوزيِّ: وفيها وقَع بَرْدٌ شديدٌ حتى جمَد الخلُّ والنَّبيذُ وأبوالُ الدوابِّ والمياهُ الكبارُ وحافَّاتُ دجلةَ.

ولم يَحُجَّ في هذه السنة أحدٌ من أهلِ المَشْرقِ.

وممن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ محمد بن عبد اللَّه بن عبد الصمد بن المُهْتَدي باللَّه، أبو عبد اللَّه الشاهدُ، خَطَب في جامعِ المنصورِ في سنَةِ ستٍّ وثمانين وثلاثمائةٍ، ولم يكن يخطُبُ إلا بخُطْبَةٍ واحدةٍ في كلِّ جمعةٍ، فإذا سمعها الناسُ منه ضجُّوا بالبُكاء، وخشَعوا لصوته.

الحسينُ بنُ عليِّ بن الحسين، أبو القاسم الوزيرُ المغربيُّ، وُلد بمصرَ في ذي الحجَّة سنةَ سبعين وثلاثمائةٍ، وهرَب منها حينَ قَتَل صاحبُها أباه وعمَّه، وقصَد مكةَ ثم الشامَ، ووزَر في عدة أماكنَ، وقد وزَر لشرَف الدولة بعد الرُّخَّجيِّ، وكان يقولُ الشعرَ الحسنَ، وقد تذاكَر هو وبعضُ الصالحين، فأنشَده ذلك الرجلُ الصالحُ شعرًا:

إذا شئتَ أن تَحْيا غَنيًا فلا تَكُنْ ... على حالةٍ إلا رَضيتَ بدونِها

فاعتَزَل المَناصبَ والسلطانَ، فقال له بعضُ أصحابه: ترَكْتَ المناصبَ في عُنْفُوانِ شبابِك. فأنشأ يقولُ:

كنتُ في سَفْرَةِ البطالةِ والجهـ ... ـلِ زمانًا فحانَ منِّي القُدومُ
تُبْتُ من كلِّ مَأْثَمٍ فعَسى يُمْـ ... ـحَى بهذا الحديثِ ذاكَ القديمُ
بعدَ خمسٍ وأربعين لَقَدْ مَا ... طَلْتُ إلا أن الغَريمَ كريمُ

وقد كانت وفاتُه بمَيَّافارِقِينَ في رمضانَ من هذه السنةِ عن خمسٍ وأربعين سنةً، ودُفِن بمشهدِ عليٍّ، بحيلةٍ احتالَها قبلَ وفاته، رحمَه اللَّهُ.

محمدُ بنُ الحسين بن إبراهيمَ، أبو بكر الورَّاقُ المعروفُ بابن الخفَّاف، روىٰ عن القطيعيِّ وغيره، وقد اتَّهموه بوضعِ الأسانيدِ والأحاديثِ، قاله الخطيبُ وغيرُه.

أبو القاسم اللالَكائيُّ، هبةُ اللَّه بن الحسن بن منصور الرازي: ، وهو طبَريُّ الأصلِ، أحدُ تلامذةِ الشيخِ أبي حامدٍ الإسفَرايينيِّ، وكان يفْهَمُ ويَحْفَظُ، وعُنِيَ بالحديث، فصنَّف فيه أشياءَ كثيرةً، ولكن عاجلَته المَنيةُ قبلَ أن تَنتشرَ أكثرُ كتبِه، وله كتابٌ في السُّنَّةِ وشرحِها، وذكَر طريقةَ السلفِ الصالحِ في ذلك، وقَع لنا سَماعُه علىٰ الحَجَّار، عاليًا عنه، وقد كانت وفاتُه بالدِّينَوَرِ في رمضانَ من هذه السنة، ورآه بعضُهم في المنام فقال له: ما فعَل اللَّهُ بك؟ قال: غفَر لي قال: بماذا؟ قال: بالسُّنَّةِ. رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

أبو القاسم بنُ أميرِ المؤمنين القادرِ باللَّه: ، تُوُفِّي ليلةَ الأحدِ الثاني من جُمادىٰ الآخِرةِ، وصُلِّي عليه غيرَ مرةٍ، ومشَىٰ الناسُ في جنازتِه، وحَزِن عليه أبوه حُزْنًا شديدًا، وقُطع الطَّبلُ أيامًا.

ابنُ طَبَاطَبَا الشَّريفُ: ، كان شاعرًا مُجيدًا، وله شعرٌ حسنٌ.

الأستاذُ أبو إسحاقَ الإسفَرايينيُّ، إبراهيمُ بنُ محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ مِهْرانَ[1]: الشيخُ الإمامُ العَلَّامةُ، رُكْنُ الدينِ الفقيهُ الشافعيُّ، المتكلمُ الأُصوليُّ، صاحبُ التَّصانيفِ في الأصلَين؛ منها «جامعُ الجَلِي» في خمسِ مُجَلَّدات، و«تعليقةٌ نافعةٌ في أصولِ الفقه»، وغيرُ ذلك، وقد سمع الحديثَ الكثيرَ من أبي بكرٍ الإسْماعيليِّ ودَعْلَجٍ وغيرِهما، وأخذ عنه البَيْهقيُّ، والشيخُ أبو الطيبِ الطَّبريُّ، والحاكمُ النَّيسابوريُّ وأثنَىٰ عليه، وكانت وفاتُه يومَ عاشوراءَ في هذه السنةِ بنَيْسابورَ ثم نُقِل إلىٰ بلدِه فدُفِن في مشهدِه، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

أحمدُ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ جعفرِ بنِ حَمْدانَ، أبو الحسين القُدُوريُّ: ، الفقيهُ الحَنَفيُّ، صاحبُ المُصنَّفِ المُختَصرِ الذي يُحفَظُ، كان إمامًا بارعًا عالمًا، دَيِّنًا مُناظِرًا، وكان هو الذي تولىٰ مُناظَرَةَ الشيخِ أبي حامدٍ الإسْفَرايينيِّ، وكان يُطْرِيه ويقولُ: هو أعلمُ وأنظرُ من الشافعيِّ. وكانت وفاتُه يومَ الأحدِ الخامسِ من رجبٍ من هذه السنةِ عن ستٍّ وستين سنةً، ودُفِن إلىٰ جانبِ الفقيهِ أبي بكرٍ الخُوارزميِّ الحَنفيِّ.

ثم دخلت سنة تسع عشرة وأربعمائة

فيها: وقَع بينَ الجيشِ وبينَ جَلالِ الدولة، ونهَبوا دارَ وزيرِه، وجرَت أمورٌ طويلةٌ آل الحالُ فيها إلىٰ أنهم اتَّفقوا علىٰ إخراجِه من البلدِ، فهُيِّئ له زَبزبٌ رَثٌّ، فخرَج وفي يدِه طَبَرٌ نهارًا، فجعَلوا لا يَلْتَفِتون إليه، ولا يُفكِّرون فيه، فلما عزَم في الرُّكوبِ في ذلك الزَّبْزَبِ الرَّثِّ رَثَوْا له ورَقُّوا عليه،

(١) ترجمته في «السير» (١٧/ ٣٥٣).

فجاءوا إليه، وقبّلوا الأرضَ بينَ يديه، وانصلَحت قضيتُه بعدَ فسادها.

وفي هذه السنة قلَّ الرُّطَبُ جدًّا بسبب هلاك النخلِ في السنة الماضية بالبَرَد، فبيعَ الرُّطَبُ كلُّ ثلاثة أرطالٍ بدينارٍ جلاليٍّ، ووقع بَرَدٌ شديدٌ أيضًا فأهلَكَ شيئًا كثيرًا من النَّخلِ أيضًا، فإن للَّه وإنا إليه راجعون.

ولم يَحجَّ أحدٌ من أهلِ المَشرقِ ولا من أهلِ الديارِ المصرية في هذه السنة، إلا أن قومًا من خُراسانَ ركبوا في البحرِ من مدينة مكْرانَ، فانتهَوا إلى جدَّةَ فحجُّوا رَضِي اللَّهُ عنهم ورحمهم بمَنِّه وكرمه.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

حمزةُ بنُ إبراهيمَ، أبو الخطَّاب المُنجِّمُ، حظِي عندَ بَهاءِ الدولة وعلْمُه النجومَ، وكان ذا وَجاهَة عندَه، حتى إن الوُزراءَ كانوا يُكارِمُونه ويُراسِلونه ويَتَوسَّلون به إليه في أمورهم، ثم حار أمرُه، حتى مات - يومَ مات بالكَرْخ من سامَرَّا - غريبًا فقيرًا مَفْلوجًا، قد ذَهب مالُه وجاهُه.

محمدُ بنُ محمد بن إبراهيمَ بن مَخْلَد، أبو الحسن: التاجرُ، سمع الكثيرَ على المشايخ المُتقدِّمين، وتفرَّد بعلوِّ الإسْناد، وكان ذا مالٍ جَزيلٍ، فخاف من المُصادَرة ببغداد، فانتقَل إلى مصرَ، فأقام بها سنةً، ثم عاد إلى بغدادَ، فاتَّفقَ مُصادرةُ أهلِ مَحلَّتِه، فقُسِّط عليه ما أفقَرَه، ومات حينَ مات ولم يُوجَدْ له كَفَنٌ، رحمه اللَّهُ.

مُباركٌ الأنْماطيُّ، كان ذا مالٍ جَزيلٍ، خلَّف يومَ تُوُفِّي ثلاثمائة ألفِ دينارٍ، ولم يَترُكْ وارثًا سوى ابنةٍ واحدةٍ ببغدادَ، وكانت وفاتُه بمِصرَ.

أبو الفَوارس بنُ بَهاء الدولة، كان ظالمًا، وكان إذا سكِر يَضرِبُ الرجلَ من أصحابه أو وزيرَه مائتي مِقْرَعةٍ، بعدَ أن يُحلِّفَه بالطلاقِ أنه لا يتأوَّه، ولا يُخبِرُ بذلك أحدًا. فيقالُ: إن حَواشيَه سمُّوه. فلمَّا مات نادَوْا بشعارِ ابنِ أخيه أبي كاليجارَ.

أبو محمد بن باشاذَ: وزيرُ أبي كاليجارَ، لقَّبه مُعزَّ الدين فَلَكَ الدولة سيدَ الأُمَّة وزيرَ الوُزراء عِمادَ المُلك، ثم سُلِّم إلى جلال الدولة فاعتقَلَه، ومات في هذه السنة.

أبو عبد اللَّه المتكلِّمُ: تُوُفِّي في هذه السنة. هكذا رأيتُ ابنَ الجَوْزيِّ ترجَمه مُختَصرًا.

ابنُ غَلْبونَ الشاعرُ، أبو محمد عبدُ المُحْسن بنُ محمد بن أحمدَ بن غالب بن غلبونَ الشاميُّ ثم الصُّوريُّ، الشاعرُ المُطبِّقُ، له ديوانُ شِعْرٍ مَليحٍ بليغٍ، كان قد نظَم قصيدةً بليغةً في بعض الرؤساء، ثم أنشَدها لرئيسٍ آخرَ يقالُ له: ذو المَنْقَبَتَين. وزاد فيها بيتًا واحدًا يقولُ فيه:

ولك المَناقبُ كلُّها ... فلِمَ اقتصَرْتَ على اثنتَينِ

فأجازه جائزةً سَنيةً، فقيل له: إنها ليست فيك. فقال: إن هذا البيتَ وحدَه بقصيدةٍ.

وله أيضًا في بَخيلٍ نزَل عندَه:

وأخٍ مسَّه نُزولي بقَرْحٍ	مثلَ ما مسَّني من الجوعِ قَرْحُ
بتُّ ضيفًا له كما حكَم الدهـ	ـرُ وفي حُكمه على الحُرِّ قُبْحُ
فابْتَداني يقولُ وهْو من السُّـ	ـكْرِ بالهمِّ طافحٌ ليس يَصْحُو
لِمَ تغَرَّبتَ قلتُ قال رسولُ الـ	ـلَّه والقولُ منه نُصْحٌ ونُجحُ
«سافِروا تَغْنَموا» فقال وقد قا	ل تَمامَ الحديثِ «صُوموا تَصِحُّوا»

ثم دخلت سنة عشرين وأربعمائة

فيها: سقَط بناحيةِ المَشرِقِ مطَرٌ شديدٌ، معه بَرَدٌ كِبارٌ. قال ابنُ الجَوْزيِّ: حُزِرَتِ البَرَدةُ الواحدةُ منه بمائةٍ وخمسين رِطْلاً، وغاصَت في الأرضِ نحوًا من ذراعٍ.

وورَد كتابٌ من يمينِ الدولة محمودِ بنِ سُبُكْتِكِين أنه أحَلَّ بطائفةٍ من أهلِ الرَّيِّ من الباطنيةِ والرَّوافضِ قتلاً ذريعًا، وصَلْبًا شَنيعًا، وأنه انتَهَب أموالَ رئيسِهم رُسْتُمَ بنِ عليٍّ الدَّيْلَمِيِّ، فحصَّل ما يُقارِبُ ألفَ ألفِ دينارٍ، وقد كان في حِبالتِه نحوٌ من خمسين امرأةً حُرَّةً، وقد ولَدْنَ له ثلاثًا وثلاثين ولدًا من ذكرٍ وأنثى، وكانوا يرَوْن إباحةَ ذلك.

وفي رجبٍ منها انقضَّت كواكبُ كثيرةٌ شديدةُ الصوتِ قويةُ الضوءِ.

وفي شعبانَ كثُرَت العَمَلاتُ، وضعُفَت رجالُ المَعونةِ عن مُقاومةِ العَيَّارين.

وفي يومِ الإثنين ثامنَ عشَرَ منه غار ماءُ دجلةَ حتى لم يَبْقَ منه إلا القليلُ، ووقَفَت الأرْحاءُ، وتعَذَّر الطَّحْنُ.

وفي هذا اليومِ جُمِعَ القُضاةُ والعُلماءُ في دارِ الخلافة، وقُرِئ عليهم كتابٌ جمَعه أميرُ المؤمنين القادرُ باللَّه فيه مواعِظُ وتَفاصيلُ مذاهبِ أهلِ السُّنَّة، والرَّدُّ على أهلِ البِدَعِ من المعتزلةِ وغيرِهم.

وفي العشرين من رمضانَ جُمِعوا أيضًا، وقُرِئ عليهم كتابٌ آخرُ جمَعه الخليفةُ أيضًا فيه أخبارٌ ومواعظُ، والرَّدُّ على أهلِ البدعِ، وتَفْسيقُ مَن قال بخَلْقِ القرآنِ، وصفةُ ما وقَع بينَ بِشْرٍ المَرِيسيِّ وعبدِ العزيزِ بنِ أحمدَ الكَتَّانيِّ من المُناظَرةِ، ثم ختَم القولَ بالوَعْظِ والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، وأخَذ خُطوطَ الحاضرين بالمُوافَقةِ لما سمعوه.

وفي يومِ الإثنين غرَّةَ ذي القَعْدة جُمِعوا أيضًا كلُّهم، وقُرِئ عليهم كتابٌ آخَرُ طويلٌ يَتَضَمَّنُ بيانَ السُّنة، والردَّ على أهلِ البِدَعِ، ومُناظَرةَ بِشْرٍ المرِيسيِّ والكَتَّانيِّ، والأمرَ بالمعروفِ والنهْيَ عن المنكرِ، وفَضْلَ الصَّحابة، وذِكْرَ فضائلِ أبي بكرٍ وعمرَ، رضِي اللَّهُ عنهما، ولم يَفْرُغوا منه إلا بعدَ العَتَمةِ، وأُخِذَت خُطوطُهم بموافقةِ ما سمعوه، وعُزِل خُطَباءُ الشِّيعة، ووُلِّي خُطَباءُ غيرُهم من أهلِ السُّنة.

وجرَت فتنةٌ عظيمةٌ بمسجدِ بَراثا، وضربوا الخَطيبَ السُّنِّيَّ بالآجُرِّ حتى كسَروا أنفَه وخلَعوا كَتِفَه، فانْتَصَر له الخليفةُ وأهان الشِّيعةَ وأذَلَّهم، حتى جاءُوا يَعْتَذِرون مما صنَعوا، وأنه ما تَعاطاه إلا سفَهاؤُهم وسَقَطُهم.

ولم يَتَمَكَّنْ أحدٌ من أهلِ العراقِ وخُراسانَ في هذه السنةِ من الحجِّ، واللَّهُ تعالى أعلمُ.

وممن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

الحسنُ بنُ أبي الهَيْش، أبو عليٍّ الزاهدُ، أحدُ العُبَّادِ والزُّهَّادِ وأصحابِ الأحوالِ، دخَلَ عليه بعضُ الوُزراءِ فقبَّلَ يدَه، فعُوتِب الوزيرُ في ذلك، فقال: كيف لا أُقَبِّلُ يدًا ما امْتَدَّت قَطُّ إلا إلى اللَّهِ تعالى؟!

عليُّ بنُ عيسى بنِ الفَرَجِ بنِ صالحٍ، أبو الحسنِ الرَّبَعيُّ النحْويُّ، أخَذَ العربيةَ أولاً عن أبي سعيدٍ السِّيرافيِّ، ثم عن أبي عليٍّ الفارسيِّ، ولازمَه عشرين سنةً حتى كان يقولُ: قولوا له: لو سار من المَشْرِقِ إلى المغربِ لم يَجِدْ أنْحَى منه. وكان يومًا يَمْشي على شاطئِ دجلةَ إذ نظَر إلى الشريفَيْن الرَّضيِّ والمُرْتَضَى في سفينةٍ، ومعهما عثمانُ بنُ جنِّيٍّ، فقال لهما: من أعجبِ الأشياءِ أن عثمانَ معكما، وعليٌّ بعيدٌ منكما يَمْشي على شاطئِ دِجْلَةَ. وكانت وفاتُه في المُحَرَّمِ من هذه السنةِ عن ثنتين وتسعين سنةً، ودفن ببابِ الدَّيْرِ، ويقالُ: إنه لم يَتْبَعْ جنازتَه سوى ثلاثةِ أنْفُسٍ.

أسدُ الدولةِ أبو عليٍّ، صالحُ بنُ مِرْداسِ بنِ إدْريسَ الكلابيُّ، أولُ مُلوكِ بني مِرْداسٍ بحلَبَ، انْتَزَعها من يدي نائبِها الظاهرِ بنِ الحاكمِ العُبَيْديِّ، في ذي الحَجَّةِ سنةَ سبعَ عشْرةَ وأربعمائةٍ، ثم جاءه جيشٌ كثيفٌ من مصرَ فاقْتَتلوا، فقُتِل أسدُ الدولةِ هذا في سنةِ تسعَ عشْرةَ، وقام حفيدُه نصرٌ.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وأربعمائة

لما كان في ربيعٍ الأولِ من هذه السنة تُوُفِّي الملكُ العادلُ الكبيرُ المُثاغِرُ المُرابِطُ المُؤَيَّدُ المنصورُ المجاهدُ يَمينُ الدولةِ أبو القاسمِ محمودُ بنُ سُبُكْتِكين، صاحبُ بلادِ غَزْنةَ وتلك المَمالكِ الكِبارِ، وفاتحُ أكثرِ بلادِ الهندِ قَهْرًا، وكاسرُ بُدودِهم وأوثانِهم كسرًا، وقاهرُ هُنودِهم وسُلطانِهم الأعْظَمِ قَهْرًا، وقد تَمرَّض نحوًا من سنتين لم يَضْطَجِعْ فيهما على فراشٍ، ولا توَسَّد وسادًا، بل كان ينامُ قاعدًا حتى مات كذلك، وذلك لشَهامته وصَرامته وقوةِ عزمِه، وله من العمرِ ستون سنةً، رحمه اللَّهُ، وقد عهِد بالأمرِ من بعدِه لولدِه محمدٍ، فلم يَتِمَّ أمرُه حتى غافَصَه أخوه مسعودُ بنُ محمودٍ، فاسْتَحْوَذ على مَمالكِ أبيه، مع ما كان إليه مما يليه وفتَحه هو بنفسِه من بلادِ الكُفارِ؛ من الرَّساتيقِ الكِبارِ والصِّغارِ، فاسْتَقَرَّت له المَمالكُ شرقًا وغربًا في تلك النَّواحي، في أواخرِ هذا العامِ، وجاءَته الرسلُ من كلِّ ناحيةٍ ومن كلِّ ملكٍ هُمامٍ، بالتحيةِ والسلامِ والإكْرامِ، وستأتي ترجمةُ الملكِ محمودٍ في الوَفَياتِ.

وفيها: اسْتَحْوَذت السَّريةُ التي كان بعَثها الملكُ محمودٌ إلى بلادِ الهندِ على أكبرِ مدائنِهم وهي المُسَمَّاةُ نَرْسَى، دخَلوها في نحوِ مائةِ ألفِ مُقاتِلٍ ما بينَ فارسٍ وراجلٍ، فنهَبوا سُوقَ العِطْرِ والجَوْهرِ بها نَهارًا كاملاً، ولم يَستطيعوا أن يُحَوِّلوا ما فيه من أنواعِ الطِّيبِ والمسكِ والجواهرِ واللآلئِ واليَواقيتِ، ومع هذا لم يَدْرِ أكثرُ أهلِها بشيءٍ من ذلك لاتِّساعِها، وذلك أنها كانت في غايةِ الكِبَرِ،

طولُها مَسيرةُ مَنْزِلةٍ من مَنازِلِ الهند، وعرضُها كذلك، وأُخِذَ من الأموالِ والتُّحَفِ ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، حتى قيل: إنهم اقْتَسَموا الذهبَ والفضةَ بالكَيْلِ. ولم يَصِلْ جيشٌ من جيوشِ المسلمين إلى هذه المدينة لا قبلَ هذه السنة ولا بعدَها.

وفيها: عملت الرافضةُ بدعتَهم الشنْعاء وحادثتَهم الصلْعاءِ في يومِ عاشوراء، من تعليقِ المُسُوحِ وتَغْليقِ الأسواقِ والنَّوْحِ والبُكاء، في الأَزِقَّة والأرجاء، فأقْبَلَ إليهم أهلُ السنة في الحديد، واقْتَتلوا قتالاً شديدًا، فقُتِلَ من الفريقَين طَوائفُ كثيرةٌ، وجرَت فتنٌ كبيرةٌ وشُرورٌ مُسْتَطيرةٌ، فإنا للَّهِ وإنا إليه راجعون.

وفي هذه السنة مرض أميرُ المؤمنين القادرُ باللَّهِ، وعهِد بولايةِ العهدِ من بعدِه إلى ولدِه أبي جعفرٍ القائمِ بأمرِ اللَّهِ، بَمحْضَرٍ من القُضاةِ والوُزراءِ والأمراءِ والكبراءِ، وخُطِب له بذلك على المنابرِ، وضُرِب اسمُه على السكَّة المُتَعامَلِ بها في البادي والحاضرِ.

وفيها: أقْبَلَ ملكُ الرومِ من قُسْطَنْطِينيَّةَ في ثلاثمائة ألفِ مُقاتِلٍ، فسار حتى بلَغ بلادَ حلبَ، وعليها شِبْلُ الدولةِ نصرُ بنُ صالحِ بنِ مِرْداسٍ، فنزَلوا على مَسيرةِ يومٍ منها، ومِن عزْمِ ملكِ الرومِ، قبَّحه اللَّهُ، أن يَسْتَحْوذَ على بلادِ الشامِ بكمالِها، وأن يَسْتَرِدَّها إلى ما كانت عليه في أيديهم قبلَ الإسلامِ، وقد قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إذا هلَك قيصرُ فلا قيصرَ بعدَه**». وقيصرُ هو مَن ملَك الشامَ مع بلادِ الرومِ، فلا سبيلَ لملكِ الرومِ إلى هذا الرَّومِ الذي أراده هذا المذمومُ، فلما نزَل بجيشِه قريبًا من حلَبَ كما ذكَرْنا أرْسَل اللَّهُ عليهم عطشًا شديدًا، وخالَف بينَ كلمتِهم؛ وذلك أنه كان معه الدُّمُسْتُقُ، فعامَل طائفةً من الجيشِ على قتلِه لِيَسْتَقِلَّ بالأمْرِ من بعدِه، ففهِم ذلك ملكُ الرُّومِ، فكرَّ من فَوْرِه راجعًا: ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾ [الأحزاب: ٢٥]، ولَمَّا كرُّوا راجعين إلى بلادِهم، اتَّبَعَهم الأعْرابُ يَنْهَبونهم ليلاً ونَهارًا وصباحًا ومساءً، وكان في جُملةِ ما أخَذوا منهم أربعمائة بغلٍ مُحَمَّلةً مالاً وثيابًا للملكِ، وهلَك أكثرُ الرومِ جوعًا وعطَشًا، ونهبهم الأعرابُ من كلِّ جانبٍ. وللَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ.

وفيها: ملَك جَلالُ الدولةِ واسطًا واسْتَناب ولدَه عليها، وبعَث وزيرَه أبا عليٍّ ابنَ ماكُولا إلى البَطائحِ والبصرةِ، ففتَح البطائحَ وسار في الماءِ إلى البصرةِ، وعليها نائبٌ لأبي كاليجارَ، فهزَمهم البصريون، فسار إليهم جَلالُ الدولةِ بنفسِه، فدخَلها في شعبانِ هذه السنةِ، ودقَّت البشائرُ فرَحًا ببغدادَ؛ فرحًا بنصرِه.

وفيها: جاء سَيْلٌ عظيمٌ بغَزْنةَ، فأهْلَك شيئًا كثيرًا من الزُّروعِ والأشجارِ.

وفي رمضانَ منها تصَدَّق مسعودُ بنُ محمودِ بنِ سُبُكْتِكين بألفِ ألفِ درهمٍ، وأجرى أرْزاقًا للفُقهاءِ والعلماءِ ببلادِه، على عادةِ أبيه من قبلِه، وفتَح بلدانًا كثيرةً، واتَّسَعَت مَمالكُه جدًّا، وعظُم شأنُه، وقوِيَت أرْكانُه، وكثُرت جُنودُه وأعْوانُه.

وفيها: دخَل خَلْقٌ كثيرٌ مِن الأكْرادِ إلىٰ بغدادَ يَسْرِقون خيلَ الأتراكِ ليلاً، فتحَصَّن الناسُ منهم، وحصَّنوا خيولَهم حتىٰ خيلَ السلطانِ.

وفيها: سقَط جسرٌ ببغدادَ، وهو الذي عند الزيَّاتين علىٰ نهرِ عيسىٰ.

وفيها: وقَعَت فتنةٌ بينَ الأتْراكِ النازلين ببابِ البَصْرَةِ وبينَ الهاشِميِّين، فرفَعوا المَصاحِفَ، ورمَتْهم الأتْراكُ بالنُّشَّابِ، وجرَت خَبْطةٌ عظيمةٌ، ثم اصطلحت الحالُ بينَ الفريقَيْن.

وفيها: كثُرَت العَمَلاتُ ببغدادَ، وأُخِذَت الدُّورُ جَهْرَةً، وكثُرُ العَيَّارون ولُصوصُ الأكْرادِ.

وفيها: تعطَّل الحجُّ أيضًا مِن بلادِ العراقِ وخراسانَ لفسادِ البلادِ، ولم يحجَّ أحدٌ سوىٰ سريَّةٍ مِن أهلِ العراقِ؛ ركِبوا مِن جِمالِ الباديةِ مَع الأعرابِ مخاطرةً، ففازوا بالحجِّ. واللَّهُ أعلمُ.

ذكْرُ مَن تُوُفِّي في هذه السنة من الأعْيان:

أَحمدُ بنُ عبد اللَّه بن أحمَدَ، أبو الحَسنِ الواعظُ، المعروفُ بابنِ الرَّانِ صاحبُ كراماتٍ ومُعامَلاتٍ، كان مِن أهلِ الجَزيرةِ، فسكَن دمشقَ، وكان يَعظُ الناسَ بالزيادةِ القِبليةِ حيث كان يَجْلِسُ القُصَّاصُ. قال ذاك الحافظُ ابنُ عَساكرَ. قال: وصنَّف كُتُبًا في الوَعْظِ، وحكَىٰ حِكاياتٍ كثيرةً قال: سمعتُ أبا القاسمِ بنَ السمرقنديِّ يقولُ: سمعت أبا طاهرٍ محمدَ بنَ أحمدَ بنِ أبي الصقرِ يقولُ: سمِعْتُ أبا الحسنِ أحمدَ بنَ عبدِ اللَّهِ الرانِ الواعِظَ يُنْشِدُ هذه الأبياتِ:

أنا ما أصنَعُ باللَّذَّ ... ات شُغلي بالذُّنوبِ
إنما العيدُ لمن فا ... ز بوَصْلٍ مِن حَبيبِ
أصبَح الناسُ على رَوْ ... حٍ ورَيحانٍ وطِيبِ
ثم أصبَحتُ على نَوْ ... حٍ وحُزنٍ ونَحيبِ
فرِحوا حينَ أهَلُّوا ... شهرَهم بعدَ المَغيبِ
وهِلالي مُتَوارٍ ... من ورَا حُجْبِ الغُيوبِ
فلِهذا يا خليلي ... قلتُ للَّذَّات غِيبي
يا حَياتي ومَماتي ... وشَقائي وطَبِيبي
وجَعَلتُ الهمَّ والحُزْ ... نَ من الدنيا نَصيبي
جُدْ لصَبٍّ يتَلَظَّى ... منك بالرَّحْبِ الرَّحيبِ

ثم أرَّخ وفاتَه لعشرٍ بقِين مِن جمادىٰ الأولىٰ مِن هذه السنةِ، ودُفِن بمسجدِ القدمِ.

الحسينُ بنُ محمدٍ الخالِعُ: الشاعرُ، له ديوانُ شعرٍ حسنٌ مليحٌ، عُمِّر طويلاً، ووفاتُه في هذه السنةِ عن سنٍّ عاليةٍ.

الملكُ الكبيرُ العادلُ محمودُ بنُ سُبُكْتِكين، أبو القاسم المُلَقَّبُ بيمين الدولة وأمين الملَّة، صاحبُ بلادِ غَزْنَةَ وما والاَها، وجيشُه يقالُ لهَمَ: السامانِيَّةُ. وكان أبوه قد تَملَّكَ عليهم، وتُوُفِّي سَنَةَ

سبع وثمانين وثلاثمائة، فتملَّك بعدَه ولدُه هذا، فسار فيهم وفي سائرِ الرعايا سيرةً عادلةً، وقام بأعباء الإسلام قيامًا تامًّا، وفتَح فُتوحاتٍ كثيرةً في بلادِ الهندِ وغيرِها، وعظُم شأنُه في العالمين، واتَّسَعَت مَمْلَكتُه، وامْتَدَّتْ رَعاياه، وطالَت أيامُه، ولله الحمدُ والمنةُ، وكان يُخطَبُ في سائرِ ممالكه للخَليفة العباسيِّ القادرِ باللهِ، وكانت رسلُ الفاطميِّين من الدِّيارِ المصرية تَفِدُ إليه بالكتبِ والهَدايا والتحف، فيُحْرِقُ بهم، ويقطع كتبَهم، ويُخَرِّقُ حللَهم.

وقد اتَّفق له في بلادِ الهندِ فُتوحاتٌ لم تتَّفِقْ لغيرِه من الملوك، لا قبلَه ولا بعدَه، وغنِم مغانمَ كثيرةً لا تَنحَصِرُ ولا تَنضَبِطُ كثرةً، من الذهبِ واللآلئ والسَّبْيِ، وكسَّر من أصنامِهم وأبدادهم وأوثانِهم شيئًا كثيرًا جدًّا، بيَّض اللهُ وجهَه وأكرم مثواه. وقد ذكرنا ذلك مُفَصَّلًا فيما سلَف مفرَّقًا في السنينَ، كان في جملة ما كسَر من أصنامِهم بُدٌّ عظيمٌ للهنودِ يقالُ له: سُومَنَاتُ. بلَغ ما تحَصَّل منه من الذهبِ عشرين ألفَ ألف دينارٍ، وكسَر ملكَ الهندِ الكبيرَ الذي يقالُ له: جيبالُ. وقهَر ملكَ الترك الأعظمَ الذي يقالُ له: إيلك خان. وأباد مُلْكَ السامانية، وقد ملَكوا بخراسانَ مائةَ سنةٍ بلادَ سَمَرْقَنْدَ وما حولَها، ثم هلَكوا، وبنَى على جَيحُونَ جِسْرًا غرِم عليه أَلْفَيْ ألفِ دينارٍ، وهذا شيءٌ لم يتَّفِقْ لغيرِه من الملوك، وكان معه في جيشِه أربعُمائة فيلٍ تُقاتِلُ، وهذه عظيمةٌ هائلةٌ ومرتبةٌ طائلةٌ، وجرَت له فصولٌ ذكْرُ تفصيلِها يَطولُ، وكان في غايةِ الدِّيانةِ والصِّيانةِ، يُحبُّ العلماءَ والمُحدِّثين، ويُكرِمُهم ويُجالِسُهم، ويُحْسِنُ إليهم، وكان حنفيَّ المذهبِ، ثم صار شافعيًّا على يدي أبي بكرٍ القَفَّال الصغيرِ، على ما ذكَره إمامُ الحرمَيْن وغيرُه، وكان كَرَّاميًّا على اعتقادِهم، وكان من جملة مَن يُجالِسُه منهم محمدُ بنُ الهَيْصَم، وتناظر هو وأبو بكرِ بنُ فُورَكَ بينَ يدي الملك محمودِ بنِ سُبُكْتِكين في مسألةِ العرشِ مناظرةً طويلةً ذكرَها ابنُ الهَيْصَم في مصنَّفٍ له، فمال السلطانُ محمودُ بنُ سُبُكْتِكين إلى قولِ ابنِ الهَيْصَم، ونقَم على ابنِ فُوركَ كلامَه، وأمَر بطردِه وإخراجِه؛ لموافَقتِه لرأيِ الجَهْمية.

وكانت مَعْدِلتُه جيدةً؛ اشْتكَى إليه رجلٌ أن ابنَ أختِ الملكِ يَهْجِمُ عليه وعلى أهلِه في كلِّ وقتٍ، فيُخرِجُه من البيتِ ويَخْتلي بامرأتِه، وقد حار في أمرِه، وكلما اشْتَكاه إلى أحدٍ من أُولي الأمرِ لا يتجاسَرُ على إقامةِ الحدِّ عليه؛ يهابون الملكَ. فقال له الملكُ: ويحَك! متى جاءك فأْتِني فأَعْلِمْني، ولا تَسْمَعَنَّ من أحدٍ منَعَك من الوصولِ إليَّ ولو كان في الليلِ. وتقَدَّمَ إلى الحَجَبَةِ أن هذا لا يَمْنَعُه أحدٌ متى جاء من ليلٍ أو نهارٍ. فذهَب الرجلُ مَسْرورًا، فما كان إلا ليلةٌ أو ليلتان حتى هجَم عليه ذلك الشابُّ فأخْرجه واخْتَلَى بأهلِه، فذهَب باكيًا إلى دارِ الملكِ، فقيل له: إن الملكَ نائمٌ. فقال: قد تقَدَّم إليكم بما سمعتم.

فأَنبَهُوا الملكَ، فخرج معه بنفسه وحدَه، وجاء منزلَ ذلك الرجلِ، فنظَر إلى الغلامِ وهو نائمٌ مع المرأة في فراشِ الرجلِ، وعندَهما شَمْعةٌ تَقِدُ، فتقَدَّم الملكُ فأطفَأ الضوءَ، ثم جاء فاحْتَزَّ رأسَ الغلامِ، وقال للرجلِ: ويحَك! الْحَقْني بشَرْبةٍ من ماءٍ. فسقاه ثم انْطَلَقَ ليَذْهَبَ، فقال له الرجلُ: سأَلْتُك

باللَّه لمَ أطفَأتَ الشَّمْعةَ؟ فقال: ويحك إنه ابنُ أختي، وكرهْتُ أن أُشاهدَه حالةَ الذَّبح. قال: ولمَ طَلَبْتَ الماءَ سريعًا؟ فقال: إنِّي كنتُ آلَيْتُ منذُ أخبَرْتَني أن لا أَطْعَمَ طعامًا ولا أَشْرَبَ شرابًا حتى أقومَ بحقِّك، فكنتُ عَطْشانَ هذه الأيامَ، حتى كان ما رأيْتَ. فدعا له، وانصرف، رحمه اللَّهُ.

وكان مرضُه سُوءَ مِزاجٍ اعْتَراه وانْطلاقَ البطنِ سنتين، فكان فيهما لا يَضْطَجِعُ على فراشٍ، ولا يَتَّكِيءُ على شيءٍ لقوةِ بأسه، بل كان يَسْتَنِدُ إلى مَخادَّ تُوضَعُ له، ويَحْضُرُ مَجْلسَ مُلكه، ويَفْصِلُ بينَ الناسِ على عادته، حتى مات وهو كذلك في يوم الخميس لسبعٍ بَقِين من ربيعٍ الآخرِ من هذه السنة، عن ثلاثٍ وستين سنةً، مَلَكَ منها ثلاثًا وثلاثين سنةً، وخلَّف من الأموال شيئًا كثيرًا، من ذلك سبعونَ رَطلاً من جوهرٍ، سامَحه اللَّهُ تعالى، وقام بالأمْرِ من بعده ولدُه محمدٌ، ثم صار المُلكُ إلى ابنه الآخرِ مسعودِ بنِ محمودٍ، فأشْبَه أباه، وقد صنَّف بعضُ العلماءِ مجلدًا في سيرته وأيَّامه وأحكامه وفتوحاته ومَمالكه، فأفادَ.

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة

فيها: كانت وفاةُ القادرِ باللَّه وخلافةُ ابنه القائم بأمر اللَّه، على ما سيأتي تفصيلُه وبَيانُه.

وفيها: وقَعت فتنةٌ عظيمةٌ بينَ السنة والرَّوافضِ، وقويت عليهم السُّنَّةُ، وقتَلوا خلقًا منهم، ونهَبوا الكَرْخَ ودارَ الشَّريف المُرْتَضَى، ونهَبَت العامَّةُ دُورَ اليَهودِ لأنَّهم نُسبوا إلى مُعاونة أهلِ الكرخِ من الرَّوافضِ، وتعَدَّى النَّهْبُ إلى دُورٍ كثيرةٍ، وانتشَرَت الفتْنةُ جدًّا. ثم سكَنَت بعدَ ذلك.

وفيها: كثُرت العَمَلاتُ وانْتشَرت المحنةُ بأمْرِ العيَّارين في أرْجاءِ البلدِ، وتجاسَروا على أُمورٍ كثيرةٍ ونهَبوا دُورًا وأماكنَ سرًّا وجهرًا، ليلاً ونهارًا، فلا حول ولا قوةَ إلا باللَّه العليِّ العظيم.

خلافة القائم بالله

أبي جعفرٍ عبدِ اللَّه بنِ القادرِ باللَّه، بُويع له بالخلافة لما تُوُفِّي أبوه القادرُ باللَّه أبو العباسِ أحمدُ بنُ إسحاقَ بنِ المُقْتَدرِ باللَّه بنِ المُعْتَضِدِ بنِ الأميرِ أبي أحمدَ المُوَفَّقِ بنِ المُتوكِّلِ بنِ المُعْتَصِمِ بنِ الرشيدِ بنِ المَهْديِّ بنِ المنصورِ، في ليلة الإثنين الحادي عشَرَ من ذي الحِجَّة من هذه السنة، عن ستٍّ وثمانين سنةً وعشَرةِ أشهرٍ وأحدٍ وعشَرين يومًا، ولم يُعَمَّرْ أحدٌ من الخُلَفاء قبلَه هذا العمرَ، ولا بعدَه، من ذلك في الخلافة إحدى وأربعون سنةً وثلاثةُ أشهرٍ، وهذا أيضًا شيءٌ لم يَسْبِقْه أحدٌ إليه، وأمُّه أمُّ ولدٍ اسمُها تَمنِّي، مَوْلاةُ عبدِ الواحدِ بنِ المُقْتَدرِ، وقد كان، رحمه اللَّهُ، مُحبًّا لأهلِ العلم والدينِ والصَّلاحِ، يَأْمُرُ بالمعروفِ ويَنْهَى عن المُنْكَرِ، وكان على طريقة السلفِ في الاعْتِقاد، وله في ذلك مُصنَّفاتٌ كانت تُقْرأُ على الناسِ، وكان أبيضَ، حسَنَ الجسم، طويلَ اللِّحْيةِ عَريضَها يَخْضِبُها، وكان يَقومُ الليلَ، كثيرَ الصَّدَقةِ، مُحبًّا للسنة وأهلها، يُبْغِضُ البدْعةَ والقائمين بها وكان يُكثِرُ الصومَ ويَبَرُّ الفُقَراءَ من

أقْطاعه، و يَبْعَثُ منه إلىٰ المُجاوِرِين بجامعِ المنصورِ وجامعِ الرُّصافةِ، وكان يَخْرُجُ مِن دارِه في زِيٍّ العامَّةِ، فيَزُورُ قُبورَ الصالحين، وقد ذكَرْنا طَرَفًا صالحًا مِن سيرتِه عندَ ذكرِ ولايتِه في سنةِ إحدىٰ وثمانين وثلاثِمائةٍ، وجلَسوا في عزائه سبعةَ أيامٍ لعظَمِ المُصيبةِ به، ولتَوْطِيدِ البَيْعةِ لولدِه القائمِ باللَّهِ أبي جعفرٍ عبدِ اللَّه بنِ القادرِ، وأمُّه قَطْرُ النَّدَىٰ أرْمَنِيَّةٌ، أَدْرَكَت خِلافتَه، وكان مولدُه يومَ الجمعةِ الثامنَ عشَرَ مِن ذي القَعْدةِ سنةَ إحدىٰ وتسعين وثلاثِمائةٍ، وكانت بيعتُه بحَضْرَةِ القُضاةِ والأُمراءِ والكُبَراءِ والأعيانِ، وكان أولَ مَن بايعَه الشريفُ المُرْتَضَىٰ، وأنْشَده أبياتًا:

فإمَّا مضَى جَبَلٌ وانقَضَى   فمنك لنا جَبَلٌ قد رسَا
وإمَّا فُجِعْنا ببدرِ التَّمامِ   فقد بقِيَت منه شمسُ الضُّحَى
لنا حَزَنٌ في محَلِّ السُّرورِ   فكم ضَحِكٌ في خِلالِ البُكَا
فيا صارمًا أغْمَدَتْه يدٌ   لنا بعدَك الصارمُ المُنْتَضَى
ولما حضَرْناك عقدَ البِياعِ   عرَفْنا بهَدْيِك طُرْقَ الهُدَى
فقابَلْتَنا بوَقارِ المَشيبِ   كمالاً وسِنُّك سِنُّ الفَتَى

طالَبَتْه الأتْراكُ برَسْمِ البيعةِ، فلم يَكُنْ مع الخليفةِ شيءٌ؛ لأنَّ أباه لم يَتْرُكْ مالاً، فكادَت الفتنةُ تقَعُ بينَ الناسِ بسببِ ذلك، حتىٰ دفَع عنه الملكُ جَلالُ الدولةِ مالاً جَزيلاً، نحواً مِن ثلاثةِ آلافِ ألفِ دينارٍ، واستَوزَر الخليفةُ أبا طالبٍ محمدَ بنَ أيوبَ، واسْتَقْضَىٰ ابنَ ماكُولا.

ولم يَحُجَّ أحدٌ مِن أهلِ المَشْرِقِ سوىٰ شِرْذِمةٍ خرَجوا مِن الكوفةِ مع العربِ.

و مِمَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان والكبراء غير الخليفة، رحمه اللَّهُ:

الحسنُ بنُ عليِّ بنِ جعفرٍ، أبو عليِّ بنُ ماكُولا:، الوَزيرُ لجَلالِ الدولةِ، وقد تقدَّم أنَّه بُعِث إلىٰ البَطِيحةِ ففتَحها، ورامَ أخذَ البصرةِ فلم يمكنْه ذلك، وقاتَلوه دونَها فأسَروه، فسأل أن يُذهَبَ به إلىٰ الملكِ أبي كاليجارَ، فعفا عنه وأطلَقه، فلما صار إلىٰ الأهوازِ تعامل عليه غلامٌ له وجاريةٌ، فقتَلاه في ذي الحجةِ من هذه السنةِ عن ستٍّ وخمسين سنةً.

عبدُ الوَهَّابِ بنُ عليِّ بنِ نصرِ بنِ أحمدَ بنِ الحسينِ بنِ هارونَ بنِ مالكِ بنِ طَوْقٍ:، صاحبِ الرَّحْبةِ، التَّغْلِبيُّ البَغْداديُّ، أحَدُ أئمةِ المالكيةِ ومُصَنِّفيهم، له كتابُ «التَّلْقِين» يَحْفَظُه الطَّلَبَةُ، وله غيرُه في الفُروعِ والأصولِ، وقد أقام ببغدادَ دَهْرًا، وولِي قَضاءَ بادَرَايَا وباكُسايَا، ثم خرَج مِن بغدادَ لضِيقِ حالِه، فدخَل مصرَ، فأكرَمه المَغاربةُ، وأعْطَوْه ذهبًا كثيرًا، فتموَّلَ جدًّا، فأنْشأ يقولُ مُتَشَوِّقًا إلىٰ بغدادَ:

بِسَلامٌ على بغدادَ في كلِّ مَوْقِفٍ   وحُقَّ لها مني السلامُ مُضاعَفُ
فواللَّه ما فارقْتُها عن قِلًى لها   وإني بشَطَّيْ جانِبَيْها لَعارِفُ
ولكنَّها ضاقَت عليَّ بأسْرِها   ولم تَكُنِ الأرزاقُ فيها تُساعِفُ
فكانت كخِلٍّ كنتُ أهْوَى دُنُوَّه   وأخلاقُه تَنْأَى به وتُخالِفُ

قال الخطيبُ البغداديُّ: سمع القاضي عبدُ الوهَّابِ من ابنِ السَّمَّاك، وكتبْتُ عنه، وكان ثقةً، ولم تَرَ المالكيةُ أحدًا أفقهَ منه.

قال القاضي ابنُ خَلِّكانَ في «الوفيات» عنه: وعندمَا وصَل إلى الديارِ المصرية وحصَل له شيءٌ من المالِ، وحسُن حالُه، مرِض من أكلةٍ اشتَهاها، فذُكر عنه أنه كان يَتَقَلَّبُ ويقولُ: لا إلهَ إلا اللَّهُ عندَما عِشْنا مِتْنا. قال: وله أشعارٌ رائقةٌ طريفةٌ، فمن ذلك قولُه:

ونائمـــة قـــبَّلْتُـــهـــا فـــتَنَبَّـــهَت ... فـقـالت تَعـالَوْا واطلُبـوا اللِّصَّ بالحَـدِّ
فـقـلت لهـــا إني فـــدَيْتُك غـــاصبٌ ... ومـا حكَـمـوا في غـاصب بسـوى الرَّدِّ
خُـــذيهـــا وكُـــفِّي عن أثيم ظُلامَـــةً ... وإن أنت لـم تَرْضيْ فـــألـفًـــا علـى العَـــدِّ
فـقـالت قـصـاصٌ يَشْـهَـدُ العَـقلُ أنه ... علـى كـبـد الجـاني ألـذُّ من الشَّـهْـد
فـبـاتَت يَمـيني وهْيَ هـمـيـانُ خصـرِها ... وباتَت يَســاري وهْيَ واسطَةُ العـِقْـد
فـــقـــالت ألم أُخـــبَـــرْ بأنـك زاهدٌ ... فـــقـلتُ بلـى مـــا زلتُ أَزْهَدُ في الزُّهْدِ

ومما أنشَده ابنُ خَلِّكانَ للقاضي عبد الوهَّاب:

بغـــدادُ دارٌ لأهلِ المـالِ طَيِّـــبـــةٌ ... وللمَـــفـــاليس دارُ الضَّنْـك والضِّـيقِ
ظَلَلْتُ حَـيْـرانَ أمْـشي في أزِقَّـتـهـا ... كـأنـني مُـصـحـفٌ في بيت زِنْديق

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة

في سادسِ المُحَرَّم اسْتَسْقَى أهلُ بغدادَ لتَأَخُّرِ المطرِ عن أوانِه فلم يُسْقَوْا، وكثُر الموتُ في الناسِ.

ولما كان يومُ عاشوراءَ عمِلَت الرَّوافضُ البدعةَ الشنعاءَ، وكثُر النَّوْحُ والبُكاءُ، وامْتلأَت بذلك الطُّرُقاتُ والأسواقُ والأرجاءُ.

وفي صفرٍ أُمِر الناسُ بالخروجِ إلى الاستِسْقاءِ لقحوطِ الأمطارِ، فلم يَخْرُجْ من أهلِ بغدادَ باتِّساعِها مائةُ إنسانٍ في الجوامعِ كلِّها.

وفيها وقَع بينَ الجيشِ وبينَ جَلالِ الدولةِ، فاتَّفق الحالُ على خُروجِه إلى البصرةِ، فردَّ كثيرًا من جَواريه إلى أستاذهن قبلَه، واستَبْقَى بعضَهن معه، وخرَج من بغدادَ ليلةَ الإثنين سادسَ ربيعٍ الأولِ منها، وكتَب الغلمانُ الأسْفَهْسلاريَّةُ إلى الملكِ أبي كاليجارَ ليَقدَمَ عليهم، فلما قدِم تمهَّدت البلادُ، ولم يَبْقَ أحدٌ من أهلِ العنادِ والإلْحادِ، ونهَبوا دارَ جَلالِ الدولةِ وغيرَها، وتأخَّر مَجيءُ أبي كاليجارَ، وذلك أن وزيرَه العادلَ بنَ مافنَّةَ أشار عليه بعدمِ القُدومِ إلى بغدادَ، فكثُر العيَّارون ببغدادَ وتفاقَم الحالُ بهم، وفسَد البلدُ، وافتَقَر جَلالُ الدولةِ بحيث إنه احتاج إلى أن باع بعضَ ثيابِه في الأسواقِ، وجعَل

أبو كاليجارَ يتوَهَّمُ من الأتراك، ويَطْلُبُ منهم رَهائنَ، فلم يتَّفِقْ ذلك، وطال الفَصْلُ، فرجَعوا إلى مُكاتبة جَلال الدولة أن يَرْجِعَ إلى بلده، وشرَعوا في الاعتذار إليه، وخطَبوا له في البلد على عادته ثم رجَع بعدَ ثلاثٍ وأربعين ليلةً إلى بغدادَ، وأرْسَل الخليفةُ الرسلَ إلى الملك أبي كاليجارَ، وممن بعَث إليه القاضي أبو الحسن الماوَرْديُّ، يُسَلِّمُ عليه ويستَوْحِشُ منه، فدخلوا عليه وقد تحمَّل أمرًا عظيمًا، فسأَل أن يُلَقَّبَ بالسلطان المعظم مالك الأمم، فقال الماوَرديُّ: هذا لا يُمْكِنُ؛ لأنَّ السلطانَ المُعَظَّمَ الخليفةُ، وكذلك مالكُ الأمم. ثم اتَّفَقوا على تَلْقِيبِه بملك الدولة، فأرْسَل مع الماوَرديِّ تُحفًا عظيمةً؛ منها ألفُ ألف دينارٍ سابُوريَّةٍ، وغيرُ ذلك من الدراهم آلافٌ، وتحفٌ وألطافٌ، واجْتَمَع الجُندُ على طلَبِ أرزاقهم من الخليفة فتعَذَّر ذلك، فرامُوا أن يَقْطَعوا خطبتَه، فلم تُصَلَّ الجمعةُ في هذا الوقت، ثم خُطِب له من الجمعة القابلة، وتخبَّط البلدُ جدًّا وكثُر العَيَّارون.

ثم في ربيعٍ الآخِرِ من هذه السنة حلَف الخليفةُ لجَلال الدولة بخُلوصِ النية وصَفائها، وأنه على ما يُحبُّ من الصِّدْقِ وصَلاحِ النية والسَّريرة، ثم وقَع بينَهما بسببِ لعبِ جَلالِ الدولة وشُرْبِه النَّبيذَ وتَهَتُّكِه به، ثم اعتَذَر إلى الخليفة، واصْطَلَحا على فسادٍ.

وفي رجب غلَت الأسعارُ جدًّا ببَغدادَ وغيرِها من أراضي العراق، ولم يَحُجَّ أحدٌ منها.

وفي هذه السنة وقَع مُوتانٌ عظيمٌ ببلاد الهند وغَزْنَةَ وخُراسانَ وجُرْجانَ والرَّيِّ وأصْبَهانَ، خرَج منها في أدْنَى مدةٍ أربعون ألفَ جنازةٍ، وفي نواحي الجَبَلِ والمَوْصلِ وبغدادَ طرفٌ قويٌّ من ذلك بالجُدَريِّ، بحيث لم تَخْلُ دارٌ من مُصابٍ، واستَمَرَّ ذلك في حزيرانَ وتَمُّوزَ وآبَ وأيْلُولَ وتَشْرينَ الأول والثاني، وكان في الصيف أكثرَ منه في الخريف. قاله ابنُ الجَوْزيِّ في «المُنتظَم». وقد رأى رجلٌ في مَنامه من أهلِ أصْبَهانَ في هذه السنة مُناديًا يُنادي بصوتٍ جَهْوَريٍّ: يا أهلَ أصْبَهانَ، سكَت، نطَق، سكَت، نطَق. فانْتَبه الرجلُ مَذْعورًا، فلم يَدْرِ أحدٌ تأويلَها، حتى قيل ذلك لرجلٍ لبيبٍ فقال: احْذَروا يا أهلَ أصْبَهانَ، فإني قرأتُ في شعرِ أبي العَتاهية قولَه:

سكَت الدهرُ زمانًا عنهمُ ... ثم أبكاهم دمًا حينَ نَطَقْ

فما كان غيرُ قليلٍ حتى جاء الملكُ مسعودُ بنُ محمودِ بنُ سُبُكْتِكين، فقتَل منهم خلقًا كثيرًا، حتى قتَل الناسَ في الجوامع.

وفي هذه السنة ظفر الملكُ أبو كاليجارَ بالخادمِ صَنْدلٍ فقتلَه، وكان قد استَحْوَذ على مَمْلَكته، ولم يَبْقَ معه سوى الاسم، فاستَراح منه.

وفيها: مات ملكُ التركِ الكبيرُ صاحبُ بلادِ ما وراءَ النهرِ، واسمُه قدرخاه.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيانَ:

رَوْحُ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ، أبو زُرْعةَ الرازيُّ، قال الخطيبُ: سمع جَماعةً، وقَدِم علينا حاجًّا

فكتبتُ عنه، وكان صدوقًا فهمًا أديبًا، يتفقَّهُ على مذهب الشافعيّ، وولي قضاءَ أصبهانَ. قال: وبلغني أنه مات بالكرْخ سنةَ ثلاثٍ وعشرين وأربعمائةٍ.

عليُّ بنُ أحمدَ بن الحسنِ بنِ محمد بن نُعَيم، أبو الحسنِ البصريُّ، المعروفُ بالنُّعَيْميّ، الحافظُ الشاعرُ المتكلمُ الفقيهُ الشافعيُّ. قال البَرْقانيُّ: هو كاملٌ في كلِّ شيءٍ لولا بأوٌ فيه، وقد سمع على جَماعةٍ.

ومن شعرِه قولُه:

إذا أظمأتْكَ أكفُّ اللئامِ	كفَتْكَ القناعةُ شِبْعًا وريَّا
فكُنْ رجلاً رِجْلُه في الثرى	وهامةُ همَّتِه في الثُّريَّا
أبيًّا لنائلِ ذي ثروةٍ	تراه بما في يديهِ أبيَّا
فإنَّ إراقةَ ماءِ الحيا	ةِ دونَ إراقةِ ماءِ المُحَيَّا

محمدُ بنُ الطَّيِّبِ بن سعيدِ بن موسى، أبو بكرٍ الصَّبَّاغُ، حدَّث عن النَّجَّادِ وأبي بكرٍ الشافعيِّ، وكان صدوقًا، وقد حكَى الخطيبُ البغداديُّ أنه تزوَّج تسعَمائةِ امرأةٍ، وذكَر أنَّه تُوُفِّي عن خمسٍ وتسعين سنةً، رحِمه اللَّهُ تعالى.

عليُّ بنُ هلالٍ، الكاتبُ المشهورُ، ذكَر ابنُ خَلِّكانَ أنه تُوُفِّي في هذه السنةِ، وقيل: في سنةِ ثلاثَ عشْرةَ. كما قدَّمنا.

* * *

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وأربعمائة

فيها: تفاقَم الحالُ بأمرِ العَيَّارين، وتزايدَ أمْرُهم وأخْذُهم العمَلات، وقوِي أمرُ مُقَدَّمهم البُرْجُميِّ، وقتَل صاحبَ الشُّرطةِ غِيلةً، وتواترَت النَّهَباتُ في الليلِ والنهار، واحتفَظ الناسُ بدُورِهم وحرَسوها حتى دارَ الخليفةِ وسورَ البلد، وعظُم الخَطْبُ بهم جدًّا، وكان من شأنِ هذا البُرْجُميِّ أنَّه لا يُؤْذِي امرأةً، ولا يَأْخُذُ مما عليها شيئًا، وهذه مُروءةٌ في الظلم، فيُقال له كما قال الشاعرُ:

حَنانَيْك بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ

وفيها: أخَذ جَلالُ الدولةِ البصرةَ، وأرْسَل إليها ولدَه العزيزَ، فأقام بها الخُطْبةَ لأبيه، وقُطعت منها خُطْبةُ أبي كاليجارَ هذه السنةَ والتي بعدَها، ثم استُرْجِعَت من يدِ جلالِ الدولةِ، وأُخرِج منها ولدُه ورجَعت الخطبةُ لأبي كاليجارَ.

وفي هذه السنةِ ثارَت الأتراكُ بالملكِ جَلالِ الدولةِ؛ لتَأَخُّرِ أرْزاقِهم، وأخْرَجوه من داره، ورسَموا عليه في مسجِده، وأُخرِجَت حَرَيمُه، فذهَب في الليلِ إلى دارِ الشريفِ المُرْتضَى فنزَل بها، ثم اصْطَلَحَت الأتراكُ عليه، وحلَفوا له على السمعِ والطاعةِ، ورجَع إلى داره، وكثُرت العَيَّارون ببغدادَ، واسْتَطالوا على الناسِ ليلًا ونهارًا وسرًّا وجِهارًا. ولم يَحُجَّ أحدٌ من أهلِ العراقِ وخُراسان هذه السنةَ؛ لفَسادِ البلاد.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ الحسينِ بنِ أحمدَ، أبو الحسين: ، الواعظُ المعروفُ بابنِ السَّمَّاك، وُلِد سنةَ ثلاثين وثلاثمائةٍ، وسمع جعفرًا الخُلْديَّ وغيرَه، وكان يَعِظُ بجامعِ المنصورِ وجامعِ المهديِّ، ويَتَكَلَّمُ على طريقةِ التصوُّف، وقد تكلَّم بعضُ الأئمةِ فيه، ونسَب إليه الكذبَ. تُوُفِّي في هذه السنةِ عن أربعٍ وتسعين سنةً، ودُفِن ببابِ حربٍ، واللَّهُ تعالى أعلمُ.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وأربعمائة

فيها: غزا السلطانُ مسعودُ بنُ محمودِ بنِ سُبُكْتِكِين بلادَ الهند، وفتَح حصونًا كثيرةً، فكان من جملتِها أنه حاصَر قَلْعةً حصينةً، فخرَجَت من السُّورِ عَجوزٌ كبيرةٌ ساحرةٌ، وأخَذت مكْنَسةً فبَلَّتْها ورشَّتْها على ناحيةِ جيشِ المسلمين، فمرِض السلطانُ مسعودٌ تلك الليلةَ مرضًا شديدًا، فارْتَحل عن تلك القَلْعةِ، فلما اسْتَقل ذاهبًا عنها عُوفيَ عافيةً كاملةً، ورجَع إلى غَزْنَةَ سالمًا.

وفيها: تَوَلَّى البَساسيريُّ حمايةَ الجانبِ الغربيِّ من بغدادَ لَمّا تفاقَم أمرُ العَيَّارين وكثُر شرُّهم وفسادُهم.

وفيها: وَلِي سِنانُ بنُ سيفِ الدولةِ غريبِ بنِ محمدِ بنِ مَقْنٍ بعدَ وفاةِ أبيه، فقصَد عمَّه قِرْواشًا،

فاقرَّه وساعدَه على استقامة أموره.

وفيها: هلَك ملكُ الروم أرمانوسُ، فملكهم من بعده رجلٌ ليس من بيت مُلْكِهم، قد كان صيرَفيا في بعض الأحيان، إلا أنه من سُلالة الملك قُسْطَنْطِينَ باني المدينة التي لهم.

وفيها: كثُرت الزَّلازلُ بمصرَ والشام، فهدَمت شيئًا كثيرًا، ومات تحتَ الرَّدْم خلقٌ كثيرٌ، وانهدَم من الرَّمْلَة ثلثُها، وتقَطَّع جامعُها تقطيعًا، وخرَج أهلُها منها، فأقاموا ظاهرَها ثمانية أيام، ثم سكَن الحالُ فعادُوا إليها، وسقَط بعضُ حائط بيت المقدس، ووقَع من محْراب داودَ قطعةٌ كبيرةٌ، ومن مسجد إبراهيمَ قطعةٌ، وسلِمَت الحُجْرةُ، وسقَطَت منارةُ عَسْقلانَ، ورأسُ منارة غَزَّةَ، وسقَط نصفُ بُنْيان نابُلُسَ، وخُسف بقرية بإزائها وبأهلها وبقَرها وغنمها، وساخَت في الأرض، وكذلك قُرًى كثيرةٌ هنالك، ذكَره ابنُ الجوزيِّ.

وكان غَلاءٌ شديدٌ ببلاد إفريقيَّةَ، وعصفَت ريحٌ سَوْداءُ بنَصيبينَ، فألْقَتْ شيئًا كثيرًا من الأشجار كالتُّوت والجَوْز والعُنَّاب، واقْتَلَعَت قصرًا مَشيدًا بحجارة وآجُرٍّ وكلْس، ثم سقَط مطرٌ معه بَرَدٌ أمثالُ الأكُفِّ والزُّنود والأصابع، وجزَر البحرُ من تلك الناحية ثلاثةَ فَراسخَ، فذهبَ الناسُ خلفَ السمك، فرجَع الماءُ عليهم فهلَك خلقٌ كثيرٌ.

وفيها: كثُر الموتُ بالخَوانيق، حتى كان يُغْلَقُ البابُ على مَن في الدار، كلُّهم قد مات، وكان أكثرُ ذلك ببغدادَ، فمات من أهلها في شهر ذي الحِجَّة سبعون ألفًا.

وفيها: وقَعَت الفتنةُ بينَ السُّنَّة والرَّوافض حتى بينَ العَيَّارين من الفريقَيْن، ومَنَع ابنا الأصبهانيِّ - وهما مُقَدَّما عيَّاري أهل السُّنَّة - أهلَ الكَرْخ من وُرود ماء دِجْلَةَ، فضاق عليهم النِّطاقُ. وقُتِل ابنُ البُرْجُميِّ وأخوه في هذه السنة. ولم يَحُجَّ أحدٌ من أهل العراق.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمدِ بن أحمدَ بن غالب الحافظُ، أبو بكر، المعروفُ بالبَرْقانيِّ، وُلد سنةَ ستٍّ وثلاثين وثلاثمائة، سمِع الكثيرَ، ورحَل إلى البلاد، وجمَع كُتبًا كثيرةً جدًّا، وكان عالمًا بالقرآن والحديث والفقه والنحو، وله مُصنَّفاتٌ في الحديث حسنةٌ نافعةٌ. قال الأزهَريُّ: إذا مات البَرْقانيُّ ذَهَب هذا الشأنُ، وما رأيتُ أتقنَ منه. وقال غيرُه: ما رأيتُ أعبدَ منه في أهل الحديث. تُوُفِّي يومَ الخميس مُسْتَهَلَّ رجب، وصلَّى عليه أبو عليِّ بنُ أبي موسى الهاشميُّ، ودُفِن في مَقْبرة الجامع ببغدادَ، وقد أورَد له الحافظُ ابنُ عساكرَ من شعره قولَه:

أُعَلِّلُ نفسي بكَتْب الحديث ... وأحْمِلُ فيه لها المَوْعِدا
وأشْغَلُ نفسي بتَصْنيفه ... وتَخْريجه دائمًا سَرْمَدا
فطَوْرًا أُصنِّفُه في الشيوخ ... وطَوْرًا أُصنِّفُه مُسْنَدا
وأقْفُو البُخاريَّ فيما نحاه ... وصنَّفه جاهدًا مُجْهِدا

ومُسْلِمَ إذ كان زَيْنَ الأنام ... بتصنيفه مُسْلِمًا مُرْشِدا
وما ليَ فيه سوى أنني ... أراه هَوًى صادَفَ المَقْصِدا
وأرْجُو الثَّوابَ بكَتْبِ الصلاة ... على السيِّدِ المُصْطَفى أحْمَدا
وأسألُ ربِّي إلهَ العِبَا ... دِ جَرْيًا علَى ما به عَوَّدَا

أحمدُ بنُ محمد بن عبد الرحمن بن سعيد، أبو العباس الأبيوَرْديُّ: ، أحدُ أئمة الشافعية، من تلاميذِ الشيخ أبي حامدٍ الإسْفَرايينيِّ، كانت له حَلْقةٌ في جامع المنصور للفُتْيا، وكان يُدَرِّسُ في قَطيعة الربيع، ووَلِيَ الحكمَ ببغدادَ نيابةً عن ابن الأكْفانيِّ، وقد سمع الحديثَ، وكان حسَنَ الاعْتقاد، جميلَ الطَّريقة، فَصيحَ اللسان، صَبورًا على الفقر كاتمًا له، وكان يَقولُ الشعرَ الجيدَ، وكان كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]. تُوُفِّي في جُمادَىٰ الآخرة، ودُفن بمقبرة باب حرب.

أبو عليٍّ البَنْدَنِيجيُّ، الحسنُ بنُ عبد اللَّه بن يحيى، الشيخُ أبو عليٍّ البَنْدَنيجيُّ: ، أحدُ أئمة الشافعية، وتلميذُ أبي حامدٍ الإسفَرايينيِّ أيضًا، ولم يَكُنْ في أصحابه مثلُه، درَّس وأفْتَى وحكَم ببغدادَ، وكان دَيِّنًا وَرِعًا. تُوُفِّي في جُمادَىٰ الآخرة من هذه السنة أيضًا.

عبدُ الوَهَّاب بنُ عبد العزيز بن الحارث بن أسد، أبو الفَرَج التَّميميُّ: الفقيهُ الحَنْبليُّ الواعظُ، سمع من أبيه أثرًا مُسَلْسَلاً عن عليٍّ: الحَنَّانُ الذي يُقْبِلُ على مَن أعْرَض عنه، والمَنَّانُ الذي يَبْدأ بالنَّوال قبلَ السُّؤال. تُوُفِّي في ربيع الأول، ودُفن في مَقْبَرة أحمدَ بن حَنْبل.

غَريبُ بنُ محمد بن مَقْن سيفُ الدولة، أبو سنان: ، كان قد ضَرَب السِّكَّةَ باسمه، وكان مَلِكًا مُتَمكِّنًا في الدولة، وخَلَّف خمسمائة ألف دينار، وقام ابنُه سِنانٌ بعدَه، وتقَوَّىٰ بعمِّه قِرْواش، واستَقامت أمورُه به، تُوُفِّي بكَرْخ سابورَ عن سبعين سنةً.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وأربعمائة

في المُحَرَّم كثُر تَرَدُّدُ الأعراب في قطع الطريق إلى حَواشي بغدادَ وما حولَها، بحيث كانوا يَسْتَلِبون ما على النساء، ومَن أسَرُوه أخَذوا ما معه وطالَبوه بفِداء نفسه، واسْتَفْحَل أمرُ العَيَّارين ببغدادَ، وكثُرت شُرورُهم وإفسادُهم.

وفي مُسْتَهَلِّ صفَر زادَت دجلةُ بحيث ارْتَفَع الماءُ على الضِّياع ذراعين، وسقَط من البصرة في مدة ثلاثة أيام نحوٌ من ألفَي دار.

وفي شعبانَ منها وردَ كتابٌ من مسعود بن محمود بن سُبُكْتكين بأنه قد فتَح فتحًا عظيمًا في الهند، وقتَل منهم خمسين ألفًا، وأسر تسعين ألفًا، وغنم شيئًا كثيرًا. ولِلَّه الحمدُ والمِنَّةُ.

ووقَعت فتنةٌ بينَ أهل بغدادَ والعيَّارين، ووقَع حريقٌ كثيرٌ في أماكنَ مُتَعَدِّدةٍ منها، واتَّسع الخَرْقُ

على الراقع. ولم يحجَّ أحدٌ من هؤلاءِ ولا من أهلِ خُراسانَ في هذا العام.

وممن توفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ كُليبٍ الشاعرُ: أحدُ مَن هلَك بالعِشْقِ، روىٰ ابنُ الجوزيِّ في «المُنتظَم» بسنده من طريقِ أبي عبدِ اللَّه الحُميديِّ بسَنَدِه أن أحمدَ بنَ كُلَيبٍ هذا المسكينَ العَثْريَّ تَعَشَّق شابًا يقالُ له: أسلمُ بنُ أبي الجَعْد. من بني خالدٍ، وكان فيهم وزارةٌ وحِجَابَةٌ، فأنْشَد فيه أشعارًا تحدَّث الناسُ بها، وكان أسْلَمُ هذا يَطْلُبُ العلمَ في مَجالسِ المَشايخِ، فاستَحْيا من الناسِ وانْقَطَع في دارِه، فلا يَجْتَمعُ بأحدٍ من الناسِ، فازْدادَ غَرامُ ابنِ كُلَيبٍ به حتىٰ مرضَ من ذلك مَرَضًا شديدًا، عادَه الناسُ منه، وكان في جملةِ مَن عادَه، بعضُ المَشايخِ، فسأله عن مرضه فقال: أنتم تعْلَمون دائي ودَوائي، لو زَارَني أسْلَمُ ونظَر إليَّ نظرةً، ونظَرْتُه نظرةً واحدةً برِئْتُ، وإلا فأنا هالكٌ. فرأىٰ ذلك الشيخُ من المصلحة أن لو دخَل عليه وسأله أن يَزورَه ولو مرةً واحدةً مُخْتَفِيًا، ولم يَزَلْ به حتىٰ انْطَلَقا إليه، فلما دخَلا دَرْبَه تغيَّر الغلامُ واستَحْيا من الدخولِ عليه جدا، ورجَع، فحرَص به الرجلُ كلَّ الحِرْصِ ليُدْخِلَهُ عليه، فأبىٰ وانْصَرف فدخَل الرجلُ علىٰ ابنِ كُلَيبٍ، فذكَر له ما كان من أمْرِه، وقد كان غلامُه دخل إليه فبشَّره بقُدومِ أسْلَمَ عليه، ففرح جدًّا، فلما تحقَّق رُجوعَه اختَلَط كلامُه واضْطَرَب في نفسِه، ثم قال لذلك الرجلِ: اسْمَعْ يا أبا عبدِ اللَّه منِّي واحْفَظْ عني. ثم أنشَأ يقولُ:

أسْلَمُ يا راحةَ العَليلِ	رِفْقًا على الهائمِ النَّحيلِ
وَصْلُكَ أشْهَىٰ إلىٰ فُؤادي	مِن رحمةِ الخالقِ الجَليلِ

فقال له الرجلُ: اتَّقِ اللَّهَ، ما هذه العظيمةُ؟! فقال: قد كان. فخرَج الرجلُ من عندِه، فما توسَّط الدَّرْبَ حتىٰ سمع الصُّراخَ عليه، وقد فارَق الدنيا.

وهذه زَلَّةٌ شَنْعاءُ، وعَظيمةٌ صَلْعاءُ، وداهيةٌ دَهْياءُ، ولولا أنَّ هؤلاءِ الأئمةَ ذكَروها لما ذكَرْتُها، ولكن فيها عِبْرةٌ لأولي الألبابِ، وتَنبيهٌ لذَوِي العقولِ أن يَسْألوا اللَّهَ رحمتَه ولُطْفَه بهم أن يُثَبِّتَهم علىٰ الخيرِ والإسلامِ والسُّنَّةِ عندَ المماتِ، إنه كريمٌ جَوَادٌ.

قال الحُمَيْديُّ: وأنْشَدَني أبو محمدٍ عليُّ بنُ أحمدَ قال: أنْشَدَني محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ النَّحْوِيُّ لأحمدَ بنِ كُلَيبٍ، وقد أهْدَىٰ إلىٰ أسْلَمَ كتابَ «الفَصيح» لثعلب:

هذا كتابُ الفَصيحِ	بكلِّ لفظٍ مَليحِ
وهَبْتُه لك طَوْعًا	كما وهَبْتُك رُوحي

الحسنُ بنُ أحمدَ بنِ إبراهيمَ بنِ الحسنِ بنِ محمدِ بنِ شاذانَ بنِ حربِ بنِ مِهْرانَ، أبو عليِّ بنُ شاذانَ البزَّازُ: أحدُ مَشايخِ الحديثِ، سمع الكثيرَ، وكان ثقةً صَدوقًا، جاءه يومًا شابٌّ غريبٌ فقال له: إني رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ في المَنامِ، فقال لي: اذْهَبْ إلىٰ أبي عليِّ بنِ شاذانَ فسَلْ عنه، وأقْرِئْه

مني السلامَ. ثم انصرَف الشابُّ، فبكَى الشيخُ وقال: ما أَعْلَمُ لي عملاً أَستَحقُّ به هذا غيرَ صبري على إسْماعِ الحديثِ، وصَلاتي على رسولِ اللَّهِ ﷺ كلما ذُكِر. ثم تُوُفِّي بعدَ شهرين أو ثلاثةٍ من هذه الرُّؤْيا، في مُحَرَّمِ هذه السنة عن سبعٍ وثمانين سنةً، ودُفِن ببابِ الدَّيْرِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

الحسنُ بنُ عثمانَ بنِ أحمدَ بنِ الحسينِ بنِ سَوْرَةَ، أبو عمرَ الواعظُ المعروفُ بابنِ الفَلْوِ: سمع الحديثَ من جَماعةٍ. قال ابنُ الجَوْزيِّ: وكان يَعِظُ، وله بَلاغةٌ، وفيه كرمٌ، وكان ثِقةً يأمُرُ بالمعروفِ وينْهَى عن المُنْكرِ، ومِن شعرِه:

دخَلتُ على السلطانِ في دارِ عِزِّه ... بفقرٍ ولم أُجْلِبْ بخيلٍ ولا رَجْلِ
وقلتُ انظُروا ما بينَ فَقْرِي ومُلْكِكم ... بمقدارِ ما بينَ الولايةِ والعَزْلِ

تُوُفِّي في صفَرٍ، وقد قارَب الثمانين، ودُفِن بمقبرةِ بابِ حربٍ إلى جانبِ ابنِ السَّمَّاكِ.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وأربعمائة

في المُحَرَّمِ تكامَلَت عِمارةُ قَنْطَرةِ عيسى التي كانت قد سقَطَت، وكان الذي يَلي مُشارفةَ الإنفاقِ عليها الشيخُ أبو الحسينِ القُدُوريُّ الحَنَفيُّ.

وفيه وفيما بعدَه تفاقَم أمْرُ العَيَّارين، وكَبَسوا الدُّورَ، وتزايدَ شرُّهم وعَمَلاتُهم.

وفيها: تُوُفِّي صاحبُ مصرَ الظاهرُ لإعزازِ دينِ اللَّهِ أبو الحسنِ عليُّ بنُ الحاكمِ بنِ العزيزِ بنِ المعزِ الفاطميُّ، وله مِن العمرِ ثلاثٌ وثلاثون سنةً وأشهرٌ، وكانت مدةُ ولايَته ستَّ عشْرةَ سنةً وتسعةَ أشهرٍ، وكانت سيرتُه جيدةً، وقام بالأمرِ مِن بعدِه ولدُه المُسْتَنْصِرُ، وعمرُه سبعُ سنين، واسمُه مَعَدٌّ، وكنيتُه أبو تَميمٍ، وتكَفَّل بأعْباءِ المَمْلكةِ بينَ يديه الأفضلُ أميرُ الجُيوشِ، واسمُه بدرُ بنُ عبدِ اللَّهِ الجَمَاليُّ، وكان الظاهرُ المذكورُ قد استَوْزَر الصاحبَ أبا القاسمِ عليَّ بنَ أحمدَ الجَرْجَرائيَّ - وكان مَقْطوعَ اليدين من المِرْفَقين - في سنةِ ثماني عشْرةَ، فاستَمَرَّ في الوزارةِ مدةَ ولايةِ الظاهرِ، ثم لولدِه المُسْتَنصِرِ، حتى تُوُفِّي الوزيرُ الجَرْجَرائيُّ المذكورُ في سنةِ ستٍّ وثلاثين، وكان قد سلَك في وِزارتِه العِفَّةَ العظيمةَ، وكان الذي يُعَلِّمُ عنه القاضي أبو عبدِ اللَّهِ القُضَاعيُّ صاحبُ كتابِ «الشِّهابِ»، وكانت علامتَه عنه: الحمدُ للَّهِ شكرًا لنعمتِه. وكان الذي قطَع يديه من المِرْفقين الحاكمُ؛ لخيانةٍ ظهرَت منه في سنةِ أربعٍ وأربعمائةٍ، ثم استَعْمَلَه في بعضِ الأعمالِ سنةَ تسعٍ، فلما فُقِد الحاكمُ، لعنه اللَّهُ، في السابعِ والعشرين مِن شوالٍ سنةَ إحدى عشْرةَ ثم تملَّك من بعدِه ولدُه الظاهرُ المذكورُ، تنَقَّلَت بالجَرْجَرائيِّ المذكورِ الأحوالُ حتى استَوْزِر سنةَ ثماني عشْرةَ كما ذكَرْنا.

وقد هجاه بعضُ الشعراءِ فقال:

يا أحمقًا إسمعْ وقُلْ ... ودَعِ الرقاعةَ والتحامُقْ
أقمتَ نفسَكَ في الشقا ... ت وهَبْك فيما قلتَ صادقْ
فمن الأمانةِ والتُّقى ... قُطِعَتْ يداكَ من المرافقْ

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ محمدِ بنِ إبراهيمَ الثَّعالبيُّ[1]، ويقال: الثَّعْلبيُّ-وهو لقبٌ وليس بنِسْبةٍ-النَّيسابوريُّ المُفَسِّرُ المشهورُ، له «التَّفسيرُ الكبيرُ»، وله كتابُ «العَرائس» في قَصصِ الأنبياء، وغيرُ ذلك، وكان كثيرَ الحديثِ، واسعَ السَّماعِ؛ ولهذا يُوجَدُ في كتبِه مِن الغَرائبِ شيءٌ كثيرٌ. ذكَره عبدُ الغافرِ بنُ إسماعيلَ الفارسيُّ في «تاريخِ نَيْسابورَ»، وأثنَى عليه، وقال: هو صحيحُ النَّقْلِ مَوْثوقٌ به. تُوُفِّي سنةَ سبعٍ وعشرين وأربعمائةٍ. وقال غيرُه: تُوُفِّي يومَ الأربعاءِ لسبعٍ بقِين مِن المحرمِ منها، ورُئِيَتْ له مَناماتٌ صالحةٌ، وقال السَّمْعانيُّ: ونَيْسابورُ كانت مَقْصَبةً. فأمَر سابورُ الثاني ببنائِها مدينةً، و«نَيْ» هو القصبُ بالفارسيةِ. واللَّهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة ثمانٍ وعشرين وأربعمائة

فيها: خلَع الخليفةُ على أبي تَمَّامٍ محمدِ بنِ محمدِ بنِ عليٍّ الزَّيْنَبيِّ، وقلَّده ما كان إلى أبيه من نقابةِ العباسيين والصلاة.

وفيها: وقعَت الفُرْقةُ بينَ الجُنْدِ وبينَ جَلالِ الدولة، وقطَعوا خُطْبتَه وخطبةَ الملكِ أبي كاليجارَ، ثم أعادُوا الخُطبةَ لهما وصلَحت حالُ جلالِ الدولةِ وحلَف الخليفةُ له وعزلَ وزيرَه ابنَ ماكُولا واسْتَوْزَرَ أبا المعالي بنَ عبدِ الرحيم.

وكان جَلالُ الدولة قد جمَع خلقًا كثيرًا معه، منهم البَساسيريُّ، ودُبَيْسُ بنُ عليِّ بنِ مَزْيَدٍ، وقِرْواشُ بنُ مُقَلَّدٍ العُقَيليُّ، ونازَل بَغدادَ مِن جانبِها الغربيِّ حتى أخَذها قهرًا، واصْطَلَح هو وأبو كاليجارَ على يدي أقضَى القُضاةِ الماوَرْديِّ، وتزَوَّج أبو منصورِ بنُ أبي كاليجارَ بابنةِ جَلالِ الدولةِ على صَداقِ خمسين ألفَ دينارٍ، واتَّفَقَت كلمتُهما، وحسُن حالُ الدولة.

وفيها: نزَل مَطَرٌ ببلادِ فَمِ الصِّلْحِ، ومعه سمكٌ وزْنُ السمكةِ رَطلٌ ورَطْلان.

وفيها: بعَث صاحبُ مصرَ بمالٍ لِيُنْفَقَ على نهرٍ بالكوفة إن أذِن الخليفةُ العباسيُّ في ذلك، فجمَع القائمُ باللَّهِ الفُقهاءَ، وسأَلهم عن هذا المالِ، فأفْتَوْا بأن هذا المالَ فيءٌ للمسلمين، يُصْرَفُ في مصالحِهم، فأذِن في صرْفِه في مَصالحِ المسلمين.

وفيها: ثار العَيَّارون ببغدادَ، وفتَحوا السجنَ بالجانبِ الشرقيِّ، وأخَذوا منه رجالًا، وقتَلوا من

---

(١) ترجمته في «السير» (١٧/ ٤٣٥) وما بعدها.

رَجّالة الشُّرَط سبعة عشرَ رجلاً، وانْتَشَرَت الفتنُ والشُّرورُ في البلدِ جداً.

وفيها: وَلِي عبدُ اللّه بنُ الحسين بن سلامةَ إمارةَ تهامةَ بعد أبيه، وفيها وَلِي عُمانَ القاسمُ بنُ عليٍّ ابنِ الحسين بن مُكْرَم بعد وفاة أبيه أيضاً. ولم يَحجَّ أحدٌ من أهلِ العراقِ في هذه السنةِ؛ لفسادِ البلادِ واختلاف الكلمة.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

القُدُوري الحنفيُّ، أحمدُ بنُ محمد بن أحمدَ بن جعفر، أبو الحسين القُدُوريُّ:

قال الخطيبُ: سمعَ الحديثَ من عُبَيد اللّه بن محمد الحَوْشبيِّ، ولم يُحدِّثْ إلا بشيءٍ يسير، كتَبْتُ عنه، وكان صدوقًا، وكان ممن أَنْجَبَ في الفقه؛ لذكائه، وانتهت إليه في العراق رياسةُ أصحاب أبي حنيفةَ وارْتَفَع جاهُه. وكان بَرَّز في القراءات. تُوُفِّي يومَ الأحد الخامسَ من رجبٍ من هذه السنةِ عن ستٍّ وستين سنةً، ودُفن بداره في درب خلف، رحمه اللّهُ تعالى.

الحسنُ بنُ شهاب بن الحسن بن عليٍّ، أبو عليٍّ العُكْبَري، الفقيهُ الحَنْبليُّ الشاعرُ: وُلد سنةَ خمسٍ وثلاثين وثلاثمائة، سمع من أبي بكرِ بن مالكٍ وغيرِه، وكان ثقةً أمينًا، كما قال البَرْقانيُّ، وكان يَسْتَرْزِقُ من الوِراقةِ - وهو النَّسْخُ - يقالُ: إنه كان يَكْتُبُ ديوانَ المُتَنَبِّي في ثلاث ليالٍ، فيَبيعُه بمائتَيْ درهم.

ولما تُوُفِّي أخَذ السلطانُ من تَركته ألفَ دينارٍ سوى الأمْلاك، وكان قد أوْصَى بثلث ماله في نَفَقَةِ الحَنابلة، فلم يُصْرَفْ ذلك.

لُطْفُ اللّه بنُ أحمدَ بن عيسى، أبو الفضل الهاشميُّ: ولي القَضاءَ والخطابةَ بدَرْزيجانَ، وكان ذا لسانٍ، وقد أضرَّ في آخرِ عمره، وكان يَرْوِي حكاياتٍ وأناشيدَ من حفظه، وتُوُفِّي في صفرٍ منها.

محمدُ بنُ أحمدَ بن محمد بن أبي موسى عيسى بن أحمدَ بن موسى بن محمد بن إبراهيمَ بن عبد اللّه بن مَعْبَد بن العباسِ بن عبد المطلب، أبو عليٍّ الهاشميُّ: القاضي، أحدُ أئمة الحَنابلة.

محمدُ بنُ الحسن بن أحمدَ بن محمد بن موسى، أبو الحسن الأهْوازيُّ: ويُعْرَفُ بابنِ أبي عليٍّ الأصْبَهانيّ، وُلِد سنةَ خمسٍ وأربعينَ وثلاثمائة، وقدم بغدادَ، وخرَّج له أبو الحسنِ النُّعَيْميُّ أجْزاءً من حديثِه، فسمع منه البَرْقانيُّ، إلا أنه بان كذبُه، حتى كان بعضُهم يُسَمِّيه جرابَ الكذب. أقام ببغدادَ سبعَ سنين. ثم عاد إلى الأهْواز، فمات بها في هذه السنة.

مِهْيارُ الدَّيْلميُّ الشاعرُ، مِهْيارُ بنُ مَرْزَوَيْه، أبو الحسن: الكاتبُ الفارسيُّ، ويقالُ له: الدَّيْلَميُّ. كان مَجوسيًّا فأسْلَم، إلا أنه سلك سبيلَ الرافضة، فكان يَنْظِمُ الشعرَ القويَّ الفَحْلَ في شيء من مَذاهبِهم من سبِّ الصَّحابة وغير ذلك، حتى قال له أبو القاسم بنُ بُرْهانَ: يا مِهْيارُ، انْتَقَلْتَ من زاويةٍ في النار إلى زاويةٍ أخرى؛ كنتَ مجوسيًّا، فأسْلَمْتَ فصرْتَ تَسُبُّ الصحابةَ. وقد كان منزلُه بدرْبِ رَباحٍ من الكَرْخ، وله ديوانُ شعرٍ كبيرٌ مشهورٌ، فمنه قولُه:

أَسْتَنْجِدُ الصَّبْرَ فيكمْ وهْو مَغْلوبُ ... وأسألُ النَّومَ عنكم وهْو مَسْلوبُ
وأبْتَغي عندَكمْ قلبًا سَمَحْتُ به ... وكيف يَرْجِعُ شيءٌ وهْو مَوْهوبُ
ما كنتُ أَعْرِفُ ما مِقْدارُ وَصْلِكمُ ... حتى هجَرْتُمْ وبعضُ الهَجْرِ تأديبُ

ولمهيارَ أيضًا قولُه:

أجارتَنا بالغَوْرِ والرَّكْبُ مُتْهِمٌ ... أيَعْلَمُ خالٍ كيف باتَ المُتَيَّمُ
رحَلْتمُ وعُمْرُ الليلِ فينا وفيكمُ ... سواءٌ ولكنْ ساهرونَ ونُوَّمُ
بنا أنتمُ مِنْ ظاعنينَ وخَلَّفوا ... قلوبًا أبَتْ أن تَعْرِفَ الصبرَ عنهمُ
ولما جلا التوديعَ عمَّا حَذِرْتُه ... ولم يَبْقَ إلا نَظْرَةٌ تُتَغَنَّمُ
بكَيْتُ على الوادي فحرَّمْتُ ماءَه ... وكيف يَحِلُّ الماءُ أكثرُه دمُ

قال ابنُ الجوزيِّ: ولما كان شعرُه كلُّه جيدًا اقْتَصَرْتُ منه على هذا القَدْرِ.

وكانت وفاتُه في جُمادَىٰ الآخِرةِ.

هِبةُ اللَّهِ بنُ الحسنِ، أبو الحسينِ المعروفُ بالحاجبِ: كان مِن أهلِ الفضلِ والأدبِ والتديُّنِ، وله شعرٌ حسنٌ، فمنه قولُه:

يا ليلةً سلَكَ الزما ... نُ بطيبِها في كلِّ مَسْلَكْ
إذْ أرْتَعي رَوْضَ المسرَّ ... ةِ مُدْرِكًا ما ليس يُدْرَكْ
والبَدْرُ قد فَضَحَ الظلا ... مَ فسِتْرُه فيه مُهَتَّكْ
وكأنَّما زُهْرُ النُّجو ... مِ بلَمْعِها شُعَلٌ تُحَرَّكْ
والغَيْمُ أحيانًا يَلو ... حُ كأنَّه ثوبٌ مُمَسَّكْ
وكأنَّ تَجْعيدَ الريا ... حِ لدجلةٍ ثوبٌ مُفَرَّكْ
وكأنَّ نَشْرَ المِسْك يَنْـ ... فَحُ في النَّسيمِ إذا تَحَرَّكْ
وكأنَّما المنثورُ مُصْـ ... فَرُّ الذُّرا ذهبٌ مُشَبَّكْ
والنَّوْرُ يَبْسِمُ في الرِّيا ... ضِ فإنْ نَظَرْتَ إليه سَرَّكْ
شارطتُ نَفْسي أنْ أقُو ... مَ بحقِّها والشَّرْطُ أمْلَكْ
حتى تولَّى الليلُ مُنْـ ... هَزِمًا وجاءَ الصبحُ يَضْحَكْ
واهًا الفتى لو أنه ... في ظِلِّ طيبِ العَيْشِ يُتْرَكْ
والدهرُ يَحْسُبُ عُمْرَه ... فإذا أتاه الشيبُ فَذْلَكْ

وكانت وفاتُه في رمضانَ من هذه السنة، رحِمه اللَّهُ تعالىٰ.

أبو عليِّ بنُ سِينا، الطَّبيبُ الفَيْلَسوفُ، الحسينُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ سِينا[1]: الشيخُ الرئيسُ الذي كان

---

(١) ترجمته في «السير» (١٧/ ٥٣١).

نادرةً في زمانه، كان أبوه من أهلِ بَلْخَ، وانْتَقَل إلىٰ بُخارَىٰ، واشْتَغل بها ابنُ سينا، فقرأ القُرآنَ وأتقَن علومَه وهو ابنُ عشرٍ، وأتْقَن الحسابَ والجَبْرَ والمُقابلةَ و«إقْليدِسَ» و«المَجَسْطِي»، ثم اشْتَغل على أبي عبد اللَّه النَّاتليِّ الحكيم، فبرَع فيه، وفاق أهلَ زمانه، وتردَّد النَّاسُ إليه، واشْتَغلوا عليه، وهو ابنُ ستَّ عشْرةَ سنةً، وقد عالَج بعضَ الملوك السَّامانية، وهو الأميرُ نوحُ بنُ نصرٍ، فأعْطاه جائزةً سَنِيةً، وحكَّمه في خزانة كتبِه، فرأىٰ فيها من العَجائبِ، فيقال: إنه عزا بعضَ تلك الكتبِ إلىٰ نفسِه. وله في الإلَهيَّات والطَّبيعيات كتبٌ كثيرةٌ.

قال ابنُ خَلِّكانَ: له نحوٌ من مائة مُصنَّفٍ؛ صغارٍ وكبارٍ، منها «القانونُ»، و«الشِّفاء»، و«النَّجاةُ»، و«الإشاراتُ»، و«سلامانُ وإبْسالُ»، و«حيُّ بنُ يَقْظانَ» وغيرُ ذلك. قال: وكان من فَلاسفة الإسلام.

ثم أوْرَد له من الأشعار قصيدتَه التي يَقولُ فيها:

هبَطَتْ إليك من المحلِّ الأرْفَعِ ... ورْقاءُ ذاتُ تَعزُّزٍ وتَمنُّعِ
محْجوبةٌ عن كلِّ مُقْلَةِ عارفٍ ... وهي التي سفَرَت فلم تَتَبَرْقَعِ
وصَلَتْ على كُرْهٍ إليك وربما ... كَرِهَتْ فِراقَك وهْي ذاتُ تَفَجُّعِ

وهي طويلةٌ. وقولُه أيضًا:

اجْعَلْ غِذاءَك كلَّ يومٍ مرَّةً ... واحْذَرْ طَعامًا قبلَ هَضْمِ طعامِ
واحْفَظْ مَنِيَّك ما اسْتَطَعْتَ فإنه ... ماءُ الحياةِ يُراقُ في الأرْحامِ

وذكَر أنه مات بالقُولَنْجِ في هَمَذانَ. وقيل: بأصْبَهانَ. والأولُ أصحُّ. يومَ الجمعةِ في شهرِ رمضانَ سنةَ ثمانٍ وعشرين وأربعمائةٍ، عن ثمانٍ وخمسين سنةً.

قلتُ: وقد لَخَّص الغَزَاليُّ كلامَه في «مَقاصد الفَلاسفة»، ثم ردَّ عليه في «تَهافُت الفَلاسفة» في عشرين مسألةً، كفَّره في ثلاث مسائلَ منهن؛ وهي قولُه بقِدَم العالم، وعدمِ المَعاد الجُسْمانيِّ، وأن اللَّهَ لا يَعْلَمُ الجُزئياتِ، وبدَّعه في البَواقي، ويُقالُ: إنه تاب عندَ الموت. فاللَّهُ سبحانه وتعالىٰ أعلمُ.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وأربعمائة

فيها: بُدُوُّ مُلْك السَّلاجقة.

وفيها: استَوْلىٰ رُكْنُ الدولة أبو طالب طُغْرُلْبَك محمدُ بنُ ميكائيلَ بنِ سَلْجُوقَ علىٰ نَيْسابورَ، وجلَس علىٰ سَريرِ مُلْكِها، وبعَث أخاه داودَ إلىٰ سائرِ بلادِ خُراسانَ، فملَكها وانْتَزعها من نُوَّابِ الملكِ مسعودِ بنِ محمودِ بنِ سُبُكْتِكِين.

وفيها: قَتَلَ جيشُ المصريين لصاحبِ حَلَبَ، وهو شِبْلُ الدولةِ نصرُ بنُ صالحِ بنِ مِرْداسٍ، واستَوْلَوا علىٰ حلبَ وأعمالِها.

وفيها: سأل جَلالُ الدولة الخليفةَ أن يُلَقَّبَ بملك الدولة، فأجابه إلى ذلك بعدَ تَمنّعٍ.

وفيهـا: استَدْعى الخليفةُ القائمُ بأمر اللَّه القُضاةَ والفُقهاءَ، وأحْضَرَ جاثَليقَ النَّصارَىٰ ورأسَ جالوت اليهود، وأُلزموا بالغيار.

وفي رمضانَ لُقِّب جَلالُ الدولة شاهنْشاه الأعظمَ ملكَ الملوك بأمرِ الخليفة، وخُطب بذلك على المَنابر، فنفرَت العامَّةُ من ذلك، ورَمَوُا الخُطباءَ بالآجُرِّ، ووقَعَت فتنةٌ بسبب ذلك، واستُفْتي الفقهاءُ في ذلك، فأفتَىٰ أبو عبد اللَّه الصَّيْمَريُّ أن هذه الأسماءَ يُعْتَبَرُ فيها القصدُ والنيةُ، وقد قال اللَّهُ تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ [البقرة:٢٤٧]. وقال: ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ ﴾ [الكهف:٧٩] وإذا كان في الأرض ملوكٌ جاز أن يكونَ بعضُهم فوقَ بعضٍ؛ لتفاضلهم في القوة والإمكان، وجاز أن يكون بعضُهم أعْظمَ من بعضٍ، وليس في ذلك ما يُوجِبُ التَّكَبُّرَ ولا المُماثَلةَ بينَ الخالقِ والمخلوقين.

وكتب القـاضي أبو الطيب الطَّبَريُّ: إن إطلاقَ ملك الملوك جائزٌ، ويكونُ معناه ملكَ مُلوك الأرض، وإذا جاز أن يقالَ: كافي الكُفاة وقاضي القُضاة. جاز ملكُ الملوك. وإذا كان في اللفظ ما يَدُلُّ على أن المرادَ به مُلوكُ الأرض زالت الشُّبْهةُ، ومنه قولُهم: اللَّهم أصْلِح المَلِكَ. فيُصْرَف الكلامُ إلى المخلوقين، وكتَب التَّميميُّ الحَنْبليُّ نحوَ ذلك أيضًا، وأما القاضي الماوَرْديُّ صاحبُ «الحاوي الكبير» فَنُقِل عنه أنه أجاز ذلك أيضًا، والمشهورُ عنه ما نقلَه ابنُ الجوزيّ والشيخُ أبو عمرو بنُ الصَّلاح في «أدب المُفْتي» أنه منَع من ذلك، وأصرَّ على المنع، مع صُحْبته للملك جَلال الدولة، وكَثْرة تَرْداده إليه، ووجاهته عندَه، وأنه امْتنَع من الحُضور في مجلسه حتى استَدْعاه جَلالُ الدولة في يوم عيدٍ، فلما دخَل عليه، دخَل وهو وَجِلٌ خائفٌ أن يُوقِعَ به مكروهًا، فلما واجَهَه قال له: قد علمْتُ أنه إنما منَعَك من مُوافقة الذين جوَّزوا ذلك، مع صُحْبتك إياي ووَجاهتك عندي، دينُك واتِّباعُك الحقَّ، ولو حابَيْتَ أحدًا من الناس لحابَيْتَني، وقد زادك ذلك عندي محبّةً ومكانةً.

قلتُ: والذي صار إليه القاضي الماوَرْديُّ من المنع من ذلك هو السنةُ التي ورَدَت بها الأحاديثُ الصَّحيحةُ من غير وجهٍ؛ قال الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «مسنده»: حدَّثنا سفيانُ بنُ عُيَيْنةَ، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أخْنَعُ اسم عندَ اللَّه يومَ القيامة رجلٌ تسمَّى بملك الأمْلاك» قال أحمدُ: سألْتُ أبا عمرو الشَّيْبانيَّ عن «أخْنَعُ اسم» قال: أوْضَعُ. وقد رواه البخاريُّ[1] عن عليِّ بنِ المَدينيِّ، عن سفيانَ بنِ عُيَيْنةَ، وأخْرَجه مسلمٌ من طريق همَّام، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أغيظُ رجل على اللَّه يومَ القيامة وأخْبثُه رجلٌ تسمَّى بملك الأمْلاك، لا مَلِكَ إلا اللَّهُ عز وجل». وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثني محمدُ بنُ جعفرٍ، حدَّثنا عَوْفٌ، عن خِلاسٍ، عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «اشْتَدَّ غضبُ اللَّه على مَن قتَله نبيُّه، واشْتَدَّ غضبُ اللَّه على

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٢٠٦) ومسلم (٢١٤٣) وأحمد (٢/ ٢٤٤) بالإسانيد التي ذكرها المؤلف.

رجل تسمَّى بملك الأملاك، لا ملكَ إلا اللَّهُ عز وجل»[1]، واللَّهُ تعالى أعلمُ بالصواب.

ومِمَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

الثَّعالبيُّ، صاحبُ «يتيمةَ الدَّهر» أبو منصور عبدُ الملك بنُ محمد بن إسماعيلَ الثَّعالبيُّ النَّيسابوريُّ، كان إمامًا في اللغة والأخبار وأيام النَّاس، بارعًا مُفيدًا، له التَّصانيفُ الكبارُ في النَّظم والنَّثر والبَلاغة والفَصاحة، وأكبرُ كتبه «يتيمةُ الدهر في محاسن أهل العصر». وفيها يقولُ بعضُهم:

أبياتُ أشعارِ اليتيمهْ	أبكارُ أفكارٍ قديمهْ
ماتوا وعاشَت بعدَهم	فلذاك سُمِّيت اليتيمهْ

وإنَّما سُمِّي الثَّعالبيَّ؛ لأنه كان فرَّاءً يَخيطُ جلودَ الثَّعالب، وله أشعارٌ كثيرةٌ مَليحةٌ، وُلد سنةَ خمسين وثلاثمائة، ومات في هذه السنة.

الأستاذُ أبو منصور عبدُ القاهر بنُ طاهر بن محمد البغداديُّ، الفَقيهُ الشافعيُّ، أحد الأئمة في الأصول والفروع، وكان ماهرًا في فُنون كثيرة، منها علمُ الحساب والفَرائض، وكان ذا مال وثَروة، أنفقه كلَّه على أهل العلم، وصنَّف في العلوم، ودرَّس في سبعةَ عشَرَ علمًا، وكان اشتغالُه على الأستاذ أبي إسحاقَ الإسْفَرايينيِّ، وأخذ عنه ناصرٌ المَرْوَزيُّ وغيرُه.

ثم دخلت سنة ثلاثين وأربعمائة من الهجرة النبوية

فيها: التَقَى الملكُ مسعودُ بنُ محمودِ بنُ سُبُكْتكين والملكُ طُغْرُلْبَك السَّلْجوقيُّ ومعه أخوه داودُ في شعبانَ، فهزمَهما مسعودٌ، وقتَل من أصحابهما خلقًا كثيرًا.

وفي هذه السنة: خطَبَ شَبيبُ بنُ وثَّاب للقائم بأمر اللَّه بحَرَّانَ والرَّقَّة وقطَع خُطبةَ المستنصر العُبَيديِّ.

وفيها: خُوطب أبو منصور بنُ جَلال الدولة بالملك العزيز، وهو مُقيمٌ بواسط، وهذا العزيزُ هو الذي كان آخرَ مَن تملَّك من بني بُوَيْه ببغدادَ، لمَّا طغَوا وبغَوا وتمرَّدوا وتسمَّوا بملك الأملاك، وهو اسمٌ يُبْغضُه اللَّهُ، فسلَبهم ما كان أنعَم به عليهم، وجعَل المُلْكَ إلى غيرهم، قال اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وفيها: خلَع الخليفةُ على قاضي القضاة أبي عبد اللَّه بن ماكُولا خلْعةَ تَشْريف.

وفيها: وقَع ثلجٌ عظيمٌ ببغدادَ مقْدارَ شبْر على الأسطحة حتى جرفَه الناسُ.

قال ابنُ الجَوزيِّ: وفي جُمادَى الآخرة ملَك بنو سَلْجُوقَ بلادَ خُراسانَ والجبلَ، وتقسَّموا الأطرافَ، وهو أولُ مُلك السَّلْجُوقية.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٣٩٢) بهذا الإسناد وهو منقطع بين خلاس وأبي هريرة ولكن قد تابع محمد بن سيرين خلاسًا كما عند «الحاكم» (٤/ ٢٧٥) ويشهد لشطره الأخير ما سبق قبله.

ولم يَحُجَّ أحدٌ في هذه السنةِ من أهلِ العراقِ وخُراسانَ، ولا من الشام ومصرَ إلا القليلُ.

وممن تُوفِّي فيها من الأعْيان:

الحافظُ أبو نُعَيم الأصْبَهانيُّ، أحمدُ بنُ عبد اللَّه بن أحمدَ بن إسحاقَ بن موسى بن مِهْران، أبو نُعَيم الأصْبَهانيُّ: الحافظُ الكبيرُ ذو التَّصانيفِ المُفيدة الكثيرة الشَّهيرة، من ذلك «حِلْيةُ الأَوْلياء» في مُجَلَّداتٍ كثيرةٍ، دلَّت على اتِّساعِ روايته، وكثرةِ مَشايخه، وقوةِ اطِّلاعه على مَخارج الأحاديث، وتَشَعُّبِ طرقِها، وله «مُعْجَمُ الصَّحابة»، وهو عندي بخطِّه، وله «صفةُ الجنة»، و«دلائلُ النبوة»، وكتابٌ في الطِّبِّ، وغيرُ ذلك من المصنَّفات المفيدة.

وقد قال الحافظُ أبو بكرٍ الخطيبُ البَغْداديُّ: كان أبو نُعَيْم يَخْلِطُ المَسْموعَ له بالمُجاز، ولا يُوَضِّحُ أحدَهما من الآخَر.

وقال عبدُ العزيزِ النَّخْشَبيُّ: لم يَسْمَعْ أبو نُعَيْم «مسندَ الحارثِ بنِ أبي أسامةَ» من أبي بكرِ بنِ خَلاَّدٍ بتَمامِه، فحدَّث به كلِّه.

وقال الشيخُ أبو الفرجِ بنُ الجَوْزيِّ: سمع الكثيرَ، وصنَّف الكثيرَ، وكان يَميلُ إلى مذهبِ الأشْعريِّ مَيْلاً كثيرًا. وكانت وفاتُه في الثامن عشرَ من المُحَرَّم منها، عن أربعٍ وتسعين سنةً، رحمه اللَّهُ؛ لأنه وُلد فيما ذكَره القاضي ابنُ خَلِّكانَ في سنة ستٍّ وثلاثين وثلاثمائة، قال: وله «تاريخُ أصْبَهانَ». وذكَر أبو نُعَيم في ترجمةِ والده أن مِهْرانَ أسْلَمَ، وأن ولاءَهم لعبدِ اللَّه بنِ مُعاويةَ ابنِ عبدِ اللَّه بنِ جعفرِ بنِ أبي طالب. وذكَر أن معنى أصْبَهانَ ـ وأصلُه بالفارسيةِ سباهان ـ أي مَجْمعُ العَساكر، وأن إسْكَنْدرَ بناها، قاله السَّمْعانيُّ.

الحسنُ بنُ الحسين، أبو عليٍّ الرُّخَّجِيُّ: ، وزَر لشرفِ الدولة بنِ عليِّ بنِ بهاء الدولة سنتين ثم عُزِلَ، وكان عظيمَ الجاهِ في زمانِ عطلته، وهو الذي بنَى المارَسْتانَ بواسطٍ، ورتَّب فيه الأشْربةَ والأطِبَّاءَ والأدْويةَ وغيرَ ذلك مما يحتاجُ إليه، ووقَف عليه كِفايتَه، جزاه اللَّهُ خيرًا، وكانت وفاتُه في هذه السنة وقد قارَب الثمانين، رحمه اللَّهُ تعالى.

الحسنُ بنُ حفص، أبو الفتوحِ العلويُّ، أميرُ مكةَ الحسينُ بنُ محمد بنِ الحسن بن عليٍّ، أبو عبد اللَّه المُؤَدِّبُ، وهو أخو أبي محمد، الخَلاَّل: ، سمع «صحيحَ البُخاريِّ» من إسماعيلَ بنِ محمدٍ الكُشْمِيهَنيِّ، وسمع غيرَه. تُوُفِّي في جُمادَى الأولى، ودُفِن بباب حرب.

عبدُ الملك بنُ محمد بن عبد اللَّه بن محمد بن بِشْرانَ: بنِ مِهْرانَ، أبو القاسم الواعظُ، سمع النَّجَّادَ ودَعْلَجَ بنَ أحمدَ والآجُرِّيَّ وغيرَهم، وكان ثقةً صَدوقًا، وكان يَشْهَدُ عندَ الحكام، فترَك ذلك رَغْبةً عنه، ومات في ربيعٍ الآخِرِ من هذه السنة وقد جاوَز التسعين، وصُلِّي عليه في جامع الرُّصافة، وكان الجَمْعُ حافلاً، ودُفِن إلى جانب أبي طالبٍ المكيِّ، وكان أوْصَى بذلك.

محمدُ بنُ الحسينِ بن خلف بنِ الفَرَّاء، أبو خازم: أخو القاضي أبي يَعْلَى، الحَنْبَليُّ، سمع

الدارَقُطْنيَّ وابنَ شاهينَ. قال الخطيبُ: كان لا بأسَ به، ورأيتُ له أُصولاً سَماعُه فيها، ثم بلَغَنا أنه خلَط في الحديثِ بمصرَ، واشْتَرَىٰ مِن الورَّاقين صُحُفًا فروَىٰ منها، وكان يَذْهَبُ إلىٰ الاعْتزالِ. وكانت وفاتُه في المحرَّمِ مِن هذه السنة بتِنِّيسَ مِن بلادِ مصرَ.

محمدُ بنُ عبيد اللَّه: أبو بكرٍ الدِّينَوَرِيُّ الزاهدُ، كان خشِنَ العيشِ وكان ابنُ القَزْوِينيِّ يُثْني عليه، وكان جَلالُ الدَّولةِ صاحبُ بغدادَ يَزُورُه، وقد سأَله مرةً أن يُطْلِقَ للناسِ مَكْسَ المِلْحِ، وكان في السنةِ ألْفي دينارٍ، فتركَه مِن أجْلِه، ولما تُوُفِّي اجْتَمَع أهلُ البلدِ لجنازتِه، وصُلِّي عليه مراتٍ، ودُفِن ببابِ حربٍ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

الفضلُ بنُ منصورٍ، أبو الرِّضا، ويُعْرَفُ بابنِ الظَّريفِ، وكان شاعرًا ظَرِيفًا، ومن شعرِه الفائقِ ونَظْمِه الرائقِ قولُه:

يا قالَةَ الشعرِ قد نصَحْتُ لكم ... ولستُ أُذْهَى إلا من النُّصْحِ
قد ذهَب الدهرُ بالكرامِ وفي ... ذاك أُمورٌ طويلَةُ الشَّرْحِ
وتَطلُبون النَّوالَ مِن رجلٍ ... قد طُبِعَت نفسُه على الشُّحِّ
وأنتم تَمْدَحون بالحُسْنِ والـ ... ظَّرْف وُجوهًا في غايةِ القُبْحِ
مِن أجلِ ذا تُحْرَمونَ رزقَكمُ ... لأنكمْ تَكْذِبون في المَدْحِ
صُونوا القَوافي فما أَرَى أحدًا ... يَغْتَرُّ فيه الرَّجَاءُ بالنُّجْحِ
فإن شكَكْتمْ فيما أَقولُ لكمْ ... فكذِّبوني بواحدٍ سَمْحِ

هبةُ اللَّه بنُ عليِّ بنِ جعفرٍ، أبو القاسمِ بنُ ماكُولاَ:، وزَر لجَلالِ الدولةِ مِرارًا، وكان حافظًا للقرآنِ، عارفًا بالشِّعرِ والأخْبارِ، خُنِق بهِيتَ في جُمادَىٰ الآخرةِ مِن هذه السنة.

أبو زيد الدَّبُّوسيُّ، عبدُ اللَّه بنُ عمرَ بنِ عيسى:، الفَقيهُ الحَنَفيُّ، أوَّلُ مَن وضَع علمَ الخلافِ، وأبرزَه إلىٰ الوُجودِ. قاله ابنُ خَلِّكانَ، قال: وكان يُضْرَبُ به المَثَلُ، والدَّبُّوسيُّ: نِسبةٌ إلىٰ قريةٍ مِن أعمالِ بُخارَىٰ. قال: وله كتابُ «الأسْرارِ» و«تَقْويمِ الأدلةِ». وغيرُ ذلك مِن التَّصانيفِ والتَّعاليقِ. قال: ورُوِي أنه ناظَر الفقهاءَ فبقِي بعضُهم كلما ألْزَمه أبو زيدٍ إلزامًا تبَسَّم أو ضحك، فأنْشَد أبو زيدٍ:

ما لي إذا ألْزَمْتُه حُجَّةً ... قابَلَني بالضِّحْك والقَهْقَهَهْ
إن كان ضِحْكُ المَرْءِ مِن فِقْهِه ... فالدُّبُّ في الصَّحْراءِ ما أَفْقَهَهْ

الحَوْفيُّ صاحبُ «إعْرابِ القرآن» أبو الحسنِ عليُّ بنُ إبراهيمَ بنِ سعيدِ بنِ يوسُفَ الحَوْفيُّ النَّحْوي: ، له كتابٌ في النَّحوِ كبيرٌ، و«إعرابُ القرآنِ» في عشرِ مُجلَّداتٍ، وله «تَفْسيرُ القرآن» أيضًا، وكان إمامًا في العربيةِ والنحوِ والأدبِ، وله تَصانيفُ كثيرةٌ انْتَفَع الناسُ بها، قال ابنُ خَلِّكانَ: والحَوْفيُّ: نِسبةٌ إلىٰ ناحيةٍ بمصرَ يقالُ لها: الشَّرْقيَّةُ. وقَصَبَتُها مدينةُ بُلْبَيْسَ، فجميعُ ريفِها يُسَمَّوْن الحَوْفَ، واحدُهم حَوْفيٌّ، وهو مِن قريةٍ يقالُ لها: شَبْرَا اللنجةِ مِن أعمالِ الشَّرْقِيَّةِ المذكورةِ، رحِمه اللَّهُ تعالىٰ وإيَّانا بمنِّه ورحمتِه، آمين.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة

فيها: زادت دجْلةُ زيادةً عظيمةً بحيث حملَت الجسْرَ ومَن عليه، فألقتْهم بأسفلِ البلدِ وسلموا.

وفيها: وقَع بينَ الجُندِ وبينَ الملكِ جَلالِ الدولة شَغَبٌ، وقُتِل مِن الفريقَيْن خَلْقٌ كثيرٌ، وجرَت شُرورٌ طويلةٌ وفَسادٌ عَريضٌ، واتَّسع الخَرْقُ على الرَّاقعِ، ونَهَبتْ الأتراكُ دُورَ الناسِ، ولم يَبْقَ للمَلكِ عندَهم حُرْمةٌ ولا كلمةٌ، وغلَت الأسعارُ ببغدادَ جدًّا.

وفيها: بعَث الملكُ أبو كاليجارَ وزيرَه العادلَ بنَ مافَنَّةَ إلى البصرةِ، فملَكها له. وفيها زار الملكُ أبو طاهرٍ مشهدَ عليٍّ ومشهدَ الحسينِ، ومشى حافيًا في بعضِ تلك الزياراتِ، ولم يحجَّ أحدٌ مِن أهلِ العراقِ، في هذه السنة.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

إسماعيلُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ اللَّه، أبو عبدِ الرحمنِ الضَّريرُ الحِيريُّ، مِن أهلِ نَيْسابورَ، كان مِن أعيانِ الفضلاءِ الأذكياءِ، والثِّقاتِ الأُمَناءِ، قَدِم بغدادَ حاجًّا في سنةِ ثلاثٍ وعشرين وأربعمائةٍ، فقرأ عليه الخطيبُ البغداديُّ جميعَ «صَحيحِ البُخاريِّ» في ثلاثةِ مَجالسَ بروايتِه عن أبي الهَيْثمِ الكُشْمِيهَنيِّ، عن الفِرَبْريِّ، عن البُخاريِّ، وكانت وفاتُه في هذه السنةِ، وقد جاوَز السبعين، رحِمه اللَّهُ تعالى.

بُشْرَى الفاتنيُّ، وهو بُشْرَى بنُ مَسِيسَ، مِن سَبْيِ الرومِ، أهْداه بعضُ أُمراءِ بني حَمْدانَ لفاتنَ غُلامِ المُطيعِ، فأدَّبه، وسمِع الحديثَ عن جَماعةٍ مِن المَشايخِ، وروَى عنه الخطيبُ، وقال: كان صَدوقًا صالحًا دَيِّنًا. وكانت وفاتُه يومَ عيدِ الفطرِ، رَحِمه اللَّهُ تعالى.

محمدُ بنُ عليِّ بنِ أحمدَ بنِ يعقوبَ بنِ مَرْوانَ، أبو العَلاءِ الواسطيُّ، وأصلُه مِن فَمِ الصِّلْحِ، سمِع الحديثَ، وقرأ القراءاتِ ورَواها، وقد تكلَّموا في روايتِه في القراءاتِ والحديثِ. فاللَّهُ أعلمُ. وكانت وفاتُه في جُمادَى الآخرةِ مِن هذه السنةِ وقد جاوَز الثمانين، واللَّهُ تعالى أعلمُ.

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين وأربعمائة

فيها: عظُم شأنُ السَّلْجُوقيةِ، وارْتَفَع شأنُ مَلكِهم طُغْرُلْبَك محمدٍ وأخيه جَغْريبَك داودَ، وهما ابنا ميكائيلَ بنِ سَلْجُوقَ بنِ دُقاقَ، وقد كان جدُّهم دُقاقُ هذا مِن مَشايخِ التُّرْكِ القُدَماءِ الذين لهم الرأيُ والمكيدةُ والمَكانةُ عند ملكِهم الأعظمِ، ونشَأ ولدُه سَلْجُوقُ نَجيبًا شَهْمًا، فقدَّمه الملكُ ولقَّبه سُباشي، فأطاعَتْه الجُيوشُ، وانقادتْ له الناسُ بحيث تخوَّف منه الملكُ، وأراد قتلَه، فهرَب منه إلى بلادِ المسلمين، فأسْلَم فازْداد عِزًّا وعُلُوًّا، ثم تُوُفِّي عن مائةٍ وسبعِ سنينَ، وخلَّف أرْسَلانَ وميكائيلَ وموسى، فأما ميكائيلُ فإنه اعْتَنى بقتالِ الكفارِ مِن الأتراكِ، حتى قُتِل شَهيدًا، وخلَّف ولدَيه طُغْرُلْبَك محمدًا، وجَغْريبَك داودَ، فعظُم شأنُهما في بني عمِّهما، واجْتَمع عليهما التركُ مِن المؤمنين، وهم

تركُ الإيمانِ الذين يقالُ لهم اليومَ: تُرْكُمان. وهم السَّلاجقةُ بنو سَلْجُوقَ جَدِّهم هذا، ففتَحوا بلادَ خُراسانَ بكَمالِها بعدَ موتِ محمودِ بنِ سُبُكْتِكِين، فقد كان يَتَخَوَّفُ منهم الملكُ محمودٌ بعضَ التَّخوُّفِ، فلما تُوُفِّي وقام ولدُه مسعودٌ مِن بعدِه قاتلهم وقاتَلوه مِرارًا، فيَهزِمونه في أكثرِ المَواقِفِ، واستُكْمِلَ لهم مُلْكُ خُراسانَ بأسْرِها، ثم قصَدهم مسعودٌ في جُنودٍ يَضِيقُ بهم الفَضاءُ فكسَروه فيها، وكَبَسه مرةً داودُ، فانْهَزَم منه مسعودٌ، فاستَحْوذ على حَواصلِه وخيامِه، وجلَس على سَريرِه، وفرَّق الغَنائمَ، ومكَث جيشُه على خيولِهم ثلاثةَ أيامٍ، لا يَنْزِلون عنها؛ خوفًا مِن دُهْمةِ العدوِّ، وبمثلِ هذا الاحتراسِ تمَّ لهم ما رامُوه، وكمَل جميعُ ما أمَّلوه، ثم كان مِن سَعادتِهم أن الملكَ مسعودًا توَجَّه نحوَ بلادِ الهند ليُشتِّيَ بها، وترَك مع ولدِه مَوْدودٍ جيشًا كثيفًا بسببِ قتالِ السَّلاجقةِ، فلما عبَر الجِسْرَ الذي على سَيْحُونَ نهَبَت جنوده حَواصلَه، واجْتَمَعوا على أخيه محمدٍ، وخلَعوا مسعودًا، فرجَع إليهم مسعودٌ، فقاتَلهم فهزَموه وأسَروه، فقال له أخوه: واللَّهِ لأقاتلنّك على سوءِ صَنيعِك إليَّ، ولكن اخْتَرْ لنفسك أيَّ بلدٍ تكونُ فيه أنت وعِيالُك. فاختار قَلْعةَ كبرى فكان بها، ثم إن الملكَ محمدًا جعَل لولده أحمدَ الأمرَ من بعدِه، وبايَع الجيشُ له، وقد كان في أحمدَ هَوَجٌ وقلةُ عقلٍ، فاتَّفَق هو وعمُّهم يوسُفُ بنُ سُبُكْتِكِين على قتلِ مسعودٍ ليَصفُوَ لهم الأمرُ، ويَتِمَّ لهم الملكُ، فسار إليه أحمدُ عن غيرِ علمٍ من أبيه فقتَله، فلما علِم أبوه غاظه ذلك وعتَب على ابنه عَتْبًا شديدًا، وبعَث إلى ابنِ أخيه يَعْتَذِرُ إليه، ويُقْسِمُ أنه لم يَعْلَمْ بذلك حتى كان. فكتَب إليه مَوْدودُ بنُ مسعودٍ يقول: رزَق اللَّهُ ولدَك المَعْتوهَ عقلاً يَعيشُ به، فقد ارْتَكَب أمْرًا عظيمًا، وأقدَم على إراقةِ دمِ ملكٍ مثلِ والدي، لَقَّبه أميرُ المؤمنين بسيدِ الملوكِ والسَّلاطينِ، وستَعلَمون أيَّ حَتْفٍ تورَّطْتُم وأيَّ شرٍّ تأَبَّطْتُم: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. ثم سار إليهم في جُنودٍ عظيمة، فقاتَلهم فقهرَهم وأسَرهم، فقتَل عمَّه محمدًا، وابنَه أحمدَ وبني عمِّه كلَّهم، إلا عبدَ الرحيمِ وخَلْقًا مِن رءوسِ أُمرائهم، وابْتَنَى قريةً هنالك سمَّاها فتحا بادا، ثم سار إلى غَزْنَةَ، فدخَلها في شَعْبانَ، فأظهَر العدلَ وسلَك سيرةَ جدِّه محمودٍ، فأطاعه الناسُ، وكتَب إليه أصحابُ الأطرافِ بالانقيادِ والاتِّباعِ، غيرَ أنه أهْلَك قومَه بيدِه، وكانَ هذا مِن جملةِ سَعادةِ السَّلاجقة.

وفيها: خالَف أولادُ حَمَّادٍ على المعزِّ بنِ باديسَ صاحبِ إفريقيةَ، فسار إليهم فحاصَرهم قريبًا مِن سنتين، ووقَع بإفْرِيقيَّةَ في هذه السنةِ غَلاءٌ شديدٌ بسببِ تأَخُّرِ الأمطارِ عنهم.

ووقَع ببغدادَ فتنةٌ عظيمةٌ بينَ الروافضِ والسُّنةِ مِن أهلِ الكَرْخِ وأهلِ بابِ البصرةِ، فقُتِل خلقٌ كثيرٌ مِن الفريقَيْن. ولم يَحُجَّ في هذه السنةِ أحدٌ مِن أهلِ العراقِ وضواحيها.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

محمدُ بنُ الحُسَيْنِ بنِ الفضلِ بنِ العبَّاسِ، أبو يَعْلَى البَصْريُّ الصُّوفيُّ، أذْهَب عمرَه في السفَرِ والتَّغْريبِ، وقدِم بغدادَ في سنةِ ثنتينِ وثلاثينَ، فحدَّث بها عن أبي بكرِ بنِ أبي الحَديدِ الدِّمَشْقيِّ، وأبي الحسينِ بنِ جُمَيْعٍ الغَسَّانيِّ، وكان ثقةً صدوقًا أديبًا حسَنَ الشِّعرِ.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة

فيها: ملَك طُغْرُلْبَك جُرْجانَ وطبَرِسْتانَ، ثم عاد إلى نَيْسابورَ مُؤَيَّدًا مَنصُورًا.

وفيها: وَلِيَ ظَهيرُ الدولة أبو منصورِ بنُ علاءِ الدولةِ أبي جعفرِ بنِ كاكويهِ بعدَ وفاة أبيه، فوقَع الخُلْفُ بينَه وبينَ أخَوَيْه؛ أبي كاليجارَ وكرشاسف.

وفيها: دخَل أبو كاليجارَ هَمَذانَ، ودفَع الغُزَّ عنها. **وفيها** شَغَبَتِ الأتراكُ ببغدادَ بسببِ تأخُّرِ العَطاءِ عنهم. وسقَطَت قَنْطَرةُ بني زُرَيْقٍ على نهرِ عيسى، وكذا القَنْطَرةُ العتيقةُ التي تقاربها.

وفيها: دخَل بغدادَ رجلٌ مِن البَلْغَرِ يريدُ الحجَّ، وذكَر أنه مِن كِبارِهم، فأُنْزِل بدارِ الخلافة، وأُجرِيَ عليه الأرزاقُ، وذكَر أنهم مولَّدون من الترك والصقالبة، وأنهم في أقصى بلاد الترك، وأن النهارَ يَقْصُرُ عندَهم حتى يكونَ ستَّ ساعاتٍ، وكذا الليلُ، وعندَهم عُيونٌ وزُروعٌ وثمارٌ على المطرِ والسَّقْيِ. وفي هذه السنة قُرِئ الاعْتِقادُ القادريُّ الذي كان جمَعه الخليفةُ القادرُ باللَّه أميرُ المؤمنين، وأُخِذَت خُطوطُ العلماءِ والزُّهَّادِ بأنه اعْتِقادُ المسلمين، ومَن خالَفه فقد فسَق وكفَر، فكان أولَ مَن كتَب عليه الشيخُ أبو الحسنِ عليُّ بنُ عمرَ القَزْوينيُّ، ثم كتَب بعدَه العلماءُ، وقد سرَده أبو الفرجِ بنُ الجَوْزيِّ في «مُنْتَظَمِه» بتمامه، وفيه جملةٌ جيدةٌ مِن اعْتِقادِ السَّلَف.

وممَّن تُوُفِّي فيها مِن الأعْيان:

بَهْرامُ بنُ مافَنَّةَ، أبو منصورٍ الوزيرُ لأبي كاليجارَ، كان عَفيفًا نَزِهًا صَيِّنًا، عادلاً في سيرته، وقد وقَف خِزانةَ كُتُبٍ في مدينةِ فيرُوزاباذَ، تَشْتَمِلُ على سبعةِ آلافِ مُجَلَّدٍ، مِن ذلك أربعةُ آلافِ ورقةٍ بخطِّ أبي عليٍّ وأبي عبد اللَّه ابنَيْ مُقْلَةَ.

محمدُ بنُ جعفرٍ، أبو الحسين المعروفُ بالجَهْرَميِّ، قال الخطيبُ البغداديُّ: هو أحدُ الشعراءِ الذين لقِيناهم وسمِعْنا منهم، وكان يُجيدُ القولَ، ومِن شعرِه:

يا ويحَ قلبيَ مِن تقلُّبِه ... أبدًا يَحِنُّ إلى مُعَذِّبِه
قالوا كَتَمْتَ هَواه عن جَلَدٍ ... لو أن لي جَلَدًا لَبُحْتُ بِه
بأبي حبيبٌ غيرُ مُكْتَرِثٍ ... عنِّي ويُكْثِرُ مِن تَعَتُّبِه
حَسْبي رِضاه مِن الحياةِ ويا ... قلقي ومَوْتي مِن تغَضُّبِه

مسعودٌ الملكُ بنُ الملك محمود بن الملك سُبُكْتكين، صاحبُ بلادِ غَزْنةَ وابنُ صاحبِها، قتَله ابنُ عمِّه أحمدُ بنُ محمدِ بنِ محمودٍ، فانْتَقَم له ابنُه مَوْدودُ بنُ مسعودٍ، فقتَل عمَّه وابنَ عمِّه وأهلَ بيتِه مِن أجلِ أبيه، واسْتَتَبَّ له الأمرُ وحدَه مِن غيرِ مُنازِعٍ مِن قومِه كما تقدَّم.

بنتُ أميرِ المؤمنين المُتَّقي للَّه، تأخَّرَت مدَّتُها حتى كانت وفاتُها في رجبٍ مِن هذه السنةِ عن إحدى وتسعين سنةً بالحَريمِ الطاهري، ودُفِنَت بالرُّصافةِ، رحمَها اللَّهُ وإيانا بمَنِّه وكرمِه لا إله إلا هو.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وأربعمائة

فيها: أمَرَ الملكُ جَلالُ الدولة أبو طاهر بجباية أموال الجوالي، ومنَع أصحابَ الخليفة من قبضِها، فانزَعَج القائمُ بأمر الله، وعزَم على الخروج من بغدادَ، وأرسَل للفقهاء والقضاة والأعيانِ في التأهُّب للخروج صحبتَه، وارتجَّت بغدادُ بسبب ذلك.

وفيها: كانت زَلْزلةٌ عظيمةٌ بمدينة تِبْريزَ، هدَمت قلعتَها وسورَها وأسواقَها ودُورَها، حتى من دارِ الإمارة عامَّةَ قُصورِها، ومات تحتَ الهَدم خمسون ألفًا، ولبِس أهلُها المُسوحَ لشدة مُصابِهم.

وفيها: استَوْلى السلطانُ طُغْرُلبَك على أكثرِ البلاد الشرقية، فمِن ذلك مدينةُ خُوارزمَ ودِهِسْتانُ وطَبَسُ والرَّيُّ وبلادُ الجَبَلِ وكَرْمانُ وأعمالُها وقَزْوينُ. وخُطِب له في تلك النَّواحي كلِّها، وعظُم شأنُه جدا، واتَّسَع صيتُه.

وفيها: ملَك سِماكُ بنُ صالحِ بنِ مِرْداسٍ حلَبَ، أخَذها من الفاطميِّين، فبعَث إليه المصريون مَن حارَبه.

ولم يَحُجَّ أحدٌ في هذه السنة ولا فيما قبلَها.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

أبو ذرٍّ الهَرَويُّ عَبدُ بنُ أحمدَ بنِ محمد الحافظُ الفقيهُ المالكيُّ، سمِع الكثيرَ، ورحَل إلى الأقاليم، وخرَج إلى مكةَ، ثم تزَوَّج في العربِ وأقام بالسَّرَوات وكان يَحُجُّ كلَّ سنةٍ، ويُقيم بمكةَ أيامَ المَوْسِم، ويَسْمَعُ الناسُ عليه، وأخَذ عنه المَغاربةُ مذهبَ الشيخِ أبي الحسنِ الأشعريِّ عن القاضي الباقلَّانيِّ وكان يقولُ إنه أخَذ مذهبَ مالكٍ عن الباقلَّانيِّ، وقد كان ثقةً حافظًا ضابطًا، تُوُفِّي في ذي القَعْدة من هذه السنة.

محمدُ بنُ الحسين بن محمد بن جعفر، أبو الفتح الشَّيْبانيُّ العَطَّارُ، ويُعْرَفُ بقُطَيْطٍ، سافَر الكثيرَ إلى البلاد الشاسعة، وسمع الكثيرَ، وكان شيخًا ظَريفًا، يَسْلُكُ طريقَ التَّصَوُّف، وكان يقولُ: لما وُلِدْتُ سُمِّيتُ قُطَيْطًا على أسماءِ البادية، ثم سمَّاني بعضُ أهلي محمدًا.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وأربعمائة

فيها: رُدَّت الجوالي إلى نُوَّابِ الخليفة.

وفيها: ورَد كتابٌ من جلال الملك طُغْرُلبَك إلى جَلال الدولة يأمُرُه بالإحْسان إلى الرَّعايا والوَصاةِ بهم.

ذكرُ مُلكِ أبي كاليجار بغدادَ بعدَ وفاةِ أخيه جَلالِ الدولةِ بنِ بهاءِ الدولةِ

وفيها: تُوُفِّي جَلالُ الدولةِ أبو طاهرِ بنُ بَهاءِ الدولةِ، فملَك بغدادَ بعدَه أخوه سلطانُ الدولةِ أبو كاليجارَ بنُ بَهاءِ الدولةِ، وخُطِب له بها عن مُمالأةِ أمرائِها، وأخرَجوا الملكَ العَزيزَ أبا منصورِ بنَ جَلالِ الدولةِ، فتنَقَّل في البلادِ، وتشرَّد من مَملكتِه إلى غيرِها حتى تُوُفِّي سنةَ إحدى وأربعين، وحُمِل فدُفِن عندَ أبيه بمقابرِ قريشٍ.

وفيها: أرسَل الملكُ مَوْدودُ بنُ مسعودٍ عَسكرًا كَثيفًا إلى خُراسانَ، فبرَز إليهم ألْب أرْسَلان بنُ داودَ ابنِ ميكائيلَ بنِ سلجوقَ في عسكرٍ آخرَ، فاقْتَتَلا. قتالًا عظيمًا.

وفيها: في صفَرٍ منها أسلَم من الترك الذين كانوا يَطْرُقون بلادَ المسلمين نحوٌ من عشرةِ آلافِ خَرْكاه، وضحَّوا في يومِ عيدِ الأضحَى بعشرين ألفَ رأسٍ من غنمٍ، وتفرَّقوا في البلادِ، ولم يُسْلِمْ من الخطا والتَّترِ أحدٌ، وهم بنَواحي الصِّينِ.

وفيها: نفَى ملكُ الرومِ من القُسْطَنْطِينِيَّةِ كلَّ غريبٍ له دون العشرين سنةً فيها.

وفيها: خطَب المُعِزُّ أبو تَميمِ بنُ باديسَ صاحبُ إفريقيةَ ببلادِه للخليفةِ العباسيِّ، وقطَع خُطْبَةَ الفاطميِّين وأحْرَق أعْلامَهم، وأرْسَل إليه القائمُ بأمرِ اللَّهِ الخِلَعَ واللِّواءَ والمَنْشورَ، وفيه تَعْظيمٌ له وثَناءٌ عليه.

وفيها: أرْسَل الخليفةُ القائمُ بأمرِ اللَّهِ أقْضَى القضاةِ أبا الحسنِ عليَّ بنَ محمدِ بنِ حَبيبٍ الماوَرْديَّ قبلَ وفاةِ جَلالِ الدولةِ إلى الملكِ طُغْرُلْبَك ليُصْلِحَ بينَه وبينَ جَلالِ الدولةِ وأبي كاليجارَ، فسار إليه فالْتقاه بجُرْجانَ، فتَلَقَّاه الملكُ على أربعةِ فَراسخَ إكْرامًا لمن أرسلَه، وأقام عندَه إلى السنةِ الآتيةِ. فلما قدِم أخْبَره بطاعتِه وإكرامِه له واحترامِه من أجلِ الخليفةِ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيانِ:

الحسينُ بنُ عثمانَ بنِ سهلِ بنِ أحمدَ بنِ عبدِ العزيزِ بنِ أبي دُلَفَ العِجْليُّ، أبو سعدٍ، أحدُ الرحَّالين في طلبِ الحديثِ إلى البلادِ المُتَباينةِ، ثم أقام ببغدادَ مدةً وحدَّث بها، وروَى عنه الخطيبُ، وقال: كان صَدوقًا، ثم انْتَقَل في آخرِ عمرِه إلى مكةَ، فسكَنها حتى مات بها في شوالٍ من هذه السنةِ.

عُبَيدُ اللَّهِ بنُ أبي الفتحِ أحمدَ بنِ عثمانَ بنِ الفرجِ بنِ الأزْهَرِ، أبو القاسمِ الأزْهَريُّ، الحافظُ المُحَدِّثُ الشهيرُ، ويُعْرَفُ بابنِ السَّواديِّ، سمِع من أبي بكرِ بنِ مالكٍ وخلقٍ يَطُولُ ذكرُهم، وكان ثقةً صَدوقًا دَيِّنًا، صحيحَ الاعْتقادِ حسنَ السِّيرةِ، وكانت وفاتُه ليلةَ الثلاثاءِ التاسعَ عشرَ من صفرٍ من هذه السنةِ عن ثمانين سنةً وعشَرةِ أيامٍ.

الملكُ جلالُ الدولة، أبو طاهر بنُ بهاء الدولة بن عَضُد الدولة بن ركن الدولة بن بُويه الدَّيْلَميُّ، صاحبُ بغدادَ وغيرها من البلاد، كان فيه محبةٌ عظيمةٌ للعُبَّادِ ويَزُورهم، ويَلْتَمِسُ الدعاءَ منهم، وقد نُكب مرات عديدةً وخالفه الأتراكُ غيرَ مرةٍ وأخرجوه من داره ومن بغدادَ بالكُلية غيرَ ما طريقٍ، ثم يَعودُ إليهم ويرضَون عنه حتى اعْتراه وَجَعٌ في كبده، هذه السنةَ، فمات من ذلك في ليلة الجمعة الخامس من شعبانَ هذه السنة، وله من العمرِ إحدىٰ وخمسون سنةً وأشهرٌ، ووَليَ بغدادَ من ذلك ستَّ عشْرةَ سنةً وأحدَ عشَرَ شهراً.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وأربعمائة

فيها: دخَل الملكُ أبو كاليجارَ بغدادَ، وأمَر بضَرْبِ الطَّبْلِ في أوقات الصَّلَوات الخمسِ، ولم تَكُنِ الملوكُ قبلَه تفعلُه، إنما كان يُضْرَبُ لعَضُد الدولة ثلاثةَ أوقاتٍ، وما كان يُضْرَبُ في الأوقات الخمسِ إلا للخليفة، وكان دخولُه في رمضانَ، وقد فرَّق على الجُنْد أموالاً جَزِيلةً، وبعَث إلى الخليفة بعشَرةِ آلاف دينارٍ، وخلَع على مُقَدَّمي الجيوشِ، وهم البَساسيريُّ، والنشاووريُّ، والهُمامُ أبو اللقاء، ولقَّبه الخليفةُ مُحْيِيَ الدولة، وخُطِب له في بلاد كثيرةٍ بأمْرِ مُلوكها، وخُطب له بهَمَذانَ، ولم يَبْقَ لنُوَّابِ طُغْرُلْبَك فيها أمرٌ.

وفيها: اسْتَوْزَر طُغْرُلْبك أبا القاسمِ عليَّ بنَ عبدِ اللَّه الجُوَيْنيَّ، وهو أولُ وزيرٍ وزَر له.

وفيها: وزَر أبو نصرٍ أحمدُ بنُ يوسفَ لصاحبِ مصرَ، وكان يَهوديًّا، فأسْلَم بعدَ موتِ الجَرْجَرائيِّ.

وفيها: توَلَّىٰ نقابةَ العَلَويِّينَ الشريفُ أبو أحمدَ بنُ عَدْنانَ بنِ الشريفِ الرَّضيِّ، وذلك بعدَ وفاةِ عمِّه المُرْتَضىٰ أبي القاسمِ عليٍّ. وستأتي تَرْجَمَتُه.

وفيها: وليَ القَضاءَ أبو الطيبِ الطَّبَريُّ؛ قَضاءَ الكَرْخِ، مُضافًا إلى ما كان يَتَوَلَّاه من القَضاءِ بباب الطاق، وذلك بعدَ موتِ القاضي أبي عبدِ اللَّه الصَّيْمَريِّ.

وفيها: نظَر رئيسُ الرؤساءِ أبو القاسمِ بنُ المُسْلِمة في كتابَةِ ديوانِ الخَليفةِ، وكان عندَه بمنزلةٍ عاليةٍ. ولم يَحُجَّ في هذه السنةِ أحدٌ من أهلِ العراقِ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

الحسينُ بنُ عليِّ بنِ محمدِ بنِ جعفرٍ، أبو عبد اللَّه الصَّيْمَريُّ، نسبةً إلى نهرٍ بالبَصْرةِ يقالُ له: الصَّيْمَرُ. عليه عدَّةُ قُرًى، أحدُ أئمة الحَنَفِيَّة، وَلِي قَضاءَ المَدائنِ، ثم قَضاءَ رَبْعِ الكَرْخِ، وحدَّث عن أبي بكرٍ المُفيدِ، وابنِ شاهينَ وغيرِهما، وكان صَدوقًا، وافرَ العقلِ، جَميلَ المُعاشَرةِ، حسَنَ العِبارَةِ، عارفًا بحقوقِ العلماءِ. تُوُفِّي في شوالٍ عن خمسٍ وثمانين سنةً.

عبدُ الوَهَّابِ بنُ منصورِ بنِ أحمدَ، أبو الحسين:، المعروفُ بابنِ المُشْتَرِي، الأهْوازيُّ، كان على

قضاءِ الأهوازِ ونَواحيها، شافعيُّ المذهبِ، كان له منْزلةٌ كبيرةٌ عندَ السلطانِ، وكان صَدوقًا كثيرَ المالِ، حسنَ السِّيرةِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

الشريفُ المُرتضَى، عليُّ بنُ الحسينِ بنِ موسى بنِ محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ موسى بنِ جعفرِ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، الشَّريفُ المُوسَويُّ(١)، المُلقَّبُ بالمُرتَضَى ذي المَجْدَيْنِ - كان أكبرَ من أخيه الرَّضيِّ - ذي الحَسَبَين، نقيبُ الطالبِيِّينَ، وكان جيدَ الشعرِ، على مذهبِ الإماميةِ والاعتزالِ، يُناظرُ على ذلك، وكان يُناظَرُ عندَه في كلِّ المذاهبِ، وله تَصانيفُ في التَّشَيُّعِ؛ أصولاً وفُروعًا، وقد نقَل ابنُ الجوزيِّ في ترجمتِه أشياءَ من تَفَرُّداتِه في التَّشيُّعِ، فمِن ذلك أنه لا يَصحُّ السجودُ إلا على الأرضِ أو ما كان من جنسِها، وأن الاستجمارَ إنما يُجزِئُ في الغائطِ لا في البولِ، وأن الكتابيَّاتِ حرامٌ، وذَبائحُ أهلِ الكتابِ حرامٌ، وكذا ما ولُوه هم وسائرُ الكفارِ من الأطعمةِ، وأن الطلاقَ لا يَقَعُ إلا بحضرةِ شاهدَيْن، والمُعلَّقَ منه لا يَقعُ وإن وُجِد شرطُه، ومَن نام عن صلاةِ العشاءِ حتى انتَصَف الليلُ وجَب قضاؤُها، ويَجبُ عليه أن يُصبحَ صائمًا كفارةً لما وقَع منه. ومن ذلك أن المرأةَ إذا جزَّت شعرَها يَجبُ عليها كفارةُ قَتْلِ الخطأ، ومَن شقَّ ثوبَه في مُصيبةٍ وجَب عليه كَفارةُ يمينٍ، ومن تَزوَّج امرأةً لهـا زوجٌ لا يَعلَمُه وجَب عليه أن يَتَصدَّقَ بخمسةِ دراهمَ، وأنَّ قَطعَ السارقِ من أصولِ الأصابعِ. قال ابنُ الجوزيِّ: نَقَلْتُها من خطِّ أبي الوَفاءِ بنِ عَقيلٍ. قال: وهذه مَذاهبُ عَجيبةٌ تَخرِقُ الإجْماعَ، وأعْجَبُ منها ذمُّ الصحابةِ، رضِي اللَّهُ عنهم. ثم سرَد من كلامِه شيئًا قبيحًا في تَكْفيرِ عمرَ وعثمانَ وعائشةَ وحَفْصةَ، رضِي اللَّهُ عنهم، وقَبَّحه وأمثالَه إن لم يَكُنْ تاب، فقد روَى ابنُ الجوزيِّ قال: أنبَأنا ابنُ ناصرٍ، عن أبي الحسنِ الطُّيُوريِّ قال: سمِعْتُ أبا القاسمِ بنَ بَرْهانَ يقولُ: دخَلْتُ على الشريفِ المُرْتَضَى أبي القاسمِ العلويِّ في مرضِه، وإذا قد حوَّل وجهَه إلى الجدارِ، فسمِعتُه يقولُ: أبو بكرٍ وعمرُ وليا فعدَلا، واستُرْحِما فرَحِما، أفأنا أقولُ: ارْتَدَّا بعدَما أسْلَما؟! قال: فقمتُ فما بلَغْتُ عَتَبةَ البابِ حتى سمِعْتُ الزَّعْقةَ عليه. وكانت وفاتُه في هذه السنةِ عن إحدى وثمانين سنةً. وقد ذكَره ابنُ خَلِّكانَ، وأوْرَد شيئًا من أشْعارِه الرائقةِ. قال: ويقالُ: إنه هو الذي وضَع كتابَ «نَهْجِ البَلاغةِ».

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ شُعَيبِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ الفضلِ، أبو منصورٍ الرُّويانيُّ، صاحبُ الشيخِ أبي حامدٍ الإسْفَرايِينيِّ. قال الخطيبُ: سكَن بغدادَ وحدَّث بها، وكتَبْنا عنه، وكان صَدوقًا يَسكُنُ قَطيعةَ الرَّبيعِ. ومات في ربيعٍ الأولِ من هذه السنةِ، ودُفِن بباب حربٍ.

أبو الحسينِ البَصْريُّ المعتزليُّ، محمدُ بنُ عليِّ بنِ الطيبِ، أبو الحسينِ البَصْريُّ المتكلِّمُ، شيخُ المعتزلةِ والمُنْتَصِرُ لهم، والحامي عن ذِمارِهم بالتَّصانيفِ الكثيرةِ، وقد كانت وفاتُه في ربيعٍ الآخرِ من

---

(١) ترجمته في «السير» (١٧/ ٥٨٨) وما بعدها.

هذه السنة، وصلّى عليه القاضي أبو عبد الله الصَّيْمَريُّ، ودُفن في الشُّونِيزية، وليس له من رواية الحديث سوى حديث واحد، رواه عنه الخطيبُ البغداديُّ في «تاريخه»: حدَّثنا محمدُ بنُ عليِّ بن الطَّيِّب، قُرِئَ على هلال بن محمد ابن أخي هلال الرأي بالبَصْرة وأنا أَسْمَعُ، قيل له: حدَّثكم أبو مسلم الكَجِّيُّ وأبو خَليفةَ الفضلُ بنُ الحُبَاب الجُمَحيُّ والغَلاَبيُّ والمازنيُّ والزُّرَيْقيُّ قالوا: حدَّثنا القَعْنَبيُّ، عن شعبةَ، عن منصور، عن رِبْعيٍّ، عن أبي مسعود البَدْريِّ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ مما أدرَكَ الناسُ من كلام النبوة الأولى: إذا لم تَسْتَحِ فاصْنَعْ ما شئتَ**»[1]. والغَلاَبيُّ اسمُه محمدٌ، والمازنيُّ اسمُه محمدُ بنُ حيَّانَ، والزُّرَيْقيُّ أبو عليٍّ محمدُ بنُ أحمدَ بن خالد البصريُّ.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وأربعمائة

فيها: بعَث السلطانُ طُغْرُلبَك السَّلْجُوقيُّ أخاه إبراهيمَ يَنَّال إلى بلاد الجبل، فملَكَها وأخرَج منها صاحبَها كرشاسفَ بنَ علاء الدولة، فالْتَحَق بالأكراد، ثم سار إبراهيمُ يَنَّال إلى الدِّينَوَر فملَكَها، وأخرَج منها صاحبَها وهو أبو الشَّوْك، فسار إلى حُلْوانَ، فتبِعه إبراهيمُ، فملَكها عليه قَهْرًا، وأحْرَق دارَه، وغنِم أموالَه، فعندَ ذلك تجهَّزَ الملكُ أبو كاليجارَ صاحبُ بغدادَ لقتال السَّلاجقة الذين غزَوا أنصارَه، فلم يُمكنْه ذلك لقلَّة الظَّهْر، وذلك أنَّ الآفةَ اعترَت في هذه السنة الخيلَ، فمات له فيها نحوٌ من اثنَيْ عشرَ ألفَ فرس، بحيث جافَت بغدادُ من نتَن الخيل.

وفيها: وقَع ببغدادَ بينَ الرَّوافض والسُّنة، ثم اتَّفَق الفريقان على نَهْب دُور اليهود، وإحْراق الكَنيسة العَتيقة التي لهم، واتَّفَق في هذه السنة موتُ رجل من أكابرَ النَّصارَى بواسط، فجلَس أهلُه لعَزائه على باب مسجد هناك، وأخرَجوا جنازَتَه جَهْرةً، ومعها طائفةٌ من الأتراك يحرُسونها، فحملَت عليهم العامَّةُ فأخَذوا الميتَ منهم، واسْتَخرجُوه من أكفانه فأحْرَقوه، ورمَوْه في دجلةَ، ومضَوْا إلى الدَّيْر فنهَبوه، وعجَز الأتراكُ عن دَفْعهم. ولم يَحُجَّ أهلُ العراق في هذا العام.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

فارسُ بنُ محمد بن عنان: صاحبُ الدِّينَوَر وحُلوانَ، وكانت وفاتُه في هذا الأوان.

خديجةُ بنتُ موسى بنِ عبد الله الواعظةُ، وتُعْرَفُ ببنت البَقَّال، وتُكَنَّى أمَّ سَلَمةَ، قال الخطيبُ: كتَبْتُ عنها، وكانت فقيرةً صالحَةً فاضلةً.

أحمدُ بنُ يوسفَ المَنَازيُّ: الشاعرُ الكاتبُ، وزيرُ أحمدَ بنِ مَرْوانَ الكُرْديِّ صاحبِ مَيَّافارقِينَ وديارِ بكر، كان فاضلاً بارعًا لطيفًا، تردَّد في التَّرَسُّل إلى القُسْطَنْطِينيَّة غيرَ مرة، وحصَّل كتبًا كثيرةً أوْقَفَها على جامعَيْ آمِدَ ومَيَّافارِقينَ، ودخَل يومًا على أبي العَلاء المَعَرِّيِّ فقال له: إني مُعْتَزِلٌ الناسَ،

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٤٨٤).

وهم يُؤْذُونني. فقال: ولِمَ وقد تركْتَ لهم الدنيا والآخرةَ؟! وله ديوانُ شعرٍ قليلُ النَّظيرِ عَزيزُ الْوجودِ، حرَص عليه القاضي الفاضلُ فلم يَقْدِرْ عليه، وكانت وفاتُه في هذه السنةِ. ومِن شعرِه في وادي بُزاعا قولُه:

وقانا لَفْحَةَ الرَّمْضاءِ وادٍ ... وقاه مُضاعَفُ النبتِ العَميمِ
نزَلْنا دَوْحَهُ فحَنا علَينا ... حُنُوَّ المُرْضِعاتِ علَى الفَطيمِ
وأرْشَفَنا علَى ظمَأٍ زُلالاً ... ألذَّ مِن المُدامةِ للنَّديمِ
يُراعِي الشمسَ أنَّى قابَلَتْه ... فيَحْجُبُها ويَأذَنُ للنَّسيمِ
تَروعُ حَصاه حاليةَ العَذارَى ... فتَلْمَسُ جانبَ العِقْدِ النَّظيمِ

قال ابنُ خَلِّكانَ: وهذه الأبياتُ بَديعةٌ في بابِها.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة

استَهَلَّت هذه السنةُ والمُوتانُ كثيرٌ في الدوابِّ جدًّا حتى جافَت بغدادُ.

قال ابنُ الجوزيِّ: ورُبما أحضَر بعضُ الناسِ الأطبَّاءَ إلى دوابِّهم فيَسْقُونها ماءَ الشَّعيرِ ويُطَبِّبُونها.

وفيها: حاصَر السلطانُ ابنُ طُغْرُلْبَك أصْبَهانَ، فصالَحه أهلُها على مالٍ يَحْمِلونه إليه، وأن يُخطَبَ له بها، فأجابوه إلى ذلك.

وفيها: ملَك مُهَلْهِلٌ قَرْميسينَ والدِّينَوَرَ.

وفيها تأمَّر على بني خَفاجةَ رجلٌ يقالُ له: رجبُ بنُ أبي مَنيعِ بنِ ثُمالٍ. بعدَ وفاة بَدْرانَ بنِ سُلْطانَ ابنِ ثُمالٍ، وهؤلاء الأعْرابُ هم أكثرُ مَن يَصُدُّ الحجيجَ عن البيتِ الحَرامِ، فلا جَزاهم اللَّهُ خيرًا، وقبحهم يومَ يقوم الأشهادُ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

وممن تُوفِّي فيها من الأعيان:

الشيخُ أبو محمدٍ، عبدُ اللَّهِ بنُ يوسُفَ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ يوسفَ بنِ محمدِ بنِ حَيُّوَيْه، الشيخُ أبو محمدٍ الجُوَيْنيُّ إمامُ الشافعيةِ في زمانِه، وهو والدُ إمامِ الحرمَيْن أبي المَعالي عبدِ الملكِ بنِ أبي محمدٍ، وأصلُه مِن قَبيلةٍ يقالُ لها: سِنْبِسُ.

وجُوَيْنُ مِن نَواحي نَيْسابورَ، سمع الحديثَ في بلادٍ شتَّى على جماعةٍ، وقرَأ الأدبَ على أبيه، وتفَقَّه بأبي الطَّيِّبِ سهلِ بنِ محمدٍ الصُّعْلُوكيِّ، ثم خرَج إلى مَرْوَ إلى أبي بكرٍ عبدِ اللَّهِ بنِ أحمدَ القَفَّالِ، ثم عاد إلى نَيْسابورَ، وعقَد مجلسَ المُناظَرةِ، وكان مَهيبًا لا يَجْري بينَ يديه إلا الجِدُّ، وصنَّف التَّصانيفَ الكثيرةَ في أنواعِ مِن العلومِ، وكان ورِعًا زاهدًا شديدَ الاحْتِياطِ، ربما أخْرَج الزكاةَ مرتين.

وقد ذكَرتُه في «طَبَقاتِ الشافعيةِ» وما قاله الأئمةُ في مدحِه، وكانت وفاتُه في ذي القَعْدةِ منها.

قال القاضي ابنُ خَلِّكانَ: صنَّف «التَّفْسيرَ الكبيرَ» المُشْتَمِلَ على أنواعِ العلومِ، وله في الفقهِ «التَّبْصِرةُ»

و«التَّذْكِرةُ»، و«مُختَصَرُ المُختَصَرِ»، و«الفرقُ والجمعُ»، و«السِّلْسِلةُ»، وغيرُ ذلك، وكان إمامًا في الفقه والأصول والأدب والعربية. وكانت وفاتُه في هذه السنة - وقيل: سنة أربع وثلاثين، قاله السَّمْعانيُّ في «الأنساب» - وهو في سنِّ الكُهولة.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وأربعمائة

فيها: اصْطَلَح الملكُ طُغْرُلْبَك السَّلجوقيُّ وأبو كاليجارَ صاحبُ بغدادَ، وتزَوَّج طُغْرُلْبَكُ بابنة أبي كاليجارَ، وتزَوَّج أبو مَنصورِ بنُ أبي كاليجارَ بابنة الملك داودَ أخي طُغْرُلْبَكَ.

وفيها: أسَرَت الأكرادُ سُرْخابَ أخا أبي الشَّوْكِ، وأحضَروه بينَ يدي إبراهيمَ يَنَّالَ، فأمَر بقَلْع إحدى عينيه.

وفيها: استَوْلى أبو كاليجارَ على بلاد البَطيحة، ونجا صاحبُها أبو نصر نفسه.

وفيها: ظهَر رجلٌ يقالُ له: الأصفَرُ التَّغْلِبيُّ. وادَّعَى أنه من المذكورين في الكتب، فاستَغْوَى خلقًا من الناس، وقصَد بلادَ الروم، فغنِم منها أموالًا، فقوِيَ بها، وعظُم أمرُه، واتَّفَقَ أنه أُسِر وحُمِل إلى نصرِ الدولة بن مَرْوانَ صاحبِ ديارِ بكرٍ، فاعْتَقَله وسدَّ عليه بابَ السجن.

وفيها: كان وَباءٌ شديدٌ بالعراقِ والجزيرةِ وبغدادَ فمات خلقٌ كثيرٌ، حتى خلَت الأسواقُ، وغلت الأشياءُ التي يَحتاجُ إليها المَرْضَى، وورَد كتابٌ من المَوْصِلِ بأنه لا يُصَلِّي الجمعةَ من أهلِها إلا نحوُ أربعمائة، وأن أهلَ الذِّمَّة لم يَبْقَ منهم إلا نحوُ مائة وعشرين نفسًا.

وفيها: وقَع غلاءٌ شديدٌ أيضًا، وجرت فتنةٌ بينَ السنة والروافضِ ببغدادَ، قُتِل فيها خلقٌ كثيرٌ. ولم يَحُجَّ أحدٌ من رَكْبِ العراقِ في هذا العام. فلا قوةَ إلا باللَّه.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ محمد بن عبد اللَّه بن أحمدَ، أبو الفضلِ القاضي الهاشميُّ الرَّشيديُّ، من ولدِ الرَّشيدِ، ولِي القَضاءَ بسِجِسْتانَ، وسمع الحديثَ من الغِطْرِيفيِّ وغيرِه. قال الخطيبُ: وأنشَدَني لنفسه:

قالوا اقتصد في الجود إنك منصف	عَدْلٌ وذو الإنصاف ليس يَجُورُ
فأجَبْتُهم إني سُلالةُ مَعْشَرٍ	لهمُ لواءٌ في النَّدَى مَنْشُورُ
تاللَّه إني شائدٌ ما قد بَنَى	جَدِّي الرَّشيدُ وقبلَه المنصورُ

عبدُ الواحد بنُ محمد بن يحيى بن أيوبَ، أبو القاسم، الشاعرُ المعروفُ بالمُطَرِّزِ، ومن شعرِه الذي رواه عنه الخطيبُ قولُه:

يا عبدُ كم لك من ذنب ومَعْصيةٍ	إن كنتَ ناسيَها فاللَّهُ أحْصاها
لا بدَّ يا عبدُ من يومٍ تقومُ له	ووقْفةٍ لك يُدْمي القلبَ ذكْراها
إذا عرَضْتُ على قلبي تذَكُّرَها	وساء ظني فقلتُ استغفرِ اللَّهَ

محمدُ بنُ الحسينِ بنِ عليٍّ بنِ عبدِ الرحيمِ، أبو سعد الوزيرُ، وزَرَ للملكِ أبي طاهرٍ ستَّ مراتٍ ثم كان موتُه بجزيرةِ ابنِ عمرَ في هذه السنةِ، عن ستٍّ وخمسين سنةً.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ موسى، أبو عبد اللَّه الواعظُ الشِّيرازيُّ، قال الخطيبُ: قدم بغدادَ، وأظهَر الزهدَ والتَّقشُّفَ والورَعَ وعُزوفَ النفسِ عنِ الدنيا، فافْتَتَن الناسُ به، وكان يَحضُرُ مَجْلِسه خلقٌ كثيرٌ، ثم إنه قَبِل ما كان يُعْرَضُ عليه فيَأْبَى قَبُولَه، فكثُرَت أموالُه، ولبِس الثيابَ الناعمةَ، وجرَت له أمورٌ، وكثُرَت أتباعُه، وأظهَر أنه يُريدُ الغَزْوَ، فاتَّبَعه خلقٌ كثيرٌ، فبَرز ظاهرَ البلدِ ناحيةً منها، وكان يُضْرَبُ له الطَّبْلُ في أوقاتِ الصلواتِ، وسار إلى ناحيةِ بلادِ أَذْرَبِيجانَ، فالْتَفَّ عليه خلقٌ كثيرٌ، وضاهَى أميرَ تلك الناحيةِ، وكانت وفاتُه هنالك في هذه السنةِ.

قال الخطيبُ: وقد حدَّث ببغدادَ، وكَتَبْتُ عنه أحاديثَ يَسيرةً، وحدَّثني بعضُ أصحابِنا عنه بشيءٍ يَدُلُّ على ضعفِه في الحديثِ، وأنْشَدَني هو لبعضِهم:

إذا ما أطَعْتَ النفسَ في كلِّ لذَّةٍ ... نُسِبْتَ إلى غيرِ الحِجَا والتَّكَرُّمِ
إذا ما أجَبْتَ النفسَ في كلِّ دَعْوةٍ ... دعَتْك إلى الأمرِ القبيحِ المُحَرَّمِ

محمدُ بنُ الحسينِ بنِ عمرَ بنِ بَرْهانَ، أبو الحسنِ الغَزَّالُ، سمع محمدَ ابنَ المُظفَّرِ، وكان صَدوقًا، رحمه اللَّهُ تعالى.

محمدُ بنُ عليٍّ بنِ إبراهيمَ، أبو الخطَّاب الجَبُّليُّ: الشاعرُ، فمِن شعرِه قولُه:

ما حكَم الحُبُّ فهو مُمْتَثَلُ ... وما جناه الحبيبُ مُحْتَمَلُ
يَهْوَى ويَشكُو الضَّنَى وكلُّ هَوًى ... لا يُنْحِلُ الجسمَ فهْوَ مُنْتَحَلُ

وقد سافرَ إلى الشامِ، فاجْتاز بمَعَرَّةِ النُّعمانِ، فامْتَدَح أبا العَلاءِ بنَ سليمانَ بأبياتٍ، فأجابه عنها. وقد كان حسَنَ العينَيْن حينَ سافَر، فما عاد إلا وهو أعْمَى. وكانت وفاتُه في ذي القَعْدةِ من هذه السنةِ، ويقالُ: إنه كان شديدَ الرَّفْضِ. فاللَّهُ أعلمُ.

الشيخُ أبو عليٍّ السِّنْجيُّ، الحسينُ بنُ شُعَيْبِ بنِ محمد: شيخُ الشافعيةِ في زمانه، أخَذ عن أبي بكرٍ القَفَّالِ، وشرَح «الفُروعَ» لابنِ الحَدَّادِ، وقد شرَحها قبلَه شيخُه، وبعده القاضي أبو الطَّيِّب الطَّبَريُّ، وشرَح أبو عليٍّ السِّنْجيُّ كتابَ «التَّلْخيصِ» لابنِ القاصِّ شرْحًا كبيرًا، وله كتابُ «المجموعِ» وأخَذ منه الغَزَّاليُّ في «الوَسيطِ». قال ابنُ خَلِّكانَ: وهو أولُ مَن جمع بينَ طريقتَي العراقِ وخُراسانَ. وكانت وفاتُه سنةَ بضعٍ وثلاثين وأربعمائةٍ، رحمه اللَّهُ تعالى.

ثم دخلت سنة أربعين وأربعمائة

في جمادَىٰ الأولىٰ منها مرض الملكُ أبو كاليجارَ صاحبُ بغدادَ، وهو في بَرِّيَّةٍ، ففُصِد في يومٍ ثلاثَ مرات، وحُمل في محَفَّةٍ، مات ليلةَ الخميس، وانتهبت الغلمانُ الخزائنَ، وأحرَق الجواري الخيامَ، سوىٰ الخيمةَ التي هو فيها والخَرْكاه التي كان بها، وولي بعدَه ابنُه أبو نصر، وسمَّوه الملكَ الرحيمَ، ودخَل دارَ الخلافة في يومٍ مشهودٍ، وخلَع عليه الخليفةُ سبعَ خِلَعٍ، وسوَّره وطوَّقه، وجعَل علىٰ رأسه التاجَ والعمامةَ السوداءَ الرُّصافيةَ، ووصَّاه الخليفةُ ورجَع إلىٰ داره، وجاء الناسُ لتهنئته.

وفيها: دار السُّورُ علىٰ شيرازَ، وكان دَوْرُه اثنَيْ عشرَ ألفَ ذراعٍ، وارتفاعُه ثمانيةَ أذرعٍ، وعَرْضُه ستةَ أذرعٍ، وفيه أحدَ عشرَ بابًا.

وفيها: غزا إبراهيمُ ينّال بلادَ الروم، فغنِم مائةَ ألف رأسٍ، وأربعةَ آلاف درْعٍ، وقيل: تسعةَ عشرَ ألفَ درعٍ. ولم يَبْقَ بينَه وبينَ القُسْطَنْطِينيَّة إلا خمسةَ عشرَ يومًا، وحمَل ما حصَل له من المغانم علىٰ عشَرةِ آلافِ عَجَلةٍ.

وفيها: خُطب لذخيرةِ الدِّين أبي العباسِ محمدِ ابنِ الخليفةِ القائمِ بأمرِ اللَّه علىٰ المَنابرِ بولايةِ العهدِ بعدَ أبيه، وحُيِّيَ بذلك.

وفيها: اقْتَتَل الرَّوافضُ والسُّنةُ، وجرَت ببغدادَ فتنٌ يَطولُ ذكرُها. ولم يَحُجَّ أحدٌ من أهلِ العراقِ في هذا العامِ أيضًا:

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

السيدُ الكبيرُ الحسنُ بنُ عيسى بن المُقْتَدر باللَّه، أبو محمد العبَّاسيُّ: وُلد في المحرمِ سنةَ ثلاثٍ وأربعين وثلاثمائة، وسمع من مُؤَدِّبه أحمدَ بنِ منصورٍ اليَشْكُريِّ، وأبي الأزهرِ عبدِ الوهَّابِ بنِ عبدِ الرحمنِ الكاتبِ، وكان فاضلاً دَيِّنًا حافظًا لأخبارِ الخلفاء، عالمًا بأيامِ الناسِ، صالحًا، أعْرَض عن ولايةِ الخلافة عن قُدرةٍ، وآثَر بها القادرَ باللَّه، وكانت وفاتُه في هذه السنةِ عن سبعٍ وتسعين سنةً، وأوْصَىٰ أن يُدْفَنَ ببابِ حربٍ بغيرِ تابوتٍ، فدُفِن قريبًا من قبرِ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ. وكان يومُ جنازته مشهودًا، مشىٰ الأمراء والوزراء والبساسيريُّ إلىٰ المقبرة. وجلَس رئيسُ الرؤساءِ أبو القاسمِ ابنُ المُسْلِمة للعزاء من الغد.

عبيدُ اللَّه بنُ عمرَ بنِ أحمدَ بنِ عثمانَ، أبو القاسم الواعظُ المعروفُ بابن شاهينَ: سمع من أبي بكرِ بنِ مالكٍ وابنِ ماسي وأبي بحرٍ البَرْبَهاريِّ وابنِ المظَفَّر. قال الخطيبُ: كَتَبْتُ عنه، وكان صدوقًا. وكان مولدُه في سنةِ إحدىٰ وخمسين وثلاثمائة، وتُوُفِّي في ربيعٍ الآخرِ من هذه السنةِ، ودُفِن ببابِ حربٍ، رحمه اللَّهُ.

عليُّ بنُ الحسنِ بنِ محمدِ بنِ المُنْتاب، أبو القاسمِ، المعروفُ بابنِ أبي عثمانَ الدَّقَّاقُ: قال

الخطيبُ: سمع القَطِيعيَّ وغيرَه، وكان شيخًا صالحًا، صدوقًا دَيِّنًا، حسَنَ المَذْهَب.

محمدُ بنُ جعفرِ بن أبي الفرجِ بن فَسانْجسَ الوزيرُ، أبو الفرجِ المُلَقَّبُ بذي السَّعادات: ، وزَرَ لأبي كاليجارَ بفارسَ وبغدادَ، وكان ذا مُروءةٍ غزيرةٍ، مليحَ الشعرِ والتَّرَسُّلِ، ومِن محاسنِه أنه كُتِبَ إليه في رجلٍ مات عن ولدٍ له ثمانيةُ أشهرٍ، وله مِن المالِ ما يُقاربُ مائةَ ألفِ دينارٍ، فإن رأى الوزيرُ أن يَقْتَرِضَ مِن العينِ إلى حينِ بُلوغِ الطفلِ، فكتَب على ظهرِ الورقة: المُتوَفَّى رحمه اللَّهُ، والطفلُ جبَره اللَّهُ، والمالُ ثمَّره اللَّهُ، والساعي لعَنه اللَّهُ، ولا حاجةَ لنا إلى مالِ الأيتامِ. اعتُقِل ثم قُتِل في رمَضانَ من هذه السنةِ عن إحدى وخمسين سنةً.

محمدُ بنُ محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ غَيْلانَ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ غَيْلانَ بنِ حكيمِ بنِ غَيْلانَ، أبو طالبٍ البزَّازُ: ، روَى عن جَماعةٍ، وهو آخرُ مَن حدَّث عن أبي بكرٍ الشافعيِّ، وكان صدوقًا دَيِّنًا صالحًا، قويَّ النفسِ على كِبَرِ السنِّ، كان يَمْلِكُ ألفَ دينارٍ، فكان يَصُبُّها كلَّ يومٍ في حجْرِه فيُقَبِّلُها، ثم يَرُدُّها إلى موضعِها، وقد خرَّج له الدارَقطنيُّ الأجزاءَ الغَيْلانيَّات، وهي سماعُنا. وكانت وفاتُه يومَ الإثنين سادسَ شوالٍ مِن هذه السنةِ عن أربعٍ وتسعين سنةً، ويقالُ: إنه بلَغ مائةً وخمسَ سنين. فاللَّهُ أعلمُ.

الملكُ أبو كاليجارَ واسمُه المَرْزُبانُ بنُ سلطانِ الدولة بنِ بَهاءِ الدولة بنِ عَضُدِ الدولة: ، كانت وفاتُه في هذه السنةِ عن أربعين سنةً وأشهرٍ، وقد وَلِي العراقَ نحوًا مِن أربعِ سنين، ونُهِبَت له قلْعةٌ كان فيها ما يَزيدُ على ألفِ ألفِ دينارٍ، وقام بالأمرِ مِن بعدِه ابنُه الملكُ الرحيمُ أبو نصرٍ.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وأربعمائة

في عاشرِ المحرَّمِ تُقُدِّم إلى أهلِ الكَرْخِ أن لا يَعْمَلوا بِدْعَةَ النَّوْحِ، فجرَت بينَهم وبينَ أهلِ بابِ البصرةِ ما يَزيدُ على الحد؛ مِن الجِراحِ والقتلِ.

وفيها: بنَى أهلُ الكرخِ سُورًا عليه، وبنَى أهلُ السُّنَّةِ سورًا على سوقِ القَلَّائين، ونقَض كلٌّ مِن الفريقَيْن أبنيَتَه، وحمَلوا الآجُرَّ إلى مَواضعَ بالطُّبولِ والمَزاميرِ، وجرَت بينَهم مُفاخَراتٌ في ذلك وسُخْفٌ لا تَنْحَصِرُ ولا تَنْضَبِطُ، ثم وقَعت بينَهم فتنٌ يَطولُ ذكرُها، وأحْرَقوا دُورًا كثيرةً جدًّا، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

وفيها: وقَعت وَحْشةٌ بينَ الملكِ طُغْرُلْبَك وأخيه إبراهيمَ يَنَّال، فأمَر طُغْرُلْبَك بضربِه وسَمْلِ إحدى عينيه وقطْعِ شَفَتَيه، فسارَ إبراهيمُ فجمَع جُموعًا كثيرةً، فاقْتَتَل هو وأخوه فهزمه طُغْرُلْبَك، ثم أسَره مِن قلعةٍ قد تحصَّن بها، بعدَ مُحاصَرةِ أربعةِ أيامٍ، فاسْتَنْزَله مقهورًا، فأحْسَن إليه وأكْرَمه، وأقام عندَ أخيه مُكرَّمًا.

وكتَب ملكُ الرومِ إلى طُغْرُلْبَك في فداءِ بعضِ مُلوكِهم ممَّن كان أسَره إبراهيمُ يَنَّال، ويَبْذُلُ له فيه قطعةً كثيرةً مِن المالِ، فبعَثه إليه مجَّانًا مِن غيرِ عِوَضٍ اشْتَرَطه عليه، فأرْسَل ملكُ الرومِ هَدايا كثيرةً

وتحفًا غزيرةً، وأمَر بعمارة المسجد الذي بالقُسْطَنْطِينية، وأُقيمَت فيه الصلاةُ والجمعةُ، وخُطب فيه للملك طُغْرُلْبَك، فبلَغ هذا الأمرُ العَجيبُ سائرَ الملوك، فعظَّموا الملكَ طُغْرُلْبَك تَعْظيمًا زائدًا، وخطَب له نصرُ الدولة بنُ مَرْوانَ بالجزيرة.

وفيها: ولي مسعودُ بنُ مَوْدودِ بنِ مسعودِ بنِ محمودِ بنِ سُبُكْتِكِين المُلْكَ بعدَ وفاة أبيه، وكان صغيرًا، فمكَث أيامًا، ثم عُدل عنه إلى عمِّه عليِّ بنِ مسعودٍ، ثم نازَعه عمُّه عبدُ الرشيد بنُ محمودٍ، فاستقر الملكُ بيده، وانعزَل عليُّ بنُ مسعودٍ، وهذا أمرٌ غريبٌ جدًّا، فللَّه الأمرُ من قبلُ ومن بعد.

وفيها: ملَك المصْريون مدينةَ حلَبَ، وأجْلَوْا عنها صاحبَها ثُمالَ بنَ صالحِ بنِ مِرْداسٍ.

وفيها: كان بينَ البَساسيريِّ وبينَ بني عُقَيْلٍ حربٌ.

وفيها: ملَك البَساسيريُّ الأنبارَ من يدِ قِرْواشٍ، فأصْلَح أمورَها.

وفي شعبانَ منها سار البَساسيريُّ إلى طريقِ خُراسانَ، وقصَد ناحيةَ الدَّزْدارِ وملَكها، وغنِم مالاً كثيرًا كان فيها، وكان سُعْدَىٰ بنُ أبي الشَّوْك قد حصَّنها.

قال ابنُ الجوزيِّ: في ذي الحجَّةِ ارْتَفَعَت سَحابةٌ سوداءُ ليلاً، فزادَت على ظلمةِ الليلِ، وظهَر في جَوانبِ السماءِ كالنارِ المُضْرَمةِ، فانْزَعَج الناسُ لذلك، وخافوا وأخَذوا في الدعاءِ والتَّضَرُّعِ، فانْكشَف في باقي الليلِ بعدَ ساعةٍ.

وكانت قد هبَّت ريحٌ شديدةٌ جدًّا قبلَ ذلك، فأتْلَفَت شيئًا كثيرًا من الأشجارِ، وهدَمت رَواشن كثيرةً من دارِ الخلافة ودارِ المَمْلكة.

ولم يحُجَّ أحدٌ من أهلِ العراقِ في هذه السنة.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمدَ بن أحمدَ بن منصور أبو الحسن، المعروفُ بالعَتيقيِّ: ، نسبةً إلى جدٍّ له كان يُسَمَّى عَتِيقًا، سمع من ابنِ شاهينَ وغيره، وكان صدوقًا.

تُوُفِّي في صفرٍ منها وقد جاوَز السبعين.

عليُّ بنُ عبد اللَّه بن الحسين أبو القاسم العلَويُّ: ، ويُعْرَفُ بابنِ الشَّبِيبة. قال الخطيبُ: سمع من ابن مُظَفَّرٍ وكتَبتُ عنه، وكان صَدوقًا دَيِّنًا حسَنَ الاعْتقادِ، يُوَرِّقُ بالأُجْرةِ ويأكُلُ منه ويتَصَدَّقُ. تُوُفِّي في رجبٍ منها وقد جاوَز الثمانين.

عبدُ الوهَّاب بنُ أقضى القضاة أبي الحسن الماورديِّ: يُكَنَّىٰ أبا الفائز، شهِد عندَ ابنِ ماكُولا في سنة إحدىٰ وثلاثين، فأجاز شهادتَه احترامًا لأبيه، تُوُفِّي في المُحَرَّم من هذه السنة.

الحافظُ أبو عبد اللَّه محمدُ بنُ عليِّ بن عبد اللَّه بن محمد الصُّوريُّ الحافظُ: ، طلَب الحديثَ بنفسه بعدَ ما كبِر وأسَنَّ، فرحَل في طلبِ الحديثِ إلى الآفاقِ، وكتَب الكثيرَ، وصنَّف واسْتَفاد على الحافظ عبد الغنيِّ بنِ سعيدٍ المصريِّ، وكتَب عنه شيخُه عبدُ الغنيِّ شيئًا في تَصانيفه، وكان من أعظمِ

أهلِ الحديثِ هِمَّةً في الطَّلَبِ وهو شابٌّ، ثم كان مِن أقوَىٰ الناسِ عَزيمةً علىٰ العملِ الصالحِ، كان يَسرُدُ الصومَ كلَّ يومٍ إلا يومَيِ العيدين وأيامَ التَّشريقِ، وكان مع ذلك حسَنَ الخُلُقِ جَميلَ المُعاشرةِ، وقد ذهَبَت إحدىٰ عينيه، فكان يَكْتُبُ بالأخرىٰ المُجلَّدَ في جزءٍ. قال أبو الحسنِ بنُ الطُّيوريِّ: يُقالُ: إن عامَّةَ كُتبِ الخطيبِ سِوَىٰ «التاريخِ» مُستَفادةٌ مِن كتبِ أبي عبدِ اللَّهِ الصُّوريِّ. كان قد مات الصُّوريُّ وترَكَ كتبَه اثنَيْ عشَرَ عِدْلاً عندَ أخيه، فلما صار الخطيبُ إلىٰ الشامِ أَعْطَىٰ أخاه شيئًا، وأخَذَ بعضَ تلك الكتبِ، فحوَّلها في كتبِه.

ومِن شعرِ أبي عبدِ اللَّهِ الصُّوريِّ:

تَولَّى الشبابُ برَيْعانه ... وجاء المَشيبُ بأحزانه
فقلبي لفُقدانِ ذا مُؤلَمٌ ... كئيبٌ بهذا ووِجْدانه
وإن كان ما جار في سيرِه ... ولا جاء في غيرِ إبَّانه
ولكن أتَى مُؤذِنًا بالرحيلِ ... فوَيْلي مِن قربِ إيذانه
ولولا ذنوبٌ تحَمَّلتُها ... لَما راعَني حالَ إتيانه
ولكنَّ ظَهْري ثقيلٌ بما ... جَناه شبابي بطُغيانه
فمَن كان يَبكي شَبابًا مضَىٰ ... ويَندُبُ طَيِّبَ أزمانه
فليس بُكائي وما قد ترَوْ ... ن منِّي لوَحْشة فُقدانه
ولكن لمَا كان قد جرَّهُ ... عليَّ بوثباتِ شَيْطانه
فوَيْلي وعَوْلِيَ إن لم يَجُدْ ... عليَّ مَليكي برِضْوانه
ولم يَتَغَمَّدْ ذُنوبي وما ... جَنَيْتُ بواسعِ غُفرانه
ويَجعَلْ مَصيري إلى جنة ... يُحلُّ بها أهلَ قُربانه
وإن كنتُ ما ليَ مِن قُربةٍ ... سوى حسنِ ظنِّي بإحسانه
وأنِّي مُقرٌّ بتوحيدهِ ... عليمٌ بعِزَّةِ سُلطانه
أُخالفُ في ذاك أهلَ الجحودَ ... وأهلَ الفسُوق وعُدْوانه
وأرْجُو به الفوزَ في منزلٍ ... مُقَرٍّ لأعينِ سُكَّانه
ولن يَجْمَعَ اللَّهُ أهلَ الجُحودِ ... ومَن قد أقرَّ بإيمانه
فهذا يُنَجِّيه إيمانُه ... وهذا يَبُوءُ بخُسْرانه
وهذا يُنَعَّمُ في جنةٍ ... وذلك في قَعرِ نيرانه

ومِن شعرِه أيضًا، رحِمه اللَّهُ تعالىٰ:

قل لَمن عانَد الحديثَ وأضحَىٰ ... عائبًا أهلَه ومَن يَدَّعيه
أبعلمٍ تقولُ هذا أبِنْ لي ... أم بجهلٍ فالجهلُ خُلُقُ السَّفيه
أيُعابُ الذين هم حفِظوا الديـ ... ـنَ من التُّرَّهاتِ والتَّمْويه
وإلى قولِهم وما قد روَوْه ... راجعٌ كلُّ عالمٍ وفقيه

وكان سببَ وفاته رحمه اللَّهُ أنه افْتَصَدَ، فورِمَت يدُه، لأنه - على ما ذُكر - كانت ريشةُ الحاجم مَسْمومةً لغيره، فغلط ففصَدَه بها، فكانت فيها مَنِيَّتُه بإذن اللَّه وقدره، فحُمل إلى المارَسْتان، فمات به في يوم الأربعاء سَلْخَ جمادىٰ الآخرة من هذه السنة، ودُفن بمقبرة جامع المدينة، وقد نيَّف على الستين سنةً، أسأل اللَّه تعالى أن يرحمَه وإيَّانا بمَنِّه وكرمه، آمين.

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين وأربعمائة

فيها: فتَح السلطانُ طُغْرُلْبَك أصْبَهانَ بعد حصار سنة، فنقَل إليها حَواصلَه من الرَّيِّ، وجعَلها دارَ إقامته، وخرَّب قطعةً من سُورها، وقال: إنما يَحتاجُ إلى السُّور مَن تَضْعُفُ قوتُه، وإنما حِصْني عَساكِري وسيفي. وقد كان فيها أبو منصور قرامرز بنُ علاء الدولة أبي جعفر بن كاكَوَيه، فأخْرَجه منها وأقْطَعَه بعضَ بلادها.

وفيها: سار الملكُ الرحيمُ إلى الأهواز، وأطاعه عَسْكرُ فارسَ وملَك عسكرَ مُكرم.

وفيها: استَوْلَت الخوارجُ على عُمانَ، وأخرَبوا دارَ الإمارة فيها، وأسَروا أبا المُظفَّر بنَ أبي كاليجارَ.

وفيها: دخَلَت العربُ بإذن المُسْتَنْصِر الفاطميِّ بلادَ إفْريقيَّةَ، وجرَت بينَهم وبينَ المُعِزِّ بن باديسَ حروبٌ طويلةٌ، وعاثوا في الأرض فَسادًا عدةَ سنين.

وفيها اصْطَلَح الرَّوافضُ والسنَّةُ ببغدادَ، وذهَبوا كلُّهم لزيارة مشهد عليٍّ ومشهد الحسين، وترَضَّوا في الكَرْخ عن الصَّحابة كلِّهم، وترَحَّموا عليهم، وهذا عجيبٌ جدًّا، إلا أن يكونَ من باب التَّقِيَّة.

ورخُصَت الأسعارُ ببغدادَ جدًّا. ولم يحُجَّ أحدٌ من أهل العراق.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

عليُّ بنُ عمرَ بن محمد بن الحسن، أبو الحسن الحَرْبيُّ، المعروفُ بالقَزْوينيِّ، وُلد في مُسْتَهَلِّ المُحَرَّم في سنة ستين وثلاثمائة، وهي الليلةُ التي تُوُفِّي فيها أبو بكر الآجُرِّيُّ، وسمع أبا بكر بنَ شاذانَ وأبا حفص بنَ الزَّيَّات وابنَ حَيَّوَيْه، وكان وافرَ العقل، من كبار عباد اللَّه الصالحين، له كَراماتٌ كثيرةٌ، وكان يُقرِئ القرآنَ ويَرْوي الحديثَ، ولا يَخْرُجُ إلا للصلاة.

وكانت وفاتُه في شعبانَ من هذه السنة، فغُلِّقَت بغدادُ يومَئذٍ، وحضَر الناسُ جنازتَه، وكان يومًا مَشْهودًا، رحمه اللَّهُ.

عمرُ بنُ ثابت الثَّمانينيُّ، النَّحْويُّ الضَّريرُ، شارحُ «اللُّمَع»، كان في غاية العلم بالنحو، وكان يأتَجِرُ عليه. وذكَر ابنُ خَلِّكان أنه اشْتَغل على ابن جنيٍّ، وشرَح كلامَه، وكان ماهرًا في صناعة النحو، قال: وهذه النسبةُ إلى قرية من نَواحي جزيرة ابن عمرَ عندَ الجبل الجُوديِّ، يقالُ لها: ثَمانينَ. باسم الثَّمانينَ الذين كانوا مع نوح عليه السلامُ في السفينة، واللَّهُ أعلمُ.

قِرْواشُ بنُ مُقَلَّد، أبو المَنيع، صاحبُ الموصل والكوفة وغيرهما، كان من الجبَّارين، وقد كاتَبه الحاكمُ صاحبُ مصرَ في بعض الأحيان، فاسْتَماله إليه، فخطَب له ببلاده، ثم ترَكه، واعْتَذَر إلى القادر فعذَره، وقد جمَع هذا الجبَّارُ بينَ أختَيْن في النكاح، فلامَتْه العربُ، فقال: وأيُّ شيء نعملُه مما

هو مُباحٌ في الشريعة؟! وقد نُكب في أيام المُعزِّ الفاطميِّ، ونُهِبَت حَواصلُه، وحينَ تُوُفِّي قام بالأمرِ بعدَه ابنُ أخيه قُريشُ بنُ بَدْرانَ بنِ مُقَلَّدٍ.

مَوْدودُ بنُ مسعود بن محمود بنِ سُبُكْتكين، صاحبُ غَزْنةَ، تُوُفِّي في هذه السنةِ، وقام بالأمرِ من بعده عمُّه عبدُ الرشيدِ بنُ محمودِ بنِ سُبُكْتِكِين.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة

في صفَرٍ منها وقَع الحربُ بينَ الرَّوافضِ والسنة، فقُتل من الفريقَيْن خلقٌ كثيرٌ، وذلك أن الروافضَ نصبُوا أبْراجًا، وكتَبوا عليها بالذهب: محمدٌ وعليٌّ خيرُ البشرِ، فمَن رضي فقد شكَر، ومَن أبَىٰ فقد كفَر. فأنكرَت السنَّةُ اقْترانَ عليٍّ مع النبيِّ ﷺ في هذا، فنَشِبت الحربُ بينَهم، واستَمرَّ القتالُ بينَهم إلىٰ ربيعٍ الأولِ، فقُتل رجلٌ هاشميٌّ، فدُفِن عندَ الإمام أحمدَ، ورجَع السنةُ من دفنه، فنهَبوا مشهدَ موسىٰ بنِ جعفرٍ وأحرَقوه، وأحْرَقوا ضَريحَ موسىٰ ومحمدٍ الجَوادِ، وقبورَ ملوكِ بني بُوَيْهِ ومَن هناك من الوُزراءِ، وأُحرِق قبرُ جعفرِ بنِ المنصورِ، ومحمدٍ الأمين، وأمِّه زُبَيْدةَ، وقبورٌ كثيرةٌ جدًّا، وانتَشرَت الفتنةُ وتجاوزَت الحدَّ، وقد قابَلَهم أولئك أيضًا بمَفاسدَ كثيرةٍ، فأحرقوا محالَّ كثيرةً وبعثَروا قبورًا قديمةً، وأحرَقوا مَن فيها من الصالحين، حتىٰ همُّوا بقبرِ الإمامِ أحمدَ، فمنَعهم النَّقيبُ، وخاف من غائلةِ ذلك، وتسلَّط علىٰ الرافضةِ عيَّارٌ يقالُ له: الطقيطقيُّ. وكان يَتتبَّعُ رُءوسَهم وكبارَهم فيَقْتُلُهم جهارًا غِيلةً، وعظُمَت المحنةُ بسببِه جدًّا، ولم يَقْدِرْ عليه أحدٌ، وكان في غايةِ الشجاعةِ والبأسِ والمَكْرِ، ولما بلَغ ذلك دُبَيْسَ بنَ عليِّ بنِ مَزْيَدٍ، وكان رافضيًّا، قطَع خطبةَ الخليفةِ القائمِ باللَّهِ، ثم رُوسِل فأعادَها.

وفي رمضانَ جاءت الهدايا من الملكِ طُغْرُلْبَك إلىٰ الخليفةِ شكرًا له علىٰ إنْعامه عليه وإحسانه إليه بما كان بعَثه له من الخِلَعِ والتَّقْليدِ، وأرْسَل إلىٰ الخليفةِ بعشرين ألفَ دينارٍ، وإلىٰ الحاشيةِ بخمسةِ آلافٍ، وإلىٰ رئيسِ الرُّؤساءِ بألْفَيْ دينارٍ، وقد كان طُغْرُلْبَك حينَ عمَّر الرَّيَّ وخرَّب فيها أماكنَ لِيُصلحَها وجَد فيها دفائنَ كثيرةً من الذهبِ والجَوهرِ، فعظُم شأنُه بذلك، وقوِي ملكُه بسببِه.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيانِ:

محمدُ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ، أبو الحسنِ الشاعرُ البُصْرَويُّ؛ نسبةً إلىٰ قريةٍ دونَ عُكْبَرا يقالُ لها: بُصْرَىٰ. باسمِ المدينةِ التي هي أمُّ حَوْرانَ، وقد سكَن بغدادَ، وكان مُتكَلِّمًا مَطْبوعًا، له نَوادرُ، ومن شعرِه الذي رواه عنه الخطيبُ:

تَرَى الدنيا وزهرتَها فتَصْبُو ... وما يَخلُو من الشَّهَواتِ قلبُ
فُضولُ العيشِ أكثرُها هُمومٌ ... وأكثرُ ما يَضُرُّك ما تُحِبُّ
فلا يَغْرُرْكَ زُخْرُفُ ما تراه ... وعَيْشٌ ليِّنُ الأعطافِ رَطْبُ
إذا ما بُلْغَةٌ جاءتك عفوًا ... فخُذْها فالغنَىٰ مَرْعًى وشُرْبُ
إذا اتَّفَق القليلُ وفيه سِلْمٌ ... فلا تُرِدِ الكثيرَ وفيه حَرْبُ

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وأربعمائة

فيها: كُتِبَت محاضرُ بذكر الخلفاء المصريين، وأنهم أدْعِياءُ لا نسَبَ لهم صحيحًا إلى رسول الله ﷺ، وكتَب فيها القُضاةُ والفُقهاءُ والأشْرافُ.

وفيها: كانت زَلازلُ عظيمةٌ بنَواحي أرَّجانَ والأهْوازِ وتلك البلادِ، تَهَدَّم بسببها شيءٌ كثيرٌ من العُمْرانِ والدورِ وشُرُفاتِ القُصورِ، وحكَى بعضُ مَن يُعْتَمَدُ قولُه أنه انْفَرَج إيوانُه وهو يُشاهِدُ ذلك، حتى رأى السماءَ منه، ثم عاد إلى حاله لم يَتَغَيَّرْ.

وفي ذي القَعْدةِ منها تجدَّدت الحربُ بينَ الرَّوافضِ وأهلِ السنةِ، وأحْرَقوا أماكنَ كثيرةً وقُتِل من الفريقَيْن خَلائقُ، وكتبوا على مساجدهم: محمدٌ وعليٌّ خيرُ البشرِ. وأذَّنوا بحيَّ على خيرِ العملِ، واستَمَرَّت الحربُ بينَهم وتسلَّط الطقيطقيُّ العَيَّارُ على الرَّوافضِ بحيث إنه لم يَقِرَّ لهم معه قَرارٌ، وهذا من جملةِ ما جرَت به الأقْدارُ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

الحسنُ بنُ عليِّ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ أحمدَ بنِ وهبِ بنِ شُبيلِ بنِ فروةَ بنِ واقدٍ، أبو عليٍّ التَّميميُّ، الواعظُ المعروفُ بابنِ المُذْهِبِ وُلِد سنةَ خمسٍ وخمسين وثلاثمائةٍ، وسمِع «مُسندَ الإمامِ أحمدَ» من أبي بكرِ بنِ مالكٍ القَطيعيِّ، عن عبدِ اللهِ بنِ الإمامِ أحمدَ، عن أبيه، وقد سمع الحديثَ من أبي محمدِ بنِ ماسي وابنِ شاهينَ والدارَقُطْنيِّ وخَلْقٍ، وكان دَيِّنًا خَيِّرًا، وقد ذكَر الخطيبُ أنه كان صَحيحَ السَّماعِ لـ «مسندِ أحمدَ» من القَطيعيِّ، غيرَ أنه ألْحقَ اسمَه في أجْزاءٍ.

قال ابنُ الجوزيِّ: وليس هذا بقَدْحٍ؛ لأنه إذا تحقَّق سماعُه جاز أن يُلْحِقَ اسمَه الذي غفَل عنه الكاتبُ، والعجبُ أن يُجازَ قولُ الشيخِ: أخبرني فلانٌ. ولا يُسْمَعُ منه إلحاقُه اسمَه فيما تحقَّق سماعُه له. وقد عاب عليه الخطيبُ أشياءَ لا حاجةَ إليها.

عليُّ بنُ الحسينِ بنِ محمدٍ، أبو الحسنِ المعروفُ بالشبّاشِ، البغداديُّ، وقد أقام بالبصرةِ فاستَحْوَذ هو وعمُّه عليها وعلى أهلِها، وعمِل أشياءَ من الحِيَلِ يُوهِمُ بها أنه من ذَوي الأحْوالِ والمُكاشَفاتِ، وهو في ذلك كاذبٌ فاجرٌ، قبَّحه اللهُ وقبَّح عمَّه، وقد كان مع هذا رافضيًّا خَبيثًا قِرْمِطيًّا، لا كثَّر اللهُ من أمثالِه في العالمين. كانت وفاتُه في هذا العامِ، فللهِ الحمدُ والشكرُ على الإنْعامِ.

القاضي أبو جعفرٍ محمدُ بنُ أحمدَ بنِ محمدٍ أبو جعفرٍ السِّمْنانيُّ القاضي، أحدُ المُتَكلِّمين على طريقةِ الشيخِ أبي الحسنِ الأشْعَريِّ، وقد سمع الحديثَ من الدارَقُطْنيِّ وغيرِه، كان عالمًا فاضلًا سَخيًّا، تولَّى القَضاءَ بالموصلِ، وكان له في دارِه مجلسٌ للمُناظَرةِ، وتُوُفِّي بعدَ ما كُفَّ بصرُه بالموصلِ، وهو قاضيها في هذه السنةِ في ربيعٍ الأولِ، وقد بلَغ خمسًا وثمانين سنةً.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وأربعمائة

فيها: تجدَّد الشرُّ والقتالُ والحَريقُ بينَ الرَّوافضِ والسنَّةِ وقَوِي، وتفاقَم الحالُ.

ووردَت الأخبارُ بأن الغُزَّ على قصد العراق.

وفيها: نُقل إلى الملك طُغْرُلْبَك أن الشيخَ أبا الحسنِ الأشعريَّ يقولُ بكذا وكذا، وذُكر أشياءُ من الأمورِ التي أنكرها الملكُ. فأمَر بلعنه، وصرَّح أهلُ نَيْسابورَ بتكْفيرِ مَن يقولُ ذلك، فضجَّ أبو القاسمِ القُشَيْريُّ عبدُ الكريمِ بنُ هَوازِنَ، وصنَّف رسالةً سماها «شكايةَ أهلِ السنةِ لما نالَهم من المحْنةِ»، واستَدْعَى السلطانُ جماعةً مَن رُءوسِ الأشاعرةِ، منهم القُشَيْريُّ، فسألَهم عما أُنْهِيَ إليه من ذلك، فأنكَروا أن يكونَ الأشْعريُّ قال ذلك، فقال: نحن إنما لعنَّا مَن يقولُ بذلك. وجرَت فتنٌ طويلةٌ.

وفيها: استَوْلى فولاستونُ أبو منصورِ بنُ الملكِ أبي كاليجارَ على شيرازَ، وخرَج منها أخوه أبو سعدٍ.

وفي شوالٍ سار البَساسيريُّ إلى أكرادٍ وأعرابٍ أفسَدوا بالبوازيجِ، فهزمَهم وأخَذ أموالَهم. ولم يَحُجَّ فيها أحدٌ من أهلِ العراقِ أيضًا.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ عمرَ بنِ رَوْحٍ، أبو الحسنِ النَّهْرَوانيُّ، كان يَنْظُرُ في العِيَارِ بدارِ الضَّرْبِ، وله شعرٌ حسنٌ. قال: كنتُ يومًا على شطِّ النَّهْروانِ، فسمعْتُ رجلًا يَتَغَنَّى في سفينةٍ مُنْحَدِرةٍ:

وما طَلَبوا سِوَى قَتْلى ... فهانَ عليَّ ما طَلَبوا

فاستَوْقَفتُه وقلتُ: أَضِفْ إليه أيضًا:

على قَتْلى الأحِبَّةُ بالتـ ... ـتَمادي في الجَفَا غلَبوا
وبالهِجْرانِ طِيبُ النَّو ... مِ مِن عَيْني قد سَلَبوا
وما طَلَبوا سِوَى قتْلى ... فهانَ عليَّ ما طَلَبوا

إسماعيلُ بنُ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ محمدِ بنِ زَنْجُويه، أبو سعدٍ الرازيُّ، المعروفُ بالسَّمَّانِ، شيخُ المُعْتَزِلةِ، سمِع الحديثَ الكثيرَ، وكَتَب عن أربعةِ آلافِ شيخٍ، وكانَ عالمًا بارعًا فاضلًا مع اعتزالِه، ومن كلامِه: مَن لم يكْتُبِ الحديثَ لم يَتَغَرْغَرْ بحَلاوةِ الإسلامِ. وكان حنفيَّ المذهبِ، عالمًا بالخلافِ والفَرائضِ والحسابِ وأسماءِ الرجالِ، وقد ترْجَمه ابنُ عساكرَ في «تاريخِه» فأطْنَب في شكرِه والثَّناءِ عليه.

عمرُ بنُ الشيخِ أبي طالبٍ المكيِّ محمدِ بنِ عليِّ بنِ عَطيةَ، سمِع أباه وابنَ شاهينَ، وكان صَدوقًا، يُكَنَّى بأبي حفصٍ.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عثمانَ بنِ الفرجِ بنِ الأزْهَرِ، أبو طالبٍ، المعروفُ بابنِ السَّواديِّ، وهو أخو أبي القاسمِ الأزْهَريِّ، تُوُفِّي عن نَيِّفٍ وثمانينَ سنةً.

محمدُ بنُ محمدِ بنِ أبي تمَّامٍ، أبو تمَّامٍ الزَّيْنَبيُّ، نَقيبُ النُّقَباءِ، قام ابنُه مكانَه في النِّقابةِ.

ثم دخلت سنة ست وأربعين وأربعمائة

فيها: غزا السلطانُ طُغْرُلْبَك بلادَ الرومِ بعدَ أخذِه بلادَ أذْرَبِيجانَ، فغنِم من بلادِ الرومِ وسبَىٰ، وعمِل أشياءَ حسَنَةً، ثم عاد سالمًا إلىٰ أذْرَبِيجانَ فأقام بها سنةً.

وفيها: أخَذ قُرَيشُ بنُ بَدْرانَ الأنبارَ، وخطَب بها وبالموصلِ للسلطانِ طُغْرُلْبَك، وأخرَج منها نُوَّابَ البَساسيريِّ.

وفيها: دخَل أبو الحارثِ المظفَّرُ البَساسيريُّ إلىٰ بغدادَ مع بني خَفاجةَ مُنصرَفَه من الوَقْعةِ، وظهَرت منه آثارُ النُّفْرةِ للخلافةِ، فراسَله الخليفةُ لتَطيبَ نفسُه، وخرَج في ذي الحجَّةِ إلىٰ الأنبارِ فأخَذها، وكان معه دُبَيْسُ بنُ عليِّ بنِ مَزْيَدٍ، وخرَّب أماكنَ، وحرَّق غيرَها، ثم أذِن له في الدخولِ إلىٰ بيتِ النُّوبةِ ليخلَعَ عليه، فجاء إلىٰ حاذَىٰ بيتَ النُّوبةِ، فخدَم وانصرَف ولم يَعْبُرْ، فقوِيَت الوَحْشةُ.

ولم يَحجَّ أحدٌ من أهلِ العراقِ في هذه السنةِ أيضًا.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

الحسينُ بنُ جعفرِ بنِ محمدِ بنِ جعفرِ بنِ داودَ، أبو عبدِ اللهِ السَّلَماسيُّ، سمِع ابنَ شاهينَ وابنَ حَيُّويَه والدارقطنيَّ، وكان ثقةً أمينًا، مشهورًا باصْطناعِ المعروفِ، وفعْلِ الخيرِ، وافتِقادِ الفقراءِ، وكثرةِ الصَّدَقةِ، وكان قد أُريد علىٰ الشهادةِ، فأبَىٰ من ذلك. في كل شهرٍ عشَرةُ دنانيرَ نفقةً لأهله.

عبدُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ عبدِ الرحمنِ، أبو عبدِ اللهِ الأصبَهانيُّ، المعروفُ بابنِ اللَّبَّانِ، أحدُ تَلامذةِ الشيخِ أبي حامدٍ الإسْفَرايِينيِّ، ولِي قضاءَ إيذجَ، وكان يُصلِّي بالناسِ التَّراويحَ، ثم يقومُ بعدَهم إلىٰ الفجرِ، فربما انقَضَىٰ الشهرُ عنه ولم يَضْطَجِعْ إلىٰ الأرضِ، رحِمه اللهُ.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وأربعمائة

فيها: ملكَ طُغْرُلْبَك بغدادَ، وهو أولُ ملوكِ السَّلْجُوقيةِ لبلادِ العراقِ وآخرُ مُلكِ بني بُويه.

وفيها: تأكَّدَت الوَحْشةُ بينَ البَساسيريِّ وبينَ الخليفةِ، واشْتكَت الأتراكُ منه، وأطلَق رئيسُ الرؤساءِ عبارتَه فيه، وذكَر قَبيحَ أفعالِه، وأنه كاتَب المصْريِّين بالطاعةِ، وخلَع ما كان عليه من بيعةِ العباسيِّين، وقال الخليفةُ: ليس إلا إهلاكُه.

وفيها: غلَت الأسعارُ بنَواحِي الأهْوازِ، حتىٰ بِيع الكُرُّ في مدينةِ شيرازَ بألفِ دينارٍ.

وفيها: وقَعت الفتنةُ بينَ السنَّةِ والرافضةِ علىٰ العادةِ، فاقتَتَلوا قتالًا شديدًا مُسْتَمِرًّا، ولا تمكَّن الدولةُ أن يَحْجزوا بينَ الفريقَيْن.

وفيها: وقَعت الفتنةُ بينَ الأشاعرةِ والحنابلةِ، وكان جانبُ الحنابلةِ قويًّا بحيث إنه كان لا يتمكنُ أحدٌ من الأشاعرةِ شهودَ الجماعاتِ. قاله ابنُ الجوزيِّ في «المنتظَم».

قال الخطيبُ: كان أرْسلانُ التركيُّ المعروفُ بالبَساسيريِّ قد عظُم أمرُه واستَفْحل، لعدمِ أقرانِه من متقدِّمي الأتراك، واستَوْلى على البلادِ، وطار اسمُه، وتهيَّبَتْه أمراءُ العربِ والعجمِ، ودُعِي له على كثيرٍ من المنابرِ العراقيةِ والأهوازِ ونواحيها، وجبى الأموالَ، ولم يكُنِ الخليفةُ القائمُ بأمرِ اللَّهِ يقطَعُ أمرًا دونَه، ثم صحَّ عندَ الخليفةِ سوءُ عقيدتِه، وشهِد عندَه جماعةٌ من الأتراكِ عرَّفهم وهو بواسطٍ عزمَه على نهْبِ دارِ الخلافةِ والقبضِ على الخليفةِ، فكاتَب الخليفةُ أبا طالبٍ محمدَ بنَ ميكائيلَ بنِ سَلْجوقَ المُلَقَّبَ طُغْرُلْبَك، يَسْتَنْهِضُه على المَسيرِ إلى العراقِ، فانْفَضَّ أكثرُ مَن كان مع البَساسيريِّ، وعادوا إلى بغدادَ سريعًا، ثم أجْمَع رأيُهم على قصدِ دارِ البَساسيريِّ، وهي في الجانبِ الغربيِّ فأحْرَقوها، وهدَموا أبنيتَها.

ووصَل طُغْرُلْبَك إلى بغدادَ في رمضانَ سنةَ سبعٍ وأربعين، قد تلَقَّاه إلى أثناءِ الطريقِ الأمراءُ والوُزراءُ والحُجَّابُ، ودخَل بغدادَ في أُبَّهةٍ عظيمةٍ جدًّا، وخُطِب له بها، ثم بعدَه للملكِ الرَّحيم، ثم قُطِعَت خُطبةُ الملكِ الرحيمِ في أواخرِ شهرِ رمضانَ، ورُفِع إلى القلْعةِ مُعْتَقَلًا، وكان آخرَ مُلوكِ بني بُوَيْه، وكانت مدةُ ولايتِه لبغدادَ ستَّ سنين وعشَرةَ أيامٍ، وطُغْرُلْبَك أولُ ملوكِ السلجوقيةِ، ونزَل طُغْرُلْبَك دارَ المَمْلكةِ بعدَ الفراغِ من عِمارتِها، ونزَل أصحابُه دورَ الأتراكِ، وكان معه ثمانيةُ أفيلةٍ، ووقَعت الفتنةُ بينَ الأتراكِ والعامَّةِ، ونُهِب الجانبُ الشرقيُّ بكمالِه، وجرَت خطوبٌ وخبْطةٌ عظيمةٌ. وأمَّا البَساسيريُّ فإنه فرَّ من الخليفةِ إلى ناحيةِ بلادِ الرَّحْبَةِ، وكَتَب إلى صاحبِ مصرَ بأنه على إقامةِ الدَّعوةِ له بالعراقِ، فأرْسَل إليه بولايةِ الرَّحْبةِ ونيابتِه بها؛ ليكونَ على أُهْبَةِ التمكنِ من الأمرِ الذي يحاولُه، قبَّحهما اللَّهُ تعالى.

وفي يومِ الثلاثاءِ عاشرِ ذي القَعْدةِ قُلِّد أبو عبدِ اللَّهِ محمدُ بنُ عليٍّ الدَّامَغَانيُّ قضاءَ القُضاةِ، وخُلع عليه به، وذلك بعدَ موتِ أبي عبدِ اللَّهِ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ ماكولا، ثم خُلع على الملكِ طُغْرُلْبَك بعدَ دُخولِه بغدادَ بيومٍ، ورجَع إلى دارِه وبينَ يديه الدَّبادِبُ والبُوقاتُ.

وفي هذا الشهرِ تُوُفِّي ذَخيرةُ الدِّينِ أبو العباسِ محمدُ بنُ أميرِ المؤمنين القائمِ بأمرِ اللَّهِ، وهو وليُّ عهدِ أبيه فعظُمَت الرزيَّةُ به، وجلَس رئيسُ الرؤساءِ للعزاءِ وجاء الناسُ، وقد أُمروا بتخريقِ ثيابِهم ونشرِ عمائمِهم والتَّحَفِّي، وقُطعت الدبادبُ أيامَ العزاءِ بدارِ الخلافةِ ودارِ الملكِ حزنًا على وليِّ عهدِ الخلافةِ.

وفي هذه السنةِ اسْتَوَلى أبو كاملٍ عليُّ بنُ محمدٍ الصُّلَيْحيُّ الهَمْدانيُّ على أكثرِ أعمالِ اليمنِ، وخطَب فيها للفاطميِّين، وقطَع خُطبةَ العباسيِّين.

وفيها: كثُر فَسادُ الغُزِّ ونهْبُهم، فثاورهم العوامُّ واقتتلوا، ونهَبوا العامةَ حتى أُبيع الثَّوْرُ بخمسةِ قَراريطَ، والحمارُ بقيراطين إلى خمسةِ قراريطَ.

وفيها: اشتدَّ الغَلاءُ بمكةَ، وعُدِمَت الأقواتُ، فأرْسَل اللَّهُ عليهم جَرادًا مِلْءَ الأرضِ، فتعَوَّضوا به عن الطعامِ.

ولم يحجَّ أحدٌ من أهل العراق في هذه السنة أيضًا.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

الحسينُ بنُ عليِّ بنِ جعفر بنِ علَّكانَ بن محمد بن دُلَفَ بنِ أبي دُلَفَ العِجْليُّ، قاضي القُضاة، أبو عبد اللَّه المعروفُ بابنِ ماكولا الشافعيُّ، أصلُه من أهلِ جَرْباذَقانَ، وولِي القَضاءَ بالبصرة، ثم ولأه القادرُ باللَّه قَضاءَ القُضاة ببغدادَ سنةَ عشرين وأربعمائة، وأقرَّه ابنُه القائم بأمرِ اللَّه إلى أن مات في هذه السنة عن تسعٍ وسبعين سنةً، منها في القَضاءِ سبعٌ وعشرون سنةً، وكان صيِّنًا ديِّنًا، لا يَقْبَلُ من أحدٍ هديةً ولا من الخليفة، وكان يَذْكُرُ أنه سمع من أبي عبدِ اللَّه بنِ مَنْدَه، وله شعرٌ حسنٌ، فمنه:

تَصابَى بُرْهَةً من بعدِ شيبٍ ... فما أغنَى مع الشَّيبِ التَّصابي
وسوَّدَ عارِضَيْه بلونِ خَضْبٍ ... فلم يَنْفَعْه تَسْويدُ الخِضابِ
وأبدَى للأحبَّةِ كلَّ لُطفٍ ... فما زادوا سِوَى فَرْطِ اجْتنابِ
سلامُ اللَّه عَوْدًا بعدَ بدءٍ ... على أيامِ رَيْعانِ الشَّبابِ
تولَّى غيرَ مذمومٍ وأبْقَى ... بقلبي حَسْرةً تحت الحِجابِ

عليُّ بنُ المُحَسِّنِ بنِ عليِّ بنِ محمدِ بنِ أبي الفَهْمِ، أبو القاسمِ التَّنوخيُّ، قال ابنُ الجَوْزيِّ: وتَنوخُ اسمٌ لعدَّةِ قبائلَ اجْتَمعوا بالبحْرَيْن، وتَحالَفوا على التَّناصُرِ والتآزُرِ، فسُمُّوا تَنوخًا. وُلِد بالبصرةِ سنةَ خمسٍ وستين وثلاثمائة، وسمع الحديثَ سنةَ سبعين، وقُبِلت شهادتُه عندَ الحُكَّام في حَداثته، وولِي القَضاءَ بالمَدائنِ وغيرِها، وكان صدوقًا مُحْتاطًا، إلا أنه كان يَميلُ إلى الاعْتزالِ والرفضِ.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وأربعمائة

في يوم الخميسِ لثمانٍ بقِين من المحرَّم عُقِد عقدُ الخليفةِ على خَديجةَ بنتِ أخي السلطانِ طُغْرُلْبَك - وقيل: ابنةُ أخيه داودَ، واسمُها خديجةُ، الملَقَّبةُ أرسلان خاتون - على صَداقِ مائةِ ألف دينارٍ، وحضر هذا العقدَ عَميدُ المُلْك الكُنْدُريُّ وزيرُ طُغْرُلْبَك، ونقيبُ العَلَويِّين، ونقيبُ الهاشميِّين، وقاضي القُضاة الدَّامَغانيُّ، وأقضى القُضاة الماوَرْديُّ، ورئيسُ الرُّؤساء ابنُ المُسْلمة وهو الذي خَطَب الخُطْبَةَ، وقَبِل الخليفةُ العقدَ، فلما كان شعبانُ ذهَب رئيسُ الرُّؤساء إلى الملك طُغْرُلْبَك وقال: يقولُ لك أميرُ المؤمنين: قال اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. وقد أذن في نقْلِ الوَديعة الكريمة إلى داره العزيزة. فقال: السمعُ والطاعةُ. فذهبَت أمُّ الخليفة إلى دارِ المملكة لاستدْعاءِ العَروس، فجاءت معَها، وفي خدمتِها الوزيرُ عَميدُ المُلْكِ والحَشَمُ، فدخَلوا دارَه، وشافَه الخليفةَ ابنُ عمِّها يسألُ معاملتَها باللطفِ والإحْسانِ، فلما دخلَت عليه قبَّلَت الأرضَ بينَ يديه مرارًا، فأدْناها إليه، وأجْلَسها إلى جانبِه، وأفاض عليها خِلْعةً سَنِيةً وتاجًا من جَوْهرٍ، وأعْطاها من الغَدِ مائةَ

ثوب ديباجًا، وقصبات من ذهب، وطاسة ذهب قد نبت فيها الجوهر والياقوت والفيروزج، وأقطعها في كل سنة من عمل الفرات اثني عشر ألف دينار.

وفي هذه السنة أمر السلطان طغرلبك ببناء دار الملك العضدية، فخربت محال كثيرة في عمارتها، ونهبت **العامة** أخشابًا كثيرة بسببها من دور الأتراك والجانب الغربي، وباعوه على الخبازين وغيرهم.

وفي هذه السنة وقع غلاء شديد وخوف ونهب كثير ببغداد، ثم عقب ذلك فناء عظيم بحيث دفن كثير من الناس بغير غسل ولا تكفين، وغلت الأشربة وما يحتاج إليه المرضى كثيرًا، واغبرّ الجو، وفسد الهواء وكثر الذباب.

قال ابن الجوزي في «منتظمه»: وعمّ هذا الوباء والغلاء مكة والحجاز وديار بكر والموصل وبلاد الروم وخراسان والجبال والدنيا كلها. هذا لفظه في «المنتظم». قال: وورد كتاب من مصر أن ثلاثة من اللصوص نقبوا بعض الدور، فوجدوا عند الصباح موتى؛ أحدهم على باب النقب، والثاني على رأس الدرجة، والثالث على الثياب المكورة.

وفيها: أمر رئيس الرؤساء بأن تنصب أعلام سود في الكرخ، فانزعج أهله لذلك، وكان كثير الأذية للرافضة، وإنما كان يدافع عنهم عميد الملك الكندري وزير طغرلبك.

وفيها: هبت ريح شديدة، وارتفعت سحابة ترابية، فأظلمت الدنيا واحتاج الناس في الأسواق إلى السرج في النهار.

قال ابن الجوزي في «المنتظم»:

وفيها: في العشر الثاني من جمادى الآخرة ظهر وقت السحر نجم له ذؤابة طولها في رأي العين نحو من عشرة أذرع، وفي عرض نحو الذراع، ولبث على هذه الحال إلى النصف من رجب ثم اضمحل، وكانوا يقولون: إنه طلع مثل هذا بمصر فملكت. وكذلك ببغداد لما طلع فيها هذا ملكت وخطب بها للمصريين.

وفيها: ألزم الروافض بترك الأذان بحي على خير العمل، وأمروا أن ينادي المؤذنون في الصبح بعد الحيعلتين: الصلاة خير من النوم. مرتين. وأزيل ما كان على أبواب مساجدهم ومشاهدهم وأبوابهم من كتابة: محمد وعلي خير البشر.

ودخل المنشدون من باب البصرة إلى الكرخ، فأنشدوا بفضائل الصحابة في مدائح لهم، وذلك أن النوء الأول اضمحل؛ كانت بنو بويه تقويهم وتنصرهم، فزالوا وبادوا، وأذهب الله دولتهم، وجاء الله بقوم آخرين من الأتراك السلجوقية يحبون السنة ويوالون أهلها، ويعترفون برفعة قدرها، ويرفعون محلها، والله المحمود أبدًا على طول المدى.

وأمر رئيس الرؤساء وزير الخلافة للوالي بقتل أبي عبد الله بن الجلاب شيخ البزازين بباب الطاق؛ لما كان يتظاهر به من الغلو في الرفض، فقتل وصلب على باب دكانه، وهرب أبو جعفر الطوسي ونهبت داره، ولله الحمد والمنة.

وفيها: جاء البَساسيريُّ، قبَّحه اللَّهُ، إلى الموصلِ، ومعه نورُ الدولة دُبَيسٌ، في جيشٍ كثيفٍ، فاقتَتل مع صاحبِها قُرَيشٍ ونصَره قُتُلمشُ بنُ عمِّ طُغرُلْبَك، وهو جَدُّ مُلوكِ الرومِ، فهزمَهما البَساسيريُّ، وأخَذ البلدَ قهرًا، فخطَب بها للمصريين الفاطميين. وأخرَج كاتبَه من السجنِ، وكان قد أظهَر الإسلامَ ظنًّا منه أن ذلك ينفَعُه، فلم ينفَعْه فقُتِل. وكذلك خُطب للمصريين في هذه السنة بالكوفة وواسط وغيرهما من البلاد وعزم طغرلبك الملك على المسير إلى الموصل لمناجزة البَساسيريِّ، فنهاه الخليفةُ عن الخروجِ، ذلك لضيقِ الحالِ وغَلاءِ الأسعارِ، فلم يَقْبَلْ، فخرَج بجيشِه قاصدًا الموصلَ في جَحْفلٍ عظيمٍ، ومعه الفِيَلةُ والمَنجنيقاتُ، وكان جيشُه لكثرتهم ينهَبون القُرَى، وربما سطَوْا على بعضِ الحَريمِ، فكتَب الخليفةُ إلى السلطانِ ينهاه عن ذلك، فبعَث يعتَذرُ بكثرةِ مَن معه، واتَّفق أنه رأَى رسولَ اللَّه ﷺ في المنامِ، فسلَّم عليه، فأعرَض عنه، وقال له: يُحكِّمُك اللَّهُ في البلادِ، ثم لا ترفُقُ بخلقِه ولا تخافُ من جَلالِ اللَّه عز وجل؟! فاستَيقَظ مَذعورًا، وأمَر وزيرَه أن يُناديَ في الجيشِ بالعَدْلِ، وأن لا يَظلِمَ أحدٌ أحدًا. ولما اقترَب من الموصلِ فتَح دونَها بلادًا، ثم فتَحها وسلَّمها إلى أخيه داودَ، ثم سار منها إلى بلادِ بكرٍ، ففتَح أماكنَ كثيرةً هنالك.

وفيها: ظهرَت دولةُ المُلَثَّمين ببلادِ المغربِ، وأظهَروا إعزازَ الدينِ وكلمةَ الحقِّ، واستَولَوا على بلادٍ كثيرةٍ بالمغربِ، منها سِجِلْماسَةُ وأعمالُها والسُّوسُ، وقتَلوا خلقًا كثيرًا من أهلِها، وأولُ ملوكِ المُلَثَّمين رجلٌ يقالُ له: أبو بكرِ بنُ عمرَ. وقد أقام بسجلْماسَةَ إلى أن تُوفِّي سنةَ ثنتَين وستين كما سيأتي بيانُه ووليَ بعدَه أبو نصرٍ يوسفُ بنُ تاشِفينَ، وتلَقَّب بأميرِ المسلمين، وقوِي أمرُه، وعلا قدرُه ببلادِ المغربِ.

وفيها: أُلزِم أهلُ الذِّمَّة بلُبسِ الغِيارِ ببغدادَ عن أمرِ السلطانِ طُغرُلْبَك، بيَّضَ اللَّهُ وجهَه.

وفيها: ولِد لذَخيرةِ الدِّينِ. بعدَ موتِه من جاريةٍ له. ولدٌ ذكَرٌ، وهو أبو القاسمِ عبدُ اللَّهِ المُقتَدِي بأمرِ اللَّه.

وفيها: كان الغَلاءُ والفَناءُ مستمرَّيْن ببغدادَ وغيرِها من البلادِ على ما كان عليه الأمرُ في السنةِ الماضيةِ.

ولم يَحُجَّ أحدٌ من أهلِ العراقِ في هذه السنةِ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيانِ:

عليُّ بنُ أحمدَ بنِ عليِّ بنِ سَلْك، أبو الحسنِ المُؤدِّبُ، المعروفُ بالفاليِّ، صاحبُ «الأمالي»، وفالَةُ قريةٌ قريبةٌ من إيذَجَ، أقام بالبَصرةِ مدةً، وسمِع بها من أبي عمرَ بنِ عبدِ الواحدِ الهاشميِّ وغيرِه، وقدِم بغدادَ فاستَوطَنها، وكان ثقةً في نفسِه، كثيرَ الفَضائلِ. ومن شعرِه:

لما تبدّلت المجالسُ أوجُهَا ... غيرَ الذين عهدْتُ من عُلمائها
ورأيتُها مَحْفوفةً بسوَى الأولى ... كانوا وُلاةَ صُدورِها وفِنائها
أنشَدْتُ بيتًا سائرًا مُتَقدِّمًا ... والعينُ قد شَرِقَت بجَاري مائها
أما الخيامُ فإنها كخيامِهم ... وأرَى نساءَ الحيِّ غيرَ نسائها

ومن شعرِه أيضًا قولُه:

تصَدَّرَ للتَّدريسِ كلُّ مُهَوَّسٍ ... بَليدٍ تَسَمَّى بالفَقيهِ المُدَرِّسِ
فحقٌّ لأهلِ العلمِ أن يتَمَثَّلُوا ... ببيتٍ قديمٍ شاع في كلِّ مَجلِسِ
لقد هُزِلَت حتى بدا من هُزالِها ... كُلاها وحتى سَامَها كلُّ مُفْلِسِ

محمدُ بنُ عبدِ الواحدِ بنِ محمدِ بنِ الصَّبَّاغ، الفقيهُ الشافعيُّ، وليس هذا بصاحبِ «الشاملِ»، ذاك متأخرٌ، وهذا كان من تلامذةِ الشيخِ أبي حامدٍ الإسْفَرايينيِّ، وكانت له حَلْقةٌ للفَتْوى بجامعِ المدينة، وشهِد عندَ قاضي القُضاةِ أبي عبدِ اللَّهِ الدَّامَغَانيِّ الحَنَفيِّ فقبِله، وقد سمع الحديثَ من ابنِ شاهينَ وغيرِه، وكان ثقةً جليلَ المقدارِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

هلالُ بنُ المُحَسِّنِ بنِ إبراهيمَ بنِ هلالٍ، أبو الخيرِ الكاتبُ الصابئُ، صاحبُ «التاريخ»، وجدُّه أبو إسحاقَ الصابئُ صاحبُ الرَّسائلِ، وأبوه كان صابئيًّا أيضًا، وأسْلَم هلالٌ هذا متأخِّرًا، وحسُن إسلامُه، وقد كان سمع في حالِ كفرِه من جماعةٍ من المَشايخِ، وذلك أنه كان يَتَردَّدُ إليهم يَطْلُبُ الأدبَ، فلما أسْلَم نفَعه ذلك، وكان سببَ إسلامِه على ما ذكَره ابنُ الجوزيِّ في «منتظَمِه» بسنَدِه مُطَوَّلًا أنه رأى رسولَ اللَّهِ ﷺ في المَنامِ مِرارًا يَدْعُوه إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ. ويَأمُرُه بالدخولِ في الإسلامِ، ويَقولُ له: أنت رجلٌ عاقلٌ، فلِمَ تَدَعُ دينَ الإسلامِ الذي قامَت عليه الدَّلائلُ. وأراه آياتٍ في المَنامِ شاهَدها في اليَقَظةِ، فمن ذلك أنه قال له: إن امرأتَك حاملٌ بذَكَرٍ، فسمِّه محمدًا. فولَدَت ذَكرًا، فسمَّاه محمدًا، وكنَّاه أبا الحسنِ. في أشياءَ كثيرةٍ سرَدها ابنُ الجوزيِّ مطوَّلةً، فأسْلَم وحسُن إسلامُه، وكان صَدوقًا. تُوُفِّي في هذه السنةِ وله تسعون سنةً، منها في الإسلامِ نَيِّفٌ وأربعون سنةً، تَغَمَّده اللَّهُ برحمتِه.

ثم دخلت سنةُ تسعٍ وأربعين وأربعمائةٍ

فيها: كان الغَلاءُ والفَناءُ مستمرَّين ببغدادَ وغيرِها من البلادِ بحيث خلَت أكثرُ الدُّورِ وسُدَّت على أهلِها أبوابُها بما فيها، وأهلُها فيها مَوْتَى، وصار المارُّ في الطريقِ لا يَلْقَى إلا الواحدَ بعدَ الواحدِ، وأكَل الناسُ الجِيَفَ والمَيْتاتِ من قلةِ الطعامِ، ووُجِدَ مع امرأةٍ فَخِذُ كلبٍ قد اخْضَرَّ وأرْوَحَ، وشوَى رجلٌ صَبِيَّةً في الأَتُونِ وأكَلها فقُتل، وسقَط طائرٌ ميتٌ من سَطْحٍ، فاحْتَوَشه خمسةُ أنفسٍ، فاقْتَسَموه وأكَلُوه. وورَد كتابٌ من بُخارَى أنه مات في يومٍ واحدٍ منها ومن مُعامَلتِها ثمانيةَ عشَرَ ألفَ

إنسان، وأُحْصِي مَن مات في هذا الوَباء إلى أن كُتب هذا الكتابُ - يعني الوارِدَ من بُخارىٰ - بألف ألف وخمسمائة ألف وخمسين ألفَ إنسان، والناسُ يَمُرُّون في هذه البلاد فلا يَرَوْن إلا أسواقًا فارغةً وطُرُقاتٍ خاليةً، وأبوابًا مغلَّقةً، حكاه ابنُ الجَوْزيِّ.

قال: وجاء الخبرُ من أَذْرَبيجانَ وتلك البلادِ بالوَباءِ العظيم، وأنَّه لم يَسْلَمْ إلا العددُ القليلُ. قال: ووقَع وَباءٌ بالأهوازِ وأعمالِها وبواسطٍ والنيلِ والكوفةِ وطَبَّق الأرضَ، وكان أكثرَ سببِ ذلك الجوعُ، حتى كان الفُقراءُ يَشْوُون الكلابَ، ويَنْبُشون القُبورَ، ويَشْوُون الموْتىٰ ويأكُلونهم، وليس للناسِ شغلٌ في الليلِ والنهارِ إلا غَسْلُ الأمواتِ وتَجْهيزُهم ودفْنُهم، وقد كانت تُحْفَرُ الحَفيرةُ، فيُدْفَنُ فيها العشرون والثلاثون، وكان الإنسانُ يكونُ قاعدًا فينشَقُّ قلبُه عن دمِ المُهْجَة، فيَخْرُجُ إلى الفَمِ منه قَطْرةٌ، فيموتُ الإنسانُ من وقته، وتاب الناسُ، وتصدَّقوا بأكثرِ أموالِهم، وأراقوا الخمورَ وكسَروا المَعازِفَ وتَصالحوا، ولزِموا المساجدَ لقراءة القرآن، وقلَّ دارٌ يكونُ فيها خمرٌ إلا مات أهلُها كلُّهم. ودُخل على مريضٍ له سبعةُ أيامٍ في النَّزْعِ، فأشار بيده إلى مكانٍ، فوجَدوا فيه خابيةً من خمرٍ، فأراقوها فمات من فورِه وبسهولةٍ. ومات رجلٌ بمسجدٍ فوُجِدَ معه خمسون ألفَ درهمٍ، فلم يَقْبَلْها أحدٌ، فتُركت في المسجد تسعةَ أيامٍ لا يُريدُها أحدٌ، فدخَل أربعةٌ فأخذُوها، فماتوا عليها.

وكان الشيخُ أبو محمدٍ عبدُ الجَبَّارِ بنُ محمدٍ يَشْتَغِلُ عليه سبعمائة مُتَفَقِّهٍ، فمات وماتوا كلُّهم إلا اثنَيْ عشَرَ نفرًا منهم، رحمهم اللَّهُ تعالى.

ولما اصْطَلَح دُبَيْسُ بنُ عليٍّ مع الملك طُغْرُلْبَك رجَع إلى بلاده، فوجَدها خَرابًا لقلة أهلِها، فأرْسَل رسولاً منه إلى بعضِ النَّواحي فتَلَقَّاه طائفةٌ، فقتَلوه وأكلوه.

قال ابنُ الجوزيِّ: وفي يوم الأربعاء لسبعٍ بقِين من جُمادَىٰ الآخرة احترَقَت قَطيعةُ عيسىٰ، وسُوقُ الطعام، والكنيسُ، وأصحابُ السَّقَطِ، وبابُ الشَّعيرِ، وسوقُ العَطَّارين، وسوقُ العَروسِ، والأنماط، والخشَّابين، والجزَّارين، والتَّمَّارين، والقَطيعةُ وسوقُ مُحَوَّلٍ ونهرُ الدَّجَاجِ وسُوَيْقةُ غالبٍ والصَّفَّارين والصَّبَّاغين وغيرُ ذلك من المواضع، وهذه مُصيبةٌ أخرىٰ إلى ما بالناسِ من الغَلاء والفَناء.

وفيها: كثُر العَيَّارون ببغدادَ، وأخذوا الأموالَ جهارًا، وكبَسوا الدُّورَ ليلاً ونهارًا، وكُبِست دارُ أبي جعفر الطُّوسيِّ متكلمِ الشِّيعة، وأُحْرِقَت كتبُه ومَنابِرُه ودَفاترُه التي كان يَسْتَعْمِلُها في بِدْعتِه، ويَدْعُو إليها أهلَ نِحْلته، ولله الحمدُ.

وفيها: دخَل الملكُ طُغْرُلْبَك بغدادَ عائدًا إليها من الموصلِ وقد تسلَّمها واستعادها من البساسيريِّ وسلَّمها إلى أخيه إبراهيمَ ينَّالَ، فأحسنَ فيهم السيرةَ وحسُنت منه العلانيةُ والسريرةُ، فللَّه الحمدُ، فتلَقَّاه الأمراءُ والوُزراءُ إلى أثناء الطريق، وأحْضَرَ له رئيسُ الرُّؤساء خِلْعةً من الخليفة فَرَجِيَّةً مُجَوْهَرَةً فلبِسها، وقبَّل الأرضَ، ثم بعدَ ذلك دخل دارَ الخلافة، وقد ركِب إليها فرسًا من مَراكبِ الخليفة، فلما

دخَل علىٰ الخليفةِ إذا هو علىٰ سَريرٍ طولُه سبعةُ أذرعٍ، وعلىٰ كَتِفَيه البُرْدَةُ النَّبويةُ، وبيده القَضيبُ، فقبَّل الأرضَ، ثم أُجلس علىٰ سَريرٍ دونَ سَريرِ الخليفة، ثم قال الخليفةُ لرئيسِ الرؤساء: قُلْ له: أميرُ المؤمنين حامدٌ لسَعْيِك شاكرٌ لفعلك، آنسٌ بقُرْبِك، وقد ولاَّك جميعَ ما ولاَّه اللَّهُ من بلاده، فاتَّقِ اللَّهَ فيما ولاَّك، واجْتَهِدْ في عِمارةِ البلادِ وإصْلاحِ العبادِ ونشْرِ العَدْلِ، وكفِّ الظلم. ففسَّر له عَميدُ الدولةِ ما قاله، فقام وقبَّل الأرضَ وقال: أنا خادمُ أميرِ المؤمنين وعبدُه، ومُتَصرِّفٌ عن أمرِه ونهيِه، ومُتَشَرِّفٌ بما أهَّلَني له، واستَخْدَمَني فيه، ومِن اللَّهِ أَستَمِدُّ المَعونةَ والتَّوفيقَ. ثم أذِن الخليفةُ في أن يَنْهَضَ للُبْسِ الخِلْعةِ، فقام إلىٰ بيتٍ في ذلك البَهْوِ، فأُفيض عليه سبعُ خِلَعٍ وتاجٌ، ثم عاد فجلَس علىٰ السَّريرِ بعدَ ما قبَّل يدَ الخليفةِ، ورام تَقْبيلَ الأرضِ، فلم يَتَمكَّنْ مِن التاجِ، فأخْرَج الخليفةُ سيفًا، فقلَّده إياه وخاطبه بملِكِ الشرقِ والغربِ، وأُحْضِرَت ثلاثةُ ألْويةٍ، فعقَد منها الخليفةُ بيده لواءً يقالُ له: لواءُ الحمدِ. وأُحْضِر العهدُ فسُلِّم إلىٰ الملك، وأوْصاه الخليفةُ بتَقْوىٰ اللَّهِ تعالىٰ، والقيامِ بالحقِّ في ذلك العَهدِ، وقُرِئ بينَ يَدَي الخليفةِ بحضرةِ المَلِك، ثم نهَض فقبَّل يدَ الخليفةِ، ووضَعها علىٰ عينَيْه، ثم خرَج في أُبَّهَةٍ عظيمةٍ وبينَ يديه الحُجَّابُ والجيشُ بكماله، وجاء الناسُ للسلامِ عليه والتَّهْنِئةِ، وأرْسَل إلىٰ الخليفةِ بتُحَفٍ عظيمةٍ؛ منها خمسون ألفَ دينارٍ، وخمسون غلامًا أتراكًا بمراكبِهم وسلاحِهم ومَناطقِهم، وخمسُمائةِ ثوبٍ أنواعًا، وأعْطىٰ رئيسَ الرُّؤساءِ خمسةَ آلافِ دينارٍ، وخمسين قطعةَ قُماشٍ.

وفيها: قَبَض صاحبُ مصرَ علىٰ وزيرِه أبي محمدٍ الحسنِ بنِ عبدِ الرحمنِ البازوريِّ، وأخَذ خطَّه بثلاثةِ آلافِ ألفِ دينارٍ، وأُحيط علىٰ ثمانين مِن أصحابِه، وقد كان هذا الوزيرُ فَقيهًا حنفيًّا، يُحْسِنُ إلىٰ أهلِ العلمِ وأهلِ الحرمَيْن، وقد كان الشيخُ أبو يوسُفَ القَزْوينيُّ يُثْني عليه ويَمْدَحُه.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ سليمانَ بنِ محمدِ بنِ سليمانَ بنِ أحمدَ بنِ سليمانَ بنِ داودَ بنِ المُطَهَّرِ بنِ زيادِ بنِ رَبيعةَ بنِ الحارثِ بنِ ربيعةَ بنِ أنْورَ بنِ أسْحَمَ بنِ أرْقَمَ بنِ النُّعمانِ بنِ عَديِّ بنِ غَطَفانَ بنِ عمرِو بنِ بَريحِ بنِ جَذِيمةَ بنِ تَيْمِ اللَّهِ بنِ أسدِ بنِ وَبَرةَ بنِ تَغْلِبَ بنِ حُلْوانَ بنِ عِمْرانَ بنِ الحافِ بنِ قُضاعةَ، أبو العَلاءِ المَعَرِّيُّ التَّنوخيُّ الشاعرُ، المشهورُ بالزَّنْدَقةِ، اللُّغَويُّ، صاحبُ الدَّواوينِ والمُصَنَّفاتِ في الشعرِ واللغةِ، وُلِد يومَ الجمعةِ عندَ غروبِ الشمسِ لثلاثٍ بقِين من ربيعٍ الأولِ سنةَ ثلاثٍ وستين وثلاثمائةٍ، وأصابه جُدَريٌّ وله أربعٌ أو ستٌّ أو سبعٌ، فذهَب بصرُه، وقال الشعرَ وله إحدىٰ عشْرةَ أو ثنتا عشْرةَ سنةً، ودخَل بغدادَ سنةَ تسعٍ وتسعين وثلاثمائةٍ، فأقام بها سنةً وسبعةَ أشهرٍ، ثم خرَج منها طَريدًا مُنْهزِمًا؛ لأنه قال شِعرًا يَدُلُّ علىٰ قلةِ دينِه وعلمِه وعقلِه، وهو قولُه:

تناقضٌ ما لنا إلا السكوتُ له   وأن نعوذَ بمولانا من النارِ
يدٌ بخمسِ مئينٍ عسجدٍ فُديَتْ   ما بالُها قُطِعَت في ربعِ دينارِ

يقولُ: اليدُ ديتُها خمسُمائة دينار، فما لكم تَقْطَعونها إذا سرَقَت ربعَ دينار.

وهذا من قلة عقله، وعَمَىٰ بَصيرته؛ وذلك أنها إذا جُني عليها يُناسبُ أن يكونَ ديتُها كثيرةً؛ لِيَنزَجِرَ الناسُ عن العُدْوان، وأما إذا جنَت بالسرقة فيُناسبُ أن تَقِلَّ قيمتُها؛ ليُنْزَجَرَ عن أخذ الأموال، وتُصانَ أموالُ الناس، ولهذا قال بعضُهم: كانت ثمينةً لَمَّا كانت أمينةً، فلما خانَت هانَت. ولما عزَم الفُقهاءُ على أخْذه بهذا الكلام هرَب ورجَع إلى بلده، ولزِم منزلَه، فكان لا يَخْرُجُ منه.

وكان يومًا عندَ الخليفة؛ وكان الخليفةُ يَكْرَهُ المُتنبِّيَ، ويَضَعُ منه، وكان أبو العَلاء يُحبُّ المُتنبِّيَ ويَرْفَعُ من قَدْره ويَمْدَحُه، فجرَىٰ ذِكْرُ المُتنبِّي في ذلك المجلس، فذمَّه الخليفةُ، فقال أبو العَلاء: لو لم يَكُنْ للمُتنبِّي إلا قصيدتُه التي أولُها:

لكِ يا منازلُ في القلوبِ منازلُ

لَكفاه ذلك. فغضب الخليفةُ، وأمَر به فسُحِب برِجْله على وجهِه، وقال: أخرِجوا عني هذا الكلبَ. وقال الخليفةُ: أتَدْرُون ما أراد هذا الكلبُ من هذه القصيدة، وذِكْرِه لها؟ أراد قولَ المُتنبِّي فيها:

وإذا أتَتْك مَذمَّتي من ناقصٍ   فهْيَ الدليلُ عليَّ أنيَ كاملُ

وإلا فالمُتنبِّي له قَصائدُ أحسنُ من هذه، وإنما أراد هذا. وهذا من فَرْط ذَكاء الخليفة، حيث تنبَّه لهذا. وقد كان المعرِّيُّ أيضًا من الأذكياء، ومكَث المَعَرِّيُّ خمسًا وأربعين سنةً مِن عمره لا يأكُلُ لحمًا ولا لبنًا ولا بيضًا ولا شيئًا من حَيَوان، على طريقة البَراهمة من الفَلاسفة، ويقالُ: إن راهبًا اجتمع به في بعض الصَّوامع؛ آواه الليلُ إليه، فشكَّكه في دينه، وكان يَتقَوَّتُ بالنبات، وأكثرُ ما كان يأكُلُ العَدَسَ ويَتَحلَّىٰ بالدِّبْس وبالتِّين، ولا يأكُلُ بحَضْرة أحد، ويقولُ: أكْلُ الأعْمَىٰ عَوْرةٌ. وكان في غاية الذَّكاء المُفرط، على ما ذُكِر، وأمَّا ما يُنقلُ عنه من الأشياء المَكْذوبة المُخْتَلَقَة من أنه وُضع تحتَ سَريره درْهمٌ، فقال: إمَّا أن تكونَ السماءُ قد انْخَفَضَت مقدارَ درهم أو ارتفعت الأرضُ مثلَ ذلك. فهذا لا أصلَ له وهو كذبٌ عليه، وكذلك يَذْكُرون أنه مرَّ في بعض أسْفاره بمكانٍ فطأطأ رأسَه، فقيل له في ذلك، فقال: أمَا هاهنا شجرةٌ! فلم يوجدْ، ثم نظَروا فإذا أصلُ شجرةٍ كانت هناك قديمًا قد اجْتاز بها مرَّةً، فأمَره مَن كان معه بمُطأْطَأة رأسه هناك فاستَحضره في هذه المرة. فهذا أيضًا لا يَصحُّ وهو كَذِبٌ.

وكذلك ما شاكل هذا من الكذب البَحْت ولكن كان ذكيًّا، ولم يَكُنْ زكيًّا، وله مُصنَّفاتٌ كثيرةٌ أكثرُها في الشعر، وفي بعض أشْعاره ما يَدُلُّ على زَنْدَقة وانْحلال، ومن الناس مَن يَعْتَذِرُ عنه ويقولُ: كان في الباطن مسلمًا، وإنما يقولُ ذلك بلسانه. قال ابنُ عَقيل: وما الذي كان يُلجئُه أن يقولَ في دارِ

الإسلامِ ما يُكفِّرُه به الناسُ؟ قال: والمنافِقون مع قلةِ عقلِهم وعلمِهم ودينِهم أجْودُ سياسةً منه؛ حافَظوا على قَبائحِهم في الدنيا، وهذا أظهرَ الكفرَ الذي تسلَّط به عليه الناسُ، واللَّهُ تعالى أعلمُ أن باطنَه كظاهِرِه، قال ابنُ الجوزيِّ: وقد رأَيتُ لأبي العَلاءِ المَعرِّيِّ كتابًا سمَّاه «الفُصولَ والغاياتِ في مُعارَضةِ السُّوَرِ والآياتِ»، على حُروفِ المُعْجَمِ في آخرِ كلماتِه، وهو في نهايةِ الرَّكاكةِ والبُرودةِ، فسبحانَ مَن أعْمَى بصرَه وبَصيرتَه. قال: وقد نظَرْتُ في كتابِه المُسمَّى «لُزومَ ما لا يَلْزَمُ». ثم أوْرَد ابنُ الجوزيِّ مِن أشعارِه الدالةِ على استِهْتارِه أشياءَ كثيرةً، فمِن ذلك قولُه:

إذا كان لا يَحْظَى رزقك عاقلٌ   وتَرْزُقُ مَجنونًا وتَرزُقُ أحْمَقَا
فلا ذنبَ يا ربَّ السماءِ على امرِئٍ   رأى منك ما لا يَشْتَهِي فتزَندَقَا

وقولُه:

وهيهاتَ البَرِيَّةَ في ضَلالٍ   وقد نظَر اللَّبيبُ لما اعْتَراها
تقَدَّمَ صاحبُ التَّوراةِ موسى   وأوْقَع في الخَسارِ مَن افتَراها
فقال رجالُه وحْيٌ أتاه   وقال الناظرون بلِ افتَراها
وما حَجِّي إلى أحجارِ بيتٍ   كئوسُ الخمرِ تُشْرب في ذَراها
إذا رجَع الحليمُ إلى حِجاهُ   تهاوَن بالمذاهِبِ وازْدَراها

وقولُه:

هفت الحَنيفةُ والنَّصارَى ما اهْتَدَتْ   ويهودُ حارَت والمجوسُ مُضَلَّلَهْ
اثنانِ أهلُ الأرضِ ذو عقلٍ بلا   دينٍ وآخرُ دِيِّنٌ لا عقلَ لهْ

وقولُه:

فلا تَحْسَبْ مَقالَ الرُّسْلِ حقًا   ولكن قولُ زُورٍ سطَّروهُ
فكان الناسُ في عيشٍ رَغِيدٍ   فجاءُوا بالمُحالِ فكدَّروهُ

وقلتُ أنا في مُعارَضةِ هذا:

فلا تَحْسَبْ مَقالَ الرُّسْلِ كَذِبًا   ولكن قولُ حَقٍّ بَلَّغوهُ
وكان الناسُ في جَهْلٍ عَظيمٍ   فجاءُوا بالبَيانِ فأذهبوه

ومِن ذلك أيضًا قولُه:

إنَّ الشرائعَ ألْقَت بينَنا إحَنًا   وأوْرَثَتْنا أفانينَ العَداواتِ
وهل أُبيحَ نساءُ الرومِ عن عُرُضٍ   للعُرْبِ إلا بأحْكامِ النُّبُوَّاتِ

وقولُه:

ومــا حَــمْــدي لآدمَ أو بنيــه ... وأشْــهَــدُ أن كلَّهمُ خَــسِــيسُ

ومن ذلك أيضًا قولُه:

أفِــيــقــوا أفيــقــوا يــا غُــواةُ فــإنما ... دِياناتُكم مكرٌ مِن القُــدَمــاءِ

ومن ذلك قولُه أيضًا:

صَــرْفُ الزمــان مُــفَــرِّقُ الإلفَــيْنِ ... فــاحْكُمْ إلهي بينَ ذاك وبيني
أنَهَــيْتَ عن قتلِ النفــوسِ تَعَــمُّــدًا ... وبعَــثْتَ أنت لقَــبْــضِــهــا ملَكَيْنِ
وزعَــمْتَ أن لهــا مَــعــادًا ثانيًــا ... مــا كــان أغناها عنِ الحــالَيْنِ

ومن ذلك أيضًا قولُه:

ضَحِكْنا وكــان الضِّــحْكُ منا سَــفــاهةً ... وحُقَّ لسُكّانِ البَــسِــيطةِ أن يَبْكُوا
تُحطِّمُنــا الأيامُ حــتى كــأنَّنــا ... زُجــاجٌ ولكن لا يَعــودُ له سَــبْكُ

ومن ذلك أيضًا قولُه:

أمــورٌ تَسْــتَــخِفُّ بهــا حُلومٌ ... ومــا يَدْري الفــتى لِمَن الثُّــبــورُ
كِــتــابُ محــمــدٍ وكِــتــابُ موسى ... وإنْجِــيــلُ ابنِ مَــرْيَمَ والزَّبُورُ

ومن ذلك أيضًا قولُه:

قــالت مَــعــاشِــرُ لم يَبْــعَثْ إلهكُمُ ... إلى البَــرِيَّةِ عِــيــســاها ولا مُــوســا
وإنما جَــعَلوا الرحــمنَ مَــأْكَلَةً ... وصَــيَّــرُوا دِينَهم في الناسِ نامُــوسَــا

وذُكِر له أشياءُ غيرُ ذلك، وكلُّ قِطْعةٍ من هذه تَدلُّ على كفرِه وانحلالِه وزندقتِه وضلالِه، ويقالُ إنه: أوْصَى أن يُكْتَبَ على قبرِه:

هــذا جَــنــاه أبــي عــلــيَّ ... ومــا جنَيْتُ على أحــدْ

معناه أن أباه بتَزَوُّجِه لأمِّه أوْقَعه في هذا الدارِ، حتى صار بسببِ ذلك إلى ما إليه صار، وهو لم يَجْنِ على أحدٍ بهذه الجنايةِ، وهذا كلُّه كفرٌ وإلحادٌ، قبَّحه اللَّهُ، وقد زعَم بعضُهم أنه أقْلَع عن هذا كلِّه وتاب منه، وأنه قال قصيدةً يَعْتَذِرُ فيها من هذا كلِّه، ويَتَنَصَّلُ منه، وهي القَصيدةُ التي يقولُ فيها:

يا مَن يرى مَــدَّ البَــعــوضِ جَناحَــهــا ... في ظُلْمــةِ الليلِ البَــهــيمِ الألْيَلِ
ويَرَى مَناطَ عُــروقِــهــا في نحــرِها ... والمخَّ في تلــك العِــظــامِ النُّحَّــلِ
امْنُنْ عليَّ بتــوبــةٍ تَمْــحُــو بهــا ... مــا كــان مني في الزمــانِ الأوَّلِ

وقد كانت وفاتُه في ربيع الأول من هذه السنة بمَعَرَّة النُّعمان، عن ستٍّ وثمانين سنةً إلا أربعةَ عشرَ يومًا، وقد رثاه جَماعةٌ من أصحابه وتَلامذته، وأُنشِدَت عندَ قبره ثمانون مَرْثاةً، حتى قال بعضُهم في مَرْثاته:

إن كنتَ لم تُرقِ الدماءَ زَهادةً ... فلقد أرَقْتَ اليومَ من جَفْني دمَا

قال ابنُ الجوزيِّ: وهؤلاء إمَّا جُهَّالٌ بأمره، وإمَّا ضُلَّالٌ على مذهبه وطريقته. وقد رأى بعضُهم في المنام رجلاً ضَريرًا على عاتقيه حيَّتان مُدلَّيتان إلى صدره رافعتان رُءوسَهما، وهما يَنْهَشان من لحمه، وهو يَستغيثُ، وقائلٌ يقولُ: هذا المَعَرِّيُّ المُلحدُ. وقد ذكره ابنُ خَلِّكانَ في «الوفيات» فرفَع في نسبه كما ذكرْنا، وقد ذكر له من التصانيف كتبًا كثيرةً، وذكَر أن بعضَهم وقَف على المجلدِ الأول بعدَ المائة من كتابه المُسَمَّى بـ «الأيك والغُصون».

وهو المعروفُ بـ «الهَمْز والرِّدْف»، وأنه أخَذ العربيةَ عن أبيه، واشْتَغَل بحلَبَ على محمد بن عبد الله بن سعد النحويِّ، وأخَذ عنه أبو القاسم عليُّ بنُ المُحَسِّن التَّنوخيُّ، والخطيبُ أبو زكريا يَحْيَى بنُ عليٍّ التِّبْريزيُّ، وذكَر أنه مكَث خمسًا وأربعين سنةً لا يأكُلُ اللحمَ على طريقة الحكماء، وأنه أوْصَى أن يُكتبَ على قبره:

هذا جَناه أبي عليَّ ... وما جَنَيْتُ على أحدْ

قال ابنُ خَلِّكانَ: وهذا أيضًا مُتَعلِّقٌ باعْتقاد الحُكماء، فإنهم يقولون: إيجادُ الولد وإخْراجُه إلى هذا الوجود جنايةٌ عليه؛ لأنه يَتَعرَّضُ للحَوادث والآفات.

قلتُ: وهذا يَدُلُّ على أنه لم يَتَغيَّرْ عن اعتقاد الحكماء إلى آخر وقت، وأنه لم يُقْلع عن ذلك كما ذكَره بعضُهم. واللهُ أعلمُ بظَواهر الأمور وبَواطنها. وذكَر ابنُ خَلِّكانَ أن عينَه اليمنى كانت ناتئةً، وعليها بَياضٌ، واليسرى غائرةٌ، وكان نَحيفًا، ثم أوْرَد من أشعاره الجيدة أبياتًا فمنها قولُه:

لا تَطْلُبَنَّ بآلة لك رُتْبةً ... قَلَمُ البَليغ بغيرِ جَدٍّ مِغْزَلُ
سكَن السِّماكانِ السماءَ كلاهما ... هذا له رُمْحٌ وهذا أعْزَلُ

الأستاذُ أبو عثمانَ الصابونيُّ، إسماعيلُ بنُ عبد الرحمن بن أحمدَ بن إسماعيلَ بن إبراهيمَ بن عامر بن عابد النَّيسابوريُّ[1]، الحافظُ الواعظُ المُفَسِّرُ، قدم دمشقَ وهو ذاهبٌ إلى الحجِّ، فسمع بها وذكَّر الناسَ، وقد ترجَمه ابنُ عَساكرَ ترجمةً عظيمةً، وأورَد أشياءَ حسَنةً من أقواله وشعره، فمن ذلك قولُه:

إذا لم أُصِبْ أموالَكم ونَوالَكم ... ولم آمُلِ المعروفَ منكم ولا البِرَّا
وكنتُم عَبيدًا للذي أنا عبدُه ... فمن أجْلِ ماذا أُتْعِبُ البدنَ الحُرَّا

وروى ابنُ عَساكرَ عن إمام الحرَمَيْن أنه قال: كنتُ أتَرَدَّدُ وأنا بمكة في المَذاهب، فرأيتُ النبيَّ ﷺ وهو يقولُ: عليك باعْتقاد أبي عثمانَ الصابونيِّ. رحمه اللهُ تعالى.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ٤٠) وما بعدها.

ثم دخلت سنة خمسين وأربعمائة

فيها: كانت فتنةُ الخَبيثِ البَساسِيريِّ، وهو أرْسَلانُ التُّركيُّ، قَبَّحه اللَّهُ تعالى، وذلك أن إبراهيمَ يَنَّالَ أخا الملكِ طُغْرُلْبَك ترَكَ المَوصِلَ الذي كان اسْتَعْمَلَه أخوه عليها، وعدَلَ إلى ناحيةِ بلادِ الجبلِ، فاسْتَدْعاه أخوه وخلَعَ عليه، وأصْلَحَ أمرَه، ولكن في غُبونِ ذلك ركِبَ البَساسِيريُّ ومعه قُرَيْشُ بنُ بَدْرانَ أميرُ العربِ إلى المَوصلِ فأخَذها وأخْرَبَ قلعتَها، فسار الملكُ طُغْرُلْبَك سريعًا من بغدادَ إلى المَوصِلِ فاسْتَردَّها، وهرَب منه البَساسِيريُّ وقُريشٌ؛ خوفًا منه، فتبِعهما إلى نَصِيبِينَ، وفارَقه أخوه إبراهيمُ وعصَى عليه، وهربَ إلى هَمَذانَ، وذلك بإشارةِ البَساسِيريِّ عليه، فسار الملكُ طُغْرُلْبَك وراءَ أخيه، وترَك عساكرَه وراءَه، فتفرَّقوا وقلَّ مَن لحِقه منهم، ورجَعَت زوجتُه الخاتون ووزيرُه الكُنْدُريُّ إلى بغدادَ، ثم جاء الخبرُ بأن أخاه قد اسْتَظْهَر عليه، وأن طُغْرُلْبَك محصورٌ بهَمَذانَ، فانْزَعَج الناسُ لذلك، واضْطَرَبت بغدادُ، وأرجَفَ الناسُ بأنّ البَساسِيريَّ عازمٌ على قَصْدِ بغدادَ، وأنه قد اقْتَرَب مِن الأنبارِ، فقوِي عزمُ الكُنْدُريِّ الوزيرِ على المُقام ببغدادَ، فأرادت الخاتونُ أن تَقْبِضَ عليه، فتَحوَّل إلى الجانبِ الغربيِّ، ونُهِبَت دارُه، وقُطِع الجسرُ الذي بينَ الجانبَيْن، وركِبَت الخاتونُ في جُمْهورِ الجيشِ، وذهَبَت إلى هَمَذانَ لتنصُرَ زوجَها، وسار الكُنْدُريُّ ومعه أنوشِرْوانَ بنُ تومانَ وأمُّه الخاتونُ المذكورةُ، ومعها بقيةُ الجيشِ إلى بلادِ الأهْوازِ، وبقيَت بغدادُ ليس بها أحدٌ مِن المُقاتلةِ، فعزَم الخليفةُ على الترحُّلِ عن بغدادَ إلى غيرِها، وليتَه فعَل، ثم أَحَبَّ دارَه والمُقامَ مع أهلِه، فمكَث فيها اغْترارًا ودَعَةً، ولما خلاَ البلدُ مِن المُقاتِلةِ قيل للناسِ: مَن أراد الخروجَ فلْيَذْهَبْ حيث شاء. فانْزَعَج الناسُ، وبكَى الرجالُ والنساءُ والأطفالُ، وعبَر كثيرٌ مِن الناسِ إلى الجانبِ الغربيِّ، وبلَغَت المِعْبَرةُ دينارًا وديناريْنِ لعدمِ الجسرِ.

قال ابنُ الجوزيِّ: وطار في تلك الليلةِ على دارِ الخليفةِ نحوُ عشْرِ بُوماتٍ مُجْتَمِعَاتٍ يَصِحْنَ صياحًا مُزْعِجًا، وقيل لرئيسِ الرؤساءِ: من المصلحةِ أن الخليفةَ يَرْتَحِلُ من بغدادَ لعدمِ المُقاتِلةِ بها. فلم يَقْبَلْ.

وشرَعوا في اسْتِخدامِ طائفةٍ مِن العَوامِّ، ودُفِع إليهم السلاحُ مِن دارِ المَمْلكةِ فلما كان يومُ الأحدِ الثامنِ مِن ذي القعدةِ من هذه السنةِ دخَل البَساسِيريُّ إلى بغدادَ، ومعه الراياتُ البِيضُ المصريةُ، وعلى رأسِه أعْلامٌ مكتوبٌ عليها: الإمامُ المُسْتَنْصِرُ باللَّهِ أبو تَميمٍ مَعَدٌّ أميرُ المؤمنين، فتلَقَّاه أهلُ الكرخِ فتضرَّعوا إليه، وسألوه أن يَجْتازَ عندَهم، فدخَل الكرخَ، وخرَج إلى مَشْرَعةِ الرَّوايا، فخيَّم بها والناسُ إذ ذاك في ضُرٍّ ومجاعةٍ شديدةٍ، ونزَل قُرَيشُ بنُ بَدْرانَ في نحوٍ مِن مائتَيْ فارسٍ على مَشْرَعَةِ بابِ البصرةِ، وكان البَساسِيريُّ قد جمَع العَيَّارِين وأطْمَعهم في نَهْبِ دارِ الخلافةِ، ونهَب أهلُ الكرخِ دُورَ أهلِ السنةِ ببابِ البصرةِ، ونُهِبَت دارُ قاضي القضاةِ الدَّمَغانيِّ، وهلَك أكثرُ السِّجلَّاتِ والكتبِ الحُكْمِيةِ وأُبِيعت للعَطَّارِين، ونُهِبَت دُورُ المُتَعلِّقِين بالخَليفةِ، وأعادَت الرَّوافضُ الأذانَ بحيَّ على خيرِ

العملِ، وأُذِّن به في سائرِ جوامعِ بغدادَ في الجُمُعاتِ والجماعاتِ، وخُطِب ببغدادَ للمُسْتَنْصِرِ العُبَيْديِّ الذي يقالُ له: الفاطميُّ. علىٰ منابرِ بغدادَ، وضُربت له السكَّةُ علىٰ الذهبِ والفضةِ، وحُوصِرَت دارُ الخلافةِ، فحاجَف الوزيرُ أبو القاسمِ بنُ المُسلمةِ المُلقَّبُ برئيسِ الرؤساءِ بمَن معه مِن المُسْتَخْدَمِين دونَها، فلم يُفِدْ ذلك شيئًا، فركِب الخليفةُ بالسَّوادِ والبُرْدة علىٰ كتفيه، وعلىٰ رأسِه اللواءُ، وبيدِه سيفٌ مُصْلَتٌ، وحولَه زُمْرةٌ مِن الهاشميين والجَوارِي حاسِراتٍ عن وُجوهِهن، ناشراتٍ شُعورَهن، معَهن المصاحِفُ علىٰ رءُوسِ الرماحِ، وبينَ يديه الخَدَمُ بالسيوفِ المُسَلَّلَةِ، ثم إنَّ الخليفةَ أخَذ ذِمامًا مِن أميرِ العربِ قُريشِ بنِ بَدْرانَ لنفسِه وأهلِه ووزيرِه ابنِ المُسلمةِ، فأمَّنه علىٰ ذلك كلِّه، وأنْزَله في خَيْمةٍ، فلامَه البَساسِيريُّ علىٰ ذلك، وقال: قد علِمْتَ ما كان وقَع الاتفاقُ بيني وبينَك مِن أنك لا تَسْتَبِدُّ برأيٍ دوني، ولا أنا دونَك، ومهما ملَكْنا فبيني وبينَك. واستَحضَر البَساسِيريُّ أبا القاسمِ بنِ مسلمةَ فوبَّخه ولامه لومًا شديدًا، ثم ضربَه ضربًا مُبَرِّحًا، واعْتَقَله مُهانًا عندَه، ونهَبَت العامَّةُ دارَ الخلافةِ، فلا يُحْصَىٰ ما أخَذوا منها مِن الجَواهرِ والنَّفائسِ والدِّيباجِ والأثاثِ والثِّيابِ، وغيرِ ذلك مما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ. ثم اتَّفَق رأيُ البَساسِيريِّ وقُرَيشِ بنِ بدرانَ علىٰ تَسييرِ الخليفةِ من بغدادَ وتسليمِه إلىٰ أميرِ حَديثةِ عانةَ، وهو مُهارِشُ بنُ مُجَلِّي البدويُّ، وهو مِن بني عمِّ قُرَيشِ بنِ بَدْرانَ، وكان رجلاً صالحًا، فلما بلَغ ذلك الخليفةَ دخَل علىٰ قُرَيْشٍ أن لا يَخْرُجَ مِن بغدادَ، فلم يُفِدْ ذلك شيئًا، وسيَّره مع أصحابِهما في هَوْدَجٍ إلىٰ حَديثةِ عانةَ، فكان عندَ مُهارِشٍ أميرِها حولاً كاملاً، وليس معه أحدٌ مِن أهلِه، فحُكِي عن الخليفةِ القائمِ بأمرِ اللَّهِ أنه قال: لما كنتُ بحَديثةِ عانةَ قمتُ ليلةً إلىٰ الصلاةِ، فوجَدْتُ في قلبي حَلاوةَ المُناجاةِ، ثم دعَوْتُ اللَّهَ تعالىٰ بما سنَح لي، ثم قلتُ: اللَّهم أعِدْني إلىٰ وطني، واجْمَعْ بيني وبينَ أهلي وولَدي، ويَسِّر اجْتماعَنا، وأَعِدْ رَوْضَ الأنْسِ زاهرًا، ورَبْعَ القُرْب عامرًا، فقد قلَّ العزاءُ وبَرِح الخَفاءُ. قال: فسمِعْتُ قائلاً علىٰ شاطئِ الفُراتِ يقولُ: نعم نعم. فقلتُ: هذا رجلٌ يُخاطِبُ آخرَ، ثم أخَذْتُ في السؤالِ والابْتِهالِ، فسمِعْتُ ذلك الصائحَ يقولُ: إلىٰ الحَوْلِ، إلىٰ الحَوْلِ. فعلمت أنه هاتفٌ أنْطَقَه اللَّهُ بما جرَىٰ الأمرُ عليه. وكان كذلك، خرَج مِن دارِه في ذي القَعْدةِ مِن هذه السنةِ، ورجَع إليها في ذي القَعْدةِ مِن السنةِ المقبلةِ، وقد قال الخليفةُ القائمُ في مُقامِه بالحَديثةِ شعرًا يَذْكُرُ فيه حالَه، فمنه:

خابَت ظُنونيَ فيمَن كنتُ آمُلُه ... ولم يَجُلْ ذِكْرُ مَن والَيْتُ في خَلَدي
تعَلَّموا مِن صُروفِ الدهرِ كلُّهمُ ... فما أرَى أحدًا يَحْنُو على أحدِ

ومن ذلك أيضًا قولُه:

ما لي مِن الأيامِ إلا موعدٌ ... فمتى أرَى ظَفَرًا بذاكَ المَوْعدِ
يومي يَمُرُّ وكلما قضَّيْتُه ... علَّلْتُ نفسيَ بالحديثِ إلى غدِ
أحيا بنفسٍ تَسْتَريحُ إلى المُنَى ... وعلى مَطامِعِها تَرُوحُ وتَغْتَدي

وأما البَساسيريُّ وما اعتمَدَه في بغدادَ، فإنه ركب يومَ عيدِ الأضحىٰ، وألبس الخُطَباءَ والمؤذِّنين البَياضَ، وعليه هو وأصحابه كذلك، وعلىٰ رأسه الألويةُ المستنصريةُ والمطاردُ المصريةُ، وخطَب للمستنصرِ الفاطميِّ صاحبِ مصرَ، والرَّوافضُ في غايةِ السرورِ، والأذانُ في سائرِ بلادِ العراقِ بحيَّ علىٰ خيرِ العملِ، وانتقَم البَساسيريُّ من أعيانِ أهلِ بغدادَ انتقامًا عظيمًا، وغرَّق خلقًا ممَّن كان يُعاديه، وبسَط علىٰ آخرين الأرزاقَ والعطايا.

ولما كان يومُ الإثنين لليلتَيْن بقِيَتا من ذي الحجَّة أُحْضِر إلىٰ بين يديه الوزيرُ أبو القاسم بنُ المُسلمةِ المُلَقَّبُ برئيسِ الرؤساءِ، وعليه جُبَّةُ صُوفٍ، وطُرْطُورٌ من لِبْدٍ أحمرَ، وفي رقبته مِخَنَقَةٌ من جُلُودٍ كالتَّعاويذِ، فأُرْكِب جملاً، وطِيفَ به في البلدِ، وخلفَه مَن يَصْفَعُه بقطعة من جلدٍ، وحينَ اجتازَ بالكَرْخ نثَروا عليه خُلْقانَ المَداساتِ، وبصَقوا في وجهه ولعَنوه وسبُّوه، وأُوقِف بإزاءِ دارِ الخلافةِ وهو في ذلك يَتْلُو قولَه تعالىٰ: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦]. ثم لما فُرِغ من التَّطْوافِ به في محالِّ البلدِ وأُعيد إلىٰ المُعَسكرِ، فأُلبِس جلدَ ثَوْرٍ بقَرْنَيْه، وعُلِّق بكَلُّوبٍ في شِدْقَيْه، ورُفِع إلىٰ الخشبةِ حيًّا، فجعَل يَضْطَرِبُ إلىٰ آخرِ النهارِ، فمات رحمه اللهُ، وكان آخرَ كلامه أن قال: الحمدُ للَّه الذي أحْياني سعيدًا وأماتني شهيدًا.

وفي هذه السنة وقَع بَرَدٌ بأرضِ العراقِ أهْلَك كثيرًا من الغَلاَّتِ، وقُتِل بعضُ الفلاَّحين وزادَت دِجْلةُ زيادةً عظيمةً، وزُلْزِلَت بغدادُ في شوالٍ قبلَ الفتنةِ بشهرٍ زلزالاً شديدًا، فتهدَّمت دُورٌ كثيرةٌ، ووردَت الأخبارُ أنها اتصَلت من بغدادَ إلىٰ همَذانَ وواسطٍ، وعانةَ وتكْريتَ، وذُكِر أن الطَّواحينَ وقَفَت من شدةِ الزلازلِ.

وفي هذه السنة كثُر النَّهْبُ ببغدادَ حتىٰ كانت العَمائمُ تُخْطَفُ عن الرءوسِ حتىٰ إن الشيخَ أبا نصرِ ابنَ الصبَّاغِ خُطفت عمامتُه وطَيْلَسانُه، وهو ذاهبٌ إلىٰ الصلاة يومَ الجمعةِ.

وفي أواخرِ هذه السنة خرَج السلطانُ طُغْرُلْبَك من همَذان فقاتَل أخاه وانتَصَر عليه وللَّه الحمدُ والمنةُ، فتباشر الناسُ بذلك وكثُر سرورُهم وفرحُهم، ولم يُظْهِروا ذلك خوفًا من البَساسيريِّ، واستَنْجَد طُغْرُلْبَك بأولادِ أخيه داودَ ـ وكان قد مات ـ ومَن معهم من الجنودِ علىٰ أخيه إبراهيمَ يَنَال، فغلَبوه وأسروه وذلك في أوائلِ سنةِ إحدىٰ وخمسين، واجتَمَعوا علىٰ عمِّهم طُغْرُلْبَك، فسار بهم نحوَ العراقِ، فكان من أمرِهم ما سيأتي ذكرُه في السنة الآتيةِ إن شاء اللَّهُ تعالىٰ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

الحسينُ بنُ محمدٍ، أبو عبدِ اللَّه الوَنِّيُّ الفَرَضيُّ، وهو شيخُ الخَبْريِّ، وكان شافعيَّ المذهبِ، قُتِل ببغدادَ في فتنةِ البساسيريِّ ودُفِن يومَ الجمعةِ يومَ عرفةَ من هذه السنةِ، رحمه اللَّهُ.

داودُ أخو طُغْرُلْبَك الأكبرَ: كان مقيمًا ببلخَ بإزاءِ أولادِ محمودِ بنِ سُبُكْتِكين، تُوُفِّي في هذه السنةِ، وقام أولادُه مقامَه.

طاهرُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ طاهرِ بنِ عمرَ، أبو الطيبِ الطبريُّ الفقيهُ: شيخُ الشافعيةِ، ولد بآمُلِ طَبَرِسْتانَ سنةَ ثمانٍ وأربعين وثلاثمائةٍ، وسمع بجُرْجانَ من أبي أحمدَ الغِطْريفيِّ، وبنَيْسابورَ من أبي الحسنِ الماسَرْجِسيِّ، وعليه درَس الفقهَ، وتفقَّه أيضًا على أبي عليٍّ الزَّجَّاجيِّ، وأبي القاسمِ بنِ كَجٍّ، ثم اشْتَغل ببغدادَ على الشيخِ أبي حامدٍ الإسْفَرايِينيِّ، وشرَح «المُخْتصَرَ»، و«فُروعَ ابنِ الحَدَّادِ»، وصنَّف في الأصولِ والجَدَلِ، وغيرِ ذلك من العلومِ الكثيرةِ النافعةِ، وسمع ببغدادَ من الدارَقُطْنيِّ وغيرِه، وولي القضاءَ برَبْعِ الكَرْخِ بعدَ موتِ أبي عبدِ اللَّهِ الصَّيْمَريِّ، وكان ثقةً دَيِّنًا ورِعًا، عالمًا بأصولِ الفقهِ وفُروعِه، وله المصنفاتُ الباهرةُ في ذلك، سليمَ الصدرِ، مواظبًا على تعليمِ العلمِ ليلاً ونهارًا، وقد ذكرتُ ترجمتَه في «الطبقات» بما فيه كفايةٌ.

وحكَى الشيخُ أبو إسحاقَ الشِّيرازيُّ عنه - وكان شيخَه، وقد أجْلَسه بعدَه في الحلْقةِ - أنه أسْلَم خُفًّا له عند خفَّافٍ ليُصْلِحَه له، فأبْطأ عليه، فكان كلما مرَّ عليه أخَذه فغمَسه في الماءِ، وقال: الساعةَ. الساعة فقال له الشيخُ: إنما أسْلمْتُه لك لتُصْلِحَه، ولم أُسْلِمْه لتُعَلِّمَه السِّباحةَ.

وحكَى ابنُ خَلِّكانَ أنه كان له ولأخيه عِمامةٌ وقَميصٌ، إذا لبِسهما هذا جلَس الآخَرُ في البيتِ، وقد قال في ذلك القاضي أبو الطَّيِّبِ:

قومٌ إذا غسَلوا ثيابَ جَمالِهم ... لبِسوا البُيوتَ إلى فَراغِ الغاسلِ

وكان قد بلَغ من العمرِ مائةَ سنةٍ وسنتين، وهو صحيحُ العقلِ والفَهمِ والأعضاءِ، يُفْتي ويَشْتَغِلُ إلى أن مات في هذه السنةِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

عليُّ بنُ محمدِ بنِ حَبيبٍ، أبو الحسنِ الماوَرْديُّ البَصْريُّ: شيخُ الشافعيين، صاحبُ التَّصانيفِ الكثيرةِ في الأصولِ والفروعِ والتَّفسيرِ و«الأحكامِ السُّلطانيةِ»، و«أدبِ الدنيا والدِّينِ». قال: بسَطْتُ الفقهَ في أربعةِ آلافِ ورقةٍ - يعني «الحاويَ الكبيرَ» - واختصرتُه في أربعين ورقةً. يعني «الإقناعَ». وقد ولِي الحكمَ في بلادٍ كثيرةٍ، وكان حليمًا وقورًا أديبًا، لم يَرَ أصحابُه ذراعَه يومًا من الدهرِ من شدةِ تَحَرُّزِه وأدبِه، وقد استَقْصَيْتُ ترجمتَه في «الطَّبَقاتِ»، وكانت وفاتُه في هذه السنةِ عن ستٍّ وثمانين سنةً، ودُفِن ببابِ حربٍ.

وقد أنشَد له ابنُ خَلِّكانَ أشعارًا منها قولُه:

جَرَى قلمُ القضاءِ بما يكونُ ... فسِيَّانِ التحرُّكُ والسكونُ

جنونٌ منك أن تَسْعَى لرزقٍ ... ويُرزَقَ في غِشاوتِه الجنينُ

رئيسُ الرؤساءِ، أبو القاسمِ بنُ المُسلمةِ، عليُّ بنُ الحسنِ بنِ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ عمرَ: أبو القاسمِ وزيرُ القائمِ بأمرِ اللَّهِ، كان أولاً قد سمع الحديثَ من أبي أحمدَ الفَرَضيِّ وغيرِه، ثم كان أحدَ

المُعدِّلين، ثم استكتبه الخليفةُ القائمُ بأمرِ اللَّه واستوزره، ولقَّبه رئيسَ الرؤساء، شرفَ الوُزراء، جَمالَ الورَىٰ، كان مُتضلِّعًا بعلومٍ كثيرةٍ مع سَدادِ رأيٍ ووُفورِ عقلٍ، وقد مكَث في الوزارة ثنتيَ عشْرةَ سنةً وشهرًا، ثم قتَله البَساسيريُّ بعدَما شهَّره، ثم صلَبه معلقًا بشِدْقيه كما قدَّمنا ذلك، وله من العمرِ ثنتان وخمسون سنةً وخمسةُ أشهرٍ.

عبدُ الواحد بن الحسين بن شيطا: المسندُ للحديث، وكان ثقةً، بصيرًا بالعربيةِ ووجوهِ القراءاتِ ومذاهبِ القراء، بلَغ الثمانين، وله كتابٌ في التجويد، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

منصورُ بنُ الحسين، أبو الفوارس الأسَديُّ: صاحبُ الجزيرة، كانت وفاتُه في هذه السنةِ، فاجتمعت العشيرةُ علىٰ إقامة ولده صدقةَ من بعده. واللَّهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وأربعمائة

استَهلَّت وبغدادُ في قبضة البَساسيريِّ، ويَخْطُبُ فيها للمُستنصرِ الفاطميِّ، والقائمُ قاعدٌ بحَديثةِ عانةَ، ثم لما كان يومُ الإثنين ثاني عَشَرَ صفرٍ أحضَر البَساسيريُّ قاضيَ القُضاة أبا عبد اللَّه الدامَغانيَّ وجماعةً من الوُجوهِ والأعيانِ من العَلَويين والعباسيين، وأخَذ عليهم البَيْعةَ للمستنصرِ الفاطميِّ، ثم دخَل دارَ الخلافة وهؤلاء المَذْكورون معه، وأمَر بنَقْضِ تاجِ دارِ الخلافة، فنُقِضَتْ بعضُ الشَّراريف، ثم قيل له: إن القُبْحَ في هذا أكثرُ من المَصْلحة. فتركه، ثم ركب إلىٰ زيارة المَشْهَد بالكُوفة، وعزَم علىٰ حفرِ نهرٍ يُساقُ إلىٰ الحائرِ لوفاءِ نَذْرٍ كان عليه، وأمَر بأن تُنْقَلَ جُثَّةُ ابنِ مَسْلمةَ إلىٰ ما يُقارِبُ الحَريمَ الطاهريَّ، وأن تُنْصَبَ علىٰ دجلةَ، وكتَبَت أمُّ الخليفة - وكانت عَجوزًا كبيرةً قد بلَغَت التسعين، وهي مُخْتَفِيةٌ في مكانٍ - إلىٰ البَساسيريِّ تَشْكُو إليه الحاجةَ والفقرَ وضيقَ الحال، فأرْسَل إليها ونقَلها إلىٰ الحَريمِ، وأخْدَمها جاريتَيْن، ورتَّب لها كلَّ يومٍ اثنَيْ عشَرَ رِطلاً من خبزٍ وأربعةَ أرْطالِ لحمًا، ولا يَفِي هذا قيراطًا مما فعلَه بولدِها وبأهلِ السُّنَّة.

فصلٌ

ولَمّا تخلَّص السلطانُ طُغْرُلْبَك، من حَصْرِه بهَمَذانَ، وقاتل أخاه إبراهيمَ ينَّال، وأسرَه وقتلَه، وتمكَّن من أمرِه، وطابَت نفسُه واستقرَّ حالُه، ولم يَبْقَ له في تلك البلادِ مُنازعٌ، كتَب إلىٰ قُرَيْشِ ابنِ بَدْرانَ، من الأعراب، يأمُرُه بأن يُعادَ الخليفةُ إلىٰ داره، علىٰ ما كان عليه، وتوعَّده علىٰ ترك ذلك بأسًا شديدًا، فكتبَ إليه قُرَيْشٌ يتَلطَّفُ به، ويُسالمُه، ويقولُ: أنا معك علىٰ البَساسيريِّ بكلِّ ما أقْدِرُ عليه، حتىٰ يُمكِّنَ اللَّهُ منه، ولكن أخْشىٰ أن أتَسرَّعَ في أمرٍ يكونُ فيه علىٰ الخليفة مَفْسَدةٌ، أو يَبْدُرُ إليه أحدٌ بأذيةٍ، ولكنِّي سأَعْمَلُ لما أمَرْتَني بكلِّ ما يُمكِنُني. وأمرَ بردِّ امرأةِ الخليفةِ الخاتونِ المعظَّمةِ أرسلان خاتون إلىٰ دارِها وقَرارِها. ثم إنه راسَل البَساسيريَّ وأشار إليه بعَوْدِ الخليفة إلىٰ داره، وخوَّفه من جهةِ

الملكِ طُغْرُلْبَك، وقال له فيما قال: إنك دعَوْتَنا إلىٰ طاعةِ المُسْتَنْصِرِ صاحبِ مصرَ، وبينَنا وبينَه ستُّمائة فَرْسَخٍ، ولم يأتِنا من جهتِه رسولٌ ولا أحدٌ، ولم يُفكِّرْ في شيءٍ مما أرسَلْنا إليه، وهذا الملكُ مِن ورائنا بالمِرْصادِ. وجاء كتابٌ مِن الملكِ طُغْرُلْبَك عُنْوانُه: إلىٰ الأميرِ الجَليلِ عَلَمِ الدِّينِ أبي المَعالي قُرَيْشِ بنِ بَدْرانَ مولىٰ أميرِ المؤمنين، مِن شاهنشاه المُعظَّمِ ملك المَشْرِقِ والمَغْرِبِ طُغْرُلْبَك، أبي طالبٍ محمدِ بنِ مِيكائيلَ بنِ سَلْجُوقَ. وعلىٰ رأسِ الكتابِ العَلامةُ السُّلْطانيةُ بخطِّ السُّلطانِ: حَسْبيَ اللَّهُ. وكان في الكتابِ: والآن قد سرَتْ بنا المَقاديرُ إلىٰ قتالِ كلِّ عدوٍّ للدِّينِ والمُلْك، ولم يَبْقَ لنا وعلينا مِن المُهِمَّات إلا خدمةُ سيدنا ومولانا الإمامِ القائمِ بأمر اللَّهِ أميرِ المؤمنين، وإطلاعُ أُبَّهَةِ إمامته علىٰ سريرِ عِزِّه، فإن الذي يَلْزَمُنا ذلك، ولا فُسْحَةَ في التضجيعِ فيه ساعةً مِن الزمانِ، وقد أقْبَلْنا بخيولِ المشرقِ إلىٰ هذا المُهِمِّ العظيمِ، ونُرِيدُ مِن الأميرِ الجَليلِ عَلَمِ الدِّينِ إتمامَ السعي النَّجيحِ الذي وُفِّق له وتفرَّد به، وهو أن يُتِمَّ وفاءَه مِن أمانتِه وخدمتِه في بابِ سيدِنا ومولانا القائمِ بأمرِ اللَّهِ أميرِ المؤمنين من أحدِ وجهين، إما أن يُقْبِلَ به مُكرَّمًا إلىٰ وَكْرِ عِزِّه، ومَثْوَىٰ إمامتِه، وموقفِ خلافتِه مِن مدينةِ السلامِ، ويَنْتَدِبَ بينَ يديه مَتولِّيًا أمرَه، ومُنْفِذًا حُكمَه، وشاهرًا سيفَه وقلمَه، وذلك المرادُ، وهو خليفتُنا في تلك الخدمةِ المفروضةِ، ونُوَلِّيه العراقَ بأسْرِها ونُصَفِّي له مَشارعَ بَرِّها وبَحْرِها، لا يَطأُ حافرُ خيلٍ مِن خيولِ العَجَمِ شِبْرًا مِن أراضي تلك المَمْلكةِ، إلا بالتماسه لمعاونتِه ومظاهرتِه، وإما أن يُحافظَ علىٰ شخصِه العالي بتَحْويلِه مِن القلعةِ إلىٰ حِلَّتِه أو في القلعةِ إلىٰ حينِ لحاقِنا بخدمتِه، فنَتَكَفَّلُ بإعادتِه، ويكونُ الأميرُ الجليلُ مُخيَّرًا بينَ أن يلتقيَ بنا أو يُقيمَ حيث شاء فنُوَلِّيه العراقَ، ونَسْتَخْلِفَه في الخدمةِ الإماميةِ، ونَصْرِفَ أعِنَّتَنا إلىٰ الممالكِ الشرقيةِ، فهِمَمُنا لا تَقْتَضي إلا هذا الغرضَ المفترضَ، ولا تَسْفُ إلىٰ مملكةٍ من تلك الممالكِ بل الهمةُ دينيةٌ، وهو - أدام اللَّهُ تمكينَه - يتيقنُ ما ذكرنا، ويعلمُ أن توجهَنا إثْرَ هذا الكتابِ لهذا الغرضِ المعلومِ ولا غرضَ سِواه، فلا يُشْعِرَنَّ قلوبَ عشائرِه رهبتَه، فإنهم كلَّهم إخوانُنا وفي ذِمَّتِنا وعهدِنا، وعلينا به عهدُ اللَّهِ وميثاقُه ما داموا موافقِين للأميرِ الأجلِّ في موالينا ومن اتَّصلَ به مِن سائرِ العربِ والعَجمِ والأكْرادِ، فإنهم مُقَرُّون في جملتِه وداخلون في عهدِنا وذِمَّتِنا وعهدِه وذِمَّتِه، ولكلِّ مُجْتَرِمٍ في العراقِ عَفْوُنا وأمْنُنا مما بدَر منه إلا البساسيريَّ فإنه لا عهد له ولا أمانَ منَّا، وهو موكولٌ إلىٰ الشيطانِ وتساويلِه؛ فقد ارتكبَ في دينِ اللَّهِ عظيمًا، وهو إن شاء اللَّهُ مأخوذٌ حيث وجِد ومُعَذَّبٌ علىٰ ما عمِل، فقد سعىٰ في دماءِ خلقٍ كثيرٍ بسوءِ دخيلتِه، ودلَّت أفْعالُه علىٰ سوءِ عَقيدتِه. وكَتَب في رمضان سنةَ إحدىٰ وخمسين وأربعمائةٍ. وبَعَث بهذا الكتابِ مع رسولين من أهلِ العلمِ وبَعَث معهما بتُحَفٍ عظيمةٍ للخليفةِ وأمرَهُما أن يَخْدُما الخليفةَ نيابةً عنه، جزاه اللَّهُ عن الإسلامِ خيرًا، ولما وصَلَ الكتابُ إلىٰ قريشِ بنِ بَدْرانَ، استعلم أخبارَ الملك طُغْرُلْبَك من الرسُلِ وغيرِهم، فإذا معه جنودٌ عظيمةٌ، فخاف من ذلك خوفًا شديدًا، وبعث إلىٰ البَرِّيَّةِ فأمر بحفرِ أماكنَ للماءِ وتجهيزِ علوفاتٍ كثيرةٍ إلىٰ هناك، ونفَّذ الكتابَ والأخبارَ إلىٰ البساسيريِّ فانْزَعجَ لذلك البساسيريُّ،

قَبَّحَه اللَّهُ، وخارتْ قوتُه وضَعُفَ أمرُه، وبعَث إلى أهلِه فنقَلهم عن بغدادَ وأرصَد له إقاماتٍ عظيمةً بواسطٍ وجعَلها دارَ مَقرَّتِه، ووافق على عَوْدِ الخليفةِ إلى بغدادَ، ولكن اشترَط شروطًا كثيرةً لتُذْهِبَ خَجلَه، ولما انتقَل أهلُ البساسيريِّ من بغدادَ وصَحِبَتْهم أهلُ الكَرخِ والروافضُ، قبَّحهم اللَّهُ تعالى، وانحدروا في دجلَةَ إلى واسطٍ كَان خروجُهم عن بغدادَ في سادسِ ذي القعْدةِ من هذه السنةِ، وفي مثله من العام الماضي دخلوا بغدادَ، وعند ذلك ثار الهاشميون وأهلُ السُّنَّةِ من بابِ البصرةِ إلى الكَرْخِ، فنهَبوه وأحرَقوا منه مَحَالَّ كثيرةً جدًّا، واحتَرَق من جملةِ ذلك دارُ العلمِ التي كان وقفَها الوزيرُ أرْدَشيرُ مِن مدةِ سبعين سنةً، وفيها مِن الكتبِ شيءٌ كثيرٌ، وكان في جملةِ ما احترق دربُ الزعفرانِ، وفيه ألفٌ ومائتا دارٍ لكلِّ دارٍ منها قيمةٌ جَليلَةٌ عظيمةٌ، وترحَّل قريشُ بنُ بَدْرانَ إلى أرضِ المَوْصلِ وبعث إلى حديثةِ عانةَ يقولُ لأميرِها مُهارِشَ بنِ مُجَلِّي الذي سلَّم إليه الخليفةَ: المصلحةُ تقتضي أن الخليفةَ تُحولُه إليَّ حتى نستأمن لأنفُسنا بسببِه، ولا تُسَلِّمْه حتى تستأمَن لنا وتأخذَ أمانًا في يدِكَ دون يَدِي. فامْتَنَع عليه مُهارِشٌ، وقال: قد غرَّني البَساسِيريُّ، ووعَدني بأشياءَ فلم أَرَها، ولستُ بمُرْسِلِه إليك أبدًا، وله في عنقي أيمانٌ كثيرةٌ لا أغْدِرُها. وكان مُهارِشٌ رجلاً صالحًا ثقةً أمينًا، رحِمه اللَّهُ، فقال للخليفةِ: من المصلحةِ أن نَسيرَ إلى بلدِ بدرِ بنِ مُهَلْهِلٍ، ونَنْظُرَ ما يكونُ مِن أمرِ السلطانِ، فإن ظهَر دخَلْنا بَغْدادَ، وإن كانت الأُخرَى نَظَرْنا لأنفسِنا، فإنا نخْشَى مِن البَساسِيريِّ أن يأتِيَنا فيَحْصُرَنا. فقال له الخليفةُ: افْعَلْ ما فيه المصلحةُ. فسارا في الحادي عشَرَ مِن ذي القَعْدةِ إلى أن حصَلا بقلعةِ تَلِّ عُكْبَرَا، فَلقيَتْه رسلُ السلطانِ طُغْرُلْبَك بالهَدايا والتُّحَفِ التي كان أنْفَذها إليه، وهو متشوقٌ إليه كثيرًا، وجاءت الأخبارُ بأن السلطانَ طُغْرُلْبَك قد دخَل بغدادَ، وكان يومًا مشهودًا، غيرَ أن الجيشَ نهَبوا البلدَ سوى دارِ الخلافةِ، وصُودِر خَلْقٌ كثيرٌ مِن التُّجَّارِ، وأُخِذَت منهم أموالٌ كثيرةٌ، وشرَعوا في عِمارةِ دارِ المُلْكِ، وأرْسَل السلطانُ إلى الخليفةِ مَراكِبَ كثيرةً مِن أنواعِ الخُيولِ وغيرِها، وسُرادِقَ عظيمةً ومَلابسَ سَنيَّةً، وما يَليقُ بالخَليفةِ في السفرِ، أرسَل ذلك مع الوزيرِ عَميدِ المُلْكِ الكُنْدُريِّ، ولما انْتَهَوْا إليه أرْسَلوا بتلك الآلاتِ قبلَ أن يَصِلوا إليه، وقال لمن حوله: اضْرِبوا السُّرادِقَ ولْيَلْبَس الخليفةُ ما يَليقُ به، ثم نَجِيءُ نحن فَنستَأذِنُ عليه، فلا يَأْذَنُ لنا إلا بعدَ ساعةٍ طويلةٍ. فلما دخَل الوزيرُ ومَن معه قبَّلوا الأرضَ، وأخْبَرَوه بسُرورِ السلطانِ بما حصَل مِن العَوْدِ إلى بغدادَ واشتياقه إليه جدًّا، وأخبروا مُهارِشًا بشكرِ السلطانِ له ونيتِه له بما ينبغي لمثلِه من الإكرام، وكتَب عَميدُ المُلْك كتابًا إلى السُّلطانِ يُعْلِمُه بصفةِ ما جرَى الأمْرُ عليه، وأَحَبَّ أن يأخذَ خطَّ الخليفةِ في أعلى الكتابِ ليَكونَ أقرَّ لعينِ السلطانِ، فلم يكن عند الخليفةِ دواةٌ وأحْضَر الوزيرُ دَواتَه، ومعها سيفٌ، وقال: هذه خدمةُ السيفِ والقلمِ.

فأعْجَب الخليفةَ ذلك، وترَحَّلوا مِن منزلِهم ذلك بعدَ يومين، فلما وصَلوا إلى النَّهْرَوانِ خرَج السلطانُ طُغْرُلْبَك مِن بغدادَ لتَلَقِّيه، فلما انتهى إلى السُرادقِ قبَّل الأرضَ بينَ يدي الخليفةِ سبعَ مراتٍ

فأخَذ الخليفةُ مخَدَّةً، فوضَعها بينَ يديه، فأخَذها الملكُ فقبَّلها، ثم جلَس عليها كما أشار أميرُ المؤمنين، وقدَّم إلى الخليفةِ الحبلَ الياقوتَ الأحمرَ الذي كان لبني بُويْهِ، فوضَعه بينَ يدَي الخليفةِ، وأخْرج اثنتَيْ عشْرةَ حبَّةً مِن لُؤْلؤ كبارٍ، وقال: أرْسلانُ خاتون - يعني زوجةَ الخليفة - تخْدُمُ وتسأَلُ أن تُسبِّحَ بهذه السُّبْحةِ. وجعل يَعْتذرُ مِن تأخُّره عن الحَضْرةِ بسببِ عصيانِ أخيه إبراهيمَ: فقَتَلْتُه واتَّفق موتُ أخي الأكبرِ داودَ، فاشْتَغلْتُ بتَرْتيبِ أولادِه مِن بعدِه، وكنتُ عزمتُ على أن أصْمُدَ إلى الحديثةِ؛ لأصونَ المهجةَ الشريفةَ، ولكن لما بلغني، بحمدِ اللَّهِ، أمرُ مولاي أميرِ المؤمنين الخليفة فرِحتُ بذلك، وأنا شاكر لُمهارِشٍ بما كان منه مِن خدمةِ أميرِ المؤمنين، وأنا إن شاء اللَّهُ تعالى، أَمْضِي وراء هذا الكلبِ - البَساسِيريِّ - وأقتنِصُه، وأعودُ إلى الشامِ، وأفْعَلُ بصاحبِ مصرَ ما ينْبَغِي أن يُجازَى به مِن سوءِ المُقابَلَةِ بما كان مِن فعلِ البساسِيريِّ هاهنا. فدُعا له الخليفةُ، وشكَره على ذلك. كلُّ ذلك يُتَرْجِمُه عميدُ المُلْكِ بين الخليفةِ والمَلكِ طُغْرُلْبَك. وأعْطَى الخليفةُ للملكِ سيفًا كان معه، لم يَبْقَ معه مِن أمورِ الخِلافةِ سِواه، واسْتَأْذَن الملكُ لبقيةِ الجيشِ أن يَخْدُموا الخليفةَ، فرُفِعَت الأستارُ مِن جَوانبِ الخَرْكَاه، فلما شاهَد الأتراكُ الخليفةَ قبَّلوا الأرضَ. ثم دخَل بغدادَ يومَ الإثنين لخمسٍ بقِين من ذي القَعْدةِ، وكان ذلك يومًا مشهودًا، الجيشُ كلُّه معه والقُضاةُ والأعيانُ بينَ يديه، والملكُ طُغْرُلْبَك آخذٌ بلِجامِ بغلته، حتى وصَل إلى بابِ الحجرةِ، ولما وصَل الخليفةُ إلى دارِ مملكتِه ومقرِّ خلافتِه استَأْذَنه السلطانُ طُغْرُلْبَك في الخروجِ وراءَ البَساسِيريِّ، فأذِن له، وكان قد عزَم على أن يمضيَ معه فقال: يا أميرَ المؤمنين، أنا أكفيك ذلك إن شاء اللَّهُ.

وأطلَق الملكُ لُمهارِشٍ عشرةَ آلافِ دينارٍ فلم يرضَ، وشرَع السلطانُ في ترتيبِ الجيوشِ للمسيرِ وراءَ البساسيريِّ، فأرسل جيشًا من ناحيةِ الكوفةِ ليمنعوه مِن الدخولِ إلى الشامِ، وخرَج هو في التاسعِ والعشرين مِن الشهرِ في بقيةِ الجيشِ.

وأما البسَاسِيريُّ فإنه مُقيمٌ بواسِطٍ في جمعِ غَلاَّتٍ وتُمُورٍ يُهَيِّئُها لقتالِ أهلِ بغدادَ ومن فيها من الغُزِّ، وعندَه أن الملكَ طُغْرُلْبَك ومَن معه ليسوا بشيءٍ يخافُ منه، وذلك لما يُرِيدُه اللَّهُ تعالى مِن إهلاكِه على يَدي الملكِ طُغْرُلْبَك، جزاه اللَّهُ عن الإسلامِ خيرًا، آمين.

صفة أخذ البَساسيري قبَّحه الله

لما سار السلطانُ نحوَه وصَلَت إليه السَّريةُ الأولى فلقُوه بأرضِ واسطٍ، ومعه ابنُ مَزْيَدٍ، فاقْتَتَلوا هنالك، وانْهَزَم أصحابُه، ونجا البَساسِيريُّ بنفسِه على فرسٍ، فتَبِعَه بعضُ الغِلْمانِ، فرمَى فرسَه بنُشَّابةٍ، فألْقَته إلى الأرضِ، فجاءَ الغلامُ، فضرَبه على وجهِه، ولم يَعْرِفْه، وأسَره واحدٌ منهم يقالُ له: كُمُشْتِكتين. وجزَّ رأسَه وحملَه إلى السلطانِ، وأخَذَت الأتراكُ مِن جيشِ البَساسِيريِّ مِن الأموالِ ما عجَزوا عن حملِه.

ولما وصَل الرأسُ إلى السلطان أمَر أن يُذْهَبَ به إلى بغداد، وأن يُرْفَعَ على قَناةٍ، وأن يُطافَ به في المحَالِّ والدَّبادِبُ والبُوقاتُ والنَّفَّاطون معه، وأن يَخْرُجَ الناسُ والنساءُ للفُرْجة عليه، ففُعِل ذلك، ثم نُصب على الطَّيَّارِ تُجاهَ دارِ الخلافة، ولله الحمدُ والمنَّةُ، وقد كان مع البَساسيريِّ خلقٌ من البَغادِدة خرَجوا معه، ظانِّين أنه سيَعودُ إليها، محبَّةً فيه، فهلَكوا ونُهِبَت أموالُهم كلُّها، ولم يَنْجُ من أصحابه إلا القليلُ، وفرَّ ابنُ مَزْيَدٍ في ناسٍ قليلٍ إلى البَطيحة، وفيمن معه أولادُ البَساسيريِّ وأمُّهم، وقد سَلَبَتْهم الأعرابُ، فلم يَتْرُكوا لهم شيئًا فوردوا البطيحةَ مسلوبين مَحْروبين، ثم استُؤمِن لابنِ مَزْيَدٍ من السلطان، ودخَل معه بغدادَ، وقد نهَبَت العَساكرُ السلطانيةُ ما بينَ واسطٍ والبصرةِ والأهْوازِ، وذلك لكثرة الجيشِ وانتشاره وكثافته. وأما الخليفةُ فإنه لما عاد إلى دارِ الخلافة جعَل للَّه عليه أن لا يَنامَ على وطاءٍ، ولا يأتيَه أحدٌ بطعامه إذا كان صائمًا، ولا يَخْدُمَه في وُضوئه وغُسله، بل يَتولَّى ذلك بنفسه لنفسه، وعاهَد اللَّهَ أن لا يُؤْذِيَ أحدًا ممَّن آذاه، وأن يَصْفَحَ عمَّن ظلَمه، وكان يقولُ: ما عاقَبْتَ مَن عصَى اللَّهَ فيك بأكثرَ من أن تُطيعَ اللَّهَ فيه.

وفيها: توَلَّى الملكُ ألْب أرْسلان بنُ داودَ جَغْريبَك بنِ ميكائيلَ بنِ سَلْجوقَ بلادَ خُراسانَ بعدَ وفاةِ أبيه بتقريرِ عمِّه المَلك طُغْرُلْبَك، وكان له من الإخوة ثلاثةٌ؛ سليمانُ وقاروتُبَك، وياقوتي، فتزَوَّج طُغْرُلْبَك بأمِّ سليمانَ هذا، وأوصى له بالمُلك من بعده.

وكان في هذه السنة بمكةَ رُخْصٌ لم يُسْمَعْ بمثله، بيع البُرُّ والتمرُ، كلُّ مائتيْ رَطْلٍ بدينارٍ.

ولم يَحُجَّ أحدٌ من أهلِ العراقِ في هذه السنة.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعْيان:

أرْسَلان، أبو الحارث البَساسيريُّ التُّركيُّ: كان من مَماليك بَهاءِ الدولة بن عَضُد الدولة، وكان أولاً مَمْلوكًا لرجلٍ من أهلِ مدينةِ بَسَا، فنُسِب إليه، فقيل له: البَساسيريُّ. وتلَقَّب بالمُظَفَّر، ثم كان مُقَدَّمًا كبيرًا عندَ الخليفة القائم بأمر اللَّه، لا يَقْطَعُ أمرًا دونه، وخُطب له على منابرِ العراقِ كلِّها، ثم طغَا وبغَى وتمرَّد، وعتَا وخرَج على الخليفة، بل وعلى المسلمين، ودعا إلى خلافة الفاطميِّين، فتمّ له ما رامَه من الأملِ الفاسدِ واستُدْرِج، ثم كان أخذُه في هذه السنةِ، على ما ذكَرْنا، ولله الحمدُ، وكان دخولُه بأهله إلى بغدادَ في سادسِ ذي القَعْدة من سنةِ خمسين وأربعمائة، ثم اتَّفق خروجُهم في سادسِ ذي القَعْدة أيضًا من سنة إحدى وخمسين بعدَ سنةٍ هلاليةٍ كاملةٍ، ثم كان خروجُ الخليفةِ من بغدادَ في يومِ الثلاثاء الثامنَ عشَرَ من كانونَ الأول، واتَّفق قتلُ البَساسيريِّ في يومِ الثلاثاء الثامن عشَرَ من كانونَ الأول بعد سنةٍ شَمْسيةٍ، وذلك في ذي الحِجَّة من هذه السنة.

الحسنُ بنُ أبي الفضلِ، أبو عليٍّ الشَّرْمَقانيُّ: المُؤدِّبُ المُقْرِئُ الحافظُ للقراءات واخْتلافها، كان ضيقَ الحالِ، فرآه شيخُه ابنُ العلَّاف ذاتَ يومٍ وهو يأخذُ أوراقَ الخَسِّ من دجلةَ فيأكُلُه، فأعْلَمَ ابنَ المُسْلِمة فأمَرَ غلامَه أن يَذْهَبَ إلى الخزانة التي بمسجده، فيَتَّخِذَ لها مفتاحًا غيرَ مفتاحه، ثم كان يَضَعُ

فيها كلَّ يوم ثلاثةَ أرطالٍ من خبزِ السَّميدِ ودَجاجةً وحَلاوةَ سُكَّرٍ، فظنَّ أبو عليٍّ الشَّرْمَقانيُّ أن ذلك كَرامةٌ، وأن هذا الطعامَ من الجنة، فكتَمه زمانًا، وجعَل يُنْشِدُ:

من أطلَعُوه على سِرٍّ فباح به لم يَأمَنوه على الأسرارِ ما عاشا

فلما كان في بعضِ الأيام ذاكره ابنُ العَلَّافِ في أمرِه، وقال: أراك قد سَمِنْتَ، فما هذا الأمرُ وأنت رجلٌ فقيرٌ؟ فجعَل يُلَوِّحُ ولا يُصَرِّحُ، ويُكَنِّي ولا يُفْصِحُ، ثم أخْبَرَه أنه يَجِدُ كلَّ يوم في خزانته من طعام الجنة ما يَكفيه. فقال له: ادْعُ لابنِ المُسلمة، فإنه الذي يَفْعَلُ معك ذلك. وشرَح له صُورةَ الحال، فانكَسَر ولم يُعْجِبْه ذلك.

عليُّ بنُ محمود بن إبراهيمَ بن ماخُرَّةَ أبو الحسن الزَّوْزَنيُّ: شيخُ الصُّوفية، وإليه يُنْسَبُ رباطُ الزَّوْزَنيِّ، وقد كان بُنيَ لأبي الحسنِ الحُصْريِّ شيخه، وقد صحِب أبا عبدِ الرحمنِ السُّلَميَّ، وقال: صحِبْتُ ألفَ شيخٍ، وأحْفَظُ عن كلِّ شيخٍ حكايةً. تُوُفِّي في رمضانَ عن خمسٍ وثمانين سنةً.

محمدُ بنُ عليِّ بنِ الفتح بن محمد بن عليٍّ أبو طالب الحربيُّ: المَعْروفُ بالعُشَاريِّ، وإنما قيل له ذلك؛ لطولِ جسده، وقد سمع الدارَقُطنيَّ وغيرَه، وكان ثقةً دَيِّنًا صالحًا، وكانت وفاتُه في جُمادَى الأولى من هذه السنة، وقد نيَّف على الثمانين.

الوَنِّيُّ الفَرَضيُّ، الحسينُ بنُ محمد، أبو عبد الله الوَنِّيُّ: نسبةً إلى وَنَّ قريةٍ من أعمالِ قُهُستانَ، الفَرَضيُّ، شيخُ الخَبْريِّ، وهو أبو حكيمٍ عبدُ اللهِ بنُ إبراهيمَ، كان الوَنِّيُّ إمامًا في الحسابِ والفَرائضِ، وانتَفَع الناسُ به، وتُوُفِّي في هذه السنةِ ببغدادَ شهيدًا في فتنةِ البَساسيريِّ.

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وأربعمائة

في يوم الخميسِ السابعَ عشَرَ من صفرٍ دخَل السلطانُ بغدادَ مَرْجِعَه من واسطٍ، بعدَ قَتْلِ البَساسيريِّ، وفي يوم الحادي والعشرين منه جلَس الخليفةُ بدارِ الخلافة وحَضَر الملكُ طُغْرُلْبَك، ومدَّ سماطًا عظيمًا بين يديه، فأكَل الأمراءُ والعامَّةُ، ثم في يوم الخميسِ ثاني ربيع الأول عمِل الملكُ طُغْرُلْبَك في داره سماطًا عظيمًا أيضًا.

وفي يوم الثلاثاء تاسعِ جمادَى الآخرةِ ورَد الأميرُ عُدَّةُ الدينِ أبو القاسم عبد الله بنُ ذَخيرةِ الدينِ ابنِ أميرِ المؤمنين القائمِ، وجَدَّتُه، وعمَّتُه، وله من العمرِ يومَئذٍ أربعُ سنين صُحْبَةَ أبي الغنائمِ بنِ المحلبانِ، فتَلَقَّاه الناسُ إجْلالاً لجدِّه، وقد وَلِي هو الخلافة بعدَ ذلك، وهو المُقْتَدي بأمرِ الله.

وفي رجبٍ وقَف أبو الحسنِ محمدُ بنُ هلالٍ العَتَّابيُّ دارَ كتبٍ، بشارعِ ابنِ أبي عَوْفٍ من غربيِّ مدينةِ السلامِ، ونَقَل إليها ألفَ كتابٍ عِوَضًا عن دارِ أرْدَشيرَ التي احترقت بالكَرْخِ.

وفي شعبانَ ملَك محمودُ بنُ نصرٍ حلبَ وقلعتَها، فامْتَدَحه الشعراءُ.

وملَك عطيةُ بنُ صالحِ بنِ مِرْداسٍ الرَّحْبَةَ، وذلك كلُّه يُنزَعُ من أيدي الفاطميِّين.

وفيها: عاد الملكُ طُغْرُلْبَك إلى الجبلِ، وعقَد ببغدادَ على العميدِ بمائة ألف دينارٍ في السنةِ، ولسنتين بعدَها بثلاثمائة ألف دينار، فشرع العميدُ في عمارة الكَرْخ وأسواقِه.

ولم يَحُجَّ أحدٌ من أهلِ العراقِ في هذه السنةِ، غيرَ أن جماعةً اجْتَمَعوا إلى الكوفةِ، وركِبوا مع طائفة من الخَفَر.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعْيان:

بايُ بنُ جَعْفَرِ بن بايٍ أبو منصور الجيليُّ: من تلامذة أبي حامدٍ الإسفَرايينيِّ ولِي القضاءَ ببابِ الطاقِ وبحَريم دارِ الخلافة، وسمع الحديثَ من جماعة، قال: الخطيبُ: وكتَبْنا عنه، وكان ثقةً، رحمه اللَّهُ تعالى.

الحسَنُ بنُ محمد بن أبي الفضلِ، أبو محمد النَّسَويُّ الوالي: ، سمعَ الحديثَ، وكان ذكيًّا في صنعة الولاية، ومَعرفةَ المتَّهَم من بين الغُرَماء بلَطيفٍ من الصُّنْع، كما نُقل عنه أنه وقَف بين يدي جماعة اتُّهِموا بسرقة، فأتىٰ بكُوزٍ ليَشْرَبَ منه، فرمىٰ به فانْزَعَج الواقفون إلا واحدًا، فأمَر به أن يُقرَّر، وقال: السارقُ يكونُ جَريئًا قويًّا. فوُجد الأمرُ كذلك.

وقد قتَل مرةً واحدًا ضُرِبَ بينَ يديه، فادُّعي عليه عندَ القاضي أبي الطيب الطبريِّ، فحكَم عليه بالقصاص، ثم فادَىٰ عن نفسه بمالٍ جزيلٍ حتى خلَصَ من القتلِ.

محمدُ بنُ عُبَيد اللَّه بن أحمدَ بن محمد بن عَمْرُوس: ، أبو الفضلِ البَزَّارُ، انْتَهَت إليه رِياسةُ الفُقهاءِ المالكيِّين ببغدادَ، وكان من القُرَّاء المجوِّدين وأهلِ الحديث المُسْنِدين، مع ابنِ حَبابَةَ، والمُخَلِّصِ، وابنِ شاهينَ، وقد قَبِل شَهادتَه أبو عبد اللَّه الدَّامَغانيُّ، فكان أحدَ المُعدِّلين.

قَطْرُ النَّدَىٰ: ويقالُ: بدرُ الدُّجَىٰ. ويقالُ: عَلَمُ. أمُّ الخليفة القائم بأمرِ اللَّه، كانت عَجوزًا كبيرةً، قد بلَغَت التسعين سنةً، وكانت أرمينيَّةً، وهي التي احْتاجَت في زمانِ البَساسيريِّ وألجأتْها الحاجةُ حتى كَتَبتْ إليه رقعةً تشكو فقرَها وحاجتَها فأجرىٰ عليها رزقًا، وأَخْدَمَها جاريتين، وهذا كان من أحسنِ ما صنَع، ثم لم تَمُتْ حتى أقرَّ اللَّهُ عينَها بولدها ورُجوعِه إليها، واسْتَمرَّ أمرُهم على ما كانوا عليه، ثم تُوُفِّيَت في رجبٍ من هذه السنة، فحضَر ولدُها الخليفةُ جنازتَها، وكانت حافلةً جدًّا، رحمها اللَّهُ تعالى، وأكرم مثواها بمنِّه وكرمه، آمينَ.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة

فيها: خطَب الملكُ طُغْرُلْبَك ابنةَ الخليفة، فانْزَعَج من ذلك، وقال: هذا شيءٌ لم تَجْرِ العادةُ بمثله. ثم طلَب أشياءَ كثيرةً كهيئة المُبْعد له، من ذلك ما كان لزوجته التي تُوُفِّيَت من الإقْطاعات بأرضِ واسطٍ، وصَداقُ ثلاثمائة ألف دينارٍ، وأن يُقيمَ المَلِكُ ببغدادَ لا يترحَّلُ منها ولا يَحيدُ عنها يومًا أبدًا، فوقَع الاتِّفاقُ على بعضِ ذلك، وأرْسَل إليها بمائة ألف دينارٍ مع ابنة أخيه داودَ زوجة الخليفة

أرسَلان خاتون، وأشياءَ كثيرةٍ من آلاتِ الذهبِ والفضةِ والنِّثارِ والجَواري والكُراعِ، ومن الجَواهرِ ألفان ومائتا قطعة، من ذلك سبعُمائةٍ وعشرون قطعةً من جوهرٍ، وزنُ كلِّ واحدة ما بين الثلاثةِ مثاقيلَ إلى المِثقال، وأشياءُ كثيرةٌ. فتمنَّع الخليفةُ لفَواتِ بعضِ الشروطِ، فغضِب عَميدُ المُلك الكُنْدُريُّ الوزيرُ لَمخدومِه السلطانِ، وجرَت شُرورٌ طويلةٌ اقْتَضَت أن أرْسَل السلطانُ كتابًا يَأمُرُ فيه بانتزاعِ ابنةِ أخيه السيدةِ أرْسَلان خاتون، ونقْلِها من دارِ الخلافةِ إلى دارِ المَلِك حتى تَنْفَصِلَ هذه القضيةُ، وعزَم الملكُ على النُّقْلة من بغدادَ، وأصلحَ الطيَّارَ فانزَعَج الناسُ لذلك، وجاء كتابُ السلطانِ إلى رئيسِ شِحْنَة بغدادَ برشقٍ يَأمُرُه بعدمِ المُراقَبةِ وكثرةِ العَسْفِ في مُقابَلةِ ردِّ أصحابِنا بالحِرْمانِ، ويَعْزِمُ على نُقْلةِ الخاتونِ إلى دارِ المَمْلَكةِ، ويُرسلُ مَن يَحْمِلُها إلى البلدةِ التي هو فيها، وكلُّ ذلك غضَبٌ على الخليفة، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

قال ابنُ الجوزيِّ: وفي رمضانَ رأى إنسانٌ من الزَّمْنَى رسولَ اللَّه ﷺ في المَنامِ وهو قائمٌ، ومعه ثلاثةُ أنفُسٍ، فجاء إليه أحدُهم فقال له: ألا تقومُ؟ فقال: لا أستَطيعُ، أنا رجلٌ مُقْعَدٌ. فأخَذ بيدِه وقال: قُم. فقام وانْتَبَه، فإذا هو قد برأ، وأصبَح يَمْشي في حَوائجِه.

وفي ربيعٍ الآخِرِ اسْتَوْزَر الخليفةُ أبا الفتحِ منصورَ بنَ أحمدَ بنِ دارستَ الأهْوازيَّ، وخلَع عليه، وجلَس في مجلسِ الوزارةِ.

وفي جُمادَى الآخِرةِ لليلتين بقِيَتا منه كسَفَت الشمسُ كُسوفًا عظيمًا؛ جميعُ القُرْصِ، فمكَث أربعَ ساعاتٍ حتى بَدَت النُّجومُ وأوَت الطيورُ إلى أوْكارِها وتَرَكَت الطيرانَ، وكلُّ ذلك لشدةِ الظُّلمةِ.

وفيها: وَلِي أبو تَميمِ بنُ مُعِزِّ بنِ باديسَ بلادَ إفريقيةَ بعد وفاةِ أبيه صاحبِها.

وفيها: وَلِي نصرُ بنُ نصرِ الدولةِ أحمدَ بنِ مَرْوانَ الكُرْديُّ ديارَ بكرٍ بعد أبيه أيضًا.

وفيها: وَلِي شرفُ الدولةِ بنُ قُرَيْشِ بنِ بَدْرانَ بلادَ الموصلِ ونَصيبينَ بعد أبيه.

وفيها: خُلِع على طِرادِ بنِ محمدٍ الزَّيْنَبيِّ المُلَقَّبِ بالكاملِ وولِي نقابةَ العباسيين.

وخُلِع على أسامةَ بنِ أبي عبدِ اللَّه بنِ عليٍّ وقُلِّدَ نقابةَ الطالبيين ولُقِّب المُرْتَضَى.

وفيها ضمِن أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ عَلانَ اليهوديُّ ضِياعَ الخليفةِ من صَرْصَرَ إلى أوانا، كلُّ سنة بستةٍ وثمانين ألفَ دينارٍ وسبعةَ عشرَ ألفَ كُرٍّ من غَلَّةٍ. ولم يَحُجَّ أحدٌ من أهلِ العراقِ في هذه السنةِ.

وممن تُوفِّي فيها من الأعيانِ:

أحمدُ بنُ مَرْوانَ، أبو نصرٍ الكُرْديُّ: صاحبُ بلادِ بكرٍ ومَيَّافارِقين، لقَّبه القادرُ باللَّه نصرَ الدولة، مَلَك هذه البلادَ ثنتين وخمسين سنةً، وتنَعَّم تنَعُّمًا لم يَقَعْ لأحدٍ من أهلِ زمانِه، ولا أدْرَكه فيه أحدٌ من بعدِه، وكان عندَه خمسُمائةِ سُرِّيَّةٍ سوى مَن يَخْدُمُهن، وعندَه خمسُمائةِ خادمٍ، وعندَه من المُغَنِّياتِ شيءٌ كثيرٌ، كلُّ واحدةٍ مُشْتَراها خمسةُ آلافِ دينارٍ وأكثرُ، وكان يَحْضُرُ في مَجْلِسِه من الآلاتِ والأواني ما يُساوي مائتَيْ ألفِ دينارٍ، وتزوَّج بعِدَّةٍ من بناتِ المُلوكِ، وكان كثيرَ المُهادَنةِ للمُلوكِ، إذا

قصَده عدوٌّ أرْسَل إليه بمقدار ما يَغْرَمُه على حربِه ويصالحُه بذلك، فيَرْجِعُ عنه.

وقد أرْسَل إلى الملك طُغْرُلْبَك بهدية عظيمة حينَ ملَك العراقَ، من ذلك جبلٌ من ياقوتٍ كان لبني بُوَيْه، اشْتَراه بمقدار عظيم، وبعَث إليه بمائة ألف دينارٍ عينًا، وغيرُ ذلك. ووزَر له أبو القاسم المَغْربيُّ مرتَين، ووزَر له أيضًا أبو نصر محمدُ بنُ محمدِ بنِ جُهَيْر، فخرُ المُلْك، وكانت بلادُه من آمَنِ البلاد، وأطيبِها وأكثرِها عدلاً. وقد بلَغه أن الطيورَ تنجعُ في الشتاء في الجبال إلى القُرَىٰ، فيَصْطادُها الناسُ، فأمَر بفتح الأهْراء وإلقاء ما يَكْفيها من الغَلاَّت في مدة الشتاء، فكانت تكونُ في ضيافته طولَ عمره. وكانت وفاتُه في هذه السنة وقد قارَب الثمانين أو جاوَزَها.

قــال ابنُ خَلِّكانَ: قال ابنُ الأزْرَق في «تاريخه»: إنه لم يُصادِرْ أحدًا من رعيته سوىٰ رجلٍ واحدٍ، ولم تَفُتْه صلاةٌ مع كثرة مُباشرته للذَّات، وكانت له ثلاثُمائة وستون حَظِيَّةً، يَبِيتُ عندَ كلِّ واحدةٍ ليلةً من السَّنَة، وخلَّف أولادًا كثيرةً، ولم يَزَلْ على ذلك الحال إلى أن تُوُفِّي في التاسعِ والعشرين من شوالٍ من هذه السنة، رحمه اللَّهُ تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة

فيها: ورَدَت الكتبُ الكثيرةُ من الملك طُغْرُلْبَك يَشْكُو قلةَ إنصاف الخليفة وعدَم مُوافاته له بما أسْداه إليه من الخدم والنِّعَم إلى ملوك الأطراف، وقاضي القُضاة الدَّامَغانيِّ، فلما رأىٰ الخليفةُ ذلك، وأن الملكَ قد أرْسَل إلى نوابه بالاحتياط على أملاك الخليفة - وقد انزعج لذلك - كتَب إلى الملك طُغْرُلْبَك يُجيبُه إلى ما سأل، فلما وصل إلى الملك فرح فرحًا شديدًا، وأرْسَل إلى نوابه أن يُطْلقوا الأملاكَ الخليفيةَ. فلما انتهَت الركابيةُ بذلك إلى بغدادَ، دقَّت البشائرُ بدار الخلافة، وطيف بالركابية وبين أيديهم الدبادبُ والبوقاتُ، وفرح الناسُ بإجابة الخليفة إلى ذلك، واتَّفَقَت الكلمةُ، فوكَل الخليفةُ في العقد، وكتَب بذلك وكالةً، ثم وقَع العقدُ بمدينة تِبْرِيزَ بحَضْرة الملك طُغْرُلْبَك، وعمل سِماطًا عظيمًا، فلمَّا جيء بالوكالة قام لها الملكُ، وقبَّل الأرضَ عندَ رؤيتِها، ثم أوْجَب العقدَ على صداقِ أربعمائة ألف دينارٍ، وكثُر دعاءُ الناس للخليفة، وذلك في يوم الخميس الثالثَ عشرَ من شعبانَ من هذه السنة، ثم بعَث ابنةَ أخيه الخاتون أرْسَلان خاتون زوجةَ الخليفة في شَوَّال بتُحَفٍ عظيمةٍ وذهبٍ كثيرٍ، وجَواهرَ عَديدة ثمينة، وهَدايا عظيمة لأمِّ العَروس وأهلها كلِّهم، وقال الملكُ جَهْرةً للناس: أنا عبدٌ قِنٌّ للخليفة ما بَقِيتُ، لا أملكُ شيئًا سوىٰ ما عليَّ من الثياب.

وفيها: عزَل الخليفةُ وزيرَه، واسْتَوْزَر أبا نصر محمدَ بنَ محمدِ بنِ جُهَيْر، اسْتَقْدَمه من ميَّافارِقِينَ.

وفيها: عمَّ الرُّخْصُ جميعَ الأرض حتى أُبِيع بالبَصْرة كلُّ ألفِ رَطْلِ تمرٍ بثمان قَرارِيطَ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

ثُمالُ بنُ صالحٍ، مُعِزُّ الدولة:، صاحبُ حلَبَ، كان كريمًا حليمًا وقورًا، ذكَر ابنُ الجوزيِّ أن

الفَرَّاشَ تقدَّم إليه ليَغْسِلَ يدَه فصدَمت بُلْبُلةُ الإبريقِ ثَنِيَّتَه، فسقَطَت في الطَّسْت، فعفا عنه.

الحسنُ بنُ عليِّ بنِ محمدٍ، أبو محمدٍ الجَوْهَرِيُّ: وُلِد في شعبانَ سنةَ ثلاثٍ وستين وثلاثمائةٍ، وسمع الحديثَ على جماعةٍ، وتفرَّد بمشايخَ كثيرةٍ، منهم أبو بكرِ بنُ مالكٍ القَطِيعيُّ، وكان آخِرَ مَن حدَّث عنه، تُوُفِّي في ذي القَعْدة من هذه السنة.

الحسينُ بنُ أبي زيد، أبو عليٍّ الدبَّاغُ: قال: رأيتُ رسولَ اللَّه ﷺ في المَنام فقلتُ: يا رسولَ اللَّه، ادْعُ اللَّهَ أن يُحيِيَني على الإسلام. فقال: وعلى السنَّة، وعلى السنَّة، وعلى السنَّة.

سعدُ بنُ محمدِ بنِ منصور، أبو المحاسن الجُرْجانيُّ: كان رئيسًا قديمًا، وُجِّه رسولاً إلى الملك محمودِ بنِ سُبُكْتكينَ في حُدودِ سنة عشْرٍ، وكان من الفُقهاء العُلماء، تخرَّج به جماعةٌ، وروى الحديثَ عن جماعةٍ، وعُقِد له مجلسُ النظرِ ببُلدانٍ كثيرةٍ، وقُتِل ظلمًا بإسْترابَاذَ في رجبٍ من هذه السنة، رحمه اللَّهُ تعالى وإيانا بمَنِّه وكرمه.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وأربعمائة

فيها: دخَل السلطانُ طُغْرُلْبَك بغدادَ، وعزَم الخليفةُ على تَلَقِّيه، ثم ترك ذلك، وأرْسَل وزيرَه أبا نصرٍ عِوَضًا عنه، وكان من جيشِ الملك أذيةٌ للناسِ في الطريقِ، وتَعَرُّضٌ للحُرَم حتى إنهم هجَموا على النساءِ في الحَمَّامات، فخلَّصهن منهمُ العامَّةُ بعدَ جَهدٍ جَهيدٍ.

دخول الملك طغرلبك على بنت الخليفة

لمَّا استَقَرَّ الملكُ طُغْرُلْبَك ببغدادَ أرْسَل وزيرَه عَميدَ المُلْك إلى الخليفة يُطالبُه بنقلِ السيدة من الدارِ العزيزةِ النبوية إلى دارِ المَمْلكة، فتَمَنَّع الخليفةُ من ذلك، وقال: إنكم إنما سألْتُم أن يُعْقَدَ العقد فقط لحصولِ التَّشْرِيف، والتَزَمْتُم لنا بعدمِ المطالبةِ بها، فتردَّد في ذلك بينَ الخليفة والملك، وأرْسَل الملكُ زيادةً على النقدِ مائةَ ألفِ دينارٍ ومائةً وخمسين ألفَ درهمٍ، وتُحَفًا أخَرَ، وأشياءَ لطيفةً، فلما كان ليلةُ الإثنين الخامسَ عشَرَ من صفرٍ هذه السنة زُفَّتِ السيدةُ ابنةُ الخليفةِ إلى دارِ المَمْلكة، فضُرِبَت لها السُّرادقاتُ من دجلةَ إلى دارِ المملكة، وضُرِبَت الدَّبادبُ والبُوقاتُ عندَ دخولِها دارَ المملكة وكانت ساعةً عظيمةً، فأُجْلِسَت على سَريرٍ مُكَلَّلٍ بالذهب، وعلى وجهِها بُرْقُعٌ، ودخَل الملكُ طُغْرُلْبَك، فوقَف بينَ يديها، فقبَّل الأرضَ ولم تَقُمْ له ولم تَرَه، ولم يَجْلِس حتى انْصَرَف إلى صَحْنِ الدار، والحُجَّابُ والأتراكُ يَرْقُصون هناك فرحًا وسُرورًا، وبعَث لها مع الخاتون أرْسَلان ابنة أخيه زوجةِ الخليفةِ عِقْدَيْن فاخِرَيْن وقطعةَ ياقوتٍ حمراءَ كبيرةً هائلةً، ودخَل من الغدِ فقبَّل الأرضَ، وجلس على سَريرٍ مُكَلَّلٍ بالفضة بإزائها ساعةً، ثم خرَج وأرْسَل لها جواهرَ نفيسةً كثيرةً مثمَّنَةً، وفَرَجِيَّةَ نسيجٍ مُكَلَّلةً باللؤلؤ، وما زال كذلك كلَّ يومٍ يَدْخُلُ، ويُقَبِّلُ الأرضَ، ويَجْلِسُ على

سَرير بإزائها، ثم يَخرُجُ فيَبعَثُ بالتُّحَف والهَدايا، ولم يكُنْ منه إليها شيء مقدارَ سبعةِ أيام، ويَمُدُّ كلَّ يوم من هذه الأيام السبعة سِماطًا عظيمًا، وخلَع يومَ السابع على جميع الأمراء، ثم عرَض له سفرٌ واعترَاه مرضٌ، فاستأذَن الخليفةَ بالانصراف بالسيدة معه إلى تلك البلاد مدةً قريبةً، ثم يَعودُ بها، فأذِن له الخليفةُ بعد تَمَنُّع شديدٍ وحُزْنٍ عظيم، فخرَج بها معه وليس معها من دار الخلافة سوى ثلاث نسوة، برَسْم خدمتِها، وتألَّمت والدتُها لفقدِها ألمًا عظيمًا جدًّا لا يُعبَّرُ عنه، وخرَج السلطانُ وهو مَريضٌ مُدْنَفٌ مَأيوسٌ منه مُثْقَلٌ لا تُرْجَى منه العافيةُ، فلما كانت ليلةُ الأحد الرابع والعشرين من رمضانَ جاء الخبرُ بأن الملكَ طُغْرُلْبَك تُوُفِّي في ثامن الشهر رحمه اللَّهُ تعالى، فثارت العيَّارون بهمَذَان فقتَلوا العَميدَ والشِّحنةَ وسبعَمائةٍ من أصحابه، ونهَبوا الأموالَ، وجعَلوا يأكُلون ويَشرَبون على القتلى نهارًا حتى انسَلَخ الشهرُ، لعنهم اللَّهُ وقبَّحهم، وأُخذَت البَيْعةُ بعدَه لولد أخيه سليمانَ بن داودَ، وكان طُغْرُلْبَك قد نصَّ عليه وأوْصَى إليه؛ لأنه كان قد تزَوَّج بأمِّه بعد أبيه، واتَّفَقَت الكلمةُ عليه وأُنفِقَت في الأمراء والأتراك الأموالُ والخِلَعُ، ولم يَبْقَ عليهم خوفٌ إلا من جهة أخي سليمانَ، وهو الملكُ عَضُدُ الدولة ألْب أرْسَلان محمدُ بنُ داودَ، فإن الجيشَ كانوا يَميلون إليه ويُقبِلون عليه، وقد خطَب له أهلُ الجبل، ومعه نظامُ المُلْك أبو عليٍّ الحسنُ بنُ عليٍّ بن إسحاقَ وزيرُه، ولما رأى الكُنْدُريُّ قوةَ أمرِه خطَب له بالرَّيِّ، ثم من بعدِه لأخيه سليمانَ بن داودَ.

وقد كان الملكُ طُغْرُلْبَك عاقلًا حَليمًا كثيرَ الاحتمال، شديدَ الكِتْمان للسرِّ، مُحافِظًا على الصلوات وعلى صوم الإثنين والخميس، مُواظبًا على لُبْس البَياض، وكان عمرُه يومَ مات سبعين سنةً، ولم يَترُكْ ولدًا، وكان مدةُ مُلكه بحَضرة القائم سبعَ سنين وإحدى عشرَ شهرًا، واثنَي عشرَ يومًا، ولما مات اضطرَبَت الأحوالُ وانتَقَضَت الأمورُ بعدَه جدًّا، وعاثَت الأعرابُ في سَواد بغدادَ وأرض العراق يَنهَبون الأموالَ ويُشلِّحون الرجالَ، وتعَذَّرَت الزراعةُ إلا على المُخاطَرة، فانزَعَج لذلك الناسُ.

وفيها: كانت زَلْزلةٌ عظيمةٌ بواسطٍ وأرض الشام، فهُدِمت من سُور طَرابُلُسَ.

وفيها: وقَع مُوتانٌ بالجُدَريِّ والفَجْأة، ووقَع بمصرَ وَباءٌ شديدٌ، كان يَخرُجُ منها في كلِّ يوم ألفُ جنازة.

وفيها: ملكَ الصُّلَيحيُّ صاحبُ اليمن مكةَ، وجلَب الأقواتَ إليها، وأحسَن إلى أهلها.

وفي أوائل هذه السنة طلَبَت السِّتُّ أرْسَلان خاتون زوجةُ الخليفة النُّقْلةَ من عنده إلى عند عمِّها، وذلك لما هجَرها بالكلية وبارَت عندَه، فبعَثها الخليفةُ مع الوزير الكُنْدُريِّ، فلما وصَلَت إلى

عمَّها كان مريضًا مُدنِفًا مثقلاً، فأرسَل إلى الخليفة يَعتِبُ عليه في تهاوُنه بها، فكتَب إليه الخليفةُ يقولُ ارتجالاً:

ذهَبَت شِرَّتي وولَّى الغَرامُ ... وارتجاعُ الشبابِ ما لا يُرامُ
أذهَبَت مني الليالي جديدًا ... والليالي يُضعِفْن والأيامُ
فعلى ما عهِدتُه من شبابي ... وعلى الغانياتِ مني السلامُ

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان والمشاهير:

زهيرُ بنُ الحسن بن عليِّ بنِ خِدام، أبو نصر الخِدامي: ، ورَد بغدادَ وتفقَّه على الشيخ أبي حامد الإسْفَرايينيِّ، وسمع بالبصرة «سنَنَ أبي داودَ» على القاضي أبي عمرَ، وحدَّث بالكثير، وكان يُرْجَعُ إليه في الفَتاوَىٰ وحلِّ المُشكلات، وكانت وفاتُه بسَرْخَسَ في هذه السنة.

سعيدُ بنُ مَرْوانَ: ، صاحبُ آمِدَ، ويقال: إنه سُمَّ. فانتَقَم سعيدٌ صاحبُ ميَّافارِقينَ ممَّن سمَّه، فقطَّعه قطَعًا.

الملكُ الكبيرُ أبو طالب محمدُ بنُ ميكائيلَ بن سَلْجوقَ بن دُقاق الملقبُ طُغْرُلْبَك: ، كان أولَ ملوك السَّلاجقة، وكان خيِّرًا مُصليًا؛ مُحافظًا على الصلاة في أوقاتها، يُديمُ صيامَ الإثنين والخميس، حليمًا عمَّن أساء إليه، كتومًا للأسرار، سعيدًا في حرَكاته وتقلُّباته، ملَك في أيام مسعود ابنِ محمودِ بنِ سُبُكْتِكين عامةَ بلادِ خُراسانَ، واستَناب أخاه داود وأخاه لأمِّه إبراهيمَ ينَّال وأولادَ إخوته على كثيرٍ من البلاد، ثم استَدْعاه الخليفةُ لمُلك العراق حينَ فسَد الحالُ ببغدادَ من البساسيريِّ وضعُفَ المَلكُ الرحيمُ، فقَدِمها وجلَس له الخليفةُ وخلَع عليه سبعَ خِلَع، ولَقَّبه بملك الشرق والغرب، ثم اشتغلَ بقتالِ أخيه إبراهيمَ حتى كان من أمرِ البساسيريِّ ما ذكرناه في سنة خمسين والتي تليها، ثم ظفِر بأخيه إبراهيمَ فقتلَه، ثم عادَ إلى بغدادَ فاستَعادَها وأعاد الخليفة من حديثة عانةَ إلى دارِ خلافته ومقرِّ سعادته، ثم سعى في التزويجِ ببنت الخليفة فتزوجها بعد تمنع من الخليفة ودخَل بها في هذه السنة، ففرح فرحًا شديدًا كما ذكرنا، ولكنه لم يتمتعْ بها، فإنه عرَض له مرضٌ مُتْلِفٌ واستمرَّ به حتى كانت وفاتُه في ثامنِ شهرِ رمضانَ من هذه السنة، وله من العمرِ سبعون سنةً، وكان له في الملك مدةَ ثلاثين سنةً، منها في مملكة العراقِ ثمانُ سنينَ إلا ثمانيةَ عشَرَ يومًا.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وأربعمائة

فيها: قبَض السلطانُ ألْب أرْسَلان على وزيرِ عمِّه عَميدِ المُلْك الكُنْدُريِّ، وسجَنه في بعضِ القلاعِ سنةً، ثم أرْسَل إليه مَن قتَله، واعتَمَد في الوزارة على نِظام المُلْك، وكان وزيرَ صدْقٍ، يُكْرِمُ العلماءَ والفقراءَ، ولما عصَى الملكُ شهابُ الدولة قُتُلْمِش، وخرَج عن الطاعة، وطمع في أخذ المُلك من ألْب أرْسَلان وكان من بني عمِّ طُغْرُلْبَك فجمع وحشَد واحتفَل له ألب أرسلان فقال له الوزيرُ: أيُّها

الملكُ، لا تَخَفْ؛ فإني قد استخدمت لك جندًا لَيْليًّا يَدْعون لك ويَنصُرُونك بالتوجه في صَلَواتهم وخَلَواتهم، وهم العلماءُ والصُّلحاءُ، فطابت نفسُه بذلك، فحينَ الْتقَى مع قُتُلْمِش لم يَنْتَظِرْه أن كسَره، وقَتَل خلقًا من جنوده، وقُتِل قُتُلْمِش في المعركة، واجْتَمعَت الكلمةُ على ألْب أرْسَلان.

وفيها: أرْسَلَ ولدَه مَلِكْشاه ووزيرَه نظامَ المُلك هذا في جنودٍ عظيمةٍ إلى بلادِ الكُرجِ، ففتَحوا حصونًا كثيرةً، وغنموا أموالاً جَزيلةً جدًّا، وفرح المسلمون بنصرهم، وكتَب كتاب ولده على ابنة الخان الأعظمِ صاحبِ ما وراءَ النهرِ، وزوَّج ولدَه الآخرَ بابنة صاحبِ غَزْنَة، واجْتَمع شمْلُ البَيْتَين السَّلْجُوقيِّ والمَحْموديِّ.

وفيها: أذن ألْب أرْسَلان للسيدة ابنة الخليفة في الرجوع إلى بغدادَ، وأرْسَل معها بعضَ القُضاة والأمراء، فدخَلَت بغدادَ في تجمُّلٍ عظيمٍ، وخرَج الناسُ للنظرِ إليها، فدخَلَت ليلاً في أُبَّهَةٍ عظيمةٍ، ففرح الخليفةُ وأهلُها بذلك، وأمرَ الخليفةُ بالدعاء للملك ألب أرْسَلان على المنابر في الخُطَب، فقيل في الدعاء: اللَّهم وأَصْلِح السلطانَ المُعَظَّمَ عَضُدَ الدولة وتاجَ المِلَّة ألْب أرْسلان أبا شُجاع محمدُ بنَ داودَ. وجلَس الخليفة للناسِ جلوسًا عامًّا وبايَعهم للملك ألب أرسلان، وأرْسَل إليه بالخِلَع والتَّقْليد مع الشَّريف نَقيب العباسيين طِراد بن محمدٍ الزَّيْنَبيِّ، وأبي محمدٍ التَّميميِّ، ومُوَفَّقٍ الخادم، ولَقَّبَ الوزيرَ نظامَ المُلك قِوامَ الدين والدولة رضيَّ أميرِ المؤمنين، وإنما كان يقال له قبل ذلك: خواجا بزرك. وأرسل الملكُ ألب أرسلان بالهدايا والتحف النفيسة المفتخرة، واسْتَقَرَّ أمرُه على بغدادَ وجميع بلادِ العراق.

قال ابنُ الجوزيِّ: وفي ربيعٍ الأول شاع ببغدادَ أن قومًا من الأكرادِ خرَجوا يَتَصَيَّدون، فرأَوا في البَرِّيَّة خيامًا سُودًا، سمعوا فيها لَطْمًا شَديدًا، وعَويلاً كثيرًا، وقائلاً يقول: قد مات سيِّدوك ملكُ الجنِّ، وأيُّ بلدٍ لم يُلْطَمْ به عليه، ولم يُقَمْ له مَأْتَمٌ فيه قُلِع أصلُه وأُهْلِكَ أهلُه. قال: فخرَج النساءُ العَواهِرُ من حَريم بغدادَ إلى المقابرِ يَلْطِمْنَ ثلاثةَ أيام ويَخْرِقْنَ ثيابَهن، ويَنْشُرْنَ شُعورَهن، وخرَج رجالٌ من السَّفساف يَفْعَلون ذلك، وفُعِل هذا في واسطٍ وخُوزِسْتانَ وغيرِها من البلادِ.

قال: وكان هذا فنًّا من الحُمْقِ لم يُنْقَلْ مثلُه.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: وفي يوم الجمعة ثاني عشرَ شعبانَ هجَم قومٌ من أصحاب عبدِ الصمدِ على أبي عليِّ بنِ الوليدِ المُدَرِّسِ للمُعْتَزِلة فسَبُّوه وشتَموه؛ لامْتناعِه من الصلاة في الجامعِ وتَدْريسه لهذا المذهب، وأهانوه وجرُّوه، ولُعِنَت المعتزلةُ في جامعِ المنصورِ، وجلَس أبو سعدِ بنُ أبي عمامةَ، فلعَن المُعْتزلَةَ، قبحهم اللهُ.

وفي شوالٍ ورَد الخبرُ بأن السلطانَ غزا بلدًا عظيمًا، فيه سبعُمائةِ ألفِ دارٍ، وألفُ بِيْعةٍ ودَيْرٍ، وقتَل منهم خلقًا كثيرًا، وأسَر خمسَمائة ألفِ إنسانٍ.

وفي ذي القَعْدةِ حدَث بالناسِ وباءٌ عظيمٌ ببغدادَ وغيرِها مِن بلادِ العراقِ، وغلَت الأسعارُ التي

يُتداوىٰ بها، وعُدِمَ الشيرْخُشْك وقلَّ التمرُ هنديٌّ، وزاد الحَرُّ في تشارين، وفسَد الهواءُ.

وفي هذا الشهرِ خُلع على أبي الغَنائمِ المعمرِ بنِ محمدِ بنِ عُبَيدِ اللَّه العَلَويِّ في بيتِ النوبةِ بنقابةِ الطالبيِّين، والحجِّ والمَظالم، ولُقِّب بالطاهرِ ذي المَناقب، وقُرِئ تقليدُه في المَوْكِب.

وحجَّ بالناسِ أهلُ العراقِ في هذه السنة. وللَّه الحمدُ والمنةُ.

وممن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

ابنُ حَزْمٍ الظاهريُّ، هو الإمامُ الحافظُ العَلَّامةُ أبو محمد عليُّ بنُ أحمدَ بنِ سعيد بنِ حزمِ بنِ غالبِ بنِ صالحِ بنِ خلف بنِ مَعْدان بنِ سفيانَ بنِ يزيدَ مولىٰ يزيدَ بنِ أبي سفيانَ صخرِ بنِ حربٍ الأُمَويُّ[1]، أصْلُ جدِّه يزيدَ هذا فارسيٌّ، أسْلَم وخلَّف المذكورَ، أولُ مَن دخَل منهم بلادَ المغربِ، وكانت بلدُهم قُرْطُبةَ، فوُلِد ابنُ حَزْمٍ هذا بها في سَلْخِ رمضانَ، من سنة أربعٍ وثمانين وثلاثمائة، فقرأ القرآنَ، واشْتَغَل بالعلومِ الشَّرْعية، فبرَز فيها، وفاق أهلَ زمانه، وصنَّف الكتبَ المفيدةَ المشْهورةَ، يقالُ: إنه جمع أربعَمائة مجلدة من تصنيفه في قريبٍ من ثمانين ألفَ ورقة. وكان أديبًا طَبيبًا شاعرًا فَصيحًا، له في الطبِّ والمَنْطقِ اليدُ العليا، وكان من بيتِ وِزارةٍ ورياسةٍ ووَجاهةٍ ومالٍ وثَرْوةٍ، وكان مُصاحبًا للشيخِ أبي عمرَ بنِ عبدِ البرِّ النَّمَريِّ، وكان مُناوِئًا للشيخِ أبي الوليد سليمانَ بنِ خَلَفٍ الباجيِّ، وقد جرت بينهما مُناظَراتٌ يطولُ شرحُها، وكان أبو محمدِ بنُ حَزْمٍ كثيرَ الوَقيعة في العلماء بلسانه وقلمه أيضًا، فأوْرَثه ذلك حقدًا في قلوبِ أهلِ زمانه، وما زالوا به حتىٰ بغَّضوه إلىٰ ملوكهم، فطرَدوه عن بلاده، حتىٰ كانت وفاتُه في قريةٍ له في ثاني شعبانَ من هذه السنة وقد جاوَز السبعين.

والعجَبُ كلُّ العجَبِ إنه كان ظاهريًّا في الفُروع، لا يَقولُ بشيءٍ من الأقيسة، لا الجليَّة ولا غيرها، وهذا الذي وضَعه عندَ العلماء، وأدْخَل عليه خَطأً كبيرًا في نظَرِه وتصرفه، وكان مع هذا مِن أشدِّ الناسِ تأويلًا في بابِ الأصول؛ لأنَّه كان قد تضلَّع أولًا من علم المَنْطِق، أخَذه عن محمدِ بنِ الحسنِ المَذْحِجيِّ الكنانيِّ القُرْطبيِّ، ذكَره ابنُ ماكولا وابنُ خَلِّكانَ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

عبدُ الواحد بنُ عليِّ بنِ بَرْهانَ، أبو القاسم النَّحْويُّ: كان شَرِسَ الأخلاقِ جدًّا، لم يَلْبَسْ سَراويلَ قطُّ، ولا غطَّىٰ رأسَه، ولم يَقْبَلْ عَطاءً لأحد، وذُكِر عنه أنه كان يُقَبِّلُ المُرْدَ في غيرِ ريبة. قال ابنُ عَقيل: وكان يختارُ مذهبَ مُرْجئةِ المعتزلة ويَنْفي خُلودَ الكفار، ويقولُ: دَوامُ العقاب في حقِّ مَن لا يَجوزُ عليه التَّشَفِّي لا وجهَ له مع ما وصَف به نفسَه من الرحمة. ويَتأوَّلُ قولَه تعالىٰ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٩] أي أبدًا من الآباد. قال ابنُ الجَوزيِّ: وقد كان ابنُ بَرْهانَ يَقْدَحُ في أصحابِ أحمدَ، ويُخالفُ اعتقادُه اعتقادَ المسلمين؛ لأنه قد خالَف الإجْماعَ في عدمِ خلودِ الكفارِ في النار، فكيف يُقْبَلُ كلامُه.

تُوُفِّي في هذا العامِ وقد نَيَّف على الثمانين.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ١٨٤) وما بعدها.

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وأربعمائة

فيها : سارَ جماعةٌ للحَجِّ بخفارةٍ، فلم يُمكنْهم المسيرُ، فعدَلوا إلى الكوفةِ ورجَعُوا. وفي ذي الحِجَّة منها شُرِع في بناء المدرسة النِّظَامِيَّة ببغدادَ، ونُقِضَ لأجْلِها دُورٌ كثيرةٌ من مَشرعَة الزَّوايا، وبابِ البَصْرَة. وفيها كانتْ حروبٌ كثيرةٌ بينَ تَميم بنِ المعزِّ بن باديسَ، وأوْلادِ حَمَّادٍ، والعربِ والمغاربَةِ بصِنْهاجَةَ وزَنَاتةَ. وحجَّ بالناسِ من بغدادَ النقيبُ أبو الغنائمِ.

وفيها: كان مَقْتَلُ عميد المُلْك الكنْدُريِّ وهو محمدُ بنُ منصورِ بن محمدٍ، أبو نَصْرٍ[1] ، وزيرُ طُغْرُلْبَك، وقد كان مسْجُونًا له سنةً تامَّةً، ولمَّا قُتِل حُمِل فدُفِن عندَ أبيه بقرية كُنْدُرَ، من عملِ طُرَيْثِيث، وليست بكُنْدُرَ التي بالقرب من قَزْوِينَ. واسْتَحوذَ السلطانُ على أمْواله وحواصله، وقد كان ذكيًّا فصيحًا شاعرًا، لديْه فضائلُ جَمَّةٌ، حاضرَ الجواب سريعَه، ولَمَّا أرسَلَه طُغْرُلْبَكُ إلى الخليفة يَخطُبُ إليه ابنَتَه، وامتَنَعَ الخليفةُ من ذلك أشدَّ الامتناع، وأنشدَ متمثِّلاً بقولِ المتنبي:

مَـــا كلُّ مَـــا يتَـــمَنَّى المرءُ يُدْرِكُـــه

فتمَّمَه الوزيرُ:

تجْـــرِي الرياحُ بِمـا لا تَشْـتَـهِي السُّـفُنُ

فسكَتَ الخليفةُ وأطْرَقَ.

وكان عمرُ الكُنْدُرِيّ حين قُتِل نَيِّفًا وأربعين سنةً. ومن شعره الجيِّدِ قولُه:

إن كـانَ بـالناس ضـيقٌ عن منافَسَـتي ... فـالموْتُ قـد وسَّعَ الدنيـا على النـاس

مـضَـيتُ والشَّـامتُ المغـبُـونُ يتْـبَـعُني ... كـلٌّ لكـأسِ المَنَايَا شـاربٌ حـاسِي

وقد كان الملكُ طُغْرُلْبَكُ بعثَه مرةً ليخطُبَ له امرأةَ خُوارزمَ شاه فتزوَّجَها هو، فخصَاه وأقرَّه على عمله، فدُفِنَ ذكَرُه بخُوارزمَ، وسُفِح دمُه حينَ قُتِل بمَرْوِ الرُّوذِ، ودُفِن جسدُه بكُنْدُرَ، وحُمِل رأسُه فدُفِنَ بنَيْسابُورَ، ونُقِلَ قَحْفُ رأسه إلى كَرْمانَ.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وأربعمائة

في يوم عاشُوراءَ أغلَقَ أهلُ الكَرخ دكاكينَهم، وأحضَروا نساءً فُنحْنَ على الحُسَيْنِ، كما جرَتْ به سالفُ عادات بِدَعِـهمُ المتقدِّمَةِ، فحينَ وقَع ذلك أنكرَته العامَّةُ، وطلَب الخليفةُ أبا الغنائمِ نقيبَ

---

(١) ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ١١٣) وما بعدها.

الطالبيِّين، وأنكرَ ذلك عليه، فاعتذَر بأنَّه لم يعلَمْ بذلك، وأنَّه حينَ علم به أزالَه، وتردَّد أهلُ الكَرْخ إلى الديوانِ يعتذِرُون من ذلك، ويتنصَّلون منه، وخرَج التوقيعُ بكُفْرِ مَن يَسُبُّ الصحابةَ ويُظهِرُ البِدَعَ.

قال ابنُ الجَوْزيّ: وفي ربيعٍ الأوَّل وُلِدَ بباب الأزَجِ صَبِيَّةٌ لها رأسان، ووَجْهان، ورقَبتان، وأربعُ أيدٍ، على بدَنٍ كاملٍ ثم ماتَتْ. قال: وفي جُمادَى الآخرة كانت زَلزلةٌ بخُراسان لَبِثَتْ أيامًا، تصدَّعَتْ منها الجبالُ، وأهلكت جماعةً، وخسفَتْ بعدَّةِ قُرًى، وخرَج الناسُ إلى الصحراء وأقاموا هُنالِكَ، ووقَع حريقٌ بنَهْرِ مُعَلًّى من بغْدادَ فأحرَق مائةَ دُكَّانٍ وثلاثةَ دورٍ، وذهَب للناسِ شيءٌ كثيرٌ، ونهَب الناسُ بعضُهم بعضًا.

قال ابنُ الجوزيّ: وفي شعبانَ وقَع قتالٌ بدِمَشْقَ، فضربُوا دارًا كانت مجاورةً من الجامع بالنارِ، فاحتَرَقَ جامعُ دمشقَ. كذا قال ابنُ الجوزيِّ، والمشهورُ أن حريقَ جامعِ دِمَشْقَ إنما كان في سنة إحْدَى وستِّينَ وأربعمائةٍ بعدَ ثلاثِ سنين. وأن غِلْمانَ الفاطميِّينَ اقتَتَلُوا مع غلمان العباسيِّين فأُلقِيَتْ نارٌ بدارِ الإمارَةِ - وهي الخضْراءُ - وتعدَّى حريقُها إلى أن وصَل إلى الجامعِ فسقَطَت سقُوفُه، وزخْرَفَتُه، ورُخامُه، وبَقِي كأنَّه خرابةٌ، وبادَتِ الخضْراءُ فصارَتْ كَوْمًا من ترابٍ، بعدَما كانت في غايةِ الإحْكامِ والإتْقانِ، وطيبِ الغِناءِ، وحُسْنِ البناءِ، فهي إلى يومِنا هذا لا يسكُنُها - لرداءة مكانها - إلا سفَلَةُ الناسِ وسُقَّاطُهم؛ بعدَما كانت دارَ المُلْكِ والإمارَةِ، منذُ أسَّسها معاويةُ بنُ أبي سفيانَ، رضي اللَّهُ عنه. وأما الجامعُ فإنَّه لم يَكُنْ على وَجْهِ الأرضِ بناءٌ أحسَنُ منه، إلى أن احترقَ فبقِيَ خرابًا مدَّةً ثم شرَع الملوكُ في تجديدِه وترْميمه، حتى بُلِّطَ في زمانِ العادلِ أبي بكرِ بنِ أيوبَ، ولم يَزَلْ في تحسينِ مَعالِمِه إلى زمانِنا هذا، فتماثَل حالُه بعضَ التماثُلِ، وهو بالنسبةِ إلى حالِه الأوَّلِ كلا شيءٍ، ولازال التحسينُ فيه إلى أيامِ الأميرِ سيفِ الدينِ تَنْكِزَ بنِ عبدِ اللَّهِ الناصريِّ، في حدودِ سنةِ ثلاثين وسبْعمائةٍ، وما قبلَها وما بعدَها بيسيرٍ.

وفيها: رخُصَتِ الأسْعارُ ببغدادَ رُخصًا بيِّنًا، ونقَصت دجْلَةُ نقْصًا ظاهرًا. وفيها أخذَ الملكُ ألْبُ أرسَلانَ العهدَ بالمُلْكِ مِن بعدِه لولَدِه مَلِكْشاه، ومشَى بينَ يدَيْه بالغاشيةِ، والأمراءُ بينَ يدَيْه يتماشون بالخِلَعِ، وكان يومًا مشهودًا.

وحَجَّ بالناسِ في هذه السنةِ نورُ الهُدَى أبو طالبٍ الحسينُ بنُ نظامِ الحضْرَتَيْنِ، الزَّيْنَبيُّ، وجاوَرَ بمَكَّةَ.

وممَّن توفِّي فيها من الأعْيان:

الحافظُ الكبيرُ أبو بكرٍ أحمدُ بنُ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ موسى البَيْهَقيُّ[(1)] أحدُ الحفّاظِ الكِبارِ، له التصانيفُ التي سارَتْ بها الرُّكْبانُ في سائرِ الأمْصارِ والأقطارِ، وُلِد سنةَ أربعٍ وثمانينَ

(1) ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ١٦٣) وما بعدها.

وثلاثمائة، وكان واحدَ زمانه في الإتقان، والحفظ، والفقه، والتصنيف، كان فقيهًا، محدثًا، أصوليًا، أخذ العلمَ عن الحاكم أبي عبد اللَّه النَّيْسَابُوريّ، وسمع على غيره شيئًا كثيرًا، وجمع أشياءَ كثيرةً نافعةً جدًّا، لم يُسبَقْ إلى مثلها، ولا يُدرَكُ فيها؛ من ذلك كتابُ «السُّنَنِ الكبير»، و«نصوص الشافعي» كلٌّ في عشرة مُجلَّدات، و«السُّنن والآثار»، و«المدخل»، و«الآداب»، و«شُعَب الإيمان»، و«الخلافيَّات»، و«دلائل النبوَّة»، و«البعث والنشور»، وغير ذلك من المصنفات الكبار والصِّغار المفيدة، التي لا تُسامَى ولا تُدانَى، وكان زاهدًا متقلِّلاً من الدنيا، كثيرَ العبادة والورَع، رحمه اللَّهُ تعالى. وكانت وفاتُه بنَيْسَابُورَ، ونُقِل تابوتُه إلى بَيْهَقَ في جُمادَى الأولَى من هذه السنة.

الحسنُ بنُ غالب بن عليِّ بن غالب بن منصور بن صُعْلُوك، أبو عليٍّ التَّميميُّ، ويُعرفُ بابن المُبارَك المُقرِئ، صَحِب ابنَ سَمْعُونٍ، وأقرأ القرآنَ على حُروف أُنكِرَتْ عليه، وجُرِّبَ عليه الكَذِبُ، إمَّا عمدًا وإما خطأً، واتُّهِمَ في روايات كثيرة، وكان أبو الحسن القَزْوينيُّ ممَّن يُنكِرُ عليه، وكُتِبَ عليه مَحضَرٌ وأُلزِمَ بعدم الإقراء بالحروف المُنكرة.

قال أبو محمد ابنُ السَّمَرْقَنْديّ: كان كذَّابًا. وكانت وفاتُه في هذه السنة عن اثنتين وثمانينَ سنةً، ودُفِن عندَ إبراهيمَ الحَرْبيِّ.

قال ابنُ خَلِّكان: أخَذ الفقهَ عن أبي الفَتْح ناصر بن محمد العُمَريِّ المَرْوَزيِّ، ثم غلَب عليه الحديثُ واشتُهرَ به، ورحَل في طلبه.

القاضي أبو يَعْلَى الحنبَليُّ، محمدُ بنُ الحسين بن محمد بن خلف بن أحمدَ بن الفَرَّاء.[1] القاضي أبو يَعْلَى، شيخُ الحنابلة، ومُمَهِّدُ مذهبهم في الفُروع، وُلِد في محرَّم سنةَ ثمانينَ وثلاثمائة، وسمع الحديثَ الكثيرَ، وحدَّثَ عن ابن حُبَابَةَ.

قال ابنُ الجَوْزيّ: وكان من سادات الثقات، وشهِدَ عندَ ابن ماكُولا وابن الدامَغانيِّ فقَبِلاه، وتولَّى النظرَ في الحكم بحَريم دار الخلافة، وكان إمامًا في الفقه، له التصانيفُ الحسانُ الكثيرةُ في مذهب أحمدَ، ودَرَّسَ وأفتَى سنينَ، وانتهَى إليه المذهبُ، وانتشرَتْ تصانيفُه وأصحابُه، وجمَع الإمامةَ، والفقهَ، والصِّدقَ، وحسنَ الخُلق، والتعبُّد والتقشُّفَ والخشوعَ، وحُسْنَ السَّمْت، والصمتَ عمَّا لا يَعْني.

وكانت وفاتُه في العشرينَ من رمضانَ من هذه السنة عن ثمانٍ وسبعين سنةً، واجتمَع في جنازَته القُضاةُ والأعيانُ من الفقهاء، والشهود، وكان يومًا حارًّا، فأفطَر بعضُ مَن اتَّبَع جنازَته ذلك اليومَ. وترك من البنينَ عُبَيدَ اللَّه أبا القاسم وأبا الحسين وأبا حازم. ورآه بعضُهم في المنام، فقال له: ما فعَل اللَّهُ بكَ؟ فقال: رَحِمني وغفَر لي وأكرَمني، ورفَع منزلَتي. وجعَل يعُدُّ ذلك بإصْبَعِه. فقال: بالعِلْم؟ فقال: بل بالصِّدْق. رحمه اللَّهُ تعالى.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ٨٩) وما بعدها.

ابنُ سِيدَه اللُّغويُّ، أبو الحسن عليُّ بنُ إسماعيلَ المُرْسيُّ، كان إمامًا حافظًا للغة، وكان ضريرَ البصَرِ، أخذَ علمَ العربيةِ واللغةِ عن أبيه، وكان أبوه ضريرًا أيضًا، ثم اشْتَغَل على أبي العلاء صاعدٍ البَغداديِّ، وله «المُحْكَمُ» في مُجلَّداتٍ عديدةٍ، وله «شَرْحُ الحماسَةِ» في ستِّ مُجلَّداتٍ، وغيرُ ذلك، وقرأ على الشيخ أبي عمرَ الطَّلَمَنْكيِّ كتابَ «الغريب» لأبي عُبَيْدٍ سَرْدًا من حفظِه. والشيخُ يقابل نسختَه بما يقرأُ، فسمع الناسُ بقراءته من حفْظِه، وتعجَّبوا لذلك.

وكانت وفاتُه في ربيع الأول من هذه السنةِ، وله ستُّونَ سنةً، وقيلَ: إنه تُوُفِّي في سنة ثمانٍ وأربعين. والأوَّلُ أصَحُّ. واللَّهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وأربعمائة

فيها: بنَى أبو سعدٍ المسْتَوفي الملَقَّبُ بشرَفِ المُلْك، مشْهدَ الإمام أبي حنيفة النعمانِ ببغدادَ، وعقَد عليه قُبَّةً، وعملَ بإزائه مدرسةً، وأنزلَها المدرسَ والفقهاءَ فدخَل أبو جَعْفَرٍ ابنُ البياضيِّ زائرًا لأبي حنيفةَ فأنشدَ ارتجالاً:

ألم ترَ أنَّ العلمَ كان مُضَيَّعًا	فجمَّعَه هذا المُغيَّبُ في اللَّحْدِ
كذلكَ كانتْ هذه الأرضُ ميْتةً	فأنْشَرها جُودُ العميدِ أبي السعْدِ

وفي شعبان هبَّتْ ريحٌ حارَّةٌ فماتَ بسببِها خلقٌ كثيرٌ، ودَوابٌّ ببغدادَ، وأتلَفت شجرًا من الليْمُونِ والأُتْرُجِّ.

وفيها: احْترَقَ قبرُ مَعروفٍ الكَرْخيِّ، وكان سببَه أن القَيِّمَ طُبِخَ له ماءُ الشعيرِ لمرَضِه، فتعَدَّتِ النارُ إلى الأخشابِ فاحْترَق المشْهَدُ بكَماله.

وفيها: وقَع غلاءٌ وفناءٌ بدمَشْقَ، وحلَبَ، وحرَّانَ، وخُراسانَ بكَمالها، ووقَع الفناءُ في الدوابِّ، كانتْ تنْتَفِخُ رءُوسُها وأعْيُنُها حتى كان الناسُ يأخذون حُمُرَ الوحشِ بالأيْدي، ولكن يأنفُون من أكلِها.

قال ابنُ الجَوْزيِّ في «المنتظم»: وفي يوم السبت عاشرَ ذي القَعدَةِ جمَع العميدُ أبو سعدٍ القاضي الناسَ؛ ليَحْضُروا الدرسَ بالنِّظاميَّةِ ببغدادَ، وعيَّنَ لتدْريسِها ومشيَختِها الشيخَ أبا إسحاقَ الشِّيرازيَّ، فلمَّا تكامل اجْتماعُ الناسِ، وجاء أبو إسْحاقَ ليدرِّس، لقيَه فقيهٌ شابٌّ، فقال: يا سيِّدي، تذْهَبُ تُدرِّسُ في مكانٍ مغْصُوبٍ؟ فامتنعَ من الحضورِ ورجَع إلى بيتِه، فأُقيمَ الشيخُ أبو نَصْرٍ بنُ الصَّبَّاغِ فدَرَّس، فلمَّا بلَغ نظامَ المُلْك ذلك تغيَّظَ على العميدِ، وأرسَل إلى الشيخ أبي إسحاقَ، فرَدَّه إلى التدْريسِ بالنِّظاميةِ، في ذي الحِجَّةِ من هذه السنةِ، وكان لا يُصلِّي فيها مكْتوبةً، بل يخرُجُ إلى بعضِ المساجدِ فيؤدي المكتوبةَ؛ لما ذُكِر من كونها في بعضِ أرضِها غصْبٌ، وقد كانت مدةُ تدْريسِ ابنِ الصَّبَّاغِ عِشرين يومًا، ثم عاد الشيخُ أبو إسحاقَ إليها.

وفي ذي القَعْدَةِ من هذه السنة قُتِل الصُّلَيْحيُّ أميرُ اليمنِ وصاحبُ مَكَّةَ، قتَله بعضُ أمراءِ اليمنِ، وخُطِب بها للقائم بأمر اللهِ العباسيِّ.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنة أبو الغنائم النقيبُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

محمدُ بنُ إسماعيلَ بن محمد، أبو عليٍّ الطُّوسيُّ، ويقال له: العراقيُّ؛ لظَرْفه وطول مُقامه بها، سمع الحديثَ من أبي طاهرٍ المُخَلِّصِ، وتَفَقَّه على أبي محمدٍ البافيِّ، ثم على الشيخ أبي حامدٍ الإسْفَرايينيِّ، ووَلِيَ قضاءَ بلْدَةِ طوسَ، وكان من الفُقهاءِ الفُضلاءِ المُبَرِّزين، رحِمَه اللهُ تعالى.

ثم دخلت سنة ستين وأربعمائة

قال ابنُ الجوزيِّ: في جُمادَى الأُولى كانت زلزلةٌ شديدةٌ بأرضِ فِلَسْطينَ، أهلكتْ بلدَ الرَّمْلَةِ، ورمَتْ شُرَّافَتيْن من مسجد رسول الله ﷺ، ولَحِقَتْ واديَ الصفراءِ وخَيْبَرَ، وانشقَّتِ الأرضُ عن كُنوزٍ من المال، وبلَغ حِسُّها إلى الرَّحْبَةِ والكوفةِ، وجاء كتابُ بعضِ التجارِ في هذه الزلزلةِ يقولُ: إنَّها خسَفَتِ الرَّمْلَةَ جميعًا حتى لم يسلَمْ منها إلا داران فقط، وهلَك منها خمسَ عشْرَةَ ألفَ نسَمةٍ، وانشقَّتِ الصخرةُ التي ببيتِ المقدسِ، ثم عادَتْ فالتأمَتْ بقدرةِ اللهِ تعالى، وغارَ البحرُ مسيرةَ يومٍ وساخ في الأرضِ، وظهَر مكانَ الماءِ أشياءُ من جواهرَ وغيرِها، ودخَل الناسُ إلى أرضِه يلْتَقِطُون، فرجَع عليهم فأهلَك خلقًا كثيرًا منهم.

وفي يوم السبتِ النصفِ من جُمادَى الآخرةِ قُرِئَ الاعتقادُ القادريُّ، الذي فيه مذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ والإنكارُ على أهلِ البدعِ، وقرَأ أبو مُسْلمٍ الليثيُّ البُخاريُّ المحدِّثُ كتابَ «التوحيد» لابن خُزَيْمةَ على الجماعةِ الحاضرين. وذُكِرَ بمحضَرٍ من الوزيرِ ابنِ جَهيرٍ وجماعةِ الأعيانِ من الفقهاءِ وأهلِ الكتاب، واعْتَرَفُوا بالموافَقَةِ، ثم قُرِئَ «الاعتقادُ القادريُّ» على الشريفِ أبي جعفرٍ ابنِ المُهتدي باللهِ بباب البَصْرَةِ، وذلك لسماعه له من الخليفةِ القادرِ باللهِ مصنِّفِه.

وفيها: عزَل الخليفةُ وزيرَه أبا نَصْرٍ محمدَ بنَ محمدِ بنِ جَهيرٍ، الملَقَّبَ فَخرَ الدولةِ، وبعَث إليه يعاتِبُه في أشياءَ كثيرةٍ، فاعتذَرَ منها وأخَذ في الترَفُّقِ والتذلُّلِ، فأُجيبَ بأن يرحلَ إلى أيِّ جهةٍ شاء، فاختار حِلَّةَ ابنِ مَزْيَدٍ، فباع أصحابُه أموالَهم وأملاكَهم وطلَّقُوا نساءَهم، وأخَذ أولادَه وأهلَه، وجاءَ ليركب في سُميريَّةٍ لينْحَدِرَ منها إلى الحِلَّةِ، والناسُ حولَه يتَباكونَ لبُكائه، فلمَّا اجتازَ بدارِ الخلافةِ قبَّل الأرضَ دَفَعاتٍ والخليفةُ في الشُّبَّاكِ، والوزيرُ يقولُ: يا أميرَ المؤمنين، ارحَمْ شَيْبَتي وغُرْبَتي وأولادي. فأُعيدَ إلى الوَزارةِ بشفَاعةِ دُبَيسِ بنِ مَزْيَدٍ، في السنَةِ الآتيةِ، وامتدَحَه الشعراءُ، وفرِح الناسُ برُجوعِه إلى الوَزارةِ وكان يومًا مشْهُودًا.

ومن توفي فيها من الأعيان:

عبدُ الملك بنُ محمد بن يوسفَ أبو منصور، الملقَّبُ بالشيخ الأجلّ[1]، كان أوحدَ زمانه في القيام بالمعروف، والمُبادرةِ إلى فعل الخيرات، واصْطناع الأيادي عندَ أهلها من أهل السُّنَّة، مع شدَّة القيام على أهل البدَع ولَعْنهم، وافتقاد المستُورينَ بالبرِّ، والصَّدقة على المحاويج وإخفاء ذلك جَهْدَه وطاقَتَه، ومن غريب ما وقَع له أنَّه كان يَبَرُّ إنسانًا في كلِّ سنة بعشَرة دنانيرَ، يكتبُ له بها على رجلٍ يقالُ له: ابنُ رضوانَ. فلمَّا توفي جاءَ الرجلُ إلى ابن رضوانَ فقال: ادْفَعْ إليَّ ما كان يصرفُ لي الشيخُ. فقال له ابنُ رضوانَ: إنَّ الذي كان يكتبُ لك عليَّ قد ماتَ، ولا أقدرُ أن أصرفَ لك شيئًا، فذهَب الرجلُ إلى قَبْر الشيخ الأجَلِّ فقرأ شيئًا من القرآن وترحَّمَ عليه، ثم التَفَتَ فإذا هو بكاغدٍ فيه عشَرة دنانيرَ، فأخَذَها وجاءَ بها إلى ابن رضوانَ فذكَر له ذلك، فقال له ابنُ رضوانَ: هذه يا أخي سقَطَت منِّي اليوم عندَ قَبره، فخُذْها ولكَ عليَّ مثلُها في كلِّ عام.

كانت وفاتُه المُنتصفَ من محرَّم هذه السنة عن خمسٍ وستِّين سنةً، وكان يومُ موته يومًا مشهُودًا، حضَره خلقٌ من الناس ما لا يَعْلَمُ عددَهم إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ، فرحمه اللَّهُ تعالى، وأكرَم مَثواه.

أبو جعفرٍ محمدُ بنُ الحسن الطُّوسيُّ، فقيهُ الشيعة، ودُفنَ بمشهد عليٍّ، وكان مُجاوراً به، حينَ احترَقت دارُه بالكَرْخ وكتُبُه، سنةَ ثمانٍ وأربعين إلى المُحَرَّم من هذه السنة، فتوفِّي ودُفن هناك.

خديجةُ بنتُ محمد بن عليِّ بن عبد اللَّه، الواعظةُ المعروفةُ بالشَّاهْجانيَّة، وُلدت سنةَ أربعٍ وسبعين وثلاثِمائةٍ، وكانت قد صَحِبت ابنَ سمعونَ، وروَت عنه وعن ابن شاهين، ودُفنت إلى جانب ابن سمعونَ.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وأربعمائة

في لَيْلة النصف من شعبانَ من هذه السنة كان حريقُ جامع دمَشْقَ؛ وكان سبَبُه أن غلمان الفاطميِّينَ والعباسيِّين اختَصَموا فيما بينَهم، فأُلقِيَتْ نارٌ بدار المُلك، وهي الخضْراءُ المُتاخمَةُ للجامع من جهة القِبْلَة، فاحترقَتْ، وسرَىٰ حريقُها إلى الجامع، فسقَطَتْ سقُوفُه وتناثرَتْ فُصوصُه المُذَهَّبَةُ التي على جُدْرانه، وتقلَّعت الفُسَيْفِساءُ التي كانت في أرضه، وعلى جُدْرانه، وتغيَّرت معالُمه ومحاسنُه وتبدَّلت بهجتُه بضدِّها، وقد كانتْ سُقوفُه مذهَّبةً مبطَّنةً كُلُّها والجَمْلُوناتُ من فوقها، وجُدْرانُه بالفصوص المذهَّبة الملونة مصَوَّرٌ فيها جميعُ بلاد الدنْيا؛ الكَعْبَةُ ومكةُ في المحراب، والبلادُ كلُّها شرقًا وغربًا، كلٌّ في مكانه اللائق به، ومصوَّرٌ فيه كلُّ شجرةٍ مثْمرةٍ وغير مثمرةٍ، مشكَّلٌ مصوَّرٌ

---

(1) ترجمته في «السير» (١٨/ ٣٣٣-٣٣٤).

في بُلدانه وأوطانه، والسُّتورُ مُرْخاةٌ على أبوابه النافذة إلى الصَّحْنِ وعلى أصول الحيطان إلى مقدار الثُّلُث منها، وباقي الجدران بالفُصوص الملوَّنة، وأرضُه كلُّها بالفُصوص؛ الرُّخام والفُسَيْفساء، ولم يكُنْ في الدُّنيا بناءٌ أحسنُ منه، لا قُصورُ الملوك ولا دُورُ الخلافة، فضلاً عن غيرهم، ثم لمَّا وقَع هذا الحريقُ فيه، تبدَّل الحالُ الكاملُ بضدِّه، وصارَتْ أرضُه طينًا في زمن الشتاء، وغُبارًا في زمن الصيف، محفورةً مهْجُورةً، ولم يزَلْ كذلك حتى بُلِّطَ أرضُه في زمن العادل أبي بكر ابن أيُّوبَ، بعدَ السِّتِّمائة سنةٍ من الهجرة، وكان جميعُ ما سقَط منه من الرُّخام وغيره من الأخْشاب مُودَعًا في المشاهد الأربعَة، شرقيةً وغربيةً، حتى فرَّغَها من ذلك القاضي كمالُ الدين الشَّهْرُزُوريُّ، في زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنْكيٍّ، حينَ ولاَّه نظَرَه مع القضاء ونظَرَ الأوقاف كلِّها، ونظَرَ دار الضَّرْب وغيرَ ذلك، ولم تزَل الملوكُ تجدِّدُ في محاسنه إلى زماننا هذا، فتقارَبَ حالُه في زمن الأمير سيف الدين تَنْكِز بن عبد الله الناصريِّ نائب الشام، أثابه اللهُ تعالى. وقد أرَّخَ الشيخُ أبو الفرج بنُ الجوزيِّ في «المنتظم» هذا الحريقَ في سنة ثمانٍ وخمسينَ، وتَبِعَه ابنُ السَّاعي في «تاريخه»، والصوابُ أنه في هذه السنة كما ذكَره ابنُ الساعي أيضًا في هذه السنة، وشيخُنا الحافظُ أبو عبد الله الذَّهَبيُّ مؤرِّخُ الإسْلام في «تاريخه»، وغيرُ واحد. والله أعلمُ.

وفيها: نقمَت الحنابلةُ على الشيخ أبي الوَفاء ابن عقيل، وهو من كُبَرائهم؛ بتردُّده إلى أبي عليِّ بن الوليد المتكلِّم المعتزليِّ، واتَّهَمُوه بالاعْتزال، ولا شكَّ أنه لم يكُنْ يتردَّدُ إليه إلا ليُحيطَ علمًا بمذهَبه، ولكنْ سرَقَه الهوىٰ، وصارَتْ فيه نَزْعَةٌ منه، وجرَتْ بينَهم فتنةٌ طويلةٌ، وتأذَّىٰ بسبَبها جماعةٌ منهم، وما سكَنَت الفتنةُ إلى سنة خمسٍ وستِّين، ثم اصطلحُوا فيما بينَهم بعدَ اختصامٍ كثير.

وفيها: زادَتْ دجْلَةُ على إحدىٰ وعشرين ذراعًا حتى دخَلت مَشْهَدَ أبي حنيفةَ ومشهدَ النذور.

وفيها: ورَد الخبرُ بأنَّ الأفشينَ دخَلَ بلادَ الروم حتى انْتهَىٰ إلى عَمُّوريَةَ، فقتَل خلقًا وغنمَ أموالاً كثيرةً.

وفيها: كان رُخْصٌ عظيمٌ بالكوفة حتى بِيعَ السمكُ كلُّ أربعينَ رِطْلاً بحبَّةٍ.

وحجَّ بالناس في هذه السنة أبو الغنائم العَلَويُّ.

وممن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

الفُورانيُّ، أبو القاسم عبدُ الرحمن بنُ محمد بن أحمدَ بن فُورانَ الفُورانيُّ، المَرْوَزيُّ[1]، أحدُ أئمة الشافعيَّة، مصنِّفُ «الإبانَة» التي فيها من النقول الغريبة، والأقوال والأوْجُه التي لا تُوجَدُ إلا فيها، كان بصيرًا بالأُصول والفروع، أخَذ الفقهَ عن أبي بكرٍ القفَّال، وحضَر إمامُ الحرمَيْن عندَه وهو صغيرٌ، فلم يلْتَفتْ إليه، فصار في نفْسه منه، فهو يخطِّئُه كثيرًا في «النهاية». قال القاضي ابنُ

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ٢٦٤-٢٦٥).

خَلِّكَان: فمتى قال في «النهاية»: وقال بعضُ المُصنِّفينَ كذا وغلط في ذلك. وشرَع في الوقوع فيه، فمُرادُه أبو القاسم الفُوراني. وكانت وفاتُه في رمضانَ من هذه السنة بمَرْوَ، عن ثلاثٍ وسبعين سنةً، وقد كتَب تلميذُه أبو سعدٍ عبدُ الرحمنِ بنُ محمدٍ المأمونِ المعَرِّيُّ ـ المدرسُ بالنِّظاميَّة بعدَ الشيخ أبي إسحاقَ وقبلَ ابنِ الصبَّاغِ وبعدَه أيضًا ـ كتابًا على «الإبانة»، سمّاه «تتمَّةَ الإبانَة»، انتَهى فيه إلى كتاب الحدود، وماتَ قبلَ إتمامه، فتَمَّمَه أسعدُ العِجْليُّ وغيرُه، فلم يلحَقُوا شَأْوَه، وسَمَّوه: «تَتمَّةَ التَّتِمَّة»، رحِمهم اللَّهُ تعالى.

ثم دخلت سنة ثنتين وستين وأربعمائة

قال ابنُ الجوزي: فمن الحوادث فيها أنه كان على ثلاث ساعاتٍ من يوم الثلاثاء الحادي عشرَ من جُمادى الأولى، وهو الثامنَ عشَرَ من آذارَ، كانت زلزلةٌ عظيمةٌ بالرَّمْلَة وأعمالِها، فذهَب أكثرُها وانهدَمَ سورُها، وعمَّ ذلك بيتَ المَقْدسِ وتِنِّيسَ، وانخسَفَت أيْلةُ، وانجفَل البحرُ حتى انْكَشَفَتْ أرضُه، ومشَى ناسٌ فيه ثم عادَ، وتغيَّرت إحدَى زَوايا جامعِ مصرَ، وتبِعَتْ هذه الزَّلزلةَ في ساعتِها زَلزلَتان أُخرَيان.

وفيها: توَجَّهَ ملكُ الرومِ من قُسْطَنطِينيَّةَ إلى الشام في ثلاثمائة ألفٍ، فنَزَل على مَنْبِجَ وأحرَقَ القُرَى ما بينَ مَنْبِجَ إلى أرضِ الروم، وقتَل رجالَهم وسبَى نساءَهم، وفزِع المسلمون بحَلَبَ وغيرِها فزَعًا عظيمًا، فأقامَ ستَّةَ عشَرَ يومًا ثم ردَّه اللَّهُ خاسئًا، وذلك لقلةِ ما معهم من المِيرَةِ وهَلاكِ أكثرِ جيْشِه بالجوعِ، ولِلَّه الحمدُ والمِنَّةُ.

وفيها: ضاقَت يدُ أميرِ مَكَّةَ فأخَذ الذهبَ من أستارِ الكعبةِ والميزابِ وبابِ الكعبةِ، فضرَبَ كلَّ ذلك دَراهِمَ ودنانيرَ، وكذلك فعَل صاحبُ المدينةِ بالقَناديلِ التي في المسجدِ النبويِّ ـ على ساكنه أفضلُ الصلاة والسلام ـ.

وفي هذه السنة كان غلاءٌ شديدٌ، وقَحْطٌ عظيمٌ بديارِ مصرَ، بحيثُ إنَّهم أكَلوا الجيَفَ والمَيْتَاتِ والكلابَ، فكانَ يُباعُ الكلبُ بخمسةِ دَنانيرَ، وماتَتِ الفِيَلَةُ فأُكلَتْ، وأُفنيت الدَّوابُّ، فلم يَبْقَ لصاحبِ مصرَ سوى ثلاثةِ أفراسٍ، بعدَ العددِ الكثيرِ منها. ونزَل الوزيرُ يومًا عن بغْلَته، فغفَل الغُلامُ عنها لضَعْفه من الجوعِ، فأخَذها ثلاثةُ نَفَرٍ فذَبحُوها وأكلُوها فأُخذُوا فصُلِبُوا فأصبَحوا فإذا عظامُهم باديةٌ، قد أكَل الناسُ لحومَهم. وظُهِر على رجلٍ يقتُلُ الصِّبْيانَ والنساءَ ويدْفِنُ رُءوسَهم وأطرافَهم، ويَبيعُ لُحومَهم، فقُتِل. وكانت الأعرابُ يَقْدَمون بالطَّعامِ يَبيعُونَه في ظاهرِ البلَد، لا يتَجاسَرُون يدْخُلون لئَلاَّ يُخْطفَ ويُنهبَ منهم. وكان لا يجسُرُ أحدٌ أن يدفِنَ مَيِّتَه نهارًا، وإنما يدفِنُه ليلاً خُفْيَةً؛ لئَلاَّ يُنبشَ فيؤكلَ. واحْتاجَ صاحبُ مصر حتى باعَ أشياءَ كثيرةً من نفائسِ ما عندَه؛ من ذلك أحدَ عشَرَ ألفَ دِرْعٍ، وعِشْرون ألفَ سيفٍ مُحَلًى، وثمانون ألفَ قطْعَةٍ بلَّوْرٍ كبارٌ، وخمسةٌ وسبعونَ ألفَ قطعَةٍ

مِن الدِّيباج القديمِ، وبِيعَتْ ثيابُ النساءِ والرجالِ وسَجْفُ المُهودِ بأرخصِ الأثمانِ، وكذلك الأمْلاكُ وغيرُها، وقد كان بعضُ هذه النفائسِ الخليفيَّةِ، مما نُهِبَ مِن بغدادَ في أيامِ البَساسيرِيِّ.

وفيها: ورَدَتْ الخدمُ والتُّحفُ والهدايا مِن الملكِ ألْبِ أرْسَلانَ إلى الخليفةِ القائمِ بأمرِ اللَّهِ.

وفيها: ضُرِبَ اسمُ وليِّ العهدِ على الدنانيرِ والدراهمِ، وسُمِّي الأميرِيَّ، ومُنع التعاملُ بغيرِها.

وفيها: ورَد كتابُ صاحبِ مكَّةَ إلى الملكِ ألبِ أرْسَلانَ وهو بُخراسانَ، يخبرُه بإقامَةِ الخُطبةِ للقائمِ بأمْرِ اللَّهِ وللسلطانِ بمكةَ، وقَطْعِ الخُطْبَةِ للمصريين، فأرسَل إليه بثلاثين ألفَ دينارٍ وخِلعةً سَنِيَّةً، وأجرَىٰ له في كلِّ سنةٍ عشَرَةَ آلافِ دينارٍ.

وفيها: تزوَّجَ عميدُ الدولةِ ابنُ جَهيرٍ بابنةِ نِظَامِ المُلْكِ بالرَّيِّ، ثم عاد إلى بغدادَ.

وحجَّ بالناسِ أبو الغنائمِ العَلَوِيُّ.

وفيها تُوُفِّيَ مِن الأعيانِ والمشاهيرِ:

الحسنُ بنُ عليِّ بنِ محمدِ بنِ باري أبو الجوائزِ الواسطِيُّ، سكَن بغدادَ دهرًا طويلاً، وكان أديبًا شاعرًا ظريفًا، وُلد سنةَ ثِنْتَيْن وخمسينَ وثلاثِمائةٍ، وتوفِّي في هذه السنةِ عن مائةٍ وعشْرِ سِنِينَ. ومِن مُسْتَجادِ شعرِه قولُه:

وَا حَزَنِي مِن قولِها ... خانَ عُهودِي ولَها
وَحَقِّ مَن صيَّرَني ... وَقْفًا عليها ولَها
ما خطَرتْ بخاطِري ... إلا كَستْني ولَها

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ سهلٍ[1]، المعروفُ بابنِ بِشْرانَ النحويُّ الواسطِيُّ، وُلد سنةَ ثمانينَ وثلاثِمائةٍ، وكان عالِمًا بالأدبِ، وانتَهتْ إليه الرِّحْلَةُ في اللغةِ، وله شعرٌ حسنٌ، فمنه قولُه:

يا شائدًا للقُصورِ مَهْلاً ... أقْصِرْ فقصرُ الفتَى المماتُ
لم يجْتَمِعْ شملُ أهلِ قَصْرٍ ... إلا وقُصراهُمُ الشَّتاتُ
وإنَّما العيشُ مثلُ ظلٍّ ... منتَقِلٍ ما لَهُ ثَباتُ

وقولُه:

ودَّعْتُهم ولِيَ الدنْيا مُودِّعَةٌ ... ورُحْتُ ما لِي سوَىٰ ذكْراهُمُ وَطَرُ
وقلتُ يا لَذَّتي بِيني لَبَينِهمُ ... فإنَّ صَفْوَ حَياتي بَعْدَهُمْ كَدَرُ
لولا تعَلُّلُ قلبِي بالرَّجاءِ لهم ... أَلْفَيْتُهُ إن حَدَوا بالعيسِ ينْفَطِرُ
يا ليتَ عيسَهُمُ يومَ النَّوَىٰ نُحِرَتْ ... أولَيْتَها للضَّواري بالفَلاَ جَزَرُ
يا ساعَةَ البَيْنِ أنتِ الساعَةُ اقتَربَتْ ... يا لَوْعَةَ البينِ أنتِ النارُ تستَعِرُ

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ٢٣٥-٢٣٦).

وقولُه:

طلَبتُ صَديقًا في البريَّة كلِّها ... فأعيا طلابي أن أُصيبَ صديقا
بلَىٰ مَن تَسمَّىٰ بالصديق مَجازةً ... ولم يكُ في معنىٰ الوداد صدُوقًا
فطلَّقتُ وُدَّ العالمينَ صَريمةً ... وأصبَحتُ من أسرِ الحفاظِ طَليقًا

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وأربعمائة

وفيها: أقبَل ملكُ الرومِ أرمانوسُ في جَحافلَ أمثالِ الجبالِ مِن الرومِ والكُرْجِ والفرنْجِ، وعُدَدٍ عظيمةٍ وتجمُّلٍ هائلٍ، ومعه خمسةٌ وثلاثونَ ألفًا مِن البَطارِقَةِ، مع كلِّ بطْريقٍ ما بينَ ألفَيْ فارسٍ إلىٰ خمسمائة فارسٍ، ومعه مِن الفرنْجِ خمسةٌ وثلاثون ألفًا، ومن الغزِّ الذينَ يكونون وراءَ القُسْطَنْطِينيَّةِ خمسةَ عشَرَ ألفًا، ومعه مائةُ ألف نَقَّابٍ وحَفَّارٍ، وألفُ روزجاريٍّ، ومعه أربعُمائة عجلَةٍ تحملُ النِّعالَ والمساميرَ، وألفا عجلَةٍ تحملُ السلاحَ والسُّروجَ والعرَّاداتِ والمجانيقَ، منها منْجَنيقٌ يمدُّه ألفٌ ومائتا رجلٍ، ومِن عزْمِه - قبَّحه اللَّهُ تعالىٰ - أنْ يجتثَّ الإسلامَ وأهلَه، وقد أقطَعَ بطارِقتَه البلادَ حتىٰ بغدادَ، واستَوصىٰ نائبَها بالخليفةِ خيرًا فقال له: ارْفُقْ بذلك الشيخِ؛ فإنه صاحبُنا. ثم إذا استَوسقَتْ ممالكُ العراقِ وخُراسانَ لهم مالُوا علىٰ الشامِ وأهْلِه مَيْلَةً واحدةً، فاستَعادُوه من أيدِي المسلمين، واستَنقَذوه فيما يزعُمون، والقَدَرُ يقولُ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]. فالْتَقاه السلطانُ ألْبُ أرْسلانَ في جيشِه وهم قريبٌ مِن عشْرينَ ألفًا، بمكانٍ يقالُ له: الرَّهْوَةُ. في يومِ الأربعاءِ لخمسٍ بَقِينَ مِن ذي القَعْدَةِ، وخافَ مِن كثرةِ المشركين، فأشارَ عليه الفَقيهُ أبو نصرٍ محمدُ بنُ عبد الملك البخاريُّ بأن يكونَ وقتُ الوَقْعَةِ يومَ الجُمُعَةِ بعدَ الزَّوالِ حينَ يكونُ الخطباءُ يدْعُون للمُجاهدين، فلمَّا تَواجَهَ الفِئتانِ، نزَل السلطانُ عن فرسِه، وسجَد للَّه عزَّ وجلَّ، ومرَّغَ وجهَه في التُّرابِ ودَعا اللَّه تعالىٰ، واستَنصرَه، فأنزَل اللَّهُ نصرَه علىٰ المسلمينَ، ومنَحَهم أكتافَ المشركين فقتَلُوا منهم خلْقًا لا يُحْصَون، كثرةً، وأُسِرَ مَلِكُهم أرمانوسُ؛ أسَره غُلامٌ روميٌّ، فأمَّره السلطانُ، وأعطاه شيئًا كثيرًا، وقد كان هذا الغلامُ عُرِضَ علىٰ نظامِ المُلْكِ الوزيرِ في جملةِ تَقدمةٍ فلم يَقْبَلْه، فقال له سيِّدُه: إنه ... وإنه ... يُثْني عليه فردَّه، وقال كهيئةِ المستهزِئِ به: لعلَّه يَجيئُنا بمَلكِ الرومِ أرمانوسَ أسيرًا. فوقَع الأمرُ كما قال، فلله الحمدُ والمنَّةُ.

فلما أُوقِفَ أرمانوسُ بينَ يدَي الملك ألْبِ أرْسلانَ ضربَه بيده ثلاثَ مَقارِعَ وقال: لو كنتُ أنا الأسيرَ بينَ يدَيْكَ ماذا كنتَ تفعلُ؟ قال: كلَّ قبيحٍ. قال: فما ظَنُّكَ بي؟ قال: تقتلُني أو تشهِّرُني في بلادكَ، فأمَّا العَفْوُ وأخْذُ الفداءِ فبعيدٌ. فقال: ما عزَمْتُ علىٰ غيرِ العَفْوِ والفداءِ. فافْتدَىٰ نفسَه منه بألفِ ألفِ دينارٍ وخمسمائة ألف دينارٍ، وأن يُطلقَ كلَّ أسيرٍ في بلادِ الرومِ، وعلىٰ هُدْنَةِ خمسين سنةً، يحملُ فيها عن كلِّ يومٍ ألفَ دينارٍ وقام بينَ يدَي الملكِ فسقاه شرْبَةً مِن ماءٍ وقبَّلَ الأرضَ بينَ

يدَيه، وإلى نحوِ جهةِ الخليفةِ إجْلالاً وإكرامًا، فأطلَقَ له الملكُ عشرَةَ آلافِ دينارٍ ليتجهَّزَ بها، وأطلَقَ معه جماعةً من البَطارقةِ من أصحابِه، وشيَّعَه فرسَخًا، وأرسَلَ معه جيشًا يَخدُمونه ويحُوطونه ويحفَظُونَه إلى بلادِه، ومعهم رايةٌ مكتوبٌ عليها: لا إلهَ إلا اللّهُ محمدٌ رسولُ اللّهِ. فلمَّا انتهَى إلى بلادِه وجَد الرومَ قد ملَّكُوا عليهم غيرَه، فأرسَلَ إلى السلطانِ يعتذرُ إليه، وبعَث من الذهبِ والجواهرِ ما يقاربُ ثلاثَمائةِ ألفِ دينارٍ، وتزهَّدَ ولَبِسَ الصُّوفَ، ثم استضافَ مَلِكَ الأرْمَنِ فأخَذه فكَحَلَه، وأرْسَلَ إلى السلطانِ فأعْلَمَه بذلك يتقرَّبُ إليه به.

وفيها: خطَب صاحبُ حلَبَ محمودُ بنُ صالحِ بنِ مِرْداسٍ للقائمِ بأمرِ اللّهِ وللسلطانِ ألْبِ أرْسَلانَ معه، فبعَث إليه الخليفةُ بالخِلَعِ، والعَهْدِ مع الشريفِ طِرادٍ الزَّيْنَبيِّ.

وفيها: حجَّ بالناسِ نورُ الهدَى أبو طالبٍ الزَّيْنَبيُّ، وخُطِب بمكَّةَ للخليفةِ القائمِ بأمرِ اللّهِ، وقُطِعَتْ خُطْبةُ المصريين منها، وقد كان يُخطَبُ لهم فيها مائةَ سنَةٍ، فانقطَعَ ذلك في هذه السنةِ، وللّهِ الحمدُ والمنةُ.

وممن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

الحافظُ أبو بكرٍ الخطيبُ البغداديُّ، أحمدُ بنُ عليِّ بنِ ثابتِ بنِ أحمدَ بنِ مَهْديٍّ[1]، أحدُ مشاهيرِ الحفَّاظِ، وصاحبُ «تاريخ بغدادَ» وغيرِه من المصنَّفاتِ العديدةِ المفيدةِ، نحوٌ من ستِّينَ مصنَّفًا، ويقالُ: بل مائةُ مصنَّفٍ. فاللّهُ أعلمُ.

وُلد سنةَ إحْدَى وتسعين وثلاثمائةٍ، وقيلَ: سنةَ ثِنْتَيْنِ وتسعين. وأوَّلُ سماعِه سنةَ ثلاثٍ وأربعمائةٍ، ونشأ ببغدادَ، وتفَقَّهَ على القاضي أبي الطَّيِّبِ الطَّبريِّ وغيرِه من أصحابِ الشيخِ أبي حامدٍ، وسمع الحديثَ الكثيرَ، ورحَل إلى البصرةِ ونَيْسابُورَ وأصْبهانَ وهَمَذانَ والشامِ والحجازِ، وسُمِّيَ الخطيبَ؛ لأنَّه كان يخطُبُ بدَرْزِيجانَ، وسمع بمكةَ على القاضي أبي عبدِ اللّهِ محمدِ بنِ سلامةَ القُضاعيِّ، وقرَأ «صحيحَ البخاريِّ» على كريمةَ بنتِ أحمدَ في خمسةِ أيَّامٍ.

ورجَع إلى بغدادَ فحظِي عندَ الوزيرِ أبي القاسمِ ابنِ المُسْلِمَةِ. ولَمّا ادَّعَى اليهودُ الخَيابِرَةُ أنَّ معهم كتابًا نَبَويًّا فيه إسْقاطُ الجزْيَةِ عنهم أوْقَفَ ابنُ المُسْلِمَةِ الخطيبَ على هذا الكتابِ، فقال: هذا كَذِبٌ. فقيلَ: وما الدليلُ على ذلك؟ فقال: لأنَّ فيه شَهادةَ مُعاويَةَ بنِ أبي سفيانَ، ولم يكُنْ أسلَمَ يومَ خَيْبَرَ، وقد كانت خيبرُ في سنةِ سبعٍ من الهجرة، وإنما أسْلَمَ مُعاويةُ يومَ الفتحِ، وفيه شَهادةُ سَعْدِ بنِ مُعاذٍ، وقد كان تُوُفِّي عام الخندقِ سنةَ خمسٍ. فأعجَبَ الناسَ ذلك. وقد سُبِقَ الخطيبُ إلى هذا النقدِ، كما ذكَرتُ ذلك في مُصنَّفٍ مُفْرَدٍ.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ٢٧٠-٢٩٧).

ولمَّا وقعتْ فتنةُ البَسَاسيريِّ ببغدادَ سنةَ خمسين، خرجَ منها إلى الشام، فأقامَ بدمشقَ بالمئذنة الشرقيَّةِ من جامعها، وكان يقرأُ على الناسِ الحديثَ النبويَّ، وكان جَهْوَرِيَّ الصوت، يُسْمَعُ صوتُه من أرجاءِ الجامعِ كلِّها، فاتَّفَقَ أنَّه قرأَ يومًا على الناسِ فضائلَ العبَّاسِ، فثارَ عليه الرَّوافضُ وأتباعُ الفاطميِّينَ، وأرادُوا قتلَه فتشفَّعَ بالشريف الزَّيْنَبِيِّ فأجارَه، وكان مسكنُه بدارِ العَقيقيِّ. ثم خرجَ من دمشقَ فأقامَ بمدينة صُورَ، فكتَبَ شيئًا كثيرًا من مصنَّفاتِ أبي عبدِ اللَّه الصُّوريِّ بخطِّه، كان يستَعيرُها من زوجَتِه، فلم يزَلْ مقيمًا بالشام إلى سنةِ ثِنْتَيْنِ وستِّين، ثم عادَ إلى بغدادَ فحدَّث بأشياءَ من مَسْمُوعاته، وقد كان سألَ اللَّهَ تعالى بمكةَ أن يملكَ ألفَ دينارٍ، وأن يحدِّثَ بـ «التاريخ» بجامع المنصورِ، وأن يموت ببغداد فيدفن إلى جانب بشر الحافي فيقال: إنه حدَّث بـ «التاريخ» بجامع المنصور وإنه ملكَ ذهبًا يُقاربُ ألفَ دينارٍ. وحينَ احْتُضِرَ كان عندَه قريبٌ من مائَتَيْ دينارٍ، فأوْصَى بها لأهلِ الحديث، وسألَ السلطانَ أن يمضِيَ له ذلك؛ فإنَّه لم يتركْ وارثًا، فأجيبَ إلى ذلك.

وله مصنَّفاتٌ كثيرةٌ مفيدةٌ؛ منها كتابُ «التاريخ» وكتابُ «الكفاية»، و«الجامع»، و«شَرَفِ أصحابِ الحديث»، و«المُتَّفِقِ والمُفْتَرِقِ»، و«السَّابقِ واللاَّحقِ»، و«تلخيصِ المُتَشابهِ في الرسم»، و«فَضْلِ الوَصْلِ»، و«روايةِ الآباءِ عن الأبناء»، و«روايةِ الصحابةِ عن التابعينَ»، و«اقتضاءِ العلمِ العملَ»، وغيرُ ذلك. وقد سَردها الشيخُ أبو الفرجِ بنُ الجوزيِّ في «المنتظم». قال: ويقالُ: إن هذه المصنَّفات أكثرُها ابتدَأها أبو عبدِ اللَّه الصُّوريُّ، فتمَّمَها الخطيبُ.

وقد كان حسنَ القراءة، فصيحَ اللفظ، عارفًا بالأدب، يقولُ الشعرَ، وقد كان أوَّلاً على مذهبِ الإمامِ أحمدَ، فانتقَل إلى مذهبِ الشافعيِّ، ثم صارَ يتكلَّمُ في أصحابِ أحمدَ ويقدَحُ فيهم ما أمكنَه، وله دسائسُ عجيبةٌ في ذَمِّهم، ثم شرَع ابنُ الجوزيِّ يَنْتَصِرُ لأصحابه بما يطولُ ذكرُه. وقد أوْرَدَ ابنُ الجوزيِّ من شعرِ الخطيبِ قصيدةً - من خطِّه - جيدةَ المطلع حسنَةَ المنزَع، أوَّلُها:

لعَمْرُكَ ما شَجاني رَسْمُ دارٍ ... وقَفْتُ به ولا ذِكْرُ المغاني
ولا أَثَرُ الخِيامِ أراقَ دمْعي ... لأجْلِ تذكُّري عَهْدَ الغَواني
ولا مَلَكَ الهوَىٰ يومًا قِيادي ... ولا عاصَيْتُهُ فثنَىٰ عِناني
عرَفتُ فعالَه بذوي التَّصابي ... وما يلقَون من ذلِّ الهَوانِ
فلم أطمَعْهُ فيَّ وكم قتيلٍ ... لهُ في الناسِ ما يُحْصَىٰ وعانٍ
طلبتُ أخًا صحيحَ الودِّ مَحْضًا ... سليمَ الغَيْبِ محفُوظَ اللِّسانِ
فلم أعرِفْ من الإخوانِ إلا ... نفاقًا في التَّباعُدِ والتَّداني
وعالَمُ دهْرِنا لا خَيْرَ فيهم ... تَرَىٰ صُوَرًا تَروقُ بلا مَعاني
ووَصْفُ جميعِهم هذا فما أن ... أقُولَ سوَىٰ فلانٍ أو فلانِ
ولمَّا لم أجِدْ حُرًّا يُواتي ... علىٰ ما نابَ من صَرْفِ الزَّمانِ

صَبَرْتُ تكرُّمًا لقراعِ دهْرِي ... ولم أجْزَعْ لِمَا منهُ دَهاني
ولم أكُ في الشدائد مُسْتكينًا ... أقولُ لها ألاَ كُفِّي كَفاني
ولكنِّي صَليبُ العُودِ عَوْدٌ ... رَبيطُ الجأشِ مُجْتَمِعُ الجَنانِ
أبيُّ النَّفسِ لا أخْتارُ رزقًا ... يجيءُ بغيرِ سَيْفي أو سِناني
فَعِزٌّ في لَظَى باغيهِ يُشْوَى ... ألذُّ مِنَ المذلَّةِ في الجِنانِ

وقد ترجَمه الحافظُ ابنُ عساكرَ في «تاريخِه» ترجمةً حسنةً كعادَتِه، وأوْرَدَ له مِن شعرِه قولَه:

لا تَغبِطَنَّ أخا الدُّنيا لزُخْرفِها ... ولا للذَّة وقت عجَّلَتْ فرَحَا
فالدهرُ أسْرَعُ شيءٍ في تقَلُّبِه ... وفِعْلُهُ بَيِّنٌ للخلق قد وضَحَا
كم شارِبٍ عسَلاً فيهِ مَنِيَّتُهُ ... وكَم تقَلَّد سيْفًا مَن بِهِ ذُبِحَا

وقدكانت وفاتُه يومَ الاثنينِ ضُحَى السابعِ مِن ذي الحِجَّة مِن هذه السنةِ، وله ثنتان وسبعون سنةً، في حُجْرَةٍ كان يسكُنُها بدَرْبِ السلسلةِ، جِوارَ المدرسةِ النِّظاميَّةِ، واحتفَلَ الناسُ بجِنازَتِه، وحمَلها فيمَن حمَلَ الشيخُ أبو إسحاقَ الشِّيرَازِيُّ، ودُفِن إلى جانبِ قبرِ بِشْرٍ الحافي، في قبرِ رجلٍ كان قد أعَدَّه لنفسِه، فسُئِل أن يتركَه للخطيبِ فشَحَّت به نفسُه، حتى قال له بعضُ الناسِ: باللَّهِ عليكَ لو قَدمتَ أنت والخطيبُ إلى بِشْرٍ أيُّكُما كان يُجْلِسُه إلى جانبِه؟ فقال: الخطيبَ. فقيل: فاسْمَح له به. فوهَبَه له، فدُفِن فيه رحِمه اللَّهُ وأكرَم مَثْواه، وهو ممن يُنشَدُ له قولُ الشاعرِ:

ما زِلتَ تَدأَبُ في التاريخِ مجتهِدًا ... حتى رأيْتُك في التاريخِ مكْتُوبًا

وحكَى ابنُ خلِّكانَ عن السمعانيِّ أنه تُوُفِّي في شوَّالٍ، وأنَّه تصدَّق بجميعِ مالِه، ووقَف كُتبَه.

حَسَّانُ بنُ سعيدِ بنِ حسانَ بن محمدِ بنِ أحمدَ بن عبدِ اللَّه بنِ محمدِ بن مَنِيعِ بن خالدِ بنِ عبدِ الرحمنِ بن خالدِ بنِ الوليدِ المَخْزُوميُّ المَنِيعيُّ، كان في شبابِه يجمَعُ بينَ الزُّهدِ والتجارةِ حتى سادَ أهلَ زمانِه، ثم ترَك ذلك، وأقبَل على العبادةِ والزهدِ والبرِّ والصِّلَةِ والصدقةِ والإحسانِ إلى الخلْقِ، وبناءِ المساجدِ والرِّباطَاتِ، وكان السلطانُ يأتي إليه ويتبرَّكُ به، ولَمَّا وقَع الغلاءُ كان يعمَلُ في كلِّ يومٍ شيئًا كثيرًا مِن الخُبْزِ والطَّعامِ، فيتصدَّقُ به، ويكْسُو في كلِّ سنةٍ قريبًا مِن ألفِ نفْسٍ ثِيابًا وجِبابًا وافرةً، وكذلك النساءَ، ويجهِّزُ بناتِ الفقراءِ الأيتامِ، وأسقَط شيئًا كثيرًا مِن المُكُوسِ والوظائفِ السلطانيَّةِ عن بلادِ نَيْسابُورَ وقُراها، وهو في غايةِ التَّبَذُّلِ والثيابِ الأطْمارِ، وترْكِ الشهواتِ، ولم يزَلْ كذلك حتى كانت وفاتُه ببلدِه مَرْوِ الرُّوذِ في هذه السنةِ، تغمَّدَه اللَّهُ برحمتِه، آمينَ.

محمدُ بنُ الحسينِ بنِ حَمْزَةَ، أبو يعلَى الجَعْفَرِيُّ فقيهُ الشيعَةِ في زمانِه.

محمدُ بنُ وِشاحِ بنِ عبدِ اللَّهِ، أبو عليٍّ مولى أبي تمَّامٍ، محمدِ بنِ عليِّ بنِ الحسنِ الزَّيْنَبِيِّ؛ سمِع

الحديثَ، وكان أديبًا شاعرًا، وكتَب لنقيبِ النُّقباءِ الكاملِ، وكان يُنسَبُ إلى الاعتزالِ والرَّفضِ، ومن شعرِه قولُه:

حملْتُ العصَا لا الضَّعفُ أوْجَب حملَها	عليَّ ولا أنِّي تحنَّيْتُ من كِبَرْ
ولكنَّني ألزَمْتُ نفسي بحملِها	لأُعلِمَها أنَّ المُقيمَ على سَفَرْ

الشيخُ أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ النَّمَريُّ، الحافظُ صاحبُ التصانيفِ؛ منها «التَّمهيدُ»، و«الاستذكارُ»، و«الاستيعابُ»، وغيرُها.

ابنُ زَيْدُونَ الشاعرُ، أحمدُ بنُ عبدِ اللّه بن أحمدَ بن غالب بن زيدون، أبو الوليدِ، الشاعرُ الماهرُ الأندلسيُّ القُرْطُبيُّ، اتَّصلَ بالأميرِ المُعْتَضِدِ عبَّادٍ صاحبِ إشْبيليَّةَ، فحَظِيَ عندَه وصارَ عندَه مُشاوَرًا في منزلةِ الوزيرِ، ووزَر له ولدُه أبو بكرِ بنُ أبي الوليدِ، وهو صاحبُ القصيدةِ الفراقيَّةِ المشهورةِ التي يقولُ فيها:

بِنْتُمْ وبِنَّا فما ابْتلَّتْ جوانحُنا	شوقًا إليكم ولا جفَّتْ مآقينا
نكادُ حينَ تُناجيكُمْ ضمائرُنا	يَقضي علينا الأسَى لولا تأسِّينا
حالتْ لبُعْدِكُمُ أيامُنا فغدَتْ	سُودًا وكانتْ بكُم بِيضًا ليالينا
بالأمسِ كنَّا ولا يُخْشَى تفرُّقُنا	واليومَ نحنُ ولا يُرْجَى تلاقينا

وهي قصيدةٌ طويلةٌ، وفيها صَنْعَةٌ قويةٌ مُهَيِّجةٌ على البكاءِ لكلِّ مَن قرأَها أو سمِعها؛ لأنه ما مِن أحدٍ مِن أبناءِ الدنيا إلا وقد فقَد خِلًّا أو حبيبًا أو قريبًا أو نسيبًا، ومِن شعرِه:

بيني وبينَكَ ما لو شئتَ لم يَضِعِ	سرٌّ إذا ذاعَت الأسرارُ لم يَذِعِ
يا بائعًا حظَّه منِّي ولو بُذِلَتْ	ليَ الحياةُ بحظِّي منه لم أَبِعِ
يكفيكَ أنَّكَ إن حمَّلْتَ قلبيَ ما	لا تَستطيعُ قلوبُ الناسِ يستطِعِ
تِهْ أحتملْ واستطِلْ أصبرْ وعِزَّ أهُنْ	ووَلِّ أُقْبِلْ وقُلْ أسْمَعْ ومُرْ أُطِعِ

تُوُفِّي في رجبٍ مِن هذه السنةِ، واستمرَّ ولدُه أبو بكرٍ وزيرًا للمعتمدِ بنِ عبَّادٍ، حتى أخذَ ابنُ تاشفينَ قُرْطُبَةَ من يدِه في سنةِ أربعٍ وثمانينَ، فقُتِلَ يومَئذٍ. قالَه ابنُ خَلِّكانَ في «الوفَيات».

كَريمةُ بنتُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ أبي حاتمٍ المَرْوَزِيَّةُ[1] كانت عالمةً صالحةً، سمعَتْ «صحيحَ البخاريِّ» على الكُشْمِيهَنيِّ، وقرأَ عليها الأئمةُ، كالخطيبِ وأبي المُظَفَّرِ السَّمعانيِّ وغيرِهما.

* * *

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ٢٣٣ ـ ٢٣٥).

ثم دخلت سنة أربع وستين وأربعمائة

فيها : قام الشيخُ أبو إسحاقَ الشِّيرازيُّ مع الحنابلة في الإنكارِ على المُفسدينَ، والذين يبيعونَ الخمورَ، وفي إبطالِ المؤاجراتِ؛ وهُنَّ البَغايا، وكُوتِبَ السلطانُ في ذلك، فجاءَتْ كتُبُه بالإنكارِ.

وفيها: كانت زلزلةٌ عظيمةٌ ببغدادَ ارتَجَّتْ لها الأرضُ ستَّ مراتٍ.

وفيها: كان غلاءٌ شديدٌ ومَوَتانٌ ذريعٌ في الحيواناتِ؛ بحيثُ إنَّ بعضَ الرُّعاةِ بخُراسانَ قامَ وقتَ الصباحِ ليَسْرَحَ بغنَمِه فإذا هن قد متْنَ كلُّهنَّ. وجاء سيلٌ عظيمٌ وبَرَدٌ كِبارٌ أتلَفَ شيئًا كثيرًا من الزُّروعِ والثِّمارِ بخُراسانَ.

وفيها: تزوَّجَ الأميرُ عُدَّةُ الدينِ ولَدُ الخليفةِ بابنة السلطان ألب أرْسَلانَ من سفرئ خاتُونَ، وذلك بنَيسابُورَ، وكان وكيلُ السلطانِ نظامَ المُلْكِ، ووكيلُ الزوجِ عميدَ الدولةِ ابنَ جَهيرٍ، وحينَ عُقِدَ العقدُ نُثِر على الناسِ جَواهرُ نفيسةٌ، وكان يومًا مشهودًا؛ زُيِّنَتْ الأفيلةُ والخيولُ، وضُرِبَتْ الدَّبادبُ والبوقاتُ.

وممن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

بكرُ بنُ محمد بن حيد، أبو منصور النَّيسابُوريُّ، كان يزعُمُ أنَّه من سُلالَةِ عثمانَ بنِ عفانَ، وروَىٰ الحديثَ عن أبي بكرِ بنِ المُذْهِبِ، وكانَ ثقةً. تُوفِّي في المحرَّمِ من هذه السنة وقد قاربَ الثمانينَ.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ عبدِ الصَّمَدِ بنِ المُهتَدي باللَّهِ، أبو الحسنِ الهاشميُّ[1]، خطيبُ جامعِ المنصورِ، كان ممَّن يلبَسُ القَلانِسَ الطِّوالَ، حدَّث عن ابنِ رَزْقَوَيْهِ وغيرِه، وروَىٰ عنه الخطيبُ، وكان ثقةً عدلاً، شَهِدَ عندَ ابنِ ماكولا وابنِ الدامَغانيِّ فقبِلاه، تُوُفِّي في هذه السنةِ عن ثمانينَ سنةً ودُفِنَ بقربِ قبرِ بِشْرٍ الحافي، رحِمه اللَّهُ تعالىٰ.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ شاده بنِ جعفرٍ، أبو عبدِ اللَّهِ الأصْفَهانيُّ، وَلِيَ القضاءَ بدُجَيلٍ، كان شافعيًّا، وروَىٰ الحديثَ عن أبي عمرَ بنِ مَهْدِيٍّ، وكانت وفاتُه ببغدادَ، ونُقِلَ إلىٰ دُجيلٍ.

ثم دخلت سنة خمس وستين وأربعمائة

في يوم الخميسِ حادي عشَرَ المحرَّمِ حضَرَ إلىٰ الديوانِ أبو الوفا عليُّ بنُ محمدِ بنِ عَقيلٍ العَقيليُّ الحنبَليُّ، وقد كتَبَ علىٰ نفسِه كتابًا يتضَمَّنُ توْبَتَه من الاعتزالِ ومخالطةِ أهلِه، وأنه رجَع عن اعْتقادِ كونِ الحلَّاجِ من أهلِ الخيرِ؛ وقد رجَع عن الجزءِ الذي عمِله في ذلك، وأنه قد قُتِل بإجماعِ علماءِ عصرِه، وقد كانوا مُصيبين وهو مُخْطئٌ، وشَهِد عليه جماعةٌ في الكتابِ، ورجَع منَ الديوانِ إلىٰ دارِ الشريفِ أبي جعفرٍ، فسلَّم عليه واعتذَر إليه، وعَظَّمه. وللَّهِ الحمدُ والمنةُ.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ٢٣٨ ـ ٢٤٠).

وفاةُ السلطان ألب أرْسَلانَ، ومُلكُ ولده مَلَكْشاه: كان السلطانُ قد سارَ في أوَّلِ هذه السنَةِ في مائتي ألف مقاتلٍ يريدُ غَزاةَ ما وراءَ النهرِ، فاتَّفقَ في بعضِ المنازل أنه غضب على رجلٍ يُقالُ له: يوسُفُ الخُوارزميُّ، فأُوقفَ بينَ يدَيْه، فشرَعَ يعاتِبُه في أشياءَ صدَرتْ منه، ثم أمَرَ أن يُضرَبَ له أربعةُ أوْتادٍ ويُصلَبَ بينَها، فقال للسلطان: يا مُخنَّثُ، أمثلي يُقتَلُ هكذا؟! فاحْتَدَّ السلطانُ وأمَرَ بإرْساله، وأخَذَ القوسَ فرَماه بسَهْمٍ فأخطَأه، وأقبَلَ يوسُفُ نحوَ السلطانِ فنَهَضَ السلطانُ عنِ السَّريرِ، فنزَلَ فعثَرَ، فوقَع فأدركَه يوسُفُ، فضربَه بخَنْجَرٍ كان في يدِه في خاصرته، وأدركه الجيشُ فقتَلوه، وقد جُرِح السلطانُ جُرْحًا مُنكرًا، فتُوُفِّي في يوم السبتِ عاشرِ ربيعِ الأوَّلِ من هذه السنَةِ، ويقالُ: إن أهلَ بُخارىٰ لمَّا اجْتازَ بهم، ونهب عسكرُه أشياءَ كثيرةً لهم، دَعَوا عليه فهلَكَ.

ولمَّا تُوفِّي جلَس ولدُه مَلَكْشاه على سريرِ المُلك وقامَ الأمراءُ بينَ يدَيْه، فقالَ له الوزيرُ نظامُ المُلك: تكلَّم أيُّها السلطانُ. فقال: الأكبرُ منكم أبي، والأوْسَطُ أخي، والأصغرُ ابْني، وسأفعَلُ معكم ما لم أُسْبَقْ إليه. فأمْسكُوا فأعادَ القولَ، فأجابُوه بالسمعِ والطاعَة. وقام بأعباءِ أمرِه الوزيرُ لأبيه نظامُ المُلك، فزادَ في أرْزاقِ الجندِ سبعَمائَةِ ألف دينارٍ، وساروا إلى مَرْوَ فدفَنُوا بها السلطانَ، وسيأتي ذكْرُ شيءٍ من ترجمته في الوفياتِ. ولما بلَغ موتُه أهلَ بغدادَ أقامَ الناسُ له العزاءَ، وغُلِّقَت الأسواقُ وأظهَرَ الخليفةُ الجزَعَ عليه، وتسَلَّبَت ابنتُه الخاتونُ زوجةُ الخليفةِ، وجلَسَت على الترابِ. وجاءَت الكتبُ منَ السلطانِ في رجبٍ إلى الخليفة يتأسَّفُ فيها على والده، ويسألُ أن تُقامَ له الخُطبةُ، ففعَل ذلك. وخلَع مَلَكْشاه على الوزيرِ نظامِ المُلك خلَعًا سَنِيَّةً، وأعطاه تُحَفًا كثيرةً؛ من جُمْلة ذلك عشرونَ ألفَ دينارٍ، ولقَّبه أتابكَ، ومَعْناه الأميرُ الكبيرُ الوالدُ، فسارَ سيرةً حسنةً. ولمَّا بلَغ قاورتَ بَك موتُ أخيه ألب أرْسَلانَ ركِب في جيوشٍ كثيرةٍ قاصدًا قتالَ ابنِ أخيه مَلَكْشاه، فالْتقَيا فاقْتَتلا، فانهزَمَ أصحابُ قاورتَ وأُسرَ هُو، فأنَّبَه ابنُ أخيه ثم اعتَقلَه، ثم أرسَلَ إليه مَن قتَله.

وفيها: جرَت فتنةٌ عظيمةٌ بينَ أهلِ الكَرْخِ وبابِ البصرة والقَلَّائينَ، فاقْتَتلُوا فقُتِل منهم خلقٌ كثيرٌ، واحْترَقَ جانبٌ كبيرٌ من الكَرْخِ، فانتقَمَ المُتولِّي لأهلِ الكَرْخِ من أهلِ بابِ البصرةِ، فأخَذَ من أموالهم شيئًا كثيرًا؛ جنايةً لهم على ما صنَعُوا. وفيها أُقيمَت الدعوةُ العباسيَّةُ ببيتِ المَقْدِسِ.

وفيها: ملَك صاحبُ سَمَرْقَنْدَ، وهو التكينُ مدينةَ تِرْمِذَ.

وفيها: حجَّ بالناسِ أبو الغنائم العَلَويُّ.

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

السلطانُ ألبُ أرْسَلانَ الملقَّبُ بسلطان العالَم، ابنُ جَغْرى بكَ داودَ بن ميكائيلَ بن سَلْجُوقَ بن تُقاقَ التركيُّ، صاحبُ المَمالك المُتَّسعَة، وقد ملَك بعدَ عمِّه طُغْرُلْبَك سبعَ سنينَ وستةَ أشهرٍ وأيامًا، وكان عادلاً يسيرُ في الناسِ سيرةً حسنةً؛ كريمًا رحيمًا، شَفُوقًا على الرعيَّة، رفيقًا على الفقراء، بارًّا بأهله وأصحابِه ومماليكه، كثيرَ الدُّعاءِ بدوامِ ما أُنعِم به عليه، كثيرَ الصدقاتِ، يتصَدَّقُ في كلِّ رمضانَ

بخمسةَ عشرَ ألفَ دينارٍ، ولا يُعْرَفُ في زمانِه جِنايةٌ ولا مُصادَرَةٌ، بل يَقْنَعُ مِن الرَّعايا بالخَراجِ في قِسْطَيْن؛ رِفقًا بهم.

كتَب إليه بعضُ السُّعاةِ في نظامِ المُلكِ، فاستَدْعاه وقال له: إن كان هذا صحيحًا فهذِّبْ أخلاقَك وأصْلِحْ أحْوالَك، وإن لم يكنْ صحيحًا فاغْفِرْ لهم زلَّتَهم بمُهِمٍّ يشغَلُهم عن السِّعايةِ بالناسِ. وكان شديدَ الحرصِ على حِفْظِ مالِ الرَّعايا؛ بلَغه أن غُلامًا مِن غِلْمانِه أخَذ إزارًا لبعضِ التجارِ، فصلَبَه فارْتدَعَ سائرُ المَماليكِ به؛ خوفًا مِن سطْوَتِه.

وترَك مِن الأولادِ مَلِكْشاه الذي قام بالأمرِ مِن بعدِه وإيازَ وتكشَ وبورِيْ برسَ وأرْسَلانَ أرغونَ وسارَّةَ وعائشةَ وبنتًا أخرَى. وكانت وفاتُه في هذه السنةِ عن إحدَى وأربعين سنةً، ودُفِن عندَ والدِه بالرَّيِّ رحمه اللَّهُ تعالى.

أبو القاسمِ القُشَيريُّ، عبدُ الكريمِ بنُ هَوازِنَ بنِ عبدِ الملكِ بنِ طلْحَةَ، وأمُّه مِن بني سُلَيمٍ، تُوُفِّي أبوه وهو طفلٌ فقرَأ الأدبَ والعربيةَ، وصحِب الشيخَ أبا عليٍّ الدَّقَّاقَ، وأخَذ الفقْهَ عن أبي بكرِ بنِ محمدٍ الطُّوسيِّ، والكلامَ عن أبي بكرِ بنِ فُورَكَ، وصنَّفَ الكثيرَ، فله «التفسيرُ الكبيرُ»، و«الرسالةُ» التي ترجَمَ فيها جماعةً مِن المشايخِ والصالحين، وحَجَّ صُحْبةَ إمامِ الحرمَيْن وأبي بكرٍ البَيْهَقيِّ، وكان يَعِظُ الناسَ.

تُوُفِّيَ بنَيْسابُورَ في هذه السنةِ عن سبعين سنةً، ودُفِن إلى جانبِ شيخِه أبي عليٍّ الدَّقَّاقِ، ولم يدْخُلْ أحدٌ مِن أهلِ بيتِه بيتَ كُتُبِه إلا بعدَ سنينَ؛ احترامًا له، وكان له فَرَسٌ يركَبُها قد أُهْدِيَتْ إليه، فلمَّا تُوُفِّي لم تأكُلْ عَلَفًا حتى نفَقَت بعدَه بيَسيرٍ، ذكَرَه ابنُ الجوزيِّ.

وقد أثْنَى عليه القاضي ابنُ خَلِّكان في «الوفياتِ» ثَناءً كثيرًا، وذكَر شيئًا مِن شعرِه الرائقِ، فمِن ذلك قولُه:

سَقَى اللَّهُ وقتًا كنتُ أخْلُو بوَجْهِكُم ... وثَغْرُ الهوَى في روضةِ الأُنسِ ضاحِكُ
أقَمْنا زمانًا والعُيونُ قَريرةٌ ... وأصبَحْتُ يومًا والجُفونُ سَوافِكُ

وقولُه أيضًا رحمه اللَّهُ تعالى:

لو كُنْتَ ساعةَ بيْنِنا ما بيْنَنا ... وشَهِدْتَ حينَ نُكَرِّرُ التَّوْديعَا
أيْقَنْتَ أنَّ مِن الدُّموعِ مُحَدِّثًا ... وعلِمْتَ أنَّ مِن الحديثِ دُمُوعَا

وقولُه أيضًا:

ومَن كان في طُولِ الهوَى ذاقَ سَلْوَةً ... فإنِّيَ مِن لَيْلَى لها غيرُ ذائقِ
وأكثرُ شيءٍ نِلْتُه مِن وِصالِها ... أمانيُّ لم تَصْدُقْ كخَطْفةِ بارقِ

ابنُ صَرَّبَعْرَ الشاعرُ، اسمُه عليُّ بنُ الحسنِ بنِ عليِّ بنِ الفَضْلِ، أبو منصورٍ الكاتبُ المعروفُ بابنِ صُرَّبَعْرَ، وكان نظامُ الملكِ يقولُ له: أنتَ صُرَّدُرُّ لا صُرَّبَعْرُ.

وقد هَجاه بعضُهم فقال:

لئنْ نبَزَ الناسُ قِدمًا أباكَ ... وسَمَّوه من شُحِّه صُربَّعْرا
فإنَّك تنثُرُ ما صَرَّه ... عقوقًا له ونُسمِّيه شِعْرا

قال ابنُ الجوزيِّ: وهذا ظلمٌ فاحشٌ؛ فإن شعرَه في غاية الحُسْنِ، ثم أورَدَ له قِطَعًا حِسانًا من شعره، فمِن ذلك قولُه:

إيه أحاديثَ نَعمانٍ وساكنه ... إنَّ الحديثَ عن الأحبابِ أسْمارُ
أُفَتِّشُ الريحَ عنكم كلَّما نفَحتْ ... من نحوِ أرْضِكُم نَكْباءُ معطارُ

قال: وقد حفظ القرآنَ وسمع الحديثَ مِن ابنِ بِشرانَ وغيرِه، وحدَّث كثيرًا، وركِبَ يومًا دابَّةً فتردَّىٰ هو والدَّابَّةُ في بئرٍ، فماتا ودُفِنَ بباب أَبْرَزَ، وذلك في صفرٍ من هذه السنة. قال ابنُ الجوزيِّ: قرأتُ بخطِّ ابنِ عقيلٍ: كان صُرَّبَعْرُ خازنًا بالرُّصَافَة، وكان يُنبَزُ بالإلحاد. وقد أورَدَ له ابنُ خَلِّكان شيئًا من أشعاره، وأثنَىٰ عليه في فنِّه. واللَّهُ أعلمُ بحاله.

محمدُ بنُ عليِّ بنِ محمد بنِ عُبيد اللَّه بنِ عبد الصَّمد بنِ المُهتَدي باللَّه، أبو الحسين، ويُعرَفُ بابنِ الغَريق، وُلد سنةَ سبعين وثلاثمائةٍ وسَمِعَ الدَّارَقُطنيَّ، وهو آخرُ مَن حدَّث عنه في الدنيا، وابنَ شاهينَ وتفرَّدَ عنه، وسمع خَلْقًا آخرين، وكان ثقةً دَيِّنًا، كثيرَ الصلاة والصيام، فكان يُقالُ له: راهِبُ بني هاشم. وكان غزيرَ العلم والعقلِ، كثيرَ التِّلاوة، رقيقَ القلب غزيرَ الدَّمعة، رحَل إليه الطلبةُ من الآفاقِ، ثم ثَقُل سمعُه، فكان يقرأُ على الناس، وذهَبَتْ إحدىٰ عينَيه، وخطَب وله ستَّ عشْرَةَ سنةً، وشهِد عندَ الحُكامِ سنةَ ستٍّ وأربعمائةٍ، ووَلِيَ الحُكمَ سنةَ تسْعٍ وأربعمائة، وأقامَ خطيبًا بجامعِ المنصورِ وجامعِ الرُّصَافَة ستًّا وسبعين سنةً، وحكَم ستًّا وخمسين سنةً، وتُوُفِّي في سَلْخ ذي القَعْدَة مِن هذه السنةِ وقد جاوَزَ تسعين سنةً، وكان يومُ جنازته يومًا مشْهُودًا، ورُئِيَتْ له مَناماتٌ صالحةٌ.

ثم دخلت سنة ست وستين وأربعمائة

في صفرٍ جلَس الخليفةُ جُلوسًا عامًّا وعلىٰ رأسه حفيدُه الأميرُ عُدَّةُ الدين، أبو القاسم عبدُ اللَّه المقتَدي بأمرِ اللَّه، وعمرُه يومَئذٍ ثماني عشْرَةَ سنةً، وهو في غاية الحسنِ، وحضَر الأمراءُ والكبراءُ، فعقَد الخليفةُ بيده لواءَ السلطانِ مَلِكْشاه، وكان يومًا مشهودًا، وكثُر الزِّحامُ يومَئذٍ حتىٰ هنَّأ الناسُ بعضُهم بعضًا بالسلامة.

غرق بغداد

في جُمادىٰ الآخرة جاء مطرٌ عظيمٌ وسَيلٌ قويٌّ كثيرٌ، وزادَتْ دِجْلَةُ حتىٰ غرَّقتْ جانبًا كبيرًا من بغدادَ، وحتىٰ خلَص ذلك إلىٰ دارِ الخلافة، فخرَج الجواري حاسراتٍ، حتىٰ صِرْنَ إلىٰ الجانب الغربيِّ، وهرَب الخليفةُ مِن مَجْلِسه فلم يَجِدْ طريقًا يَسلُكُه، فحمَله بعضُ الخدم إلىٰ التَّاج، وكان

ذلك يومًا عظيمًا، وأمرًا هائلاً، وهلَك للناسِ أموالٌ عظيمةٌ جدًّا، وماتَ خَلْقٌ كثيرٌ تحتَ الرَّدْمِ من أهلِ بَغْدادَ والقرايا، وجاءَ على وَجْهِ السَّيْلِ من الأخشابِ والوحوشِ والحيَّاتِ شيءٌ كثيرٌ جدًّا، وسقَطَتْ دورٌ كثيرةٌ في الجانبَيْن، وغرقَتْ قُبورٌ كثيرةٌ؛ من ذلك مَقْبَرةُ الخَيْزُران، ومَقْبَرةُ الإمامِ أحمدَ ابنِ حنْبَلٍ، ودخَل الماءُ من شَبابيكِ المارَسْتانِ العَضُديِّ، وأتْلَف السَّيْلُ في المَوْصلِ شيئًا كثيرًا، وصدَم سورَ سِنْجارَ فهدَمه، وأخَذ بابَه من مَوْضعِه إلى مسيرةِ أربَعَةِ فَراسِخَ.

وفي ذي الحِجَّةِ منها جاءتْ ريحٌ شديدةٌ بأَرْضِ البَصْرةِ، فانْجعَف منها نحوٌ من خمسةِ آلافِ نَخْلَةٍ.

ومِمَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ، أبو الحُسَينِ السِّمْنانيُّ، الحنفيُّ الأشْعَريُّ. قال ابنُ الجوزيِّ: وهذا من الغريب. تزوَّج قاضي القُضاةِ أبو عبدِ اللَّهِ الدامَغانيُّ ابْنَتَه، وولَّاه نيابةَ القَضاءِ، وكان ثقةً نَبيلاً من ذَوِي الهيْئاتِ، جاوَز الثمانين.

عبدُ العزيزِ بنُ أحمدَ بنِ عليِّ بنِ سُلَيمانَ، أبو محمدٍ الكَتَّانيُّ[1] الحافظُ الدِّمَشْقيُّ، سمع الكثيرَ وكتَب كثيرًا، وصنَّف فأجاد وأفادَ، وله في الفضائلِ أشياءُ كثيرةٌ غريبةٌ، وبعضُ ما يرويه موضوعٌ، ولا يُنَبِّه عليه، مع أنه كان ثقةً ضابطًا، حافظًا، صدوقًا، مستقيمَ الطريقةِ والاعتقادِ، سَلَفيَّ المَذْهَبِ، وقد كتَب عنه الحافظُ أبو بكرٍ الخطيبُ، رحمه اللَّهُ تعالى.

محمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ عليِّ بنِ إبراهيمَ بنِ جعفرٍ، أبو بكرٍ العطَّارُ الأَصْبَهانيُّ الحافظُ، مُسْتَملي أبي نُعيمٍ، سمع الكثيرَ، وكان يُملي من حفْظِه، وكَتَب عنه الخطيبُ حديثًا واحدًا، وكان عظيمًا في بلدِه، ثقةً نَبيلاً جليلاً. وكانت وفاتُه في هذه السنة، رحمه اللَّهُ تعالى.

الماوَرْدِيَّةُ، ذكَر ابنُ الجوزيِّ أنها كانت عَجوزًا صالحةً من أهلِ البصرةِ تَعظُ النساءَ بها، وكانت تكتبُ وتقرأُ، ومكَثَتْ خمسين سنةً من عُمرِها لا تُفطِرُ نهارًا ولا تنامُ ليلاً، وتَقْتاتُ بخبزِ البَاقِلاَّءِ، وتأكُلُ من التِّينِ اليابسِ لا الرُّطَبِ، وشيئًا يسيرًا من العنَبِ والزَّبيبِ، ورُبَّما أكَلتْ من اللحمِ اليَسيرَ، وحين تُوُفِّيَتْ تَبِع أكثرُ أهلِ البلدِ جنازتَها، ودُفِنتْ في مقابرِ الصالحين.

ثم دخلت سنة سبع وستين وأربعمائة

في صَفَرٍ منها مَرِض الخليفةُ القائمُ بأمرِ اللَّهِ مرَضًا شديدًا؛ انْتَفَخ منه حلْقُه، وامتَنَع من الفَصْدِ، فلم يزَل الوزيرُ فخرُ الدَّوْلَةِ عليه حتى افْتَصَد، فصلَح الحالُ، وكان الناسُ قد انزَعَجُوا ففرِحُوا بعافيَتِه.

وجاء في هذا الشهرِ سَيْلٌ عظيمٌ، قاسَى منه شدَّةً عظيمةً، ولم تكُنْ أكثرُ أَبْنيَةِ بَغْدادَ تكامَلَتْ من

---

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ٢٤٨-٢٥٠).

الغَرَقِ الأوَّلِ، فخرَج الناسُ إلى الصَّحْراءِ فجلَسوا على رءوسِ التُّلولِ تحتَ المطرِ.

ووقَع وباءٌ عظيمٌ بالرَّحْبَةِ، فماتَ مِن أهلِها قريبٌ مِن عشَرَةِ آلافٍ، وكذلك وقَع بواسِطٍ والبَصْرَةِ وخُوزِستانَ وأرضِ خُراسانَ وغيرِها. واللَّهُ أعلمُ.

صفةُ موتِ الخليفةِ القائمِ بأمرِ اللَّهِ:

افْتَصَدَ في يومِ الخميسِ الثامنِ والعشرينَ مِن رَجَبٍ مِن ماشرًا كانتْ تَعْتادُه مِن عامِ الغَرَقِ، ثم نامَ بعدَ ذلك فانْفجَر فِصادُه، فاسْتَيْقَظ وقد سقَطَتْ قوَّتُه، وحصَل الإياسُ منه، فاسْتَدْعَى بحفيدِه وولىِّ عهدِه مِن بعدِه عُدَّةِ الدينِ أبي القاسمِ عبدِ اللَّهِ بنِ محمدِ بنِ القائمِ، وأحْضَرَ إليه القاضيَ والنُّقَباءَ، وأشْهَدَهم عليه ثانيًا بولايةِ العَهْدِ له مِن بعدِه، فشَهِدوا، ثم كانتْ وفاتُه ليْلَةَ الخميسِ الثالثَ عشَرَ مِن شعبانَ عن أرْبَعٍ وسبعين سنةً، وثمانيةِ أشْهرٍ، وثمانيةِ أيامٍ، وكانتْ مُدَّةُ خلافتِه أرْبَعًا وأربعين سنةً وثمانِيَةَ أشْهرٍ وخمسةً وعشْرينَ يومًا، فلم يَبْلُغْ أحدٌ مِن العباسيِّين قَبْلَه هذه المدةَ، وقد جاوزَتْ خلافةُ أبيه أربعين سنةً، فكان مجموعُ أيَّامِهما خمسًا وثمانين سنةً وأشهرًا، وذلك مُقاربٌ لدولةِ بني أُمَيَّةَ كُلِّها، وقد كان القائمُ بأمرِ اللَّهِ جميلًا مليحَ الوَجْهِ، أبيضَ، مُشْرَبًا حُمْرَةً، فصيحًا، ورِعًا، زاهدًا، أديبًا، كاتبًا، بليغًا، شاعرًا، كما تقدَّم ذكْرُ شيءٍ مِن شعرِه وهو بحديثةِ عانةَ سنةَ خمسين، وكان عادلًا كثيرَ الإحْسانِ إلى الناسِ، رحِمه اللَّهُ.

وغسَّله الشريفُ أبو جعفرِ بنُ أبي موسى الحَنْبَليُّ؛ عن وصيةِ الخليفةِ بذلك، فعُرِضَ على الشريفِ أبي جعفرٍ ما هُنالك مِن الآثاثِ والأمْوالِ، فلم يَقْبَلْ منه شيئًا، وصُلِّي على الخليفةِ في صَبِيحةِ يومِ الخميسِ المذْكُورِ، ودُفِنَ عندَ أجْدادِه، ثم نُقِلَ إلى الرُّصافَةِ، فقَبْرُه يُزارُ إلى الآنَ، وغُلِّقَت الأسواقُ لموتِه، وعُلِّقَت المُسوحُ، وناحَتْ عليه نساءُ الهاشميِّين وغيرِهم، وجلَس الوزيرُ ابنُ جَهيرٍ وابنُه للعزاءِ على الأرضِ، وخرَق الناسُ ثيابَهم، وكان يومًا عَصِيبًا، واستمرَّ الحالُ كذلك ثلاثةَ أيامٍ، وقد كان مِن خيارِ بني العباسِ دينًا واعْتِقادًا ودَوْلةً، وقد امْتُحِن مِن بينِهم بفتنةِ البَسَاسيريِّ التي اقْتَضَتْ إخْراجَه مِن دارِه ومفارقَتَه أهلَه وأوْلادَه ووَطَنَه، فأقامَ بحديثةِ عانةَ سنةً كاملةً، ثم أعادَ اللَّهُ تعالى عليه نعْمَتَه وخلافتَه، كما قال الشاعرُ:

فأصْبَحُوا قد أعادَ اللَّهُ نعمتَهُمْ ... إذْ هُمْ قُرَيْشٌ وإذْ ما مِثْلُهُمْ بَشَرُ

وقد تقدَّم له في ذلك سَلَفٌ صالحٌ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٩] وقد ذكَرْنا مُلَخَّصَ ما ذكَرَه المُفَسِّرون في سُورةِ «ص»، وبسَطْنا الكلامَ في هذه القصةِ العباسيَّةِ والفتنةِ البَسَاسيريَّةِ في سنةِ خمسين، وإحْدَى وخمسين وأرْبَعمائةٍ.

خلافة المقتدي بأمر الله

وهو أبو القاسم عُدَّةُ الدين عبدُ اللَّهِ بنُ الأمير ذَخيرَةِ الدين محمد بنِ الخليفة القائم بأمرِ اللَّهِ بنِ عبد الله بن القادر العباسيُّ، وأمُّه أرمنيَّةٌ تُسمَّى أرْجُوانَ، وتُدْعَى قُرَّةَ العَيْنِ، وأدركَتْ خلافتَه، وخلافة ولدَيْه؛ المُسْتَظْهِرِ والمُسْتَرْشِدِ. وقد كان أبوه تُوُفِّيَ وهو حَمْلٌ، فحينَ وُلِدَ ذَكَرًا فرح جَدُّه والمسلمون به فَرَحًا شديدًا؛ إذ حفظ اللَّهُ على المسلمين بقاءَ الخلافةِ في البيتِ القادريِّ، لأن مَن عداهم يبتذلون في الأسواقِ مع العَوامِّ، وكانت القلوبُ تَنْفِرُ من تَوْلِيَةِ مثلِ أولئكَ الخلافةَ على الناسِ، ونشأَ هذا في حِجْرِ جَدِّه القائمِ بأمرِ اللَّهِ يُرَبِّيه بما يَليقُ بأمْثالِه، ويُدَرِّبُه على أحسنِ السَّجايا، ولِلَّه الحمدُ والمِنَّةُ، وكان عُمْرُ المُقْتَدي حين وَلِيَ الخلافةَ عشرين سنةً، وهو في غاية الجمالِ خَلْقًا وخُلُقًا، وكانت بَيْعَتُه يومَ الجُمُعةِ الثالثَ عشَرَ من شعبانَ من هذه السنة، وجلَس في دارِ الشجرةِ، بقَميصٍ أبْيَضَ، وعمامةٍ بَيْضاءَ لطيفةٍ، وطَرْحَةٍ قصَبٍ دُرِّيَّةٍ، وجاء الوزراءُ والأمراءُ والأشرافُ ووُجُوهُ الناسِ فبايَعُوه، فكان أوَّلَ مَن بايعَه الشريفُ أبو جَعْفَرِ بنُ أبي موسى الحَنْبَليُّ، وأنشَده قولَ الشاعرِ:

إذا سَـيِّـدٌ منَّا مَـضَى قـامَ سَـيِّـدٌ

ثم أُرْتِجَ عليه لم يَدْرِ ما بعدَه، فقال الخليفةُ:

قَـئُـولٌ لما قـالَ الكرامُ فَـعُـولُ

وبايَعه مِن شُيوخِ العِلْمِ الشيخُ أبو إسْحاقَ الشِّيرازيُّ، والشيخُ أبو نَصْرِ بنُ الصَّبَّاغِ، الشافعيَّان، والشيخُ أبو محمدٍ التَّميميُّ الحَنْبَليُّ، وبرزَ فصلَّى بالناسِ العَصْرَ، ثم بعدَ ساعةٍ أخْرَجَ تابُوتَ جَدِّه بسكونٍ ووَقارٍ من غيرِ صُراخٍ ولا نَوْحٍ، فصلَّى عليه، وحُمِل إلى المَقْبَرة، رحمه اللَّهُ، وقد كان المُقْتَدي باللَّه شَهْمًا شُجاعًا، أيَّامُه كلُّها مُباركَةٌ، والرزقُ دارٌّ، والخلافَةُ مُعَظَّمةٌ جدًّا، وتصاغَرَتِ المُلوكُ له، وتَضَاءَلوا بينَ يَدَيْه، وخُطِبَ له بالحَرَمَيْنِ وبيتِ المَقْدسِ، والشاماتِ كلِّها، واسْتَرَجَعَ المسلمون الرُّهَا وأنْطاكيَةَ من أيْدي العَدُوِّ، وعُمِّرَتْ بغدادُ وغيرُها من البلادِ، واسْتَوْزَرَ ابنَ جَهِيرٍ، ثم أبا شُجاعٍ، ثم أعادَ ابنَ جَهِيرٍ، وقاضِيَه الدَّامَغانيُّ، ثم أبو بكرٍ الشَّاميُّ، وهؤلاءِ من خِيارِ القُضاةِ والوزَراءِ، وللَّه الحمدُ.

وفي شعبانَ أخرَجَ المُفْسِداتِ من الخواطئِ من بَغْدادَ على حُمُراتٍ يُنادينَ على أنْفُسِهنَّ بالعارِ والفَضيحةِ، وخرَّب دورَهُنَّ، وأسْكَنَهنَّ الجانبَ الغربيَّ، وخرَّب أبرجَةَ الحمامِ، ومنَع من اللَّعِبِ بها، وألْزَمَ الناسَ بالمآزرِ في الحمَّاماتِ، ومنَع أصحابَ الحمَّاماتِ أن يَصْرِفُوا فضَلاتِها إلى دِجْلَةَ، وألزمَهم بحَفْرِ آبارٍ لتلكَ المياهِ القَذِرَةِ؛ صيانةً لماءِ الشُّرْبِ.

وفي شوَّالٍ وقَعتْ نارٌ في أماكنَ متعدِّدَةٍ ببغدادَ، حتى في دارِ الخلافةِ، فأحْرَقَتْ شيئًا كثيرًا من

الدُّورِ والدَّكاكين.

ووقَع بواسِطِ حريقٌ في تسْعَةِ أماكِنَ، واحْتَرَقَ فيها أربعةٌ وثمانونَ دارًا وستَّةُ خاناتٍ، وأشياءُ كثيرةٌ غيرُ ذلك، فإنَّا للَّهِ وإنا إليه راجعون.

وفيها: عُمِلَ الرَّصَدُ للسلْطانِ مَلِكْشاه، اجْتَمَع عليه جماعة مِن أعيانِ المُنَجِّمينَ، وأَنْفَقَ عليه أموالاً كثيرةً، وبَقِيَ الرَّصَدُ دائرًا حتى ماتَ السلطانُ فبَطَلَ.

وفي ذي الحِجَّةِ أُعيدَتِ الخُطبةُ بمكةَ للمصريين وقُطِعَت خُطْبةُ العباسيين، وذلك لمَّا قَوِيَ أَمْرُ صاحبِ مِصْرَ بعدَما كان ضعيفًا بسببِ غَلاءِ بلَدِه، فلمَّا أَرْخَصَتْ تراجَعَ الناسُ إليها، وطابَ العيشُ بها، وقد كانت الخُطْبةُ العباسيَّةُ بمكةَ أربعَ سنينَ وخمسةَ أشْهرٍ، وستعودُ كما كانتْ على ما سيأتي بيانُه في مَوْضِعِه.

وفي هذا الشهرِ انْجَفَلَ أهلُ السَّوادِ مِن شدَّةِ الوَباءِ وقلَّةِ ماءِ دِجْلَةَ ونَقْصِها. وحجَّ بالناسِ الشريفُ أبو طالبٍ الحُسَيْنيُّ بنُ محمدٍ الزَّيْنَبِيُّ، وأخَذَ البيعةَ للخليفةِ المُقْتَدِي.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الخليفةُ القائمُ بأمرِ اللَّه عبدُ اللَّه[1]، وقد ذكَرْنا شيئًا مِن تَرْجَمته عندَ ذكرِ وفاته، رحمه اللَّهُ.

الداوديُّ راوي «صحيحِ البُخاريِّ»، عبدُ الرحمنِ بنُ محمدِ بنِ المُظَفَّرِ بنِ محمدِ بنِ داودَ، أبو الحسنِ ابنُ أبي طَلْحَةَ الداوديُّ[2] وُلِدَ سنةَ أربعٍ وسبعينَ وثلاثمائة، سمِعَ الكثيرَ، وتفَقَّهَ على الشيخِ أبي حامدٍ الإسفرايينيِّ، وأبي بكرٍ القَفَّالِ، وصحِبَ أبا عليٍّ الدَّقَّاقَ، وأبا عبدِ الرحمنِ السُّلَميَّ، وكتَبَ الكثيرَ ودرَّسَ وأفْتَى وصنَّفَ، ووعَظَ الناسَ، وكانت له يدٌ طُولَى في النَّظْمِ والنَّثْرِ، وكان معَ ذلك كثيرَ الذِّكْرِ، لا يَفْتُرُ لسانُه عن ذِكْرِ اللَّه تعالى، دخَل عليه يومًا الوزيرُ نِظامُ المُلْكِ فجلَس بينَ يدَيْه، فقال له الشيخُ: إن اللَّهَ قد سلَّطَكَ على عبادِه، فانظُرْ كيفَ تُجيبُه إذا سألكَ عنهم. وكانت وفاتُه ببُوشَنْجَ في هذه السنةِ وقد جاوَزَ التسعين. ومِن شعرِه قولُه:

كانَ في الاجْتِماعِ بالناسِ نورٌ ... فمَضَى النورُ وادْلَهَمَّ الظَّلامُ
فسَدَ الناسُ والزمانُ جميعًا ... فعلَى الناسِ والزمانِ السَّلامُ

أبو الحسَنِ عليُّ بنُ الحسنِ بنِ عليِّ بنِ أبي الطَّيِّبِ الباخَرْزِيُّ، الشاعرُ المَشْهورُ، اشْتَغَل أوَّلاً على الشيخِ أبي محمدٍ الجُوَيْنيِّ، ثم عدَلَ إلى الكتابةِ والشِّعْرِ، ففاقَ أقرانَه، وله ديوانٌ مشهورٌ، فمنه:

وإنِّي لأشْكُو لَسْعَ أصْداغِك التي ... عقارِبُها في وَجْنَتَيْكَ تَحُومُ
وأَبْكي لدُرِّ الثَّغْرِ منكَ ولِي أبٌ ... فكيفَ يُدِيمُ الضَّحْكَ وهْوَ يَتيمُ

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ٣٠٧-٣١٨).
(٢) ترجمته في «السير» (١٨/ ٢٢٢-٢٢٦).

ثم دخلت سنة ثمان وستين وأربعمائة

قال ابنُ الجوزيِّ: جاء جَرادٌ في شعبانَ بعدَدِ الرملِ والحصَىٰ، فأكَلَ الغلاَّتِ، وأَكْدَىٰ أكثرُ الناسِ وجاعُوا، فطُحن الخرُّوبُ بدَقيقِ الدُّخْنِ فأكَلُوه، ووقَعَ الوباءُ، ثم منَع اللهُ الجرادَ من الفسادِ، فكان يمُرُّ ولا يضُرُّ، فرخُصت الأسعارُ. قال: ووقَع غلاءٌ شديدٌ بدمشقَ واستمرَّ ثلاثَ سنين.

وفيها: ملَكَ نَصْرُ بنُ محمودِ بنِ صالحِ بنِ مرداس مدينةَ مَنْبِجَ، وأجْلَىٰ عنها الرومَ، ولله الحمدُ.

وفي ذي القَعْدَةِ من هذه السنة ملَك الأَقْسيسُ مدينةَ دِمَشْقَ، وهزَم عنها المُعَلَّىٰ بنُ حَيْدَرَةَ نائبُ المستنصرِ العُبيديِّ إلىٰ مدينة بانْيَاسَ، وخُطبَ فيها للمُقتَدي، وقُطعتْ خُطبةُ المصْرِيِّين عنها إلىٰ الآنَ، فاستَدعَىٰ المستنصرُ نائبَه فحبَسه عندَه إلىٰ أن ماتَ في السِّجْنِ.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنة مُقْطَعُ الكُوفَةِ، وهو الأميرُ خُتْلُغ بنُ كنتكينَ التركيُّ، ويُعْرَفُ بالطَّويلِ، وكان قد شرَّدَ خَفاجَةَ في البلادِ وقهَرهم، ولم يَصْحَبْ معه سوَىٰ ستَّةَ عشَرَ تُرْكيًّا، فوصَل سالمًا إلىٰ مكةَ، ولمَّا نزَل ببعضِ دُورِها كَبَسه بعضُ العبيدِ، فقتَل فيهم مَقْتَلةً عظيمةً، وهزَمهم هزيمةً شَنيعةً، ثم إنما كان ينْزِلُ بعدَ ذلك بالزاهرِ؛ قاله ابنُ السَّاعي في «تاريخه». وأُعيدَت الخُطبةُ في ذي الحِجَّة بمكةَ للعباسيِّين، وقُطعَتْ خُطبةُ المصْريين، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وممن تُوفِّي فيها من الأعيانِ:

محمدُ بنُ عليِّ بنِ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ عيسىٰ بنِ أبي موسىٰ، أبو تمامِ بنُ أبي القاسمِ ابنِ القاضي أبي عليٍّ، **الهاشميُّ،** نقيبُ الهاشميِّين، وهو ابنُ عمِّ الشَّريفِ أبي جَعْفَرِ بنِ أبي مُوسىٰ الفَقيه الحَنْبَليِّ، روَىٰ الحديثَ، وسمع منه أبو بكرِ بنُ عبدِ الباقي، ودُفنَ ببابِ حرْبٍ.

محمدُ بنُ القاسمِ بنِ حَبيبِ بنِ عَبْدُوس، أبو بكرٍ الصَّفَّارُ[(١)]، من أهلِ نَيسابُورَ؛ سمع الحاكمَ وأبا عبدِ الرحمنِ السُّلَميَّ وخَلْقًا، وتفقَّه علىٰ الشيخِ أبي محمدٍ الجُوَيْنيِّ، وكان يَخْلُفُه في حَلْقَتِه.

محمدُ بنُ محمدِ بنِ عبدِ الله، أبو الحَسَن البَيضاويُّ الشافعيُّ، خَتَنُ أبي الطَّيِّبِ الطَّبَريِّ علىٰ ابْنَتِه، سمع الحديثَ، وكان ثقةً خَيِّرًا، تُوفِّي في شعبانَ منها، وتقدَّم للصلاةِ عليه الشيخُ أبو نصرِ بنُ الصبَّاغِ، وحضَر جنازَتَه أبو عبدِ الله الدَّامَغانيُّ مأمُومًا، ودُفِنَ بدارِه في قطيعةِ الكَرْخِ.

محمودُ بنُ نَصْرِ بنِ صالحٍ، أميرُ حَلَبَ، وكان قد ملَكها في سنةِ تِسْعٍ وخمسين، وكان من أحسنِ الناسِ شكْلًا وفعْلًا.

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨).

مَسْعُودُ بنُ عبدِ العزيز بنِ المُحْسِنِ بنِ الحسَنِ بنِ عبدِ الرَّزَّاقِ، أبو جَعْفَرٍ البَياضيُّ الشاعرُ، ومِن شِعْرِه:

لَيسَ لي صاحبٌ مُعينٌ سوىٰ اللَّيـ ... ـلِ إذا طالَ بالصُّدودِ عليَّا
أنا أشكُو بُعْدَ الحبيبِ إليه ... وَهْوَ يَشكُو بُعْدَ الصَّباحِ إليَّا

وله أيضًا:

يا مَنْ لَبِسْتُ لهجْرِه ثوبَ الضَّنىٰ ... حتىٰ خَفِيتُ به عن العُوَّادِ
وأنِسْتُ بالسَّهرِ الطويلِ فأُنْسِيَتْ ... أجفانُ عَيْني كيفَ كانَ رُقادي
إنْ كانَ يُوسُفَ بالجمالِ مُقَطِّعَ الـ ... ـأيدي فأنتَ مُفَتِّتُ الأكْبادِ

الواحِديُّ المفَسِّرُ

أبو الحسنِ عليُّ بنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ مَتُّويَه الواحديُّ، قال ابنُ خَلِّكانَ: لا أدْري هذه النسبةُ إلىٰ ماذا، وهو صاحبُ التفاسيرِ الثلاثةِ: «البَسِيط»، و«الوَسِيط»، و«الوَجِيز». قال: ومنه أخَذ الغَزّاليُّ أسماءَ كتُبِه. قال: وله «أسبابُ النزول»، و«التَّحْبيرُ في شَرْحِ الأسْماءِ الحُسْنىٰ»، وقد شرَح «ديوانَ المُتَنَبِّي» وليسَ في شُروحِه -مع كثرَتِها- مثلُه. قال: وقد رُزِقَ السعادةَ في تصانيفِه، وأجْمَعَ الناسُ علىٰ حُسْنِها وذكَرها المُدَرِّسُون في دُروسِهم، وقد أخَذ التَّفْسيرَ عن الثَّعالبيِّ، وقد مرِض الواحديُّ مُدَّةً، ثم كانتْ وفاتُه بنَيْسابُورَ في جُمادَىٰ الآخرةِ من هذه السنة.

ناصرُ بنُ محمدِ بنِ عليٍّ، أبو منصورٍ التُّرْكيُّ المضافريُّ، وهو والدُ الحافظِ محمدِ بنِ ناصرٍ، قرَأ القراءاتِ، وسمِع الكثيرَ، وهو الذي تولَّىٰ قِراءةَ «التاريخ» علىٰ الخطيبِ بجامعِ المنْصُورِ، وكان ظريفًا صَبِيحًا، ماتَ شابًّا دونَ الثلاثين سنةً في ذي القَعْدَةِ منها، وقد رثاه بعضُهم بقصيدةٍ طويلةٍ أوْرَدَها كلَّها ابنُ الجَوْزيِّ في «المُنْتَظَم».

يُوسُفُ بنُ محمدِ بنِ يُوسُفَ بنِ الحسنِ، أبو القاسمِ الهَمَذانيُّ، سمِع وجمَع وصنَّفَ، وانْتَشَرتْ عنه الروايةُ، وكانت وفاتُه في هذه السنَةِ وقد قارَب التسعين.

ثم دخلت سنة تسع وستين وأربعمائة

في المحرم مرض الخليفة مرضًا شديدًا فأرجف الناس به، فركب حتىٰ رآه الناس جَهرة فسكنوا.

وفي جُمادَىٰ الآخرةِ زادَتْ دِجْلَةُ زيادةً كثيرةً؛ إحْدىٰ وعشرين ذراعًا ونصْفًا، فنقَل الناسُ أموالَهم، وخِيفَ علىٰ دارِ الخلافةِ، فنُقِلَ تابوتُ القائمِ بأمرِ اللَّه ليلاً إلىٰ التُّرَبِ بالرُّصافَةِ.

وفي شوَّالٍ وقَعت الفتنةُ بينَ الحنابلَةِ والأشْعَريَّةِ؛ وذلك لأنَّ ابنَ القُشَيْريِّ قَدِمَ بغدادَ فجلَس يتكلَّمُ في المدرسةِ النِّظاميَّةِ، وأخَذ يَذُمُّ الحنابلةَ ويَنْسُبُهم إلىٰ التَّجْسيمِ، وساعدَه أبو سعدٍ الصُّوفيُّ، ومال معه الشيخُ أبو إسْحاقَ الشِّيرازيُّ، وكتَب إلىٰ نظامِ المُلْكِ يَشْكُو إليه الحنابلَةَ ويَسْألُه المعُونَةَ، وذهَب

جماعةٌ إلى الشَّريفِ أبي جَعْفَرِ بنِ أبي موسى شيخِ الحنابلة وهو في مَسْجدِه، فدافَع عنه آخرونَ، وقُتِل رجلٌ خياطٌ مِن سُوقِ الثلاثاء، وجُرِح آخرونَ، وثارَت الفتنةُ، وكتَب الشيخُ أبو إسحاقَ، وأبو بكرٍ الشَّاشيُّ إلى نظامِ المُلْكِ، فجاء كتابُه إلى فخرِ الدولة يُنْكِرُ ما وقَع، ويكرَهُ أن يُنسَبَ إلى المدرسة التي بناها شيءٌ من ذلك، وعزَم الشيخُ أبو إسحاقَ على الرِّحلة مِن بغدادَ؛ غضبًا مما وقَع مِن الشرِّ، فأرْسَلَ إليه الخليفةُ يُسكِّنُه، ثم جمَع بينَه وبينَ الشريفِ أبي جَعْفَرٍ، وأبي سَعْدٍ الصُّوفيِّ، وأبي نَصْرِ ابنِ القُشَيْريِّ عندَ الوزيرِ، فأقْبَلَ الوزيرُ على أبي جعفرٍ يُعَظِّمُه في الفعَالِ والمَقَالِ، وقام إليه الشيخُ أبو إسْحَاقَ فقال: أنا ذلك الذي كنتَ تَعْرِفُه وأنا شابٌّ، وهذه كُتُبي في الأُصولِ، أقولُ فيها خلافًا للأشْعَرِيَّة. ثم قَبَّلَ رأسَه، فقال له أبو جعفرٍ: صدَقْتَ، إلا أنك لما كنتَ فقيرًا لم تُظْهِرْ لنا ما في نَفْسِك، فلمَّا جاءَ الأعْوانُ والسلطانُ وخَواجا بُزُرْكُ - يَعْني نظامَ المُلْكِ - أبْدَيْتَ ما كان مُخْتَفِيًا في نَفْسِكَ. وقام الشيخُ أبو سعدٍ الصوفيُّ فقبَّل رأسَ الشريفِ أبي جعفرٍ أيضًا وتلَطَّفَ به، فالْتَفَتَ إليه مُغْضَبًا وقال: أيُّها الشيخُ، أمَّا الفقهاءُ إذا تكلَّموا في مسائلِ الأُصولِ فلهم فيها مدْخَلٌ، وأمَّا أنتَ فصاحبُ لَهْوٍ وسماعٍ وتَغْبِيرٍ، فمَنْ زاحَمَكَ منَّا على باطِلِك؟ ثم قال: أيُّها الوزيرُ، أيُّ صُلْحٍ بيْنَنا، ونحنُ نُوجِبُ ما نَعْتَقِدُه وهم يُحرِّمونَ؟! وهذا جَدُّ الخليفةِ القائمُ والقادرُ، قد أظْهَرا اعْتِقادَهما للناسِ على مَذْهَبِ أَهْلِ السنة والجماعةِ والسَّلَفِ، ونحنُ على ذلك، كما وافَقَ عليه العِراقيُّونَ والخُراسانيُّونَ، وقُرِئَ على الناسِ في الدَّواوينِ كلِّها. فأَرْسَلَ الوزيرُ إلى الخليفةِ يُعْلِمُه بما جرَى، فجاءَ الجوابُ بشُكْرِ الجماعةِ وخُصوصًا الشَّريفَ أبا جعفرٍ، ثُم استَدعِي إلى دارِ الخلافةِ للسلامِ عليه، والتَّبَرُّكِ بدُعائه.

قال ابنُ الجَوْزِيِّ: وفي ذي القَعْدَةِ كَثُرَت الأمراضُ في الناسِ ببَغْدادَ وواسِطٍ والسَّوادِ، ووَرَد الخبرُ بأنَّ الشامَ كذلك.

وفي هذا الشهرِ أُزِيلَت المُنْكَرَاتُ والبَغايا ببغدادَ، وهرَب الفُسَّاقُ منها.

وفيها: ملَكَ حَلَبَ نصرُ بنُ محمودِ بنِ مِرْداسٍ بعدَ وفاة أبيه.

وفيها: تزوَّجَ الأميرُ عليُّ بنُ أبي مَنْصورِ بنِ فرامَرْزَ بنِ علاءِ الدولةِ بنِ كالَوَيْهِ السِّتَّ أرْسَلانَ خاتونَ بنتَ داودَ عمَّةَ السُّلْطانِ مَلَكْشاه، وكانتْ زوجةَ القائمِ بأمرِ اللَّهِ.

وفيها: حاصَرَ الأقسيسُ صاحبُ دمشقَ مصْرَ، وضيَّق على صاحبِها المُسْتَنْصِرِ باللَّهِ، ثم كَرَّ راجعًا إلى دِمشقَ، وحجَّ بالناسِ فيها الأميرُ خُتْلُغ التُّرْكيُّ، مُقْطَعُ الكُوفَةِ.

وممن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

أَسْبَهْدُوستُ بنُ محمدِ بنِ الحسنِ، أبو مَنْصُورٍ الدَّيْلَميُّ الشاعرُ، لَقِي أبا عبدِ اللَّهِ بنَ الحجَّاجِ،

وعبدَ العزيزِ بنَ نُباتَةَ، وغيرَهما مِن الشعراءِ، وكان شيعيًّا فتابَ، وقال قصيدةً في ذلك منها:

وإذا سُئلتُ عن اعتقادي قلتُ ما ... كانتْ عليه مذاهبُ الأبرارِ
وأقولُ خيرُ الناسِ بعدَ محمدٍ ... صِدِّيقُهُ وأنيسُهُ في الغارِ
ثم الثلاثةُ بَعْدَهُ خَيْرُ الورَىٰ ... أكْرِمْ بهِمْ مِن سادةٍ أطْهارِ
هذا اعتقادي والذي أرْجُو به ... فوزي وعِتْقي مِن عذابِ النّارِ

طاهرُ بنُ أحمدَ بنِ بابَشاذَ، أبو الحسَنِ المصريُّ النَّحْويُّ، سقطَ مِن سَطْحِ جامعِ عمرِو بنِ العاصِ بمصرَ، فماتَ مِن ساعته، وذلك في رجبٍ مِن هذه السنة.

قالَ القاضي ابنُ خَلِّكانَ: كان بمصرَ إمامَ عصرِه في النَّحْوِ، وله المصنَّفاتُ المفيدةُ، مِن ذلك «مُقَدِّمَتُه» و«شَرْحُها» و«شَرْحُ الجُمَلِ» للزَّجَّاجِي. قال: وكانتْ وظيفتُه بمصرَ أنه لا تُكْتَبُ الرسائلُ في ديوانِ الإنشاءِ إلا عُرِضَتْ عليه، فيُصْلِحُ منها ما فيه خَلَلٌ، ثم تُنْفَذُ إلىٰ الجهةِ التي عُيِّنَتْ لها، وكان له علىٰ ذلك مَعْلُومٌ وراتبٌ جَيِّدٌ. قال: فاتَّفَق أنه كان يأكُلُ يومًا مع بعضِ أصحابِه طعامًا، فجاءَ قطٌّ فرمَوا له شيئًا، فأخَذه وذهَب سريعًا، ثم أقْبَلَ فرمَوا له شيئًا آخرَ، فانطَلَقَ به سريعًا، ثم جاءَ فرمَوا له شيئًا أيضًا، فعلِموا أنه لا يأكُلُ هذا كلَّه، فتَتَبَّعُوه فإذا هو يَذْهَبُ به إلىٰ قطٍّ آخرَ أعْمَىٰ في سَطْحٍ هناك، فتعجَّبُوا مِن ذلك، فقال الشيخُ: يا سُبْحانَ اللَّهِ! هذا حيوانٌ بَهِيمٌ قد ساقَ اللَّهُ إليه رِزْقَه علىٰ يَدِ غيرِه، أفلا يَرْزُقُني وأنا عَبْدُه. ثم ترَك ما كانَ له مِن الراتبِ وجمَع حَواشيَه وأقْبَلَ علىٰ الاشْتغالِ والمُلازَمةِ في غُرْفَةٍ في جامعِ عمرِو بنِ العاصِ، إلىٰ أنْ ماتَ وقد جمَع تَعْليقةً في النحوِ قريبًا مِن خَمْسةَ عشَرَ مُجلَّدًا، فأصْحابُه كابْنِ بَرِّيٍّ وغيرِه يَنْقُلُونَ منها ويَنْتفعُونَ بها، ويُسَمُّونَها «تَعْليقَ الغُرْفَةِ».

عبدُ اللَّهِ بنُ محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ بنِ أحمدَ بنِ المُجَمِّعِ بنِ مُجيبِ بنِ محمدِ بنِ بَحْرِ بنِ مَعْبَدِ بنِ هَزَارْمَرْدَ، أبو محمدٍ الصَّرِيفِينيُّ، ويُعْرَفُ بابنِ المُعَلِّمِ، أحدُ مشايخِ الحديثِ المُسْندين المشْهُورين، تفرَّد عن جماعةٍ مِنَ المشايخِ لطُولِ عُمرِه، وهو آخرُ مَن حدَّث بالجَعْدِيَّاتِ، عن ابنِ حَبابةَ، عن أبي القاسمِ البَغَوِيِّ عن عليِّ بنِ الجَعْدِ، وهو سماعُنا، ورحَل إليه الناسُ بسببِه، وسمعَ عليه جماعةٌ مِن الحفاظِ؛ منهم الحافظُ أبو بكرٍ الخطيبُ، وكان ثقةً محمودَ الطريقةِ، صافيَ الطَّوِيَّةِ، تُوُفِّي بصَرِيفِين في جُمادَىٰ الأولَىٰ مِن هذه السنةِ عن خمسٍ وثمانين سنةً.

حيَّانُ بنُ خَلَفِ بنِ حُسَيْنِ بنِ حيَّانَ بنِ محمدِ بنِ حيَّانَ بنِ وَهْبِ بنِ حيَّانَ، أبو مَرْوانَ القُرْطُبِيُّ، مَوْلَىٰ بني أُمَيَّةَ، صاحبُ «تاريخِ المَغْرِبِ» في سِتِّينَ مُجلَّدًا، أثْنَىٰ عليه الحافظُ أبو عليٍّ الغَسَّانيُّ في فصاحتِه وصِدْقِه وبلاغتِه. وقال: وسمِعْتُه يقولُ: التَّهْنِئَةُ بعدَ ثلاثٍ اسْتِخْفافٌ بالمَوَدَّةِ، والتَّعْزِيَةُ بعدَ ثلاثٍ إغْراءٌ بالمُصيبَةِ.

قالَ ابنُ خَلِّكانَ: تُوُفِّي في ربيعٍ الأوَّلِ منها، ورآه بعضُهم في النومِ فسأَله عن حالِه، فقالَ: ما فعَل اللَّهُ بك. فقال: غفَر لي، وأما «التاريخُ» فنَدِمْتُ عليه، لكنَّ اللَّهَ بلُطْفِه أقَالَني وعفَا عنِّي.

عُبيدُ اللَّه بنُ سعيد بن حاتم، أبو نَصْر السِّجْزيُّ الوائليُّ[1]؛ نِسْبَةً إلى قرية يُقالُ لها: وائلُ، مِن قُرَىٰ سِجِسْتانَ. سمع الكثيرَ، وجمَع وصنَّفَ وخرَّجَ، وأقام بالحَرَم، وله كتابُ «الإبانَة» في الأُصول، وله يدٌ في الفُروع أيضًا. ومِن الناسِ مَن كان يُفَضِّلُه في الحِفْظ على الصُّوريِّ.

محمدُ بنُ عليِّ بن الحُسَيْن، أبو عبد اللَّه الأنْماطيُّ، المعروفُ بابنِ سكِّينَةَ، وُلد سنةَ تسعين وثلاثمائة، وكان كثيرَ السماع، وكانت وفاتُه في هذه السنةِ عن تِسْعٍ وسَبْعين سنةً.

ثم دخلت سنة سَبْعين وأربعمائة من الهجرة النبوية

قال ابنُ الجَوْزيِّ: في ربيع الأوَّل وقَعتْ صاعقةٌ بمَحَلَّة التُّوثَة مِن الجانب الغربيِّ، على نَخْلتَيْن في مسجدٍ فأحرَقَتْ أعاليَهما، وصَعِدَ الناسُ فأطفَئوا النارَ، ونزَلوا بالسَّعَف وهو يشتعِلُ نارًا. قال: وورَد كتابٌ مِن نظام المُلك إلى الشيخ أبي إسحاقَ الشِّيرازيِّ في جواب كتابه إليه في شأن الحنابلة، ثم سَرَده ابنُ الجَوْزيِّ، ومضْمونُه أنه لا يمكنُ تغييرُ المذاهب ولا نقلُ أهلها عنها، والغالبُ على أهلِ تلك الناحية هو مذهبُ الإمام أحمدَ، ومحلُّه معروفٌ عندَ الأئمة، وقَدْرُه معلومٌ في السُّنَّة. في كلام طويل.

قال: وفي شوَّالَ منها وقَعتْ فتنةٌ بينَ الحنابلة وبينَ بعضِ فقهاء النِّظاميَّة، وحَمِيَ لكلٍّ مِن الفريقَين طائفةٌ مِن العوامِّ، وقُتِل بينَهم نحوٌ مِن عشرين قتيلاً، ثم سكَنت الفتنةُ.

قال: وفي تاسعَ عشَرَ شوالٍ وُلِد للخليفة المُقتَدِي ولَدُه المستظهِرُ باللَّه أبو العباسِ أحمدُ، وزُيِّن البلدُ، وجلَس الوزيرُ للهناء، ثم في يوم الأحَد السادسِ والعشرين من شوالٍ وُلِدَ للخليفة ولدٌ آخرُ، أبو محمد هارونُ.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: وفيها وَلِي تاجُ الدولة تُتُشُ بنُ ألب أرسلانَ الشامَ وحاصَر حَلَب.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنة مُقْطَعُ الكُوفة خُتْلُغ، وذكَر ابنُ الجوزيِّ أن الوزيرَ ابنَ جَهِير كان قد عمِل مِنْبَرًا هائلاً لتُقامَ عليه الخُطبةُ بمكةَ، فحينَ وصَل إليها إذ الخطبةُ قد أُعيدَتْ للمصريِّين، فكُسرَ ذلك المِنبَرُ وأُحْرِق. واللَّهُ أعلمُ.

ومِمن تُوفِّيَ فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ محمد بن أحمدَ بن يَعْقُوبَ، ابنُ حُمْدُوه، أبو بكر الرَّزازُ المُقرئُ، آخرُ مَن حدَّث عن أبي الحُسَيْن بن سَمْعُونَ، وقد كان ثقة مُتَعَبِّدًا حسنَ الطريقة، كتَب عنه الخَطيبُ، وقال: كان صَدُوقًا. تُوُفي في هذه السنة عن تِسع وثمانين سنةً، رحِمه اللَّهُ تعالىٰ.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٧/ ٦٥٤ـ٦٥٧).

أحمدُ بنُ محمد بن أحمدَ بن عبدِ اللَّه، أبو الحسين بنُ النَّقُور البَزَّازُ، أحدُ المُسْنِدين المُعَمَّرين، تفرَّد بنُسَخٍ كثيرةٍ عن ابنِ حَبَابَةَ، عن البَغَوِيِّ، عن أشياخه؛ كنُسْخَةِ هُدْبَةَ، وكاملِ بنِ طَلْحَةَ، وعمرَ بنِ زُرارَةَ، وأبي السَّكنِ البلديِّ، وكان مُكثِرًا متحريًّا، وكان يأخُذُ على إسْماعِ حديثِ طالوتَ بنِ عَبَّادٍ دينارًا، وقد أفتاه الشيخُ أبو إسحاقَ الشِّيرازيُّ بجَوازِ أخذِ الأُجرةِ على إسماعِ الحديثِ؛ لاشتغاله به عنِ الكَسْبِ. تُوُفِّي عن تِسْعٍ وثمانين سنةً، رحمه اللَّهُ تعالى.

أحمدُ بنُ عبدِ الملك بنِ عليِّ بنِ أحمدَ، أبو صالحٍ المؤذِّنُ النَّيسابُوريُّ الحافظُ، كتَبَ الكثيرَ وجمَعَ وصنَّفَ، وكتَبَ عن ألفِ شيخٍ ألفَ حديثٍ، وكان يعظُ ويؤذِّنُ، مات وقد جاوَزَ الثمانين.

عبدُ اللَّه بنُ الحسَنِ بنِ عليِّ بنِ محمد بنِ الحسنِ، أبو القاسمِ بنُ أبي محمدٍ الخلاَّلُ، آخرُ مَن حدَّث عن أبي حَفْصٍ الكتَّانيِّ، وقد سمع الكثيرَ، وروَى عنه الخطيبُ ووثَّقَه، تُوفِّي عن خمسٍ وثمانين سنةً، ودُفِن ببابِ حَرْبٍ، رحمه اللَّهُ تعالى.

عبدُ الرحمن - ابنُ مَنْدَه - بنُ محمد بن إسحاقَ بن محمد بن يَحْيَى بنِ إبْراهيمَ، أبو القاسم بنُ أبي عبدِ اللَّه، الإمامُ ابنُ الإمامِ، سمع أباه، وابنَ مرْدَوَيْه، وخلقًا في أقاليمَ شتَّى، سافَرَ إليها، وجمَعَ شيئًا كثيرًا، وكان ذا وقارٍ وسَمْتٍ حسَنٍ، واتِّباعٍ للسنة وفَهْمٍ جيِّدٍ، كثيرَ الأمرِ بالمعْروفِ والنهيِ عن المنكرِ، لا يخافُ في اللَّه لوْمَةَ لائمٍ، وكان سعدُ بنُ محمدٍ الزَّنْجَانيُّ يقولُ: حفظَ اللَّهُ الإسلامَ به، وبعبدِ اللَّه الأنصاريِّ الهَرَوِيِّ. تُوفِّي ابنُ مَنْدَه هذا بأصْبهانَ عن سبعٍ وثمانين سنةً، وحضَر جنازَتَه خلقٌ كثيرٌ لا يعلَمُهم إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ، رحمه اللَّهُ تعالى.

عبدُ الملك بنُ عبد الغفارِ بنِ محمد بنِ المُظفَّرِ بنِ عليٍّ، أبو القاسمِ الهَمَذانيُّ، أحدُ الحفَّاظ الفقهاءِ الأولياءِ، وكان يُلَقَّبُ بُنْجِيرَ، وقد سمع الكثيرَ، وكان يكتُبُ للطلبَةِ ويقرأُ لهم، تُوفِّي بالرَّيِّ في المحرَّم من هذه السنة، ودُفِنَ إلى جانبِ إبراهيمَ الخوَّاصِ.

الشَّريفُ أبو جَعْفَرٍ الحَنْبَلِيُّ، عبدُ الخالق بنُ عيسى بنِ أحمدَ بنِ محمد بنِ عيسى بنِ أحمدَ بنِ إبراهيمَ ابنِ عبدِ اللَّه بنِ مَعْبَدِ بنِ العبَّاسِ بنِ عبد المطلب الهاشميُّ، ابنُ أبي موسى الحَنبليُّ العبَّاسيُّ، كان أحدَ الفقهاءِ العلماءِ العبَّادِ الزهَّادِ المشهورين بالدِّيانة والفضلِ والعبادَة والقيامِ في الأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكرِ، لا تأخُذُه في اللَّه لَوْمَةُ لائمٍ، وُلِد سنةَ إحدَى عشْرةَ وأربعمائة، واشْتَغل على القاضي أبي يَعْلَى ابنِ الفَرَّاءِ، وزكَّاه شيخُه عندَ ابنِ الدَّامَغَانيِّ فقبِله، ثم ترَك الشَّهادةَ بعدَ ذلك، وكان مشهورًا بالصَّلاحِ والديانة، وحينَ احتُضِر الخليفةُ القائمُ بأمرِ اللَّه أوصَى أن يغسِّلَه الشريفُ أبو جعفرٍ، وأوْصَى له بشيءٍ جزيلٍ، فلم يقبَلْ مِن ذلك شيئًا.

وحينَ وقَعت الفتنةُ بينَ الحنابلة والأشعَريَّةِ بسبَبِ ابنِ القُشَيْرِي اعتُقِلَ هو في دارِ الخلافة مُكرَّمًا مُعَظَّمًا، يدخُلُ عليه الفقهاءُ وغيرُهم، ويقبِّلون يدَه ورأسَه، ولم يزَلْ هنالك حتى اشتكَى، فأُذِن له في المسيرِ إلى أهلِه، فتُوفِّي عندَهم ليلةَ الخميسِ النصفَ من صفَرٍ من هذه السنةِ، ودُفِن إلى جانبِ الإمامِ أحمدَ، فاتَّخذَت العامَّةُ قبرَه سُوقًا كلَّ ليلةِ أربعاءَ يتردَّدون إليه ويقرءون الختَماتِ عندَه حتى جاءَ الشتاءُ، وكان جملةُ ما قُرِئَ عندَه عشَرةَ آلافِ ختْمةٍ من كثرةِ القراءةِ عليه، رحِمه اللَّهُ تعالى.

محمدُ بنُ محمدِ بنِ محمدِ بنِ عبدِ اللَّه، أبو الحسَنِ البَيْضاويُّ، أحدُ الفقهاءِ الشافعيِّين، وتولَّى القضاءَ بربعِ الكَرْخِ، ودُفِن عندَ والدِه، رحِمهما اللَّهُ تعالى.

* * *

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وأربعمائة

فيها ملَك السلطانُ الملكُ المُظَفَّرُ تاجُ الملوكِ تُتُشُ بنُ ألْبِ أرْسَلانَ السَّلْجُوقيُّ دمَشقَ، وقتَل ملكَها أَقْسِيسَ، وذلك أن أقسيسَ بعَثَ إليه يستَنْجِدُه على المصريين، فلمَّا وصَل إليه لم يركَبْ لتلقِّيه، فأمَرَ بقتله فقُتِل لساعته.

وفيها عُزِل الوزيرُ ابنُ جَهِيرٍ بإشارةِ نظامِ المُلْكِ، بسبَبِ ممالأتِه على الشافعيَّةِ، ثم كاتَب المُقتدي نظامَ الملكِ في إعادتِه، فأُعيدَ ولدُه وأُطلِقَ هو.

وفيهـا: قدم سعدُ الدولةِ كُوهْرائينُ أميرًا إلى بغدادَ، وضُرِبَت الطبولُ على بابه في أوقاتِ الصلواتِ، وأساءَ الأدبَ على الخلافة، وضرَب طوالاتِ الخيولِ على بابِ الفِرْدَوْسِ، فكُوتِبَ السلْطانُ في أمرِه، فجاءَ الكتابُ من السلطانِ بالإنكارِ عليه.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ الأميرُ مُقْطَعُ الكوفةِ خُتْلُغ التُّرْكيُّ، أثابَه اللَّهُ.

وممن تُوفِّيَ فيها من الأعيان:

سعدُ بنُ عليِّ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ الحُسَيْنِ، أبو القاسمِ الزَّنْجَانيُّ، رحَل إلى الآفاقِ، وسمع الكثيرَ، وكان إمامًا حافظًا متعبِّدًا ورعًا، ثم انْقَطَع في آخرِ عُمرِه بمكَّةَ، وكان الناسُ يتَبَرَّكُون به، قال ابنُ الجوزيِّ: ويُقَبِّلُون يدَه أكثرَ مما يقبِّلُون الحجرَ الأسْوَدَ.

سليمٌ الحَوْريُّ، نسبَةً إلى قريةٍ من قُرَىٰ دُجَيلٍ، كان عابدًا زاهدًا يقالُ: إنه مكَث مُدَّةً يتقوَّتُ كلَّ يومٍ بزَبِيبَةٍ. وقد سمع الحديثَ وقُرِئَ عليه، رحمه اللَّهُ.

عبدُ اللَّهِ بنُ سبعُونَ، أبو أحمدَ الفقيهُ المالكيُّ القَيْرَوانيُّ، تُوفِّي ببَغْدادَ ودُفِنَ ببابِ حَرْبٍ، واللَّهُ سُبْحانَه وتعالَىٰ أعلمُ.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين وأربعمائة

فيها: ملَك إبراهيمُ بنُ مسعودِ بنِ محمودِ بنِ سُبُكْتَكِينَ - صاحبُ غَزْنَةَ - قلاعًا كثيرةً حَصِينةً من بلادِ الهندِ، ثم عادَ إلى بلادِه سالمًا غانمًا.

وفيها: وُلِد الأميرُ أبو جَعْفَرٍ بنُ المُقْتَدي بأمرِ اللَّهِ، وزُيِّنَتْ له بَغْدَادُ.

وفيها: ملَك صاحبُ الموْصِلِ الأميرُ شَرَفُ الدولةِ مسلمُ بنُ قُرَيْشِ بنِ بَدْرانَ العَقيليُّ بعدَ وفاةِ أبيه.

وفيها: ملَك منصورُ بنُ مَرْوانَ ديارَ بكرٍ بعد أبيه.

وفيها: أمَرَ السلطانُ بتَغْريقِ ابنِ عَلَّانَ اليهوديِّ ضامنِ البَصْرَةِ، وأخَذ من ذخائرِه أربَعَمائةِ ألفِ دينارٍ، فضمنَ خُمارتَكينُ البَصْرةَ بمائةِ ألفِ دينارٍ ومائةِ فرَسٍ في كلِّ سنةٍ.

وفيها: فتَح عُبَيْدُ اللَّهِ بنُ نظامِ المُلكِ تَكْرِيتَ.

وحجَّ بالناسِ خُتْلُغ التركيُّ، وقُطِعتْ خُطبةُ المصريِّين بمَكَّةَ، وخُطِبَ فيها للمُقْتَدِي وللسلطان مَلِكْشَاه السَّلْجُوقيِّ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

عبدُ الملك بنُ الحسَنِ بن أحمدَ بن حَيْرُونَ، أبو نَصْرٍ، سمع الكثيرَ، وكان زاهدًا عابدًا، يسْرُدُ الصومَ، ويختِمُ في كلِّ ليلةٍ خَتْمَةً، رحمه اللَّهُ.

محمدُ بنُ محمد بن أحمدَ بن الحُسَيْنِ بن عبد العزيز بن مِهْرانَ العُكْبَرِيُّ، سمع هلالاً الحَفَّارَ، وابنَ رَزْقُوَيْه، والحمَّاميَّ، وغيرَهم، وكان فاضلاً جيدَ الشعرِ، فمن شعرِه قولُه:

أطِيلُ تَفَكُّرِي في أيِّ ناسٍ ... مَضَوا قِدْمًا وفِيمَنْ خلَّفُونا
همُ الأحياءُ بعدَ الموتِ ذِكْرًا ... ونحن منَ الخُمولِ الميِّتُونا

تُوفِّي في رمضانَ من هذه السنة، وله تسعون سنةً.

هَيَّاجُ بنُ عُبَيد الحِطِّينيُّ الشاميُّ، سمع الحديثَ، وكان أَوْحَدَ زمانه زُهْدًا، وفقْهًا، واجْتهادًا في العبادة، أقامَ بمَكَّةَ مُدَّةً يُفْتِي أهلَها ويَعْتَمِرُ في كلِّ يومٍ ثلاثَ مرَّاتٍ على قَدَمَيْه، ولم يَلْبَسْ نَعْلاً مُذْ أقامَ بمَكَّةَ، وكان يزورُ قَبْرَ رسول اللَّه ﷺ مع أهلِ مَكَّةَ ماشيًا حافيًا، وكذلك كان يزورُ قبرَ ابنِ عباسٍ بالطائف، وكان لا يَدَّخِرُ شيئًا، ولا يَلْبَسُ إلا قميصًا واحدًا، ضربَه بعضُ أمراءِ مَكَّةَ في بعضِ فِتَنِ الرَّوافضِ، فاشْتَكَى أيامًا، ومات وقد نَيَّفَ على الثمانين، رحمه اللَّهُ.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة

فيها: اسْتَوْلَى تُكُشُ أخو السلطان مَلِكْشاه على بعضِ خُراسَانَ. وفيها أُذِنَ للوُعَّاظ في الجلوسِ، وكانوا قد مُنِعُوا من وقت فتنة ابن القُشَيْرِيِّ. وفيها قُبِضَ على جماعةٍ من الفِتْيان كانوا قد جَعَلُوا عليهم رئيسًا يُقالُ له: عبدُ القادر الهاشميُّ، وقد كاتَبُوه من الأقطارِ، وكان السَّاعي له رجلاً يُقالُ له: ابنُ رسولٍ. وكانوا يَجْتَمِعون عندَ جامعِ بَرَاثَا، فخِيفَ من أمرهم أن يكُونوا مُمالِئين للمصْرِيِّين، فأُمِرَ بالقَبْضِ عليهم. وحجَّ بالناسِ خُتْلُغ التركيُّ. واللَّهُ أعلمُ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ محمد بن عمرَ بن محمد بن إسماعيلَ، أبو عبد اللَّه بنُ الأخْضَرِ المحدِّثُ، سمع عليَّ بنَ شاذانَ، وكان على مذهبِ الظاهريَّةِ، وكان كثيرَ التِّلاوةِ حسَنَ السِّيرةِ، متقللاً من الدنيا قَنُوعًا، رحمه اللَّهُ.

الصُّلَيْحيُّ المُتَغَلِّبُ على اليمن، أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمد بن عليٍّ، المُلَقَّبُ بالصُّلَيْحيِّ، كان أبوه قاضيًا باليمنِ، وكان سُنِّيًّا، ونشأ هذا فتعلَّمَ العلمَ وبرَعَ في أشياءَ كثيرةٍ من العُلومِ، وكان شيعيًّا على

مذهب القرامطة، ثم كان يدلُّ بالحجيج مدةَ خمسَ عشرةَ سنةً، وكان قد اشتهر أمرُه بينَ الناس أنَّه سيملكُ اليمنَ، فنجم ببلاد اليمن بعدَ قتله نَجاحًا صاحبَ تهامَةَ، واستحوذَ على بلاد اليمن بكمالها في أقصرِ مدةٍ، واستوسقَ له المُلْكُ بها سنةَ خمسٍ وخمسينَ، وخطب للمستنصر العُبَيْديِّ صاحب مصرَ، فلمَّا كان في هذا العام خرجَ إلى الحجِّ في ألفَيْ فارسٍ، فاعترضَه سعيدُ بنُ نَجاحٍ بالمَوْسمِ، في نفرٍ يسيرٍ، فقاتَلهم فقُتِلَ هو وأخوه واستحوذَ سعيدُ بنُ نجاح على مملكته وحواصلِه، ومن شعر الصليحيِّ هذا قولُه:

أنكَحْتُ بيضَ الهند سمرَ رماحِهمْ فرءُوسُهُمْ عوضُ النِّثارِ نثارُ
وكذا العُلا لا يُسْتَباحُ نكاحُها إلا بحيثُ تُطَلَّقُ الأعمارُ

محمدُ بنُ الحُسَيْن بن عبد الله بن أحمدَ بن يُوسُفَ بن الشِّبْل، أبو عليٍّ الشاعرُ البَغْداديُّ، أسندَ الحديثَ، وله الشعرُ الرائقُ، فمنه قولُه:

لا تُظهِرَنَّ لعاذلٍ أو عاذرٍ حالَيْكَ في السَّرَّاء والضَّرَّاءِ
فلرَحْمَةِ المتوجِّعينَ مرارةٌ في القلب مثلُ شماتةِ الأعداءِ

وله أيضًا:

يُفْني البخيلُ بجَمْعِ المال مدَّتَهُ وللحوادثِ والوُرَّاثِ ما يدَعُ
كدودة القَزِّ ما تَبْنيه يخنُقُها وغيرُها بالذي تَبْنيه ينتفِعُ

يوسفُ بنُ الحسن بن محمد بن الحسن، أبو القاسم التَّفَكُّرِيُّ، من أهلِ زَنْجانَ، وُلد سنة خمسٍ وتسعينَ وثلاثمائةٍ، وتفقَّه على مذهب الشافعيِّ، ودرس الفقهَ على الشيخ أبي إسحاقَ الشِّيرازيِّ، وكان من أكبر تلامذته، وكان عابدًا ورعًا خاشعًا، كثيرَ البُكاء عندَ الذِّكْر، مُقْبِلاً على العبادة، وكانت وفاتُه في هذه السنة وقد قاربَ الثمانين.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وأربعمائة

فيها: وَلِيَ أبو كامل، منصورُ بنُ نُورِ الدَّوْلة دُبَيْسٍ ما كان يَلِيه أبوه من الأعمال، وخلَع عليه السلطانُ والخليفةُ. وفيها ملَكَ شرَفُ الدَّوْلة مُسْلمُ بنُ قُرَيْشٍ حَرَّانَ، وصالَح صاحبَ الرُّها. وفيها فتح تُتُشُ بنُ ألب أرْسلانَ صاحبُ دمشقَ مدينةَ أنْطَرْطُوسَ. وفيها أرسلَ الخليفةُ ابنَ جَهيرٍ إلى السلطان ملكشاه يَخْطُبُ له ابنَتَه عنه، فأجابت أمُّها إلى ذلك، بشرْط أن لا يكونَ له زوجةٌ ولا سُرِّيَّةٌ سواها، وأنْ يكونَ مَبِيتُه عندَها، فوقع الشرْطُ على ذلك.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

داودُ بنُ السُّلْطان ملكشاه، فوجَد عليه أبوه وَجْدًا عظيمًا، بحيثُ إنه كادَ - أو هَمَّ - أن يَقْتُلَ نفسَه،

فمنعَه الأُمراءُ من ذلك، وانتقَل إلى غيرِ ذلك البلدِ، وأمَر النساءَ بالنَّوْحِ عليه، ولمَّا وصَل الخبرُ إلى بَغْدادَ جلَس وزيرُ الخليفة للعَزاء.

القاضي أبـو الوَليد البَاجيُّ، سُلَيمانُ بنُ خَلَف بن سعـد بن أيُّوبَ التُّجيبيُّ الأندَلُسيُّ البـاجيُّ الفقيـهُ المالكيُّ[1]، أحدُ الحُفَّاظِ المُكثِرين في الفقهِ والحديث، سَمع الحديثَ ورحَل فيه إلى بلادِ المَشْرِق سنةَ ستٍّ وعشرينَ وأربَعمائةٍ، فسمع هناك الكثيرَ، واجتَمع بأئمَّةِ ذلك الوقت، كالقاضي أبي الطَّيِّبِ الطَّبَريِّ، والشيخِ أبي إسْحاقَ الشِّيرازيِّ، وجاوَر بمكَّةَ ثلاثَ سنين مع الشيخ أبي ذَرٍّ الهَرَويِّ، وأقامَ ببَغْدادَ ثلاثَ سنين أيضًا، وبالمَوْصِلِ سنةً عندَ أبي جَعْفَرٍ السِّمْنانيِّ قاضيها، فأخَذ عنه الفقهَ والأصولَ، وسمع الخطيبَ البَغْداديَّ، وسمع منه الخطيبُ أيضًا، وروَىٰ عنه هَذينِ البيتينِ الحسَنَيْنِ:

إذا كُنْتُ أعْلَمُ عِلْمًا يقينًا ... جميعَ حياتي كساعَهْ
فَلِمْ لا أكونُ ضَنينًا بها ... وأجْعَلُها في صَلاحٍ وطاعَهْ

ثم عادَ إلى بلدِه بعدَ ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً، وتَولَّى القضاءَ هناك، ويُقالُ: إنَّه تَوَلَّى قضاءَ حَلَبَ أيضًا. قالَه ابنُ خَلِّكانَ. قال: وله مُصنَّفاتٌ عديدةٌ، منها «المُنْتَقىٰ في شرحِ المُوطَّأ»، و«إحْكامُ الفصولِ في أحْكامِ الأصولِ»، و«الجَرْحُ والتعْديلُ»، وغيرُ ذلك، وكان مَوْلِدُه في سنةِ ثلاثٍ وأربعمائةٍ، وتُوُفِّي بالمَرِيَّةِ ليلةَ الخميسِ بينَ العشاءَيْنِ، التاسعَ عشَرَ من رَجَبٍ من هذه السنة رحمه اللَّهُ.

أبو الأغَرِّ، دُبَيْسُ بنُ عليِّ بن مَزْيَد، المُلَقَّبُ نورَ الدَّوْلَة، تُوُفِّي في هذه السنة عن ثمانين سنةً؛ مكَث فيها أميرًا نَيِّفًا وستِّينَ وقامَ بالأمرِ من بَعْدِه ولدُه أبو كاملٍ، ولُقِّبَ بهاءَ الدَّوْلة.

عبدُ اللَّه بنُ أحمدَ بن رِضْوانَ، أبو القاسم البَغْداديُّ، كان من الرُّؤَساء، ومرِض بالشقيقة ثلاثَ سنين، فمكَث في بيتٍ مُظْلمٍ لا يرىٰ ضَوْءًا، ولا يَسْمَعُ صَوْتًا.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وأربعمائة

فيها: قدِم مُؤَيَّدُ المُلكِ بنُ نظامِ المُلكِ فنزَل في مدرسةِ أبيه، وضُرِبت الطبولُ على بابِه في أوقاتِ الصلواتِ الثَّلاثِ.

وفيها: نَفَذَ الشيخُ أبو إسْحاقَ الشِّيرازيُّ رسولاً إلى السلْطانِ مَلِكْشاه والوزيرِ نظامِ المُلك، وكان أبو إسحاقَ كلَّما مرَّ على بلدةٍ خرَج إليه أهلُها يتلَقَّوْنَه بأولادهم ونسائهم؛ يتبرَّكونَ به ويتمَسَّحونَ برِكابِه، وربُّما أخَذوا من تُرابِ حافرِ بَغْلَته، ولمَّا وصَل إلى ساوَةَ خرَج إليه أهلُها، وما مرَّ بسُوقٍ منها إلا نثَروا عليه من لطيفِ ما عندَهم، حتى اجتازَ بسُوقِ الأساكِفَة، فلم يكُنْ عندهم إلا مَداساتُ الصِّغارِ فنثَروها عليه، فجعَل الشيخُ يتعجَّبُ من ذلك.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ٥٣٥-٥٤٥).

وفيها: جُدِّدَت الخطبةُ من جهةِ الخليفة لبنت السلطان مَلِكْشاه، فطلَبتْ أُمُّها أربَعمائة ألفِ دينارٍ، ثم اتَّفَقَ الحالُ على خمسينَ ألفَ دينارٍ للرِّضاع، وأن يكونَ الصَّداقُ مائةَ ألفِ دينارٍ.

وفيها: حارَب السلطانُ أخاه تُتُشَ فأسَره ثم أطْلَقه، واستقرَّتْ يَدُه على دمشقَ وأعمالِها، وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ خُتْلُغ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

عبدُ الوهَّابِ بنُ محمد بن إسْحاقَ بن محمد بن يحيى بن مَنْدَه، أبو عمرو الحافظُ من بيتِ الحديثِ، رحَل إلى الآفاقِ وسمعَ الكثيرَ، وتُوُفِّيَ بأصْبهانَ في هذه السنةِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

ابنُ ماكُولا، الأميرُ أبو نَصْر، عليُّ بنُ الوزير أبي القاسم هبَةِ اللَّه بن عليِّ بن جَعْفَر بن علَّكانَ بن محمد بن دُلَفَ بن أبي دُلَفَ التَّميميُّ، الأميرُ سَعدُ المُلك، أبو نَصْرِ بنُ مَاكُولا، أحدُ أئمَّةِ الحديثِ وساداتِ الأمراء، رحَل وطافَ وسمعَ الكثيرَ، وصنَّفَ «الإكْمالَ» في المشتَبه من أسْماء الرجال، وهو كتابٌ جليلٌ لم يُسْبَقْ إليه، ولا يُلحَقُ فيه، إلا ما اسْتَدْرَكه عليه ابنُ نقطةَ في كتابٍ سمَّاه «الاستدراك».

قتَله مماليكُه في كَرْمَانَ في هذه السنةِ، وكان مولدُه في سنةِ عشرين وأربعمائةٍ، وعاشَ خمسًا وخمسينَ سنةً.

قال ابنُ خَلِّكان: وقيل: إنَّه قُتِل في سنَةِ تسعٍ وسَبْعين. وقيل: في سنة سبعٍ وثمانين. قال: وقد كان أبوه وزيرَ القائم بأمر اللَّه، وعمُّه أبو عبد اللَّه الحسينُ بنُ عليٍّ وَلِيَ قضاءَ بغدادَ. قال: ولا أدري لِمَ سُمِّي الأميرَ، إلا أن يكونَ منْسُوبًا إلى جَدِّه الأميرِ أبي دُلَفَ، وأصلُه من جَرْباذْقانَ، ووُلِدَ في عُكْبَرا في شعبانَ سنةَ إحدَى وعشرين وأربعمائة. قال: وقد كان الخطيبُ البَغْدَاديُّ صنَّفَ كتابَ «المُؤْتَنِف» جمَع فيه بينَ كتابَي الدارَقُطْنيِّ، وعبدِ الغَنيِّ بن سعيدٍ في «المُؤْتَلِف والمُخْتَلِف»، فجاءَ ابنُ ماكُولا، وزادَ على كتابِ الخطيبِ وسمَّاه «الإكْمالَ»؛ وهو في غايةِ الإفادة ورَفْعِ الالتباسِ والضَّبْط، ولم يُوضَعْ مثلُه، ولا يحتاجُ هذا الأميرُ بعدَه إلى ذِكْرِ فَضيلةٍ أُخْرَى، فَفيه دلالةٌ على كثرة اطِّلاعه وضَبْطِه وتحريرِه وإتْقانه. ومِن شعرِه المنْسُوبِ إليه قولُه:

قوِّضْ خيامَكَ عن أرضٍ تُهانُ بها ... وجانبِ الذُّلَّ إنَّ الذُّلَّ يُجْتَنَبُ

وارْحَلْ إذا كان في الأوْطانِ مَنْقَصَةٌ ... فالمَنْدَلُ الرَّطْبُ في أوطانِه حَطَبُ

ثم دخلت سنة ست وسبعين وأربعمائة

فيها: عُزِلَ عميدُ الدولة ابنُ جَهِيرٍ عن وزارةِ الخلافة، فسارَ بأهله وأولاده إلى السلطان، وقصَدوا نظامَ المُلْك وزيرَ السلْطان، فعقَد لولَدِه فخرِ الدولة على بلادِ بَكْرٍ، فسارَ إليها بالخِلَعِ والكُوساتِ والعساكرِ، وأمَرَ أن ينتزِعَها من ابنِ مَرْوانَ، وأن يُخطَبَ لنَفْسِه، وأن يُكْتَبَ اسمُه على السِّكَّة، فمازالَ حتى انْتزَعَها من أيديهم، وبادَ مُلْكُهم على يدَيْه، كما سيأتي بيانُه، وسَدَّ وزارةَ الخلافة أبو الفَتْحِ مظفَّرُ، ابنُ رئيسِ الرُّؤساء، ثم عُزِل في شعبانَ واسْتُوزِرَ أبو شُجاع، محمدُ بنُ الحسينِ، ولُقِّبَ ظَهِيرَ الدينِ.

وفي جُمادَىٰ الآخرةِ ولَّىٰ مؤيِّدُ الملك أبا سعدٍ عبدَ الرحمنِ بنَ المأْمونِ المُتولِّيَ تدريسَ النِّظَاميَّةِ بعدَ وفاةِ الشيخِ أبي إسْحاقَ الشِّيرازيِّ، رحمه اللَّهُ.

وفيها: عصَىٰ أهلُ حَرَّانَ على شرفِ الدولةِ مُسلمِ بنِ قُرَيْشٍ، فجاءَ فحاصَرَها ففتَحَها وهدَمَ سُورَها وصلَبَ قاضيها ابنَ جَلَبَةَ وابنَيْه على السورِ.

وفي شوَّالٍ منها قُتِل أبو المَحاسنِ بنُ أبي الرِّضَا؛ وذلك لأنه وشَىٰ إلى السلْطانِ في نظامِ المُلْك، وقالَ له: سَلِّمْهُم إليَّ حتى أسْتخْلِصَ لك منهم ألفَ ألفِ دينارٍ. فعمِل نظامُ المُلْك سِماطًا هائلًا، واسْتَحْضَرَ غِلْمانَه وكانوا أُلوفًا، وشرَع يقولُ للسلطان: هذا كلُّه من أمْوالِكَ، وما وَقَفْتُه من المدارسِ والرُّبُط، فكُلُّه شُكْرُه لكَ في الدُّنْيا وأجْرُه لك في الآخرةِ، وأمْوالي وجميعُ ما أمْلكُه بينَ يدَيْك، وأنا أقنَعُ بمُرَقَّعَةٍ وزاويةٍ. فعندَ ذلك أمرَ السلطانُ بقَتْلِ أبي المحاسنِ، وقد كان حَظِيًا عندَه، وخصِّيصًا به وَجيهًا لديْه، وعزَلَ أباه عن كتابةِ الطُّغْراء وولَاها مؤيِّدَ المُلك بنَ نظامِ المُلك.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ الأميرُ خُتْلُغ التركيُّ مُقطَعُ الكُوفَةِ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

الشيخُ أبو إسْحاقَ الشِّيرازيُّ، إبراهيمُ بنُ عليِّ بنِ يُوسُفَ، الشِّيرازيُّ الفيرُوزاباذيُّ[1] -وهي قريةٌ من قُرَىٰ فارسَ، وقيل: هي مدينةُ جُورَ. شيخُ الشافعيَّة، ومدرِّسُ النِّظاميَّة ببغدادَ، وُلِد سنةَ ثلاثٍ، وقيلَ: خمسٍ، وقيل: ستٍّ وتسعين وثلاثمائة. وتفَقَّهَ بفارسَ على أبي عبدِ اللَّه البَيْضاويِّ، ثم قَدِمَ بَغْدادَ سنةَ خمسَ عشْرةَ وأرْبَعمائة، فتفقَّهَ على القاضي أبي الطيِّبِ الطبريِّ، وسمعَ الحديثَ من ابنِ شاذَانَ والبرْقَانيِّ، وكان زاهدًا عابدًا ورعًا، كبيرَ القَدْرِ معظَّمًا، محترمًا، إمامًا في الفقهِ والأصولِ والحديثِ وفنونٍ كثيرةٍ، وله المصنَّفاتُ الكثيرةُ النافعةُ؛ كـ «المُهذَّب» في المذهبِ، و«التَّنْبيه»، و«النُّكَت» في الخلافِ، و«اللُّمَع» في أصولِ الفقهِ، و«التبْصِرة»، و«المعُونة»، و«طبقات الفقهاء» وغيرِ ذلك.

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ٤٥٢-٤٦٤).

قلتُ: وقد ذكرتُ ترجمتَه مُستَقْصاةً ومطوّلَةً في أوّلِ شرحِ «التّنبيه». تُوُفّي ليلةَ الأحد الحادي والعشرين مِن جُمادَىٰ الآخرة في دارِ المظفَّرِ ابنِ رئيسِ الرؤساءِ، وغسّلَه أبو الوفَا بنُ عَقيلٍ الحنبليُّ، وصُلّيَ عليه ببابِ الفِرْدَوْسِ مِن دارِ الخلافة، وشهِدَ الصلاةَ عليه المُقتَدي بأمرِ اللّه، وتقدَّم للصلاة عليه أبو الفتحِ المظفَّرُ ابنُ رئيسِ الرُّؤساء، وكان نائبَ الوزارة، ثم صُلّي عليه مرةً ثانيةً بجامعِ القصرِ، ودُفِنَ ببابِ أبرزَ في تُربةٍ مُجاورةٍ للناحيَة، رحمه اللّهُ تعالى.

وقد امتدَحَه الشعراءُ في حياته وبعدَ وفاته، وكان هو نفسُه له شعرٌ رائقٌ، فممَّا أنشدَه ابنُ خَلّكانَ مِن شعرِه قولُه:

سألتُ الناسَ عن خِلٍّ وَفيٍّ ... فقالُوا ما إلىٰ هذا سبيلُ
تمسَّكْ إن ظفرتَ بذيلِ حُرٍّ ... فإنَّ الحُرَّ في الدُّنيا قليلُ

قال ابنُ خَلّكان: ولمَّا تُوُفّي عملَ الفقهاءُ عزاءَه بالمدرسةِ النِّظاميَّة، وعيَّن مؤيِّدُ المُلْكِ أبا سعدٍ المُتولِّيَ مكانَه، فلمَّا بلَغ الخبرُ إلىٰ نظامِ المُلك كتَب يقولُ: كان مِن الواجبِ أن تُغْلَقَ المدرسةُ سنةً لأجْله. وأمرَ أن يُدرِّسَ أبو نصر بنُ الصبَّاغِ في مكانه.

طاهرُ بنُ الحُسَيْن بن أحمدَ بن عبد اللّه القَوَّاس، قرَأ القرآنَ وسمعَ الحديثَ، وتفقَّهَ علىٰ القاضي أبي الطَّيِّبِ الطَّبَريِّ، وأفتَىٰ ودرَّس وكانتْ له حَلْقةٌ بجامعِ المنصورِ للمُناظرةِ والفَتْوَىٰ، وكان ثقةً ورعًا زاهدًا مُلازمًا لمسْجدِه خمسينَ سنةً. وكانت وفاتُه في هذه السنة عن ستٍّ وثمانين سنةً، ودُفِنَ قريبًا مِن الإمامِ أحمدَ، رحمه اللّهُ وإيَّانا.

محمدُ بنُ أحمدَ بن محمد بن إسْماعيلَ، أبو طاهر الأَنْبَاريُّ الخطيبُ، ويعرَفُ بابنِ أبي الصَّقْرِ، طافَ البلادَ وسمعَ الكثيرَ، وكان ثقةً صالحًا فاضلاً عابدًا، وقد سمعَ منه الخطيبُ البَغْداديُّ، وروَىٰ عنه مُصنَّفاته، تُوُفّي بالأنْبارِ في جُمادَىٰ الآخرةِ عن نحوٍ مِن مائة سنة، رحمه اللّهُ.

محمدُ بنُ أحمدَ بن الحُسَيْن بن جَرْدَة، أحدُ كبراءِ الرُّؤساءِ ببغدادَ، وهو مِن ذَوِي الثروةِ والمُروءة، كان يُحزَرُ مالُه بثلاثمائة ألف دينارٍ، وكان أصلُه مِن عُكْبَرا، فسكَنَ بَغْدادَ، وكانت له بها دارٌ عظيمةٌ تشتَملُ علىٰ ثلاثين مسْكَنًا مُستقلاً، وفيها حمَّامٌ وبُسْتانٌ، ولها بابان، علىٰ كلِّ بابٍ مسجدٌ، إذا أذَّنَ المؤذِّنُ في أحدِهما لا يسمَعُ الآخرُ مِن اتِّساعها. وقد كانت زوجةُ الخليفةِ القائمِ - حينَ وقَعت فتنةُ البَساسيريِّ في سنَة خمسين وأربَعمائَة - نزلَتْ عندَه في جواره، فبعَث إلىٰ الأميرِ قُرَيْشِ بنِ بدرانَ أميرِ العرَبِ بعشَرَة آلاف دينارٍ، ليَحْميَ له دارَه، وهو الذي بنَىٰ المسجدَ المعروفَ به ببَغْدادَ، وقد ختَمَ فيه القرآنَ ألوفٌ مِن الناسِ، وكان لا يُفارقُ زيَّ التُّجارِ. وكانت وفاتُه في عاشرِ ذي القَعْدةِ مِن هذه السنةِ، ودُفِنَ في التُّربةِ المُجاورةِ لتُربةِ القَزْوينيِّ، رَحمه اللّهُ وإيَّانا، آمين.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وأربعمائة

فيها: كانت الحربُ بينَ فخرِ الدولة ابنِ جَهِير وبينَ ابنِ مَرْوانَ صاحبِ ديارِ بَكْرٍ، فاستَوْلَىٰ ابنُ جَهِيرٍ علىٰ مُلْك العربِ، وسبَىٰ حريمَهم وأخَذ البلادَ ومعه سيفُ الدولة صَدَقَةُ بنُ منصورِ بنِ دُبَيْسِ بنِ عليِّ ابنِ مَزْيَدٍ الأسَدي، فافتَدىٰ خَلْقًا من العربِ، فشكَره الناسُ علىٰ ذلك، ومدَحه الشعراء عليه.

وفيها: بعَث السلطانُ عميدَ الدولة ابنَ جَهِيرٍ في جيشٍ كثيفٍ ومعه قَسيمُ الدولة آقْ سُنْقُرُ جَدُّ بني أتابكَ مُلوكِ الشام والمَوْصِلِ، فسار إلىٰ المَوْصِلِ فملَكوها.

وفي شعبانَ ملَك سُلَيْمانُ بنُ قُتُلْمُشَ أَنْطاكِيَةَ، فأرادَ شرفُ الدولة مسلمُ بنُ قُرَيْشٍ أن يستنقذَها منه، فهزَمه سليمانُ، وقتَله، وقد كان مسلمٌ هذا من خيارِ الملوك سيرةً، له في كلِّ قريةٍ والٍ وقاضٍ وصاحبُ خَبَرٍ، وكان يملكُ من السِّنْدِيَّة إلىٰ مَنْبِجَ. ووَلِي بعدَه أخوه إبراهيمُ بنُ قُرَيْشٍ، وكان مسجونًا من سنينَ فأُطلِق ومُلِّكَ.

وفيها: وُلِد السلطانُ سَنْجَرُ بنُ مَلِكْشاه في العشرين من رجَبٍ بسِنْجارَ.

وفيها: عصَىٰ تكشُ أخو السلطان، فأخَذه السلطانُ؛ فسمَله وسجَنه.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنة الأميرُ تكينُ الحَسَنانيُّ، وذلك لشكوىٰ الناسِ من شدَّةِ سيرِ خُتْلُغَ بهم، وأخْذه المُكُوساتِ منهم، سار مرَّةً من الكُوفَةِ إلىٰ مكة في تسعةَ عشرَ يومًا.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمدِ بنِ دُوسْتَ، أبو سعد النَّيسابُوري، شيخُ الصوفيَّة، له رِباطٌ بمدينة نَيسابُورَ يدخُلُ من بابِه الجَمَلُ براكبِه، وحجَّ مراتٍ علىٰ التجْريدِ حين انقطَعت طريقُ مَكَّةَ، فكان يأخُذُ جماعةً من الفقراءِ ويتوصَّل من قبائلِ العرَبِ حتىٰ يصلَ مكَّةَ، توفِّي في هذه السنة وقد جاوزَ التسعينَ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ، وأوصَىٰ أن يخلُفَه ولدُه إسماعيلُ فأجلس في مشيخة الرباط وله ثِنْتا عشْرة سنةً، وهو الذي وقف الأوقاف علىٰ الرِّباط.

ابن الصبَّاغ صاحبُ «الشامل»، عبدُ السيِّد بنُ محمدِ بنِ عبدِ الواحدِ بنِ أحمدَ بنِ جعفرٍ، الإمامُ أبو نصرٍ الصَّبَّاغُ، وُلِدَ سنةَ أربعمائة، وتفَقَّهَ ببَغْدادَ علىٰ أبي الطيب الطبريِّ حتىٰ فاقَ الشافعيَّةَ بالعراقِ، وصنَّفَ المصنفاتِ المفيدةَ؛ منها كتابُ «الشامل» في المَذْهَب، وهو أوَّلُ مَن درَّس بالنظاميَّة، وكانت وفاتُه في هذه السنَة، ودُفِن بدارِه في الكرْخِ، ثم نُقِل إلىٰ باب حربٍ، رحمه اللَّهُ.

قال القاضي ابنُ خلِّكان: كان فقيهَ العراقَيْنِ، وكان يُضاهِي بالشيخ أبي إسحاقَ، وكان ابنُ الصبَّاغ أعلمَ منه بالمذْهَب، وإليه الرِّحْلَةُ، وقد صنَّف «الشامل» في الفقه، و«العُمْدَةَ» في أصول الفقه، وتولَّىٰ تدريسَ النِّظاميَّة أوَّلًا، ثم عزل بعد عشرينَ يومًا بالشيخ أبي إسحاقَ، فلمَّا ماتَ الشيخُ أبو إسحاقَ تولَّاها أبو سعيدٍ المُتولِّي، ثم عزل بابنِ الصبَّاغ، ثم عُزِل ابنُ الصبَّاغ بابنِ المُتولِّي، وكان ثقةً

حجّةً صالحًا، وُلِدَ سنةَ أربعمائةٍ، وأُضِرَّ في آخرِ عمرِه، رحمه اللَّهُ تعالى.

مسعودُ بنُ ناصرِ بنِ عبدِ الله بنِ أحمدَ بنِ إسماعيلَ، أبو سَعيد(١) **السِّجْزيُّ الحافظُ**، رحَل في طلبِ الحديثِ وسمع الكثيرَ، وجمَع الكتُبَ النفيسةَ، وكان حسنَ الخطِ، صحيحَ النَّقلِ، حافظًا ضابطًا، رحمه اللَّهُ تعالى.

ثم دخلت سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة

في المحرَّمِ منها زُلزلتْ أَرَّجَانُ، فهلَكَ خلقٌ كثيرٌ من الرومِ ومواشيهم. وفيها كثُرَتِ الأمراضُ بالحُمَّى والطَّاعُونِ بالعراقِ والحجازِ والشَّامِ، وأعقَب ذلك موتُ الفَجْأةِ، ثم ماتَتِ الوحوشُ في البريَّةِ، ثم تلاه موتُ البهائمِ، حتى عزَّتِ الألبانُ واللُّحمانُ، ومع هذا كلِّه وقَعتْ فتنةٌ عظيمةٌ بينَ الروافضِ والسُّنَّةِ، فقُتِلَ خلقٌ كثيرٌ.

وفي ربيعٍ الأوَّلِ هاجَتْ ريحٌ سَوْداءُ، وسفَتْ رَمْلًا، وتساقطَتْ أشجارٌ كثيرةٌ منَ النَّخيلِ وغيرِها، ووقعَتْ صَواعقُ في البلادِ حتى ظنَّ الناسُ أنَّ القيامةَ قد قامتْ، ثم انجَلَى ذلك، وللَّه الحمدُ.

وفيها: وُلِدَ للخليفةِ ولَدُه أبو عبدِ اللَّهِ الحُسَيْنُ، وزُيِّنَتْ بَغْدادُ وضُرِبتِ الطبولُ والبُوقاتُ، وكثُرَتِ الصَّدقاتُ.

وفيها: استَوْلَى فخرُ الدولةِ ابنُ جَهِيرٍ على بلادٍ كثيرةٍ؛ منها آمِدُ، ومَيَّافارِقِينُ، وجزيرةُ ابنِ عمرَ، وانقرَضَتْ دولةُ بني مروانَ على يَدِه في هذه السنة. وفي ثاني عشَرَ شعبانَ منها قُلِّد أبو بكرٍ محمدُ بنُ مُظَفَّرٍ الشاميُّ قضاءَ القضاةِ ببَغْدادَ، بعدَ وَفاةِ أبي عبدِ اللَّهِ الدَّامَغانيِّ، وخُلِعَ عليه في الدِّيوانِ. وحجَّ بالناسِ الأميرُ خُتْلُغُ التركيُّ، وزارَ النبيَّ ﷺ ذاهبًا وآيبًا. قال: أظنُّ أنها آخرُ حجَّتي. فكان كذلك.

وفيها: خرَج توقيعُ الخليفةِ المُقْتَدِي بأمرِ اللَّهِ بتَجْديدِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكرِ في كلِّ مَحَلَّةٍ، والأمرُ بإلزامِ أهلِ الذِّمَّةِ بالغِيَارِ، وكَسْرِ الملاهِي، وإراقةِ الخمورِ، وإخراجِ أهلِ الفَسادِ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ محمدِ بنِ الحسَنِ بنِ محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ أبي أيوبَ، أبو بكرٍ الفُوركيُّ، سِبْطُ الأستاذِ أبي بكرِ ابنِ فُوركَ، استَوطَنَ بغْدادَ وكان متكلِّمًا يعظُ الناسَ في النِّظاميَّةِ، فوقَعتْ بسبَبِه فتنةٌ بينَ المذاهبِ.

قال ابنُ الجوزيِّ: وكان مُؤْثِرًا للدنْيَا، لا يتَحاشَى من لُبْسِ الحريرِ، وذكَر أنَّه كان يأخُذُ مَكْسَ الفَحْمِ، وكانت وفاتُه في هذه السنةِ، وله نَيِّفٌ وستُّونَ سنةً، ودُفِنَ إلى جانبِ قبرِ الأشْعَريِّ بمَشْرَعةِ الرَّوَايا.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ٥٣٢-٥٣٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤/ ٢١٥) ط مكتبة المعارف بالرياض من حديث أبي مسعود.

الحسنُ بنُ عليٍّ، أبو عبد اللَّه المردوسيُّ، كان رئيسَ أهلِ زمانه، وأكْمَلَهم مُرُوءةً، كان قد خدَم في أيام بَنِي بُوَيْهِ، وتأخَّرَ إلىٰ هذا الحِينِ، وكانت الملوكُ تعظِّمُه وتُكاتِبُه بعبْده وخادمه، وكان كثيرَ الصدقَةِ والصلاةِ والبرِّ، وبلَغ مِن العُمرِ خمسًا وتسعينَ سنةً، وأعدَّ لنفسه قبرًا وكفَنًا قبلَ موته بخمسِ سنِينَ.

أبو سَعْد المُتولِّي، عبدُ الرحمنِ بنُ المأمونِ بن عليٍّ، أبو سعد المُتولِّي، مصنِّفُ «التَّتمَّة»، ومدرِّسُ النِّظاميَّةِ بعدَ الشيخِ أبي إسْحاقَ الشِّيرَازيِّ، وكان فصِيحًا بليغًا، ماهرًا بعُلُومٍ كثيرةٍ، كانت وفاتُه في شَوَّالٍ مِن هذه السنةِ عن ثِنتينِ وخمسينَ سنةً، رحِمه اللَّهُ، وصلَّىٰ عليه القاضِي أبو بكرٍ الشَّامِيُّ، ودُفِن ببابِ أبرزَ.

إمامُ الحَرَمَيْن، عبدُ الملك بنُ عبدِ اللَّه بنِ يوسفَ بنِ عبدِ اللَّه بنِ يوسفَ بنِ محمدِ بنِ حيُّويَه، أبو المعالِي الجُوَيْنِيُّ - وجُوَيْنُ مِن قُرَىٰ نَيْسَابُور - المُلَقَّبُ بإمامِ الحرَمَيْنِ؛ لُمجاورتِه بمكَّةَ أربعَ سنينَ، كان مولدُه في سنةِ تسْعَ عشْرَةَ وأربَعمائةٍ، سمعَ الحديثَ وتفقَّهَ علىٰ والدِه الشيخِ أبي محمدٍ الجُوَيْنِيِّ، ودرَّس بعدَه في حَلْقَتِه، وتفقَّهَ علىٰ القاضي حسينٍ، ودخَل بغدادَ وتفقَّه بها، وروَىٰ بها الحديثَ، وخرَج إلىٰ مكَّةَ فجاوَر فيها أربعَ سنينَ، ثم عادَ إلىٰ نَيْسَابُورَ فسُلِّمَ إليه التَّدْريسُ والخَطابةُ والوعظُ، وصنَّف «نهايةَ المطْلَبِ في دِرايَةِ المَذْهَبِ»، و«البُرْهانَ» في أصولِ الفقْه، وغيرَ ذلك مِن عُلومٍ شَتَّىٰ، واشتغَل عليه الطلبةُ ورحَلوا إليه مِن الأقْطارِ، وكان يحضُرُ مجلِسَه ثَلاثُمائةِ متفقِّهٍ، وقد اسْتَقْصَيْتُ ترجمتَه في «الطَّبَقاتِ».

وكانتْ وفاتُه في الخامسِ والعِشْرِين مِن ربيعٍ الآخرِ مِن هذه السنةِ، عن سَبْعٍ وخمسينَ سنةً، ودُفِنَ بدارِه، ثم نُقِلَ إلىٰ جانبِ والدِه. رحمه اللَّهُ.

قال ابنُ خَلِّكانَ: كانتْ أمُّه جاريةً اشْتَراها والدُه مِن كَسْبِ يدِه مِنَ النَّسْخِ، وأمرَها أنْ لا يُرْضِعَه غيرُها، فاتَّفقَ أنَّ امرأةً دخَلتْ عليهم فأرْضَعَتْه مرَّةً، فأخَذه الشيخُ أبو محمدٍ فنكَسه ووضَع يدَه علىٰ بطْنِه ووضَع أُصبُعَه في حلْقِه، ولم يزَلْ به حتىٰ استقاءَ كلَّ ما كان في بطنِه مِن لبَنِ تلكَ المرأةِ. قال: فربّما حصَل لإمامِ الحرمين في بعضِ مجالسِ المناظرةِ فُتورٌ، فيقولُ: هذا مِن آثارِ تلك الرَّضْعَةِ. قال: ولَمَّا عادَ مِن الحجازِ إلىٰ بلدِه نَيْسَابورَ سُلِّمَ إليه المِحرابُ والمِنبرُ والخطابةُ والتدريسُ ومجلسُ التذْكيرِ يومَ الجُمُعةِ، وبَقِي ثلاثينَ سنةً غيرَ مُزاحَمٍ ولا مُدافَعٍ. وصنَّفَ في كلِ فنٍّ، من ذلك «النِّهايَةُ» الذي ما صُنِّفَ في الإسْلامِ مثلُه.

قال الحافظُ أبو جَعْفَر: سمعتُ الشيخَ أبا إسْحَاقَ الشِّيرَازِيَّ يقولُ لإمامِ الحرَمَيْنِ: يا مفيدَ أهلِ المشرقِ والمغربِ، أنتَ اليومَ إمامُ الأئمَّةِ. ومن تصانيفِه «الشاملُ» في أصولِ الدِّينِ، و«البُرْهانُ» في أصولِ الفقه، و«تَلْخيصُ التقْريب»، و«الإرْشَادُ»، و«العقيدَةُ النِّظاميَّةُ»، «وغِياثُ الأممِ»، «وغِياثُ الخَلْقِ» وغيرُ ذلكَ وممّا أتَمَّه وممّا لم يُتِمَّه قال: ولما مات في ربيع الآخرِ سنةِ ثمانٍ وسبعينَ وأربعمائةٍ صلَّىٰ عليه ولدُه أبو القاسمِ وغُلِّقتِ الأسْواقُ وكسَر تلاميذُه أقْلامَهم ومَحابِرَهم - وكانوا أرْبَعَمائةِ

ومكثوا كذلك سنةً، وقد رُئي بَراثٍ كثيرةٍ، فمن ذلك قولُ بعضهم :

قلوبُ العالَمين على المقالي وأيامُ الورَىٰ شِبْهُ الليالي
أيُثمرُ غُصنُ أهلِ العلم يومًا وقد ماتَ الإمامُ أبو المعالي

محمدُ بنُ أحمدَ بن عبد اللَّه بن أحمدَ بن الوليد، أبو عليٍّ،شيخُ المعتزلة، كان يُدرِّسُ لهم، فأنكرَ أهلُ السُّنَّة عليهم، فلزم بيتَه خمسين سنةً إلىٰ أن تُوفِّي في ذي الحجَّة من هذه السنة، ودُفِن في مقبرة الشُّونيزيَّة، وهذا هو الذي تَناظَرَ هو والشيخُ أبو يوسفَ القَزْوينيُّ المعتزليُّ المُفسِّرُ في إباحَة الوِلْدان في الجنَّة، كما حكَىٰ ذلك ابنُ عَقيلٍ عنهما، وكان حاضرَهما، فمالَ هذا إلى إباحَة ذلك؛ لكونه مأمونَ المفسدَة هُنالكَ، وقال أبو يوسُفَ: إنَّ هذا لا يكونُ، ومِن أينَ لك أنهم يكونُ لهم أدْبارٌ؟ وهذا العُضْوُ إنَّما خُلِق في الدنْيا مَخْرجًا للأذَىٰ، وليْسَ في الجنَّة شيءٌ من ذلك، فلايَحتاجُونَ إليه، ولا يكونُ لهذه المسْألَة صورةٌ بالكليَّة.

وقد روَىٰ هذا الرجلُ حديثًا واحدًا عن شيخه أبي الحُسَيْنِ البَصْريِّ بسنَده المتقدِّم، من طريق شُعْبَةَ، عن منْصورٍ، عن رِبْعِيِّ بن حراشٍ، عن أبي مسعودٍ البَدْرِيِّ، أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «إذا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» (١). وقد رواه القَعْنَبيُّ عن شُعْبةَ، ولم يَرْوِ عنه سواه، فقيلَ: لأنَّه لمَّا رحَل إليه دخَل عليه وهو يبولُ على البالُوعَة، فسألَه أنْ يحدثَه، فروَىٰ له هذا الحديثَ، كالواعظ له والتزم أن لا يحدثه بغيره، وقيل لأن شعبة مرَّ على القعنبيِّ قبل أن يشتعل بعلم الحديث وكان إذ ذاك يعاني الشراب فسأله أن يحدثه فامتنع فسلَّ سكينًا وقال: إن لم تحدثني وإلا قتلتك فروىٰ له هذا الحديث فتابَ وأنابَ، ولزِمَ مَالكًا، ثم فاتَه السماعُ مِن شُعْبَةَ، فلم يتَّفِقْ له غيرُ هذا. فاللَّهُ أعلمُ.

أبو عبد اللَّه الدَّامَغَانيُّ، محمدُ بنُ عليِّ بن الحسين بن عبد الملك بن عبد الوهَّاب بن حَمُّويَه الدَّامَغَانيُّ الحنفيُّ،قاضي القضاة ببَغْدادَ، مولدُه في سنة ثمانٍ وتسعين وثلاثمائة، وتفقَّه ببلده ثم قدم بغدادَ في سنة ثماني عشْرَةَ وأربعمائة، فتفقَّه بها على أبي عبد اللَّه الصَّيْمَريِّ، وأبي الحسين القُدُوريِّ، وسمع الحديثَ منهما ومن ابن النَّقُور والخطيب وغيرهم، وبرَعَ في الفقه، وكان له عَقلٌ وافرٌ، وتواضُعٌ زائدٌ، وانتَهَتْ إليه رياسةُ الفقهاء، وكان فصيحَ العبارة، وكان فقيرًا في ابْتداء طَلَبه، عليه أطمارٌ رثَّةٌ، ثم صارَتْ إليه الرياسةُ والقَضاءُ بعدَ ابن مَاكُولاَ، في سنة تسْعٍ وأربعينَ، وكان القائمُ بأمر اللَّه يكرمُه، والسلطانُ طُغْرُلْبَك يعظِّمُه، وباشرَ الحُكْمَ ثلاثين سنةً في غاية السِّيرة الحسَنَة، والأمانة والدِّيانة والصيانة، مرض أيامًا يسيرةً، ثم تُوُفِّي في الرابع والعشرين من رجبٍ من هذه السنة، وقد ناهزَ الثمانينَ، ودُفنَ بداره بدَرب القلاَّئين، ثم نُقلَ إلى مَشْهَد أبي حنيفةَ، رحمهما اللَّهُ تعالىٰ.

محمدُ بنُ عليِّ بن المُطَّلب، أبو سعد الأديبُ،كان قد قرأ النحوَ، والأدبَ، واللغةَ، والسِّيَرَ، وأخبارَ الناس، ثم أقْلَع عن ذلك كلِّه، وأقْبَل على كثرة الصلاة والصدقة والصوم، إلى أن تُوُفِّيَ في

(١) صحيح:أخرجه البخاري (٤/ ٢١٥) ط مكتبة المعارف بالرياض من حديث أبي مسعود.

هذه السنة عن ستٍّ وثمانينَ سنةً. رحمه اللَّهُ.

محمـدُ بنُ أبي طاهر العباسيُّ، ويعـرفُ بابنِ الرَّجحيِّ، تفقَّه على ابنِ الصَّبَّاغ، ونابَ في الحُكم، وكان محمودَ الطريقة، وشَهِدَ عندَ ابنِ الدامَغانيِّ فقَبِلَه.

منصورُ بنُ دُبَيْس بنِ عليِّ بنِ مَزْيَد، أبو كاملٍ، الأميرُ بعدَ سَيْفِ الدولةِ صَدَقَةَ، تُوُفِّي في رجَبٍ من هذه السنة. وقد كان له شعرٌ وأدبٌ، وفيه فضلٌ، فمن شعرِه قولُه:

فـإن أنـا لم أحـمـلْ عظيـمًـا ولم أقُـدْ ... لُهَـامًـا ولم أصْـبِـرْ على كلِّ مُـعْـظَمِ
ولم أُجِـرِ الجـانـي وأمنَع حَـوْزَه ... غَـداةَ أُنادَى للفَـخـار فـأنْتَـمـي
فـلا نَهَـضَـتْ بي هِـمَّـةٌ عـربِـيَّـةٌ ... إلى المَـجْـد تُدْلي لي ذُرَى كلِّ مَـخْـرَمِ

هِبَةُ اللَّه بنُ عبد اللَّه بن أحمدَ، السِّيبيُّ، قاضي الحريمِ بنَهْرِ مُعَلَّى، ومُؤدِّبُ الخليفة المقْتَدي بأمرِ اللَّه، سمع الحديثَ، وتُوُفِّي في محرَّم هذه السنة، وقد جاوزَ الثمانينَ، وله شعرٌ جيِّدٌ، فمنه قولُه:

رجَـوْتُ الـثَـمـانـينَ من خـالـقي ... لـمـا جـاءَ فـيـهـا عن المُصْطَفَى
فـبَـلَّـغَـنيـهـا فـشُـكـراً لـه ... وزادَ ثـلاثًـا بـهـا أرْدَفَـا
وإنِّـي لَـمُـنْـتَـظِـرٌ وَعْـدَهُ ... لِـيُـنْـجِـزَه فـهْـو أهلُ الـوَفَـا

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وأربعمائة

فيها: كانت الوَقْعَةُ بينَ تُتُش صاحبِ دِمَشْقَ وبينَ سليمانَ بنِ قُتُلْمِش صاحبِ حَلَبَ وأنْطَاكِيَةَ وتلك الناحية، فانْهَزَمَ أصْحابُ سليمانَ وقتَل هو نفْسَه بخنجر كانت معه، فسارَ السلطانُ مَلِكْشاه من أصْبهانَ إلى حَلَبَ فَمَلَكَها، وملَك ما بينَ ذلك من البلادِ التي مرَّ بها؛ وهي حَرَّانُ والرُّهَا وقلْعةُ جَعْبَر، وكان جعبرٌ شيْخًا كبيرًا أعْمَى، وله ولَدان، وكان قُطَّاعُ الطريقِ يلْجئون إليها فيتحصَّنُونَ بها، فراسَلَ السلطانُ جعبرَ بنَ سابقٍ في تسْليمِها فامْتَنعَ عليه، فنَصَبَ عليها المجانيقَ والعَرَّادَات، ففَتَحها وأمَر بقتْلِ صاحبِها سابقٍ، فقالَتْ زوجتُه: لا تقتُلْه حتى تَقْتُلَني معه. فألْقَاه من ورائها فتكَسَّرَ، ثم أمَر بتَوْسيطِه بعدَ ذلك، فألقَت المرأةُ نفسَها وراءَه فسَلِمَتْ، فلَامَها بعضُ الناسِ في ذلك فقالت: كَرِهْتُ أنْ يَصِلَ إليَّ التركيُّ فيَبْقَى ذلك عارًا عليَّ. فاسْتَحْسَن منها ذلك، واسْتَنابَ السلطانُ على حَلَبَ قسيمَ الدولةِ آقْ سُنْقُرَ التُّرْكيَّ، وهو جدُّ نُورِ الدينِ الشهيد، واستَناب على الرَّحْبة وحَرَّانَ والرَّقَّة وسَروجَ والخابورِ محمدَ بنَ شرَفِ الدولةِ مسلمٍ، وزوَّجه بأُخْتِه زُلَيْخَا خاتُونَ. وعزَل فخرَ الدولةِ بنَ جَهِيرٍ عن ديارِ بَكْرٍ، وسلَّمها إلى العميدِ أبي عليٍّ البَلْخيِّ، وخلَع على سيفِ الدولةِ صَدَقَةَ بنِ منصورِ بنِ دُبَيْسٍ الأسَديِّ، وأقَرَّه على عملِ أبيه. ودخَل بَغْدادَ في ذي القَعْدَة من هذه السنة، وهي أوَّلُ دَخْلَةٍ دخَلها، فزارَ المشاهدَ والقُبورَ ودخَل على الخليفةِ فقبَّل يدَه ووضَعها على عَيْنَيْه، وخلَع عليه

الخليفةُ خلْعَةً سَنِيَّةً، وفوَّضَ إليه أُمورَ الناسِ، واستَعرضَ الخليفةُ أُمراءَه ونظامُ المُلك واقفٌ بينَ يدَي الخليفةِ، يعرِّفُه بالأُمراءِ واحدًا واحدًا، باسْمِه وكَمْ جيْشُه وإقطاعُه، ثم أفاضَ عليه الخليفةُ خلْعةً سنيةً، وخرجَ مِن بينِ يدَيْه فنزَل بمدرستِه النِّظاميَّةِ، ولم يكُنْ رآها قبلَ هذه السنة، فاستَحسنَها إلا أنه استَصْغَرها، واستَحسنَ أهلَها ومَن بها مِن الجماعة، رحمه اللَّهُ على ذلك، وسألَ اللَّهَ أن يجعَلَ ذلك خالصًا لوَجْهِه الكريمِ، ونزَل بخزانَةِ كتُبِها وأمْلَىٰ جُزءًا من مَسْمُوعاته، فسَمِعَه المُحدِّثُونَ منه.

ووردَ الشيخُ أبو القاسمِ، عليُّ ابنُ أبي يَعْلَىٰ الحُسَيْنيُّ الدَّبوسيُّ إلى بَغْدادَ في تَجَمُّلٍ عظيمٍ، فرتَّبَه مدرِّسًا بالنِّظاميَّةِ بعدَ أبي سعدٍ المُتوَلِّي.

وفي ربيعٍ الآخرِ فُرِغَت المَنارةُ بجامعِ القصرِ وأُذِّنَ فيها. وفيها كانتْ زلازلُ هائلةٌ بالعراقِ والجزيرةِ والشامِ، فهدَّمَتْ شيئًا كثيرًا من العُمْرانِ، وخرَج أكثرُ الناسِ إلى الصحراءِ ثم عادوا.

وحجَّ بالناسِ الأميرُ خُمارْتِكينُ الحَسَنانيُّ، وقُطعتْ خطبةُ المصريينَ من مكةَ والمدينة، وقُلعت الصفائحُ التي على بابِ الكعبة التي عليها ذكرُ المصريِّ، وجُدِّدَ غيرُها عليها اسمُ المُقْتَدِي.

قال ابنُ الجوزيِّ: وظهَر رجلٌ بينَ السِّنْدِيَّةِ وواسطٍ يقطَعُ الطريقَ وهو مقطوعُ اليدِ اليُسْرَىٰ، يفتَحُ القُفْلَ في أسرعِ مدةٍ، ويغوصُ دِجْلَةَ في غَوْصَتَيْنِ، ويقفزُ القَفْزَةَ خمسةً وعشْرينَ ذراعًا، ويتَسلَّقُ الحيطانَ المُلْسَ، ولا يقدرُ عليه أحدٌ، وخرَجَ من العراقِ سالمًا. قال: وفيها تُوُفِّي فقيرٌ يسألُ الناسَ بجامعِ المنصورِ، فوُجِدَ في مُرَقَّعَتِه ستُّمائةِ دينارٍ مغربيَّةٍ. قال: وفيها عمِلَ سيفُ الدولةِ صَدَقَةُ سماطًا للسلطانِ جَلالِ الدولةِ أبي الفَتْحِ مَلِكْشاه؛ اشْتَمل على ألفِ رأسٍ من الغنمِ، ومائةٍ من الجمالِ والخيلِ وغيرِها، ودخَله عشرونَ ألفًا مَنًّا من السكرِ، وقد علَّق عليه من أصْنافِ الطُّيورِ والوُحوشِ المنفوخةِ من السكرِ شيءٌ كثيرٌ، فتناولَ السلطانُ منه شيئًا يسيرًا، ثم أشارَ فانْتُهِبَ عن آخرِه، ثم انتقَلَ من ذلك المكانِ إلى سُرادقٍ عظيمٍ لم يُرَ مثلُه من الحريرِ، وفيه خَمْسُمائةِ قطعةٍ من الفضةِ، وألوانٌ من تماثيلِ النَّدِّ والمِسْكِ والعَنْبَرِ وغيرِ ذلك، فمدَّ فيه سماطًا خاصًّا، فأكلَ السلطانُ حينَئذٍ، وحمَلَ إليه عِشْرينَ ألفَ دينارٍ، وقدَّمَ له ذلك السُّرادقَ بكَماله، وانْصرَفَ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

الأميرُ جَعْبَرُ بنُ سابقٍ القُشَيْرِيُّ، الملقَّبُ سابقَ الدينِ، كان قد تَمَلَّكَ قلعةَ جَعْبَرٍ مدةً طويلةً فنُسِبَتْ إليه، وإنَّما كان يقالُ لها قبلَ ذلك: الدَّوْسَرِيَّةُ. نسبَةً إلى غلامِ النُّعْمانِ بنِ المُنْذرِ، ثم إنَّ هذا الأميرَ كبِرَ وعَمِيَ، وكان له وَلَدانِ يقْطَعانِ الطريقَ، فاجْتازَ به السلطانُ مَلِكْشاه بنُ ألبِ أرْسلانَ السَّلْجُوقيُّ وهو ذاهبٌ إلى حَلَبَ؛ ليأخذَها فاستنزلَه منها وقتلَه، وأخذَها منهم في هذه السنة.

الأميرُ خُتْلُغُ أميرُ الحاجِّ؛ كان مُقْطَعًا الكوفَةَ، وله وقْعاتٌ مع العَرَبِ أعْربَتْ عن شجاعتِه، وأرْعبَتْ قلُوبهم، وشرَّدتهم في البلادِ شَذَرَ مَذَرَ، وقد كان حسنَ السيرةِ مُحافِظًا على الصلواتِ، كثيرَ التلاوةِ، وله آثارٌ حسنةٌ بطريقِ مَكَّةَ في إصْلاحِ المَصانعِ والأماكنِ التي يُحْتَاجُ إليها، وله مدرسةٌ على الحنفيَّةِ بمشَهْدِ يُونُسَ بالكُوفَةِ، وبنَى مسجدًا بالجانبِ الغربيِّ مِن بغدادَ على دِجْلَةَ، بمَشْرَعَةِ الكَرْخِ. وكانت وفاتُه في جُمادَى الأُولَى مِن هذه السنةِ، رحِمه اللَّهُ، ولَمَّا بلَغ نظامَ المُلكِ وفاتُه قال: ماتَ ألفُ رجلٍ.

عليُّ بنُ فَضَّالٍ المُجاشعيُّ، أبو الحسنِ النحويُّ المَغْربيُّ، له المصنَّفاتُ الدالَّةُ على علْمِه وغَزارَةِ فَهْمِه، وأسنَد الحديثَ. وكانت وفاتُه في ربيعٍ الأوَّلِ مِن هذه السنةِ، ودُفِنَ ببابِ أبْرَزَ.

عليُّ بنُ أحمدَ التُّسْتَريُّ، كان مُقَدَّمَ أهلِ البَصْرَةِ في المالِ والجِدَةِ، وله مراكبُ تَعْمَلُ في البحرِ. قرَأ القرآنَ وسمع الحديثَ، وتفَرَّدَ بروايةِ «سُنَنِ أبي داودَ». وكانت وفاتُه في رجَبٍ مِن هذه السنةِ.

يَحْيَى بنُ الحسينِ بنِ إسماعيلَ الحُسَيْنيُّ، كان فقيهًا على مذهبِ زَيْدِ بنِ عليٍّ، وعندَه معرفةٌ بالأُصولِ والحديثِ.

* * *

ثم دخلت سنة ثمانين وأربعمائة

في المحرَّم منها نُقِل جهازُ ابنة السلطان مَلِكْشَاه إلى دار الخلافة المكرَّمة على مائة وثلاثين جَمَلاً مُجلَّلةً بالدِّيباج الرُّوميِّ، غالبُها أواني الذهب والفضَّة، وعلى أربع وسبعين بَغْلاً مُجلَّلةً بأنواع الدِّيباج المَلَكيِّ، على ستَّةٍ منها اثنا عَشَرَ صُنْدُوقًا من فضة، فيها جواهرُ وحليٌّ، وبينَ يدَي البغال ثلاثٌ وثلاثون فَرَسًا عليها مراكبُ الذهب مُرَصَّعَةً بأنواع الجوهر، ومَهْدٌ عظيمٌ مُجلَّلٌ بالدِّيباج المَلَكيِّ عليه صفائحُ الذهب مُرَصَّعٌ بالجوهر، وبعثَ الخليفةُ لتلَقِّيهم الوزيرَ أبا شُجاع، وبينَ يدَيْه نحوٌ من ثلاثمائة مَوكِبِيَّةٍ غيرَ المشاعلِ لخدْمة الستِّ خاتُونَ امرأة السلطان تركان خاتُونَ، حماة الخليفة، وسألَها أنْ تحملَ الوديعةَ الشريفةَ إلى دار الخلافة، فأجابَتْ إلى ذلك، فحضرَ الوزيرُ نظامُ المُلك وأعيانُ الأمراء، وبينَ أيديهم من الشموع والمشاعلِ ما لا يُحْصَى، وجاءَتْ نساءُ الأمراء، كلُّ واحدةٍ منهنَّ في جَماعتِها وجَواريها، وبينَ أيْديهنَّ الشموعُ والمشاعلُ، ثم جاءَت الخاتُونُ ابنةُ السلطان زوجةُ الخليفة - بعدَ الجميع - في مِحَفَّةٍ مُجَلَّلَةٍ، وعليها من الذهب والجواهر ما لا تُحْصَى قيمتُه، وقد أحاطَ بالمِحَفَّة مائتا جارية تُرْكِيَّة بالمَراكبِ المُزَيَّنَة يَبْهَرْنَ الأبصارَ، فدَخَلَتْ دارَ الخلافة على هذه الصفة، وقد زُيِّنَ الحريمُ الطاهرُ وأُشْعِلَتْ فيه الشموعُ، وكانتْ ليلةً مشهودةً هائلةً جدًّا. فلمَّا كان من الغد، أحْضَرَ الخليفةُ أُمراءَ السلطانِ ومَدَّ سِماطًا لم يُرَ مثلُه، عمَّ الحاضرين والغائبين، وخلَع على الخاتُون زوجة السُّلْطان، وكان يومًا مَشْهُودًا، وكان السلطانُ مُتَغَيِّبًا في الصيد، ثم قدِمَ بعدَ أيام. وكان الدخولُ بها في أوَّل السنَة، فولَدتْ من الخليفة في ذي القَعْدَة ولدًا ذكرًا زُيِّنَتْ له بَغْدادُ. وفي هذه السنَة وُلِدَ للسلْطان مَلِكْشَاه ولدٌ سمَّاه محمودًا، وهو الذي ملَك بعدَه. وفيها جعَل السلطانُ ولدَه أبا شُجاع أحمدَ وليَّ العهد من بعده، ولَقَّبَه مَلِك المُلوك عَضُدَ الدولة وتاجَ المِلَّة عُدَّةَ أمير المؤمنينَ، وخُطِبَ له بذلك على منابرِ بغدادَ وغيرِها، ونُثِرَ الذهبُ على الخُطَباء عندَ ذكْرِ اسمه.

وفيها: شُرِعَ في بناء التاجيَّة بباب أَبْرَزَ، وعُمِلتْ مُسَنَّاةٌ، وغُرِسَتْ النخيلُ والفواكهُ هُنالكَ، وعُمِلَ سورٌ بأمْرِ السلطان مَلِكشاه.

وحَجَّ بالناس نجمُ الدولة خُمارْتِكينُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

إسماعيلُ بنُ مُوسَى بن سعيد، أبو القاسم الساويُّ، رحَل في الحديث إلى الآفاق حتى جاوَزَ ما وراءَ النهرِ، وكان له حظٌّ وافرٌ في الأدب، ومَعْرِفَة العربية، تُوُفِّي بنَيْسابُورَ في جُمادَى الأولى من هذه السنة.

طاهرُ بنُ الحُسَيْن البَنْدَنيجيُّ، أبو الوفا الشاعرُ المُبَرِّزُ، له قصيدَتان في مَدْح نظام المُلك؛ إحداهُما مُعْجَمَةٌ، والأُخْرَى غيرُ مَنْقُوطَة، أوَّلُها:

لاموا ولو علموا ما اللومُ ما لاموا وردَّ لومَهُمُ همٌّ وآلامُ

وكانت وفاته ببلده في رمضان عن نَيِّفٍ وسبعينَ سنةً.

محمدُ بنُ أميرِ المؤمنين المُقْتَدي بأمرِ اللَّه، عرَضَ له جُدَريٌّ فماتَ من هذه السنة وله تسعُ سنينَ، فحزن عليه والدُه والناسُ، وجَلَسُوا للعزاء، فأرسَلَ إليهم يقولُ: إنَّ لنا في رسولِ اللَّه أُسْوَةً حسنةً، حين تُوفِّي ابنُه إبراهيمُ، وقال اللَّهُ تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]. ثم عزَم على الناسِ فانصرَفُوا راجعين إلى منازلِهم.

محمدُ بنُ محمد بن زَيْد بن عليِّ بن مُوسىٰ بن جَعْفَر بن محمد بن عليِّ بن الحُسَين بن عليِّ بن أبي طالب، أبو الحَسن الحُسَيْنيُّ، المُلَقَّبُ بالمُرْتَضىٰ ذي الشَّرَفَيْن، وُلد سنةَ خمسٍ وأربعمائةٍ ببغدادَ ونشأ بها، وسمع الحديثَ الكثيرَ، وقرأ بنفسه على الشيوخِ، وصَحِب الحافظَ أبا بكرٍ الخطيبَ، فصارتْ له معرفةٌ جيدةٌ بالحديث، وسمع عليه الخطيبُ شيئًا من مَرْوِيَّاته، ثم انتقَل إلى سَمَرْقَنْدَ، وأَمْلىٰ الحديثَ بأصْبَهانَ وغيرِها. وكان يرجع إلى عقلٍ كاملٍ، وفَضْلٍ ومُروءَةٍ، وكانت له أموالٌ جزيلةٌ، وأملاكٌ مُتَّسعَةٌ، ونِعْمَةٌ وافرةٌ، يُقالُ: إنَّه ملَكَ أربعينَ قريةً. وكان كثيرَ الصَّدقةِ والبرِّ والصِّلَةِ للعُلَماءِ والفُقَراءِ، وبَلَغَتْ زكاةُ ماله الصامت عشَرَةَ آلاف دينارٍ غيرَ زكاة العُشُورِ، وكان له بُسْتانٌ ليسَ لملكٍ مثلُه، فطلَبَه منه مَلِكُ ما وراءَ النهرِ - واسمُه الخَضِرُ بنُ إبراهيمَ - عاريَّةً ليتَنَزَّهَ فيه، فأبىٰ عليه وقال: أُعيرُه إيَّاهُ ليَشْرَبَ فيه الخَمْرَ بعدَما كان مأوىٰ أهلِ العلمِ والحديثِ والدِّين؟ فأعْرَضَ عنه وحَقَدَ عليه، ثم اسْتَدْعاه إليه ليَسْتَشيرَه في بعضِ الأمورِ على العادةِ، فلمَّا حضرَ عندَه قبَضَ عليه وسَجَنَه في قلْعَته، واسْتَحْوَذَ على جميعِ أملاكه وحواصله وأمْوَاله، فكان يقولُ: ما تَحقَّقْتُ صحةَ نَسَبي إلا بهذه المُصادرَة، فإنِّي رُبيتُ في النَّعيم، فكنتُ أقولُ: إنَّ مثلي لا بدَّ أنْ يُبْتَلىٰ. ثم منَعُوه الطعامَ والشرابَ حتى ماتَ - رحِمَه اللَّهُ في القَلْعَة، فأخْرَجوه فدفَنوه هناك، فقَبْرُه يُزارُ، أكْرمَ اللَّهُ مَثْواه.

محمدُ بنُ هلال بن المحسِّن بن إبراهيمَ، أبو الحسَن بنُ الصابئ، المُلَقَّب بغرسِ النِّعْمَة، سمع أباه وأبا عليِّ بنِ شاذانَ، وكانتْ له صدَقَةٌ ومعروفٌ، وقد ذَيَّلَ على تاريخِ أبيه الذي ذَيَّلَه على تاريخِ ثابتِ بنِ سنان، الذي ذَيَّلَه على تاريخ ابن جرير الطَّبَريِّ، وقد أنْشَأَ دارًا ببَغْدادَ، ووقَفَ فيها أربَعَةَ آلافِ مُجَلَّدٍ، في فُنونٍ من العلوم، وتَرَكَ حينَ ماتَ سبعينَ ألفَ دينارٍ، ودُفِنَ بمَشْهَدِ عليٍّ، رضي اللَّهُ عنه ورحمه.

هِبَةُ اللَّه بنُ عليِّ بنِ محمد بن أحمدَ بن المحلِّي، أبو نصر، جمَع خُطَبًا ووَعْظًا، وسمع الحديثَ على مشايخَ عديدة، وتُوفِّيَ شابًّا قبلَ أوانِ الروايةِ.

أبو بكر بن عمرَ، أميرُ المُلَثَّمينَ، كان في أرض فرْغَانَةَ، اتفَق له من الناموس ما لم يَتَّفِقْ لغيره من المُلوك، كان يركَبُ معه إذا سارَ لقتال عَدُوٍّ خَمْسُمائةِ ألف مُقاتلٍ، كلٌّ يَعْتَقدُ طاعتَه، وكان يُقيمُ الحدودَ ويحفَظُ محارمَ الإسلامِ، ويَسيرُ في الناسِ سيرةً شرعيَّةً، مع صحة معتَقَده، ومُوالاة الدولة

العباسيَّة. أصابتْه نُشَّابَةٌ في بعْضِ حروبه، فجاءَتْه في حلقه فقتَلَتْه في هذه السنة.

فاطمَـةُ بنتُ عليٍّ، المُؤدِّبَةُ الكاتبةُ، وتُعْرَفُ ببنت الأقرَعِ، سمعَتْ الحديثَ من أبي عمرَ بن مَهْدِيٍّ وغيرِه، وكانت تكتُبُ المَنْسوبَ على طريقةِ ابنِ البوَّابِ، ويكْتُبُ الناسُ عليها، وبخَطِّها كانت الهُدْنَةُ منَ الديوانِ إلى مَلِك الروم، وكتَبَتْ مرةً إلى عـميدِ المُلْكِ الكُنْدُرِيِّ رُقْعَةً فأعْطاها ألفَ دينارٍ. تُوفِّيَتْ في المُحَرَّمِ من هذه السنةِ ببغداد ودُفِنَتْ ببابِ أَبْرَزَ.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وأربعمائة

فـيهـا: كانت فِتَنٌ عَظيمةٌ بينَ الرَّوافضِ والسُّنَّة ببَغْدادَ، وجَرَتْ خطوبٌ كثيرةٌ. وفي ربيعٍ الآخرِ أُخْرِجَتْ الأتراكُ من حريمِ الخلافَة، وهذا فيه قوةٌ للخلافَة. وفيها مَلَك مَسْعُودُ بنُ المَلِك المؤيَّد بن إبراهيمَ بنِ مسعودِ بنِ محمودِ بنِ سُبُكْتكينَ بلادَ غَزْنَةَ بعدَ أبيه. وفيها فتَح مَلِكْشاه مدينَةَ سَمَرْقَنْدَ. وحجَّ بالناسِ الأميرُ خُمارتكينُ، ومِمَّن حجَّ فيها الوزيرُ أبو شُجاعٍ، واستنابَ ولدَه أبا منصورٍ وطِرادَ ابنَ محمدٍ الزَّيْنَبِيَّ.

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

أحمدُ بنُ السلطانِ مَلِكْشاه، كان وليَّ عَهْدِ أبيه، تُوفِّيَ وعُمْرُه إحدىٰ عشْرَةَ سنَةً، فمكَثَ الناسُ في العَزاءِ سبعةَ أيامٍ لم يَرْكَبْ أحدٌ فَرَسًا، والنِّساءُ يَنُحْنَ عليه في الأسْواقِ، وسوَّدَ أهلُ البِلادِ التي لأبيه أبوابَهم.

عبدُ اللَّه بنُ محمد بنِ عليِّ بنِ محمد بـن عليِّ بنِ جعفرٍ، أبو إسْماعيلَ الأنصاريُّ الهَرَويُّ[1]، روىٰ الحديثَ وصَنَّفَ، وكان كثيرَ السهرِ بالليلِ، وكانتْ وفاتُه بهَرَاةَ في ذي الحَجَّة عن ستٍّ وثمانينَ سنةً.

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين وأربعمائة

في المحرَّم درَّسَ أبو بكرٍ الشَّاميُّ بالمدرَسَةِ التَّاجيَّةِ ببابِ أَبْرَزَ، وكان قد أنشَأها الصاحبُ تاجُ المُلْكِ أبو الغنائمِ علىٰ الشَّافعيَّةِ.

وفيـها: كانت فتَنٌ عظيمةٌ بينَ الرَّوافضِ والسُّنَّةِ، ورفَعوا المصاحفَ، وجَرَتْ حروبٌ طويلةٌ، وقُتِلَ خلقٌ كثيرٌ؛ نقَل ابنُ الجَوْزيِّ في «المُنْتَظَم» من خطِّ ابنِ عقيلٍ، أنَّه قُتل في هذه السنَةِ قـريبٌ من مائتَيْ رجلٍ، قـال: وسَبَّ أهلُ الكَرْخِ الصحابةَ وأزْواجَ رسولِ اللَّه ﷺ، وارْتَفَعُوا إلى سَبِّ رسولِ اللَّه ﷺ، فلَعَنَةُ اللَّه علىٰ أهْلِ الكَرْخِ الذين فَعَلُوا ذلك. وإنما حكَيتُ هذا ليَعْلَمَ الواقفُ عليه ما في طَوايَا الروافضِ منَ الخُبْثِ والبُغضِ لدينِ الإسلامِ وأهْلِه، والعداوةِ الباطنَةِ الكامنَةِ في قلوبِهم للَّه ولرسولِه وشريعَتِه.

وفـيهـا: مَلَكَ السلطانُ ملِكْشَـاه ما وراءَ النهرِ وطائفَةً كثيرةً من تلك الناحيَةِ، بعدَ حروبٍ عظيـمةٍ ووقَعاتٍ هائلَةٍ.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٨/ ٥٠٣-٥١٨).

وفيها: استولى جيشُ المصريين على عدَّةٍ من بلادِ الشام. وفيها عُمِّرَتْ منارةُ جامعِ حَلَبَ.

وفيها: أَرْسَلَت الخاتُونُ بنتُ السلْطان تَشْكُو إلى أبيها إعْراضَ الخليفة عنها، فبَعثَ إليها أبوها الطواشيَّ صَوَابًا والأميرَ بَرَّانَ ليُرْجِعَاها إليه، فأجابَ الخليفةُ إلى ذلك، وبعَث معها بالنقيبِ وجَمَاعَةٍ من أعْيانِ الأُمراء، وخرجَ ابنُ الخليفة أبو الفَضْلِ والوزيرُ فشَيَّعاها إلى النَّهْرَوانِ وذلك في ربيعٍ الأوَّل، فلمَّا وصلَتْ إلى عند أبيها تُوفِّيَتْ في شَوَّالٍ من هذه السنَةِ بأصْبَهانَ، فعُمِلَ عَزاؤها ببغْدادَ سبعةَ أيامٍ، وأرْسَلَ الخليفةُ إلى السلْطانِ أميرَيْنِ لتعزيتِه فيها. وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ خُمارتِكينُ.

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

عبدُ الصَّمَدِ بنُ أحمدَ بن عليٍّ، المعروفُ بظاهرٍ، النَّيْسَابُوريُّ، الحافظُ، رحَل وسمع الكثيرَ، وخرَّجَ، وعاجَلَهُ الموتُ في هذه السنَةِ بهَمَذَانَ وهو شابٌّ.

عليُّ بنُ أبي يعْلَى بن زيد، أبو القاسمِ الدَّبُوسيُّ، مدرسُ النِّظاميةِ بعدَ المُتَولِّي، وقد سمع شيئًا منَ الحديث، وكان فَقِيهًا ماهرًا، وجَدَلِيًّا باهرًا.

عاصمُ بنُ الحسن بن محمد بن عليِّ بن عاصم بن مهْرانَ، أبو الحُسَيْنِ العاصِمِيُّ، مِن أهْلِ الكَرْخِ، سكَن بابَ الشَّعيرِ، وُلِدَ سنةَ سَبْعٍ وتسعينَ، وكانَ من أهل الفضل والأدب وسمع الحديث من الخطيب وكان ثقة حافظًا، ومن شعرِه الجيدِ قولُه:

لَهَفي على قَومٍ بكاظِمَةٍ	ودَّعْتُهم والرَّكْبُ مُعْتَرِضُ
لم تَتْركِ العَبَراتُ مُذْ بَعُدُوا	لي مُقْلَةً تَرنُو وتغْتَمِضُ
رحَلوا فَدَمْعي واكفٌ هَطِلٌ	جارٍ وقَلْبي حَشْوُهُ مَرَضُ
وتَعَوَّضُوا لا ذُقْتُ فَقْدَهُمُ	عنِّي ومالي عنهُمُ عِوَضُ
أقْرَضْتُهمْ قَلْبي على ثقةٍ	منهم فما رَدُّوا الذي اقْتَرَضُوا

محمدُ بنُ أحمدَ بن حامد بن عُبَيْد، أبو جَعْفَرٍ البُخاريُّ المُتَكَلِّمُ المعتزليُّ، أقامَ بَبغْدادَ ويُعْرفُ بقاضي حَلَبَ، وكان حَنَفيَّ المَذْهَبِ في الفروعِ، مُعْتَزِليًّا في الأُصولِ، مات بَبَغْدادَ في هذه السنةِ، ودُفِنَ بباب حَرْب.

محمدُ بنُ أحمدَ بن عبد اللَّه بن محمد بن إسماعيلَ الأصْبَهانيُّ، المعروفُ بسَمْكُويه، أحدُ الحفَّاظِ الجوَّالينَ الرَّحَّالينَ، سمع الكثيرَ، وجمَعَ الكُتُبَ، وأقامَ بهَرَاةَ، وكان صالحًا كثيرَ العبادةِ، تُوفِّيَ بنَيْسَابُورَ في ذي الحِجَّةِ من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة

في المُحرَّمِ وَرَدَ الفَقيهُ أبو عبد اللَّه الطَّبَريُّ بمَنْشورِ نظامِ المُلْك بالتدريسِ بالنِّظاميةِ ببغدادَ، فدرَّسَ بها، ثم في ربيعٍ الأوَّل وردَ الفَقيهُ أبو محمدٍ عبدُ الوهَّابِ الشيرازيُّ بمَنْشُورٍ آخرَ منه بالتدْريسِ بها، فاتفقَ الحالُ على أنْ يُدرِّسَ هذا يومًا وهذا يومًا.

وفي جُمَادَىٰ الأولَىٰ دَهَمَ أهْلَ البَصْرَةِ رجلٌ اسمُه: تلْيَا، كان ينظُرُ في النجوم، فاستَغْوَىٰ خلقًا من أهْلها، وزَعَمَ أنَّه المَهْديُّ، وأحْرَقَ منَ البَصْرَةِ شيئًا كثيرًا، منْ ذلك دارَ كُتُبٍ كانت أولَ دارَ كُتُبٍ وُقِفتْ في الإسلام، وأتْلَفَ شيئًا كثيرًا منَ الدَّواليبِ والمصانعِ؛ وغيرِ ذلك.

وفيها: خُلعَ علىٰ أبي القاسم عليِّ بنِ طرادٍ الزَّيْنَبيِّ بنقابة العبَّاسيِّين بعدَ أبيه. وفيها استُفْتيِ علىٰ مُعَلِّمي الصِّبْيانِ أنْ يُمْنَعوا منَ المساجد صيانةً لها، ولم يُسْتَثْنَ منهم سوىٰ رجلٍ كان فقيهًا شافعيًا يدْري كيفَ تُصانُ المساجدُ، واستَدَلَّ المُفْتي بقوله عليه الصلاةُ والسلامُ: «سدُّوا كلَّ خَوْخَةٍ إلا خَوْخَةَ أبي بَكْرٍ». وحَجَّ بالناسِ فيها خُمارْتِكينُ علىٰ العادة.

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

الوزيرُ أبو نَصْرٍ بن جَهِير، محمدُ بنُ محمد بن جَهِير، فخرُ الدولة، أحدُ مشاهيرِ الوزراء، وزَرَ للقائم، ثم لولَدِه المُقْتَدي، ثُم عزلَه مَلِكْشاه السلْطانُ وولاَّه ديارَ بَكْرٍ وغيرَها، فمات بالمَوْصلِ في هذه السنةِ، وهي البلدُ التي وُلِدَ بها.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وأربعمائة

في المُحرَّم منها كتَبَ المُنَجِّمُ الذي أحْرَقَ البَصْرَةَ إلىٰ أهْلِ واسطٍ يدْعُوهم إلىٰ طاعته، ويذكُرُ في كتابه أنَّه المَهْديُّ صاحبُ الزمان الذي يأمُرُ بالمعروف، وينْهَىٰ عن المنكرِ، ويهدي الخَلْقَ إلىٰ الحقِّ، فإنْ أطَعْتُم أمِنْتُم منَ العذاب، إنْ عَدَلْتُم عن الحقِّ خُسِفَ بكم، فآمِنُوا باللَّه وبالإمام المَهْديِّ.

وفيها: أُلْزِمَ أهلُ الذِّمَّةِ بلُبسِ الغيارِ وشَدِّ الزُّنَّارِ، وكذلك نساؤهم في الحمَّامات وغيرِها. وفي جُمَادَىٰ الأولَىٰ قدمَ الشيخُ أبو حامدٍ محمدُ بنُ محمدٍ الغَزَّاليُّ الطُّوسيُّ من أصْبَهانَ إلىٰ بَغْدادَ علىٰ تدْريسِ النِّظامية بها، ولَقَّبَه نظامُ المُلْكِ زَيْنَ الدينِ شَرَفَ الأئمَّةِ.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: وكان كلامُه معسولاً، وذكاؤه شديدًا. وفي رمضانَ منها عُزِلَ الوزيرُ أبو شجاعٍ عن وزارةِ الخلافَةِ، فأنشَدَ عنَ عزْلِه:

تَوَلاَّها وليسَ لـه عـدوٌّ ... وفـارَقَـهـا وليْسَ لـه صـديقُ

ثم جاءه كتابُ نظامِ المُلْك بأنْ يخرُجَ من بَغْدادَ، فخرَجَ منها إلىٰ عدَّة أماكنَ فلم تَطِبْ له، فعزَمَ علىٰ الحجِّ، ثم طابَتْ نفسُ النِّظام عليه فبعَثَ إليه، يسْألُه أنْ يكونَ عديلَه في ذلك، ونابَ ابنُ المُوصَلايا في الوزارة، وقد كان أسلَم قبلَ هذه المُباشرةِ في أوَّل هذه السنة. وفي رمضانَ دخَلَ السلْطانُ مَلِكْشاه ومعه الوزيرُ نظامُ المُلْك، وقد خرَجَ لتَلَقِّيه قاضي القُضاة أبو بكرٍ الشاميُّ، وابنُ المُوصَلايا المُسْلمانيُّ، وجاءتْ ملوكُ الأطْرافِ إليه؛ للسَّلام عليه، منهم أخوه تاجُ الدولةِ تُتُشُ صاحبُ دِمَشْقَ، وأتابكُه قَسيمُ الدوْلة آقْ سُنْقُرُ صاحبُ حَلَبَ.

وفي ذي القَعْدَةِ خرَجَ مَلِكْشاه وابنُه وابنُ ابْنَته منَ الخليفةِ في خلقٍ كثيرٍ إلىٰ الكُوفَةِ.

وفيها: استوزر أبو منصور بنُ جَهير - وهي النَّوبةُ الثانيةُ لوزارتِه للمُقتدي - وخُلعَ عليه، وركبَ إليه نظامُ المُلك فهنَّأه في داره بباب العامَّة. وفي ذي الحَجَّة عملَ السلطانُ الميلادَ في دِجْلَة، وأُشعلَتْ نيرانٌ عَظيمةٌ، وأُوقدَتْ شموعٌ كثيرةٌ، وكانت ليلةً مشهُودةً عجيبةً جدًّا، وقد نَظَمَ فيها الشُّعراءُ الشِّعْرَ، فلمَّا أصْبحَ النهارُ من هذه الليْلَة طيفَ بالخَبيثِ الداعية المدَّعي أنَّه المَهْديُّ - تلْيَا المُنَجِّم - على جَمَلٍ ببَغْدَادَ وهو يَسُبُّ الناسَ، والناسُ يَلْعَنُونَه، وعلى رأسه طَرْطُورٌ بوَدَعٍ، والدِّرَّةُ تأخُذُه من كلِّ جانبٍ، ثم صُلبَ بعدَ ذلك.

وفيها: أمَرَ السلطانُ مَلِكْشَاه جلالُ الدولة بعمارة جامعه المَنْسُوبُ إليه بظاهرِ السُّور. وفي هذه السنة ملَكَ أميرُ المسلمين يوسُفُ بنُ تاشفينَ صاحبُ بلادِ المغربِ كثيرًا من بلادِ الأنْدَلُسِ، وأسَرَ صاحِبَها المعتَمِدَ بنُ عبَّادٍ، وسجَنَه وأهْلَه بأغْماتَ، وقد كان المعتمدُ هذا مَوْصُوفًا بالكرمِ والأدبِ والحلم، وحُسْنِ السِّيرةِ والعِشْرَةِ والإحْسَانِ إلى الرعيَّةِ، والرِّفْقِ بهم، فحزنَ الناسُ عليه، وقال في مُصَابِه الشُّعراءُ فأكْثَرُوا.

وفيها: مَلَكَت الفرنْجُ مدينَةَ صقلِّيَةَ من بلادِ المغربِ، وماتَ ملكُهم، فقامَ من بعدِه ولَدُه، فسارَ في الناسِ سيرَةَ ملُوكِ المسلمين، وأحْسَنَ إليهم كأنَّه منهم.

وفيها كانت زلازلُ كثيرةٌ بالشام وغيرها، فهدَّمَتْ بُنْيَانًا كثيرًا، وكان من جملة ذلك تِسْعُونَ بُرْجًا من سورِ أنْطَاكِيَةَ، وهلَكَ تحتَ الهَدْمِ خلقٌ كثيرٌ. وحَجَّ بالناسِ فيها خُمارْتكينُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

عبدُ الرحمن بن أحمدَ بن عَلَّكَ، أبو طاهرٍ وُلِدَ بأصْبَهانَ، وتَفَقَّه بسَمَرْقَنْدَ، وهو الذي كان سببَ فَتْحِها على يد السلْطان مَلِكْشاه، وكان من رؤساء الشافعيَّة، وقد سمعَ الحديثَ الكثيرَ. قال عبدُ الوهَّاب بن مَنْدَه: لم نَرَ فَقيهًا في وقتنا أنصفَ منه، ولا أعلَمَ، وكان فصيحَ اللهجة كثيرَ المروءة غزيرَ النِّعْمَة، وكانت وَفاتُه ببَغْدَادَ، ومشَى الوزراءُ والكُبَراءُ في جنازته، غيرَ أنَّ نظامَ المُلْك ركبَ، واعْتَذَرَ بكِبَرِ السِّنِّ، ودُفنَ إلى جانب الشيخ أبي إسْحاقَ الشِّيرازيِّ، وكان يومًا مَشْهُودًا، وجاءَ السلْطانُ مَلِكْشاه إلى التُّربة. قال ابنُ عَقيلٍ: جلَسْتُ بكرةَ العزاء إلى جانب نظام المُلْك، والملوكُ قيامٌ بينَ يدَيْه، اجتَرَأتُ على ذلك بالعلم. حكاه ابنُ الجَوْزيِّ.

محمدُ بنُ أحمدَ بن عليِّ بن حامد، أبو نصرٍ المَرْوَزيُّ، كان إمامًا في القراءات، وله فيها المُصَنَّفاتُ، وسافَر في ذلك كثيرًا، واتَّفقَ أنَّه غرقَ في البحرِ في بعضِ أسْفاره، فبَيْنَما الموجُ يرفَعُه ويضَعَه إذ نظَرَ إلى الشمسِ قد زالتْ، فنوَى الوُضوءَ وانغَمَسَ في الماء ثم صعد، فإذا خَشَبَةٌ فركِبَها وصلَّى عليها، ورزَقَه اللّهُ السلامةَ ببَرَكَة الصلاة، وعاشَ بعدَ ذلك دهرًا، وتُوُفِّي في هذه السنة، وله نَيِّفٌ وتسعونَ سنةً.

محمدُ بنُ عبدِ الله بن الحُسَين، أبو بكر النَّاصحُ، الفقيه الحنفيُّ المناظرُ المتكلِّمُ المعتَزِليُّ، وقد وليَ

القضاءَ بنَيْسابورَ، ثم عُزِلَ منها بخيانةٍ وُكَلائه وأخذهم الرُّشا، ووَلِيَ قضاءَ الرَّيِّ، وقد سمع الحديثَ، وكان من أكابرِ العلماء. تُوُفِّي في رجبٍ منها.

أُرْتُقُ بنُ أكْسَبَ التُّرْكُمانيُّ، جَدُّ الملوكِ الأرتقيَّة الذين همُ اليومَ ملوكُ مَارْدِينَ، كان شهْمًا شجاعًا عاليَ الهِمَّةِ، تغلَّب على بلادٍ كثيرةٍ، وقد ترجَمه ابنُ خَلِّكانَ، وأرَّخ وفاتَه بهذه السنة.

ثم دخلت سنةُ خمسٍ وثمانين وأربعمائة

فيها: أمَر السلطانُ مَلِكْشاه ببناءِ سوقِ المدينةِ المعروفةِ بطُغْرُلْبَك، إلى جانبِ دارِ المُلك، وجدَّد خاناتِها وأسْواقَها ودُورَها، وأمَر بتجديدِ الجامعِ الذي تَمَّ على يد هارونَ الخادمِ في سنة أربعٍ وعشرين وخمسمائة، ووقَف على نَصْبِ قِبْلَته بنفسه، ومُنَجِّمُه إبراهيمُ حاضرٌ، ونُقِلَتْ إليه أخشابُ جامعِ سَامَرَّا، وشرَع نظامُ المُلكِ في بناءِ دارٍ هائلةٍ له، وكذلك تاج الملوكِ أبو الغنائم، شرَع في بناءِ دارٍ هائلةٍ أيضًا، واستَوْطَنُوا البلدَ، فطابَتْ لهم بغدادُ.

وفي جُمادَى الأولى وقَع حريقٌ عظيمٌ ببَغدادَ في أماكنَ شَتَّى، فما أُطْفِئَ حتى هلَك للناسِ شيءٌ كثيرٌ، فما عَمَّرُوا بقَدْرِ ما حُرِق وما غرِموا.

وفي ربيعٍ الأول خرَج السلطانُ إلى أصْبهانَ، وفي صُحْبَته ولدُ الخليفة أبو الفَضْلِ جعفرٌ، ثم عادَ إلى بغدادَ في رمضانَ، فبَينما هو في الطريقِ يومَ عاشرِه عدَا صبيٌّ من الدَّيْلَمِ على الوزيرِ نظامِ المُلك، بعدَ أن أفْطَرَ، فضرَبه بسكِّينٍ فقضَى عليه، وأُخِذَ الصبيُّ الدَّيْلَميُّ فقُتِلَ. وقد كان من كبارِ الوزراءِ، وخيارِ الأمراء، وسنَذْكُرُ شيئًا من سيرته عندَ ذكرِ تَرْجَمته.

وقدم السلطانُ بغدادَ في رمضانَ بنيَّةٍ غيرِ صالحةٍ، فلقَّاه اللَّهُ في نفْسه ما يتَمنَّاه لأعْدائه؛ وذلك أنَّه لمَّا استقرَّ رِكابُه ببغدادَ، وجاء الناسُ للسَّلامِ عليه، والتَّهْنئةِ بقُدومه، وأرْسَل إليه الخليفةُ يُهَنِّئُه، بعَث إلى الخليفةِ يقولُ له: لا بدَّ أنْ تترُكَ لي بغدادَ، وتتَحوَّلَ إلى أيِّ البلادِ شئتَ. فأرْسَل إليه الخليفةُ يستَنظِرُه شهرًا، فقال: ولا ساعةً واحدةً. فأرسَل يتوسَّلُ إليه في إنظارِه عشَرةَ أيامٍ، فأجابَ إلى ذلك بعدَ تمنُّعٍ شديدٍ، فما استَتَمَّ الأجلُ حتى خرَج السلطانُ يومَ عيدِ الفطرِ إلى الصَّيدِ، فأصابَتْه حُمَّى شديدةٌ، فافتصَد، فما قامَ منها حتى مات قبلَ العشَرةِ أيامٍ، وللَّه الحمدُ والمنةُ.

فاستَحْوَذَتْ زوجتُه زُبيدةُ خاتون على الجيشِ، وضبَطَتِ الأحْوالَ جيِّدًا، وأرْسَلَتْ إلى الخليفة تسْأَلُ أن يكونَ ولَدُها محمودٌ مَلكًا بعدَ أبيه، وأنْ يُخْطَبَ له على المنابرِ، فأجابَها إلى ذلك، وأرْسَلَ إليه بالخِلَعِ، وبعَث إليها يُعَزِّيها ويُهَنِّئُها مع وزيرِه عميدِ الدولةِ ابنِ جَهِيرٍ، وكان عُمُرُ الملك محمود هذا يومَئذٍ خمسَ سنين، ثم أخَذَتْه والدتُه في الجيوشِ، وسارتْ به نحوَ أصْبَهانَ لتُوَطِّدَ له المُلْكَ، فدخَلوها وتمَّ لهم مرادُهم، وخُطِبَ له في جميعِ البلادِ حتى في الحرمَيْن، واستُوْزِرَ له تاجُ المُلكِ أبو الغنائمِ المرْزُبانُ بنُ خِسْرُو، وأرْسَلَتْ أمُّ الملكِ محمودٍ تسألُ له منَ الخليفةِ أن يُوَلِّيَه المُلْكَ، وأن يجعَلَ

ولايات العمال إليه، فقال الخليفةُ: هذا لا يُسيغُه الشرعُ. ووافَقَه الغزَّاليُّ على ذلك، وأفتى المُشَطَّبُ ابنُ محمد الحنفيُّ بجواز ذلك، فلم يُعْمَلْ إلا بقول الغزَّاليِّ، وانحازَ أكثرُ جيش السلطان إلى ابنه الآخر بَرْكْيَارُوقَ، فبايَعوه وخَطَبُوا له بالرَّيِّ، وانفرَدَت الخَاتونُ وولدُها ومعهم شِرْذِمَةٌ قليلةٌ من الجيش والخاصكيَّة، فأنْفَقَتْ فيهم ثلاثين ألفَ ألف دينار لقتال بَرْكْيَارُوقَ بن مَلَكْشَاه، فالتَقَوا في ذي الحَجَّة، فكانت خاتونُ هي المنهزمة ومعها ولدُها. وقد ثبَت في «صحيح البخاريِّ»: «لن يُفْلِحَ قومٌ ولَّوا أمرَهُمُ امرَأَةً».

وفي ذي القَعْدَة اعْتَرَضَتْ بنُو خَفَاجَةَ للحَجيج، فقاتَلَهم مَن في الحَجيج من الجُند مع الأمير خُمَارْتكينَ، فهزَمُوهم، ونُهِبَتْ أموالُ الأعراب، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وفيها: جاء بَرَدٌ شديدٌ عظيمٌ بالبصرة، وَزْنُ البَرَدَة الواحدة منه خمسةُ أرْطال، إلى ثلاثة عشَرَ رِطْلاً، فأتْلَفَتْ شيئًا كثيرًا من الأشجار، وجاءَ ريحٌ عاصفٌ قاصفٌ فألْقَى عشَرات الألوف من النخيل أيضًا، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وفي هذه السنة ملَك تاجُ الدولة تُتُشُ صاحبُ دمَشقَ مدينةَ حِمْصَ، وقلعةَ عِرْقَةَ، وقلعةَ أفَامِيَةَ، ومعه قَسيمُ الدولة آقْ سُنْقُرُ، وكان السلطانُ قد جَهَّزَ سَرِيَّةً إلى اليمن صُحْبَةَ سعد الدولة كُوهْرائينَ، وأمير آخر من التركمان فدخلاها وأساءا فيها السيرةَ فتوفي كوهْرائينَ يومَ دخوله إليها في مدينة عَدَنَ، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

جعفرُ بنُ يَحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن، أبو الفَضْل التَّميميُّ، المعروفُ بابن الحكَّاك المكِّيِّ، رحَل في طلَب الحديث إلى الشام والعراق وأصْبَهانَ، وغير ذلك من البلاد، وسَمِع الكثيرَ، وخرَّج الأجزاءَ، وكان حافظًا مُتْقنًا، ثقةً ضابطًا أديبًا، صدُوقًا خيِّرًا، وكان يَتَراسَلُ عن صاحب مكَّةَ، وكان من ذوي الهَيْئَات والمُروءَات، قارَبَ الثمانين، رحمه اللهُ.

نظامُ المُلْك الوزيرُ هو الحسَنُ بنُ عليِّ بن إسْحاقَ بن العباس، أبو عليٍّ الوزيرُ، نظامُ المُلْك، وزَر للمَلك ألب أرْسَلانَ، وولَده مَلَكْشَاه تسعًا وعشرين سنةً، كان من خيار الوزراء، وُلدَ بطُوسَ في سنة ثمانٍ وأربعمائة، وكان أبوه ممَّن يخدُمُ أصحابَ محمود بن سُبُكْتِكينَ، وكان من الدَّهاقين، فأشْغَل ولدَه هذا، بقراءة القرآن وله إحدَى عشْرَةَ سنةً، وأشْغَلَه بعلم القراءات والتَّفَقُّهُ على مذهب الشافعيِّ، وسماعِ الحديث واللغة والنحو، وكان عاليَ الهمَّة فحصَّل من ذلك طرَفًا صالحًا، ثم ترقَّى في المراتب حتى وزَر للسلطان ألْب أرْسَلانَ، بن داودَ بن ميكائيلَ بن سَلْجُوقَ، ثم من بعده لولَده مَلَكْشَاه لم يُنْكَبْ في شيءٍ منها.

وبنَى المدارسَ النِّظاميَّات ببَغدادَ ونَيْسَابورَ وغيرهما، وكان مَجلسُه عامرًا بالفقهاء والعلماء،

بحيثُ يقضي معهم عامَّةَ أوقاته، فقيل له: إنَّ هؤلاء قد شَغَلُوك عن كثيرٍ من المصالح. فقال: هؤلاءِ جمالُ الدنيا والآخرة، ولو أجْلَسْتُهم على رأسي ما استَكْثَرْتُ ذلك. وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القُشَيْرِيُّ، وأبو المعالي الجُوَيْنيُّ قام لهما، وأجْلَسهما في المَسْنَد، فإذا دخَل أبو عليٍّ الفَارْمَذيُّ قامَ وأجْلَسَه مكانَه، وجلَسَ بينَ يدَيْه، فعُوتبَ في ذلك، فقال: إنَّهما إذا دخَلا عليَّ قالا: أنتَ وأنتَ. فازْدادُ تيهًا، وأمَّا الفَارْمَذيُّ يذكرُ لي عُيُوبي وظُلْمي فأنْكَسِرُ وأرْجِعُ عن كثيرٍ منَ الذي أنا فيه.

وكان مُحافظًا على الصلوات في أوْقاتها لا يشغَلُه بعدَ الأذانِ شُغلٌ عنها، وكان يُواظِبُ على صيام الإثنين والخميس، وله الأوْقافُ الدَّارَّةُ، والصدقاتُ البارَّةُ.

وكان يُعَظِّمُ الصُّوفيَّةَ تعْظيمًا زائدًا، فعُوتبَ في ذلك، فقال: إنِّي كنتُ أخدُمُ بعضَ الأمراء فجاءني يومًا إنسانٌ، فقال لي: اخدُمْ مَن تَنْفَعُكَ خدْمَتُه، ولا تخدُمْ مَن تأكُلُه الكلابُ غدًا. فلم أفهَمْ ما يقولُ، فاتَّفَقَ أنَّ ذلك الأميرَ سكِرَ تلك الليلةَ، فخرَج في أثناء الليلِ وهو ثَمِلٌ، وكانتْ له كلابٌ تفْتَرِسُ الغرباءَ بالليل، فلم تعرِفْه ومزَّقَتْه، فأصْبَح وقد أكَلَتْه الكلاب، قال: فأنا أطْلُبُ مثلَ ذلك الشيخَ.

وقد أسمَعَ الحديثَ في أماكنَ شتَّى بِبَغْدادَ وغيرها، وكان يقولُ: إنِّي لأعْلَمُ بأنِّي لسْتُ أهْلاً للرِّواية، ولكنِّي أحبُّ أن أُرْبَطَ في قطارِ نقَلَة حديث رسول اللَّه ﷺ. وقال أيضًا: رأيْتُ في المنام إبليسَ فقلتُ له: ويْحَكَ، خلقَك اللَّهُ وأمَرَكَ بالسُّجودِ له مُشَافَهَةً فأبَيْتَ، وأنا لم يأمُرْني بالسُّجودِ وأنا أسْجُدُ له في كلِّ يومٍ مرَّاتٍ، فأنشأَ يقولُ:

مَن لم يكُنْ للوصَالِ أهْلاً ... فكُلُّ إحْسَانِه ذُنوبُ

وقد أجْلَسَه المُقْتَدي مرةً بينَ يدَيْه، وقال له: يا حسَنُ، رضِي اللَّهُ عنك برِضا أميرِ المؤمنين عنك. وقد مَلَك أُلوفًا من الترك.

وكان له بنونَ كثيرةٌ، وزَر منهم خمسةٌ؛ وزَر ابنُه أحمدُ للسلطانِ محمدِ بن مَلَكْشاه، ولأميرِ المؤمنين المُسْتَرْشد باللَّه.

خرَج نظامُ المُلْك مع السلطانِ من أصْبَهانَ قاصدًا بَغْدادَ في مُسْتَهَلِّ رمضانَ من هذه السنة، فلمَّا كان اليومُ العاشرُ اجْتَاز في بعضِ طريقه بقريَةٍ بالقُرْبِ من نَهاوَنْدَ وهو يُسايِرُه في محَفَّةٍ، فقال: قد قُتِل ههنا خلقٌ من الصحابة زمنَ عمرَ، رضيَ اللَّهُ عنه، فطُوبَى لمَن يكونُ عندَهم. فاتَّفَقَ أنَّه لمَّا أفْطَر جاءَه صبيٌّ في هيئَة مُسْتَغيثٍ به ومعه قصَّةٌ، فلمَّا انْتَهَى إليه ضرَبه بسكِّينٍ في فؤاده وهرَب. فعثَر بطُنُب الخَيْمَة، فأُخذَ فقُتلَ، ومكَث الوزيرُ ساعةً، وجاءَه السلطانُ يعودُه فماتَ وهو عندَه، رحمَه اللَّهُ، وقد اتُّهِم السلطانُ في أمْره أنَّه هو الذي مَالأَ عليه، فلم تَطُلْ مدَّتُه بعدَه سوَى خمسةٍ وثلاثين يومًا، فكان في ذلك عِبْرَةٌ لأُولِي الألْباب.

ولمَّا بلَغَ أهْلَ بغدَادَ موتُ النِّظامِ حزِنوا عليه، وجلَسَ الوزيرُ والرؤساءُ للعزاءِ ثلاثةَ أيامٍ، ورثاه الشُّعراءُ، منهم مُقاتِلُ بنُ عطيَّةَ، فقال:

كانَ الوزيرُ نظامُ المُلكِ لؤلؤةً ... يَتيمةً صاغَها الرحمنُ من شرَفِ
عزَّتْ فلم تَعْرفِ الأيامُ قيمتَها ... فردَّها غَيرةً منهُ إلى الصَّدَفِ

وأثْنَى عليه ابنُ عَقيلٍ وابنُ الجَوْزيِّ وغيرُهما، رحمه اللَّه.

عبدُ الباقي بنُ محمد بن الحُسَين بن داودَ بن ناقيَا، أبو القاسمِ الشاعرُ، من أهْلِ الحَريمِ الطاهريِّ، وُلِدَ سنةَ عَشْرٍ وأربعمائةٍ، وسَمع الحديثَ، وكان أديبًا شاعرًا ماهرًا، غيرَ أنَّه رَماه بعضُهم برأيِ الأوائلِ، وأنَّه قال: في السماءِ نهرٌ من ماءٍ ونهرٌ من لَبَنٍ، ونهرٌ من خمرٍ، ونهرٌ من عسَلٍ، وما يسقُطُ من ذلك قطرةٌ إلى الأرضِ إلا هذا الذي هو يُخرِبُ البيوتَ ويَهدِمُ السُّقُوفَ. وهذا الكلامُ كُفرٌ من قائلِه، لَعَنه اللَّهُ، نقَلَه عنه ابنُ الجَوْزيِّ في «المُنتَظِمِ».

وحُكِيَ عن بعضِهم أنَّه وجَدَ في كفِّه مكتوبًا حينَ ماتَ هذين البيتين:

نزلتُ بجارٍ لا يُخَيِّبُ ضَيفَهُ ... أُرَجِّي نَجاتي من عذابِ جَهنَّمِ
وإنِّي على خَوفي من اللَّه واثقٌ ... بإنْعامِهِ واللَّهُ أكرَمُ مُنعِمِ

مالكُ بنُ أحمدَ بن علي بن إبْراهيمَ، أبو عبدِ اللَّه البَانيَاسيُّ الشاميُّ، وقد كان له اسمٌ آخرُ سمَّتْه به أمُّه؛ عليٌّ أبو الحسنِ، فغَلَبَ عليه ما سمَّاه به أبوه، وما كنَّاه به، سمع الحديثَ على مشايخَ كثيرةٍ، وهو آخرُ مَن حدَّثَ عن أبي الحسنِ بنِ الصَّلْتِ، هلَكَ في حريقِ سوقِ الرَّيْحانيِّين، وله ثمانٍ وثمانونَ سنةً، وكان ثقةً عندَ المحدِّثين.

السلطانُ مَلِكْشَاه[1]

السلطانُ الكبيرُ جلالُ الدولةِ، أبو الفَتْحِ مَلِكْشَاه بنُ أبي شُجاعٍ ألْبِ أرْسَلانَ بنِ داودَ بنِ ميكائيلَ ابنِ سَلْجُوقَ بنِ تُقَاقَ التُّرْكيُّ، ملَك بغدادَ - كما ذكرنا - وامْتَدَّتْ مملَكتُه من أقْصَى بلادِ التُّركِ إلى أقْصَى بلادِ اليمنِ، وراسلَه الملوكُ من سائرِ الأقاليمِ والأقْطارِ، حتى ملِكُ الرومِ والخَزَرِ واللَّانِ، وكانتْ دولتُه صارمةً، والطُّرُقاتُ في أيامِه آمِنَةً، ومع عَظَمَتِه يقِفُ للمسكينِ والمرأةِ والضَّعيفِ، فيقْضِي حوائجَهم.

وقد عمَّر العماراتِ الهائلةَ، وبنى القناطرَ، وأسْقَطَ المُكوسَ والضرائبَ، وحفر الأنهارَ الكِبارَ الخَرَابَ، وبَنَى مدرسةَ أبي حنيفةَ والسُّوقَ، وبنى الجامعَ الذي يُقالُ له: جامعُ السلطانِ. ببَغْدادَ،

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٥٤-٥٨).

وبنىٰ منارةَ القُرونِ من صُيودِه بالكُوفَةِ، ومثْلَها فيما وراءَ النهرِ، وضَبَط ما صادَه بنفْسه في صُيوده، فكان نحواً من عشَرَةِ آلافِ صيدٍ، فتصدَّقَ بعشَرَةِ آلافِ درهَمٍ، وقال: إنِّي خائفٌ من اللَّه تعالىٰ أنْ أكُونَ أزْهَقْتُ نفسَ حيوانٍ لغيرِ مأْكَلَة.

وقد كانت له أفْعالٌ حسَنَةٌ وسيرةٌ صالحةٌ؛ من ذلك أنَّ فلاَّحًا أنْهىٰ إليه أنَّ غلْمانًا له أخَذُوا له حِمْلَ بِطِّيخٍ هو رأسُ ماله. فقال: اليومَ أرُدُّ عليك حِمْلَك. ثم قال لقَيِّمه: أُريدُ أنْ تأتوني اليومَ ببِطِّيخ. ففَتَّشُوا، فإذا في خَيْمَةِ الحاجبِ بِطِّيخٌ، فحَمَلوه إليه، فاسْتَدْعَىٰ الحاجبَ فقال: من أينَ لك هذا البِطِّيخُ؟ قال: جاءَ به الغلْمانُ. فقال: أحْضِرْهم. فذَهَب فهرَّبَهم، فأرسَل إليه، فأحْضَرَه وسلَّمَه إلىٰ الفلاحِ، وقال خُذْ بيَدِه؛ فإنَّه مَمْلُوكي ومَمْلُوكُ أبي، فإيَّاكَ أنْ تُفَارِقَه. فردَّ عليه حِمْلَه، فخرَج الفلاحُ يحمِلُه وفي يده الحاجبُ، فاسْتَفْدَىٰ نفسَه منه بثلاثمائة دينار.

ولَمَّا توَجَّه لقتالِ أخيه تكشَ، اجْتَازَ بطُوسَ، فدخَل لزيارَةِ قبرِ عليِّ بنِ موسىٰ الرِّضا، ومعه نظامُ المُلْك، فلمَّا خرَجا قال للنِّظَام: بِمَ دعَوتَ؟ قال: دعَوتُ اللَّهَ أنْ يُظفِرَك علىٰ أخيكَ. فقال: لكنِّي قلتُ: اللهمَّ إنْ كان أخي أصلَحَ للمسلمين فظَفِّرْه بي، وإنْ كنتُ أصلَحَ لهم فَظَفِّرْني به.

وقد سارَ مَلِكْشاه هذا بعسْكَرِه من أصْبَهانَ إلىٰ أنْطاكيَةَ فما عُرِفَ أنَّ أحدًا من جَيْشِه ظلَم أحدًا من رعيَّتِه.

واستَعْدَىٰ إليه تُرْكُمانيٌّ أنَّ رجلاً افْتَضَّ بَكارَةَ ابْنَتِه، وهو يُريدُ أنْ يمكِّنَه من قتْله، فقال له: يا هذا إنَّ ابْنَتَك لو شاءَتْ ما مكَّنَتْه من نفسِها، فإنْ كنتَ لابُدَّ فاعلاً فاقْتُلْها معه. فسكَتَ الرجلُ، ثم قال الملكُ: أوَ خيرٌ من ذلك؟ قال: ما هو؟ قال: فإنَّ بَكارَتَها قد ذَهَبَتْ، فزَوِّجْها من ذلك الرجلِ وأمْهَرْها من بيتِ المالِ كفايتَها. ففَعَل.

وحكَىٰ له بعضُ الوعَّاظ أنَّ كسْرَىٰ اجتازَ يومًا في بعضِ أسفارِه بقريةٍ مُنْفَرِدًا من جيشِه، فوقَف علىٰ بابِ دارٍ فاسْتَسْقَىٰ، فأخرَجَتْ إليه جاريةٌ إناءً فيه ماءُ قصبِ السُّكَّرِ بالثَّلج، فشَرِبَ منه فأعجَبَه، فقال: كيف تَصْنَعين هذا؟ فقالت: إنَّه سهلٌ علينا اعْتصارُه علىٰ أيْدينا. فطَلَبَ منها شربةً أخرَىٰ، فذَهَبَتْ لتأتيَه بها فوقَع في نفسِه أنْ يأخُذَ هذا المكانَ منهم ويُعَوِّضَهم عنه، فأبْطأَتْ عليه، ثم خرَجَتْ وليس معها شيءٌ، فقال: ما لَكِ؟ فقالت: كأنَّ نِيَّةَ سُلْطاننا تغيَّرَتْ علينا، فتعَسَّرَ عليَّ اعْتصارُه-وهي لا تَعْرِفُ أنَّه السلْطانُ-فقال: اذْهَبي فإنَّكِ الآنَ تقْدِرين. وغَيَّرَ نِيَّتَه إلىٰ غيرِها، فذَهَبَتْ وجاءَتْه بشَرْبَةٍ أخرَىٰ سَريعًا، فشربَها وانْصَرف. فقال له السلطانُ مَلِكْشاه: هذه تصلُحُ لي، ولكن قُصَّ علىٰ الرَّعِيَّةِ حكَايةَ كِسْرَىٰ الأخرَىٰ حينَ اجْتازَ بِبُسْتانٍ، فطَلَبَ من ناطُورِه عُنْقودًا من حِصْرِمٍ؛ فإنَّه قد أصابَتْه صفراءُ، وعطشٌ. فقال له الناطُورُ: إنَّ السلطانَ لم يأخُذْ حَقَّه منه، فلا أقْدِرُ أن أُعْطِيَك منه شيئًا. قال: فعَجِبَ الناسُ من ذكاءِ الملكِ، وحسْنِ استِحْضارِه هذه في مقابَلَةِ تلك.

واستَعْداه رجلانِ من الفلاحينَ علىٰ الأميرِ خُمارْتكينَ أنَّه أخَذَ منهما مالاً جزيلاً وكسَرَ ثَنِيَّتَهما،

وقالا: سمعْنا بعَدْلك في العالم، فإنْ أقَدْتَنا منه كما أمرَكَ اللَّهُ وإلاَّ استَعْدَيْنا عليك اللَّهَ يومَ القيامة. وأخذَا بركَابه، فنزَلَ عن فرَسه وقال لهما: خُذَا بكُمِّي فاسْحَبَاني إلىٰ دار نظام المُلك. فهابا ذلك، فعزَم عليهما، ففعَلا ما أمرَهما به، فلمَّا بلَغ النِّظامَ مَجيءُ السلْطان إليه خرَج مُسرعًا من خَيْمَته؛ فقال له الملكُ: إنِّي قلَّدْتُكَ الأمرَ لتُنصفَ المظلومَ ممَّن ظلَمَه. فكَتَبَ من فوره بعزْل خُمارْتكينَ وحَلِّ أقطاعه، وأنْ يَرُدَّ إليهما أموالهما، وأنْ يَقْلَعَا شنيتيه إنْ قامَتْ عليه البَيِّنَةُ، وأمَرَ لهما من عنده بمائة دينار.

وأسْقَط مرَّةً بعضَ المُكوس، فقال رجلٌ من المُستَوْفين: يا سُلْطانَ العالم، إنَّ هذا يعْدلُ ستِّمائة ألف دينار وأكثَرَ. فقال: ويْحَكَ، إنَّ المالَ مالُ اللَّه، والعبادَ عبيدُه، والبلادَ بلادُه، وإنَّما يَبْقىٰ هذا لي، ومَن نازَعَني في هذا ضَرَبْتُ عُنُقَه.

وغنَّته امرأةٌ حَسْناءُ فطَرِبَ وتاقَتْ نفسُه إليها، فَهَمَّ بها، فقالتْ: أيُّها الملكُ، إنِّي أغارُ علىٰ هذا الوجه الجميل من النَّار، وبينَ الحلال والحرام كلمةٌ واحدةٌ. فاسْتَدعىٰ القاضي فزوَّجَه بها.

وقد ذكَر ابنُ الجَوْزيِّ عن ابن عَقيل؛ أنَّ السلْطانَ مَلِكْشاه كان قد فَسَدَت عقيدتُه بسبب مُعاشَرَته بعضَ الباطنيَّة، ثم تَنَصَّل من ذلك وراجَع الحقَّ.

وذُكرَ أنَّ ابنَ عَقيل كتَب له شيئًا في الدليل علىٰ إثْبات الصانع. وقد ذكَرْنا أنَّه لمَّا رجَعَ آخرَ مرَّةٍ إلىٰ بَغدادَ عزَمَ علىٰ الخليفة أنْ يَخرُجَ منها، فاستَنْظَرَه عشرَةَ أيام، فمَرِضَ السلطانُ، وماتَ قبلَ انْقضاء العشرَة أيام.

وكانت وفاتُه في ليلة الجُمُعَة النصف من شوال من سبع وثلاثين سنةً وخمسةِ أشْهر، وكانت مُدَّةُ مُلْكه من ذلك تسْعَ عشرَةَ سنة وأشهُرًا، ودفنَ بالشُّونيزيَّة، ولم يُصلِّ عليه أحدٌ لشدَّة كِتْمان الأمر، وكان مرضُه بالحُمَّىٰ، وقيل إنَّه سُمَّ. واللَّهُ أعْلَمُ.

باني التَّاجيَّة ببَغْداد

المَرْزُبانُ بنُ خُسْرُو[1] تاجُ المُلك، الوزيرُ أبو الغنائم باني التَّاجيَّة، التي درَّس فيها أبو بكر الشَّاشيُّ، وبَنىٰ تربةَ الشيخ أبي إسْحاق، وقد كان السلطانُ مَلِكْشاه أرادَ أن يَستَوْزره بعدَ نظام المُلك فمات سريعًا، فاستَوْزَرَ لولده محمود، فلمَّا قهرَه أخوه بَرْكَيَاروقُ قتَلَه غلْمانُ النِّظام وقطَّعوه إرْبًا إرْبًا في ذي الحجَّة من هذه السنة.

هبَةُ اللَّه بنُ عبد الوارث بن عليِّ بن أحمدَ بن بُوري، أبو القاسم الشِّيرازيُّ، أحدُ الرَّحالينَ الجوَّالينَ في الآفاق، وكان حافظًا ثقةً دَيِّنًا ورعًا، حسَنَ الاعْتقاد والسِّيرة، له تاريخٌ حسَنٌ، ورحَل إليه الطَّلَبَةُ من بَغْدادَ وغيرها، رحمَه اللَّهُ.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ١٠٠-١٠١).

ثم دخلت سنة ست وثمانين وأربعمائة

فيها: قدِمَ إلى بغدادَ رجلٌ يُقال له: أرْدَشيرُ بنُ منصورٍ، أبوالحُسين العبّاديُّ، مرْجعَه من الحجِّ، فنزلَ النِّظاميَّةَ، فوعَظ الناسَ وحضرَ مجلسَه الغزَّاليُّ مُدرِّسُ المكانِ، وازدحَم الناسُ في مجْلسِ وعظه وكثُرُوا في المجالسِ بعدَ ذلك، وتركَ كثيرٌ من الناسِ معايشَهم، فكان يَحضُرُ مجلسَه في بعضِ الأحيانِ قريبٌ من ثلاثينَ ألفًا من الرجالِ والنساءِ، وتاب كثيرٌ من الناسِ ولزِمُوا المساجدَ وأُريقَتْ الخمورُ وكُسرتِ الملاهي، وكان الرجلُ في نفسه صالحًا له عباداتٌ وفيه زُهدٌ وافرٌ، وله أحْوالٌ صالحةٌ، وكان الناسُ يزدَحمون على فضلِ وَضوئه، وربُّما أخذُوا من البِرْكةِ التي يتوَضَّأُ منها للبَركَةِ.

ونقل ابنُ الجوزيِّ، أنَّه اشتَهىٰ مرَّةً علىٰ بعضِ أصحابِه تُوتًا شاميًّا وثَلْجًا، فطافَ البلدَ بكَماله فلم يجدْه، فرجَع فوجَد الشيخَ في خَلْوتِه، فسأَل: هل جاء اليومَ إلى الشيخِ أحدٌ؟ فقيل له: جاءت امرأةٌ فقالتْ: إنِّي قد غزلْتُ بيَديَّ غزْلاً وبعتُه، وأنا أُحبُّ أنْ أشترِيَ للشيخ طُرْفَةً. فامتَنع من ذلك فبكَتْ، فرَحِمَها وقال اذْهَبي فاشْتَري. فقالت: ماذا تَشْتَهي؟ فقال: ما شئْتِ. فذهَبَتْ فأتَتْه بتوتٍ شاميٍّ وثلجٍ، فأكَلَه.

وقال بعضُهم: دخَلْتُ عليه وهو يشرَبُ مَرَقًا، فقُلتُ في نفسي: لَيتَه أعْطاني فَضْلَه لأشْرَبَه لحفْظ القرآنِ، فناولني فضلَه فقال: اشْرَبْها على تلك النيَّة. قال: فرَزَقَني اللَّهُ حفظَ القرآن. وكانت له عباداتٌ ومجاهداتٌ، ثم اتُّفِقَ أنَّه تكلَّم في بَيْعِ القُراضَةِ بالصحيحِ، فمُنِعَ من الجلوسِ وأُخْرِجَ من البلدِ.

وفي هذه السنة خطَب تُتُشُ بنُ ألْب أرْسلانَ صاحبُ دمشقَ لنفْسه بالسلْطَنة، وطلَب من الخليفة أن يُخطَبَ له بالعراقِ، فحصلَ التوَقُّفُ عن ذلك بسبَبِ ابنِ أخيه برْكْيارُوقَ بنِ مَلَكْشاه، فسارَ إلى الرَّحْبَةِ، وفي صحبته وطاعته آق سُنْقُرُ قسيم الدولة صاحب، حلب، وبوزان صاحب الرُّها ففتح الرحبة ثم سارَ إلى المَوْصلِ فأخَذَها من يدِ صاحِبِها إبراهيمَ بنِ قريشِ بنِ بَدْرانَ، وهزَمَ جيوشَه من بَني عقيلٍ، وقَتَل خلقًا من الأُمراءِ صَبْرًا، وكذلك أخَذَ ديارَ بَكْرٍ، واستَوْزَرَ الكافيَ بنَ فخر الدولة بن جَهيرٍ وكذلك أخَذَ هَمَذانَ وخلاطَ، وفَتَحَ أَذْرَبيجَانَ، واستَفْحَلَ أمرُه، ثم فارقَه الأميران آقْ سُنْقُرُ وبُوزانُ، فسارا إلى الملك بَرْكْيَارُوقَ وبَقِيَ تتش وحدَه، فطَمعَ فيه ابنُ أخيه بَرْكْيَارُوقُ، فرجَع تُتُشُ فلَحِقَ قسيمَ الدولة آقْ سُنْقُرَ وبُوزانَ بباب حَلَبَ فكَسَرَهما وأسرَ بُوزانَ وآقْ سُنْقُرَ، فصلَبَهما وبعَث برأسِ بُوزانَ فطِيفَ به حرَّانَ والرُّها، ومَلَكَها من بعده.

وفيها: وقعَتْ الفتنةُ بينَ الرَّوافضِ والسُّنَّةِ، وانتشَرَت بينَهم شرورٌ كثيرةٌ. وفي ثاني شعبانَ وُلد للخليفةِ المُسْتَرْشدُ باللَّهِ أبو منْصورٍ الفضلُ بنُ أبي العبَّاسِ أحمدَ المُسْتَظْهِرُ، ففرحَ الخليفةُ وولِيُّ عهده بالولدِ السعيدِ.

وفي ذي القَعْدَةِ دخَل السلطانُ بَرْكْيَارُوقُ بغدادَ، وخرَج إليه الوزيرُ أبو منصورِ بنِ جَهِيرٍ، وهنَّأه عن الخليفةِ بالقدوم.

وفيها: أخَذَ المُستَنصِرُ العُبَيْدِيُّ مدينةَ صُورَ من أرضِ الشام. ولم يحُجَّ فيها أحدٌ من أهلِ العراقِ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

جعفرُ بنُ المُقْتَدي بأمرِ اللَّه من الخاتُونِ بنتِ السلطانِ مَلَكْشاه في جُمَادَىٰ الأولَىٰ، وجلَس الوزيرُ للعَزاءِ ثلاثةَ أيامٍ.

سُلَيْمانُ بنُ إبراهيمَ بن محمد بن سُليمانَ، أبو مسعود الأصْبَهانيُّ[1]، سمع الكثيرَ، وصنَّفَ وخرَّجَ علىٰ الصحيحين، وكانت له معْرِفةٌ جيدةٌ بالحديث، سَمِع ابنَ مَرْدَوَيْه وأبا نُعَيْم والبَرْقَانيَّ، وكتب عنه الخطيبُ وغيرُه، وكانت وفاتُه في ذي القَعْدَةِ عن تسْعٍ وثمانينَ سنةً.

عبدُ الواحد بن أحمدَ بن الحُصَيْنِ الدَّسْكَريُّ، أبو سعدٍ الفقيهُ الشافعيُّ، صحِب الشيخَ أبا إسحاق الشِّيرَازيَّ وروىٰ الحديث، وكان يقولُ: ما عصَىٰ بَدَني هذا في لَذَّةٍ قطُّ. تُوُفِّيَ في رجَبٍ من هذه السنة، ودُفِن َبباب حربٍ.

عليُّ بنُ أحمدَ بن يُوسُفَ بن جعفرٍ أبو الحسنِ الهكَّاريُّ، قدِمَ بغدادَ ونَزل في رِباطِ الزوزنيِّ، وكانت له أَرْبِطَةٌ قد ابْتَنَاها، سَمِع الحديثَ وروَىٰ عنه غيرُ واحدٍ من الحُفَّاظ، وكان يقولُ: رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ في المنامِ في الرَّوْضَةِ فقلتُ: يا رسولَ اللَّه، أوْصِني. فقال: عليكَ باعْتقادِ أحمدَ بنِ حنبلَ، ومذهبِ الشافعيِّ، وإيَّاكَ ومجالَسَةَ أهلِ البدَعِ. وكانت وفاتُه في المُحَرَّمِ من هذه السنة.

عليُّ بنُ محمدَ بن محمد، أبو الحسنِ الخطيبُ الأنْباريُّ، ويُعْرَفُ بابنِ الأخضَرِ، سمع أبا محمدٍ الفَرَضيَّ، وهو آخرُ مَن حدَّثَ عنه، وكانت وفاتُه في شوَّالٍ منها عن خمسٍ وتسْعين سنةً.

أبو نصر، ابنُ ماكولا عليُّ بنُ هبة اللَّه بن جعفرِ بن عَلَكَانَ بن محمد بن دُلَفَ بن أبي دُلَفَ، الأميرُ أبو نصر وُلِدَ سنةَ ثِنْتَيْنِ وأرْبَعمائةٍ، وسَمِع الكثيرَ، وكان من الحُفَّاظ وله كتابُ «الإكمال في المؤتلِفِ والمُختَلِف»، جمَع بينَ كتاب عبدِ الغَنيِّ بن سعيدٍ وكتابِ الدَّارَقُطْنيِّ وغيرِهما، وزادَ عليهما أشياءَ كثيرةً مُهِمَّةً حسنةً مفيدةً نافعةً، وكان نحْويًّا مُبرِّزًا، فصيحَ العبَارَةِ، حسَنَ الشِّعْرِ. قال ابنُ الجَوْزيِّ: وسمِعْتُ شيخَنا عبدَ الوهَّاب يطْعَنُ في دينه ويقولُ: العلْمُ يَحتاجُ إلىٰ دينٍ. وقُتِلَ في خُوزِسْتانَ في هذه السنةِ أو التي بعدَها، وقد جاوَزَ الثمانين. كذا ذكَرَه ابنُ الجَوْزيِّ.

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٢١-٢٥).

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وأربعمائة

فيها: كانت وفاةُ الخليفة المُقْتَدِي، وخلافةُ ولده المُسْتَظْهِرِ باللَّه.

صفة موته

لمَّا قدِمَ السلطانُ بَرْكيَارُوقُ بغدادَ سألَ مِنَ الخليفة أن يكتُبَ له بالسلْطَنَة كتابًا فيه العهدُ إليه، فكَتَبَ ذلك، وهُيِّئَتِ الخِلَعُ وعُرِضَتْ على الخليفة، وكان الكتابُ يومَ الجُمُعة الرابع عشرَ من المُحَرَّم، ثُم قُدِّمَ إليه الطعامُ فتناولَ منه على العادة وهو في غاية الصِّحَّة، ثُم غسَلَ يدَه وجلَسَ ينظُرُ في العهد بعدَما وَقَّعَ عليه، وعندَه قَهْرَمَانَةٌ تُسَمَّى شمسَ النَّهار، قالت: فنَظَرَ إليَّ وقال: مَن هؤلاء الأشخاصُ الذينَ قد دخَلُوا علينا بغيرِ إذنٍ؟ قال: فالْتَفَتُّ فلم أرَ أحدًا، ورأيتُه قد تَغَيَّرَتْ حالتُه واسْتَرْخَتْ يدَاه ورِجْلاه، وانحلَّتْ قُواه، وسقَطَ إلى الأرض قالت: فظَنَنْتُ أنَّه غُشِيَ عليه، فحلَلْتُ أزرارَ ثيابه فإذا هو لا يُجيبُ داعيًا، فأغْلَقْتُ عليه البابَ وخرَجتُ فأعْلَمْتُ وَليَّ العَهْد بذلك، وجاء الأمراءُ ورُءوسُ الدولة يُعزُّونَه بأبيه، ويُهَنِّئُونَه بالخلافة، فبايَعُوه، واللَّهُ تعالى أعْلَمُ.

شيءٌ من ترجمة المقتدي بأمر الله

هو أميرُ المؤمنين المُقْتَدي بأمرِ اللَّه، أبو القاسم عبدُ اللَّه بنُ الذَّخيرَة بنُ أميرِ المؤمنين القائم بأمرِ اللَّه ابنِ القادرِ باللَّه العبَّاسيُّ، أمُّه أمُّ وَلَد اسمُها أُرْجُوانُ، أرْمَنِيَّةٌ، أدْرَكَتْ خلافةَ ولَدها وخلافةَ ولَده المُسْتَظْهِرِ وولَدِ ولَده المُسْتَرْشِد أيضًا. كان المُقْتَدي أبيضَ، تامَّ القامَة، حُلْوَ الشَّمائِل، عَمَرَتْ في أيامه محالٌّ كثيرةٌ مِن بغدادَ، ونَفَى عنها المُغَنِّيَات وأربابَ المَلاهي والمعاصي، وكان غَيُورًا على حريمِ الناس، آمرًا بالمعْرُوف ناهيًا عن المنكرِ، حسَنَ السِّيرة والسَّريرَة، رَحِمَه اللَّهُ. كانت وفاتُه يومَ الجُمُعة رابعَ عشْرَ المُحَرَّم من هذه السنة، وله مِن العُمرِ ثَمانٍ وثلاثون سنةً وثمانيةُ شُهورٍ وتسعةُ أيام، خلافَتُه مِن ذلك تِسْعَ عَشْرَةَ سنةً وثمانيَةُ شهورٍ إلا يومَيْنِ، وأُخْفِيَ مَوْتُه ثلاثةَ أيام حتى تَوَطَّدَتِ البيعةُ لابْنه المستظهرِ، ثم صَلَّى عليه، ودُفِنَ في تُرْبَتِهم، واللَّهُ أعلَمُ.

خلافة المستظهر بالله أبي العباس أحمد

لمَّا تُوُفِّيَ أبوه يومَ الجُمُعَة أحْضَروه وله من العُمْرِ ستَّ عَشْرَةَ سنَةً وشهرانَ، فبُويعَ له بالخلافة، فكان أوَّلَ مَن بايعَه الوزيرُ أبو منْصورِ بن جَهيرٍ، ثم أُخِذَتِ البيعةُ له من الملك ركنِ الدولة بَرْكيَارُوقَ ابنِ السلطان مَلِكْشاه ثم من بقيَّة الأمراء والرُّؤساء وصلَّى على الخليفة الأمراءُ والوزراءُ، ومن العلماء حضر الغَزَّاليُّ والشَّاشيُّ وابنُ عقيلٍ، وبايَعُوه يومَ ذلك، وقد كان المستظهرُ باللَّه كريمَ الأخْلاق حافظًا

للقرآن فصيحًا بليغًا شاعرًا مُطبِّقًا، ومن لطيفِ شعرِه قولُه:

أذابَ حرُّ الجوَىٰ في القلبِ ما خَمَدا ... يومًا مَدَدْتُ على رَسْمِ الوَداعِ يَدا
فكيفَ أسْلُكُ نَهْجَ الاصْطِبارِ وقد ... أرَىٰ طَرائقَ في مَهْوَىٰ الهوَىٰ قِدَدا
قد أخْلَفَ الوَعْدَ بدرٌ قد شُغِفْتُ به ... من بعدِ ما قد وَفَىٰ دَهْرًا بما وَعَدا
إن كنتُ أنْقُضُ عهدَ الحبِّ في خَلَدي ... من بعدِ هذا فلا عايَنْتُه أبدا

وفوَّضَ المُستَظهِرُ أمورَ الخلافةِ إلى وزيرِه أبي منصورٍ عميدِ الدولةِ ابنِ جَهيرٍ، فدبَّرَها له أحسَنَ تدبيرٍ، ومهَّدَ الأمورَ أتمَّ تمهيدٍ، وساسَ الرَّعايا، وكان من خيارِ الوزراءِ.

وفي ثالثَ عشَرَ شعْبانَ عزَلَ الخليفةُ أبا بكرٍ الشَّاشيَّ عن القضاءِ، وفوَّضَه إلى أبي الحسنِ الدَّامَغانيِّ.

وفيها وقَعت فتنةٌ بينَ السُّنَّةِ والرَّوافضِ فأُحْرِقَتْ محالُّ كثيرةٌ، وقُتِل ناسٌ كثيرونَ، فإنَّا للَّهِ وإنَّا إليه راجعون.

ولم يَحُجَّ أحدٌ في هذه السنة؛ لاختلافِ السلاطينِ. وكانت الخُطْبَةُ للسلطانِ بَرْكِيارُوقَ ركنِ الدولةِ يومَ الجُمُعةِ الرابعَ عشرَ من المُحَرَّمِ، هو اليومُ الذي تُوفِّيَ فيه الخليفةُ المقتدي بأمرِ اللَّهِ بعدَ ما علَّمَ على توْقيعِه.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

آقْ سُنْقُرُ الأتابكُ، المُلقَّبُ قَسيمَ الدولةِ السَّلْجُوقيُّ، ويُعْرَفُ بالحاجبِ، صاحبُ حَلَبَ وديارِ بكرٍ والجزيرةِ. وهو جدُّ الملكِ نورِ الدينِ محمودِ بنِ زَنْكي بنِ آقْ سُنْقُرَ، وكان أوَّلًا من أخصِّ أصحابِ السلطانِ مَلِكْشاه بنِ ألْبِ أرْسَلانَ السَّلْجُوقيِّ، ثم تَرقَّتْ منزلتُه عندَه حتى أعْطاه حَلَبَ وأعْمالَها بإشارةِ الوزيرِ نظامِ الملكِ وكان من أحْسنِ الملوكِ سيرةً وأجْوَدِهم سريرةً، وكانت الرعيَّةُ معه في أمْنٍ ورُخْصٍ وعدلٍ، ثم كان موتُه على يدِ السلطانِ تاجِ الدولةِ تُتُشَ صاحبِ دمَشْقَ؛ وذلك أنَّه استعانَ به وبصاحبِ حَرَّانَ والرُّها على قِتالِ ابنِ أخيه بَرْكِيارُوقَ بنِ مَلِكْشاه، ففَرَّا عنه وتَرَكاه، فلمَّا تَمَكَّنَ قاتَلَهما بباب حَلَب فقتَلَهما وأخَذَ بلادَهما، إلاَّ حَلَبَ فإنَّها استقرَّتْ لولَدِ آقْ سُنْقُرَ زَنْكي فيما بعدُ، وذلك في سنَةِ ثلاثٍ وعشرينَ وخَمْسمائةٍ كما سيأتي بيانُه.

وذكَرَ ابنُ خَلِّكانَ أنَّه كان مملُوكًا للسلطانِ مَلِكْشاه، هو وبُوزانُ صاحبُ الرُّها، فلما ملَكَ تُتُشُ حَلَبَ استَنابَه بها فعصَىٰ عليه فقصَدَه وكان قد ملَكَ دمشقَ أيضًا فقاتَلَه فقتَلَه في هذه السنةِ في جُمادَىٰ الأُولَىٰ منها. فلمَّا قُتِلَ دفَنَه ولَدُه عِمادُ الدينِ زَنْكي بحَلَبَ؛ أدْخَلَه إليها من فوقِ السُّورِ بالمدرسةِ الزُّجاجيَّةِ.

أميرُ الجيوشِ بَدْرٌ الجَمَالي[1] صاحبُ جيوشِ مِصْرَ، ومُدَبِّرُ المَمالك الفاطميَّة، كان عاقلاً كريمًا مُحبًّا للعلماء، ولهم عليه رسومٌ دارَّةٌ. تمكَّنَ في أيام المستنصرِ تمكُّنًا عظيمًا، ودارَتْ أزِمَّةُ الأمورِ على آرائه، وفتَح بلادًا كثيرةً، وامتدَّتْ أيامُه وحياتُه، وبعد صيتُه وامْتَدَحَتْه الشعراءُ. ثم كانت وفاتُه في ذي القَعْدَةِ منها، وقامَ بالأمرِ من بعدِه ولَدُه الأفضلُ.

الخليفةُ المقتدي وقد تقدَّم شيءٌ من ترجَمته.

الخليفةُ المُسْتَنْصِرُ الفاطميُّ أبو تميم، مَعدُّ بنُ أبي الحسن عليٍّ بن الحاكم، استَمرتْ أيامُه ستِّين سنةً، ولم يتَّفقْ هذا لخليفةٍ قبلَه ولا بعدَه، وكان قد عهِدَ بالأمرِ إلى ولَدِه نزارٍ، فخلَعَه الأفضلُ بنُ بدرٍ الجَمَاليِّ بعدَ موتِ أبيه. وبايَعَ أبا القاسم أحمدَ بنَ المستنصرِ أخاه، ولَقَّبه بالمُسْتَعْلِي، فهرَبَ نزارٌ إلى الإسْكندريَّة؛ فجمَع الناسَ عليه فبايَعوه، وتولَّى أمْرَه قاضي الإسْكندريَّة؛ جَلالُ الدولة بن عمَّارٍ، فقَصَدَه الأفضلُ فقاتَلَه مِرارًا فهزَمَهم، وأسرَ القاضيَ ونزارًا، فقَتَل القاضيَ وحبَس نزارًا حتى ماتَ، واسْتَقرَّ المُسْتَعْلِي في الخلافة، وعمرُه إحدى وعشرون سنةً.

محمدُ ابنُ أبي هاشم أميرُ مَكَّةَ، كانتْ وَفاتُه فيها عن نَيِّفٍ وتسعينَ سنةً.

محمودُ بنُ السلطان مَلِكْشاه، كانت أمُّه قد عَقَدَتْ له المُلْكَ، وأنفَقَتْ بسَببِه الأموالَ، فنازَعَه أخوه بَرْكِيَارُوقُ فقهَرَه، ولَزِمَ بلَدَه أصْبَهانَ، فماتَ بها في هذه السنة، وحُمِل إلى بغدادَ فدُفِنَ بها بالتُّرْبَة النِّظاميَّة، كان من أحْسَنِ الناسِ وجْهًا، وأظرَفِهم شكلاً، تُوفِّي في شَوَّالٍ منها، وقد تُوُفِّيَتْ أمُّه الخاتُونُ تُرْكان شاه في رمضانَ هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة

فيها: وَرَدَ يُوسُفُ بنُ أبق التُّرْكُمانيُّ من جهة تاج الدولة أبي سعيدٍ تُتُش بن ألب أرسلان صاحبِ دمشقَ إلى بغدادَ؛ لأجْلِ إقامَةِ الدعوة له ببغدادَ، وكان تُتُشُ قد تَوَجَّه لقتال ابن أخيه بناحيَةِ الرَّيِّ، فلمَّا دخَل رسولُه إلى بغدادَ هابُوه وخافُوه واسْتَدْعاه الخليفةُ فقَرَّبَه، وقَبَّل الأرضَ بينَ يَدَي الخليفة، وتأهَّبَ أهْلُ بغدادَ له، وخافُوا أن يَنْهَبَهم، فبينما هو كذلك، إذ قدِم عليه أخوه فأخبَرَه أنَّ تُتُش قُتِل في أوَّل من قُتِل في الوَقْعَة. وكانت وفاتُه في سابعَ عشر صفرٍ من هذه السنة، فاسْتَفْحَل أمرُ بَرْكِيَارُوقَ، واستَقَلَّ بالأمورِ. وكان دُقَاقُ بنُ تُتُش مع أبيه حينَ قُتِل، فسارَ إلى دمشقَ فتَسلَّمها من الأميرِ ساوتكينَ الذي استَنابَه أبوه، واستَوْزَرَ أبا القاسم الخُوَارزميَّ، وملك عبدُ اللَّه بنُ تُتُش مدينةَ حَلَبَ، ودبَّرَ أمرَ مملَكتِه جناحُ الدولة، الحسينُ بنُ أيتكينَ، ورضْوانُ بنُ تُتُش صاحبُ مدينةَ حَلَبَ، وإليه تُنْسَبُ بنُو رِضْوانَ بها. وفي يوم الجُمُعَة التاسعَ عشَرَ من ربيعٍ الأوَّل منها خُطِبَ لوليِّ العهْدِ أبي المنصورِ، الفَضْلِ بنِ المستظهر، ولُقِّبَ بذَخيرةِ الدين.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٨١-٨٣).

وفي ربيعِ الآخرِ خرَج الوزيرُ ابنُ جَهِيرٍ فاختَطَّ سوراً علىٰ الحريمِ؛ وأذِنَ للعوامِّ في العملِ والتَّفرُّجِ فأظْهَرُوا منكراتٍ كثيرةً، وسخافاتِ عقُولٍ ضعيفةٍ، وعَمِلُوا أشياءَ مُنْكَرَةً، فبَعث إليه ابنُ عقيلٍ رقعةً فيها كلامٌ غليظٌ، وإنْكارٌ بغيضٌ.

وفي رمضانَ خرَج السلطانُ بَرْكْيَارُوقُ فعدا عليه فِداوِيٌّ، فلم يَتَمكَّنْ منه، فمُسِكَ فعُوقِبَ فأقرَّ علىٰ آخرَيْنَ فلم يُقِرَّا فقُتِلَ الثلاثةُ. وجاء الطواشِيُّ مِن جهةِ الخليفةِ مهنِّئًا له بالسلامةِ.

وفي ذي القَعْدَةِ منها خرَج أبو حامدٍ الغَزَّاليُّ مِن بغدادَ متوَجِّهًا إلىٰ بيتِ المقدسِ تارِكًا لتَدْريسِ النِّظاميَّةِ، زاهِدًا في الدُّنيا، لابِسًا خشِنَ الثِّيابِ بعدَ ناعِمِها، ونابَ عنه أخوه في التَّدْريسِ، وعاد في السنةِ الثالثةِ مِن خُرُوجِه ثم حَجَّ، ثم رجَع إلىٰ بلدِه، وقد صنَّفَ كتابَ «الإحْياءِ» في هذه المُدَّةِ، وكان يَجْتَمَعُ إليه الخَلْقُ الكثيرُ كلَّ يومٍ في الرِّباطِ فيَسْمَعُونَه.

وفي يومِ عَرَفَةَ خُلِعَ علىٰ القاضِي أبي الفَرَجِ عبدِ الرحمنِ بنِ هِبَةِ اللَّهِ بنِ البُسْتِيِّ، ولُقِّبَ بشَرَفِ القُضاةِ، ورُدَّ إلىٰ وِلايةِ القضاءِ بالحريمِ وغيرِه.

وفي هذه السنةِ اصْطَلَحَ أهْلُ الكَرْخِ من السُّنَّةِ والرافضةِ مع بقيَّةِ المحالِّ، وتَزَاوَرُوا وتَواكَلُوا وتشارَبُوا، وكان هذا مِن العجائبِ. وفيها قُتِلَ أحمدُ خانُ صاحِبُ سَمَرْقَنْدَ؛ وسببُه أنَّه شُهِدَ عليه بالزَّنْدَقَةِ فخُنِقَ ووَلِيَ مكانَه ابنُ عَمِّه مسعودٌ.

وفيها دخَل الأتْراكُ إفْرِيقيَّةَ وغدَرُوا بيحيىٰ بن تميمِ بنِ المُعزِّ بنِ باديسَ، وقَبَضُوا عليه، ومَلَكُوا بلادَه وقَتَلُوا خلقًا، بعدَما جرَتْ بينَهم وبينَه حروبٌ شديدةٌ، وكان مُقَدِّمَهم رجلٌ يُقالُ له: شاه مَلِكُ، وكان مِن أوْلادِ بعضِ أمراءِ المشْرِقِ، فقَدِمَ مِصْرَ وخدَم بها ثم هَرَب إلىٰ المغربِ، ففَعَل ما ذكَرنا. ولم يَحُجَّ أحدٌ من أهلِ العراقِ في هذه السنةِ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها مِن الأعْيان:

أحمدُ بنُ الحسنِ بنِ أحمدَ بنِ الحسنِ بنِ خَيْرُونَ، أبو الفَضْلِ المَعْرُوفُ بابنِ البَاقِلَّانِيِّ، سمع الكثيرَ، وكتَب عنه الخطيبُ، وكانت له معْرِفَةٌ جيدةٌ، وهو مِن الثِّقاتِ، وشهِدَ عندَ أبي عبدِ اللَّهِ الدامَغانِيِّ، ثم صارَ أمينًا له، ثم وَلِيَ إشرافَ خِزَانَةِ الغلاَّتِ. تُوفِّي في رجَبٍ عن ثِنْتَيْنِ وثمانينَ سنةً.

تُتُشُ أبو المُظَفَّرِ، تاجُ الدولةِ بنُ ألْبَ أرْسَلانَ بنِ داودَ بنِ ميكائيلَ بنِ سَلْجُوقَ، صاحِبُ دمشقَ وغيرِها مِن البلادِ، وقد كان تروَّجَ أمرُه علىٰ ابنِ أخيه بَرْكْيَارُوقَ بنِ مَلِكْشاه بنِ ألبِ أرسَلانَ، ولكن قدَّر اللَّهُ وما شاء فعَل، وقد قال المتنبي:

ولِلَّهِ سِرٌّ في عُلاك وإنَّما ... كلامُ العِدَىٰ ضَربٌ مِن الهَذَيانِ

قال ابنُ خَلِّكانَ: كان صاحبَ البلادِ الشرقيَّةِ فاسْتَنْجَدَه أتْسِزُ في محاربَةِ أميرِ الجيوشِ مِن جهةِ صاحبِ مصرَ، فلمَّا قدِم دمشقَ لنجْدَتِه وخرَج إليه أتْسِزُ أمَر بمَسْكِه وقتلِه، واسْتَحْوَذَ علىٰ دمشقَ وأعْمالِها في سنَةِ إحْدَىٰ وسَبْعِينَ، ثم تحارَبَ هو وابنُ أخيه بَرْكْيَارُوقُ ببلادِ الرَّيِّ، فكسَرَه ابنُ أخيه

وقُتِل هو في المعركَةِ، وتملَّك ابنُه رِضْوانُ حَلَبَ إلىٰ سنةِ سبعٍ وخمسمائةٍ، وسمَّتْه أمُّه في عُنْقُود عنبٍ. فقام بالأمرِ مِن بعدِه ولَدُه تاجُ المُلْك بُورِي أَرْبعَ سنينَ، ثم ابنُه الآخرُ شمسُ الملوكِ إسماعيلُ ثلاثَ سنينَ، ثم قَتَلَتْه أمُّه أيضًا، وهي زُمُرُّدُ خاتون بنتُ جاولي، وأجْلَسَتْ أخاه شهابَ الدينِ محمودَ بنَ بُوري، فمكَثَ أربعَ سنينَ، ثم ملَكَ أخوه سنةً، ثم ملَك محيي الدينِ أبَقُ مِن سنةِ أربعٍ وثلاثينَ إلىٰ أن انتزَعَ المُلْكَ نورُ الدينِ محمودُ بنُ زَنكِي كما سيأتِي. وكان أتابِكُ العساكرِ بدمشقَ أيامَ أَبَقَ معينُ الدينِ، الذي تُنْسَبُ إليه المُعِينِيَّةُ بالغَوْرِ، والمدْرسةُ المُعِينِيَّةُ بدمشقَ.

رِزقُ اللَّه بنُ عبدِ الوهَّابِ بنِ عبدِ العزيزِ، أبو محمدٍ التَّميميُّ، أحدُ أئمَةِ القُرَّاءِ والفُقَهاءِ ـ علىٰ مذهبِ أحمدَ ـ والحديث، وكان له مجلِسٌ للوَعْظِ، وحلْقَةٌ للفَتْوىٰ بجامعِ المنصورِ، ثم بجامعِ القصرِ، وكان حسنَ الشَّكْلِ مُحَبَّبًا إلىٰ العامَّة، له شِعْرٌ حسنٌ، وكان كثيرَ العِبادة، فصيحَ العِبارةِ، حسنَ المُناظَرَةِ. وقد روَىٰ عن آبائِه حديثًا مُسَلْسَلاً إلىٰ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، كرَّمَ اللَّهُ وجهَهُ، أنَّه قال: هتَف العلمُ العَملَ فإن أجابَه وإلا رحَل. وقد كان ذا وجاهةٍ عندَ الخليفَةِ، بعَثَه في مَهامٍّ الرسلِ إلىٰ السلطانِ. وكانت وفاتُه يومَ الثلاثاءِ النصفَ مِن جُمادَىٰ الأُولَىٰ مِن هذه السنةِ، عن ثمانٍ وثمانينَ سنةً، ودُفِنَ بدارِه بباب المراتبِ بإذْنِ الخليفةِ، وصلَّىٰ عليه ابنه أبو الفَضْلِ.

أبو يوسُفَ القَزْوينيُّ، عبدُ السلامِ بنُ محمد بنِ يوسفَ بنِ بُنْدارٍ، شيخُ المعتزِلَةِ، قرأَ علىٰ عبدِ الجبَّارِ ابنِ أحمدَ الهمَذانِيِّ، ورَحَل إلىٰ مصرَ، وأقامَ بها أربعينَ سَنَةً، وحصَّل كُتُبًا كثيرةً، وصنَّفَ تفسيرًا في سبعمائَة مجلَّدٍ. قال ابنُ الجَوْزِيُّ: جمَع فيه العَجَبَ، وتكلَّم فيه علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [البقرة:١٠٢]. في مجلَّدٍ كاملٍ. وقال ابنُ عقيلٍ: كان طويلَ اللسانِ بالعلمِ تارةً، وبالشعرِ أخرَىٰ، وقد سمع الحديثَ مِن أبي عمرَ ابنِ مَهْدِيٍّ وغيرِه، ومات ببغدادَ عن ستٍّ وتسْعينَ سنةً. وما تزَوَّجَ إلا في آخرِ عُمرِه.

أبو شجاعٍ الوزيرُ، محمدُ بنُ الحسينِ بنِ عبدِ اللَّه بنِ إبراهيمَ، أبو شجاعٍ، المُلقَّبُ ظهيرَ الدينِ، الرُّوذْرَاورِيُّ الأصلِ الأهْوَازِيُّ المَوْلِدِ، كان مِن خيارِ الوزراءِ، كثيرَ الصَّدقةِ والإحْسانِ إلىٰ العلماءِ والفقهاءِ، وسمع الحديثَ مِن الشيخِ أبي إسْحَاقَ الشِّيرازِيِّ وغيرِه، وصنَّفَ كُتُبًا، منها كتابُه الذي ذيَّلَه علىٰ «تجاربِ الأممِ». ووزَر للخليفةِ المُقْتَدِي، وكان يمْلكُ ستَّمائَةَ ألفِ دينارٍ، فأنفَقَها في سبيلِ الخيْراتِ والصَّدَقاتِ، ووقَف الوُقوفَ الحسَنَةَ، وبنَىٰ المَشَاهدَ، وأكْثَرَ الإنْعامَ علىٰ الأراملِ والأيْتام. قال له رجلٌ: إلىٰ جانبِنا أرْمَلَةٌ لها أربعَةُ أيْتامٍ وهم عُراةٌ وجِياعٌ. فبعَثَ إليهم مع رجلٍ مِن خاصَّته نفقةً وكُسْوَةً وطَعامًا، ونزَعَ عنه ثيابَه في البردِ الشديدِ، وقال: واللَّه لا ألْبَسُها حتىٰ ترجعَ إليَّ بخبَرِهم، فذهَبَ الرجلُ مُسْرِعًا فقضَىٰ حاجَتَهم، وأوْصلَهم ذلك الإحْسانَ، ثم عاد والوزيرُ يركُضُ مِن البرْدِ، فلمَّا أخبَرَه عنهم بما سرَّه لبس ثيابه. وجِيءَ إليه مرَّةً بقطائفِ سكَّرٍ، فلمَّا وُضِعَتْ بينَ يدَيْه تَنَغَّصَ عليه بِمَن لا يقْدِرُ عليها، فأرْسَلَها كلَّها إلىٰ المساجدِ، وكانتْ كثيرَةً جدًّا، فأطْعَمَها الفقراءَ والعُمْيانَ.

وكان لا يَجْلِسُ في الديوانِ إلا وعندَه الفقهاءُ، فإذا وقع له أمرٌ مُشْكِلٌ سألَهم عنه فحكَم بما يُفْتُونَه، وكان كثيرَ التواضُعِ مع الناسِ؛ خاصَّتِهم وعامَّتِهم، ثم عُزِل عن الوزارة، فسارَ إلى الحجِّ وجاوَر بالمدينة ثم مرِضَ، فلما ثَقُلَ في المرضِ جاءَ إلى الحُجْرَةِ النبويَّة، فقال: يا رسولَ الله، قال اللهُ تعالى: ﴿ولو أنَّهُمْ إذ ظَلَموا أنفسَهُمْ جاءُوك فاستغفَرُوا اللهَ واستغفَرَ لَهُمُ الرسولُ لوَجَدُوا اللهَ توَّابًا رحيمًا﴾ [النساء: ٦٤] وها أنا قد جئتُك أستَغفِرُ اللهَ من ذنوبي، وأرجُو شفاعتَك يومَ القيامَة، ثم ماتَ من يومِه ذلك، رحمَه اللهُ، ودُفِنَ بالبَقِيع.

القاضي أبو بكر الشاميُّ، محمدُ بنُ المُظفَّر بن بكرانَ الحمويُّ، أبو بكر الشاميُّ، وُلِدَ سنةَ أربعمائة، وتفقَّه ببلده، ثم حجَّ في سنة سبعَ عشْرةَ وأربعمائة، وقدِمَ بغدادَ فتفقَّه على الشيخ أبي الطيِّب الطَّبَريِّ، وسمع بها الحديثَ، وشهِدَ عندَ ابنِ الدَّامَغانيِّ فقبِلَه، ولازَمَ مسجدَه خمسًا وخمسينَ سنةً، يُقرئُ الناسَ ويُفقِّهُهم، ولَمَّا مات أبو عبد الله الدَّامَغانيُّ أشارَ به أبو شُجاعٍ الوزيرُ، فولَّاه الخليفةُ المُقتَدي القضاءَ، وكان من أنزَهِ الناسِ وأعفِّهم، لم يقبَلْ من سلطانٍ عطيَّة، ولا من صاحبٍ هديَّةً، ولم يُغيِّرْ مَلبَسَه ولا مأكلَه، ولم يأخُذْ على القضاء أجرًا، ولم يَستَنِبْ أحدًا بل كان يباشرُ القضاءَ بنفسه، ولم يحابِ مخلوقًا، وقد كان يَضْرِبُ بعضَ المُنكِرينَ، حيثُ لا بيِّنةَ، إذا قامتْ عندَه قرائنُ للتُّهْمَة حتى يُقِرُّوا، ويَذْكُرُ أنَّ في كلام الشافعيِّ ما يدلُّ على هذا، وقد صنَّفَ أبو بكر الشاشيُّ كتابًا في الرَّدِّ عليه في ذلك، ونصرَه ابنُ عقيلٍ فيما كان يتعاطاه من الحُكْمِ بالقرائنِ، واستَشْهَدَ له بقوله تعالى: ﴿إن كانَ قَميصُهُ قُدَّ من قُبُلٍ﴾ الآية [يوسف: ٢٦]. وشهِدَ عندَه رجلٌ من كبار الفقهاء والمُناظرين يُقال له: المُشطَّبُ بنُ محمد بن أسامة الفَرْغانيُّ، فلم يقبَلْه؛ لِمَا رأى عليه من الحرير وخاتمَ الذهب، فقال له المُدَّعي: إنَّ السلطانَ ووزيرَه نظامَ المُلْك يَلْبَسان الحريرَ والذهبَ، فقال القاضي الشاميُّ: والله لو شهِدا عندي على باقة بقلٍ ما قبِلْتُ شهادتَهما.

تُوفِّي يومَ الثلاثاء عاشرَ شعبانَ من هذه السنة عن ثمانٍ وثمانينَ سنةً، ودُفِنَ بالقُرْبِ من ابنِ سُرَيْج.

أبو عبد الله الحُمَيْديُّ، محمدُ بنُ أبي نَصْرٍ فَتُّوحِ بن عبد الله بن حُمَيْد، أبو عبد الله الحُمَيْديُّ الأندلسيُّ[1]، من جزيرةٍ يقال لها مَيُورْقَةُ - قريبةٍ من الأندلس. قدِمَ بغدادَ فسمع بها الحديثَ، وكان حافظًا مُكثِرًا ديِّنًا باهرًا، عفيفًا نَزِهًا، وهو صاحبُ «الجمعِ بينَ الصحيحَيْنِ»، وله غيرُ ذلك من المُصنَّفات، وقد كتبَ من مُصنَّفات ابن حزمٍ والخطيب. وكانت وفاتُه ليلةَ الثلاثاء السابعَ عشر من ذي الحجة، وقد جاوز السبعين، وقبره قريبٌ من قبر بِشْرٍ الحافي ببغدادَ.

هبَةُ الله ابنُ الشيخ أبي الوفاء بنِ عَقِيلٍ، كان قد حفظَ القرآنَ وتفقَّه، وظهَرَ منه نجابَةٌ، ثم مرِضَ،

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ١٢٠-١٢٧).

فأنفقَ عليه أبوه أموالاً جزيلةً، فلم يفد شيئًا، فقال له ابنُه ذاتَ يوم: يا أبتِ إنَّك قد أكثرتَ الأدويةَ والأدعيةَ، وللَّهِ فيَّ اختيارٌ، فدعْني واختيارَ اللَّهِ. قال أبوه: فعَلِمتُ أنَّه لم يُوَفَّقْ لهذا الكلام إلاَّ وقد اختيرَ للحظْوَةِ. واللَّهُ تعالى أعلَمُ.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وأربعمائة

قال ابنُ الجوزيِّ في «المُنتَظم»: في هذه السنةِ حكَم جهَلَةُ المُنجِّمينَ؛ بأنْ سيكونُ فيها طُوفانٌ قريبٌ مِن طُوفانِ نُوحٍ. وشاعَ الكلامُ بذلك بينَ العوامِّ، فاستَدْعَى الخليفةُ المُستَظهرُ ابنُ عَيْشُونَ المُنَجِّمَ فسأله عن هذا الكلامِ، فقال: إنَّ طوفانَ نُوحٍ كان في زَمنٍ اجْتَمَع في بُرْجِ الحوت الطَّوالعُ السبْعَةُ، والآنَ فقد اجتَمَع فيه ستَّةٌ، ولم يجْتَمعْ معها زُحَلُ، فلابُدَّ مِن وقوعِ طُوفانٍ في بعْضِ البلادِ، والأقربُ أنَّها بَغْدادُ، فتقدَّمَ الخليفةُ إلى وزيرِه بإصْلاحِ المُسنَّيَاتِ والمواضعَ التي يُخْشَى انفجارُ الماءِ منها. وجعَلَ الناسُ ينتظرون، فجاءَ الخبَرُ بأنَّ الحاجَّ حصَلُوا بوادي المَياقتِ بعدَ نخْلَةَ فأتاهم سيلٌ عظيمٌ، فما نجا منهم إلاَّ مَن تَعلَّقَ برءُوسِ الجبالِ، وأخذَ الماءُ الرِّجالَ والرِّحالَ، فخَلَع الخليفةُ على ذلك المُنجِّمِ، وأجْرَى له جرايَةً.

وفيها: ملَك الأميرُ قِوامُ الدَّوْلةِ أبو سعيدٍ كَرْبُوقا مدينَةَ المَوْصلِ، وقتَل محمدَ بنَ شرَفِ الدولةِ مسلمِ بنِ قُريشٍ، وغرَّقَه بعدَ حصارِ تسْعَةِ أشهُرٍ.

وفيها: ملَك تَميمُ بنُ المُعِزِّ المغربيُّ مدينَةَ قابِسَ، وأخْرَجَ منها أخاه عَمْرًا، فقال خطيبُ سُوسَةَ في ذلك أبياتًا.

ضَحِك الزمانُ وكانَ يُلْفَى عابِسًا ... لمَّا فتَحْتَ بحدِّ سيْفِكَ قابِسَا
وأتَيْتَها بِكْرًا وما أمْهَرْتَها ... إلاَّ قنًا وصَوارِمًا وفَوارِسَا
اللَّهُ يَعْلَمُ ما جَنَيْتَ ثمارَها ... إلاَّ وكانَ أبوكَ قبلُ الغارِسَا
مَن كانَ في زُرْقِ الأسنَّةِ خاطِبًا ... كانتْ له قُلَلُ البلادِ عَرائِسَا

وفي صفر منها درَّسَ الشيخُ أبو عبدِ اللَّهِ الطَّبَريُّ بالنِّظاميَّةِ، ولاَّه إيَّاها فخرُ المُلْكِ بنُ نِظامِ المُلْكِ وزيرِ بَرْكيَارُوقَ.

وفيها أغارَتْ خَفَاجَةُ على بلادِ سيفِ الدَّوْلةِ صَدقَةَ بنِ مَنْصورِ بنِ دُبَيْسٍ، وقصَدُوا مَشْهَدَ الحسينِ بالحائرِ، فتظاهَرُوا فيه بالمُنْكَراتِ والفَسادِ، فكَبَسَهم فيه الأميرُ صَدَقَةُ المذكورُ، فقتَل منهم خلْقًا كثيرًا حتى عندَ الضَّريحِ، ومِنَ العجائبِ أنَّ أحدَهم ألْقَى نفسَه وفرَسَه مِن فوقِ السُّورِ فسَلِمَ وسَلِمَتْ فرسُه.

وحَجَّ بالناسِ في هذه السنَةِ الأمير خُمارْتِكينُ الحَسَنانيُّ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

عبدُ اللَّهِ بنُ إبْراهيمَ بن عبدِ اللَّهِ، أبو حَكيمٍ الخَبْرِيُّ، وخَبْرُ: إحدَى بلادِ فارسَ، سمع الحديثَ،

وتَفَقَّهَ على الشيخِ أبي إسْحاقَ الشِّيرازيِّ، وكانتْ له مَعْرِفَةٌ بالفرائضِ والأدبِ واللُّغَةِ، وله مصنَّفَاتٌ، وكان مَرْضِيَّ الطريقَةِ، وكان يكْتُبُ المصاحفَ بالأُجْرَةِ، فبَيْنَما هو ذاتَ يومٍ يكتُبُ، وضَعَ القلَمَ من يَدِه واستند وقال واللَّهِ لَئِنْ كان هذا مَوْتًا إنَّه لَطَيِّبٌ، ثم مات.

عبدُ المُحْسِنِ بنُ محمدِ بنِ عليِّ بنِ أحمدَ الشِّيحيُّ التاجرُ، ويعْرَفُ بابنِ شُهْدَانْكَه، بَغْدَاديٌّ، سمعَ الحديثَ الكثيرَ، ورَحَل وأكْثَرَ عن الخطيبِ بصُورَ، وهو الذي حمَلَه إلى العراقِ، فلهذا أهْدَىٰ إليه الخطيبُ «تاريخَ بَغْدَادَ» بخطِّه، وقد روَىٰ عنه في مصنَّفَاته، وكان يُسَمِّيه عبدَ اللَّهِ، وكان ثقةً.

عبدُ المَلِك بنُ إبراهيمَ بنِ أحمدَ أبو الفضلِ، المعْروف بالهَمَذَانيِّ، تَفَقَّه على المَاوَرْدِيِّ، وكانتْ له يدٌ طُولَىٰ في العلومِ الشرعيَّةِ والحسابِ، وغيرِ ذلك، وكان يحفَظُ «غريبَ الحديثِ» لأبي عُبَيْدٍ «والمُجْمَلَ» لابنِ فارسٍ، وكان عَفيفًا زَاهدًا. طلَبَه المُقْتَدِي ليُولِّيَه قاضيَ القُضاةِ، فأبَىٰ أشدَّ الإباءِ، واعْتَذَرَ له بالعَجْزِ وعُلُوِّ السنِّ. وكان ظريفًا لطيفًا، كان يقُولُ كان أبي إذا أرادَ أخذَ العصَا بيدِه ثم يقولُ: نَوَيْتُ أن أضْرِبَ ولَدِي تأديبًا كما أمَرَ اللَّهُ، ثم يَضْرِبُني. قال: وإلى أنْ يَنْوِيَ ويُتَمِّمَ النِّيَّةَ كنتُ أهْرُبُ. تُوُفِّيَ في رجبٍ منها، ودُفِنَ عندَ قبرِ ابنِ سُرَيْجٍ.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ الباقي بنِ منْصورٍ، أبو بكرٍ الدَّقَّاقُ، ويعْرَفُ بابنِ الخاضِبَةِ، كان مَعْرُوفًا بالإفادَةِ وجَوْدَةِ القراءَةِ وحُسْنِ الخَطِّ وصحَّةِ النَّقْلِ، جمَع بينَ علمِ القراءاتِ والحديثِ، وأكْثَرَ عن الخطيبِ وأصْحابِ المُخَلِّصِ. قال: لمَّا غَرِقَتْ بَغْدَادُ غَرِقَتْ داري وكُتُبي، فلم يَبْقَ لي شيءٌ، فاحْتَجْتُ إلى النَّسْخِ، فكتَبْتُ «صحيحَ مسلمٍ» في تلك السنَةِ سبْعَ مرَّاتٍ، فنمْتُ فرأيْتُ ذاتَ ليلةٍ كأنَّ القيامةَ قد قامَتْ، وقائلٌ يقولُ: أينَ ابنُ الخاضِبَةِ؟ فجئتُ فأُدْخِلْتُ الجنَّةَ، فلمَّا دخلْتُها استَلْقَيْتُ على قَفَايَ ووضَعْتُ إحْدَىٰ رِجْلَيَّ على الأُخْرَىٰ، وقلتُ: الآنَ اسْتَرَحْتُ من النَّسْخِ، ثم استَيْقَظْتُ والقَلَمُ في يَدِي، والنَّسْخُ بينَ يَدَيَّ.

أبو المُظَفَّرِ السَّمْعَانيُّ، منْصُورُ بنُ محمدِ بنِ عبدِ الجَبَّارِ بنِ أحمدَ بنِ محمدٍ، أبو المُظَفَّرِ السَّمْعَانيُّ[1]، الحافظُ، من أهْلِ مَرْوَ، تفَقَّه أولاً على أبيه في مذْهَبِ أبي حَنيفَةَ، ثم انتقَلَ إلى مذْهَبِ الشَّافعيِّ حينَ أخَذَ عن أبي إسْحَاقَ الشِّيرازيِّ، وابنِ الصَّبَّاغِ، وكانتْ له يدٌ طُولَىٰ في فنونٍ كثيرةٍ. وصنَّفَ «التَّفْسيرَ»، وكتابَ «الانْتصَارِ» في الحديثِ، و«البُرْهَانَ» و«القَوَاطِعَ» في أصُولِ الفقْهِ، و«الاصْطِلامَ» وغيرَ ذلك، ووعَظَ في مدينَةِ نيسابور، وكان يقُولُ: ما حَفِظْتُ شيئًا فنَسيتُه. وسُئِلَ عن أخْبَارِ الصِّفَاتِ، فقال: عليْكُم بدينِ العجَائزِ. وسُئِلَ عن الاسْتِواءِ فقال:

جِئْتُماني لتَعْلَمَا سِرَّ سُعْدَىٰ ... تَجِدَاني بسِرِّ سُعْدَىٰ شَحِيحَا

جِئْتُمانِي لتَعْلَمَا سِرَّ سُعْدَىٰ ... جَمَعَتْ عِفَّةً ووَجْهًا صَبِيحَا

تُوُفِّيَ في ربيعٍ الأوَّلِ من هذه السنَةِ، ودُفِنَ في مَقْبَرَةِ مَرْوَ، رحمَه اللَّهُ تعالىٰ وإيَّانا، آمينَ.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ١١٤-١٢٠).

ثم دخلت سنة تسعين وأربعمائة

فيها: كان ابتداءُ مُلك الخُوارزمية، وذلك أنَّ السلطانَ بَرْكيَارُوقَ مَلَكَ فيها بلادَ خُرَاسَانَ بعدَ مقتَلِ عمِّه أرْسَلانَ أرْغُونَ بنِ ألْبِ أرْسَلانَ، وسلَّمَها إلى أخيه أحمدَ المعروف بالملك سَنْجَرَ، وجعَلَ أتابكَه الأميرَ قُماجَ، ووزيرَه عليَّ بنَ الحُسين الطُّغرائيَّ، واستعمَلَ على خُرَاسَانَ الأميرَ حَبَشيَّ بنَ التُّونْتَاقَ، فولَّىٰ مدينةَ خُوَارِزْمَ شابًا يُقال له: محمدُ بنُ أنُوشتكينَ. وكان أبوه من أمراء السَّلْجُوقيَّة، ونشأ في أدبٍ وفضيلةٍ وحُسْنِ سيرةٍ، ولمَّا وليَ مدينةَ خُوَارِزْمَ، لُقِّبَ خُوَارِزْمَ شاه، وكان أوَّلَ مُلُوكِهم، فأحْسَنَ السِّيرةَ، وعامَلَ الناسَ بالجميلِ، وحينَ ماتَ قام من بعده على خُوَارِزْمَ ولدُه أتْسِزُ، فجرَىٰ على سَنَنِ أبيه وأظهَرَ العَدْلَ، فحَظِيَ عندَ السلطان سَنْجَرَ وأحبَّه الناسُ، وارْتَفَعَتْ منزلَتُه.

وفيها: خطَبَ المَلِكُ رِضْوانُ بنُ تاجِ الدولة تُتُشَ للخليفَة الفاطميِّ المُسْتَعْلي. وفي رمضانَ منها قُتِلَ بَرْسُقُ أحدُ أكابرِ الأمراء، وكان أوَّلُ مَن تولَّىٰ شِحْنكيَّةَ بَغْدَادَ. وفي شوَّالٍ قُتِلَ رجلٌ باطنيٌّ عندَ بابِ النُّوبيِّ كان قد شهِدَ عليه عدْلانِ؛ أحدُهما ابنُ عَقيلٍ أنَّه دعاهما إلى مذْهَبِه، فجعَلَ يقولُ: أتَقْتُلُونَني وأنا أقولُ: لا إلهَ إلا اللهُ؟ فقالَ ابنُ عَقيلٍ: قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وحَجَّ بالناسِ فيها خُمارتكينُ الحَسْنانيُّ. وفي يوم عاشُوراءَ كُبِسَت دارُ بَهاء الدولة أبي نَصْرِ بنِ جلال الدولة أبي طاهرِ بنِ بُوَيْه؛ لأمورٍ ثبتَتْ عليه عندَ القاضي، فأُريقَ دَمُه، ونُقضَتْ دارُه، وعُمِلَ مكانَها مَسْجِدانِ للحنفيَّة والشَّافعيَّة، وقد كان السلطانُ مَلِكْشاه قد أقْطَعَه المدائنَ، ودَيرَ عاقُولَ، وغيرَهما.

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمدِ بنِ الحسَنِ بنِ عليِّ بنِ زكَرِيَّا بنِ دينار، أبو يَعْلَىٰ العَبْديُّ البَصْريُّ، ويُعْرَفُ بابنِ الصوَّاف، وُلِدَ سنَةَ أرْبعمائة، وسمع الحديثَ، وكان زاهدًا متَصوِّفًا، وفقيهًا مُدَرِّسًا، ذا سمتٍ ووَقارٍ وسكينةٍ ودِينٍ، وكان علاَّمةً في عشْرةِ علُومٍ، تُوفِّيَ في رمضانَ منها عن تسعينَ سنَةً، رحمَه اللهُ.

المُعمَّرُ بنُ محمدِ بنِ المُعمَّرِ بنِ أحمدَ بنِ محمد، أبو الغَنائمِ الحُسَيْنيُّ، النَّقيبُ للطَّالبيِّينَ. سمع الحديثَ، وكان حسَنَ الصُّورةِ، كريمَ الأخلاقِ، كثيرَ التَّعبُّدِ، لا يُعْرَفُ أنَّه آذَىٰ مسلمًا، ولا شَتَمَ صاحبًا. تُوفِّيَ عن نَيِّفٍ وستِّينَ سنةً؛ كان منها نَقيبًا ثنْتَيْنِ وثلاثينَ سنةً، وكان من ساداتِ قريشٍ، وتولَّىٰ بعدَه ولدُه أبو الفتُوحِ حَيْدَرَةُ، ولُقِّبَ بالرَّضيِّ ذي الفَخْرَيْنِ، وقد رثاه الشُّعَراءُ بأبياتٍ ذكَرَها ابنُ الجَوْزيِّ.

يحيى بنُ أحمدَ بنِ محمد، السِّيبيُّ، سمع الحديثَ، ورحَلَ إليه الطَّلَبَةُ، وكان ثقَةً صالحًا صَدُوقًا دَيِّنًا، عُمِّرَ مائةَ سنَةٍ وثِنْتَيْ عشْرَةَ سنةً وثلاثةَ أشهرٍ، وهو في ذلك صحيحُ الحَواسِّ، يُقْرأُ عليه القرآنُ والحديثُ، رحمَه اللهُ تعالى.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وأربعمائة

في جُمادَى الأُولَى منها ملَكَ الفرنجُ مدينَةَ أنطاكِيَةَ بعدَ حصارٍ شديدٍ بمُواطَأةٍ من بعضِ المُسْتَحْفَظِينَ على بعضِ الأبْراجِ، وهرَبَ صاحِبُها يَاغِي سِيَانٍ في نفرٍ يسيرٍ، وتَرَكَ بها أهْلَه ومالَه، ثم أخَذَه في أثناء الطريقِ نَدَمٌ شديدٌ على ما فَعَلَ، بحيثُ إنَّه غُشِيَ عليه وسقَط عن فرسِه، فذَهبَ أصْحابُه وتَرَكُوه، فجاءَ راعِي غَنَمٍ فقطَعَ رأسَه، وذَهَبَ به إلى ملك الفرنْجِ، ولمَّا بَلَغَ الخَبَرُ إلى الأمير كَرْبُوقَا صاحِبِ المَوْصِلِ جمَع عساكِرَ كثيرةً، واجْتَمَع عليه دُقَاقُ بنُ تُتُشَ صاحبُ دِمَشْقَ، وجَنَاحُ الدولةِ صاحبُ حِمْصَ، وغيرُهما، وسارَ إلى الفرنْجِ فالْتَقَوا معهم بأرْضِ أنطاكِيَةَ، فهَزَمهم الفرنْجُ، وقَتَلُوا منهم خَلْقًا كثيرًا، وأخذُوا منهم أمْوالاً جزيلَةً، فإنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعُونَ. ثم سارتْ الفرنْجُ إلى مَعَرَّةِ النُّعْمَانِ، فأخَذُوها بعدَ حصارٍ فلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللَّه. ولمَّا بَلَغَ هذا الحالُ إلى الملكِ بَرْكْيَارُوقَ شَقَّ عليه ذلك، وكتَبَ إلى الأُمَراءِ ببَغْدَادَ أنْ يَتَجهَّزُوا هم والوزيرُ ابنُ جَهِيرٍ لقتالِ الفرنْجِ، فَبَرَزَ بعضُ الجيشِ إلى ظاهرِ البلَدِ بالجانبِ الغربيِّ، ثم انْفَسَخَتْ هذه العزيمَةُ؛ لأنَّهم بلَغَهم أنَّ الفرنْجَ في ألفِ ألفِ مُقاتِلٍ، فلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللَّه. وحَجَّ بالناسِ في هذه السنَةِ خُمارْتِكِينُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

طِرَادُ بنُ محمدِ بنِ عليِّ بنِ الحسنِ بنِ محمدِ بنِ عبدِ الوهَّابِ بنِ سليمانَ بنِ عبدِ اللَّه بنِ محمدِ بنِ إبراهيمَ ابنِ الإمامِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللَّه بنِ عبَّاسٍ[1]، أبو الفَوارِسِ بنُ أبي الحَسَنِ بنِ أبي القاسمِ بنِ أبي تَمَّامٍ، مِن وَلَدِ زينَبَ بنتِ سُلَيْمَانَ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللَّه بنِ عبَّاسٍ، وهي أُمُّ ولدِ عبدِ اللَّه بنِ محمدِ بنِ إبراهيمَ الإمامِ ابنِ محمدِ بنِ عبدِ اللَّه بنِ عبَّاسٍ، سَمع الحديثَ الكثيرَ، والكُتُبَ الكِبَارَ، وتَفَرَّدَ بالرِّواية عن جَماعةٍ مِن المشايخِ، ورُحِلَ إليه مِن الآفاقِ، وأمْلَى الحديثَ في بُلْدانَ شتَّى، وكان يحضُرُ مجلسَه العلماءُ والسَّادةُ، وحضَر أبو عبدِ اللَّه الدَّامَغَانيُّ مجلسَه، وباشَرَ نِقابةَ العبَّاسيينَ مدةً طويلةً، وتُوُفِّيَ عن نَيِّفٍ وتسْعينَ سنةً، ودُفِنَ في مقابرِ الشُّهَدَاءِ، رحِمَه اللَّهُ.

المُظَفَّرُ أبو الفتْحِ ابنُ رئيسِ الرُّؤَساءِ أبي القاسمِ ابنِ المُسْلِمَةِ، كانت دارُه مَجْمَعًا لأهلِ العلْمِ والدِّينِ والأدَبِ، وبها تُوُفِّيَ الشيخُ أبو إسْحَاقَ الشِّيرازيُّ، ولمَّا تُوُفِّيَ أبو الفَتْحِ دُفِنَ عندَ الشيخِ أبي إسْحاقَ في تُرْبَتِه، رحِمَه اللَّهُ تعالى.

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة

وفيها أخذَت الفرنْجُ - خذَلَهم اللَّهُ تعالى - بيْتَ المَقْدِسِ؛ لمَّا كان ضُحَى يوم الجُمُعَةِ لسَبعٍ بَقِينَ من شعبانَ سنةَ ثِنْتَيْنِ وتِسْعِينَ وأرْبَعمائةٍ، استَحْوَذَ الفرنْجُ - لعنَهم اللَّهُ - على بيْتِ المَقْدِسِ - شرَّفَه اللَّهُ -

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٣٧-٣٩).

وهم في نحو ألف ألف مُقَاتِل، فقتلوا في وسَطه أزيدَ من سبعينَ ألف قتيلٍ من المسلمينَ، وجاسُوا خلالَ الديارِ وكان وعدًا مفعُولاً.

قال ابنُ الجَوزي: وأخذُوا من حول الصَّخرة اثْنَيْن وأربعينَ قنديلاً من فضَّة، زِنَةُ كلِّ واحدٍ منها ثلاثةُ آلافٍ وستُّمائَةِ درهَم، وأخذُوا تَنُّورًا من فِضَّة زنتُه أربَعُونَ رِطلاً بالشَّاميِّ، وثلاثةً وعشْرينَ قنْديلاً من ذَهَب. وذهَب الناسُ علىٰ وجوههم هازعِينَ من الشام إلىٰ العراق، مُسْتَغيثِينَ علىٰ الفرنْج إلىٰ الخليفَة والسلطان، منهم القاضي بدِمَشْقَ أبو سعدٍ الهَرَوِيُّ، فلمَّا سمع الناسُ ببَغْدَادَ هذا الأمْرَ الفظيعَ هالَهم ذلك وتَباكَوْا، وقد نَظَمَ أبو سعدٍ الهَرَوِيُّ كلامًا قُرِئَ في الديوان وعلىٰ المَنابِر، فجهَشَ الناسُ بالبُكاء، ونَدَبَ الخليفَةُ الفُقَهاءَ إلىٰ الخُرُوجِ إلىٰ البلادِ؛ ليُحَرِّضُوا المُلُوكَ علىٰ الجهاد، فخرَجَ ابنُ عَقِيلٍ، وغيرُ واحدٍ من أعْيانِ الفُقَهاء، فساروا في الناسِ، فلم يُفِدْ ذلك شيئًا، فإنَّا للَّه وإنَّا إليه رَاجعُونَ، فقال في ذلك أبو المُظَفَّرِ الأَبِيوَرْدِيُّ:

مَزَجْنَا دِماءً بالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ ... فلم يَبْقَ منَّا عُرْضَةٌ للمَرَاحِمِ
وشَرُّ سلاحِ المَرءِ دمعٌ يُفِيضُه ... إذا الحربُ شُبَّتْ نارُها بالصَّوارِمِ
فإيهًا بَني الإسْلامِ إنَّ وراءَكُمْ ... وقائعَ يُلْحِقْنَ الذُّرَىٰ بالمناسمِ
وكيفَ تَنامُ العَيْنُ ملْءَ جفُونها ... علىٰ هَفَوات أيْقَظَتْ كلَّ نائمِ
وإخْوانُكم بالشَّامِ يُضْحي مَقيلُهُمْ ... ظُهُورَ المَذاكي أو بطُونَ القَشاعمِ
تسُومُهم الرُّومُ الهَوانَ وأنتُم ... تجُرُّونَ ذَيْلَ الخَفْضِ فعلَ المُسالِمِ
وبينَ اختلاسِ الطَّعْنِ والضرب وقْفَةٌ ... تظَلُّ لها الوِلْدانُ شيبَ القَوادِمِ
وتلكَ حروبٌ من يَغِبْ عن غمارِها ... ليَسلَمَ يَقْرَعْ بعدَها سنَّ نادمِ
سَلَلْنَ بأيْدي المشركينَ قَواضبًا ... ستُغمَدُ منهم في الطُّلَىٰ والجَماجمِ
يكادُ لهنَّ المُسْتَجِنُّ بطيبةٍ ... يُنادي بأعلَىٰ الصوتِ يا آلَ هاشمِ
أرَىٰ أُمَّتي لا يَشْرَعُونَ إلىٰ العِدَا ... رِماحَهُم والدِّينُ واهي الدعائمِ
ويَجْتَنِبُونَ الثَّأرَ خَوْفًا من الرَّدَىٰ ... ولا يَحْسَبُونَ العارَ ضَرْبَةَ لازِمِ
أتَرضَىٰ صَناديدُ الأعاريبِ بالأذَىٰ ... وتُغْضي علىٰ ذُلٍّ كُماةُ الأعاجمِ
فَلَيْتَهُمُ إذْ لم يذُودُوا حَمِيَّةً ... عن الدِّينِ ضَنُّوا غَيْرَةً بالمَحارمِ
وإنْ زَهِدُوا في الأجْرِ إذْ حَمِيَ الوغَىٰ ... فهَلاَّ أتَوْه رغْبَةً في الغنائمِ

وفيها: كان ابتداءُ أمرِ السلطان محمدِ بنِ مَلَكْشاه؛ وهو أخو السلطان سَنْجَرَ لأبيه وأُمِّه، واستَفْحَلَ أمرُه إلىٰ أنْ صارَ من أمرِه أنْ خُطِبَ له ببغْدَادَ في ذي الحجة من هذه السنة.

وفيها: سارَ إلىٰ الرَّيِّ فوجَدَ زُبَيْدَةَ خاتون أمَّ أخيه بَرْكْيَارُوقَ فأمَرَ بخَنْقِها. وكان عُمْرُها إذْ ذاكَ ثِنْتَيْنِ وأربَعينَ سنةً - في ذي الحَجَة من هذه السنة، وكانتْ له مع بَرْكْيَارُوقَ خَمْسُ وقَعات هائلَةٌ. وفي هذه السنة غَلَت الأسْعَارُ جدًّا ببَغْدَادَ، حتىٰ ماتَ كثيرٌ من الناسِ جُوعًا، وأصَابَهم وبَاءٌ شديدٌ حتىٰ

عَجَزُوا عن دَفْنِ الموتىٰ من كَثْرَتِهم.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

السلطانُ إبْراهيمُ ابنُ السلطانِ محمود بن مسعود ابن السلطان محمود بن سُبُكْتكين، صاحبُ غَزْنَةَ وأطْرافِ الهند، وغيرِ ذلك كانَت له حُرْمَةٌ وأُبَهَةٌ عظيمةٌ جِـدًّا، حكَىٰ إلْكِيَا الهَرَّاسيُّ - حينَ بعثَه السلطانُ بَرْكَيارُوقُ إليه - في رسالة عمَّا شاهَده عندَه من أُمورِ السَّلْطَنَةِ في مَلْبَسه ومَجْلِسه، وما عندَه من السعادة الدُّنْيَوِيَّة، قال: رأيْتُ شيئًا عجيبًا. وقد وعَظَه بحديث: «لَمَناديلُ سعد بن مُعاذ في الجنَّة أحسنُ من هذا». فبَكَىٰ. قال: كان لا يَبْني لنفسه منزلاً حتىٰ يَبْني قبلَه مسجدًا أو مدرسة أو رباطًا. تُوُفِّي، رحمَه اللَّهُ تعالىٰ، في رجبٍ من هذه السنَة، وقد جَاوَزَ التسعينَ، وكانتْ مُدَّةُ مُلْكِه ثِنْتَيْنِ وأربعينَ سنةً.

عبدُ الباقي بنُ يُوسُفَ بن عليِّ بن صالح، أبو تراب المَرَاغيُّ[1]، وُلِدَ سنةَ إحْدَىٰ وأرْبعمائة، وتَفَقَّه علىٰ القاضي أبي الطيب الطَّبَرِيِّ، وسمعَ الحديثَ عليه وعلىٰ غيره من المشايخ ببلدان شتَّىٰ، ثم أقامَ بنَيْسَابُورَ، وكان يَحْفَظُ شيئًا كثيرًا من مسائلِ الخلاف؛ نحوًا من أرْبَعة آلاف مسألة بأدلَّتها والمُناظَرَة عليها، وغيرَ ذلك من الحكايات والمُلَحِ والآداب، وكان صَبُورًا مُتَقَلِّلاً علىٰ طريقة السلَف، جاءَه مَنْشُورٌ بقضاء هَمَذَانَ فقال: أنا مُنْتَظِرٌ مَنْشُورًا مِنَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، علىٰ يدَيْ ملك الموت بالقُدُوم عليه، واللَّه لَجُلوسُ ساعةٍ في هذا المسجد علىٰ راحة القلب أحَبُّ إليَّ من مُلْك العراقَيْن، وتعليمُ مسْألَةٍ لطالبٍ أحبُّ إليَّ من مُلْك الثَّقَلَيْن. حكاه ابنُ الجَوْزِيِّ في «المُنْتَظَم». تُوُفِّي، رحمَه اللَّهُ، في ذي القَعْدَة من هذه السنَة عن ثلاث وتسعينَ سنةً.

أبوالقاسم ابنُ إمامُ الحَرَمَيْن، قتَلَه بعضُ الباطِنيَّة بنَيْسَابُورَ، رحمَه اللَّهُ، ورحمَ أباه بمَنِّه وكَرَمه.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة

في صفرٍ منها دخَل السلطانُ بَرْكيَارُوقُ إلىٰ بَغْدادَ، ونزَلَ بدار المُلْك، وأُعيدَتْ له الخُطْبَةُ ببَغْدادَ، وقُطعَتْ خُطْبَةُ أخيه محمدُ بنُ مَلِكْشَاه، وبَعَثَ إليه الخليفةُ هَديَّةً هائلةً، وفَرِحَ به العوامُّ والنساءُ، ولكنَّه في ضيقٍ من أمرِ أخيه السلطان محمد؛ لإقْبال الدَّوْلَة عليه واجْتماعهم إليه، وقلَّة ما معه من الأموال، ومُطالبَةُ الجند له بأرْزَاقهم، فعزَم علىٰ مُصادَرَة الوزير ابن جَهير، فالْتَجأ إلىٰ الخليفَة، فمَنَعَه من ذلك، ثم اتَّفَقَ الحالُ علىٰ المُصَالَحَة عنه بمائة وستِّينَ ألفَ دينار، ثم الْتَقَىٰ هو وأخوه محمدٌ بمكانٍ قريبٍ من هَمَذَانَ، فهَزَمَه أخوه محمدٌ ونجا هو بنَفْسه في خمسينَ فارسًا، وقُتلَ في هذه الوقْعَة سعدُ الدَّوْلَة كُوهْرائينَ الخادمُ وكان قديمَ الهجْرَة في الدَّوْلَة، وقد وَلِيَ شِحْنَكيَّةَ بَغْدادَ، وكان حَليمًا حسنَ

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ١٧٠ - ١٧١).

السِّيرَةِ، لم يتعمَّدْ ظلمًا ولم يرَ خادمٌ ما رأىٰ من الحِشْمَة والحُرْمَة وكثرة الخدْمة، وقد كان يُكثِرُ الصلاةَ بالليلِ، ولا يجلسُ إلا على وضوءٍ، ولم يمرَضْ مدَّةَ حياته، ولم يُصدَعْ قطُّ، ولمَّا جرىٰ ما جرىٰ في هذه الوَقْعَة ضَعُفَ أمرُ السلْطَان بَرْكَيَاروقَ، ثم تراجَع إليه جَيْشُه، وانضاف إليه الأميرُ داودُ حبشيٌّ في عشرينَ ألفًا، فالتقىٰ مع أخيه الآخرِ سَنجرَ، فهزَمه سَنجرُ أيضًا وأُسر داودُ المذكورُ في هذه الوقعة، فقتَله الأميرُ بُزْغُشُ أحدُ أمراء سَنجرَ، فَضَعُفَ جانبُ بَرْكَيَاروقَ، وتقهقَر حالُه، وتفرَّقَتْ عنه رجالُه، وقُطعَتْ خُطبتُه من بَغْدَادَ في رابعَ عشَرَ رَجَبٍ، وأُعيدَتْ خُطبةُ السلْطان محمد.

وفي رمضانَ قُبض على الوزيرِ عميدِ الدولة ابن جَهِير، وعلى أخوَيْه؛ زعيمِ الرُّؤساء أبي القاسمِ، وأبي البَرَكاتِ المُلَقَّب بالكافي، وأُخِذَتْ منهم أموالٌ كثيرةٌ، وحُبِس بدارِ الخلافة حتى ماتَ في شَوَّالٍ من هذه السنة.

وفي اللَّيْلةِ السابعة والعشْرينَ منه قُتِل شِحْنَةُ أصْبَهانَ، ضرَبه باطنيٌّ بسكِّينٍ في خاصرَتِه، وقد كان يتحرَّزُ منهم طولَ مباشَرَتِه، ويدَّرِعُ تحتَ ثيابِه سوىٰ هذه الليلة، ومات من أولادِه في هذه اللَّيْلةِ جماعةٌ، فخرَج من دارِه خَمْسُ جنائزَ من صَبِيحتِها.

وفي هذه السنة أقبَل ملك الفرنْجِ في ثَلاثمائَة ألف مُقاتِلٍ، فالْتقىٰ معه كُمُشْتكينُ بنُ الدانشْمَنْد طايلو، أتَابكُ الجيوشِ بدمشقَ، الذي يقالُ له: أمينُ الدولة، واقفُ الأمينيَّة بدمَشْقَ وبِبُصْرَىٰ ـ لا التي بِبَعْلَبَكَّ ـ فهزَم الفرنْجَ، وقتَل منهم خَلْقًا كثيرًا، بحيثُ لم ينْجُ منهم سوىٰ ثلاثة آلافٍ، وأكثرُهم جَرْحَىٰ ـ يعني الثلاثةَ آلافِ ـ وذلك في ذي القَعْدَة من هذه السنة، ولَحِقهم إلى مَلَطْيَةَ فملَكَها، وأسَرَ مَلِكَها، ولله الحمدُ.

وحجَّ بالناسِ الأميرُ التُّونتاشُ التركيُّ، وكان شافعيَّ المذْهب.

وممن تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

عبدُ الرزَّاق الغَزْنَويُّ الصوفيُّ شيخُ رباط عتَّابٍ، حجَّ مراتٍ على التَّجْريد، مات وله نحوُ مائة سنةٍ، ولم يتْرُكْ كَفَنًا، وقد قالتْ له امرأتُه وهو في الاحتضار: إنك ستُفْتَضَحُ اليومَ؛ لا يُوجَدُ لكَ كفَنٌ. فقال لها: لو تركتُ كفنًا لافْتَضحتُ.

وعكسُه أبو الحسن البِسْطَاميُّ، شيخُ رباط ابنِ المحلبان، كان لا يلبَسُ إلا الصوفَ شتاءً وصيفًا، ويُظهِرُ الزهدَ، وحين تُوُفِّيَ وُجِدَ له أربعةُ آلاف دينارٍ مدْفُونَةٌ، فتعجَّبَ الناسُ من تفاوُتِ حالَيْهما، واتفاقِ مَوْتِهما في هذه السنة، فرحِم اللهُ الأوَّلَ وسامَح الثانيَ.

الوزيرُ عميدُ الدولة ابنُ جَهِير، محمدُ بنُ أبي نَصْرِ بن محمد بن جَهير الوزيرُ الكبيرُ. أبو منصورٍ الملقَّبُ عميدَ الدولة، أحدُ رُؤَساء الوزراء وساداتِ الكُبَراء، خدَم ثلاثةً من الخلفاء، ووزَر لاثنَيْن منهم، وكان حليمًا قليلَ العجَلَة، إلا أنه كان يُتَكَلَّمُ فيه بسببِ الكِبْرِ، وقد وَليَ الوزارةَ مرات؛ يُعْزَلُ ثُمَّ يُعادُ، ثم كان آخرَها هذه المرَّةَ، حُبِسَ بدارِ الخلافةِ فلم يخرُجْ من السِّجْنِ إلا ميِّتًا، في شوَّالٍ من هذه السنة.

ابنُ جَزْلَةَ الطبيبُ، يَحْيَىٰ بنُ عيسَىٰ بن جَزْلَةَ، صاحبُ «المِنْهاج» في الطِّبِّ، كان نصْرانيًّا، وكان يتردَّدُ إلىٰ الشيخ أبي علي بن الوليد المعْتَزلِيِّ يشتغلُ عليه في المَنْطِق، فكان أبو عليٍّ يدْعُوه إلىٰ الإِسْلام ويوضِّحُ له الدّلالات حتىٰ أسلَمَ وحَسُنَ إسْلامُه، واسْتَخلَفه أبو عبد اللَّه الدَّامَغانيُّ قاضي القضاة في كَتْب السِّجلات، ثم كان يُطبِّبُ الناسَ بعدَ ذلك بلا أُجْرةٍ، وربَّما ركَّبَ لهم الأدْويَةَ من ماله تبرُّعًا، وقد أوْصَىٰ بكتُبه أنْ تكون وقْفًا في مَشْهَد أبي حنيفةَ، رحمَه اللَّهُ تعالىٰ.

ثم دخلت سنة أرْبَع وتِسْعِين وأرْبَعمائة

فيها: عَظُمَ الخطبُ بأَصْبهانَ ونواحيها بالباطنيَّة، فقتَل السلطانُ منهم خلْقًا كثيرًا، وأُبيحَتْ ديارُهم وأموالُهم للعامَّة، كلُّ مَن يَقْدرون عليه فلهم قتلُه ومالُه، وكانُوا قد استحوَذُوا علىٰ قلاعٍ كثيرةٍ، وأوَّلُ قلعةٍ ملَكُوها في سنَة ثلاث وثمانين، وكان الذي ملَكَها الحسنُ بنُ الصبَّاح، أحدَ دُعاتهم، وكان قد دخَل مصْرَ وتعلَّم من الزنادقَة الذين كانوا بها، ثم صارَ إلىٰ تلك النواحي ببلاد أصْبهانَ، فكان لا يدْعُو إلا غَبيًّا لا يعرفُ يمِينَه مِن شماله، ثم يُطعِمُه العسلَ بالجَوْز والشُّونيز، حتىٰ يحترقَ مزاجُه، ويفسُدَ دماغُه، ثم يذكرُ له شيئًا من أخْبار أهل البيت، ويكذبُ له من أقاويل الرافضة الضُّلَّال، أنهم ظُلمُوا ومُنعُوا حقَّهم، ثم يقولُ له: فإذا كانت الخوارجُ تقاتلُ مع بني أميَّةَ لعليٍّ، فأنتَ أحقُّ أنْ تُقَاتِلَ في نُصْرَة إمامكَ عليٍّ بن أبي طالب، ولا يزالُ يسْقيه من هذا وأمثاله حتىٰ يسْتَجيبَ له، ويصيرَ أطْوَعَ له من أبيه وأمِّه، ويُظهرُ له أشياءَ كثيرةً من المَخْرَقة والنِّيرَنْجات والحِيَل التي لا تروجُ إلا علىٰ الجُهَّال، حتىٰ التفَّ عليه بَشَرٌ كثيرٌ، وجَمٌّ غفيرٌ، وقد بعَث إليه السلطانُ مَلِكْشاه يتهَدَّدُه ويتوعَّدُه ويَنْهاه عن بعثه الفداويَّةَ إلىٰ العلماء، فلمَّا قرأ الكتابَ بحضْرَة الرسول، قال لمَنْ حضرَه من الشباب: إنِّي أُريدُ أنْ أُرْسِلَ منكم رسولاً إلىٰ مولاه، فاشْرَأَبَّتْ وجوهُ الحاضرين منهم، ثم قال لشابٍّ منهم: اقْتُلْ نفسَكَ. فأخرَج سكِّينًا فضرَب بها غَلْصَمَتَه، فسقَط ميِّتًا، وقال لآخَرَ منهم: ألْقِ نَفْسَكَ من هذا الموضع، فرَمَىٰ نفسَه من رأس القلعة إلىٰ أسْفَل خَنْدَقها فتقَطَّعَ. فقال للرسُول: هذا الجوابُ. فمنْها امتنَع السلطانُ من مُراسلَته. هكذا أورَدَه ابنُ الجَوْزيِّ. وسيأْتي أنَّ الملكَ صلاحَ الدين فاتح بَيْت المَقْدس جرَىٰ له مع سنان صاحب الإيوان مثلُ هذا.

وفي شهر رمضان أمَر الخليفةُ المستظهرُ باللَّه بفتح جامع القصر، وأنْ يُبَيَّضَ وأنْ يُصَلَّىٰ فيه التراويحُ وأنْ يُجْهرَ بالبَسْملة، وأنْ يُمنَعَ النساءُ من الخروج ليلاً للفُرْجَة.

وفي أوَّل هذه السنة دخَل السلطانُ بَرْكْيَاروقُ إلىٰ بَغْدادَ فخُطبَ له بها، ثم لحقَه أخواه محمدٌ وسَنْجَرُ، فدَخلاها وهو مريضٌ فعبَر إلىٰ الجانب الغَرْبيِّ، فقُطعَتْ خطبتُه وخُطبَ لهما بها، وهرَبَ بَرْكْيَاروقُ إلىٰ وَاسطٍ، ونهَب جيشُه ما اجْتازُوا به من البلاد والأراضي، فنَهاه بعضُ العلماء عن ذلك ووَعظَه فلمْ يُفدْ شيئًا.

وفي هذه السنة ملكت الفرنجُ قلاعًا كثيرةً؛ منها قَيسارِيَّةُ وسَرُوجُ، وسارَ ملكُ الفرنجِ كُنْدُفْرِىْ، وهو الذي أخذ بيتَ المقدسِ، إلى عَكَّا فحاصرها، فجاءه سَهْمٌ في عُنُقه، فمات من فوره، ألا لعْنةُ اللّهِ عليه وعلى أجناده.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمد بن عبد الواحد بن الصبَّاغ، أبو منصور، سمع الحديثَ وتفقَّه على أبي الطَّيِّب الطَّبَريِّ، ثم على عمِّه أبي نَصْر ابن الصبَّاغ، وكان فقيهًا فاضلًا، كثيرَ الصلاة، يصومُ الدهرَ، وقد وَلِيَ القضاءَ برَبْعِ الكَرْخ، والحِسْبَةَ بالجانب الغربيِّ، رحمه اللّهُ تعالى.

عبدُ اللّه بنُ الحسن بن أبي مَنْصُور، أبو محمد الطَّبَسيُّ، رَحَل وجمع وصنَّفَ، وكان أحدَ الحفَّاظ المُكْثِرينَ، ثقةً، صدوقًا، عارفًا بالحديث، وَرِعًا، حَسَنَ الخُلُقِ، رحمه اللّهُ.

عبدُ الرحمن بنُ أحمدَ بن محمد أبو الفَرَج الزازُ السَّرْخَسيُّ، نزَلَ مَرْوَ، وسمع الحديثَ وأمْلَى، ورحَل إليه العلماءُ، وكان حافظًا لمذهب الشافعيِّ متديِّنًا ورعًا، رحمه اللّهُ.

عَزيزي بنُ عبد الملك بن منصور، أبو المعالي الجِيليُّ القاضي، المُلقَّبُ شَيْذَلَهْ، كان شافعيًّا في الفُروع، أشْعَريًّا في الأُصول، وكان حاكمًا بباب الأزَج، وكان بيْنَه وبينَ أهل باب الأزَج من الحنابلة شَنَآنٌ كبيرٌ، سمعَ رجلًا يُنادي على حمار له ضائع، فقال: يدخُلُ بابَ الأزَج ويأخُذُ بيَد مَن شاءَ. وقال يومًا للنَّقيب طِرادٍ الزَّيْنَبيِّ: لو حلَفَ إنسانٌ أنه لا يرىٰ إنْسانًا، فرأىٰ أهلَ باب الأزَج، لم يَحْنَثْ. فقال له الشريفُ: مَن عاشَر قومًا أربعينَ يومًا فهو منهم. ولهذا لمَّا مات فرحُوا بموته كثيرًا.

محمدُ بنُ أحمدَ بن عبد الباقي بن الحسن بن محمد بن طَوْق، أبو الفضائل الرَّبَعيُّ المَوْصليُّ، تفقَّه على الشيخ أبي إسحاقَ الشِّيرازيِّ، وسمع الحديثَ من القاضي أبي الطَّيِّب الطَّبَريِّ، وكان ثقةً صالحًا، كتَب الكثيرَ، رحمه اللّهُ.

محمدُ بنُ الحسن، أبو عبد اللّه الرَّاذانيُّ، نزَل أوَانًا، وكان مُقْرِئًا فقيهًا صالحًا، له أحوالٌ وكراماتٌ ومُكاشَفاتٌ، أخَذ عن القاضي أبي يَعْلَىٰ بن الفَرَّاء الحديثَ، وغيره.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: بلَغَني أن ابنًا له صغيرًا طلَب منه غزالًا وألحَّ عليه، فقال له: يا بُنَيَّ، غدًا يأتيك غَزالٌ. فلمَّا كان الغَدُ أتَىٰ غزالٌ، فجعَل ينطَحُ البابَ بقَرْنَيْه حتى يفتَحَه، فقال له أبوه: يا بُنَيَّ، أتَاكَ الغزالُ. رحمه اللّهُ تعالى.

محمدُ بنُ عليِّ بن عُبيد اللّه بن أحمدَ بن صالح بن سليمانَ بن وَدْعانَ، أبو نَصْر المَوْصليُّ القاضي، قدم بَغْدادَ سنةَ ثلاث وتسعين، وحدَّث عن عمِّه بـ«الأربعين الوَدْعانيَّة»، وقد سرَقَها عمُّه أبو الفتح بنُ وَدْعانَ من زيد بن رفاعةَ الهاشميِّ، فركَّب لها أسانيدَ إلى مَن بعدَ زيد بن رفاعةَ، وهي موضوعةٌ كلُّها، وإنْ كان في بعْضها معانٍ صحيحةٌ. واللّهُ أعلمُ.

محمدُ بنُ مَنْصور، أبو سعد المُسْتَوْفي، شرفُ المُلْك الخُوَارَزْميُّ، جليلُ القَدْر، وكان متعَصِّبًا

لأصحاب أبي حنيفةَ، ووقَف لهم مدرسةً بمَرْوَ، ووَقَف فيها كتُبًا كثيرةً، وبنَى مدرسةً ببَغْدادَ عندَ باب الطَّاق، وبنَى القُبَّةَ على قبرِ أبي حنيفةَ، وبنَى أربطَةً في المَفاوزِ، وعمِل خيرًا كثيرًا، وكان من أطيبِ الناسِ مأكَلاً ومشرَبًا، وأحسَنِهم ملبَسًا، وأكثَرِهم مالاً، ثم ترك العِمالةَ بعدَ هذا كلِّه، وأقبَل على العبادة والاشتغال بنفسه إلى أن ماتَ، رحمه اللَّهُ تعالى.

محمدُ بنُ منصورٍ القُشَيريُّ، المعروفُ بعَميد خُراسانَ، قدِم بغْدادَ أيامَ طُغْرُلْبَك، وحدَّث عن أبي حَفْصٍ عمرَ بنِ أحمدَ بنِ مسرورٍ، وكان كثيرَ الرغبَةِ في الخيرِ، وقَف بمَرْوَ مدرسةً على أبي بكرِ بنِ أبي المُظَفَّرِ السَّمْعانيِّ وذُرِّيَّته. قال ابنُ الجَوْزيِّ: فهم يتولَّوْنها إلى الآنَ، وبنَى بنَيْسابورَ مدرسةً، وفيها تربتُه، وكانت وفاتُه في شوَّالٍ من هذه السنة، رحمه اللَّهُ.

نَصْرُ بنُ أحمدَ بنِ عبد اللَّه بنِ البَطِر، أبو الخطَّاب البَزَّازُ القارئُ. وُلِدَ سنةَ ثمانٍ وتسعين وثلاثمائة، وسمع الكثيرَ، وتفرَّد عن ابنِ رِزْقَوَيْهِ وغيرِه، وطال عمرُه، ورُحِل إليه من الآفاقِ، وكان، رحمه اللَّهُ، صحيحَ السَّماع.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وأربعمائة

في ثالث المحرَّم قُبِض على أبي الحسَنِ عليِّ بنِ محمدٍ، المعروفِ بإلْكِيا الهَرَّاسيِّ، وعُزِل عن تدريسِ النِّظاميَّة، وذلك أنَّه رمَاه بعضُهم عندَ السلطانِ بأنَّه باطنيٌّ، فشَهِد له جماعةٌ من العلماء - منهم ابنُ عَقيلٍ - ببراءَته من ذلك، وجاءت الرسالةُ من دارِ الخلافة بخَلاصه.

وفيها: في يوم الثلاثاء حادي عشرَ من المحرَّم جلَس الخليفةُ المستظهرُ بدارِ الخلافة وعلى كَتِفه البُردةُ وبيده القضيبُ، وجاءَ المَلِكان الأخَوان محمدٌ وسَنْجَرُ ابْنا السلطان مَلِكْشاه، فقبَّلا الأرضَ، فخلَع عليهما الخِلَعَ السلطانية؛ على محمد سيفًا وطَوْقًا وسوارًا ولواءً وأفراسًا من مَراكِبه، وعلى سَنْجَرَ دونَ ذلك. وولَّى الخليفةُ السلطانَ محمدًا المُلكَ، واستَنابَه فيما يتعلَّقُ بأمرِ الخلافة، دونَ ما أغْلَقَ عليه الخليفةُ بابَه، ثمَّ خرَج السلطانُ محمدٌ في تاسعَ عشَرَ الشهرِ، فأرْجَف الناسُ بقُدومِ بَرْكْيارُوقَ، ثم اصطَلَحوا على أمورٍ، فركب السلطانُ محمدٌ، فالْتَقَوا وجرَتْ حروبٌ كثيرةٌ، وانهزَم محمدٌ وجرَى عليه مكْروهٌ شديدٌ، كما سيأتي بيانُه.

وفي رجَبٍ قبِل القاضي أبو الحسنِ الدامَغانيُّ شهادةَ أبي الحُسَيْنِ وأبي خازمٍ ابْنَي القاضي أبي يَعْلَى ابنِ الفَرَّاء.

وفيها: قدِمَ عيسَى بنُ عبد اللَّه الغَزْنَويُّ، فوعَظَ الناسَ وكان شافعيًّا أشْعَريا، فوقَعت فتنةٌ بين الحنابلة والأشْعَرِيَّة ببَغْدادَ. وفيها وقَع حريقٌ عظيمٌ ببَغْدادَ، وحجَّ بالناسِ حُميدٌ العُمَريُّ، صاحبُ سيفِ الدولة صَدَقَةَ بنِ منصورِ بنِ دُبَيْسِ بنِ عليِّ بنِ مَزْيَدٍ الأسَديِّ، صاحبِ الحِلَّة.

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

أبو القاسم، صاحبُ مصرَ الملقَّبُ **بالمُسْتَعْلي**، كانت وفاتُه في ذي الحِجَّة من هذه السنة، وقامَ بالأمرِ

مِن بعدِه ابنُه أبو عليٍّ وله تسعُ سنينَ، ولُقِّبَ الآمرَ بأحكامِ اللَّهِ.

محمدُ بنُ هبةِ اللَّه، أبو نصرٍ القاضي البَنْدَنِيجيُّ، الضريرُ الشافعيُّ، أخذَ عن الشيخِ أبي إسحاقَ الشِّيرازيِّ ثم جاورَ بمكةَ أربعينَ سنةً، يُفتي ويُدرِّسُ، ويروي الحديثَ، وكان مِن نوادرِ الزمانِ، ومِن شعرِه قولُه:

عَدِمْتُكِ نفسي ما تَمَلِّي بَطالَتي ... وقد مرَّ إخواني وأهلُ مَودَّتي

أُعاهِدُ ربِّي ثم أَنقُضُ عهدَه ... وأتركُ عزمي حينَ تَعرِضُ شهوتي

أُعاهِدُ ربِّي ثم أنقُضُ عهدَه ... ألِلزَّادِ أبكي أم لطولِ مسافتي

ثم دخلت سنة ست وتسعين وأربعمائة

فيها: حاصَر السلطانُ بَرْكِيَارُوقُ أخاه محمدًا بأَصْبهانَ، فضاقَتْ على أهلِها الأرزاقُ، واشتدَّ الغلاءُ عندَهم جدًّا، وأخَذ السلطانُ محمدٌ أهلَها بالمُصادرةِ والحصارُ حولَهم مِن خارجِ البلدِ، فاجْتمع عليهم الخوفُ والجوعُ والنقصُ مِن الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ، ثم خرَج السلطانُ محمدٌ مِن أصْبهانَ هاربًا، فأرسَل أخوه في أثرِه مملوكَه إيازَ، فلم يتمكَّنْ مِن قبْضِه، ونَجا بنفسِه سالمًا.

قال ابنُ الجَوْزِيِّ: وفي صفرٍ منها زيدَ في ألقابِ قاضي القضاةِ، أبي الحسنِ الدامَغانيِّ: تاجُ الإسلامِ. وفي ربيعٍ الأولِ قُطِعت الخُطبةُ للسلاطينِ ببغدادَ، واقتُصِرَ على ذكرِ الخليفةِ فيها، والدعاءِ له.

ثم الْتَقى الأخَوانِ بَرْكِيَارُوقُ ومحمدٌ، فانهزَم محمدٌ أيضًا ثم اصْطَلَحا. وفيها مَلَك الملكُ دُقاقُ ابنُ تُتُشَ بنِ مَلِكْشاه. صاحبُ دمشقَ مدينةَ الرَّحْبةِ. وفيها قُتِل أبو المظفَّرِ الخُجَنْديُّ الواعظُ بالرَّيِّ، وكان فقيهًا شافعيًّا مُدرِّسًا، قتَلَه رافضيٌّ عَلَويٌّ في الفتنةِ، وكان عالمًا فاضلًا، وكان نظامُ المُلْكِ يزورُه ويعظِّمُه. وحجَّ بالناسِ خُمارْتِكينُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها مِن الأعيانِ:

أحمدُ بنُ عليِّ بنِ عُبيدِ اللَّهِ بنِ عمرَ بنِ سوارٍ، أبو طاهرٍ المُقرِئُ، صاحبُ «المصنَّفاتِ في علمِ القراءاتِ»، كان ثقةً، ثبْتًا، مأمونًا، عالمًا بهذا الشأنِ، قد جاوزَ الثمانين، رحمه اللَّهُ تعالى.

أبو المعالي أحدُ الصُّلَحاءِ الزُّهادِ، ذَوي الكراماتِ والمُكاشفاتِ، وكان كثيرَ العبادةِ، مُتَقَلِّلًا مِن الدُّنيا، لا يلبَسُ صيفًا ولا شتاءً إلا قميصًا واحدًا، فإذا اشتدَّ البردُ وضَع على كتفِه مئزرًا، وذكَرَ أنَّه أصابَتْه فاقةٌ شديدةٌ في شهرِ رمضانَ، فعزَمَ على الذهابِ إلى بعضِ أصحابِه ليَسْتَقرِضَ منه شيئًا، قال: فبَيْنَما أنا أُريدُه إذا بطائرٍ قد سقطَ على كتفي، وقال: يا أبا المعالي، أنا الملَكُ الفُلانيُّ، لا تَمْضِ إليه، نحن نأْتيكَ به، قال: فبَكَّر إليَّ الرجلُ. رواه ابنُ الجَوْزِيِّ في «مُنْتَظمِه» من طريقين عنه، كانت وفاتُه في هذه السنةِ، ودُفِنَ قريبًا من قبرِ أحمدَ.

السيدةُ بنتُ القائمِ بأمرِ اللَّهِ أميرِ المؤمنينَ، التي تزَوَّجَها الملكُ طُغْرُلْبَك، توفِّيَتْ في هذه السنةِ ودُفِنَتْ بالرُّصافةِ، وكانت كثيرةَ الصَّدَقَةِ والإيثارِ، وجلَس لعزَائِها في بيتِ النُّوبةِ الوزيرُ، واللَّهُ أعلَمُ.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وأربعمائة

فيها قَصَد الفرنجُ - لَعَنَهم اللَّهُ - الشامَ، فقاتَلَهم المسلمونَ فقتَلُوا منهُم اثْنَيْ عَشَرَ ألفًا، وردَّ اللَّهُ الذينَ كَفَروا بغَيْظِهم لم ينالوا خيرًا، وقد أُسِرَ في هذه الوقْعَةِ بَرْدَوِيلُ صاحبُ الرُّهَا.

وفي هذه السنة سَقَطَتْ مَنارَةُ واسطٍ وقد كانتْ مِن أحسنِ المَنائرِ، كان أهلُ البلدِ يَفْتَخرونَ بها وبِقُبَّةِ الحَجَّاجِ، فلمَّا سَقَطَتْ سُمِعَ لأهلِ البَلَدِ بُكَاءٌ وعَويلٌ شديدٌ لم يُسْمَعْ بمثلِه، ومع هذا لم يَهْلِكْ بسَبَبِها أحدٌ، وكان بِنَاؤُها في سنة أربعٍ وثلاثمائة في زمنِ المُقْتَدرِ.

وفي هذه السنة تأكَّدَ الصُّلحُ بينَ السُّلطانينَ الأخوينِ بَرْكِيَارُوقَ ومحمدٍ، واقتَسَما البلادَ فقُطِعَتْ الخُطْبَةُ ببغْدادَ لمحمدٍ واستَمَرَّتْ للمَلكِ بَرْكِيَارُوقَ، وبُعِثَ إليه بالخُلَعِ وإلى الأميرِ إيازَ. وفيها أخَذَتِ الفرنْجُ مدينةَ عكَّا وغيرَها مِن السواحلِ،

وفيها: استَوْلى الأميرُ سيفُ الدَّوْلَةِ صَدَقَةُ بنُ منصورٍ صاحبُ الحِلَّةِ على مدينةِ واسطٍ. وفيها تُوُفِّي المَلكُ دُقاقُ بنُ تُتُشَ صاحبُ دِمَشْقَ، فأقامَ مَمْلُوكُه طُغْتِكينُ ولدًا له صَغيرًا مكانَه، وأخَذَ البيعَةَ له، وصارَ هو أتابكَه، فدبَّرَ المُلْكَ بدمشقَ مُدَّةً، وفيها عَزَلَ السلطان سَنْجَرُ وزيرَه أبا الفتحِ الطُّغْرَائيَّ، ونَفاه إلى غَزْنَةَ.

وفيها: وَلِيَ أبو نَصْرٍ نظامُ الحَضْرَتَيْنِ ديوانَ الإنشاءِ بعدَ وفَاة خاله أبي سعدٍ، العلاءِ بنِ المَوْصَلايَا.

وفيها: قُتِل الطبيبُ الماهرُ الحاذقُ أبو نُعَيْمٍ، وكانت له إصاباتٌ عجيبةٌ جدًّا. وحَجَّ بالناسِ في هذه السنَةِ الأميرُ خُمارْتكينُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

أرْدَشيرُ ابنُ أبي منصورٍ، أبو الحسَنِ العَبَّاديُّ الواعظُ، قدِمَ بغْدادَ - فأحَبَّتْه العامَّةُ - في سنة ستٍّ وثمانينَ، وكانت له أحْوالٌ جيدةٌ فيما يظْهَرُ، واللَّهُ أعلَمُ.

إسماعيلُ بنُ محمد بن عثمانَ بنِ أحمدَ، أبو الفَرَجِ القَوْمَسانيُّ، مِن أهل هَمَذَانَ، سمعَ مِن أبيه وجدِّه وجماعةٍ، وكان حافظًا، حسَنَ المعْرفَةِ بالرِّجالِ والمتونِ، ثقةً مأمونًا، رحمَه اللَّهُ تعالى.

العلاءُ بنُ الحَسَنِ بن وهبِ بنِ المُوصَلايَا، سعدُ الدَّولة، كاتبُ الإنشاءِ ببَغْدَادَ، كان نَصْرَانيًّا فأسْلَمَ في سنة أربعٍ وثمانينَ، ومَكَثَ في الرِّياسَةِ مُدَّةً طويلَةً، نحوًا مِن خمسٍ وستِّينَ سنةً، وكان في الوزارةِ مراتٍ، وكتبَ الإنشاءَ مدَّةً، وكان فصيحَ العبارةِ، كثيرَ الصَّدَقةِ، تُوُفِّي في هذه السنة عن عمرٍ طويلٍ، رحمَه اللَّهُ تعالى.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عمرَ، أبوعمرَ النَّهَاوَنْديُّ، قاضي البصرةِ مدَّةً طويلةً، وكان فقيهًا عالمًا، سمعَ الحديثَ مِن أبي الحسَنِ المَاوَرْديِّ وغيرِه. كان مِن تلامذَةِ المَاوَرْديِّ، مَوْلدُه في سنةِ عَشْرٍ، وقيل: سبعٍ، وأرْبَعِمائةٍ، واللَّهُ أعلَمُ.

ثم دخلت سنة ثمانٍ وتسعين وأربعمائة

فيها: تُوُفِّي السلطانُ بَرْكْيَارُوقُ، وعَهِدَ إلى ولده الصغيرِ مَلِكْشَاه وعمرُه أربعُ سنينَ وشهورٌ، فخُطِبَ له ببَغْدَادَ، ونُثِرَ عند ذكره الدَّنانيرُ والدَّراهمُ، ولُقِّبَ جلالَ الدولة، وجُعِلَ أتابِكَه الأميرَ إيَازَ، ثم جاء السلْطانُ محمدُ بنُ مَلِكْشَاه إلى بَغْدَادَ، فخرجَ إليه الدولةُ فتَلَقَّوْه وصالَحُوه. وكان الذي أخَذَ البَيْعَةَ بالصُّلْحِ إلْكِيَا الهرَّاسيُّ مدرسُ النِّظاميَّة، وخُطِبَ له بالجانبِ الغربيِّ، ولابنِ أخيه بالجانبِ الشرقيِّ، ثم قَتَلَ الأميرَ إيَازَ ودخل بغدادَ وحُمِلَتْ إليه الخِلَعُ والدَّواةُ والدَّسْتُ.

وحضرَ الوزيرُ سعدُ الدولةِ عندَ إلْكِيَا الهرَّاسيُّ في درسِ النِّظاميَّة؛ ليُرَغِّبَ الناسَ في العلم.

وفي ثاني عَشَرَ رجَبٍ منها أُزِيلَ الغِيَارُ عن أهلِ الذِّمَّة الذي كانُوا أُلْزِمُوه في سنة أرْبعٍ وثمانينَ وأربعمائة، ولا يُعْرَفُ ماسببُ ذلك. وفيها كانت حروبٌ كثيرةٌ بينَ المصريينَ والفرِنْجِ، فقَتَلُوا من الفرِنْجِ خَلْقًا كثيرًا، ثم أُدِيلَ عليهم الفرنْجُ، فقتَلُوا منهم خَلْقًا كثيرًا.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

السلْطانُ بَرْكْيَارُوقُ بنُ مَلِكْشَاه ركنُ الدولة السَّلْجُوقيُّ، جرَتْ له خطوبٌ كثيرةٌ، وحروبٌ هائلةٌ، وأحْوالٌ مُتَبَايِنَةٌ، خُطِبَ له ببَغْدَادَ ستَّ مراتٍ، وعُزِلَ عنها ستَّ مرات، وكان عمرُه يوم ماتَ أرْبَعًا وعشرينَ سنةً وشهورًا، وقام من بعده ولَدُه مَلِكْشَاه، فلم يَتِمَّ أمرُه بسببِ مُنَازعَةِ عمِّه محمدٍ له.

عيسى بنُ عبد الله بن القاسم، أبو المُؤيَّد الغَزْنَوِيُّ الأشْعَري، كان واعظًا كاتبًا شاعرًا، ورَدَ بَغْدَادَ فوعَظَ بها فنَفَقَ على أهلِها، وكان أشْعَرِيَّ المذهبِ مُتَعَصِّبًا له، فخرجَ من بَغْدَادَ قاصدًا بلَدَه فتُوُفِّيَ بإسْفَرايينَ.

محمدُ بنُ أحمدَ بن إبراهيمَ بن سلفَةَ الأصْبَهَانيُّ، أبو أحمدَ، كان شَيْخًا عَفِيفًا ثقةً، سمعَ الكثيرَ، وهو والدُ الحافظ أبي طاهرِ السِّلَفيِّ، رحمَه اللَّهُ تعالى.

الحافظُ أبو عليٍّ الجَيَّانيُّ، الحُسَيْنُ بنُ محمد بن أحمدَ الغَسَّانيُّ الأنْدَلُسيُّ[1]، مُصَنِّفُ «تقْييدِ المُهْمَلِ» على ألْفاظِ الصَّحيحَيْنِ، وهو كتابٌ مُفيدٌ كثيرُ النَّفْعِ، وكان حَسَنَ الخطِّ، عالمًا باللغةِ والشعرِ والأدَبِ، وكان يُسْمِعُ في جامعِ قُرْطُبَةَ، تُوُفِّيَ ليلةَ الجُمُعة لثِنْتَيْ عشْرَةَ خَلَتْ من شعبانَ هذه السنةَ، عن إحْدَىٰ وسبْعينَ سنةً، رحمَه اللَّهُ.

محمدُ بنُ عليِّ بن الحسنِ بن أبي الصقْرِ، أبو الحَسَنِ الواسطيُّ، سمعَ الحديثَ وتفَقَّه بالشيخِ أبي إسْحاقَ الشِّيرازيِّ، وقرَأ الأدَبَ، وقال الشِّعْرَ ومن ذلك قولُه:

من قالَ لي جاهٌ ولي حِشْمةٌ ... ولي قَبُولٌ عندَ مَوْلانا
ولم يَعُدْ ذاك بنَفْعٍ على ... صَدِيقِه لا كانَ مَن كانا

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/١٤٨ـ١٥٢).

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وأربعمائة

في المُحَرَّمِ منها ادَّعَىٰ رجلٌ النُّبُوَّةَ بنواحِي نَهَاوَنْدَ، وسمَّىٰ أربعةً مِن أصْحابِهِ أبا بكرٍ، وعمرَ، وعُثْمَانَ، وعليًّا، فاتَّبَعَه علىٰ ضلاله هذا خَلْقٌ مِن الجهلة الرِّعاعِ، وباعُوا أمْلاكَهم ودَفَعُوا أثمانَها إليه، وكان كَرِيمًا يُعْطِي مَن قَصَدَه ما عندَه، ثم إنَّه قُتِلَ بتلكَ النَّاحِيَةِ، لعنَه اللَّهُ.

ورامَ رجلٌ مِن ولَدِ ألْبِ أرْسَلانَ بتلكَ النَّاحِيَةِ المُلْكَ فلم يتِمَّ أمرُه، فقُبِضَ عليه في أقلَّ مِن شَهرَيْنِ. فكانُوا يقولونَ: ادَّعَىٰ رجلٌ النُّبُوَّةَ وآخرُ المُلْكَ، فما كان بأسْرَعَ مِن زَوالِهما.

وفي رجَبٍ منها زَادَتْ دِجْلَةُ زيادَةً عظيمَةً، فأتْلَفَتْ شيئًا كثيرًا مِن الغلاتِ، وغَرِقَتْ دورٌ كثيرةٌ ببَغْدادَ.

وفيها: كَسَرَ طُغْتَكِينُ أتابَكُ العساكرِ بدمشقَ الفرِنْجَ، وعادَمنصورًا إلىٰ دمشقَ، وزُيِّنَتْ البلدُ سبعةَ أيامٍ، سرورًا بكَسْرَةِ الفرِنْجِ. وفي رمضانها حاصرَالملكُ رِضْوانُ بنُ تُتُشَ صاحبُ حَلَبَ مدينَةَ نَصِيبِينَ.

وفيها: وَرَدَ بَغْدَادَ مَلِكٌ مِن ملُوكِ المُلَثَّمِينَ وصحبَتْه رجلٌ يُقال له: الفقيهُ. فوعَظَ الناسَ في جامعِ القَصْرِ وهو مُلَثَّمٌ، ثم عادَ إلىٰ مِصْرَ، وله حروبٌ كثيرةٌ مع الفرِنْجِ اسْتُشْهِدَ في بعضِها. وحَجَّ بالناسِ في هذه السنَةِ مِن العراقِ رجلٌ مِن قرائبِ الأميرِ سيفِ الدولةِ صَدَقَةَ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

سَهلُ بنُ أحمدَ بن عليٍّ الأرْغَيانِيُّ، أبو الفتح الحاكمُ، سمعَ الحديثَ مِن البَيهَقِيِّ وغَيْرِه، وعلَّقَ عن القاضِي حُسَيْنٍ طريقَه، وشكَرَه في ذلك، وكان قد تَفَقَّه أوَّلاً علىٰ الشيخِ أبي عليٍّ السِّنْجِيِّ، وعلَّقَ عن إمامِ الحَرَمَيْنِ في الأُصُولِ، ونَاظَرَ بحَضْرَتِه فاسْتَجادَه، ووَلِيَ قَضاءَ بلَدِه مُدَّةً، ثم تركَ ذلك كلَّه، وأقْبَلَ علىٰ التَّعَبُّدِ وتلاوة القرآن. قال القاضِي ابنُ خَلِّكَانَ: وبنىٰ للصُوفيةِ رِباطًا مِن مَالِه، ولَزِمَ التَّعَبُّدَ إلىٰ أن ماتَ في مُسْتَهَلِّ المُحَرَّمِ من هذه السنَةِ، رَحِمَه اللَّهُ تعالىٰ.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ محمد بن عليِّ بن عبد الرزاق، أبو منصور الخَيَّاطُ[1]، أحدُ القرَّاء والصُّلَحاء، خَتَمَ ألوفًا من الختَماتِ، وخَتَمَ عليه ألوفٌ مِن الناسِ، وأسْمَعَ الحديثَ الكثيرَ، وحينَ تُوُفِّيَ اجْتَمَعَ العالَمُ في جنَازَته اجْتِماعًا لم يُعْهَدْ مثلُه، في جنازَةٍ بتلكَ الأزْمانِ، وكان عمرُه يومَ تُوُفِّيَ سبْعًا وتسْعينَ سنةً، رحمَه اللَّهُ، وقد رآه بعضُهم في المنامِ فقال: ما فَعَلَ بك ربُّك؟ فقال: غَفَرَ لِي بتَعْلِيمِي الصِّبْيَانَ الفاتحَةَ.

محمدُ بنُ عُبَيْد اللَّه بن الحَسَنِ بن الحُسَيْنِ، أبوالفَرَجِ البَصْرِيُّ قاضيها، سمِعَ أبا الطَّيِّبِ الطَّبَرِيَّ والمَاوَرْدِيَّ وغيرَهما، ورَحَلَ في طَلَبِ الحديثِ، وكان عابِدًا خاشِعًا عندَ الذِّكْرِ.

مُهَارِشُ بنُ مُجلِّي، أميرُ العربِ بحَدِيثَةِوعانَةَ، وهو الذي أُودِعَ عندَه الخليفةُ القائمُ بأمْرِ اللَّهِ، حينَ كانتْ فتْنَةُ البَسَاسِيرِيِّ ببَغْدادَ، فأكْرَمَ الخليفَةَ حينَ وردَ عليه، ثم جازاه الجزاءَ الأوْفَىٰ، وقد كان الأميرُ مُهارِشٌ هذا كثيرَ الصلاةِ والصدَقَةِ، كانت وفاتُه في هذه السنَةِ عن ثمانينَ سنةً.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٢٢٢ ـ ٢٢٤).

ثم دخلت سنة خمسمائة من الهجرة النبوية

قال أبو داود في «سننه»: حدثنا حجاج بن إبراهيم، حدثنا ابن وهب، حدثني معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير، عن أبيه، عن أبي ثعلبة الخشني، قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم»(١). حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو المغيرة، حدثني صفوان، عن شريح بن عبيد، عن سعد ابن أبي وقاص، عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأرجو أن لا يعجز أمتي عند ربها أن يؤخرها نصف يوم»(٢). قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة، وهذا من «دلائل النبوة»، وذكر هذه المدة لا ينفي زيادة عليها، كما هو الواقع؛ لأنه ﷺ ذكر شيئًا من أشراط الساعة لا بد من وقوعها، كما أخبر سواء بسواء، وسيأتي ذكرها فيما بعد زماننا، وبالله المستعان.

ومما وقع في هذه السنة من الحوادث أن السلطان محمد بن ملكشاه حاصر قلاعًا كثيرة من حصون الباطنية، وافتتح منها أماكن كثيرة، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وجمعًا كبيرًا، وجمًّا غفيرًا، وكان من جملة ما افتتح من ذلك قلعة حصينة كان أبوه قد بناها بالقرب من أصبهان في رأس جبل منيع، وكان سبب بنائه لها أنه كان مرة في بعض صيوده، فهرب منه كلب، فاتبعه إلى رأس الجبل فوجده، وكان معه رجل من رسل الروم، فقال الرومي: لو كان هذا الجبل ببلادنا لاتخذنا عليه قلعة، فحدا هذا الكلام السلطان على أن ابتنى في رأسه قلعة أنفق عليها ألف ألف دينار، ومائتي ألف دينار، فاستحوذ عليها بعد ذلك رجل من الباطنية يقال له: أحمد بن عبد الملك بن عطاش. فتعب المسلمون بسببها، فحاصرها السلطان محمد سنة حتى فتحها، وسلخ هذا الرجل، وحشى جلده تبنًا، وقطع رأسه، فطيف به في الأقاليم، ثم نقض هذه القلعة حجرًا حجرًا، وألقت امرأته نفسها من أعلى القلعة فتلفت، وهلك ما كان معها من الجواهر النفيسة، وكان الناس يتشاءمون بهذه القلعة، يقولون: كان دليلها كلبًا، والمشير بها كافرًا، والمتحصن بها زنديقًا.

وفيها: كانت حروب كثيرة بين خفاجة وبين عبادة، فقهرت عبادة خفاجة وأخذت بثأرها.

وفيها: استحوذ سيف الدولة صدقة بن منصور الأسدي على مدينة تكريت بعد قتال كثير.

وفيها: أرسل السلطان محمد الأمير جاولي سقاوو إلى الموصل وأقطعه إياها، فذهب فانتزعها من الأمير جكرمش بعدما قاتله وهزم أصحابه وأسره، ثم قتله بعد ذلك وقد كان جكرمش من خيار الأمراء سيرة وعدلاً وإحسانًا، ثم أقبل قلج أرسلان بن قتلمش، فحاصر الموصل فانتزعها من جاولي، فصار جاولي إلى الرحبة، فأخذها ثم أقبل إلى قتال قلج فكسره، وألقى قلج نفسه في النهر الذي للخابور فهلك.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (٤٣٤٩) بهذا الإسناد وهو صحيح رجاله ثقات ـ على الراجح ـ في بعضهم.

(٢) إسناده منقطع: أخرجه أبو داود (٤٣٥٠) بهذا الإسناد وهو منقطع بين شريح وسعد كما أشار المزي والعلائي في «جامع التحصيل» (ص١٩٥).

وفيها: نشأَتْ حروبٌ كثيرةٌ بينَ الرومِ والفِرنجِ، فاقْتَتَلُوا قِتالاً عظيمًا، وقُتِل مِن الفريقَيْنِ طائِفَةٌ كبيرةٌ، ثم كانت الهَزِيمَةُ بعدَ كلِّ حسابٍ على الفِرنْجِ.

وفي يومِ عاشُوراءَ قُتِل فَخرُ المُلْكِ أبو المُظَفَّرِ بنُ نِظامِ المُلْكِ، وكان أكْبَرَ أوْلادِه، وهو وزيرُ السلطانِ سَنْجَرَ بنَيْسَابورَ، وكان صائِمًا، قَتَلَه باطِنِيٌّ، وكان قد رأى في تلكَ الليلَةِ الحُسَيْنَ بنَ عليٍّ، رضِيَ اللَّهُ عنه، وهو يقولُ له: عَجِّلْ إلينا، وأفطِرْ عندَنا الليلةَ. فأصْبَحَ مُتَعَجِّبًا، فَنَوَى الصومَ ذلك اليومَ، وأشارَ عليه بعضُ أصحابِه أنْ لا يخرجَ ذلك اليومَ مِن المنزِلِ، فما خَرَجَ إلا في آخرِ النَّهَارِ، فرأَى شابًّا يَتَظَلَّمُ وبيدِه رُقْعَةٌ فقال: ما شأْنُكَ؟ فناولَه الرُّقْعَةَ، فبَيْنَما هو يقرؤُها إذْ ضَرَبَه بخَنْجَرٍ في يدِه فقتَلَه، فأُخِذَ الباطِنِيُّ فرُفِعَ إلى السلطانِ، فقَرَّرَه فأَقَرَّ على جماعةٍ مِن أصحابِ الوزيرِ أنَّهم أمَرُوه بذلكَ، وكان كاذِبًا، فقُتِلَ وقُتِلُوا أيضًا.

وفي صفَرٍ عزَلَ الخليفَةُ الوزيرَ أبا القاسِمِ عليَّ بنَ جَهِيرٍ، وخَرَّبَ دارَه التي كانَ قد بنَاها أبوه مِن خرابِ بُيوتِ الناسِ، فكانَ في ذلك عِبْرَةٌ ومَوْعِظَةٌ لذَوِي البصائِرِ والنُّهَى، واستُنِيبَ في الوزارةِ القاضِي أبو الحَسنِ ابنِ الدَّامَغَانِيِّ. وحَجَّ بالناسِ في هذه السنَةِ تُرْكُمَانِيٌّ مِن جِهَةِ السلطانِ محمدِ بنِ مَلِكْشَاه.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمد بنِ المُظَفَّر. أبو المُظَفَّر الخَوَافِيُّ الفَقيهُ الشافعيُّ. قال ابنُ خَلِّكَانَ: كان أنْظَرَ أهلِ زَمَانِه، تَفَقَّه على إمامِ الحَرَمَيْنِ، وصارَ أوجَهَ تلامِذَتِه، ولِيَ القَضاءَ بطُوسَ ونواحِيها، وكان مَشْهُورًا بينَ العُلماءِ بحُسْنِ المُنَاظَرَةِ وإفْحَامِ الخُصُومِ. قال: والخَوَافِيُّ، بفَتْحِ الخاءِ والواوِ نَسْبَةٌ إلي خَوَافَ، وهي ناحيَةٌ مِن نَوَاحِي نَيْسَابُورَ. وتُوُفِّيَ في هذه السنَةِ، رحِمَه اللَّهُ تعالي.

جَعْفَرُ بنُ أحمدَ بن الحُسَيْن بن أحمدَ بنِ جَعْفَرٍ السَرَّاجُ، أبو محمد القارئُ البَغْدَادِيُّ [1]، وُلِدَ سنَةَ ستَّ عشْرَةَ وأرْبَعمائَةٍ، وقَرَأَ القُرْآنَ بالرِّواياتِ، وسمِع الكثيرَ مِن الأحاديثِ النَّبَوِيَّاتِ، مِن المشَايخِ والشَّيْخَاتِ في بُلْدَانٍ مُتَبايِنَاتٍ، وقد خرَّجَ له الحافظُ أبو بكرٍ الخطيبُ أجْزَاءً من مَسْمُوعَاتِه، وكان صحيحَ الثَّبتِ، جيِّدَ الذِّهْنِ، أديبًا شاعِرًا، حَسَنَ النَّظْمِ؛ نَظَمَ كتابَ «المُبْتَدَأ»، وكتابَ «التَّنْبِيه» و«الخِرَقِيِّ»، وغيرَ ذلك، وله كتابُ «مَصَارِعِ العُشَّاقِ»، وغيرُ ذلك، ومِن شِعْرِه:

قُلْ للَّذِينَ بجَهْلِهِم ... أضْحَوا يَعِيبُونَ المَحَابِرْ
والحَامِلِينَ لها مِنَ الْـ ... ـأيدي بمُجْتَمَعِ الأسَاوِرْ
لولا المحَابِرُ والمَقَا ... لِمُ والصَّحائفُ والدَّفَاتِرْ
والحَافِظُونَ شَرِيعَةَ الْـ ... ـمَبْعُوثِ من خَيرِ العَشَائِرْ
والناقِلُونَ حدِيثَه عن ... كابِرٍ ثَبْتٍ وكَابِرْ
لرأيتَ مِن شِيَعِ الضَّلا ... لِ عسَاكِرًا تَتْلُو عساكِرْ

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/٢٢٨-٢٣١).

كلٌّ يقُولُ بجَهْلهِ ... واللَّهُ للمَظلُومِ ناصِرْ
سَمَّيْتُهم أهلَ الحديـ ... ـثِ أُولِي النُّهَىٰ وأُولِي البَصَائِرْ
حَشْوِيَّةٌ أُفٌّ لكم ... ولَمَن بنَقْصِهِم يُجاهِرْ
هم حَشْوُ جَنَّاتِ النَّعيـ ... ـمِ علىٰ الأسِرَّةِ والمَنابِرْ
رُفَقاءُ أحمدَ، كلُّهمْ ... عن حَوْضِهِ ريَّانَ صادرْ

وذَكَر له ابنُ خَلِّكَانَ أشْعَارًا رائِقةَ منها قولُه:

ومُدَّعٍ شَرْخَ الشَّبَابِ وقد ... عَمَّمَهُ الشَّيبُ على وفْرَتِه
يَخْضِبُ بالوَشْمَةِ عُثْنُونَه ... يكْفِيه أنْ يَكْذِبَ في لِحْيَتِه

عبدُ الوَهَّاب بنُ محمد بنِ عبد الوَهَّاب بنِ عبد الوَاحد، أبو محمد الشِّيرازيُّ الفارسيُّ، سمع الحديثَ الكثيرَ وتَفقهَ، ووَلَّاه نِظامُ المُلْكِ تَدْرِيسَ النِّظاميَّة ببَغْدَادَ في سَنةِ ثلاثٍ وثمانينَ، فدَرَّسَ بها مُدَّةً، وكان يُمْلِي الأحاديثَ، وكان كثيرَ التَّصْحيفِ، رَوَىٰ مرةً حديثَ: «صَلاةٌ في أثْرِ صَلاةٍ كتابٌ في علِّيِّينَ»[1]. فقال: كنارٍ في غَلَسٍ. ثمَّ فَسَّر ذلك بأنَّه أكثرُ لإضاءَتِها.

محمدُ بنُ إبْرَاهيمَ أبو عبد اللَّه الأسَديُّ الشاعرُ، لَقِيَ أبا الحَسَنِ التِّهَامِيَّ، وكان مُغْرَمًا بما يُعارِضُ شعرَه، وقدأقامَ باليَمَنِ وبالعراقِ، ثم بالحِجَازِ ثم بخُرَاسَانَ، ومِن شِعْرِه:

قلتُ ثَقَّلتُ إذ أتَيْتُ مِرَارًا ... قال ثَقَّلْتَ كاهِلِي بالأيادي
قلتُ طَوَّلْتُ قالَ لا بلْ تطوَّلـ ... ـتَ وأبرَمْتُ قالَ حَبْلَ الوِداد

يوسفُ بنُ عليٍّ أبو القاسِمِ الزَّنْجَانِيُّ الفَقيه، كان مِن أهلِ الدِّيانَةِ، حكَىٰ عن الشيخِ أبي إسْحَاقَ، عن القاضِي أبي الطَّيِّبِ، قال: كنا يومًا بجامعِ المنصورِ في حلْقَةٍ، فجاء شابٌّ خُرَاسَانيٌّ، فذَكَر حديثَ أبي هريرة في المُصَرَّاةِ[2] فقال الشابُّ: هذا الحديثُ غيرُ مَقْبُولٍ. فما استَتَمَّ كلامَه حتىٰ سقطَتْ مِن سَقْفِ المسجد حيَّةٌ، فَنَهَضَ الناسُ هارِبينَ فتَبِعَت الحيَّةُ ذلك الشابَّ مِن بيْنِهم، فقيلَ له: تُبْ تُبْ. فقال: تُبْتُ، فذَهَبَت تلك الحيَّةُ فلا يُدْرَىٰ أينَ ذَهَبَتْ. رواها ابنُ الجَوْزِيِّ عن شيْخِه أبي المعَمَّرِ الأنْصَارِيِّ، عن أبي القاسِمِ هذا. واللَّهُ أعلَمُ.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسمائة

فيها: جَدَّدَ الخليفةُ الخِلَعَ علي وزيرِه أبي المَعالِي هبةِ اللَّهِ بنِ محمدِ بنِ المُطَّلِبِ، وأكْرَمَه وعظَّمَه.

---

(١) وهو حديث قوي أخرجه أبو داود (١٢٨٨) وأحمد (٥/ ٢٦٨) وفي إسناده القاسم صاحب أبي أمامة وهو إلى التوثيق أقرب ووقع تصحيف في «المسند» في تسمية يحيىٰ بن الحارث الذماري فقد تحرَّف إلى «يحيىٰ بن خالد الذهاري» وصوبها محققه (٢٢٣٠٤) ط الرسالة فجزاه الله خيراً ولفظه: «. . صلاة في أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين»

(٢) الحديث صحيح أخرجه مسلم (١٥٢٤) من طريق موسىٰ بن يسار عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من اشترىٰ شاة مصراة فلينقلب بها، فليحلبها، فإن رضي حلابها أمسكها وإلا ردها ومعها صاع من تمر».

وفي ربيع الآخر دخل السلطانُ محمد إلى بغدادَ، فتلقَّاه الوزيرُ والأعيانُ، وأحسنَ إلى أهلها، ولم يتعرَّض أحدٌ من جيشه إلى شيء. وتغضَّبَ السلطانُ غياثُ الدِّين محمدٌ على صَدَقَة بن منصور الأسَديِّ صاحب الحِلَّة وتَكْريتَ، بسبب أنه آوىٰ رجلاً من أعدائه يُقال له: أبو دُلَفَ سُرْخَابُ الدَّيْلَميُّ. صاحبُ ساوَةَ، وبعَثَ إليه ليُرْسلَه إليه، فلم يَفْعَلْ، فأرْسَلَ إليه جيشًا فهزَمُوا جيشَه. وقد كان جيشُه عشرينَ ألفَ فارس وثلاثينَ ألفَ راجل، وقُتِل صَدَقَةُ في المعْرَكة، وأُسرَ جماعةٌ من رُؤُوس أصحابه، وأخذُوا من زوجته خَمْسمائة ألف دينار، وجواهرَ نفيسةً. قال ابنُ الجَوْزيِّ: وظَهَرَ في هذه السنة صَبيَّةٌ عَمْيَاءُ تتكلَّمُ على أسرارِ الناس، وبالغَ الناسُ في الحِيَل، ليَعْلَمُوا حالَها فلم يَعْلَمُوا.

قال ابنُ عقيل: وأشْكَلَ أمرُها على العُلَماء والخواصِّ والعَوامِّ، حتىٰ إنها كانت تُسْأَلُ عن نُقُوش الخواتيم المَقْلُوبَة الصَّعبَة، وعن أنواع الفُصُوص، وصِفَات الأشْخَاص، وما في داخل البَنادق من الشَّمْع والطِّين والحَبِّ المختَلَف والخَرَز، وبالَغَ أحدُهم حتىٰ تَرَكَ يدَه علىٰ ذَكَره فقيل لها: ما الذي في يده؟ فقالَتْ يَحْمِلُهُ إلىٰ أهله وعياله.

وفيها: قَدِمَ القاضي فخرُ المُلْك أبو عليِّ بن عمَّار صاحبُ طَرَابُلُسَ إلى بغدادَ يَسْتَنفرُ المسلمينَ على الفرنج، فأكرَمَه السلطانُ غياثُ الدين محمدٌ إكرامًا زائدًا، وخَلَعَ عليه وبعَثَ معه الجيوشَ الكثيرةَ لقتال الفرنج.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

تميمُ بنُ المُعِزِّ بن باديسَ، صاحبُ إفْريقيَّةَ، كان من خيار المُلُوك خُلُقًا وكرمًا، وإحْسانًا، ملَكَ ستًّا وأربَعينَ سَنَةً، وعُمِّرَ تسْعًا وسبعينَ سَنَةً، وتركَ من البنينَ أكثرَ من مائَة، ومن البنات ستِّينَ بنْتًا، وملَكَ من بعده ولَدُه يَحْيَىٰ، ومن أحْسَن ما مُدحَ به الأميرُ تميمٌ قولُ الشاعر:

أصَحُّ وأعْلَى ما سَمِعْنَاه في النَّدَىٰ ... منَ الخَبَر المَرْويِّ منذُ قَديم
أحاديثُ تَرويها السُّيُولُ عن الحَيَا ... عَن البَحر عن كَفِّ الأمير تَميم

صَدَقَةُ بنُ منصور بن دُبَيْس بن عليِّ بن مَزْيَد الأسَديُّ، الأميرُ سيفُ الدولَة، صاحبُ الحلَّة وتَكْريتَ وواسط وغيرها، كان كريمًا، عفيفًا، ذا ذِمَامٍ، مَلْجَأً لكُلِّ خائف، يأمَنُ في بلاده، وتحتَ جَنَابه، وكان يُحْسنُ يقرأُ الكتبَ، ولا يُحْسنُ الكتابَةَ، وقد اقْتَنَىٰ كتبًا كثيرةً جداً نفيسة، وكان لا يَتَزَوَّجَ علىٰ امرأة قطُّ، ولا يَتَسَرَّىٰ علىٰ سُرِّيَّة؛ حفظًا للذِّمَام، ولئلا يَكْسرَ قلبَ أحد، وقد مُدحَ بأوْصاف جميلة كثيرة جداً، قُتل في بعض المعْرَكَة، قَتَلَه غلامٌ اسمُه بزْغَشُ، وكان له من العُمْر تسعٌ وخمسُونَ سَنَةً، ولِيَ منها الإمارَةَ إحدَىٰ وعشرين سَنَةً، رَحمَه اللَّهُ.

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسمائة

في يوم الجُمعة الثاني والعشرينَ من شعبانَ تزَوَّجَ الخليفةُ المُسْتَظْهِرُ باللَّه بالخاتُون بنت مَلَكْشَاه، أخت السلطان محمد، علىٰ صَداق مائة ألف دينار، ونُثرَ الذهَبُ، وكُتبَ العقدُ بأصْبَهانَ. وفيها

كانت حروبٌ كثيرةٌ بينَ الأتابك طُغْتكين صاحبِ دمشقَ وبينَ الفرنجِ. وفيها مَلَكَ سعيدُ بنُ حُمَيْد العمريُّ الحِلَّةَ السَّيْفِيَّةَ. وفيها زادَتْ دجْلَةُ زيادةً كثيرةً فغرقَت الغَلاَّتُ، فغلَت الأسْعارُ بسبب ذلك غلاءً شديدًا. وحَجَّ بالناسِ الأمير قايْماز.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الحَسَنُ العَلَويُّ أبوهاشم رئيسُ هَمَذَانَ، وكان ذا مالٍ جزيلٍ، صادرَه السلطانُ بتسعمائةِ ألف دينارٍ، فلم يَبِعْ فيها عَقَارًا ولا غيرَه.

الحسينُ بنُ عليٍّ، أبو الفوارس، ابنُ الخازن، الكاتبُ المشهورُ بالخَطِّ المَنْسُوب. تُوُفِّيَ في ذي الحَجَّة منها. قال ابنُ خَلِّكَانَ: كتَب بيدِه خَمْسمائةَ خَتمةٍ، مات فجأةً، رحمه اللَّهُ تعالى.

عبدُ الواحد بنُ إسماعيلَ بن أحمدَ بن محمد، أبو المَحَاسن الرُّويانيُّ[1]، من أهلِ طَبَرِسْتَانَ، أحدُ أئمة الشافعيَّةِ، وُلِدَ سنَةَ خَمسَ عشْرَةَ وأربَعمائةٍ، ورَحَلَ إلى الآفاقِ حتى بلَغَ ما وراءَ النَّهرِ، وحصَّلَ علُومًا جَمَّةً، وسمعَ الحديثَ الكثيرَ، وصنَّفَ كتبًا في المذهب، من ذلك «البَحْرُ» في الفُرُوع، وهو حافلٌ كاملٌ شاملٌ للغرائبِ وغيرِها، وفي المَثَلِ: حدِّثْ عن «البحرِ» ولا حَرَجَ. وكان يقُول: لو احْتَرقَتْ كتبُ الشافعيِّ أمْلَيْتُها من حفْظِي. قُتِلَ ظُلْمًا يومَ الجُمعة، وهو يومُ عاشُوراءَ في الجامع بطَبَرِسْتَانَ.

قال ابنُ خَلِّكَانَ: أخَذَ الفقْهَ عن ناصرٍ المَرْوَزيِّ وعلَّقَ عنه، وكان للرُّويانيِّ الجاهُ العظيمُ، والحُرْمَةُ الوافرَةُ في تلك الديار، وكان نظامُ المُلك كثيرَ التعظيم له، وقد صنَّفَ كتبًا في الاصول والفُروع؛ منها «بحرُ المَذْهَب»، وكتابُ «مَنَاصِيصُ الإمام الشافعيِّ»، وكتابُ «الكافي»، و «حِلْيَة المُؤْمِن»، وله كتبٌ في الخلاف أيْضًا، رحمَه اللَّهُ تعالى.

يحيى بنُ عليِّ بن محمد بن الحَسن بن بِسْطَام، الشَّيْبانيُّ التِّبريزيُّ، أبو زكَرِيَّا، أحدُ أئمَةِ اللغَةِ والنحْوِ، قَرأَ على أبي العلاءِ وغيرِه. وتَخَرَّجَ به جَمَاعةٌ؛ منهم أبو منصور ابنُ الجَوالِيقيِّ.

قال ابنُ ناصر: وكان ثقَةً في النقلِ، وله المصنَّفَاتُ الكثيرَةُ.

وقال ابنُ خَيْرُونَ: لم يكن مَرْضِيَّ الطَّرِيقَة. تُوُفِّيَ في جُمَادَىٰ الآخرة. ودُفِنَ إلى جانبِ الشيخ أبي إسْحَاقَ الشِّيرازيِّ بباب أبْرَزَ.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسمائة

فيها: أخَذَتْ الفرنْجِ ـ لَعَنَهم اللَّهُ ـ، مدينَةَ طرَابُلسَ، وقَتَلُوا مَنْ فيها من الرجال وسَبَوُا الحَرِيمَ والأطْفالَ، وغنموا الأمْتِعَةَ والأموالَ، ثم أخَذُوا مدينَةَ جَبَلَةَ بعدَها بعشْرِ ليالٍ، فلا حولَ ولا قُوَّةَ إلا باللَّه العَليِّ العظيمِ الكبير المُتعال، وقد هَربَ منهم فخرُ المُلْكِ بنُ عمَّارٍ، فقَصدَ صاحِبَ دمشقَ طُغْتكِينَ، فأكْرَمَه وأقْطعَه بلادًا كثيرةً.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٢٦٠ ـ ٢٦٢).

وفيها: وثَبَ بعضُ الباطنيَّة على الوزير أبي نَصْر أحمدَ بن نظام المُلْك فجرَحَه، ثم أُخذَ الباطنيُّ فسُقِيَ الخَمْرَ، فأقرَّ على جماعة من الباطنيَّة، فأُخذُوا فقُتلُوا. وحَجَّ بالناس الأمير قايْماز.

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ عليِّ بن أحمدَ، أبو بكر العُلْثيُّ، كان يَعمَلُ في تجصيص الحيطان، ولا يَنقُشُ صورةً ولا يَأخُذُ من أحد شيئًا، وكانت له أمْلاكٌ يبيعُ منها ويتقوَّتُ، وقد سمعَ الحديثَ من القاضي أبي يَعْلَى، وتفقَّه عليه شيئًا من الفقه، وكان إذا حجَّ يزورُ القبورَ بمكَّةَ، فإذا وصَلَ إلى قبر الفُضَيْل بن عياض يخُطُّ إلى جانبه خطًّا بعَصاه ويقولُ: يا ربِّ، ههُنا، فقُدِّرَ أنَّه حجَّ في هذه السنة، فوقَفَ بعرفات مُحْرِمًا، فتُوفِّي بها من آخر ذلك اليوم، فغُسِّل وكُفِّنَ وطِيفَ به حولَ البيت، ثم دُفِنَ إلى جانب الفُضَيْل بن عِيَاض في ذلك المكان الذي كان يخطُّه، ولما بلَغ الناسَ وفاتُه ببغدادَ اجتمعوا للصلاة عليه صلاةَ الغائب، رحمه اللَّهُ.

عمرُ بنُ عبد الكريم بن سَعْدَوَيْه، أبو الفِتْيان الدِّهِسْتانيُّ، رحَل في طلب الحديث، ودارَ الدنيا، وخرَّج وانتخَبَ، وكان له فهْمٌ بهذا الشأن، وكان ثقةً، وقد صحَّح عليه أبو حامد الغَزَّاليُّ كتابَ «الصحيحَيْن». وكانت وفاتُه بسَرْخَسَ في هذه السنة.

محمدٌ، ويعْرَفُ بأخي حَمَّادي، كان أحدَ الصُّلَحاء الكِبَار، كان به مرضٌ مزمنٌ، فرأَى النبيَّ ﷺ في المنام فعُوفيَ، فلزم مسجدًا له أربعينَ سنةً، لا يخرجُ إلا إلى الجُمُعَة، وانقطَع عن مُخالطة الناس، وكانت وفاتُه في هذه السنة، ودُفن في زاوية بالقرب من قبر أبي حنيفةَ، رحمه اللَّهُ.

ثم دخلت سنة أربع وخمسمائة

في أول هذه السنة تجهَّزَ جماعةٌ من الفقهاء البغَادِدة وغيرهم، وفيهم ابنُ الزَّاغُوني، للخروج إلى الشام ليُقاتلوا الفرنجَ ـ لعَنَهم اللَّهُ ـ، وذلك حينَ بلَغهم أنَّهم قد فتَحوا مَدائنَ عدَّةً، من ذلك مدينةُ صَيدَا في ربيع الأوَّل، وكذا غيرُها من المدائن، ثم رجَع كثيرٌ منهم حينَ بلَغَهم كثرةُ الفرنْج.

وفيها: قدمت خاتونُ بنتُ مَلَكْشاه زوجَةُ الخليفة إلى بغدادَ، فنزلَت في دار أخيها السلطان محمد، ثم حُمِلَ جهازُها على مائة واثنين وستِّين جملاً، وسبْعَة وعشرينَ بغْلاً، وزُيِّنَتْ بغدادُ لقُدومها، وكان دخولُها على الخليفة في الليلة العاشرةَ من رمضانَ، وكانت ليلةً مشْهودةً.

وفي شعبانَ درَّسَ أبو بكر الشَّاشيُّ بالنِّظاميَّة مع التاجيَّة، وحضرَ عندَه الوزيرُ والأعْيانُ من الدَّولة وغيرهم.

وحجَّ بالناس الأميرُ قايْماز، ولم يتمكَّن الخُرَاسَانيُّونَ من الحجِّ؛ من كثرة العطش وقلَّة الماء.

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

إدريسُ بنُ حَمْزَةَ، أبو الحسَن الشَّاميُّ الرَّمْليُّ العُثمانيُّ، أحدُ فُحول المُناظرينَ عن مذهب الشافعيِّ،

تفقَّه على نصر بن إبراهيمَ، ثم ببَغْدادَ على أبي إسحاقَ الشِّيرازيِّ، ودخَل خُراسَانَ حتى وصَل إلى ما وراءَ النهرِ، وأقامَ بسَمَرْقَنْدَ، ودرَّس بمدْرَستِها إلى أنْ تُوُفِّي بها في هذه السنة.

عليُّ بنُ محمد بن عليٍّ، عمادُ الدِّين، أبو الحسَن الطَّبَريُّ[1]، ويُعرفُ بإلْكِيَا الهَرَّاسيِّ، أحدُ الفقهاءِ الكبارِ، من رءوسِ الشافعيَّة، وُلدَ سنةَ خمسينَ وأربعمائة، واشْتغَلَ على إمامِ الحرَمَيْن، وكان هو والغزَّاليُّ أكبرَ التلامذة، وقد وَلِيَ كلٌّ منهما تدْريسَ النِّظاميَّة ببَغْدادَ، وكان فصيحًا جَهْوَرِيَّ الصوتِ جميلاً. وكان يكَرِّرُ الدَّرْسَ على كلِّ مَرْقَاةٍ من مَراقي دَرَجِ النظَاميَّةِ بنَيْسَابُورَ سَبْعَ مراتٍ، وكانت المراقي سبعين مرقاةً. وقد سمع الحديثَ الكثيرَ، وناظَرَ وأفْتَى ودرَّس، وكان من أكابرِ العلماءِ وسادات الفقهاءِ، وله كتابٌ يردُّ فيه على ما انفرَد به الإمامُ أحمدُ بنُ حنْبَلٍ، في مجلَّدٍ، وله غيرُه من المصنَّفات. وقد اتُّهِمَ في وقتٍ بأنَّه يُمالئُ الباطنيَّةَ، فنُزِعَ منه التدريسُ، ثم شَهِدَ جماعةٌ من العلماءِ ببَراءَتِه من ذلك، منهم ابنُ عقيلٍ، فأُعيدَ إليه. وكانت وفاتُه يومَ الخميس مُسْتَهَلَّ المُحَرَّمِ من هذه السنة عن أربعٍ وخمسينَ سنةً، ودُفِن إلى جانبِ الشيخ أبي إسْحاقَ الشِّيرازيِّ، رحمَهما اللَّهُ. وذكَر القاضي ابنُ خَلِّكانَ أنه كان يحفَظُ الحديثَ ويناظِرُ به، وهو القائلُ: إذا جالَت فُرْسانُ الأحاديثِ في ميادينِ الكفاحِ، طارَت رُءوسُ المقاييسِ في مَهابِّ الرِّياحِ. وحكَى السِّلَفيُّ عنه أنَّه استُفْتِيَ في كَتَبَةِ الحديثِ، هل يدخلُون في الوصيَّة للفُقهاءِ؟ فأجاب: نعم؛ لقوله ﷺ: «مَن حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي أَرْبَعينَ حَدِيثًا بَعَثَهُ اللَّهُ فَقِيهًا عَالِمًا»[2]. وأنَّه استُفْتِيَ في يزيدَ بنِ معاويةَ، فذكَر عنه ثَلْبًا وفِسْقًا، وسوَّغَ شتْمَه، وأمَّا الغزَّاليُّ فإنَّه خالَف في ذلك، ومنَع من لعنه؛ لأنَّه مسلمٌ، ولم يثْبُتْ أنَّه رَضِيَ بقتلِ الحُسين، ولو ثبَت لم يكُنْ ذلك مُسوِّغًا للَعْنه؛ لأنَّ القاتلَ لا يُلعنُ، لاسيَّما وبابُ التوبة مفتوحٌ، وهو الذي يقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِه. قال: وأمَّا الترحُّمُ عليه فجائزٌ، بل مُستحبٌّ، بل نحنُ نترحَّمُ عليه في جملةِ المؤمنين والمسلمين، عُمومًا في الصَّلوات. ذكَره ابنُ خَلِّكان مبْسُوطًا بلفظِه في ترجمةِ إلكِيا هذا، قال: وإلكيا معناه: كبيرُ القَدْرِ، المُقَدَّمُ المُعَظَّمُ.

ثم دخلت سنة خمس وخمسمائة

فيها: بعَث السلطانُ غياثُ الدين محمدٌ جيشًا كثيفًا، صُحْبَةَ الأميرِ مَودودِ بن التوتكينِ صاحبِ المَوْصِلِ، وسُكْمانَ القُطْبيِّ، صاحبِ تِبْريزَ، وأحمديلَ صاحبِ مَراغةَ، والأميرِ إيلْغازِي صاحبِ مَارِدِينَ، والمقدمُ على الجميعِ الأميرُ مَودودٌ صاحبُ المَوْصِلِ، لقتالِ الفرِنْجِ بالشامِ، فانتزَعُوا من أيدي الفرِنْجِ حُصونًا كثيرةً، وقتَلُوا منهم خلقًا كثيرًا.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٣٥٠ - ٣٥٢).

(٢) هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ كذا قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ١٢٦) بعد سياق طرقه ثم تعقبها كلها بالكلام على ضعفها. ونقل ص١٢٨ عن الدارقطني قال: «كل طرق هذا الحديث ضعاف ولا يثبت منها شيء». وقد أشار النووي في صدر كتاب «الأربعين النووية» إلى اتفاق الحفاظ على ضعفه.

ولَمَّا دخَلُوا دمشْقَ، دخَل الأميرُ مودود إلىٰ جامعِها ليصَلِّيَ فيه، فجاءَه باطِنيٌّ في زيٍّ سائلٍ يطلبُ منه شيئًا، فلمَّا اقْتَرَبَ منه ضربَه في فؤادِه فماتَ مِن ساعتِه، فلعنةُ اللَّهِ علىٰ هذا الباطنيِّ، ووُجِدَ رجلٌ أعْمَىٰ في سطحِ الجامعِ ببغدادَ ومعه سكِّينٌ مسْمومٌ، فقيلَ: إنَّه كان يريدُ قتلَ الخليفةِ.

وفي هذه السنةِ وُلِد للخليفةِ مِن بِنْتِ السلطانِ ولدٌ ذكرٌ، فضُرِبَتِ الدبادِبُ والبُوقاتُ، وجلَس الوزيرُ ببابِ الفردوسِ للهَناءِ.

وفيها: تُوُفِّي أخو الخليفةِ، فقُطِعَ الطَّبلُ أيَّامًا، وجلَس الوزيرُ ببابِ الفردوسِ للعزاءِ، وهكذا الدنيا قَرْضٌ؛ هذا يُعَزَّىٰ وهذا يُهَنَّىٰ.

وفي رمضانَ عُزِلَ الوزيرُ أحمدُ بنُ النِّظَامِ، وكانتْ مُدَّةُ وِزارَتِه أربعَ سنينَ وأحدَ عشَرَ شهراً.

وفيها: حاصَرتِ الفِرِنْجُ مدينة صُورَ، وكانتْ بأيْدِي المصريين، عليها عِزُّ المُلْكِ الأعَزُّ مِن جهَتِهم، فقاتَلهم قِتالاً عظيمًا، ومنَعَها منْعًا جيِّدًا، حتىٰ فَنِي ما عندَه مِن النُّشَّابِ والعُدَدِ، فأمدَّه طُغْتِكينُ صاحِبُ دمشقَ، وأرسَل إليه العُدَدَ والآلاتِ، فقَوِيَ جانبُه وترحَّلتْ عنه الفِرِنْجُ في شوَّالٍ منها.

وحجَّ بالناسِ أميرُ الجيوشِ نظَرٌ الخادِمُ، وكانت سنةً مُخْصِبَةً.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

محمدُ بنُ محمد بنِ محمدٍ، أبو حامد الغَزَّاليُّ[1]، وُلِدَ سنةَ خمسين وأربعِمائَةٍ، وتفقَّه علىٰ إمامِ الحرَمَيْن، وبرَع في علومٍ كثيرةٍ، وله مصنَّفاتٌ منْتَشِرَةٌ في فُنونٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فكان مِن أذْكياءِ العالَمِ في كلِّ ما يتكلَّمُ فيه، وسادَ في شَبِيبَتِه حتىٰ إنَّه درَّس بالنِّظاميَّةِ ببغدادَ، في سنةِ أربعٍ وثمانين، وله أربعٌ وثلاثون سنةً، فحضَر عندَه رُءوسُ العلماءِ في ذلك الوقتِ، وكان ممَّن حضَر عندَه ابنُ عَقِيلٍ وأبو الخطَّابِ، من رءوسِ الحنابلةِ، فتعجَّبوا مِن فَصاحتِه واطِّلاعِه.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: وكتَبوا كلامَه في مصنَّفاتِهم، ثم إنَّه خرَج عن الدنْيا بالكُلِّيَّةِ، وأقْبَلَ علىٰ أعمالِ الآخرة، فكان يرْتَزِقُ مِن النَّسْخِ، ورحَل إلىٰ الشامِ فأقامَ بدمشقَ وبَيْتِ المَقْدسِ مدَّةً، ثم إنَّه صنَّف في هذه المدَّة كتابَه «إحْياءَ علومِ الدِّينِ»، وهو كتابٌ عجيبٌ، يشتمِلُ علىٰ علومٍ كثيرةٍ مِن الشَّرْعِيَّاتِ، ومَمْزُوجٌ بأشياءَ لطيفةٍ مِن التصوُّفِ وأعمالِ القلوبِ، ولكنْ فيه أحاديثُ كثيرةٌ غرائبُ ومُنْكَراتٌ، ومنها ما هو موضوعٌ، كما يُوجَدُ في غيرِه مِن كُتُبِ الفُروعِ التي يُسْتَدَلُّ بها علىٰ الحلالِ والحرامِ، فالكتابُ الموضوعُ للرقائقِ والترْغيبِ والترهيبِ أسْهَلُ أمْراً مِن غيرِه، وقد شنَّع عليه أبو الفَرَجِ بنُ الجَوْزيِّ، ثم ابنُ الصلاحِ، في ذلك تشْنيعًا كبيراً، وأرادَ المازَرِيُّ أن يحرِقَ كتابَه «إحياء علومِ الدينِ»، وكذلك غيرُه مِن المغاربةِ، وقالوا: هذا كتابُ إحياءِ علومِ دينِه، وأمَّا دينُنا فإحْياءُ علومِه كتابُ اللَّهِ وسنةُ رسولِه. كما قد حكَيتُ كلامَه في ترجَمتِه مِن طبقاتِ الشافعيَّةِ، وقد زيَّفَ ابنُ سُكَّرٍ مواضعَ «إحْياءِ علومِ الدِّينِ»، وبيَّن زَيْفَها في مصنَّفٍ مفيدٍ، وقد كان الغَزَّاليُّ يقولُ: أنا مُزْجَىٰ البِضاعَةِ في

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٣٢٢-٣٤٦).

الحديث. ويقالُ: إنَّه مالَ في آخرِ عمرِه إلىٰ سماعِ الحديثِ والتحفُّظ «للصحيحيْن». وقد صنَّفَ ابنُ الجَوْزيِّ كتابًا على «الإحياء» وسمَّاه «إعلامَ الأحْياءِ بأغاليطِ الإحْياء».

قال ابنُ الجَوْزيِّ: ثم ألزَمَه بعضُ الوزراءِ بالخُروجِ إلىٰ نَيْسابُورَ، فدرَّسَ بنظاميَّتِها، ثم عاد إلىٰ بلدِه طُوسَ، وابْتَنىٰ بها رِباطًا، واتَّخَذَ دارًا حسَنَةً، وغَرَسَ فيها بُستانًا أنيقًا، وأقْبَلَ على تلاوةِ القرآنِ وحفظِ الأحاديثِ الصِّحاحِ، وكانت وفاتُه يومَ الإثنينِ الرابعَ عشَرَ من جُمادَىٰ الآخرةِ من هذه السنةِ، ودُفِنَ بطُوسَ، رحِمَه اللَّهُ تعالىٰ، وقد سألَه بعضُ أصحابِه وهو في السِّياقِ فقال: أوْصِني، فقال له: عليكَ بالإخلاصِ، فلم يَزَلْ يُكرِّرُها حتىٰ ماتَ، رحمه اللَّهُ.

ثم دخلت سنة ست وخمسمائة

في جُمادَىٰ الآخرةِ منها جَلَس ابنُ الطَّبَريِّ مدرِّسًا بالنِّظاميَّةِ، وعُزِلَ عنها الشَّاشيُّ، وفيها دخَل الشيخُ الصالحُ أحدُ العُبَّادِ يوسفُ بنُ أيوبَ إلىٰ بَغْدادَ، فوعَظَ الناسَ، وكان له القَبُولُ التامُّ، وكان فقيهًا شافعيًّا، تَفَقَّه بالشيخِ أبي إسْحاقَ الشِّيرازيِّ، ثم اشْتَغَلَ بالعبادةِ والزَّهادةِ، فكانتْ له أحْوالٌ صالحةٌ، جاراه مرَّةً رجلٌ يقالُ له: ابنُ السَّقَّاءِ في مسألةٍ، فقال له: اسْكُتْ؛ فإنِّي أجِدُ من كلامِكَ رائحةَ الكُفْرِ، ولعَلَّكَ أنْ تَموتَ علىٰ غيرِ دينِ الإسْلامِ، فاتَّفَقَ بعدَ مدَّةٍ أنه خرَجَ إلىٰ بلادِ الرومِ في حاجَةٍ فتنَصَّرَ هناك، فإنَّا للَّه وإنا إليه راجعونَ، وحسبُنا اللَّهُ ونعمَ الوكيلُ، علىٰ اللَّه توكلنا. وقام إليه مرَّةً، وهو يعِظُ الناسَ، ابْنَا أبي بكرٍ الشَّاشيِّ، فقالا له: إنْ كنتَ تتكلَّمُ، علىٰ مذْهَبِ الأشْعَريِّ، وإلا فاسْكُتْ. فقال: لا مُتِّعْتُما بشَبابِكُما. فماتَا ولم يبْلُغَا سنَّ الكُهولةِ. وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ أميرُ الجيوشِ نظَرٌ الخادمُ، ونالَهم عطَشٌ شديدٌ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

صاعدُ بنُ منصورِ بنِ إسماعيلَ بنِ صاعدٍ، أبو العَلاءِ، الخطيبُ النَّيْسابُوريُّ، سمعَ الحديثَ الكثيرَ، ووَلِيَ الخَطابةَ بعدَ أبيه والتدْريسَ والتَّذْكيرَ، وكان أبو المَعالي الجُوَيْنيُّ يُثْني عليه، وقد وَلِيَ قَضاءَ خُوارِزْمَ.

محمدُ بنُ مُوسىٰ بنِ عبدِ اللَّه، أبو عبدِ اللَّه البلاساغُونيُّ التركيُّ الحنفيُّ، ويُعْرَفُ باللاَّمشيِّ، أوْرَدَ عنه الحافظُ ابنُ عساكرَ حديثًا، وذكَرَ أنَّه وَلِيَ قضاءَ بيتِ المَقْدسِ، فشكَوْا منه فعُزِلَ عنها، ثم وَلِيَ قضاءَ دِمَشْقَ، وكان غاليًا في مذهبِ أبي حنيفةَ، وهو الذي رتَّبَ الإقامةَ مَثْنَىٰ مَثْنَىٰ، قال: إلىٰ أن أزالَ اللَّهُ ذلك بدولَةِ الملكِ صلاحِ الدينِ.

قال: وكان قد عزمَ علىٰ نَصْبِ إمامٍ حَنَفيٍّ بالجامعِ، فامتنَع أهلُ دِمشقَ من ذلك، وامْتَنَعُوا من الصلاةِ خلفَه، وصلَّوا بأجمعِهم في دارِ الخَيْلِ، وهي التي قِبْليَّ الجامعِ مكانَ المدْرَسةِ الأمينيَّةِ وما يجاوِرُها، وحدُّها الطُّرُقاتُ الأرْبَعةُ، وكان يقولُ: لو كانتْ لي الولايَةُ لأخَذْتُ من أصْحَابِ

الشافعيُّ الجَزَرِيَ، وكان مُبغضًا لأصْحاب مالك أيضًا. قال: ولم تكنْ سيرتُه في القضاء محمودةً، وكانتْ وفاتُه يومَ الجُمُعةِ الثالثَ عشرَ من جُمادَىٰ الآخرةِ منها. قال: وقد شهدْتُ جنازَتَه وأنا صغيرٌ في الجامع.

المعمَّرُ بنُ عليِّ بن المعمَّرِ، أبو سعد بنُ أبي عمامَةَ الواعظُ، كان فصيحًا بليغًا ماجنًا ظريفًا ذكيًّا، له كلماتٌ في الوَعْظِ حسنَةٌ ورسائلُ مَسْمُوعَةٌ مُسْتَحسَنَةٌ، تُوُفِّي في ربيعِ الأوَّلِ من هذه السنةِ، ودُفِنَ بباب حرب.

أبو عليٍّ المغربيُّ، كان عابدًا زاهدًا وَرِعًا، يتقَوَّتُ بأدْنَىٰ شيءٍ، ثم عَنَّ له أن يشتغلَ بعلم الكيمياء. فأُخذَ إلىٰ دار الخلافة، فلم يظْهَرْ له خبَرٌ بعدَ ذلك.

نُزْهَةُ أمُّ وَلَدٍ للخليفة المستظهر باللَّه المُقْتَفي لأمر اللَّهِ، كانتْ سَوْداءَ مُحْتَشِمَةً كريمةَ النفْسِ، تُوُفِّيَتْ يومَ الجُمُعَة ثاني عَشَرَ شوَّالٍ من هذه السنة.

أبو سَعْد السَّمْعانيُّ[1]، مصنِّفُ «الأنساب» وغيره، وهو تاجُ الإسلام عبدُ الكريمِ بنُ أبي بكرٍ محمد بن أبي المُظفَّرِ المنْصورِ بن عبد الجبَّار، السَّمْعَانيُّ، المروَزيُّ، الفقيهُ الشافعيُّ، الحافظُ المحدِّثُ، قِوامُ الدِّين، أحدُ الأئمة المصنِّفينَ المُنْصِفينَ، رحَل وسمع الكثيرَ حتىٰ كتَب عن أربعة آلاف شيخٍ، وصنَّفَ «التفسيرَ»، و«التاريخ»، و«الأنساب»، و«الذَّيْل» علىٰ تاريخ الخطيب البَغْدَاديِّ، وذكَر له ابنُ خَلِّكانَ مصنَّفاتٍ عديدةً جدًّا؛ منها كتابُه الذي جمَع فيه ألفَ حديثٍ عن مائة شيخٍ، وتكلَّم عليها إسْنادًا ومَتْنًا، وهو مفيدٌ جدًّا، رحمه اللَّهُ.

ثم دخلت سنة سبع وخمسمائة

فيها: كانت وقعةٌ عظيمةٌ بينَ المسلمينَ والفرنْجِ في أرضِ طَبَرِيَّةَ، كان فيها مَلكُ دمشقَ الأتابكُ طُغتكينُ، وفي خدمته صاحبُ سِنْجارَ، وصاحبُ مَارِدينَ، وصاحبُ المَوْصلِ، فهزَمُوا الفرنْجَ هزيمةً فاضحةً، وقتَلُوا منهم خلقًا كثيرًا، وغَنموا منهم أموالاً جزيلةً، وملَكُوا تلك النواحيَ كلَّها، وللَّه الحمدُ والمنَّةُ، ثم رجَعُوا إلىٰ دِمَشْقَ، فذكَر ابنُ السَّاعي في «تاريخه» مقْتَلَ الملك موْدودٍ صاحب المَوْصلِ في هذه السنة، قال: صلَّىٰ هو والأتابكُ طُغْتكينُ يومَ الجُمُعة بالجامع، ثم خرَجا إلىٰ الصَّحْنِ ويَدُ كلٍّ واحدٍ منهما في يَدِ الآخر، فطفَرَ باطنيٌّ علىٰ مَوْدودٍ فقتَله، رحمه اللَّهُ، ويُقالُ: إنَّ طُغْتكينَ هو الذي مالأَ عليه. فاللَّهُ أعلمُ. وجاء كتابٌ من الفرنْج إلىٰ المسلمينَ وفيه: إنَّ أمَّةً قتلَت عميدَها، في يوم عيدها، في بيْت مَعْبُودها لَحقيقٌ علىٰ اللَّه أن يُبيدَها.

وفيها: ملَكَ حَلَبَ ألبُ أرْسَلانَ بنُ رِضْوانَ بنِ تُتُشَ بعدَ أبيه، وقامَ بأمْرِ السَّلْطَنَة بينَ يديه لؤلؤٌ

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٠/ ٤٥٦ ـ ٢٥٧).

الخادمُ، فلم يَبْقَ معه سوىٰ الرَّسْم.

وفيها: فُتِحَ المارَسْتَانُ الذي أنشأه كُمُشْتكِينُ الخادمُ ببَغْدادَ، وحجَّ بالناسِ زَنْكي بنُ بُرْسُقَ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

إسْماعيلُ ابنُ الحافظ أبي بكر أحمدَ بن الحُسَيْن البَيْهَقيُّ، سمعَ الكثيرَ وتنقَّلَ في البلاد، ودرَّسَ بمدينة خُوارِزْمَ، وكان فاضلاً مِن أهلِ الحديث، مَرْضِيَّ الطريقَة، وكانتْ وفاتُه ببلَدِه بَيْهَقَ في هذه السنة.

شُجَاعُ بنُ أبي شُجاع فارسِ بنِ الحُسَيْن بنِ فارس، أبو غالب الذُّهْليُّ، الحافظُ سمعَ الحديثَ الكثيرَ، وكان فاضلاً في هذا الشأنِ، وشرَعَ في تتْميمِ «تاريخ الخطيب»، ثم غسَلَه، وكان يُكثِرُ من الاستغْفارِ والتوبَة؛ لأنَّه كتَبَ شعرَ ابنِ الحجَّاج سبعَ مراتٍ. تُوُفِّيَ في هذا العامِ عن سبْعٍ وسبعينَ سنةً.

محمدُ بنُ أحمدَ بن محمد بن أحمدَ بنِ إسْحاقَ بن الحسن بن منْصورِ بن مُعاوية بن محمد بن عثمانَ بن عنبسةَ بن عُتْبةَ بن عثمانَ بن عنبسةَ بن أبي سُفْيانَ صَخْرِ بن حَرْب الأُمَويُّ، أبو المُظفَّر بنُ أبي العبَّاس الأبِيوَرْديُّ، الشاعرُ. كان عالمًا باللغة والأنساب، سمع الكثيرَ، وصنَّفَ «تاريخَ أبِيوَرْدَ»، و«أنسابَ العرب»، وله كتابٌ في المُؤْتلف والمُختلف، وغيرُ ذلك، وكان يُنسَبُ إلىٰ الكِبْرِ والتِّيه الزائد، حتىٰ إنَّه كان يدْعو في صلاته فيقولُ: اللَّهُمَّ ملِّكْني مشارِقَ الأرضِ ومغاربَها. وكتَب مرَّةً إلىٰ الخليفة: الخادمُ المعاويُّ. فكشَطَ الخليفةُ الميمَ فبقِيَت العاويُّ. ومن شعره قولُه:

تنَكَّرَ لي دهْري ولم يدْرِ أنَّني ... أعِزُّ وأحْداثُ الزمانِ تَهُونُ

وظلَّ يُريني الخطْبَ كيف اعتداؤه ... وبِتُّ أُريه الصَّبْرَ كيفَ يكونُ

محمدُ بنُ طاهر بن عليِّ بن أحمدَ، أبو الفضْل المَقْدسيُّ[1]، الحافظُ، وُلد سنةَ ثمانٍ وأربعينَ وأربعمائة، وأوَّلُ سماعه سنةَ ستِّينَ، وسافَر في طلَب الحديث إلىٰ بلادٍ كثيرةٍ، وسمعَ كثيرًا، وكانت له معْرِفةٌ جيِّدةٌ بهذه الصِّناعة، وصنَّفَ كُتُبًا مفيدةً، غيرَ أنَّه صنَّفَ كتابًا في إباحَة السَّماعِ وفي التصوُّفِ، واستعمَل فيه أحاديثَ منكَرةً جدًّا، وأوْرَدَ أحاديثَ صحيحةً في غيرِ كُنهِها، وقد أثْنَىٰ علىٰ حفْظه غيرُ واحدٍ من الأئمة. وذكَرَ ابنُ الجَوْزيِّ كتابَه هذا الذي سمَّاه «صفَةَ التصوُّف»، وقال: يضْحَكُ منه مَن رآه، قال: وكان دَاوُديَّ المذْهبِ، فمَن أثْنَىٰ عليه أثْنَىٰ لأجْلِ حفظه للحديث، وإلا فما يُجرَّحُ به أوْلَىٰ. قال: وذكَرَه أبو سعدٍ السَّمْعَانيُّ، وانْتَصَرَ له بغيرِ حُجَّةٍ، بعدَ أنْ قال سألْتُ عنه شيْخَنا إسْمَاعيلَ بنَ أحمدَ الطَّلْحيَّ فأساءَ الثناءَ عليه، وكان سَيِّئَ الرأيِ فيه، قال: وسمعْنا أبا الفضْلِ ابنَ ناصرٍ يقولُ: محمدُ بنُ طاهرٍ لا يُحتَجُّ به، صنَّفَ في جَوازِ النَّظَرِ إلىٰ المُرْدِ، وكان يذْهَبُ مذْهَبَ الإباحيَّةِ. ثم أوْرَدَ له من شعرِه قولَه في هذه الأبيات:

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٣٦١-٣٧١).

دَعِ التصوُّفَ والزُّهْدَ الذي اشتَغَلت ... به جوارحُ أقوامٍ من الناسِ
وعُجْ على دَيرِ داريَّا فإنَّ به الر ... رُهْبانَ ما بينَ قسِّيسٍ وشمَّاسِ
واشرَبْ مُعَتَّقَةً من كفِّ كافرة ... تَسْقيكَ خَمْرَيْنِ من لَحْظٍ ومن كاسِ
ثم استَمِعْ رنَّةَ الأوتارِ من رَشَأٍ ... مُهَفْهَفٍ طرْفُهُ أمضَى منَ الماسِ
غَنِّي بشعرِ امرئٍ في الناسِ مُشْتَهِرٍ ... مُدَوَّنٍ عندَهم في صَدْرِ قِرْطاسِ
لولا نسيمٌ بذكراكُم يُرَوِّحُني ... لَكُنْتُ مُحْتَرِقًا من حرِّ أنفاسي

ثم قال السَّمْعَانيُّ: لعَلَّه قد تابَ مِن هذا كلِّه. قال ابنُ الجَوْزِيِّ: وهذا غيرُ مَرْضِيٍّ أنْ يَذْكَرَ جَرْحُ الأئِمَةِ له، ثم يَعْتَذِرُ عن ذلك باحْتِمالِ تَوْبتِه. وذَكَرَ ابنُ الجَوْزِيِّ أنَّه لَمَّا احْتُضِرَ جعلَ يُرَدِّدُ هذا البيتَ:

وما كُنْتُمُ تَعْرِفُونَ الجَفَا ... فَمِمَّنْ تُرَى قد تَعَلَّمْتُمُ

ثم كانت وَفَاتُه بالجانِبِ الغربِيِّ مِن بَغْدَادَ في ربيعٍ الأوَّلِ منها.

أبو بَكْرٍ الشَّاشِيُّ، صاحبُ «المُسْتَظْهِرِيِّ»، محمدُ بنُ أحمدَ بنِ الحُسَيْنِ بنِ عُمَرَ الشَّاشِيُّ[1]، أحدُ أئمَةِ الشافعيَّةِ في زمانِه، وُلِدَ في المُحرَّمِ سنةَ سَبْعٍ وعِشْرِينَ وأربَعمائةٍ، وسمع الحديثَ على أبي يَعْلَى بن الفَرَّاء، وأبي بكْرٍ الخطيبِ، والشيخِ أبي إسحَاقَ الشِّيرازِيِّ، وتفَقَّه عليه وعلى غيْرِه، وقرأ «الشَّامِلَ» على مُصنِّفِه ابنِ الصبَّاغِ، واخْتَصَرَه. في كتابِه الذي جَمَعَه للمُسْتَظْهِرِ باللَّه، وسَمَّاه «حِلْيَةَ العُلَماءِ بمَعْرِفَةِ مذاهبِ الفُقَهاءِ»، ويعْرَفُ بالمُسْتَظْهِرِيِّ، وقد درَّسَ بالنِّظامِيَّةِ، ببغْدَادَ ثم عُزِلَ عنها، وكان يُنْشِدُ:

تَعَلَّمْ يا فَتَى والعُودُ غَضٌّ ... وطينُكَ لَيِّنٌ والطَّبْعُ قَابِلْ
فحسبُكَ يا فَتَى شرَفًا وفَخْرًا ... سكُوتُ الحاضرِينَ وأنتَ قائِلْ

تُوُفِّيَ سحَرَ يومِ السبتِ السادسَ عَشَرَ مِن شَوَّالٍ مِن هذه السَّنَةِ، ودُفِنَ إلى جانبِ الشيخِ أبي إسْحاقَ الشِّيرازِيِّ ببابِ أبْرَزَ.

المُوْتَمَنُ بنُ أحمدَ بنِ عليِّ بنِ الحُسَيْنِ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، أبو نَصْرٍ السَّاجِيُّ المَقْدِسيُّ، سمعَ الحديثَ الكثيرَ، وخرَّجَ، وكانَ ثِقَةً صحيحَ النَّقْلِ، حسَنَ الخَطِّ، مَشْكورَ السيرَةِ، لَطِيفَ النَّفْسِ، اشْتَغَلَ في الفقهِ على الشيخِ أبي إسْحاقَ الشِّيرازِيِّ مُدَّةً، ورَحَلَ إلى أصْبَهَانَ وغيرِها، وهو مَعْدُودٌ مِن جملَةِ الحُفَّاظِ، لاسِيَّما للمُتُونِ، وقد تَكَلَّمَ فيه محمدُ بنُ طاهرٍ. قال ابنُ الجَوْزِيِّ: وهو أحقُّ منه بذلك، وأيْنَ الثُّرَيَّا مِن الثَّرَى؟ تُوُفِّيَ المؤتمنُ يومَ السبتِ ثامنَ عَشَرَ صَفَرَ مِن هذه السَّنَةِ، ودُفِنَ ببابِ حَرْبٍ. واللَّهُ أعلَمُ.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٣٩٣-٣٩٤).

ثم دخلت سنة ثمان وخمسمائة

فيها: وَقَعَ حَرِيقٌ عَظِيمٌ ببغدادَ. وفيها كانت زَلْزَلَةٌ هائلةٌ بأرضِ الجزيرةِ، هَدَمَتْ منها ثلاثةَ عشرَ بُرْجًا، ومِنَ الرُّهَا بُيوتًا كثيرةً، وبَعْضَ سورِ حَرَّانَ، ودورًا كثيرةً في بلادٍ شتَّى، فَهَلَكَ أكثرُها، وفي بالِسَ نحوًا من مائة دارٍ، وقُلِبَ بنصفِ قلعةِ حَرَّانَ، وسَلِمَ نصفُها، وخُسِفَ بمدينةِ سُمَيْساطَ، وهَلَكَ تحت الرَّدْمِ خلْقٌ كثيرٌ، فإنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعُونَ.

وفيها: قُتِلَ صاحبُ حلَبَ تاجُ الدولةِ ألْبُ أرْسَلانَ بنُ رِضْوانَ بنِ تُتُشَ، قَتَلَه غِلْمانُه، وقامَ من بعده أخُوه سلطانْشاه بنُ رِضْوانَ.

وفيها: مَلَكَ السلطانُ سَنْجَرُ بنُ مَلِكْشاه بلادَ غَزْنَة، وخُطِبَ له بها بعدَ مُقاتَلَةٍ عظيمةٍ، وأخَذَ منها أمْوالاً كثيرةً، من ذلك خمسةُ تيجَانٍ، قيمةُ كلِّ تاجٍ منها ألفُ ألفِ دينارٍ، وسبعةَ عشرَ سَريرًا من ذهبٍ وفضَّةٍ، وألفٌ وثلاثمائة قطعةِ مَصَاغٍ مُرَصَّعَةٍ، وأقامَ بها أربَعينَ يومًا، وقرَّرَ في مُلكِها بَهْرَامْ شاه، من بيتِ بَنِي سُبُكْتِكِينَ، ، ولم يُخطَبْ بغزنه قبلَ السلطانِ سَنْجَرَ من السُّلْجُوقيَّةِ لأحدٍ.

وفيها: وَلَّى السلطانُ محمدٌ للأميرِ آقْ سُنْقُرَ البُرْسُقِيِّ المَوْصِلَ وأعْمالَها، وأمَرَه بمُقاتَلةِ الفرنْجِ، فقاتَلَهم في أواخرِ هذه السنَةِ، فأخَذَ منهم الرُّها وخرَّبها وسُرُوجَ وسُمَيْساطَ، ونَهبَ مَارِدينَ، وأسَرَ ابنِ مَلِكها إيَازَ بنِ إيلْغَازي فأرسل السلطان محمد إليه من يتهدده، ففر منه إلى طُغتكين صاحب دمشق، واتَّفَقَا على عصْيانِ السلطانِ محمدٍ، فجرَتْ بينَهم وبينَ نائبِ حِمْصَ قُرْجَانَ بنِ قُراجَةَ حرُوبٌ كثيرةٌ، ثم اصْطَلَحُوا.

وفيها: مَلَكَتْ زَوْجَةُ مَرْعَشَ الإفرنْجيَّةُ بعدَ وفاة زوْجِها، لَعَنَهما اللَّهُ. وحَجَّ بالناسِ فيها أميرُ الجُيُوشِ أبو الخَيْرِ، يَمَنٌ الخادمُ، وشكَرَ الناسُ حَجَّهم معه.

ثم دخلت سنة تسع وخمسمائة

فيها: جهَّزَ السلطانُ غيَاثُ الدين محمد بنُ مَلِكْشاه صاحبُ العراقِ جيشًا كثيفًا مع الأميرِ بُرْسُقَ ابنِ بُرْسُقَ إلى إيلْغَازي صاحبِ مَارِدِينَ، وإلى طُغْتكِينَ صاحبِ دِمَشْقَ؛ ليُقَاتِلَهما على تمالئهما على عصْيانِ السلطانِ، وقَطْعِ خُطْبَتِه، وإذا فَرَغَ من ذلك عَمَدَ لقتالِ الفرنْجِ، فلمَّا اقْتَرَبَ الجيشُ من بلادِ الشَّامِ هَرَبَ صاحبُ مَارِدينَ وصاحبُ دِمَشْقَ، وتَحيَّزَا إلى الفرنْجِ، وجَاءَ الأميرُ بُرْسُقُ إلى كَفَرْطابَ ففتحَها عَنْوَةً، وأخذَ ما كان فيها من النساءِ والذُّرِّيَّةِ، وجاءَ صاحبُ أنْطاكيَةَ رُجيلُ في خمسمائةِ فارسٍ وألْفَيْ راجلٍ، فكَبَسَ المسلمينَ فقتَلَ منهم خَلْقًا كثيرًا، وأخذَ أمْوالاً جَزيلةً، وهَرَبَ بُرْسُقُ في طائفةٍ قليلةٍ من الناسِ، وتَمَزَّقَ الجيشُ الذي كان معه شَذَرَ مَذَرَ، فإنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعُونَ.

وفي ذي القَعْدَةِ منها قدم المَلِكُ غيَاثُ الدينِ محمدٌ إلى بَغْدَادَ، وجاءَ إليه طُغْتكِينُ صاحبُ دِمَشْقَ

مُعْتَذِرًا إليه، فَخَلَعَ عليه، ورَضِيَ عنه وردَّه إلى عمله.

وممَّن تُوُفِّيَ في هذه السَّنة من الأعْيان:

إسْماعيلُ بنُ محمد بن أحْمَدَ بن مَلَّةَ، أبو عُثْمانَ الأصْبَهَانيُّ، أحدُ الرَّحَّالينَ في طلب الحديث، وقد وَعَظَ في جامع المنصور ثلاثينَ مَجْلسًا، واسْتَمْلَىٰ عليه محمدُ بنُ ناصر، وتُوُفِّيَ بأصْبَهانَ.

مُنْتجب بنُ عبد اللَّه المُسْتَظْهِريُّ. أبو الحَسَن الخادمُ، كان كثيرَ العبادَة، وقد أثْنَىٰ عليه محمدُ بنُ ناصر، وقالَ: وقَفَ علىٰ أصحاب الحديث.

هبَةُ اللَّه بنُ المُبارك بن مُوسَىٰ، أبو البَرَكَات السَّقَطيُّ[1]، سمع الكثيرَ ورَحَلَ فيه، وكان فاضلاً عارفًا باللُّغَة، ودُفنَ ببَاب حَرْب.

يحيَىٰ بنُ تميم بن المُعزِّ بن باديسَ، صاحبُ إفْريقيَّةَ، كان من خيار المُلُوك، عارفًا، حَسَنَ السِّيرَة مُحبًّا للفُقَراء والعُلَماء، ولهم عليه أرْزَاقٌ، ماتَ وله ثِنْتَان وخمسُونَ سَنَةً، وتَرَكَ ثلاثينَ وَلَدًا، وقامَ بالأمْر من بعده ولَدُه عليٌّ.

ثم دخلت سنة عشر وخمسمائة

فيها: وَقَعَ حَريقٌ عَظيمٌ ببغدادَ؛ احتَرَقَتْ فيه دورٌ كثيرةٌ، منها دارُ نُور الهُدَىٰ الزَّيْنبيِّ، ورباطُ بِهْروزَ، ودارُ كُتب النِّظَاميَّة، وسَلمَت الكُتُبُ لأنَّ الفُقَهاءَ نَقَلُوها.

وفيها: قُتلَ صاحبُ مَرَاغَةَ في مجْلس السلطان محمد قَتَلَه الباطنيَّةُ. وفي يوم عاشُوراءَ وقَعَتْ فتْنَةٌ عَظيمَةٌ بينَ الرَّوافض والسُّنَّة بمَشْهَد عليِّ بن مُوسَىٰ الرِّضَا بمدينَة طُوسَ، فقُتلَ فيها خَلْقٌ كثيرٌ.

وفيها: سارَ السلطانُ إلىٰ فَارسَ بعدَ مَوْت نائبها خَوْفًا عليها من صاحب كَرْمَانَ. وحَجَّ بالناس أميرُ الجُيُوش أبو الحَسَن؛ نَظَرٌ الخادمُ؛ وكانت سَنَةً مُخْصبَةً آمنَةً، وللَّه الحمدُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

البَغَويُّ المفسر المُحَدِّثُ الفَقيهُ، وقيلَ: في سنة ستَّ عشْرَةَ، كما سيأتي واللَّهُ أعلَمُ.

عَقيلُ ابنُ الإمام أبي الوَفَا عليِّ بن عَقيل الحَنْبَليُّ، كان شابا قد بَرَعَ وحفظَ القُرآنَ وكَتَبَ مَليحًا وفَهِمَ المَعاني جيِّدًا، ولمَّا تُوُفِّيَ تَصَبَّرَ عليه أبوه وتَشكَّرَ وأظْهَرَ التَّجلُّدَ، فقَرَأَ قارئٌ في العزاء: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ الآية [يوسف: ٧٨]، فبكَىٰ ابنُ عَقيل بكَاءً شديدًا.

عليُّ بنُ أحْمَدَ بن محمد بن بيَان الرَّزَّازُ، آخرُ مَن حَدَّثَ عن ابن مَخْلَد بجزء الحَسَن بن عَرَفَةَ، وتَفَرَّدَ بأشياءَ غَيرَه أيضًا. تُوُفِّيَ فيها عَن سَبْع وتسْعينَ سَنَةً.

محمدُ بنُ منصور بن محمد بن عبد الجَبَّار، أبو بكر السَّمْعَانيُّ، سَمعَ الكثيرَ وحدَّثَ، ووعظَ

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٢٨٢ - ٢٨٣).

بالنِّظاميَّةِ ببَغْدادَ، وأمْلَى بمَرْوَ مائةً وأربعينَ مَجْلِسًا، وكانت له مَعْرِفَةٌ تامَّةٌ بالحديث، وكان أديبًا شاعرًا فاضلاً، له قَبولٌ عظيمٌ، تُوُفِّي بمَرْوَ عن ثلاثٍ وأربعينَ سَنَةً.

محمدُ بنُ أحمدَ بن طاهر بن حَمَد أبو منصور، الخازنُ، فَقيهُ الإماميَّةِ ومُفْتِيهم بالكَرْخِ، وقد سمعَ الحديثَ مِنَ التَّنُوخِيِّ وابنِ غَيْلانَ، وكانت وَفاتُه في رمضانَ.

محمدُ بنُ عليِّ بنِ محمد، أبو بكر النَّسَوِيُّ، الفقيهُ الشافعيُّ، سمعَ الحديثَ، وكانتْ إليه تَزْكِيَةُ الشُّهُودِ بنَسَا، وكان فاضلاً دَيِّنًا ورعًا.

مَحْفُوظُ بنُ أحمدَ بنِ الحَسَنِ، أبو الخَطَّابِ الكَلْوَذَانِيُّ، أحدُ أئمةِ الحنابلَةِ ومُصَنِّفيهم، سمعَ الكثيرَ، وتَفَقَّهَ بالقاضي أبي يَعْلَى، وقَرأَ الفرائضَ على الوَنِّيِّ، ودرَّسَ وأفْتَى وناظَرَ، وصَنَّفَ في الأصُولِ والفُرُوعِ، وله شعرٌ حَسَنٌ، وجَمَعَ قَصيدَةً يَذْكُرُ فيها اعْتِقادَه ومَذْهَبَه، يقولُ فيها:

دَعْ عَنكَ تَذْكَارَ الخليطِ المُنجِدِ ... والشَّوْقَ نحوَ الآنِساتِ الخُرَّدِ
والنَّوْحَ في تَذْكارِ سُعْدَى إنَّما ... تَذْكارُ سُعْدَى شُغْلُ مَن لم يَسْعَدِ
واسْمَعْ مَقالي إن أردتَ تَخَلُّصًا ... يومَ الحِسابِ وخُذْ بهَدْيِي تَهْتَدِ

وذكرَ تَمامَها وهي طويلةٌ. وكانت وَفاتُه في جُمادَى الآخرةِ من هذه السنَة عن ثمانٍ وسبعينَ سَنَةً، وصُلِّيَ عليه بجامعِ القَصْرِ، وجامعِ المنصُورِ، ودُفِنَ بالقُربِ مِن الإمامِ أحمدَ.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وخمسمائة

في رابعَ عشَرَ صَفَرٍ منها انكسَفَ القمرُ كُسُوفًا كُلِّيًّا. وفي تلك الليلةِ هجمَ الفرنْجُ على ربضِ حماة فقتَلُوا خَلْقًا كثيرًا، ورجَعُوا -لعَنَهم اللَّهُ- إلى بلادهم.

وفيها: كانت زَلْزَلَةٌ عَظِيمةٌ ببَغْدادَ؛ سَقَطَتْ منها دورٌ كثيرةٌ بالجانبِ الغَرْبِيِّ، وغَلَتْ الغلات في هذه السنَة ببغدادَ جدًّا. وفيها قُتِل لؤلؤٌ الخادمُ الذي كان قد استَحْوَذَ على مَمْلَكة حَلَبَ بعدَ مَوْت أستاذه رِضْوانَ بنِ تُتُشَ، قتَلَه جَماعةٌ مَن الأتراك، وكان قد خَرَجَ من حَلَب مُتَوجهًا إلى جَعْبَرَ، فتنادَى جماعةٌ مِن مَماليكه وغيرِهم في أثناء الطريق: أرْنَبٌ أرْنَبٌ. فرَمَوْه بالسِّهامِ مُوهِمِينَ أنَّهم يَصِيدُونَ صيدًا فقتَلُوه.

وفيها: كانت وَفاةُ السلطان **غياث الدين محمد بن مَلِكْشاه بن ألْب أرْسَلانَ بن داودَ بن ميكائيلَ بن سَلْجُوقَ**، مَلِكُ بلادِ العراقِ وخُراسانَ وغيرِ ذلك مِن البلادِ الشَّاسعَة، والأقاليمِ الواسعَة، وكان مِن خيارِ المُلُوك وأحْسَنِهم سيرةً، عادلاً رَحيمَ القلبِ، سهْلَ الأخلاقِ، محمودَ العِشْرَة، رحمَه اللَّهُ، ولمَّا حَضَرَتْه الوَفاةُ اسْتَدْعَى وَلَدَه محمودًا وضَمَّه إليه وبكَى كلٌّ منهما، ثم أمَرَه بالجُلُوسِ على سَريرِ المَمْلَكة، وعمرُه إذ ذاكَ أربعَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَجَلَسَ وعليه التَّاجُ والسُّوارَانِ وحَكَم، ولمَّا تُوُفِّي أبوه صرفَ الخزائنَ إلى العساكرِ؛ وكان فيها أحَدَ عَشَرَ ألفَ ألفِ دينارٍ، واستَقَرَّ المُلْكُ له،

وخُطِبَ له ببَغْدَادَ وغيرِها مِن البلادِ، وكان عمرُ أبيه السلطان محمدٍ تسْعًا وثلاثين سَنَةً وأرْبَعَةَ أشْهُرٍ وأيامًا، وكان قد خُطِبَ له ببَغْدَادَ عدَّةَ مراتٍ، ونازَعَه أخوه بَرْكيارُوقُ، ثم اسْتَقَرَّ له المُلْكُ إلى هذه السَّنَةِ، رحمَه اللَّهُ تعالَى وأكْرَمَ مَثْوَاه.

وفيها: وُلِدَ المَلِكُ العادلُ نورُ الدينِ محمودُ بنُ زَنْكي بنِ آقْ سُنْقُرَ، صاحبُ حَلَبَ ودِمَشْقَ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

القاضي المُرْتضَى أبو محمدٍ، عبدُ اللَّهِ بنُ القاسمِ بنِ المُظَفَّرِ بنِ عليِّ بنِ القاسمِ الشَّهْرَزُورِيُّ، والدُ القاضي جمالِ الدينِ محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ الشَّهْرَزُورِيِّ، قاضي دِمَشْقَ في أيامِ نورِ الدينِ، اشْتَغَلَ ببَغْدَادَ وتَفَقَّهَ بها، وكان شافعيَّ المَذْهَبِ، بارعًا دَيِّنًا، حَسَنَ النَّظْمِ، ثم عادَ إلى بلدِه، فكان يَعِظُ ويَتَكلَّمُ على القلوبِ، وله قَصيدةٌ بارعَةٌ في علمِ التَّصَوُّفِ أوْرَدَها القاضي ابنُ خَلِّكَانَ بتمامِها؛ لِحُسْنِها وفَصاحَتِها:

لَمَعَتْ نارُهم وقد عَسْعَسَ اللَّيْـ	ـلُ وملَّ الحادي وحارَ الدَّليلُ
فتَأمَّلْتُها وفِكْري مِن البَيْـ	ـنِ عَليلٌ ولَحْظُ عَيْني كَليلُ
وفُؤادي ذاكَ الفُؤادُ المُعَنَّى	وغَرامي ذاكَ الغَرامُ الدَّخيلُ

ومِن شعرِه:

يا ليلُ ما جِئْتُكُم زائرًا	إلا وجدتُ الأرضَ تُطوَىٰ لي
ولا ثَنَيْتُ العَزْمَ عن بابِكم	إلا تَعَثَّرْتُ بأذيالي

ومِن شِعْرِه دُوبيتُ:

يا قلبُ إلامَ لا يُفيدُ النُّصْحُ	دَعْ مَزْحَكَ كَمْ جَنَىٰ عليك المَزْحُ
ما جارحَةٌ منك عَداها جُرْحُ	ما تَشْعُرُ بالخُمارِ حتى تَصْحُو

كانت وفاتُه في هذه السَّنَةِ. قال ابنُ خَلِّكَانَ: وزَعَمَ العِمادُ في «الخَرِيدَةِ» أنَّه تُوُفِّيَ بعدَ العشرينَ. فاللَّهُ أعلَمُ.

محمدُ بنُ سعيدٍ، ابنُ نَبْهَانَ، أبو عليٍّ الكاتبُ، سمع الحديثَ وروَىٰ، وعُمِّرَ مائةَ سنَةٍ، وتَغَيَّرَ قبلَ مَوْتِه، وله شِعْرٌ حَسَنٌ، فمِن ذلك قولُه في قَصيدَةٍ له:

لي أجَلٌ قدَّرَه اللَّـهُ	نَعَمْ ورِزْقٌ أتَوَفَّاهُ
حتى إذا اسْتَوْفَيتُ منه الذي	قُدِّرَ لي لا أتَعَدَّاهُ
قال كِرامٌ كنتُ أغْشاهُمُ	في مَجْلسٍ قد كنت أغْشاهُ
صارَ ابنُ نَبْهانَ إلى ربِّه	يَرْحَمُنا اللَّـهُ وإيَّاهُ

أميرُ الحاجِّ يُمْنُ بنُ عبد الله، أبو الخيرِ المُستَظهريُّ، كان جَوَادًا، كَريمًا، مُمَدَّحًا، ذا رأيٍ وفِطْنَةٍ ثاقِبَةٍ، وقد سمِعَ الحديثَ مِن أبي عبدِ اللهِ الحُسَينِ بنِ أحمدَ بنِ طَلْحَةَ النِّعَاليِّ بإفادةِ أبي نَصْرٍ الأصْبَهانيِّ، وكان يَؤُمُّ به في الصلَواتِ.

ولمَّا قَدِمَ رَسولاً إلى أصْبَهانَ حَدَّثَ بها. واتَّفَقَ وفاتُه في ربيعٍ الآخرَ من هذه السَّنَةِ ودُفِنَ هناك، رَحِمَه اللهُ تعالى.

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة وخمسمائة

فيها: خُطِبَ للسلطانِ محمودِ بنِ محمدِ بنِ مَلِكْشَاه بأمرِ الخليفةِ المُستَظهِرِ باللهِ.

وفيها: سأَلَ دُبَيْسُ بنُ صَدَقَةَ بنِ منصورٍ الأسَديُّ مِنَ السلطانِ محمودٍ أنْ يَرُدَّهُ إلى الحلة وغيرها مما كان يَتَولَّاه مِنَ الأعمالِ، فأجابَه إلى ذلكَ، وولاه ما كان أبوه يَتَولَّاه من ذلك، فَعَظُمَ وارْتَفَعَ شأنُه.

وفاة الخليفة المستظهر بالله[1]

وهو أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ أميرِ المؤمنينَ المُقْتَدِي بأمرِ اللهِ، كان خَيِّرًا فاضلاً ذكيًّا بارعًا، كتبَ الخطَّ المَنسوبَ، وكانت أيَّامُه ببَغْدادَ كأنَّها الأعيادُ، وكان راغبًا في البرِّ والخَيْراتِ مُسارِعًا إلى ذلك، وكان لا يَرُدُّ سائلاً.

وكان جَميلَ المُعاشَرَةِ لا يُصْغي إلى أقوالِ الوشاةِ في الناسِ، ولا يَثِقُ بالمُباشِرينَ، قد ضَبَطَ أمورَ الخلافةِ جيِّدًا، وأحْكَمَها وعَرَفَها وعلِمَها، ولَدَيه علمٌ كثيرٌ وفضلٌ كبيرٌ، وله شعرٌ حسنٌ قد ذَكَرْنَاه أوَّلاً عندَ ذِكرِ خلافتِه بعدَ والده.

وقد وَلِيَ غسلَه الإمامُ ابنُ عَقِيلٍ وابنُ السُّنِّي، وصَلَّى عليه ولدُه أبو مَنْصورٍ الفَضْلُ، وكَبَّرَ أربَعًا، ودُفِنَ في حُجْرَةٍ كان يَسْكُنُها.

والعَجَبُ أنَّه لَمَّا ماتَ السلطانُ ألْب أرْسَلان ماتَ بعدَه الخليفةُ القائمُ بأمرِ اللهِ، ثم لَمَّا ماتَ السلطانُ مَلِكْشَاه ماتَ بعدَه الخليفةُ المُقْتَدِي بأمرِ اللهِ، ثم لَمَّا ماتَ السلطانُ محمدٌ ماتَ بعدَه الخليفةُ المُستَظْهِرُ باللهِ، رحِمَهم اللهُ.

وكانت وفَاةُ المُستَظْهِرِ باللهِ، في سادسَ عَشَرَ رَبيعٍ الآخرَ من هذه السنةِ، وله من العُمْرِ إحْدَىٰ وأرْبَعُونَ سنَةً، وثلاثَةُ أشهُرٍ وأحَدَ عَشَرَ يومًا.

---

(١) راجع ترجمته في «السير» (١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢).

خلافة المسترشد بالله أمير المؤمنين أبي منصور الفضل بن المستظهر

لَمَّا تُوُفِّي أبوه ـ كما ذَكَرْنا ـ بُويعَ له بالخلافَة، وخُطبَ له على المَنابرِ وقد كان وَليَ العَهْد من مُدَّة ثلاثة وعشْرينَ سَنَةً، وكان الذي أخَذَ البَيْعَةَ له قاضي القُضَاة أبو الحَسَنِ الدَّامغَانيُّ، ولَمَّا استَقَرَّت البَيْعَةُ له هَرَبَ أخوه أبو الحَسَنِ في سَفينَة ومعه ثلاثةُ نَفَرٍ، وقَصَدَ دُبَيْسَ بنَ صَدَقَةَ بنِ مَنْصورِ بن دُبَيْسِ ابنِ عليِّ بنِ مَزْيَدٍ الأَسَديَّ بالحلَّة، فأكرَمَه وأحْسَنَ إليه، فقَلِق المُسْتَرشِدُ باللَّه من ذلك، فراسَلَ دُبَيْسًا في ذلك مع نقيبِ النُّقَبَاء الزَّيْنَبيِّ، فهَرَبَ أخو الخليفة من دُبَيْسٍ، فأرْسَلَ إليه جَيْشًا فألْجَئُوه إلى البَرِّيَّة، فَلَحقَه عطَشٌ شديدٌ، فلَقِيَه بَدَوِيَّان فسقَيَاه ماءً، وحَمَلاه إلى بَغْدَادَ، فأحْضَرَه أخوه فاعْتَنَقَا وتَبَاكَيَا، وأنْزَلَه الخليفةُ دارًا كان يَسْكُنُها قبل الخلافَة، وأحْسَنَ إليه، وطَيَّبَ نَفْسَه، وكان مُدَّةُ غَيْبَته عن بَغْدَادَ أحَدَ عشَرَ شَهْرًا، واستَقَرَّت الخلافَةُ بلا مُنَازَعَة للمُسْتَرشِد.

وفي هذه السَّنَة كان غلاءٌ شديدٌ ببَغْدَادَ، وانْقَطَع الغَيْثُ وعُدمَتْ الأقواتُ، وتَفَاقَمَ أمرُ العَيَّارِينَ، وَنَهَبُوا الدِّيارات نهارًا جهارًا، ولم تَسْتَطعْ الشُّرْطَةُ لذلك تَغْييرًا ولا إنْكارًا.

وحجَّ بالناس في هذه السنة نَظَرٌ الخادمُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الخليفةُ المُسْتَظهرُ باللَّه، كما تَقَدَّمَ ذكرُ ذلك آنفًا في هذا العام.

تُوُفِّيَتْ بعْدَه جَدَّتُه أمُّ أبيه المُقْتَدي، **أُرْجُوانُ الأرْمَنيَّة**، وتُدْعَى قُرَّةَ العَيْنِ، وكان لها بِرٌّ كثيرٌ، ومَعْرُوفٌ وصَدَقَاتٌ، وقد حَجَّتْ ثلاثَ حَجَّاتٍ، وأدْرَكَتْ خلافَةَ ابنها المُقْتَدي، وخلافَةَ ابنه المُسْتَظهرِ، وخلافَةَ ابنه المُسْتَرشِد، ورأَتْ للمُسْتَرشِد وَلَدًا، وكانت وفَاتُها في هذه السنَة، رَحِمَها اللَّهُ تعالى.

بكرُ بنُ محمد بن عليِّ بن الفَضْل، أبو الفَضْلِ الأنصاريُّ، روَى الحديثَ وكان يُضرَبُ به المَثَلُ في حفظ مَذْهَب أبي حَنيفَةَ، وتَفَقَّه على عبد العَزيزِ بن أحمدَ الحَلْوَانيّ، وكان يَذْكُرُ الدرُوسَ من أيِّ مَوْضع سُئلَ من غير مُطَالَعَة ولا مُرَاجَعَة، وربَّما كان في ابتداء طَلَبه يُكَرِّرُ المسألةَ أربَعمائة مَرَّة. وكانت وَفَاتُه في شعبانَ من هذه السَّنَة.

الحُسَيْنُ بنُ محمد بن عليِّ بن الحَسَن محمد بن عبد الوَهَّاب الزَّيْنَبيُّ، قَرأَ القُرْآنَ وسمع الحديثَ، وتَفَقَّه على أبي عليٍّ الدَّامغَانيِّ، فبَرَع وأفْتَى ودرَّسَ بمَشْهَد أبي حَنيفَةَ، وانْتَهَتْ إليه رِياسَةَ مَذْهَب

أبي حَنِيفَةَ، ولُقِّبَ نُورَ الهُدَىٰ، وسَارَ في الرُّسليةِ إلىٰ المُلُوكِ، ووَلِيَ نِقَابَةَ الطالبيِّينَ والعبَّاسيِّينَ، ثم استَعْفَىٰ بعدَ شُهُورٍ، فوَلِيَ أخُوه طِرَادٌ نِقَابَةَ العبَّاسيِّينَ، وكانت وَفاتُه يومَ الإثنَيْنِ الحَادِي عَشَرَ مِن صَفَرٍ، وله مِن العُمْرِ ثِنْتَانِ وتسْعُونَ سنَةً، وصَلَّىٰ عليه ابنُه أبو القاسِمِ عليٌّ، وحَضَرَه الأعيانُ والعلماءُ، ودُفِنَ عندَ قَبْرِ أبي حَنِيفَةَ داخِلَ القُبَّةِ، رحِمَه اللَّهُ.

يوسُفُ بنُ أحمدَ، أبو طاهرٍ ويُعْرَفُ بابنِ الخَرزيِّ، صاحبُ المَخْزَنِ في أيامِ المُسْتَظْهِرِ. وكان لا يُوَفِّي المسترشدَ حَقَّه مِن التَّعْظِيمِ وهو وَلِيُّ عَهْدٍ، فلمَّا صارَتْ إليه الخلافَةُ صادَرَه بمائةِ ألفِ دينارٍ، ثم استَقَرَّ غُلامًا له فأَوْمَأَ إلىٰ بيتٍ، فوُجِدَ فيه أرْبَعُمائةِ ألفِ دينارٍ، فأخَذَها الخليفَةُ، ثم كانت وفاتُه بعدَ هذا بقليلٍ في هذا العامِ.

أبو الفَضْلِ بن الخازِنِ،كان أدِيبًا لطِيفًا شاعِرًا فاضِلاً، فمِن شعْرِه قولُه:

وافَيْتُ مَنْزِلَهُ فلم أرَ صاحِبًا	إلا تَلَقَّاني بوَجْهٍ ضاحِك
والبِشْرُ في وجْهِ الغلامِ نَتِيجَةٌ	لمُقَدِّمَاتِ ضِياءِ وجهِ المالِكِ
ودَخَلْتُ جَنَّتَه وزُرْتُ جَحِيمَه	فشَكَرْتُ رِضْوانًا ورَأْفَةَ مالِكِ

❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

فيها: كانت الحروبُ الشديدةُ بينَ السلطانِ محمودِ بنِ محمدِ بنِ مَلَكْشاه وبينَ عمِّه السلطانِ سَنْجَرَ ابنِ مَلَكْشَاه. فكان النصرُ فيها لسَنْجَرَ، فخُطِب له ببغدادَ في سادسَ عشرَ جُمادَىٰ الأولَىٰ من هذه السنة، وقُطعت خُطْبَةُ السلطانِ محمودٍ ثم وقَع الصلحُ بينهما ورسَم السلطانُ سَنْجَرُ أن يُخْطَبَ لابنِ أخيه محمودٍ في سائرِ أعْماله بعدَه.

وفيها: سارَت الفرنْجُ إلى مدينة حَلَبَ ففتَحوها عَنْوَةً وملَكوها، فسارَ إليهم صاحبُ مَارِدينَ إيلْغَازي بنُ أُرْتُقَ في جيشٍ كثيفٍ، فهزَمهم عنها ولحِقهم إلى جبَلٍ قد تحصَّنوا فيه، فقتَل منهم هُنالك مَقْتلةً عظيمةً، ولله الحمدُ، ولم يُفْلت منهم إلا اليسيرُ، وأسَرَ من مُقَدَّمهم نَيِّفًا وسبعين رجلًا، وقُتِلَ فيمَن قُتِل سرخالُ صاحبُ أنطاكيَةَ، وحُمِلَ رأسُه إلى بغدادَ، فقالَ بعضُ الشعراءِ في ذلك - وقد بالَغ مُبالغةً فاحشةً -:

قُلْ ما تشاءُ فقولُك المقبولُ ... وعليكَ بعدَ الخالقِ التَّعويلُ
واستَبشَرَ القرآنُ حينَ نصَرتَهُ ... وبكَىٰ لفقدِ رجالهِ الإنجيلُ

وفيها: قُتلَ الأميرُ مَنْكُبِرْسُ الذي كان شِحْنةَ بغدادَ، وكان ظالمًا غاشمًا سيِّئَ السيرةِ، قتَله الملكُ محمودُ بنُ محمدِ بنِ مَلَكْشاه صَبْرًا بينَ يدَيْه لأمورٍ؛ منها أنَّه تزوَّج سُرِّيَّةَ أبيه قبلَ انْقضاءِ عدَّتِها، ونِعْمَ ما فعَل، وقد أراحَ اللَّهُ المسلمينَ منه، قبَّحه اللَّهُ ما كان أظلمَه وأغشمَه.

وفيها: تولَّى قضاءَ قُضاةِ بَغْدادَ الأكمَلُ أبو القاسمِ، بنُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، الحُسينُ بنُ محمدٍ الزَّيْنَبِيُّ، وخُلِعَ عليه بعدَ موتِ أبي الحَسَنِ بنِ الدَّامَغَانِيِّ. وفيها ظهَر قَبْرُ إبراهيمُ الخليلِ وقَبْرُ إسْحاقَ ويَعْقُوبَ عليهمُ السلامُ. وشاهَد ذلك الناسُ، ولم تَبْلَ أجْسادُهم، وعندَهم قَناديلُ من ذهبٍ وفضةٍ، ذكَر ذلك ابنُ الخازنِ في «تاريخه»، وأظنُّه نقَله من «المُنتظم» لابنِ الجَوْزيِّ. واللَّهُ أعلمُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

ابنُ عَقيلٍ، عليُّ بنُ عَقيلِ بنِ محمدِ بنِ عَقيلٍ، أبو الوَفاء[1]، شيخُ الحنابلةِ ببَغْدادَ، صاحبُ «الفُنونِ» وغيرِها من التصانيفِ المفيدةِ، وُلِد سنةَ إحْدَىٰ وثلاثين وأربعمائةٍ، وقرأ القرآنَ على ابنِ شِيطَا، وسمع الحديثَ الكثيرَ، وتفَقَّه بالقاضي أبي يَعْلَى ابنِ الفَرَّاءِ، وقرأ الأدَبَ على ابنِ بَرْهانَ، والفرائضَ على عبدِ الملكِ الهَمَذَانيِّ، والوَعْظَ على أبي طاهرٍ ابنِ العَلَّافِ، صاحبِ ابنِ سَمْعُونَ، والأُصولَ على أبي الوليدِ المُعْتَزليِّ، وكان يجتمعُ بجميعِ العلماءِ من كلِّ مذهبٍ، فربَّما لامَه بعضُ أصحابِه فلا يلوي عليهم، فلهذا برَّز على أقرانِه وبذَّ أهلَ زمانِه في فُنونٍ كثيرةٍ، مع صيانةٍ وديانةٍ

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٤٤٣ - ٤٥١).

وحسن صورةٍ وكثرة اشتغالٍ، وقد وعظ في بعض الأحيان فوقعت فتنةٌ فترك ذلك، وقد متّعه اللهُ بجميع حواسِّه إلى حين موته، وكانت وفاتُه بُكرةَ الجُمُعَة ثاني جُمادى الأولى من هذه السنة، وقد جاوز الثمانين، وقد كانت جنازتُه حافلةً جدًّا، ودُفن قريبًا من قبر الإمام أحمدَ، إلى جانب الخادم مُخلّص، رحمه اللهُ.

عليُّ بنُ محمد بن عليِّ بن محمد بن الحسين بن عبد الملك بن عبد الوهّاب بن حمُّويه، أبو الحسن الدَّامَغانيُّ قاضي القُضاة ابنُ قاضي القُضاة، وُلد في رجبٍ سنةَ تسعٍ وأربعين وأربعمائة، واشتغل وبرع وتولّى قضاءَ القُضاة بعدَ أبيه، ثم عُزل بأبي بكر الشاشيِّ، ثم أُعيد إلى الحُكم. قال ابنُ الجوزيِّ: ولا يُعرفُ حاكمٌ ولي الحكمَ أصغرُ سنًّا منه - يعني ببغدادَ - من قُضاة القُضاة. وقال: ولا يُعرفُ حاكمٌ ولي الحكمَ لأربعةٍ من الخلفاء غيرُه، إلا شُرَيحٌ، ثم ذكر من أمانته وديانته ما يدلُّ على تحرِّيه، وتوقِّيه وقوَّته، رحمه اللهُ، وقد ولي الحُكمَ أربعًا وعشرينَ سنةً، كذلك كانت وفاتُه في المحرَّم من هذه السنة عن ثلاثٍ وستّين وستّةِ أشهرٍ، وقبرُه عندَ مَشْهدِ أبي حنيفةَ.

المُباركُ بنُ عليِّ بن الحُسَيْن، أبو سَعد المُخَرِّميُّ، سمع الحديثَ، وتفقَّه على مَذْهب أحمدَ، وناظر وأفتى ودرَّس، وجمع كُتبًا كثيرةً لم يُسبَقْ إلى مثلها، وناب في القضاء، وكان حسنَ السيرة جميلَ الطريقة، سديدَ الأقضية، وقد بنى مدرسةً بباب الأزَج، وهي المنسُوبةُ إلى الشيخ عبدالقادر الجيليِّ الحَنْبليِّ، ثم عُزلَ عن القضاء وصُودرَ بأموالٍ جزيلةٍ، وذلك في سنة إحْدى عشْرةَ وخَمْسمائة، وكانت وفاتُه في المحرم من هذه السنة، ودُفن إلى جانب أبي بكر الخلاَّل عندَ قبر أحمدَ.

ثم دخلت سنة أربع عشرة وخمسمائة

في النصف من ربيع الأوَّل كانت وقعةٌ عظيمةٌ بينَ الأخوَيْن السلطانَيْن محمودٍ ومَسْعودٍ، ابنَيْ محمد بن مَلِكْشاه عند عَقَبة أَسَداباذَ، فانهزم عسكرُ مسعودٍ، وأُسر وزيرُه الأستاذُ أبو إسماعيلَ وجماعةٌ من أمرائه، فأمرَ السلطانُ محمودٌ بقتل الوزير أبي إسماعيلَ، فقُتل وله نيِّفٌ وستُّون سنةً، وله تصانيفُ في صناعة الكيمياء. ثم أرسَل إلى أخيه مسعودٍ الأمانَ، واستقدمه عليه، فلمَّا اجتمعا اعتنقا وبكَيا واصطلحا.

وفيها: نهبَ دُبَيْسُ بنُ صَدَقَةَ صاحبُ الحِلَّة البلادَ، وركبَ بنفسه إلى بَغْدادَ، فنصبَ خَيْمةً بإزاء دار الخلافَة، وأظهرَ ما في نفسه من الضَّغائن، وذكرَ كيفَ طِيفَ برأس أبيه في البلاد، وتهدَّدَ المسترشدَ، فأرسَل إليه الخليفةُ يُسكِّنُ جأشَه ويَعِدُه أنَّه سيُصْلحُ بينَه وبينَ السلطان محمودٍ، فلمَّا قدم السلطانُ بَغْدادَ أرْسلَ إليه دُبَيْسٌ يستأمنُ، فأمَّنَه وأجْراه على عادَته، ثم إنَّه نَهَبَ جيشَ السلطان، فركِبَ السلطانُ محمودٌ بنَفْسه لقتاله واستَصْحبَ معه ألفَ سفينةٍ ليَعْبُرَ بها إلى الحِلَّة، فهربَ دُبَيْسٌ من بين يدَيْه والْتَجأَ إلى إيلْغازي فأقامَ عنده سنةً، ثم عادَ إلى الحِلَّة وأرْسلَ إلى الخليفة والسلطان

يَعْتَذِرُ إليهما فلم يَقْبَلا منه، وجَهَّزَ السلطانُ جيشًا فحَاصَرُوه وضَيَّقُوا عليه قريبًا مِن سَنَةٍ، وهو في مَنِيعِ بلادِه لا يَتَمَكَّنُ الجيشُ مِن الوُصُولِ إليه في تلك الأماكِنَ.

وفيها: كانت الوقْعَةُ العظيمَةُ بينَ الكُرْجِ والمسلمينَ بالقُرْبِ مِن تَفْلِيسَ، ومع الكُرْجِ كُفَّارُ القِفْجاقِ فقَتَلُوا مِن المسلمينَ خَلْقًا كثيرًا، وغَنِمُوا أمْوَالاً جزيلَةً، وأسَرُوا نحواً مِن أرْبَعةِ آلافِ أسيرٍ، فإنَّا للَّهِ وإنَّا إليه رَاجِعُونَ. ونَهَبَتْ الكُرْجُ تلك النَواحِي وفَعَلُوا أشياءَ مُنْكَرَةً، وحَاصَرُوا تَفْلِيسَ مدةً ثم مَلَكُوها عَنْوَةً، بعدَما أحْرَقُوا القاضِي والخَطِيبَ حينَ خَرَجُوا إليهم يَطْلُبُونَ الأمانَ، وقَتَلُوا عامَّةَ أهلِها، وسَبوا الذُّرِّيَّةَ واسْتَحوَذُوا على الأموال، فلا حَولَ ولا قُوةَ إلا باللَّهِ، وفيها أغارَ جُوسْلِينُ الفَرَنْجِيُّ صاحبُ الرُّهَا على خلقٍ مِن العربِ والتُّرْكُمَانِ فقَتَلَهم وغَنِمَ أمْوَالهم.

وفيها: تَمَرَّدَتِ العَيَّارِينَ بِبَغْدَادَ وَأخَذُوا الدُّورَ جِهَارًا، ليلاً و نهارًا، فحسبُنا اللَّهُ ونِعْمَ الوكيلُ.

وفي هذه السنة كان ابتداءُ مُلْكِ محمدِ بنِ تُومَرْتَ ببلادِ المَغْرِبِ، كان ابتداءُ أمرِ هذا الرجلِ أنَّه قدِمَ في حداثَةِ سنِّه مِن بلادِ المَغْرِبِ إلى بغدادَ فسكَنَ النِّظَامِيَّةَ، واشتغَلَ بالعلمِ فحصَّلَ جانبًا جيِّدًا مِن الفروعِ والأصولِ على الغَزَّالِيِّ وغيرِه، وكان يُظهِرُ التعبُّدَ والزهدَ والوَرَعَ، ورُبَّمَا أنكَر على الغَزَّالِيِّ حُسْنَ ملابِسِه، ولاسيَّما حينَ لبِسَ خِلْعَةَ التدريسِ بالنِّظامِيَّةِ، ثم حجَّ وعادَ إلى بلادِه، فكان يأمُرُ بالمعروفِ وينهى عن المنكرِ، ويُقرِئُ الناسَ القرآنَ ويشغَلُهم في الفِقْهِ، فطار ذِكرُه في الناسِ، واجتَمَعَ به يَحْيَى بنُ تميمِ بنِ المُعِزِّ بنِ باديسَ صاحبُ بلادِ إفْرِيقيَّةَ، فعظَّمَه وأكرَمه وسأَله الدعاءَ، فاشتَهَر أيضًا بذلك وبعُد صيتُه، وليس معَه إلا رِكْوَةً وعصًا، ولا يسْكُنُ إلا المساجِدَ، ثم كان ينتقِلُ مِن بلدٍ إلى بلدٍ حتى دخَلَ مرَّاكُشَ ومعه تلميذُه عبدُ المؤمنِ بنُ عليٍّ، وكان قد توَسَّمَ فيه النَّجابةَ والشَّهامةَ، فرأى فيها مِن المُنْكَراتِ أضْعافَ ما رأى في غيرِها؛ مِن ذلك أنَّ الرجالَ يتلثَّمون والنساءَ يمشِينَ حاسِرَاتٍ عن وُجوهِهِنَّ، فأخَذ في إنْكارِ ذلك حتى إنَّه اجتازَ به في بعْضِ الأيامِ أختُ أميرِ المسلمين عليِّ بنِ يوسُفَ ابنِ تاشُفِينَ مَلِكِ مَرَّاكُشَ وما حولَها، ومعها نساءٌ راكباتٌ حاسراتٌ عن وجوهِهِن، فشرَعَ هو وأصحابُه يُنكرون عليهنَّ، ويضرِبون الدَّوابَّ، فسقَطت أختُ المَلِكِ عن دابَّتِها، فأحضَره المَلِكُ وأحضَرَ الفقهاءَ فظهَرَ عليهم بالحُجَّةِ، وأخذَ يَعظُ الملكَ في نفسه، ومع هذا نفَاه عن بلَدِه، فشرَعَ يُشَنِّعُ عليه ويدعُو الناسَ إلى قتالِه، فاتبعه على ذلك خلقٌ كثيرٌ، فجهَّزَ إليه ابنُ تاشُفِينَ جيشًا كثيفًا فهزَمهم ابنُ تُومَرْتَ، فعُظُمَ شأْنُه وارتفَع أمرُه، وقويت شوكتُه، وتَسمَّى بالمَهْدِيِّ، وسمَّى جيشَه جيشَ المُوَحِّدِينَ وألَّفَ كتابًا في التوحيدِ، وعقيدةً تُسمَّى المُرْشِدَةَ، ثم كانتْ له وقَعاتٌ مع جيوشِ ابنِ تاشُفِينَ، فقتَل في بعضِ الأيامِ منهم نحواً مِن سبعينَ ألفًا، وذلك بإشارةِ أبي عبدِ اللَّهِ الوَنْشَرِيسيِّ، وكان ذكَر أنه نزَلَ إليه مَلَكٌ، وعلَّمَه القرآنَ و«الموَطَّأَ»، وله مَلائكَةٌ يشهَدون به في بِئْرٍ سمَّاه، فلمَّا اجْتازَ به وقد أرصَدَ فيه رِجالاً، فلمَّا سأَلهم والناسُ يسمَعون شهِدوا له بذلك، فأمَر حينئذٍ بطَمِّ البِئرِ فهَلكوا عن آخرِهم، ولهذا يقالُ: مَن أعانَ ظالمًا سُلِّطَ عليه.

ثم جهَّز ابنُ تُومَرْتَ الذي لقَّبَ نفسَه بالمَهْديِّ جيشًا عليهم أبو عبدِ اللَّه الوَنْشَرِيسيُّ وعبدُ المؤمنِ لمُحاصَرَةِ مَرَّاكُشَ، فخرَج إليهم أهلُها فاقْتتَلوا قتالاً عظيمًا، فكان في جملةِ مَن قُتِل أبو عبدِ اللَّه الوَنْشَرِيسيُّ هذا الذي زعَم أنَّ الملائكةَ تُخاطِبُه، ثم افتقَدوه في القَتْلَى فلم يجدُوه، فقالوا: رفَعَتْه الملائكةُ، وقد كان عبدُ المؤمنِ دفَنه والناسُ في المعْرَكَة، وقُتِل من أصحابِ المَهْديِّ خلقٌ كثيرٌ، وقد كان حينَ جهَّزَ الجيشَ مريضًا مُدْنِفًا، فلمَّا جاءَه الخبرُ ازدادَ مَرَضًا إلى مرضِه، وساءَه قتلُ أبي عبدِاللَّه الوَنْشَرِيسيِّ، وجعَل الأمْرَ من بعدِه لعبدِ المؤمنِ بنِ عليٍّ، ولقبه أميرَ المؤمنينَ، وقد كان شابًّا حسنًا حازمًا عاقلاً. ثم مات ابنُ تُومَرْتَ، وقد أتت عليه إحدَى وخمسونَ سنةً، ومدةُ مُلْكِه عشْرُ سنينَ. وحينَ صارَ الأمرُ إلى عبدِ المؤمنِ بنِ عليٍّ أحْسَنَ إلى الرَّعايا، وظهَرتْ منه سيرةٌ جيِّدةٌ فأحبَّه الناسُ، واتَّسَعتْ ممالكُه، وكثُرتْ جيوشُه ورعيَّتُه، ونصَب العداوةَ لابنِ تاشُفين صاحبِ مَرَّاكُشَ، ولم يَزَلِ الحربُ بينَهما إلى سنةِ خمسٍ وثلاثينَ، فماتَ ابنُ تاشُفينَ فقامَ ولَدُه تاشُفينُ من بعدِه، فمات في سنةِ تسعٍ وثلاثينَ ليلةَ سَبعٍ وعشرينَ من رمضانَ، فولِي أخوه إسحاقُ بنُ عليِّ بنِ يُوسُفَ بنِ تاشُفين، فسارَ إليه عبدُ المؤمنِ فملَك تلك النواحيَ، وفتَح مدينةَ مَرَّاكُشَ، وقتَل هُنالك أُمَمًا لا يعلَمُ عددَهم إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ؛ وقتَل مَلِكَها إسحاقَ وكان صغيرَ السنِّ في سنةِ ثِنْتَيْنِ وأربعينَ، فكانَ إسْحاقُ هذا آخرَ مُلوكِ المُرابِطينَ، وكان مدةُ مُلكِهم سَبْعين سنةً.

والذينَ ملَكوا منهم أربعةٌ؛ عليٌّ ووالدُه يُوسُفُ، وولَداه تاشُفينُ وإسحاقُ ابْنا عليٍّ المذكورِ.

فاستَوطَن عبدُ المؤمنِ مدينةَ مَرَّاكُشَ، واستقرَّ مُلْكُه بتلك النواحي، وظفِر في سنةِ ثلاثٍ وأربعينَ بدَكّالَةَ وهي قبيلةٌ نحوُ مائتَيْ ألفِ راجلٍ وعشْرينَ ألفَ فارسٍ مُقاتِلٍ من الشُّجعانِ الأبطالِ، فقتَل منهم خلقًا كثيرًا، وجمًا غفيرًا، وسبَى ذَراريَّهم وغنِم أموالَهم حتى إنَّه ابْتيعَتِ الجاريةُ الحسناءُ بدَراهمَ معدودةٍ، وقد رأَيتُ لبعضِهم في سيرةِ ابنِ تُومَرْتَ هذا مجلَّدًا في أحْكامه وأيامه، وكيفَ تملَّكَ بِلادَ المغربِ، وما كان يتَعاطَاه من الأشياءِ التي تُوهِمُ أنَّها أحوالٌ بَرَّةٌ، وهي مَحَالٌ لا تصدُرُ إلا عن فَجَرَةٍ، وما قتَل من الناسِ وأزهقَ من الأنْفُسِ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ بنِ السِّيبيِّ أبو البَرَكاتِ، أسنَد الحديثَ وكان يُعلِّمُ أولادَ الخليفةِ المُستظهِرِ، فلمَّا صارَتِ الخلافةُ إلى المسترشِدِ ولَّاه المَخْزَنَ، وكانَ كثيرَ الأموالِ والصدَقاتِ، يتعاهَدُ أهلَ العلمِ، وخلَّف مالاً كثيرًا حُرِزَ بمائةِ ألفِ دينارٍ، أوْصَى منه بثلاثينَ ألفَ دينارٍ لمَكَّةَ والمدينةِ، وكانت وفاتُه في هذه السنة عن ستٍّ وخمسينَ سنةً وثلاثةِ أشهرٍ، وصلَّى عليه الوزيرُ أبو عليِّ بنُ صَدَقَةَ، ودُفِن بابِ حربٍ.

عبدُ الرَّحيمِ بنُ عبدِ الكريمِ بنِ هَوازِنَ، أبو نَصْرٍ القُشَيْرِيُّ، قرأَ على أبيه وإمامِ الحَرَمَيْنِ، وروَى الحديثَ عن جماعةٍ، وكان ذا ذكاءٍ وفطنةٍ، وله خاطِرٌ حاضرٌ جريءٌ، ولسانٌ ماهرٌ فصيحٌ، وقد دخَل بغدادَ فوعَظ بها، فوقَع بسبَبِه فتنةٌ بينَ الحنابلةِ والشافعيَّةِ، فحُبِس بسببِها الشَّريفُ أبو جَعْفرٍ ابنُ أبي

موسَىٰ، وأُمر ابنُ القُشَيريِّ بالخروجِ من بغدادَ لإطفاءِ الفتنة، فعادَ إلىٰ بلَدِه، كانت وفاتُه في هذه السنة.

عبد العزيز بنُ عليِّ بن عمرَ، أبو حامد الدِّيْنَوَرِيُّ، كان كثيرَ المالِ والصدقاتِ، ذا حِشْمةٍ ومُروءةٍ ووَجاهَةٍ عندَ الخليفةِ، وقد روَىٰ الحديثَ ووَعظَ، وكان مليحَ الإيرادِ حُلْوَ المنطقِ، وكانت وفاتُه بالرَّيِّ في هذه السنةِ.

ثم دخلت سنة خمس عشرة وخمسمائة

فيها: أقطَع السلطانُ محمودٌ الأميرَ إيلْغازي مدينةَ ميَّافَارِقِينَ، فبَقِيتْ في يَدِ أولادِه إلىٰ أن أخَذَها صلاحُ الدينِ يوسُفُ بنُ أيوبَ، في سنة ثمانين.

وفيها: أقطَع أيضًا آق سُنْقُرَ البُرسُقيَّ مدينةَ المَوْصِلِ، وأمَرَه بقتالِ الفرنْجِ.

وفيها: حاصَرَ بَلَكُ بنُ بَهْرامَ - وهو ابنُ أخي إيلْغَازي - مدينةَ الرُّهَا، فأسَرَ ملكَها جُوسلِينَ الفرنْجيَّ وجماعةً من رءوسِ أصْحابِه وسجَنَهم بقلعةِ خَرْتَبِرْتَ.

وفيها: هبَّتْ ريحٌ سوداءُ بمصرَ، فاستَمرَّتْ ثلاثةَ أيامٍ، فأهلَكَتْ خلقًا كثيرًا من الناسِ والدوابِّ والأنعامِ.

وفيها: كانتْ زَلْزَلَةٌ عظيمةٌ بالحجازِ، فتَضَعْضَعَ بسببِها الرُّكْنُ اليَمانيُّ، زادَه اللَّهُ شرفًا، وتهدَّم بعضُه، وتهدَّم شيءٌ من حَرَمِ رسولِ اللَّهِ ﷺ بالمدينة النبويةِ.

وفيها: ظهَر رجلٌ علَويٌّ بمكةَ، كان قد اشْتَغَل بالنِّظاميَّةِ في الفقهِ وغيرِه، وأمَر بالمعْروفِ ونهَىٰ عن المنكرِ، فاتَّبَعه ناسٌ كثيرٌ، فنَفاه صاحِبُها ابنُ أبي هاشمٍ إلىٰ البحرينِ.

وفيها: احتَرَقَتْ دارُ السلطانِ بأصْبهانَ، فلم يَبْقَ فيها شيءٌ من الأثاثِ والفراشِ والجواهرِ والذهبِ والفضةِ سوَىٰ الياقُوتِ الأحمرِ، فإنَّا للَّهِ وإنَّا إليه راجعون.

وقبلَ ذلك بأُسبوعٍ احْتَرَقَ جامعُ أصْبهانَ أيضًا، وكان جامعًا عظيمًا؛ فيه أخْشابٌ تساوي ألفَ ألف دينارٍ، وفي جملةِ ما احْتَرَق فيه خمسُمائةِ مصحفٍ، من جُملَتِها مصحفٌ بخَطِّ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ، رضِي اللَّهُ عنه، فإنَّا لله إليه وإنَّا راجعونَ.

وفي شعبانَ جلَس الخليفةُ المُسترشدُ باللَّهِ في دارِ الخلافة في أُبَّهَةِ الخلافة؛ البُرْدةُ علىٰ كتفَيه والقَضيبُ بينَ يدَيْه، وجاءَ الأخَوانِ الملكانِ محمودٌ ومسعودٌ فوَقَفا بينَ يدَيْه، وقبَّلا الأرضَ، فخلَع علىٰ محمودٍ سبعَ خِلَعٍ وطَوْقًا وسوارَيْنِ وتاجًا، وأُجلِسَ علىٰ كُرسيٍّ ووَعَظَه الخليفةُ، وتلا عليه قولَه تعالَىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. وأمَره بالإحْسانِ إلىٰ الرَّعايا، وعقَد له الخليفةُ لواءَيْن بيدِه، وقلَّده المُلْكَ، وخرجا من بينَ يدَيْه مُطاعَيْن معظَّمَيْن، والجيشُ بينَ أيْديهِما إلىٰ دارِهما في أُبَّهةٍ عظيمةٍ جدًّا. وحجَّ بالناسِ نَظَرٌ الخادمُ.

وقد تُوُفِّي فيها: ابنُ القطَّاع اللُّغَوِيُّ، أبو القاسم عليُّ بنُ جَعْفَرِ بنِ عليِّ بنِ محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ الحسينِ بنِ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ زيادةِ اللَّهِ بنِ محمدِ بنِ الأغلبِ السعديُّ الصِّقِلِّيُّ، ثم المِصريُّ اللُّغويُّ، مصنِّفُ كتابِ «الأفعال»، الذي برَّزَ فيه على ابنِ القوطيَّةِ، وله مصنَّفاتٌ كثيرةٌ، وقد قدم مِصرَ في حدودِ سنة خمسمائة لمَّا أشرفَتِ الفرنْجُ على أخذِ صِقِلِّيَةَ، فأكرَمه المصريُّون وبالَغوا في إكرامه، وكان يُنْسَبُ إلى التساهُلِ في الرِّوايةِ، وله شعرٌ جيِّدٌ قويٌّ، أورَد له القاضي ابنُ خَلِّكانَ منه قطعةً جيدةً، وقد جاوزَ الثمانينَ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

أبو القاسم شاهنشاه، الأفضلُ بنُ أميرِ الجيوشِ بدر الجَمَاليُّ، مُدَبِّرُ دولة الفاطميِّين بمصرَ، وإلى أبيه تُنسَبُ قَيْساريَّةُ أميرِ الجيوشِ، والعامَّةُ تقولُ: مَرْجيوشُ. وأبوه باني الجامع الذي بثَغْرِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ بسوقِ العَطَّارين، ومَشْهَدِ الرأسِ بعَسْقَلانَ أيضًا، وكان أبوه نائبَ المُسْتَنْصِرِ على مدينةِ صُورَ، وقيلَ: على عكَّا. ثم استَدْعاه إليه في فصلِ الشتاء، فركِبَ البحرَ، فاسْتَنابَه على ديارِ مصرَ، فسَدَّدَ الأمورَ بعدَ فسادِها، وماتَ في سنة ثمانٍ وثمانينَ وأربعمائةٍ، وقامَ في الوزارةِ بعدَه ولَدُه الأفضلُ هذا، فكان كأبيه في الشَّهامة والصَّرامَة.

ولمَّا ماتَ المستنصرُ أقامَ المُسْتَعْلِيَ واستَمرَّتِ الأمورُ على يَدَيْه، وكان عادلاً، حسنَ السيرةِ، موْصُوفًا بجودَةِ السريرَةِ. فاللَّهُ أعلمُ.

ضربَه فِداوِيٌّ وهو راكبٌ فقتَله في رمضانَ من هذه السنةِ، عن سبْعٍ وخمسينَ سنةً، وكانتْ إمارتُه من ذلك بعدَ أبيه ثمانٍ وعشرين سنةً.

وكانتْ دارُه دارَ الوَكالَةِ اليومَ بمصرَ، وقد وُجِدَت له أموالٌ عظيمةٌ جدًّا، تَفُوقُ العدَّ والإحْصاءَ من القناطيرِ المُقَنْطَرةِ من الذهبِ والفضةِ والخيلِ المُسَوَّمَةِ والأنْعام والحَرْثِ، والنفائسِ، فانْتَقَل ذلك كلُّه إلى الخليفةِ الفاطميِّ فجُعِل في خزائنه، وذهَب جامِعُه إلى سواءِ الحسابِ على الفَتيلِ من ذلك والنقيرِ والقطْميرِ. واعْتاضَ عنه الخليفةُ بأبي عبدِ اللَّهِ البَطائحيِّ، ولُقِّبَ المأمونَ.

قال القاضي ابنُ خَلِّكانَ: تركَ الأفْضَلُ من الذهبِ العَيْنِ ستَّمائةَ ألفِ ألفِ دينارٍ، ومن الدراهمِ مائتين وخمسين إرْدَبًّا، وسبعين ألفَ ثوبِ ديباجٍ أطْلَسَ، وثلاثين راحلةَ أحْقاقِ ذهبٍ عراقيٍّ، ودواةَ ذهبٍ فيها جوهرةٌ باثْنَيْ عشرَ ألفَ دينارٍ، ومائةَ مِسْمارِ ذهبٍ زِنَةُ كلِّ مِسْمارٍ مائةُ مِثْقالٍ، في عَشَرَةِ مَجالسَ، على كلِّ مِسْمارٍ منْديلٌ مشدودٌ بذَهَبٍ، كلُّ منديلٍ على لونٍ من الألوانِ من ملابسِه، وخمْسَمائةِ صندوقٍ كسوةٍ للُبْسِ بدَنِه. قال: وخلَّفَ من الرقيقِ والخيْلِ والبغالِ والمراكبِ والمِسْكِ والطِّيبِ والحلي ما لا يعلَمُ قدْرَه إلا اللَّهُ، عزَّ وجلَّ، وخلَّف من البَقَرِ والجواميسِ والغنَمِ ما يُسْتَحْيَى من ذكرِ عدِّه، وبلَغ ضَمانُ ألبانِها في السنةِ ثلاثينَ ألفَ دينارٍ، وترَك صُندوقَيْنِ كبيرَيْن فيهما إبَرُ ذهبٍ برسْمِ النساءِ.

عبدُ الرزَّاقِ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ عليِّ بنِ إسحاقَ، الطُّوسيُّ، ابنُ أخي نظامِ المُلْكِ، تفقَّهَ بإمامِ الحرمَيْنِ، وأفتَىٰ ودرَّس وناظَر، ووَزَر للملكِ سَنْجَرَ، وتُوُفِّي في هذه السنة.

خاتُونُ السفريَّةُ حَظِيَّةُ السلطانِ مَلِكْشاه، وهي أمُّ السلطانَيْنِ محمدٍ وسَنْجَرَ، كانتْ كثيرةَ الصدقَةِ والإحسانِ إلى الناسِ، لها في كلِّ سنةٍ سبيلٌ يخرُجُ مع الحُجَّاجِ، وفيها دينٌ وخيرٌ، ولم تزَلْ تبْحَثُ حتى عرَفتْ مكانَ أمِّها وأهْلِها، فبعثَتِ الأموالَ الجزيلةَ حتى استَحْضَرَتهم. ولَمَّا قدمَتْ عليها أمُّها كان لها عنها أربعون سنةً لم ترَها، فأحبَّتْ أنْ تستَعْلِمَ فَهْمَها، فجلَسَتْ بينَ جَواريها، فلمَّا سمعتْ أمُّها كلامَها عرَفَتْها، فقامَتْ إليها فاعْتَنَقا وبكَيَا، ثم أسلَمت أمُّها على يدَيْها، جزَاها اللَّهُ خيراً، وأحسَنَ إليها. وقد تفرَّدَتْ بولادةِ مَلِكَيْنِ في دولةِ الأتراكِ والعجَمِ، ولا يُعْرَفُ لهذا نظيرٌ إلا اليسيرُ؛ من ذلك: وَلاَّدَةُ بنتُ العبَّاسِ ولَدتْ لعبدِ الملكِ الوليدَ وسليمانَ، وشاهفرندُ ولَدَتْ للوليدِ يزيدَ وإبراهيمَ وَلِيَا الخلافةَ أيضًا، والخَيْزُرانُ ولَدَتْ للمهديِّ الهاديَ والرَّشيدَ.

الطُّغْرَائيُّ ناظِمُ «لاميَّةِ العجَمِ»، الحسينُ بنُ عليِّ بنِ عبدِ الصَّمَدِ، مُؤيِّدُ الدينِ الأصْبهانيُّ، العميدُ فخرُ الكُتَّابِ المُنْشِئُ الشاعرُ، المعْروفُ بالطُّغْرَائيِّ، وقد وَلِيَ الوزارةَ بإرْبِلَ مدةً، أوْرَد له القاضي ابنُ خَلِّكانَ قصيدتَه اللاميَّةَ التي ألَّفَها في سنةِ خمسٍ وخَمْسمائةٍ ببغدادَ، يشرَحُ فيها أحوالَه وأمورَه، وتُعْرَفُ بلاميَّةِ العجَمِ، أوَّلُها:

أصالةُ الرأيِ صانَتْني عنِ الخَطَلِ ... وحِلْيَةُ الفضْلِ زانَتْني لدَى العَطَلِ
مجْدِي أخيرًا ومجْدِي أوَّلاً شَرَعٌ ... والشمسُ رَأْدَ الضُّحَى كالشمسِ في الطَّفَلِ
فيمَ الإقامةُ بالزَّوْراءِ لا سكَني ... بها ولا ناقَتي فيها ولا جَمَلي

وقد سرَدَها القاضي ابنُ خَلِّكانَ بكَمالِها، وأوْرَدَ له غيرَ ذلك من الشعرِ أيضًا.

ثم دخلت سنة ست عشرة وخمسمائة

في المحرَّمِ منها رجَع السلطانُ طُغْرُلُ إلى طاعةِ أخيه محمودٍ، بعدَما كان قد خرَج عنها، وأخَذ بلادَ أذْرَبِيجانَ.

وفيها: أقْطَعَ السلطانُ محمودٌ مدينةَ واسطٍ وأعمالَها لآقْ سُنْقُرَ مَضافًا إلى المَوْصِلِ، فسَيَّرَ إليها عِمادَ الدينِ زَنْكِي بنَ آقْ سُنْقُرَ، فولِيَها وأحسنَ السيرةَ بها، وأبانَ عن حزْمٍ وكفايةٍ.

وفي صفَرٍ منها قُتِلَ وزيرُ السلطانِ محمودٍ أبو طالبٍ السُّمَيْرَمي، قتَله باطنيٌّ، وكان قد برَز للمسيرِ إلى هَمَذَانَ، وكانتْ قد خرَجَتْ زوجتُه في مائةِ جاريةٍ بمراكبِ الذهبِ، فلمَّا بلغَهُنَّ قتْلُه رجَعْنَ حافياتٍ حاسراتٍ، قد هُنَّ بعدَ العزِّ. واستَوْزَرَ السلطانُ بعدَه شمسَ المُلْكِ عثمانَ بنَ نظامِ المُلْكِ.

وفيها: اتَّقَع آقْ سُنْقُرُ البُرْسُقيُّ ودُبَيسُ بنُ صَدَقَةَ، فهزَمَه دُبيسٌ، وقتَل خلقًا من جيشِه، فاستَوْثَق

السلطانُ **منصورَ** بنَ صدقةَ أخا دُبَيسٍ وولَدَه، ورفَعَهما إلىٰ قلعةٍ، فعندَ ذلك آذَىٰ دُبَيسٌ تلك الناحيةَ ونهَب **البلادَ**، وجَزَّ شعْرَه ولبِس السَّوادَ، ونَهَب أموالَ الخليفةِ أيضًا مِن البلادِ، فنُودي في بغدادَ للخروجِ **لقتالِه**، وبرَز الخليفةُ في الجيشِ وعليه قَبَاءٌ أسْوَدُ وعمامةٌ سوداءُ وطَرْحَةٌ، وعلىٰ كتفَيْه البُرْدَةُ وبَيدِه **القَضِيبُ**، وفي وَسَطِه مِنْطَقَةُ حريرٍ صِينيٍّ، ومعه وزيرُه نظامُ الدينِ أحمدُ بنُ نظامِ المُلْك، ونقيبُ **النقَباءِ عليُّ** بنُ طِرادٍ الزَّيْنَبِيُّ وشيخُ الشيوخِ صدرُ الدينِ بنُ إسماعيلَ، وتلقَّاه آقْ سُنْقُرُ **البُرْسُقيُّ ومعه الجيشُ**، فقبَّلُوا الأرضَ، ورتَّبَ البُرْسُقيُّ الجيشَ، ووَقَف القُرَّاءُ بينَ يدَيِ الخليفةِ، وأقبَل **دُبَيسٌ**، وبينَ يَدَيْه الإماءُ يَضْرِبْنَ بالدُّفوفِ، والمَخانيثُ بالمَلاهي، والْتقَىٰ الفريقانِ، وقد شهَر الخليفةُ سيفَه وكبَّر واقْترب مِن المعركةِ، فحمَل عَنْبَرُ بنُ أبي العَسْكَرِ علىٰ مَيْمَنَةِ الخليفةِ، فكسرَها وقتَل أميرًا، ثم حمَل ثانيةً فكشَفَهم كالأُولىٰ، فحمَل عليه عمادُ الدينِ زَنْكِي بنُ آقْ سُنْقُرَ، فأسَر عَنْبَرَ وأسَر معه بُديلَ بنَ زائدَةَ، فانْهزَمَ عسكَرُ دُبَيسٍ وألقَوا أنفُسَهم في الماءِ، فغَرِقَ كثيرٌ منهم، فأمَر الخليفةُ بضَرْبِ أعْناقِ الأُسارَىٰ صَبْرًا بينَ يدَيْه، وحَصَلَتْ نِساءُ دُبيسٍ وسَرارِيُّه في السَّبْيِ، وعادَ الخليفةُ إلىٰ بَغْدادَ فدخَلها في يومِ عاشُوراءَ مِن السَّنَةِ الآتيةِ وكان يومًا مشهودًا، وكانت غَيْبَتُه ستَّةَ عشَرَ يومًا، وأمَّا دُبيسٌ فإنَّه نجَا بنفْسِه وقصَد غُزَيَّةَ فصَحِبَهم إلىٰ البَصْرَةِ فدَخلَها ونهَبَها وقتَل أميرَها، ثم خافَ مِن البُرْسُقيِّ فخرَج عنها وسارَ إلىٰ البَرِّيَّةِ والْتَحَق بالفِرنْجِ، وحضَر معه حِصارَ حَلَبَ، ثم فارَقَهم والْتَحقَ بالملكِ طُغْرُلَ أخي السلطانِ محمودٍ.

وفيها ملَكَ السلطانُ حُسامُ الدينِ تَمُرْتاشُ بنُ إيلْغازي بنِ أُرْتُقَ قلْعَةَ مارِدِينَ بعدَ وفاةِ أبيه، وملَكَ أخوه سُلَيمانُ ميَّافَارِقِينَ.

وفيها: ظهَر مَعْدِنٌ نحاسٍ بديارِ بَكْرٍ قريبًا مِن قلْعَةِ ذي القَرْنَيْن.

وفيها: دخَل جماعة مِن الوعَّاظِ إلىٰ بغدادَ فوعَظُوا بها، وحصَل لهم قَبُولٌ تامٌّ مِن العوامِّ.

وحجَّ بالناسِ نَظَرٌ الخادمُ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

عبدُ اللَّه بنُ أحمدَ بنِ عمرَ بنِ أبي الأشْعث، أبو محمدٍ السَّمَرْقَنْديُّ، أخو أبي القاسمِ، وكان أبو محمدٍ هذا أحدَ حُفَّاظِ الحديث، وقد زُعِمَ أنَّ عندَه ما ليْسَ عندَ أبي زُرْعَةَ الرَّازِيِّ، صحب الخطيب مُدةً، وجمَع وألَّفَ وصنَّفَ ورحَل إلىٰ الآفاقِ، وكانت وفاتُه يومَ الإثنينِ الثانِي عشَرَ مِن ربيعِ الأوَّلِ مِن هذه السنةِ عن ثمانين سنةً.

عليُّ بنُ أحمدَ، أبو طالب السُّمَيْرَميُّ؛ نسبةً إلىٰ قريةٍ بأصْبهانَ، كان وزيرَ السلْطانِ محمودٍ، وكان مُجاهرًا بالظُّلْمِ والفسْقِ، وأحْدَثَ علىٰ الناسِ مُكوسًا، وجدَّدَها بعدَما كانت قد أُزِيلَتْ مِن مُدةٍ مُتَطاوِلَةٍ، وكان يقولُ: قدِ اسْتَحْيَيْتُ مِن كثرةِ الظُّلْمِ لمَن لا ناصِرَ له، وكثرةِ ما أحْدَثْتُ مِن السُّنَنِ السَّيِّئَة. ولَمَّا عزَم علىٰ الخُروجِ إلىٰ هَمَذانَ أحضَر المنجِّمين فضربُوا له تحتَ رمْلٍ لساعةِ خُروجِه ليكونَ أسْرَعَ

لعوده، فخرج في تلك الساعة، وبينَ يديْه السيوفُ المسلولةُ، والمماليكُ بالعُدَد الباهرة، ومع هذا جاءَ باطنيٌّ فضربه فقتَلَه في الساعة الراهنة بعدما ضربه غيرَ ما مرة في مَقاتِله ثم ذَبَحه كما تُذْبَحُ الشاةُ، والمماليكُ يضربون بالسيوف والنُّبال في ظهره ولا يبالي بشيءٍ من ذلك حتى قتَلَه ثم مات بعدَه، ورجَع نساؤه، حاسراتٍ عن وُجوهِهنَّ، قد أبْدَلَهُنَّ اللَّهُ الذلَّةَ بعدَ العِزَّةِ، والخوفَ بعدَ الأمْنِ، وكان ذلك يومَ الثلاثاء سَلْخَ صَفَرٍ، وما أشْبَهَ حالَهنَّ بقول أبي العتاهيَة في الخَيْزُرانِ وجواريها حينَ ماتَ المَهْديُّ:

رُحْنَ في الوَشْي وأصبحن عليهنَّ المُسُوحُ ... كُلُّ نطَّاحٍ منَ الدهرِ له يومٌ نَطُوحُ
لتَموتَنَّ ولو عُمِّرْتَ ما عُمِّرَ نُوحُ ... فعلى نفسك نحْ إن كنتَ لابُدَّ تنوحُ

الحريريُّ صاحبُ المَقَامَات، القاسمُ بنُ عليِّ بن محمد بن عثمانَ، فخرُ الدولة، أبو محمد الحريريُّ البصريُّ(١)، مؤلِّفُ المقاماتِ التي سارَتْ بفصاحتِها الرُّكْبانُ، وكاد يُربِي فيها على سَحْبانَ، وُلِدَ سنةَ ستٍّ وأربَعينَ وأربَعمائةٍ، وسمع الحديثَ واشْتَغَل باللغة والنحوِ، وصنَّفَ في ذلك كلِّه، وفاقَ أهلَ زمانه، وبرزَ على أقْرانه، وأقامَ ببغدادَ وعمِل صناعةَ الإنْشاءِ مع الكُتَّابِ في بابِ الخليفةِ، ولم يكُنْ ممَّنْ تُنْكَرُ بديهتُه ولا تتعَكَّرُ فِكْرتُه وقريحتُه.

قال ابنُ الجوزيِّ: سمع الحديثَ وحدَّث وقرَأَ الأدَبَ واللغةَ، وفاقَ أهلَ زمانه بالذكاء والفِطْنة والفصاحة وحُسْنِ العبارة، وصنَّفَ المقاماتِ المعْروفةَ، مَن تأمَّلَها عرَف قدرَ مُنْشئِها، تُوُفِّي في هذه السنة بالبَصْرَة. وقد قيل: إنَّ أبا زَيْدٍ والحارثَ بنَ هَمَّامٍ لا وُجودَ لهما، وإنَّما جعَل هذه المقامات من باب الأمْثال، ومنهم مَن يقولُ: أبو زَيْدٍ المطهَّرُ بنِ سَلاَّرَ السَّرُوجِيُّ كان له وجودٌ، وكان فاضلاً، وله علمٌ ومعرفةٌ باللغة. فاللَّهُ أعلمُ. وذكَر القاضي ابنُ خَلِّكانَ أن أبا زَيْدٍ كان اسمُه المطهَّرُ بنَ سَلاَّرَ، وكان بَصَريًّا فاضلاً في النحوِ واللغة، وكان يشتغِلُ على الحريريِّ بالبَصْرَة، وأمَّا الحارثُ بنُ همَّامٍ فإنَّما عنَى به نفسَه، لمَا جاءَ في الحديث: «كلُّكُم حَارِثٌ، وكُلُّكُمْ هَمَّامٌ» - كذا قال القاضي. وإنَّما اللفظُ المحْفوظُ: «أصْدَقُ الأسْمَاء حَارِثٌ وهَمَّامٌ» - لأنَّ كلَّ أحدٍ إمَّا حارثٌ وهو الفاعلُ، أو هَمَّامٌ من الهمِّ وهو العزمُ والخطْرةُ، وذكَرَ أنَّ أوَّلَ مَقامَةٍ عمِلَها الثامنةُ والأربعونَ وهي الحراميةُ، وكان سبَبَها أنَّه دخَل عليهم في مسْجدِ البَصْرَة رجلٌ ذُو طِمْرَيْنِ فصيحُ اللسانِ، فاستَسْمَوْه فقالَ: أبو زَيْدٍ السَّرُوجِيُّ، فعمِلَ فيه هذه المقامةَ، فأشارَ عليه وزيرُ الخليفةِ المسترشدِ، وهو جلالُ الدينِ عميدُ الدولة أبو عليٍّ الحسَنُ بنُ أبي العزِّ عليِّ بن صَدَقَةَ.

قال ابنُ خَلِّكانَ: كذا رأيتُه في نُسْخَة بخطِّ المصنِّفِ، على حاشيَتِها، وهذا أصحُّ ممَّن قال: هو الوزيرُ شرَفُ الدينِ أبو نَصْرٍ أنوشُرْوانُ بنُ خالدِ بنِ محمدٍ القَاشَانيُّ، وهو وزيرُ المسترشدِ أيضًا،

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٤٦٠ - ٤٦٥).

ويقالُ: إنَّ الحريريَّ كان قد عملَها أربعينَ مقامةً، فلمَّا قدمَ بغدادَ ولم يُصدَّقْ في ذلك، وامْتَحنه بعضُ الوزراءِ فجلَس ناحيةً وأخَذ دواةً وقرطاسًا فلم يتيسَّرْ له حتى عادَ إلى بلده فعملَ عشرةً أخرى فأتمَّها بها، وقد قال فيه أبو القاسم عليُّ بنُ أفلَحَ الشاعرُ، وكان من جملة المُكذِّبِينَ له فيها:

شيخٌ لنا من ربيعةِ الفَرَسْ … أنطقَهُ اللَّهُ بالمَشَانِ كما
رَمَاهُ وَسْطَ الديوانِ بالخَرَسْ … ينتفُ عُثْنُونَه من الهَوَسْ

ومعنى قوله: بالمَشَانِ هو مكانٌ بالبَصْرَة، ويُذكرُ أنَّه كان صَدْرَ ديوانِ المَشانِ، ويقالُ: إنَّه كان دميمَ الخَلْقِ، فاتَّفقَ أنَّ رجلاً رحَل إليه، فلمَّا رآه ازْدَراه، ففهِمَ الحريريُّ ذلك، فانشأ يقولُ:

ما أنتَ أوَّلُ سارٍ غرَّهُ قمرٌ … فاخْتَرْ لنفسكَ غيري إنَّني رَجلٌ
ورائدٌ أعجبَتْهُ خُضْرةُ الدِّمَنِ … مِثْلُ المُعَيْدِي فاسْمَعْ بي ولا تَرَنِي

ويقالُ: إنَّ المعيديَّ اسمُ حصانٍ جوادٍ في العرب، دميمِ الخلقة. واللَّهُ أعلمُ.

البَغَويُّ الحُسَيْنُ بنُ مَسْعُودِ بنِ محمد، أبو محمد البَغَويُّ،[1] صاحبُ «التفسير» و«شرح السُّنَّة» و«التَّهذيب» في الفقه، و«الجمع بينَ الصَّحيحَيْن» و«المصابيح» في الصِّحاح والحِسان، وغيرِ ذلك، اشتغَل على القاضي حُسَيْنٍ، وبَرَعَ في هذه العلُوم، وكان علاَّمَةَ زمانه فيها، وكان دَيِّنًا وَرِعًا زاهدًا عابدًا صالحًا. تُوُفِّي في شوَّالٍ من هذه السنة وقيلَ: في سَنَة عَشْرٍ. فاللَّهُ أعلمُ. ودُفِنَ مع شيخه القاضي حُسَيْنٍ بالطَّالَقَان. واللَّهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وخمسمائة

في عاشُوراءَ عادَ الخليفةُ من الحِلَّة بعدَ أن كسَر جيشَ دُبَيْسٍ ومزَّق شملَه وقطَع وصْلَه في أوَّلِ هذا الشهر، ثم عاد إلى بلده بَغْدادَ مؤيَّدًا منصورًا، ورجَع إلى أهله مسرورًا.

وفيها: عزَم الخليفةُ على طُهورِ أولادِه وأولادِ أخيه، وكانوا اثْنَيْ عشَرَ، فزُيِّنَتْ بَغْدادُ سبعةَ أيامٍ بزينةٍ لم يُرَ مثلُها، وأظهَر الناسُ من الحَلْي والمصاغ والثياب ما لم يُرَ مثلُه.

وفي شعبانَ قدِمَ أسعدُ الميهَنيُّ مُدرِّسُ النِّظاميَّة ببَغْدادَ ناظرًا عليها، وصُرِفَ الباقَرْحيُّ عنها، فوقَع بينَه وبينَ بعضِ الفقهاءِ بسببِ أنَّه قطَع منهم جماعةً، واكْتَفَى بثمانينَ طالبًا منهم، فلم يَهُنْ ذلك على كثيرٍ منهم.

وفيها: سارَ السلطانُ محمودٌ إلى بلادِ الكُرْجِ، وقد وقَع بينَهم وبينَ القَفْجاقِ خُلْفٌ، فقاتَلهم فهزَمَهم، وللَّه الحمدُ، ثم عادَ إلى هَمَذانَ مؤيَّدًا منصورًا.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٤٣٩ - ٤٤٣).

وفيها: ملَك طُغْتكينُ صاحبُ دِمَشْقَ مدينةَ حَمَاةَ بعدَ وفاة صاحبِها محمودِ بنِ قَراجا، وقد كان ظالمًا غاشمًا.

وفيها: عُزِلَ نقيبُ العلَويِّينَ، وهُدِمتْ دارُ عليِّ بنِ أفْلَحَ؛ لأنَّهما كانا عينًا لدُبَيْسٍ، وأُضيفَ إلى عليِّ بنِ طِرادٍ الزَّيْنَبِيِّ نقابةُ العلَويِّينَ مع نقابةِ العباسيِّينَ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمد بنِ عليِّ بنِ يحيى بنِ صَدَقَةَ التَّغْلِبيُّ، المعروفُ بابنِ الخيَّاط، الشاعرُ الدِّمَشْقِيُّ، الكاتبُ الماهرُ، له ديوانُ شعرٍ مشهورٌ. قال الحافظُ ابنُ عساكرَ: خُتِمَ به ديوانُ الشعراءِ بدِمشقَ وكان شاعرًا، ماهرًا، محسنًا، مجيدًا، مكثرًا، حُفَظَةً لأشعارِ المتقدِّمين وأخبارِهم. وأوْرَدَ له القاضي ابنُ خلِّكانَ مِن شعرِه الرائقِ قِطَعًا، مِن ذلك قصيدتُه التي لو لم يكُنْ له سِواها لكفته، وهي التي يقولُ في أوَّلِها:

خُذَا من صَبَا نجْد أمانًا لقَلْبِه ... فقدْ كادَ ريَّاها يطيرُ بلُبِّه

وإيَّاكُما ذاك النَّسيمَ فإنَّه ... متى هبَّ الوَجْدُ أيْسَرَ خَطْبِه

خليلَيَّ لو أحْبَبْتُما لَعَلِمْتُما ... محَلَّ الهوَىٰ من مُغْرَمِ القلب صَبِّه

يذَكَّرُ والذِّكْرَىٰ تَشُوقُ وذو الهَوىٰ ... يَتُوقُ ومَن يَعلَقْ به الحُبُّ يُصْبِه

غرامٌ على يأسِ الهوَىٰ ورَجائه ... وشوقٌ على بُعدِ المَزارِ وقُرْبِه

وفي الرَّكْبِ مَطْوِيُّ الضلُوعِ على جَوًى ... متَى يَدْعُهُ داعي الغَرامِ يُلَبِّه

إذا خطَرَتْ مِن جانبِ الرملِ نفْحَةٌ ... تضَمَّنَ منها داؤُه دونَ صَحْبِه

ومحتجب بين الأسنَّة مُعْرِض ... وفي القلب من إعْراضه مثلُ حُجْبِه

أغارُ إذا آنَسْتُ في الحيِّ أنَّةً ... حذارًا وخَوفًا أن تكونَ لحُبِّه

وقد كانت وفاتُه في رمضانَ سنةَ سبعَ عشْرَةَ وخمسمائةٍ عن سَبْعٍ وستِّينَ سنةً بدمشقَ.

ثم دخلت سنة ثماني عشْرةْ وخمسمائة

فيها: ظهَرَت الباطنيَّةُ بآمِدَ فقاتَلهم أهلُها، فقتَلُوا منهم سبْعَمائة، ولله الحمدُ.

وفيها: رُدَّت الشِّحْنَكيَّةُ ببَغْدادَ إلى سعدِ الدولة يَرَنْقُشَ الزَّكَوِيِّ، وسُلِّمَ إليه منصورُ بنُ صَدَقَةَ أخو دُبَيسٍ ليُسَلِّمَه إلى دار الخلافة. وورَدَ الخبَرُ بأنَّ دُبَيْسًا قد الْتجَأَ إلى طُغْرُلَ وقد اتَّفَقا على أخذِ بغدادَ، فأخَذَ الناسُ في التأهُّبِ لقتالِهما، وأُمِرَ آقْ سُنْقُرُ البُرْسقيُّ بالعودِ إلى المَوْصِلِ، فاستَنابَ على البصرةِ عمادَ الدين زَنْكيِّ بنَ آقْ سُنْقُرَ.

وفي ربيعٍ الأوَّلِ دخَلَ الملكُ حسامُ الدين تَمُرْتاشُ بنُ إيلْغازي بنِ أُرتُقَ مدينةَ حَلَبَ، وقد ملَكَها بعدَ ملكِها بَلَكَ بنِ بَهرامَ بنِ أُرتُقَ، وكان قد حاصَر قلْعَةَ مَنْبِجَ، فجاءَه سَهْمٌ في حلقِه فمات، فاستَنابَ تَمُرْتاشَ بحَلَبَ، ثم عادَ إلى مارِدينَ فأُخِذَتْ منه بعدَ ذلك، أخَذها آقْ سُنْقُرُ البُرْسُقيُّ

مضافةً إلى المَوْصِلِ.

وفيها: أرسَلَ الخليفةُ القاضي أبا سَعْدٍ الهَرَوِيَّ؛ ليَخْطُبَ له ابنةَ السلطانِ سَنْجَرَ، وشرَعَ الخليفةُ في بناءِ دارٍ على حافَّةِ دِجْلَةَ لأجْلِ العروسِ. وكمَل بناءُ المُثَمَّنةِ في هذه السنةِ.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ جمالُ الدولةِ، إقْبالٌ المُسْتَرْشِدِيُّ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

أحمدُ بنُ عليِّ بنِ بَرْهانَ أبو الفتحِ، ويُعْرَفُ بابنِ الحَمَّاميِّ، تفقَّه على أبي الوَفاءِ بنِ عَقيلٍ، وبرَعَ في مذهبِ الإمامِ أحمدَ، ثم نقَمَ عليه أصْحابُه أشياءَ، فحمَله ذلك على الانتقالِ إلى مذهبِ الشافعيِّ، فاشْتَغَل على الغَزَّاليِّ والشَّاشيِّ، وبرَعَ وسادَ وشَهِدَ عندَ القاضي الزَّيْنَبيِّ، ودرَّس في النِّظاميةِ شهرًا. وتُوُفِّي في جُمادَى الأولى، ودُفِنَ بباب أبْرَزَ.

عبدُ اللَّه بنُ محمدِ بنِ عليِّ بنِ محمدٍ، أبو جَعْفَرٍ الدَّامَغانيُّ، سمعَ الحديثَ، وشَهِدَ عندَ أبيه، ونابَ في رَبْعِ الكَرْخِ عن أخيه، ثم تَرَكَ ذلك كلَّه، ووَلِيَ حِجَابَةَ بابِ النوبي، ثم عُزِلَ، ثم أُعيدَ، وكان دَمِثَ الأخلاقِ، وكانت وفاتُه في جُمادَى الأولى من هذه السنةِ.

أحمدُ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ إبراهيمَ، أبو الفَضْلِ المَيْدانيُّ، صاحبُ كتابِ «الأمثالِ»، وليسَ مثلُه في بابِه، وله شعرٌ جيدٌ. قال ابنُ خَلِّكانَ: تُوُفِّيَ يومَ الأربعاءِ الخامسِ والعشرينَ من شهرِ رمضانَ من هذه السنةِ.

ثم دخلت سنة تسع عشرة وخمسمائة

فيها: قصدَ دُبَيْسٌ والسلطانُ طُغْرُلُ بغدادَ، ليأخُذَاها من يَدِ الخليفةِ، فلمَّا اقْتَربا منها برَزَ إليهما الخليفةُ في جَحْفَلٍ عظيمٍ والناسُ مُشاةٌ بينَ يدَيْه، وعليه السوادُ والبُرْدُ، وبيدِه القضيبُ، إلى أوَّلِ منْزِلَةٍ، ثم ركِبَ الناسُ بعدَ ذلك، فلمَّا أمسَتِ الليلةُ التي يقْتَتِلُون في صَبِيحتِها، ومن عزْمِهم أنْ ينْهَبُوا بغدادَ، أرْسَلَ اللَّهُ عليهم مطرًا عظيمًا، ومرِضَ السلطانُ طُغْرُلُ في تلك الليلةِ، فتَفرَّقَتْ تلك الجموعُ، ورجَعُوا على أعْقابِهم خائبينَ خائفينَ، والتَجأ دُبَيْسٌ، قبَّحه اللَّهُ، وطُغْرُلُ إلى الملكِ سَنْجَرَ، وسألاه الأمانَ من الخليفةِ والسلطانِ محمودٍ، فحبَسَ دُبَيْسًا في قلعتِه، ووَشَى واشٍ إلى الملكِ سَنْجَرَ أن الخليفةَ يريدُ أن يستأثِرَ بالمُلْكِ، وقد خرَج من بغدادَ الآنَ لقتالِ الأعْداءِ، فوقَع في نفْسِ السلطانِ سَنْجَرَ من ذلك شيءٌ، وأضْمَرَ سوءًا، مع أنَّه قد زوَّجَ ابْنَتَه من الخليفةِ.

وفيها: قُتِل القاضي أبو سعدٍ، محمدُ بنُ نَصْرِ بنِ منْصورٍ الهَرَوِيُّ بهَمَذانَ، قتلَتْه الباطِنيَّةُ، وكان قد أرْسَلَه الخليفةُ إلى السلطانِ سَنْجَرَ يَخْطُبُ ابْنَتَه.

وحجَّ بالناسِ نَظَرٌ الخادمُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

آقَ سُنْقُرُ البُرْسُقيُّ، صاحبُ المَوْصِل، قتَلَتْه الباطنيَّةُ في مقصورةِ جامعها في يوم جُمُعةٍ، وقد كان، رحمه اللَّهُ، تُركيًّا، جيِّدَ السيرة، صحيحَ السَّريرة، محافظًا على الصلوات في أوْقاتها، كثيرَ البرِّ والصَّدَقات والإحْسان إلى الرَّعايا، ولما تُوُفِّيَ قامَ في المُلْك بعدَه ولَدُه السلطانُ عزُّ الدين مسعودٌ، وأقَرَّه السلطانُ محمودٌ على عمله.

هلالُ بنُ عبد الرحمن بن شُرَيْح بن عمرَ بن أحمدَ بن محمد بن إبراهيمَ بن سُلَيمانَ بن بلال بن رباح، مُؤذِّن رسول الله ﷺ، رحَل وجالَ في البلاد، وكان شيْخًا جَهْوريَّ الصوت، حسنَ القراءة، طيِّبَ النَّغْمَة، تُوفِّي في هذه السنة بسَمَرْقَنْدَ، رحمه اللَّهُ تعالى.

القاضي أبو سَعْد الهَرَويُّ، محمدُ بنُ نَصْر بن منصور، أبو سعد الهَرَويُّ أحدُ مشاهير الفقهاء، والسادَة الكُبَراء، قتلَتْه الباطنيَّةُ بهَمَذانَ حينَ ذهَب في الرُّسلية عن الخليفة إلى السلطان سَنْجَرَ في خطبة ابنته. واللَّهُ أعلمُ.

سنة عشرين وخمسمائة من الهجرة النبوية

فيها: تراسَلَ السلطانُ محمودٌ والخليفةُ على السلطان سَنْجَرَ، وأنْ يكونا عليه، فلمَّا علمَ بذلك السلطانُ سَنْجَرُ كتب إلى ابن أخيه محمود ينْهاه عن ذلك، ويَسْتَميلُه إليه، ويحذِّرُه من الخليفة، وأنَّه متى ما فرَغا منه تفرَّغ له ورتَّبَ عليه، فأصْغَى إلى قول عمِّه، ورجعَ عن عزْمه، وأقْبَلَ يقصدُ بغدادَ ليدخلَها عامَه ذلك، فكَتَب إليه الخليفةُ ينْهاه عن ذلك لقلَّة الأقْوات بها، فلم يَقْبَلْ منه، وأقبَل إليه، فلمَّا أَزِف قدومُه خرَج الخليفةُ من داره وتَحَيَّز إلى الجانب الغربيِّ، فشَقَّ ذلك عليه وعلى الناس، ودخَل عيدُ الأضْحَى فخطَب الخليفةُ الناسَ بنفْسه خُطبةً عظيمةً بليغةً فصيحةً جدًّا، وكبَّرَ وراءَه خُطَباء الجوامع، وكان يومًا مشهودًا. وقد سرَدَها ابنُ الجوزيِّ في «المنتظم» بطُولها، ورَواها عن مَن حضرَها من الخليفة مع قاضي القُضاة أبي القاسم الزَّيْنَبيِّ، وجماعة من العُدُول ولما أراد الخليفةُ أن ينزلَ عن المِنْبَر ابتدَره أبو المُظَفَّر محمدُ بنُ أحمدَ بن عبد العزيز الهاشميُّ، فأنشدَه:

عليك سلامُ اللَّه يا خيرَ مَن علا	على منبرٍ قد حفَّ أعلامَه النصرُ
وأفضلَ مَن أمَّ الأنامَ وعمَّهم	بسيرته الحُسْنَى وكان له الأمرُ
لقد شنَّفَتْ أسماعنا منك خُطبةٌ	وموعظةٌ فَصْلٌ يلينُ لها الصخرُ
ملأتَ بها كلَّ القلوب مَهابةً	فقد رجَفَت من خوف تخويفها مصْرُ
سما لفظُها فضلاً على كلِّ قائلٍ	وجلَّ علاها أن يُلمَّ بها حَصْرُ
أشدتَ بها سامي المنابر رفعةً	تقاصَرَ عن إدراكها الأنجُمُ الزُّهْرُ
وزدتَ بها عَدْنانَ مجدًا مُؤثَّلاً	فأضحَى لها بينَ الأنام بكَ الفخرُ

فللَّه عـصـرٌ أنت فيـه إمـامُـهُ ... ولـلَّه دينٌ أنت فيـه لنا الصـدرُ
بَقِـيتَ على الأيام والمُلك كلَّما ... تقـادَم عـصـرٌ أنت فيـه أتى عـصرُ
وأصبحتَ بالعيـد السعيـد مُهنَّأً ... يُشرِّفُنا فيـه صلاتُك والنحرُ

ولمَّا نزَل الخليفةُ عن المِنْبَرِ ذبَح البَدَنَةَ بيده، ودخَل السُّرادقَ وتَباكَى الناسُ ودعَوا للخليفة بالتوفيقِ والنصرِ، ثم دخَل السلطانُ محمودٌ إلى بغدادَ يومَ الثلاثاء الثامنَ عشَرَ من ذي الحجَّة، فنزَلُوا في بُيوتِ الناسِ وحصَل للناسِ أذًى كثيرٌ في حَرِيمِهم، فراسَل الخليفةَ في الصُّلْحِ، فأبَى ذلك الخليفةُ، وركِب في جيْشِه وقاتَل الأتراكَ ومعه شرذِمَةٌ قليلةٌ من المُقاتِلَة، ولكنَّ العامَّةَ كلَّهم معه، فقُتِل من الأتراك خلقٌ كثيرٌ، ثم جاءَ عمادُ الدينِ زَنْكي في جيشٍ كثيفٍ من واسطٍ في السُّفنِ إلى السلطانِ نَجْدَةً، فلمَّا استَشعَر الخليفةُ ذلك دعَا إلى الصلحِ، فوقَع الصلحُ بينَ السلطانِ والخليفة، وأخَذَ المَلِكُ يَستَبْشِرُ بذلك جدًّا، ويعتذرُ إلى الخليفة مما وقَع، ثم خرَج في أوَّل السنَة الآتية إلى هَمَذانَ لمرَضٍ حصلَ له.

وفي هذه السنة كان أوَّلُ مجلسٍ تكلَّم فيه ابنُ الجَوزيِّ على المِنْبَرِ يعظُ الناسَ، وعمرُه إذ ذاك ثلاثَ عشْرَةَ سنةً، وحضَره الشيخُ أبو القاسمِ عليُّ بنُ يعْلَى العَلَويُّ البَلْخيُّ، وكان سُنيًّا، علَّمه كلماتٍ؛ ثم أصْعَدَه المِنْبَرَ فقالَها، وكان يومًا مشهُودًا. قال ابنُ الجوزيِّ: وحُزِر الجمعُ يومَئذٍ بخمسين ألفًا.

وفيها: اقْتَتَلَ طُغْتِكِينُ صاحبُ دمشقَ وأعداؤُه من الفرنجِ، فقتَل منهم خلقًا كثيرًا، وغنِم منهم أموالاً جزيلةً، ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ محمد بنِ محمد، أبو الفتوحِ الطُّوسيُّ الغَزَّاليُّ الواعظُ، أخو أبي حامد الغَزَّاليِّ، كان واعظًا مُفَوَّهًا، ذا حظٍّ من الكلامِ والزهدِ وحسْنِ التأتي، وله نُكَتٌ جيدةٌ؛ وعَظَ مرةً في دارِ المَلِك محمودٍ، فأطْلَقَ له ألفَ دينارٍ، وخرَجَ فإذا على البابِ فرَسُ الوزيرِ بسَرْجِها الذهبِ، وسلاسلِها وما عليها من الحَلْيِ، فركِبَها، فبلَغَ ذلك الوزيرَ فقالَ: دَعُوه، ولا يُرَدُّ عليَّ الفرسُ. وسمعَ مرةً ناعُورةً تَئِنُّ، فألقَى عليها رِداءَه فتَمزَّقَ قِطَعًا.

قال ابنُ الجوزيِّ: وقد كانت له نُكَتٌ، إلا أن الغالبَ على كلامِه التَّخليطُ وروايةُ الأحاديث الموضوعة المصنوعة، والحكاياتِ الفارِغَة، والمَعاني الفاسدة، ثم أورَدَ ابنُ الجَوزيِّ أشياءَ مُنكرةً من كلامِه، فاللهُ أعلمُ، من ذلك أنَّه كان كلَّما أشْكَلَ عليه شيءٌ رأَى رسولَ الله ﷺ في اليَقَظَة، فسأله عن ذلك فدلَّه على الصواب، قال: وكان يتعَصَّبُ لإبليسَ ويَعْذُرُه، وتكلَّمَ فيه ابنُ الجوزيِّ بكلامٍ طويلٍ كثيرٍ. قال: ونُسِبَ إلى محبَّةِ المُرْدانِ، والقولِ بالمُشاهدة. فاللهُ أعلمُ بصحَّة ذلك.

قال ابنُ خَلِّكانَ: كان واعظًا مليحَ الوعظِ، حسنَ المَنظرِ، صاحبَ كَراماتٍ وإشاراتٍ، وكان من الفقهاء، غيرَ أنَّه مالَ إلى الوعظ فغلَب عليه، ودرَّسَ بالنِّظاميَّةِ نيابةً عن أخيه لمَّا تزَهَّدَ وترَكها، واختَصرَ «إحْياءَ علومِ الدينِ» في مُجلَّدٍ سمَّاه: «لُبابَ الإحْياء»، وله «الذخيرةُ في علمِ البصيرَة»، وطافَ البلادَ، وخدَم الصوفيَّةَ بنفسِه، وكان مائلاً إلى الانْقطاعِ والعُزلة.

أحمدُ بنُ عليِّ بن محمد الوكيلُ، المعروفُ بابن بَرْهانَ، أبو الفتح الفقيهُ الشافعيُّ، تفقَّه على الغَزَّاليِّ والْكِيا، وأبي بكر الشَّاشيِّ، وكان بارعًا في الأُصول؛ له فيه كتابُ «الوجيزُ في أصول الفقه»، وكانت له فُنونٌ جيدةٌ يُتقِنُها جيِّدًا. ووَلِي تدريسَ النِّظامِيَّةِ ببغدادَ دونَ شهر. وكانت وفاتُه في هذه السنة، كما ذكَره ابنُ خَلِّكانَ، رحمه اللَّهُ.

بَهْرامُ بنُ بَهرامَ، أبو شُجاع البَيِّعُ، سمع الحديثَ، وبنى مدرسةً لأصْحابِ الإمامِ أحمدَ بكَلْوَذَى، ووقَف قطعةً من أملاكه على الفقهاء.

صاعدُ بنُ سيَّار بن محمد بن عبد اللَّه بن إبراهيمَ، أبو العلاء الإسْحاقيُّ الهَرَويُّ الحافظُ، أحدُ المُتقِنينَ، سمع الحديثَ، وتُوفِّي بغُوْرَجَ؛ قريةٍ على بابِ هَراةَ، في هذه السنة.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وخمسمائة

استَهلَّتْ هذه السنةُ والخليفةُ والسلطانُ محمودٌ يتحارَبان، والخليفةُ في السُّرادقِ في الجانبِ الغربيِّ، فلمَّا كان يومُ الأرْبعاءِ رابعِ المحرَّمِ، توصَّل جماعةٌ من جُندِ السلطانِ إلى دارِ الخلافة، فحصَل فيها ألفُ مُقاتلٍ عليهم السِّلاحُ، فنهَبوا الأموالَ، وخرَج الجواري وهُنَّ حاسِراتٌ يَستغِثْنَ حتى دخَلْنَ دارَ الخاتُونِ.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: وأنا رأيتُهنَّ كذلك، فلمَّا وقَع ذلك، ركِبَ الخليفةُ في جيشه، وجِيءَ بالسُّفنِ فركِبَ فيها الجيشُ، وانقلَبَتْ بَغْدادُ بالصُّراخ حتى كأنَّ الدنيا قد زُلْزِلَتْ، وثارت العامَّةُ مع جيشِ الخليفة، فكَسَرُوا جيشَ السلطانِ وقتَلُوا خَلْقًا من الأمراء، وأسَرُوا آخرينَ ونهَبوا دارَ السلطان، ودارَ وزيرِه، ودارَ طبيبِه أبي البركات، وأخَذُوا ما كان في داره من الودائع، ومرَّتْ خَبْطَةٌ عظيمةٌ جدًّا، حتى إنَّهم نهَبوا الصُّوفيَّةَ، برباطِ بهْرُوزَ.

وجرت أُمورٌ طويلةٌ وخطُوبٌ جليلةٌ، ونالتْ العامَّةُ من السلطانِ، وجعَلُوا يقُولون له: يا باطنيُّ تتْرُك قتالَ الفرنْجِ والرومِ وتُقَاتِلُ الخليفةَ؟! ثم أنَّ الخليفةَ انْتَقل إلى داره في سابعِ المُحَرَّمِ، فلمَّا كان يومُ عاشُوراءَ تَماثلَ الحالُ، وطلبَ السلطانُ من الخليفة الأمانَ والصُّلْحَ، فلانَ الخليفةُ إلى ذلك، وتَباشرَ الناسُ بالصُّلحِ، فأرْسَلَ الخليفةُ إليه نقيبَ النُّقَباءِ وقاضيَ القضاة، وشيخَ الشيوخِ وبضعةً وثلاثينَ شاهدًا، فاحْتَبَسَهم السلطانُ عندَه ستةَ أيام، فساء ذلكَ الناسُ، وخافُوا من فتنةٍ أخرى أشدُّ من الأولى، وكان يَرْنْقُشُ الزَّكَويُّ شِحْنَةُ بَغْدادَ يُغْري السلطانَ بأهلِ بَغْدادَ ليَنْهَبَ أموالَهم، فلم يَقْبَلْ منه، ثم أذِنَ لأولئك الجماعة، فدَخَلُوا عليه وقتَ المغربِ فصلَّى به القاضي، وقرَءوا عليه كتابَ الخليفة، فقامَ قائمًا، فأجابَ الخليفةَ إلى جميع ما اقْتَرح عليه، ووقَعَ الصُّلْحُ والتَّحْليفُ، ودخَلَ جيشُ السلطانِ إلى بَغْدادَ، وهم في غاية الجَهد من قلَّة الطعامِ عندَهم في العَسْكَرِ، وقالُوا: لو لم يُصالِحْ لَمتْنا جُوعًا. وظَهَرَ من السلطانِ حِلمٌ كثيرٌ عن العوامِّ، ولِلَّه الحمدُ.

وأمرَ الخليفةُ بردِّ ما نُهِبَ من دُورِ الجُنْد، وأنَّ مَن كتَمَ شيئًا أُبيحَ دَمُه. وبعَثَ الخليفةُ عليَّ بنَ طِرادٍ الزَّيْنبيَّ النقيبَ إلى السلطان سَنْجَرَ ليُبْعِدَ عن بابه دُبَيْسًا، وأرْسَلَ معه الخِلَعَ والألْويةَ، فأكْرَمَ السلطانُ الرسولَ، وأَذِنَ بضَرْبِ الطُّبول على بابه في ثلاثة أوْقاتٍ، وظَهَرَ منه طاعةٌ كبيرةٌ.

ثم مَرِضَ السلطانُ محمودٌ ببَغْدادَ، فأمره الطبيبُ بالانتقال عنها إلى هَمَذانَ، فسارَ في ربيع الآخر، وفوَّضَ شِحْنَكيَّةَ بَغْدادَ إلى عماد الدين زَنْكي، فلمَّا وَصَلَ السلطانُ إلى هَمَذانَ، بعَثَ إلى شِحْنَكيَّةِ بَغْدادَ مُجاهدُ الدين بِهْرُوزَ، وجَعَلَ إليه الحِلَّةَ، و بعَثَ عمادَ الدين زَنْكي إلى المَوْصِلِ وأعْمالِها.

وفيها: درَّسَ الحسنُ بنُ سَلمانَ بالنِّظاميةِ ببَغْدادَ.

وفيها: وردَ أبو الفُتوحِ الإسْفَرايينيُّ فوَعَظَ ببَغْدادَ، فأوْرَدَ أحاديثَ كثيرةً مُنْكَرةً جدًّا، فاسْتُتِيبَ منها، وأُمِرَ بالانتقالِ منها إلى غيرِها فشدَّ معه جماعةٌ منَ الأكابِرِ، وردُّوه إلى ما كان عليه، فوَقَعَ بسببه فتنٌ كثيرةٌ بينَ الناسِ، ورَجَمَه بعضُ العامةِ في الأسْواقِ، وذلك أنَّه كان يُطْلِقُ عباراتٍ لا يَحْتاجُ إلى إيرادها، فنَفَرَتْ عنه قلوبُ العامَّةِ وأبْغَضُوه، وجَلَسَ الشيخُ عبدُ القادرِ الجِيليُّ، فتكَلَّمَ على الناسِ فأعْجَبَهم، وأحَبُّوه وتَرَكُوا ذاك.

وفيها: قَتَلَ السلطان سَنْجَرَ من الباطنيَّةِ اثْنَيْ عَشَرَ ألفًا. وحجَّ بالناسِ نَظَرٌ الخادمُ.

ومِمَّنْ تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

محمدُ بنُ عبدِ المَلِكِ بنِ إبراهيمَ بنِ أحمدَ، أبو الحَسَنِ بنُ أبي الفَضْلِ الهَمَذانيُّ الفَرَضيُّ، صاحبُ «التَّاريخ» من بيتِ الحديثِ والأئمةِ، وذَكَر ابنُ الجَوْزيِّ عن شيخه عبدِ الوَهَّابِ أنَّه طَعَنَ فيه. تُوُفِّيَ فجْأةً في شَوَّالٍ من هذه السنَةِ، ودُفِنَ إلى جانبِ ابنِ سُرَيْجٍ.

فاطمَةُ بنتُ الحُسَيْنِ بنِ الحسن بنِ فَضْلُوَيْه، سَمِعتِ الخطيبَ وابنَ المُسْلِمَةِ وغيرَهما، وكانتْ واعظةً، لها رباطٌ تجتمعُ فيه الزاهداتُ، وقد سمع عليها ابنُ الجَوْزيِّ «مُسْنَدَ الشَّافعيِّ» وغيرَه.

أبو محمد عبدُ اللَّه بنُ محمد بنِ السِّيدِ البَطَلْيُوسيُّ، ثم البَلَنْسيُّ، صاحبُ المُصنَّفاتِ في اللغةِ وغيرِها، جَمَعَ «المُثلَّثَ» في مجلَّدَيْنِ، ثم زادَ فيه على قُطْرُبَ شيئًا كثيرًا جدًّا، وله شَرْحُ «سَقطِ الزَّنْد» لأبي العلاء، أحسنُ من شرحِ المُصنِّفِ، وله «شَرحُ أدَبِ الكاتب» لابنِ قُتَيْبَةَ، ومن شعرِه الذي أوْرَدَه القاضي ابنُ خَلِّكانَ قولُه:

أخو العلمِ حَيٌّ خالدٌ بعدَ موتِه ... وأوْصالُه تحتَ التُّرابِ رَميمُ
وذو الجَهْلِ مَيْتٌ وهو ماشٍ على الثَّرَىٰ ... يُظَنُّ منَ الأحياءِ وهو عَديمُ

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وخمسمائة

في أولها قدم رسولُ سَنْجَرَ إلى الخليفة يسألُ منه أن يُخطَبَ له على منابر بَغْدادَ، فكان يُخطَبُ له في كلِّ جُمُعَةٍ في جامعٍ.

وفيها: ماتَ ابنُ صَدَقَةَ وزيرُ الخليفَة، واستُنيبَ في الوزارة نقيبُ النُّقَباء.

وفيها: اجتمع السلطانُ محمودٌ بعمِّه سَنْجَرَ واصْطَلَحا بعدَ خُشُونَةٍ، وسلَّمَ سَنْجَرُ دُبَيسًا إلى محمودٍ، على أن يَسْتَرْضي عنه الخليفَةَ ويعزِلَ زَنْكي عن المَوْصِلِ وبلادها، ويُسلِّمَ ذلك إلى دُبَيس. واشْتُهِرَ في ربيع الأول ببَغْدادَ أنَّ دُبَيسًا أقبَلَ إلى بَغْدادَ في جيشٍ كثيفٍ، فكتَبَ الخليفةُ إلى الملك محمودٍ: لئنْ لم يكُفَّه عن قُدُوم بَغْدادَ، وإلا خرَجْنا إليك ونَقَضْنا ما بيننا وبينَكَ من العهُودِ والصُّلْح.

وفيها: مَلَكَ الأتابكُ زَنْكي بنُ آقْ سُنْقُرَ مدينَةَ حَلَبَ وما حوْلَها من البلادِ.

وفيها: مَلَكَ تاجُ المُلوكِ بُوري بنُ طُغْتكينَ مدينَةَ دمَشْقَ بعدَ وفاة أبيه، وقد كان أبوه من مماليكِ تاج الدولة تُتُش بن ألب أرْسلانَ، وكان عاقلاً حازمًا عادلاً خيِّرًا، كثيرَ الجهاد للفرنْج، رحمَه اللَّهُ.

وفيها: عُمِلَ ببَغْدادَ مُصلًّى للعيد ظاهرَ باب الحَلْبَة، وحُوِّطَ عليه، وجُعِلَ فيه قِبْلَةٌ. وحجَّ بالناسِ نَظَرٌ الخادمُ.

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

الحَسَنُ بنُ عليِّ بن صَدَقَةَ، أبو عليٍّ وزيرُ المُسْتَرْشِد، تُوفِّي في رجبٍ منها. ومن شعْره الذي أورَدَه ابنُ الجَوْزيِّ مما بالغَ فيه قولُه:

وجَدتُ الوَرَىٰ كالماء طَعْمًا ورقَّةً	وأنَّ أميرَ المؤمنينَ زُلالُهُ
وصَوَّرتُ مَعنَى العقلِ شَخصًا مُصَوَّرًا	وأنَّ أميرَ المؤمنينَ مِثالُه
فلولا مكانُ الدين والشَّرعِ والتُّقَىٰ	لقلتُ من الإعظام جَلَّ جَلالُه

الحُسَيْنُ بنُ عليِّ بن أبي القاسم اللامشيُّ من أهْلِ سَمَرْقَنْدَ، روَىٰ الحديثَ وتفَقَّهَ، وكان يُضْرَبُ به المثلُ في المُناظَرة، وكان خيِّرًا، دَيِّنًا على طريقَة السلَف، مُطَّرِحًا للتَّكَلُّف أمَّارًا بالمَعْرُوف، قَدِمَ من عند الخاقان ملك ما وراءَ النَّهْرِ في رسالة إلى دار الخلافَة، فقيلَ له ألا تَحُجُّ عامَكَ هذا؟ فقال: لا أجْعَلُ الحجَّ تَبَعًا لرسالَتهم. فعادَ إلى بلده، فماتَ في رمَضانَ من هذه السنَة عن إحْدَىٰ وثمانينَ سَنَةً، رحمَه اللَّهُ.

طُغْتكينُ الأتابكُ، صاحبُ دمَشْقَ التركيُّ، أحدُ غلْمان تاج الدولة تُتُشَ بن ألْب أرْسلانَ السلْجُوقيِّ، كان من خيارِ المُلوكِ وأعْدَلِهم وأكْثَرِهم جهادًا للأعْداءِ، وكانت وَفاتُه في هذا العامِ، وقامَ في الملك من بعدِه ولَدُه تاجُ الملوك بُوري.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

في المُحَرَّم منها دَخَلَ السلطانُ محمودٌ إلى بَغْدَادَ، واجتَهَدَ في إرْضاءِ الخليفة عن دُبَيْسٍ، وأنْ يُسَلِّمَ إليه بلادَ المَوْصِلِ، فامْتَنَعَ الخليفةُ من ذلك، وأبى أشدَّ الإباء، هذا وقد تأخَّرَ دُبَيْسٌ عن الدُّخولِ إلى بَغْدَادَ، ثم دَخَلَها وركِبَ بينَ الناسِ فلَعَنُوه وشَتَمُوه في وجهه، وقدمَ عمادُ الدين زَنْكي بنُ آقْ سُنْقُرَ، فبَذَلَ للسلطان في كلِّ سنَة مائةَ ألف دينارٍ، وهدايا وتُحَفًا، والْتَزَمَ الخليفةُ للسلطان بمِثْلِها على أن لا يُوَلِّي دُبَيْسًا شيئًا، وعلى أنْ يَسْتَمِرَّ زَنْكي على عمَلِه بالمَوْصِلِ، فأقرَّه على ذلك وخَلَعَ عليه، ورَجَع إلى عمله، ومَلَكَ في هذه السنَة حَلَبَ وحَمَاة، وأسَرَ ملكَها سُونج ابنَ تاجِ الملُوك، فافْتَدَى منه بخَمْسينَ ألفَ دينارٍ.

وفي يوم الإثنَين سلْخ ربيع الآخر خَلَع السلطانُ على نقيبِ النُّقَباء بالوزارة استقلالاً، ولا يُعْرَفُ أحدٌ من العبَّاسيين بَاشَرَ الوزارةَ غيرُه. وفي رَمَضانَ جاء دُبَيْسٌ في جيش إلى الحِلَّة فمَلَكَها، ودَخَلَ إليها في أصحابه، وكانُوا ثلاثمائة فارسٍ، ثم إنَّه شرَعَ في جمع الأمْوالِ، وأخَذَ الغلاتِ من القُرَى حتى حَصَّلَ نَحْوًا من خمسمائة ألْف دينارٍ، واستَخْدَمَ قَريبًا من عشَرَة آلاف مُقاتِلٍ، وتَفَاقَمَ الحالُ بأمره وسببه، و بَعَثَ إلى الخليفة يَسْتَرْضيه، فلم يَرْضَ عنه، وعَرَضَ عليه أمْوالاً كثيرةً جدًّا فلم يَقْبَلْها الخليفةُ، وكتَبَ الخليفةُ إلى السلطان فبَعَثَ إليه السلطانُ جَيْشًا فانهزَمَ منهم وذَهَبَ إلى البَرِّيَّة، لا جَمع اللهُ به شَملاً، وأغارَ على البَصْرَة فأخَذَ منها حواصلَ السلطانِ والخليفة، ثم دخَلَ البَرِّيَّةَ فانقَطَعَ خَبَرُه.

وفي هذه السنَة قَتَلَ صاحبُ دِمَشْقَ من البَاطِنيَّةِ ستَّةَ آلافٍ، وعلَّقَ رأسَ كبيرهم على باب القَلْعَة، وأراحَ اللّهُ أهلَ الشام منهم.

وفيها: حَاصَرَت الفرنْجُ مدينَةَ دِمَشْقَ، فخَرَجَ إليهم أهلُها، فقاتَلُوهم قتالاً شديدًا، وبَعَثَ أهلُ دِمَشْقَ عبدَ الوَهَّاب الواعظَ ومعه جَمَاعةٌ من التُّجَار إلى بغدادَ يَسْتَغيثُونَ بالخليفة، وهَمُّوا بكَسْرِ منبَرِ الجامع حتى وُعِدُوا بأنَّهم سيَكْتُبُونَ إلى السلطان؛ لِيَبْعَثَ جَيْشًا كثيفًا نُصْرَةً لأهلِ الشام، فلم يُبْعَثْ إليهم جَيشٌ حتى نَصرَهم اللّهُ من عنده، فهزَمَهم المسلمونَ وقتلُوا منهم عشْرَةَ آلافٍ، ولم يُفْلِتْ منهم سوَى أربَعينَ نَفْسًا، وللّه الحمدُ والمِنَّةُ، وقُتل بَيْمَنْدُ الفرنْجيُّ صاحبُ أنطاكيَّةَ.

وفي هذه السنَة تَخَبَّطَ الناسُ في الحجِّ حتى ضاقَ الوقتُ بسبب فتْنَة دُبَيْسٍ، قَبَّحَه اللّهُ، حتى حَجَّ بهم أحدُ مماليك يَرْنُقْشَ الزَّكَويِّ، وكان اسمُه بغاجقَ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

أسعَدُ بنُ أبي نصرٍ الميهَنيُّ أبو الفتْح، أحدُ أئمة الشافعيَّة في زمانه، تَفَقَّه على أبي المُظَفَّرِ السَّمْعَانيِّ، وسادَ أهلَ زمانه، وتَفَرَّدَ من بين أقْرانه، ووَلِيَ تَدْريسَ النِّظَاميَّةِ ببَغْدَادَ، وحَصَلَ له وَجاهةٌ عندَ الخاصِّ والعامِّ، وعُلِّقَ عنه «تَعْليقةُ الخلاف»، وعُزِلَ عن النِّظاميَّة، فسارَ إلى هَمَذَانَ، فماتَ بها في هذه السنَة، رحمَه اللّهُ تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وخمسمائة

فيها: كانت زَلْزَلَةٌ عظيمَةٌ بالعراق تَهَدَّمَتْ بسبَبِها دورٌ كثيرةٌ ببَغْدَادَ، ووقَع بأرضِ المَوْصِلِ مَطَرٌ عظيمٌ فسَقَطَ بعضه نارًا تأجَّجُ، فاحترَقَتْ دورٌ كثيرةٌ من ذلك، وتَهَارَبَ الناسُ.

وفيها: وُجِدَ ببَغْدَادَ عقاربُ طَيَّارةٌ لها شَوْكَتَانِ، فخافَ الناسُ منها خوْفًا شديدًا. وفيها مَلَكَ السلطانُ سَنْجَرُ مدينَةَ سَمَرْقَنْدَ، وكان بها محمدُ خان. وفيها مَلَكَ عمادُ الدين زَنْكِي بلادًا كثيرةً من الجَزيرةِ، ومن بلاد الفرنْج، وجرَتْ له معهم حُرُوبٌ طويلَةٌ وخُطوبٌ جليلةٌ، ونُصرَ عليهمُ في تلكَ المَواقفِ كلِّها، ولله الحمدُ والمِنَّةُ، وقَتَلَ خَلْقًا من جَيشِ الرُّومِ حينَ قَدِمُوا إلىٰ الشامِ، ومَدَحَه الشُّعراءُ علىٰ ذلك.

قتل خليفة مصر الفاطمي

وفي ثاني ذي القَعْدَةِ قُتِلَ الخَليفَةُ الفَاطميُّ الآمِر بأحكام الله ابنُ المُسْتَعْلي صاحبُ مصْرَ، قتَلَته البَاطنيَّةُ، وله من العُمْرِ أربعٌ وثلاثونَ سنةً، وكانت مُدَّةُ خلافَته تسْعًا وعشرينَ سنَةً وخمسَةَ أشهرٍ ونصْفًا، وكان هذا الرجلُ هو العاشرَ من الفاطميِّينَ، والعاشرَ من ولَد عُبَيْد الله المَهْديِّ، ولمَّا قُتِلَ الآمرُ، تَغَلَّبَ علىٰ الديارِ المصْريَّةِ غلامٌ من غلْمَانِ الخليفة أرْمَنيٌّ، فاسْتَحْوَذَ علىٰ الأمورِ ثلاثةَ أيام حتىٰ حَضَرَ أبو عليٍّ، أحمدُ بنُ الأفضَلِ بن بدرٍ الجَمَاليِّ، فأقامَ الخليفةَ الحافظَ أبا المَيْمون عبدَ المَجيد ابنَ الأميرِ أبي القاسم بنِ المُسْتَنْصر بالله، وله من العُمْرِ ثمانٍ وخمسُونَ سنَةً، ولمَّا أقامَه استَحْوَذَ علىٰ الأمورِ دونَه وحصَرَه في مَجْلسٍ، لا يَدْخُلُ إليه أحدٌ إلا مَن يُريدُه، ونقَلَ الأمْوالَ من القصرِ إلىٰ داره، ولم يُبْقِ للحافظِ سوَىٰ الاسم فقط.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

إبْرَاهيمُ بنُ عُثْمَانَ بن محمد، أبو إسْحاقَ الكَلْبيُّ[1] من أهلِ غَزَّةَ، جاوَزَ الثمانينَ، وله شعرٌ جيدٌ، ومن شعرِه في الأتراكِ قولُه:

في فتْيَة من جُيوشِ التُّرك ما تركت ... للرَّعْدِ كَرَّاتُهم صَوتًا ولا صيتَا
قومٌ إذا قُوبِلُوا كانُوا مَلائكَةً ... حُسْنًا وإنْ قُوتلُوا كانوا عَفَاريتَا

وله:

ليتَ الذي بالعِشْقِ دونَكَ خَصَّني ... يا ظالمي قَسَمَ المَحَبَّةَ بيننا
ألقىٰ الهِزَبْرَ فلا أخافُ وثُوبَه ... ويَرُوعُني نَظَرُ الغَزَالِ إذا رَنَا

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٥٥٤ - ٥٥٥).

وله:

إنَّمـا هذه الحيـاةُ متـاعٌ ... والسَّفيـهُ الغَـويُّ مَن يصطَفيها
مـا مَضى فـاتَ والمُؤمَّلُ غَيْبٌ ... ولك السَّاعةُ التي أنتَ فيها

وله أيضًا:

قالوا هجَرْتَ الشعرَ قلتُ ضَرورةٌ ... بابُ البـواعث والدَّواعي مُغْلَقُ
خلت البلادُ فلا كريمٌ يُرتَجىٰ ... منه النَّوالُ ولا مَليحٌ يُعْشَقُ
ومن العجائبِ أنَّه لا يُشتَرىٰ ... ويُخانُ فيه مَن الكَسادِ ويُسْرَقُ

وممَّا أنشدَه ابنُ خَلِّكَانَ في الوَفَيات من شعْرِه الرَّائقِ قولُه:

إشـارةٌ منك تكفينا وأحسَنُ مـا ... رَدُّ السلامُ غَداةَ البَيْنِ بالعَنَمِ
حتىٰ إذا طاحَ عنها المُرْطُ من دَهَشٍ ... وانحلَّ بالضَّمِّ سلكُ العِقْدِ في الظُّلَمِ
تبسَّمَتْ فأضاءَ الليلُ فالتَقَطَتْ ... حبَّاتِ مُنْتَثِرٍ في ضَوءِ مُنْتَظِمِ

كانت وَفَاتُه في هذه السَّنَةِ ببلادِ بَلْخَ، ودُفِنَ بها.

الحُسَيْنُ بنُ محمدِ بن عبدِ الوَهَّابِ بن أحمدَ بنِ محمدِ بن الحُسَيْنِ بن عُبَيْدِ اللَّهِ بن القاسمِ بن عبدِ اللَّهِ بن سُلَيْمَانَ بن وَهْبٍ الدَّبَّاسُ، أبو عبدِ اللَّهِ الشاعرُ المعروفُ بالبارعِ، قَرَأَ القِرَاءَاتِ وسمعَ الحديثَ، وكان عارفًا بالنَّحْوِ واللغةِ والأدبِ، وله شعرٌ رائقٌ، كانت وَفَاتُه في هذه السَّنَةِ، وقد جاوزَ الثمانينَ، رحمَه اللَّهُ.

محمدُ بنُ سَعْدُونَ بن مُرَجَّىٰ، أبو عامرٍ العَبْدَرِيُّ القُرَشيُّ الحافظُ، أصلُه من مَيُورْقَةَ من بلادِ المَغْرِبِ، ودَخَلَ بَغْدَادَ فسمعَ بها علىٰ طِرَادٍ الزَّيْنَبِيِّ، والحُمَيْدِيِّ، وغيرِ واحدٍ، كانت له معرفةٌ بالحديثِ جَيِّدَةٌ، وكان يَذْهَبُ في الفُرُوعِ مَذْهَبَ الظاهِرِيَّةِ. تُوُفِّيَ في بَغْدَادَ في ربيعٍ الآخرِ.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وخمسمائة

فيها: ضَلَّ دُبَيْسٌ عن الطريقِ في البَرِّيَّةِ، فأسَرَه بعضُ أُمَراءِ الأعرابِ بأرضِ الشامِ، وحَمَلَه إلىٰ ملكِ دمشقَ بُوري بن طُغْتكينَ، فباعَه من زَنْكي بن آقْ سُنْقُرَ صاحبِ المَوْصِلِ بخمسينَ ألفَ دينارٍ، فلمَّا حصلَ في يدِه لم يَشُكَّ دُبَيْسٌ أنَّه سيُهْلِكُه؛ لمَا بَيْنَهُما من العَدَاوةِ، فأكرَمَه زَنْكي، وأعطاه أموالًا جَزيلةً، وقدَّمَه واحتَرَمَه، ثم جاءتْ رُسُلُ الخليفةِ في طَلَبِه فبَعَثَه معهم، فلمَّا وَصَلَ إلىٰ المَوْصِلِ حُبِسَ في قَلْعَتِها.

وفيها: وَقَعَ بينَ الأخَوَيْنِ محمودٍ، ومسعودٍ، فتَواجَها للقتالِ ثم اصْطَلَحا. وفيها كانت وفاةُ المَلِكِ محمودِ بن محمدِ بنِ مَلِكْشاه بنِ ألْبِ أرْسَلانَ، فأُقيمَ في المُلْكِ مكانَه ابنُه داودُ، وجُعِلَ له أتابَكٌ ووزيرٌ، وخُطِبَ له بأكثرِ البلادِ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمدِ بن عبد القاهر، أبو نَصْرٍ الطُّوسيُّ سمعَ الحديثَ، وتَفَقَّه بالشيخ أبي إسحاقَ الشِّيرازيِّ، وكان شيخًا لطيفًا، عليه نُورٌ.

قال ابنُ الجَوْزِيِّ: أنْشَدَني:

على كلِّ حالٍ فاجْعَلِ الحَزْمَ عُدَّةً	تقدِّمُه بينَ النوائبِ والدَّهْرِ
فإنْ نلتَ خيرًا نلْتَه بعزيمةٍ	وإنْ قَصَّرَتْ عنكَ الخُطوبُ فعَن عُذْرِ

قال: وأنْشَدَني أيضًا:

لبِسْتُ ثَوْبَ الرَّجَا والناسُ قد رَقَدُوا	وقُمْتُ أشْكُو إلى مَوْلايَ ما أجِدُ
وقلتُ يا عُدَّتي في كلِّ نائبةٍ	ومَن عليه لكَشْفِ الضُّرِّ أعْتَمِدُ
وقد مَدَدْتُ يَدي والضُّرُّ مُشْتَمِلٌ	إليكَ يا خيرَ مَن مُدَّتْ إليه يَدُ
فلا تَرُدَّنَّها يا ربِّ خائبةً	فبحرُ جُودِكَ يروي كلَّ مَن يرِدُ

الحسن سَلْمَانَ بن عبد اللّه بن عبد اللّه، ابنُ الفَتَىٰ، أبو عليٍّ الفقيهُ مُدرِّسُ النِّظاميَّةِ، وقد وَعَظَ بجامعِ القَصْرِ، وكان يقُولُ: أنا في الفِقْهِ مُنْتَهٍ، وفي الوَعْظِ مُبْتَدئٌ. وقد تُوُفِّيَ في هذه السنَة، وغَسَّلَه القاضي أبو العَبَّاسِ بنُ الرَّطَبيِّ، ودُفِنَ عندَ أبي إسْحاقَ.

حَمَّادُ بنُ مسلم الرَّحْبِيُّ الدَّبَّاسُ، كان يُذْكَرُ له أحْوالٌ ومُكاشَفَاتٌ واطِّلاعٌ على مُغَيَّباتٍ، وغيرُ ذلك مِن المقاماتِ، ورأيْتُ ابنَ الجَوْزِيِّ يتكلَّمُ فيه، ويقُولُ: كان عُرْيًا من العُلُومِ الشرعيَّةِ، وإنَّما كان يَنْفُقُ على الجُهالِ.

وذُكِرَ عن ابنِ عَقيلٍ أنَّه كان يُنَفِّرُ الناسَ عنه، وكان حَمَّادٌ الدَّبَّاسُ يقُولُ: ابنُ عَقيلٍ عَدُوِّي. قال ابنُ الجَوْزِيِّ: وكانَ الناسُ يَنْذِرُونَ له، فيَقْبَلُ ذلك، ثم تَرَكَ ذلك، وصارَ يأخُذُ من المَنَامَاتِ، ويُنْفِقُ على أصْحَابِه. وكانتْ وَفاتُه في رمضانَ، ودُفِنَ بالشُّونيزيَّةِ.

عليُّ ابنُ المُسْتَظهِر باللّه أخو الخَليفةِ المُسْتَرْشِد، تُوُفِّيَ في رجَبٍ من هذه السنَةِ، وله من العُمْرِ إحْدَىٰ وعشرونَ سَنَةً، فتُرِكَ ضَرْبُ الطُّبُولِ، وجَلَسَ الناسُ للعَزَاءِ أيَّامًا.

محمدُ بنُ أحمدَ بن أبي الفَضْلِ الماهيانيُّ، أحدُ أئمةِ الشَّافعيَّةِ، تَفَقَّه بإمامِ الحَرَمَينِ، وغيْرِه، ورَحَلَ في طَلَبِ العلمِ والحديثِ إلى بلادٍ شَتَّىٰ، ودَرَّسَ وأفتىٰ وناظَرَ. تُوُفِّيَ في هذه السنَةِ وقد قارَبَ التِّسْعينَ، ودُفِنَ بقَرْيَةِ ماهيانَ من بلادِ مَرْوَ، رَحِمَه اللّهُ.

محمودٌ السُّلْطانُ ابنُ السُّلْطان محمدِ بن مَلِكْشَاه بن ألْب أرْسَلانَ بن داودَ بن ميكائيلَ بن سَلْجُوقَ، كان من خِيارِ المُلُوكِ، وكان فيه حِلْمٌ وأناةٌ وبِرٌّ وصلابَةٌ، وجَلَسُوا لعَزَائِه ثلاثةَ أيامٍ، سامَحَه اللّهُ.

هبةُ اللَّه محمدُ بنُ عبد الواحد بنِ أحمدَ بنِ العبَّاسِ بنِ الحُصَين، أبو القاسم الشَّيْبانيُّ[1]، رَاوِي المُسْنَد عن أبي عليٍّ بنِ المُذْهِب، عن أبي بكرِ بنِ مالكٍ، عن عبدِ اللَّه بنِ أحمدَ، عن أبيه، وقد سَمِعَ قديمًا؛ لأنَّه وُلِدَ في سنةِ ثِنْتَيْنِ وثمانينَ وأربَعمائةٍ، وباكَرَ به أبوه فأسْمَعَه، ومعه أخُوه عبدُ الواحدِ، على جَمَاعةٍ من عِلْيَةِ المشايخ، وقد رَوَىٰ عنه ابنُ الجَوْزيِّ، وغيرُ واحدٍ.

وكان ثقةً ثَبْتًا صحيحَ السَّماعِ، تُوُفِّي بينَ الظُّهْرِ والعَصْرِ يومَ الأربعاءِ رابعَ شَوَّالٍ من هذه السنَةِ، وله ثلاثٌ وتسعُونَ سَنَةً، رحمَه اللَّهُ تعالىٰ.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وخمسمائة

فيها: قَدِمَ مسْعُودُ بنُ محمدٍ بَغْدادَ، وقَدِمَها قَراجَا الساقي، ومعه سَلْجوق شَاه بنُ محمدٍ، وكلٌّ منهما يَطْلُبُ المُلْكَ لنَفْسه، وقدِمَ عمادُ الدينِ زَنْكي بنُ آقْ سُنْقُرَ لِيَنْضَمَّ إليهما، فتلَقَّاه قَراجَا الساقي فهزَمَه فهَرَبَ منه إلىٰ تكْرِيتَ، فَخَدَمَه نائبُ قَلْعَتِها نجمُ الدينِ أيُّوبُ - والدُ المَلِكِ صلاحِ الدينِ، الذي فَتَحَ القدسَ بعدُ حتىٰ عادَ إلىٰ بلادِه - فكانَ هذا هو السببَ في مَصِيرِ نجمِ الدينِ أيُّوبَ إليه، وهو بحَلَبَ، فخَدَمَ عندَه، ثم كان من الأمُورِ ما سَيَأتي بيانُه ممَّا قَدَّرَه اللَّهُ تعالىٰ.

ثم إنَّ المَلِكَيْنِ مسْعُودًا وسَلْجوق شَاه اجْتَمَعَا فاصْطَلَحا، وركِبَا إلىٰ المَلِكِ سَنْجَرَ فاقْتَتَلا معه، فكان جيشُه مائةَ وستِّينَ ألفًا، وكان الذينَ معَهما قَريبًا من ثلاثين ألفًا، وكان جُملَةُ من قُتِلَ بينهم من الفَريقَيْنِ أربَعينَ ألفًا، وأسَرَ جَيْشُ سَنْجَرَ قَراجَا الساقي فقَتَلَه صَبْرًا بينَ يَدَيْه، ثم أجْلَسَ طُغْرُلَ بنَ محمدٍ علىٰ سَريرِ المُلْك، وخُطِبَ له علىٰ المنابرِ، ورَجَعَ سَنْجَرُ إلىٰ بلادِه، وكتَبَ طُغْرُلُ إلىٰ دُبَيْسٍ وزَنْكي ليَذْهَبَا إلىٰ بَغْدادَ فيأخُذَاها، فأقْبَلا في جَيْشٍ كثيفٍ فبرَزَ إليهما الخليفةُ فهزَمهما، وقَتَلَ خَلْقًا من أصْحابِهما، وأزاحَ اللَّهُ شرَّهما عنه، وللَّه الحمدُ والمِنَّةُ.

وفيها: قُتِلَ أبو عليٍّ بنِ الأفضَلِ بنِ بدرٍ الجَماليِّ وزيرُ الحافظ الفاطميِّ، فنَقَلَ الحافظُ الأمْوالَ التي أخَذَها إلىٰ دارِه، واسْتَوْزَرَ بَعْدَه أبا الفَتْح يانسَ الحافظيَّ، ولَقَّبَه أميرَ الجُيوشِ، ثم احْتَالَ له فقَتَلَه، واسْتَوْزَرَ الحافظُ ولدَه حسنًا وخُطِبَ له بولايَةِ العَهْد.

وفيها: عَزَلَ المسترشدُ وزيرَه عليَّ بنَ طِرادٍ، واسْتَوْزَرَ أنُوشِرْوانَ بنَ خالدٍ بعدَ تَمَنُّعٍ.

وفيها: مَلَكَ دِمَشْقَ شمسُ المُلُوكِ بنُ بُورِي بنِ طُغْتِكينَ بعدَ وفاةِ أبيه، واسْتَوْزَرَ يوسُفَ بنَ فَيروزَ، وكان خَيِّرًا، فملَكَ بلادًا كثيرةً، وأطاعَه أخُوه.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/٥٣٦-٥٣٩).

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ عُبَيد اللَّه بن محمد بن عُبَيد الله بن محمد بن أحمدَ بن أحمدَ بن حَمْدَانَ بن عُمَرَ بن عيسى بن إبْرَاهيمَ بن سعيد بن عُتْبَةَ بن فَرْقَدٍ السُّلَمِيُّ، ويُعْرَفُ بابن كادش، العُكْبَرِيُّ، أبو العزِّ البَغْدَاديُّ، سمع الحديثَ الكثيرَ، وكان يَفْهَمه ويَرْويه وهو آخرُ مَن روىٰ عن الماوَرْدِيِّ، وقد أثنَىٰ عليه غيرُ واحدٍ؛ منهم أبو محمد بن الخَشَّاب، وكانَ محمدُ بنُ ناصرٍ يتَّهِمُه ويَرْميه بأنَّه اعتَرَفَ بوَضْعِ الحديث، فاللَّهُ أعْلَمُ. وقالَ عبدُ الوَهَّاب الأنْمَاطيُّ: كان مُخَلِّطًا، تُوُفِّيَ في جُمَادَىٰ الأولىٰ من هذه السنَة.

محمدُ بنُ محمد بن الحسَيْن بن محمد، أبو الحُسَيْن ابنُ القاضي أبي يَعْلَىٰ بن الفَرَّاء الحَنْبَليُّ، وُلِدَ في شعْبَانَ سَنَةَ إحْدَىٰ وخَمْسين وأرْبَعمائةٍ، سمعَ أباه وغيرَه، وتَفَقَّه وناظَرَ وأفْتَىٰ ودَرَّسَ، وكان له بيتٌ فيه مالٌ، فعُدِيَ عليه من الليلِ فقُتِلَ وأُخذَ مالُه، ثم أظْهَرَ اللَّهُ، عزَّ وجَلَّ، علىٰ قاتِله فقَتَلُوه.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وخمسمائة

في صَفَرٍ منها دخَلَ السُّلْطانُ مسْعُودُ إلىٰ بَغْدَادَ، فخُطِبَ له علىٰ منابرها، وخَلَع عليه الخليفةُ ولأه السَّلْطَنَةَ، ولمَّا ذُكِرَ علىٰ المنابرِ نُثِرَتْ الدَّنَانيرُ والذهَبُ علىٰ الناسِ، وخُلِعَ أيضًا علىٰ الملك داودَ ابن محمودٍ. وفيها جَمَعَ دُبَيْسٌ جَمْعًا كثيرًا بواسطٍ، وانْضَمَّ إليه جَمَاعَةٌ فأرْسَلَ السُّلْطانُ جَيْشًا فكَسَرُوه وفَرَّقُوا شَمْلَه، ثم إنَّ الخَليفةَ عَزَمَ علىٰ الخرُوجِ إلىٰ المَوْصلِ ليأْخُذَها من يَدِ زَنْكي، فخَرَجَ في جَيشٍ كثيفٍ، وخلْقٍ من الأمَرَاءِ الأكابرِ والوزَراء، فلمَّا اقْتَربَ منها بَعَثَ إليه عمادُ الدين زَنْكي يعرِضُ عليه من الأمْوال الجزيلَةِ والتُّحَفِ شيئًا كثيرًا ليرْجِعَ عنه فلم يَقْبَلْ، ثم بَلَغَه أنَّ السُّلْطانَ مسْعُودًا قد اصْطَلَحَ مع دُبَيْسٍ وخَلَع عليه، فكرَّ راجعًا سريعًا إلىٰ بَغْدَادَ سالمًا مُعظَّمًا.

وفيها: ماتَ ابنُ الزَّاغُونيِّ أحدُ أئمَّة الحَنابِلَة، فَطَلَبَ حَلْقَتَه ابنُ الجَوْزيِّ - وكانَ شابًّا - فحَصَلَتْ لغَيْرِه ولكنْ أذِنَ له الوزيرُ أنوشرْوانَ في الوعْظ فَتَكَلَّمَ في هذه السنَةِ علىٰ الناسِ بأمَاكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ من بَغْدَادَ، وكَثُرَتْ مَجَالسُه وازْدَحَمَ عليه الناسُ.

وفيها: مَلَكَ شَمْسُ المُلُوك إسْمَاعيلُ صاحبُ دمَشْقَ مدينَةَ حَمَاةَ، وكانت بيدِ زَنْكي. وفي ذي الحجَة نهَبَ التُّرْكُمانُ مدينَةَ طَرَابُلُسَ فخَرَجَ إليهم القُومَصُ - لَعَنَه اللَّهُ - فهَزَمُوه وقَتلُوا خَلْقًا من أصْحابِه، وحاصَرُوه بها مُدَّةً طويلةً، حتىٰ طالَ عليهم الحِصَارُ فانْصَرَفُوا.

وفيها: وُلِّيَ مَكَةَ قاسمُ ابنُ أبي فُلَيْتَةَ بعدَ أبيه.

وفيها: قَتَلَ شَمْسُ المُلُوك أخاه سونج، وفيها اشْتَرَىٰ الباطنِيَّةُ بالشام حصنَ القُدْمُوسِ فسكَنُوه، وحارَبُوا مَن جَاوَرَهم من المسلمين والفرنْج.

وفيها: اقْتَتَلَت الفرنْجُ فيما بينَهم قتالاً شديدًا فمَحَقَ اللَّهُ منهم خَلْقًا كثيرًا، وغزَاهم فيها أيضًا عمادُ

الدينِ زَنْكِي فقتَلَ منهم ألفَ قتيلٍ، وغَنِمَ منهم أموالاً جزيلةً، ويُقالُ لها: غَزَاةُ أَسْوَارٍ.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنَةِ نَظَرٌ الخادمُ، وكذا في التي قبْلَها والتي بعدَها.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعيانِ:

أحمدُ بنُ سلامةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ مَخْلدِ بنِ إبراهيمَ، أبو العبَّاسِ، ابنُ الرُّطَبِيِّ، تَفَقَّهَ على أبي إسحاقَ، وابنِ الصبَّاغِ ببغدادَ، وبأصبهانَ على محمدِ بنِ ثابتٍ الخُجَنْدِيِّ، ثم وَلِيَ الحُكْمَ ببغدادَ بالحَريمِ والحِسْبَةَ ببغدادَ، وكان يُؤَدِّبُ أولادَ الخليفةِ، تُوُفِّيَ في رجبَ من هذه السنَةِ، ودُفِنَ عندَ قبرِ الشيخِ أبي إسحاقَ.

أسعدُ بنُ نَصْرِ ابنِ أبي الفضلِ، أبو الفتحِ الميهَنِيُّ مَجْدُ الدينِ، أحدُ أئمةِ الشافعيَّةِ، وصاحبُ «الطريقَةِ في الخلافِ» المطْرُوقَةِ، وقد درَّسَ بالنِّظاميَّةِ ببغدادَ في سنَةِ سَبْعٍ وخمسمائةٍ إلى ثلاثِ عشْرةَ فعُزِلَ عنها، واشتهرَ أصحابُه هنالكَ وبعدَ صيتُه وقد تقدَّمَ في سنَةِ سَبْعَ عَشْرَةَ أنَّه وَلِيَها، وأنَّه تُوُفِّيَ في سنَةِ ثلاثٍ وعشرينَ. وقال ابنُ خَلِّكَانَ: تُوُفِّيَ سنَةَ سَبْعٍ وعشرينَ.

الحسَنُ بنُ محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ أحمدَ بنِ عليٍّ، أبو نَصْرٍ اليُونَارْتِيُّ[1]، من قُرَى أصبهانَ، سمعَ الحديثَ، ورحلَ وخرَّجَ، وله تاريخٌ، وكان يَكْتُبُ حسنًا ويَقْرأُ فَصيحًا، تُوُفِّيَ بأصبهانَ في هذه السنَةِ، واللَّهُ تعالى أعلَمُ.

ابنُ الزَّاغُونِيِّ الحنْبَلِيُّ، عليُّ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ نَصْرِ بنِ السَّرِيِّ الزَّاغُونِيُّ، الإمامُ الشَّهيرُ، قرَأَ القراءاتِ وسمعَ الحديثَ، واشْتَغَلَ بالفقهِ والنحوِ واللغَةِ، وله المُصنَّفاتُ الكثيرةُ في الأُصولِ والفُروعِ، وله يَدٌ في الوَعْظِ، واجتمَعَ الناسُ في جنازَتِه، وكانت حافلَةً جدًّا.

عليُّ بنُ يَعْلَى بنِ عَوَضٍ، أبو القاسمِ العلويُّ الهَرَوِيُّ، سمعَ «مُسْنَدَ أحمدَ» من ابنِ الحُصَيْنِ، و«التِّرْمِذِيَّ» من أبي عامرٍ الأَزْدِيِّ، وكان يَعِظُ الناسَ بنَيْسابورَ، ثم قدِمَ بغدادَ، فوَعظَ بها فحصَلَ له القبولُ التَّامُّ من أهلِ بغدادَ وجَمَعَ أموالاً وكُتُبًا. قال ابنُ الجَوْزِيِّ: وهو أولُ من سلَّكَني في الوَعْظِ، وتكلَّمْتُ بينَ يديه وأنا صغيرٌ، وتكلَّمْتُ على الناسِ عندَ انْصرافِه.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ يَحْيَى، أبو عبدِ اللَّهِ العُثْمانِيُّ الدِّيباجِيُّ، وكان ببغدادَ يُعْرَفُ بالمَقْدسِيِّ، تَفَقَّهَ، وكانَ أشْعَرِيَّ الاعتقادِ، ووعَظَ الناسَ ببغدادَ، قال ابنُ الجَوْزِيِّ: سمعتُه يُنشِدُ في مَجْلِسِه قولَه:

دَعْ جُفُوني يَحِقُّ لي أنْ أنُوحَا ... لم تَدَعْ لي الذُّنُوبُ قَلْبًا صحيحَا
أخْلَقَتْ بَهْجَتي أكُفُّ المعاصي ... ونعَاني المشيبُ نَعْيًا فصيحَا
كلَّما قُلتُ قد بَرا جُرْحُ قَلْبي ... عادَ قَلْبي من الذُّنُوبِ جَرِيحَا
إنَّما الفَوْزُ والنَّعيمُ لعَبْدٍ ... جاءَ في الحَشْرِ آمِنًا مُسْتَرِيحَا

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٦٢١-٦٢٢).

محمدُ بنُ محمد بن الحُسَيْن بن محمد بن أحمدَ بن خَلَف، أبو خازم بنُ أبي يَعْلَى بن الفَرَّاء، الفقيهُ ابنُ الفقيه، وُلِدَ سَنَةَ سَبْعٍ وخَمْسِينَ وأربعمائةٍ، سمع الحديثَ، وكان مِن الفقهاءِ الزَّاهِدِينَ الأَخْيارِ، تُوُفِّيَ في صَفَر منها.

أبو محمد، عبدُ الجَبَّار بنُ أبي بكر بن محمد بن حَمْدِيس الأزْدِيُّ الصِّقِلِّيُّ الشاعرُ المَشْهُورُ، أَوْرَدَ له ابنُ خَلِّكَانَ أشْعَارًا رائقةً، فمنها قولُه:

قُمْ هاتِها مِن كَفِّ ذاتِ الوِشاحْ ... فقد نَعَى الليلَ بشيرُ الصَّباحْ
باكِرْ اللذاتِ وارْكَبْ لها ... سَوابِقَ اللَّهْوِ ذواتِ المراحْ
من قَبْلِ أنْ تَرْشُفَ شمسُ الضُّحَا ... رِيقَ الغَوادِي من ثُغُورِ الأقاحْ

ومِن جُملَةِ مَعانيه النَّادِرَةِ:

زَادَتْ على كَحَلِ الجُفُونِ تكَحُّلاً ... ويُسَمُّ نَصْلُ السَّهْمِ وهو قَتُولُ

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

فيها: اصْطَلَح الخليفةُ وزَنْكي. وفيها فتَح زَنْكي قِلاعًا كثيرةً، وقتَل خلقًا مِن الفرنْج. وفيها فتَح شمسُ الملوك شَقيفَ تيرُونَ، ونهَب بلادَ الفرنْج.

وفيها: قدِمَ سَلجوقُ شاه بغدادَ، فنزَل بدارِ المَمْلَكَة، وأكرَمه الخليفةُ وأرسَل إليه عشرَةَ آلافِ دينارٍ، ثم قدِمَ السلطانُ مسعودٌ، وأكثرُ أصْحابه رِكابٌ على جِمالٍ لقلَّة الخيلِ.

وفيها: تولَّى إمْرَةَ بَني عَقيلٍ أوْلادُ سُليمانَ بن مُهارِشٍ العَقيليِّ، إكْرامًا لجَدِّهم.

وفيها: أُعيدَ ابنُ طِرادٍ إلى الوزارة، وفيها خُلِعَ على إقْبالٍ المُسْتَرْشِديِّ خِلَعَ المُلوك، ولُقِّبَ ملكَ العرَبِ سيفَ الدولةِ، وركِبَ في الخِلَعِ وحضَر الديوانَ كذلك. وفيها قَوِيَ أمرُ الملك طُغْرُلَ، وضَعُفَ أمرُ الملك مسعودٍ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ عليِّ بن إبراهيمَ، أبو الوفاء الفيرُوزَاباذيُّ، أحدُ مشايخِ الصوفيَّة، سكَن رباطَ الزَّوْزَنيِّ، وكان كلامُه يُسْتَحْلَى، وكان يحفَظُ مِن سِيَرِ الصوفيَّة أخبارهم وأشْعارهم شيئًا كثيرًا.

أبو عليٍّ الفارقيُّ، الحسنُ بنُ إبراهيمَ بن بَرْهُونَ[1]، أبو عليٍّ الفارقيُّ، وُلِدَ سنةَ ثلاثٍ وثلاثينَ وأرْبَعمائة، وتفَقَّه بها على أبي عبد الله محمد بن بَيَانٍ الكازَرُونيِّ صاحبِ المَحامليِّ، ثم على الشيخ أبي إسحاقَ، وابنِ الصَّبَّاغِ، وسمع الحديثَ، وكان يُكرِّرُ على «المُهَذَّب»، و«الشامل»، ثم وَلِيَ

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٦٠٨-٦٠٩).

القضاءَ بواسطٍ، وكان حسنَ السيرةِ، جيدَ السريرةِ، مُمتَّعًا بحواسِّه وعقلِه، إلى أن تُوفِّيَ في محرَّمِ هذه السنةِ عن ستٍّ وتسعينَ سنةً.

عبدُ اللَّه بنُ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ الحسينِ، أبو محمدٍ ابنُ أبي بكرٍ الشَّاشيُّ، سمع الحديثَ وتفقَّه على أبيه، وناظَرَ وأفتَى، وكان فاضلاً، واعظًا، فصيحًا مُفوَّهًا، شكَرَ ابنُ الجوزيِّ مِن وَعْظِه وحُسْنِ نظْمِه ونثْرِه ولفْظِه.

تُوفِّيَ في المُحرَّمِ وقد قارَب الخمسين، رحِمَه اللَّهُ، ودُفِنَ عندَ أبيه.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عليٍّ، أبو بكرٍ القطَّانُ، ويُعْرَفُ بابنِ الحَلَّاجِ البَغْداديُّ، سمع الحديثَ، وقرَأ القُرآنَ، وكان خيِّرًا زاهدًا عابدًا، يُتَبرَّكُ بدُعائِه، ويُزارُ، رحِمه اللَّهُ.

محمدُ بنُ عليِّ بنِ عبدِ الواحدِ الشافعيُّ، أبو رشيدٍ، مِن أهلِ آمُلَ طَبَرِستانَ، وُلِدَ سنةَ سبعٍ وثلاثينَ وأربَعمائةٍ، وحجَّ وأقامَ بمكَّةَ، وسمع الحديثَ، وروَى شيْئًا يسيرًا، وكان زاهدًا مُنْقطِعًا عن الناسِ، مُشْتغِلاً بنفسِه، ركِبَ مرةً مع تجارٍ في البحرِ، فأوفَوا على جزيرةٍ، فقال: دَعُوني في هذه أعبُدِ اللَّهَ فيها، فمانَعُوه، فأبَى إلا المُقامَ بها، فترَكُوه وسارُوا، فرَدَّتْهمُ الريحُ إليه، فراوَدُوه على المسيرِ معَهم، فامتنَع، فساروا، فردَّتْهمُ الريحُ إليه، فراودُوه فامتنَع، فساروا، فرَدَّتْهم الريحُ إليه، فقالوا: إنَّه لا يمكِنُ أن نسيرَ إلا بكَ، وإذا أرَدْتَ المُقامَ بها فارْجِعْ إليها. فسار معهم، ثم رجَع إليها فأقام بها مدةً، ثم ترحَّلَ عنها - ويقالُ: إنَّه كان بها ثُعْبانٌ يَبْتلِعُ الإنسانَ، وبها عَيْنُ ماءٍ يشْربُ منها ويتوضَّأُ - ثم رجَع إلى بلدِه آمُلَ، فمات بها في هذا العامِ، وقبرُه مشهورٌ يُزارُ.

أُمُّ الخليفةِ المُسترْشدِ، تُوفِّيَتْ ليلةَ الإثنينِ بعدَ العَتَمةِ تاسعَ عشَرَ شوَّالٍ من هذه السنةِ.

* * *

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمائة

فيها: كانت وفاة المسترشد وولاية الراشد، وكان سبب ذلك أنه كان بين السلطان مسعود وبين الخليفة وقائع كثيرة، فاقتضى الحال أن الخليفة أراد قطع الخطبة له من بغداد، فاتفق موت أخيه طغرل ابن محمد بن ملكشاه، فسار إلى البلاد فملكها، وقوي جانبه، ثم شرع يجمع العساكر؛ ليأخذ بغداد من يد الخليفة، فلما علم الخليفة بذلك انزعج واستعد لذلك، وقفز جماعة من رءوس الأمراء إلى الخليفة؛ خوفا على أنفسهم من سطوة الملك مسعود، وركب الخليفة من بغداد في جحافل كثيرة، فيهم القضاة ورءوس الدولة من جميع الأصناف، فمشوا بين يديه أول منزله حتى وصل إلى السرادق، وبعث بين يديه مقدمة، وأرسل الملك مسعود على مقدمته دبيس بن صدقة بن منصور، الذي كان صاحب الحلة، فجرت خطوب كثيرة، وحروب كثيرة. وحاصل الأمر أن الجيشين التقيا في عاشر رمضان يوم الإثنين فاقتتلوا قتالا كثيرا، ولم يقتل بين الصفين سوى خمسة أنفس، ثم حمل الخليفة على جيش الملك مسعود فهزمهم. ثم تراجعوا، فحملوا على جيش الخليفة، فهزموهم وقتلوا منهم خلقا، وأسروا الخليفة، ونهبت أمواله وحواصله، من جملة ذلك أربعة آلاف ألف دينار، وغير ذلك من الثياب والخلع والأثاث والقماش والماعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وطار الخبر في الأقاليم، وحين بلغ الخبر إلى بغداد انزعج الناس لذلك، وزلزلوا زلزالا شديدا، صورة ومعنى، وجاءت العامة إلى المنابر، فكسروها وامتنعوا من حضور الجماعات، وخرج النساء في البلد حاسرات ينحن على الخليفة، وما جرى عليه من الأسر، وتأسى بأهل بغداد في ذلك خلق كثير من أهل البلاد، وتمت فتنة كبيرة، وانتشرت في الأقاليم، واستمر الحال على ذلك إلى مستهل شهر ذي القعدة والشناعة في الأقاليم منتشرة، فكتب الملك سنجر إلى ابن أخيه يحذره غب ذلك، ويبصره بما وقع من الأمر العظيم والخطب الجسيم، ويأمره أن يعيد الخليفة إلى مستقر عزه ودار خلافته، فامتثل الملك مسعود ذلك، وضرب للخليفة سرادق عظيم، ونصب له فيه قبة عظيمة تحتها سرير هائل، وألبس الخليفة السواد على عادته، وأركب بعض ما كان يركبه من مراكبه. وجاء الملك مسعود، فقبل الأرض بين يديه، وأمسك لجام الفرس، وتمشى في خدمته والجيش كلهم مشاة حتى أجلس الخليفة على سريره، ووقف الملك مسعود بين يديه، وخلع الخليفة عليه، وجيء بدبيس مكتوفا وعن يمينه أميران، وعن يساره أميران، وسيف مسلول وشقة بيضاء، فطرح بين يدي الخليفة؛ ماذا يرسم فيه تطيبا لقلبه، فأقبل السلطان يشفع في دبيس وهو ملقى يقول: العفو يا أمير المؤمنين، أنا أخطأت والعفو عند المقدرة. فأمر الخليفة بإطلاقه وهو يقول: لا تثريب عليكم اليوم. فنهض قائما والتمس أن يقبل يد الخليفة فأذن له فقبلها، وأمرها على صدره، وسأل العفو عنه وعما كان منه، واستقر الأمر على ما ذكرنا، وطار هذا الخبر في الآفاق، وفرح الناس بذلك، وطابت قلوبهم، فلما كان مستهل

ذي القَعْدَة جاءَت الرسلُ من جهةِ الملك سَنْجَرَ إلى ابن أخيه يستحثُّه على الإحسان إلى الخليفة، وأن يبادرَ إلى سُرْعَةِ ردِّه إلى وطنه، وأرسَلَ مع الرسلِ جيْشًا، ليكُونوا في خدمة الخليفة إلى بَغْداد، فصَحِبَ الجيشَ عشَرَةٌ من الباطنيَّة، فقيل: من حيثُ لا يَشْعُرون. وقيل: بل كانوا مُجهَّزينَ. فاللهُ أعلمُ، إلا أنَّهم حالةَ وصولِهم إلى هنالك حمَلوا على الخليفة في خيْمَته، فقتلوه فيها وقطَّعُوه قطَعًا، فلم يلْحَق الناسُ منه إلا الرُّسومَ، وقتَلُوا معه جماعةً من أصْحابه؛ منهم عبدُ الله ابنُ سُكَيْنَةَ، فأُخذَ أولئكَ الرهطُ فأُحْرِقُوا، قبَّحَهم اللهُ، وسارت بذلك الرُّكبانُ في البلدان، فما من أهلِ بلدةٍ إلا وهم أشدُّ حزنًا على الخليفة المسترشد من الأخرىٰ، لاسيَّما أهلَ بغدادَ، وخرجت النساءُ في الطرقات ينُحنَ عليه ويندُبْنَه، وقد ذكَر أبو الفرج ابنُ الجوزيِّ ما كُنَّ يَقُلْنَه من النِّياحة على الخليفة، رحمه اللهُ، وكان مَقْتَلُه على باب مَراغةَ في يوم الخميس سابعَ عشرَ ذي القَعدة، فحُمل إلى بغدادَ، ولما استقرَّ خبرُ موته ببغدادَ عُمل له العزاءُ ثلاثةَ أيامٍ بعدَما بُويع لولده الراشد.

ذكرُ شيءٍ من ترجمةِ المسترشدِ، رحمه اللهُ[1]

كان المسترشدُ شُجاعًا مقدامًا بعيدَ الهمَّة، فصيحًا بليغًا، عذْبَ الكلام حسنَ الإيراد، مليحَ الخطِّ، كثيرَ العبادة، محبَّبًا إلى العامَّة والخاصَّة، وهو آخرُ خليفةٍ رُئي خطيبًا، قُتل وعمرُه ثلاثٌ وأربعون سنةً، وثلاثةُ أشهرٍ، وكانتْ مدةُ خلافته سَبْعَ عشْرَةَ سنةً وستَّةَ أشهرٍ وعشْرينَ يومًا، وكانت أمُّه أمَّ ولَدٍ من الأتراك.

خلافةُ الراشدِ بالله أبي جعفرٍ منصورِ بن المسترشدِ[2]

كان أبوه قد أخَذ له العهدَ، ثم أرادَ أن يخلَعَه فلم يقدِرْ على ذلك؛ لأنه لم يُقَدَّرْ. فلمَّا قُتل أبوه بباب مَراغَةَ في يوم الخميس السابعَ عشرَ من ذي القَعْدَة من سنة تسعٍ وعشْرينَ وخمسمائة، كما ذكَرنا، كان هو ببغدادَ، فلمَّا جاء خبرُه إليها بايَعه الأمراءُ والأعْيانُ، وخُطب له على المنابر ببغدادَ وسائر البلاد، وكان إذْ ذاكَ كبيرًا له أولادٌ، وكان أبيضَ، جسيمًا حسنَ اللون، فلمَّا كان يومُ عرَفَةَ من هذه السَّنَة جيءَ بالمسترشد - قد نُقل من هناك إلى بغدادَ - فصلَّى عليه ببَيْت النُّوبة، وكثُر الزحامُ، وخرَج الناسُ لصلاة العيدِ من الغَد وهم في حزنٍ شديدٍ على المسترشد، رحمه اللهُ، وقد ظهَر الرفضُ قليلاً في أوَّل أيام الراشد.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمد بن أحمدَ بن الحسين بن عمرَ، أبو المُظفَّر بنُ أبي بكرٍ الشَّاشيِّ، تفقَّه بأبيه، واخترَمته المَنِيَّةُ بعدَ أخيه، ولم يَبْلُغْ سنَّ الرواية.

(١) انظر «السير» (١٩/ ٥٦١ـ ٥٦٨).

(٢) ترجمته في «السير» (١٩/ ٥٦٨ ـ ٥٧٣).

إسماعيلُ بنُ عبد الملك بن عليٍّ، أبو القاسم الحاكميُّ، تفقَّه بإمام الحرَمَيْن، وكان رفيقَ الغزَّاليِّ في الاشتغال، وأسنَّ منه، فلهذا كان الغزَّاليُّ يحترِمُه ويُكرِمُه، وكان فقيهًا بارعًا، وعابدًا ورِعًا. كانت وفاتُه في هذه السنة بطُوسَ، ودُفِنَ إلى جانب الغزَّاليِّ، رحمهما اللَّهُ.

دُبيسُ بنُ صدقةَ بن منصور بن دُبَيس بن عليِّ بن مَزْيَد، أبو الأغرِّ الأسَديُّ الأميرُ، من بيت الإمْرة وسادة الأعْراب، كان شُجاعًا بطَلاً، فعَل الأفاعيلَ وتَمزَّقَ في البلاد من خوفه من الخليفة، ثم استُرْضيَ عنه الخليفةُ المسترشدُ، كما ذكرنا، فلمَّا قُتل الخليفةُ عاش بعدَه أربعةً وثلاثينَ يومًا. ثم اتُّهِمَ عندَ السلطان مسعودٍ بأنَّه قد كاتَب زَنْكي يَنهاه عن القُدوم على السلطان، ويأمُرُه أن يَنْجُو بنفسه، فبعَث إليه السلطانُ غُلامًا أرْمَنيًّا، فوجَده مُنَكِّسًا رأسَه يُفكرُ في أمره، فما كلَّمه حتى شهَر سيفَه، وضربَه به فأبانَ رأسَه عن جثَّته، ويقالُ: بل استَدْعاه السلطانُ إليه، فقتَله صبْرًا بينَ يدَيْه، فاللَّهُ أعلمُ.

طُغْرُلُ السلطانُ ابنُ السلطان محمد بن مَلكْشاه، تُوُفِّي بهَمَذَانَ يومَ الأربعاء ثالثَ المحرَّم من هذه السنة.

عليُّ بنُ الحسن الدَّرْزيجانيُّ كان عابدًا زاهدًا، حكَى ابنُ الجوزيِّ عنه أنَّه كان يقولُ بأنَّ القدرةَ تتعلَّقُ بالمستحيل، ثم أُنكِرَ عليه ذلك، وعُذِر بجهله وعدم تعقُّله لمَا يقولُ.

الفَضْلُ أبو منصور أميرُ المؤمنينَ المسترشدُ باللَّه، كان من خيار الخلفاء العباسيِّين، شهمًا شجاعًا، يباشرُ الحروبَ بنفسه، وقد أسْلَفنا ذلك فيمَا تقدَّمَ. قتَلَتْه الباطنيةُ بباب مَراغَةَ يومَ الخميس السابعَ عشَرَ من ذي القَعْدة من هذه السنة، ثم نُقل إلى بغدادَ فدُفِن بها، رحمه اللَّهُ وبلَّ بالرحمة ثَراه، وجعَل الجنةَ منزلتَه ومأواه.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

فيها: وقَع بينَ الخليفة الراشد وبينَ السلطان مسعودٍ، بسبَب أنَّه أرسَل إلى الخليفة يطلُبُ منه ما كان كتَب له والدُه المسترشدُ حينَ أسرَه؛ الْتزَمَ له بأربعمائة ألف دينار، فامتنَع من أداء ذلك وقال: ليس بينَنا وبينَكم إلا السيفُ. فوقَع بينَهما الخُلْفُ، فاستَجاش السلطانُ العساكرَ، واستَنهَض الخليفةُ الأمراءَ، وأرسَلَ إلى عماد الدين زَنْكي فجاء، والْتَفَّ عليه خلائقُ، وجاء في غُبون ذلك السلطانُ داودُ بنُ محمود بن محمد بن مَلكْشاه، فخطَب له الخليفةُ ببغدادَ، وخلَع عليه وبايَعه على المُلك، فتأكَّدَت الوَحْشَةُ بينَ السلطان والخليفة جدًّا، وبرَز الخليفةُ إلى ظاهر بغدادَ، ومشَى الجيشُ بينَ يَدَيه، كما كانوا يعاملون به أباه قبلَه، وذلك يومَ الأربعاء سَلْخَ شعبانَ، وخرَج السلطانُ داودُ من جانب آخرَ، فلمَّا بلَغهم كثرةُ جيوش السلطان مسعودٍ حسَّن عمادُ الدين زَنْكي للخليفة أن يذهَبَ معه إلى بلاد المَوْصِل. واتَّفَقَ دخولُ السلطان مسعودٍ إلى بغدادَ في غَيْبتِهم يومَ الإثنين رابعَ شَوَّال، فاستَحوذَ على دار الخلافة بما فيها جميعِه، ثم استَخلَص من نساء الخليفة وحَظاياه الحُليَّ والمَصاغَ والثيابَ التي

للزِّينَةِ، وغيرَ ذلك، وجمَعَ القضاةَ والفقهاءَ، وأبرَزَ لهم خطَّ الراشدِ أنَّه متى خرَجَ من بغدادَ لقتالِ السلطانِ فقد خلَع نفسَه من الخلافةِ، فأفتَى مَن أفتَى من الفقهاءِ بخَلْعِه، فخُلِعَ في يومِ الإثنينِ سادسَ عشَرَ شهرِ ذي القَعْدَةِ بحُكْمِ الحاكمِ، وفُتْيا أكثرِ الفقهاءِ، وكانت خلافتُه أحدَ عشَرَ شهرًا، وأحَدَ عشَرَ يومًا، واستَدعَى السلطانُ بعمِّه المُقتَفِي بنِ المستظهرِ فبُويِعَ بالخلافةِ؛ عوَضًا عن ابنِ أخيه الراشدِ باللَّهِ.

خلافةُ المقتفي لأمرِ اللهِ

أبي عبدِ اللهِ محمدِ بنِ المستظهرِ باللهِ

وأمُّه صفراءُ تسمَّى نسيمَ، ويقالُ لها: ستُّ السَّادةِ، وله من العُمرِ يومَئذٍ أربعونَ سنةً، بُويِعَ بالخلافةِ بعدَ خلعِ الراشدِ بيَوْمَيْنِ، وخُطِب له على المنابرِ يومَ الجُمُعَةِ العشرينَ من ذي القَعدةِ، ولُقِّبَ بالمُقتَفِي؛ لأنَّه يُقالُ: إنَّه رأى النبيَّ ﷺ، وهو في المنامِ وهو يقولُ له: سَيَصِلُ هذا الأمرُ إليكَ فاقْتَفِ بي. فصار إليه بعدَ ستةِ أيامٍ، فلُقِّبَ بذلك لذلك.

فائدةٌ حسنةٌ ينبغي التنبيهُ عليها

وَلِيَ المُقْتَفِي والمسترشدُ الخلافةَ وكانا أخوَين، وكذلك السَّفَّاحُ والمنصورُ، وكذلك الهادي والرشيدُ، ابنا المَهْدِيِّ، وكذلك الواثقُ والمُتَوكِّلُ ابنا المُعْتَصِمِ أخوان، وأمَّا ثلاثةُ إخوَةٍ فالأمينُ والمأمونُ والمعتصمُ بنُو الرشيدِ، والمُنتَصِرُ والمُعْتَزُّ والمعتمدُ بنُو المتوكِّلِ، والمُكتَفِي والمُقْتَدِرُ والقاهرُ بنُو المُعْتَضِدِ، والرَّاضِي والمُقْتَفِي والمُطِيعُ بنُو المقتدرِ، وأمَّا أربعةُ إخوَةٍ فلم يكُنْ إلا في بَنِي أُمَيَّةَ، وهم الوليدُ وسُليمانُ ويزيدُ وهشامُ بنُو عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ. ولَمَّا استقرَّ المُقْتَفِي في الخلافةِ استمرَّ الراشدُ ذاهبًا إلى المَوْصِلِ صُحْبَةَ صاحبِها عمادِ الدينِ زَنْكي، فدخَلها في ذي الحِجَّةِ من هذه السنةِ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

محمدُ بنُ حَمُّويةَ بنِ محمدِ بنِ حَمُّويةَ، أبو عبدِ اللَّهِ الجُوَيْنِيُّ[1]، روَى الحديثَ وكان صدوقًا، مشْهُورًا بالعلمِ والزهدِ، وله كراماتٌ، دخَل إلى بلدٍ فلمَّا ودَّعَهم أنشَدَهم:

لَئِنْ كانَ لي مِن بعدُ عَوْدٌ إليكُمُ ... قَضَيْتُ لُبَاناتِ الفُؤادِ لديكُمُ
وإنْ تكُنِ الأُخْرَى وفي الغَيْبِ عِبْرَةٌ ... وحالَ قَضاءٌ فالسَّلامُ عليكُمُ

محمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ أحمدَ بنِ حبيبٍ، أبو بكرٍ العامريُّ، المعروفُ بابنِ الخَبَّازةِ، سمع الحديثَ ورحَل في طلبِه، وكانت له معرفةٌ بالفقهِ والحديثِ، وقد شرَح كتابَ «الشِّهابِ». وكان يعظُ الناسَ على طريقةِ التصوُّفِ، وكان ابنُ الجوزيِّ فيمَن تأدَّبَ به، وقد أثنَى عليه، ومن شعرِه:

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٥٩٧-٥٩٨).

كيف احتيالي وهذا في الهوى حالي ... والشوقُ أملَكُ لي من عَذْلِ عُذَّالي
وكيف أسلُو وفي حُبِّي له شُغُلٌ ... يَحُولُ بينَ مُهِمَّاتي وأشغالي

وقد ابْتَنَى رباطًا، فكان عندَه جماعةٌ من المُتَعَبِّدينَ والزُّهَّاد، ولَمَّا احتُضِرَ أوْصاهم بتَقْوَى اللَّهِ، عزَّ وجلَّ، والإخلاص، ثم شرَعَ في النَّزْعِ، وعرِقَ جَبِينُه فمَدَّ يدَه ثم قال:

ها قد بسَطتُ يَدِي إليكَ فرُدَّها ... بالفَضْلِ لا بَشَماتَةِ الأعْداءِ

ثم قال: أرَى المشايخَ بينَ أيْدِيهمُ الأطْباقُ وهم ينتَظِرُونَني. ثم ماتَ، وذلك ليلةَ الأربعاءِ نصفَ رمضانَ، ودُفِنَ برباطِه، ثم غرِق رباطُه وقبرُه في سنةِ أربعٍ وخمسين وخمسمائةٍ، رحمه اللَّهُ.

محمدُ بنُ الفَضْلِ بن أحمدَ بن محمد بن أبي العباس، أبو عبدِ اللَّه الصاعديُّ الفُراويُّ[1]، كان أبوه من ثَغْرِ فُراوةَ، وسكَنَ نَيْسَابُورَ، فوُلِدَ له بها محمدٌ هذا، وقد سمع الحديثَ الكثيرَ على جماعةٍ من المشايخِ بالآفاقِ، وتفقَّه وأفتَى وناظَرَ ووعَظَ، وكان ظريفًا، حسَنَ الوَجْهِ، جميلَ المُعاشَرَةِ، كثيرَ التبَسُّمِ، وأمْلَى أكثرَ من ألف مجلسٍ، ورحَل إليه الطلبةُ من الآفاقِ حتى كان يقالُ: الفُراوِي ألفُ راوِي. وقيلَ: إنَّ ذلك كان مكْتُوبًا في خاتَمِه. وقد أسمَعَ «صحيحَ مسلم» قريبًا من عشرينَ مرَّةً.

تُوُفِّي في شَوَّالٍ من هذه السنة عن تسعينَ سنةً، رحمه اللَّهُ.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

فيها: كثُرَ موتُ الفجأة بأَصْبهانَ، فمات ألوفٌ من الناسِ، وأُغلقت دورٌ كثيرةٌ.

وفيها: تزوَّجَ الخليفةُ بالخاتُونِ فاطمةَ بنت محمد بنِ مَلِكْشَاه، على صداقِ مائة ألف دينارٍ، فحضَرَ أخوها السلطانُ مسعودٌ العقدَ وجماعةٌ من أعْيانِ الدولةِ، والوزراءُ والأمراءُ، ونُثِر على الناسِ أنواعُ النِّثارِ.

وفيها: صام أهلُ بغدادَ رمضانَ ثلاثين يومًا ولم يَرَوا الهلالَ ليلةَ إحْدَى وثلاثينَ، مع كَوْنِ السماءِ كانت مُصْحِيَةً.

قال ابنُ الجَوْزِيِّ: وهذا شيءٌ لم يقَعْ مثلُه.

وفيها: هرَب وزيرُ صاحبِ مصرَ، وهو تاجُ الدولةِ بَهْرامُ النَّصْرانيُّ، وقد كان تمَكَّنَ في البلادِ وأساء السيرةَ، فتطَلَّبَه الخليفةُ الحافظُ حتى أخَذَه فسجَنه، ثم أطْلَقَه فترَهَّبَ وترك العملَ، فاستَوْزَرَ بعدَه رِضْوانَ بنَ الزَّنْجيِّ، ولقَّبَه المَلِكَ الأفضلَ، ولم يُلَقَّبْ وزيرٌ بذلك قبلَه، ثم وقَع بينَه وبينَ الحافظِ، فلم يزَلْ به الخليفةُ حتى قتَله، واشتغَل بتَدْبيرِ أمورِه وحدَه.

وفيها: ملكَ عمادُ الدين زَنْكي عِدَّةَ بلادٍ. وفيها ظهَر بالشام سَحابٌ أسودُ أظلَمَتْ له الدُّنيا، ثم

---

(١) ترجمته في «السير» (١٩/ ٦١٥).

ظهر بعدَه سحابٌ أحمرُ كأنَّه نارٌ أضاءَتْ له الدنيا، ثم جاءَتْ ريحٌ عاصفٌ فألقَتْ أشجارًا كثيرةً، ثم وقَع مَطرٌ شديدٌ، وسقَط بَرَدٌ كبارٌ.

وفيها: قصَد ملكُ الرومِ بلادَ الشامِ فأخَذ بلادًا كثيرةً مِن أيْدي الفرنْجِ، وأطاعَه أليونُ بنُ ملكِ الأرْمَنِ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

أحمدُ بنُ محمد بن ثابت بن الحسَنِ، أبو سَعْد الخُجَنْدِيُّ، تفَقَّه على والده الإمام أبي بكرٍ الخُجَنْديِّ الأَصْبَهانيِّ، ووَلِيَ التدْريسَ بالمدرسةِ النِّظاميَّةِ ببغدادَ مِرارًا، ويُعْزَلُ عنها، وقد سمع الحديثَ ووعَظ، وتُوُفِّيَ في غُرَّةِ شعبانَ من هذه السنة وقد قارَب التسعين.

هبَةُ اللَّه بن أحمد بن عمرَ الحَرِيريُّ، يُعْرَفُ بابنِ الطَّبَرِ، سمع الكثيرَ، وهو آخرُ مَن روَى عن أبي الحسَنِ ابنِ زَوْجِ الحُرَّةِ، وقد حدَّث عنه أبو بكرٍ الخطيبُ، وكان ثَبْتًا صحيحَ السماعِ، كثيرَ الذِّكْرِ والتلاوةِ، مُمَتَّعًا بحواسِّه وقُواه إلى أن تُوُفِّيَ في جُمادَى الأُولَى مِن هذه السنةِ عن ستٍّ وتسعينَ سنةً، رحِمه اللَّهُ.

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين وخمسمائة

فيها: قُتِل الخليفةُ الراشدُ المخلوعُ؛ وذلك أنَّه اجْتمَع معه الملكُ داودُ وجماعةٌ من كبارِ الأُمراءِ، فقصَدُوا قتالَ السلطانِ مسعودٍ بأرضِ مَراغَةَ فهزَمهم وبدَّدَ شمْلَهم، وقتَل منهم خلْقًا صَبْرًا بينَ يدَيه، منهم صَدَقَةُ بنُ دُبَيسٍ، وولَّى أخاه محمدًا مكانَه على الحِلَّةِ، وهرَب الخليفةُ الراشدُ المخلوعُ، فدخَل أصْبهانَ فقتَله مَنْ كان يخدُمُه مِن الخُراسانيَّةِ، وكان قد برَأَ مِن وَجَعٍ أصابَه، فقتَلُوه في الخامسِ والعشرين مِن رمضانَ، ودُفِن بشَهْرَسْتَانَ ظاهرَ أَصْبَهانَ. وقد كان حسنَ اللونِ مليحَ الوَجْهِ شديدَ القوَّةِ مَهِيبًا. أمُّه أمُّ ولدٍ، رحِمه اللَّهُ تعالى.

وفيها: كسَا الكعبةَ رجلٌ مِن التُّجَّارِ يقالُ له: راستُ الفارسيُّ، بثمانيةَ عشرَ ألفَ دينارٍ؛ وذلك لأنَّه لم تأتِها كِسْوَةٌ في هذا العامِ لاختلافِ الملوكِ.

وفيها: كانتْ زلزلةٌ عظيمةٌ ببلادِ الشامِ والجزيرةِ والعراقِ، فانْهدَم شيءٌ كثيرٌ، ومات تحتَ الهَدْمِ خلقٌ كثيرٌ غفيرٌ.

وفيها: كان بخُراسانَ غلاءٌ شديدٌ حتى أكَلوا الكلابَ.

وفيها: أخَذ الملكُ عمادُ الدينِ زَنْكي مدينةَ حِمْصَ في المحرَّمِ، وتزوَّجَ في رمضانَ بالستِّ زُمُرُّدَ خاتُون، أمِّ صاحبِ دِمشْقَ، وهي التي تُنْسَبُ إليها الخاتُونيةُ البَرَّانِيَّةُ.

وفيها: ملَك صاحبُ الرومِ مدينةَ بُزاعةَ، وهي على ستَّةِ فراسخَ مِن حَلَبَ، فجاء أهلُها الذينَ نَجَوْا مِن القَتْلِ والسَّبْيِ يسْتَغِيثُونَ بالمسلمينَ ببغدادَ، فمُنعَت الخُطْبَةُ ببغدادَ، وجرَتْ فتنٌ طويلةٌ.

وفيها: تزوَّجَ السلطانُ مسعودٌ سفرَى بنتَ دُبَيْسِ بنِ صَدَقَةَ، وزُيِّنَتْ بغدادُ لذلك سبعةَ أيامٍ. قال

ابنُ الجوزيِّ: فحصَلَ بسبَبِ ذلك فسادٌ عريضٌ طويلٌ منتشرٌ. ثم تزوَّجَ ابْنَةَ عمِّه، فزُيِّنَتْ بغدادُ ثلاثةَ أيام أيضًا.

وفيها: وُلِد السلطانُ الناصرُ صَلاحُ الدينِ يوسُفُ بنُ أيُّوبَ بنِ شاذِي، بقَلْعَةِ تَكْرِيتَ.

وفيها: حجَّ بالناسِ الأميرُ نظرٌ الخادمُ، وكذا في السنواتِ التي قبلَها، أثابه اللَّهُ تعالىٰ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

أحمدُ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ، أبو بكر بنُ أبي الفتح الدِّيْنَوَرِيُّ الحَنْبَلِيُّ، سمع الحديثَ، وتفَقَّه على أبي الخَطَّابِ الكَلْوَذَانيِّ، وأفتَىٰ ودرَّسَ وناظَر، كان أسْعَدُ المِيهَنِيُّ يقولُ: ما اعْتَرضَ أبو بكرٍ الدِّيْنَوَرِيُّ علىٰ دليلِ أحَدٍ إلا ثَلَمَه، وقد تخرَّجَ به الشيخُ أبو الفرجِ بنُ الجوزيِّ، وأنشدَ عنه قولَه:

تمنَّيْتَ أن تُمسي فقيهًا مُناظِرًا بغيرِ عناءٍ فالجُنونُ فنونُ
وليسَ اكتسابُ المالِ دونَ مشقَّةٍ تلقَّيتَها فالعلمُ كيفَ يكونُ

عبدُ المُنْعِم بنُ عبدِ الكَرِيمِ بنِ هَوازِنَ، أبو المُظَفَّرِ القُشَيْرِيُّ، آخرُ مَن بَقِي منهم، سمعَ أباه، وأبا بَكْرٍ البَيْهَقِيَّ، وغيرَهما، وسمعَ منه عبدُ الوهَّابِ الأنْماطِيُّ، وأجازَ ابنَ الجوزيِّ، وقاربَ التِّسْعِينَ.

محمدُ بنُ عبدِ الملكِ بنِ محمدِ بنِ عمرَ، أبو الحسَنِ الكَرَجِيُّ، سمع الكثيرَ في بلادٍ شتَّىٰ، وكان فقيهًا شافعيًّا، تفَقَّهَ بأبي إسْحاقَ وغيرِه من أئمةِ الشافعيَّةِ، وكان أديبًا شاعرًا فصيحًا، وله مصنَّفاتٌ كثيرةٌ؛ منها «الفُصولُ في اعْتِقادِ الأئمةِ الفُحولِ»، يذكرُ فيه مذاهبَ السَّلفِ في بابِ الاعْتِقادِ، ويحْكِي فيه أشياءَ غريبةً حسَنَةً، وله تفسيرٌ، وكتابٌ في الفقهِ، وكان لا يقْنُتُ في الفجرِ، ويقولُ: لم يصِحَّ ذلك في حديثٍ، وقد كان إمامُنا الشافعيُّ يقولُ: إذا صحَّ الحديثُ، فاضْرِبُوا بقَولي هذا الحائطَ. وقد كان حسَنَ الصورةِ، جميلَ المُعاشَرَةِ، ومن شعرِه:

تناءَتْ دارُه عنِّي ولكنْ خيالُ جمالِه في القلبِ ساكِنْ
إذا امتلأ الفؤادُ به فماذا يضُرُّ إذا خلَتْ منه الأماكِنْ

تُوُفِّي، رحمه اللَّهُ، وقد جاوزَ السبعين.

الخليفةُ الرَّاشدُ، منصُورُ بنُ المُسْتَرْشِدِ[1] ولِي الخلافةَ بعدَ أبيه، ثم خُلِعَ، فذَهَبَ مع العمادِ زَنْكِي إلىٰ أرْضِ المَوْصِلِ، ثم جَمَعَ جُمُوعًا فاقْتَتَلَ مع الملكِ مَسعُودٍ في هذه السنَةِ فَهَزَمهم، فذَهَبَ إلىٰ أصْبَهانَ فقُتِلَ بعدَ مَرَضٍ أصابَه، فقيلَ: إنَّه سُمَّ، وقيلَ: قَتَلَتْه الباطنِيَّةُ. وقيلَ: بل قَتَلَه الفرَّاشُونَ الذينَ كانُوا يَلُونَ أمْرَه. فاللَّهُ أعلَمُ.

وقد حكَىٰ ابنُ الجَوْزِيِّ عن أبي بَكْرٍ الصُّولِيِّ، إنَّه قال: الناسُ يَقُولُونَ: كلُّ سادسٍ يَقومُ بأمرِ الناسِ مِن أوَّلِ الإسْلامِ لابُدَّ أن يُخْلَعَ. قال ابنُ الجَوْزِيِّ: فتَأمَّلْتُ ذلك فرأَيْتُه عَجَبًا؛ قامَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، ثم

(١) سبقت ترجمته قريبًا.

أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عُثْمَانُ، ثم عليٌّ، ثم الحَسَنُ فَخُلِعَ، ثم مُعَاوِيَةُ ويزيدُ، ومُعَاوِيَةُ بنُ يزيدَ، ومَرْوانُ، وعبدُ المَلِكِ، ثم عبدُ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ، فَخُلِعَ وقُتِلَ، ثم الوليدُ وسُلَيْمَانُ، وعمرُ بنُ عبدِ العَزيزِ، ويزيدُ، وهِشامٌ، ثم الوليدُ بنُ يزيدَ، فَخُلِعَ وقُتِلَ، ولم يَنْتَظِمْ لبني أُمَيَّةَ مِن بَعْدِه أمرٌ حتى قامَ السفَّاحُ العباسِيُّ، ثم أخُوه المَنصُورُ، ثم المَهْدِيُّ، والهادِي، والرَّشِيدُ، ثم الأمينُ، فَخُلِعَ وقُتِلَ، ثم المَأْمُونُ، والمُعْتَصِمُ، والواثِقُ، والمُتوكِّلُ، والمُنْتَصِرُ ثمَّ المُسْتَعِينُ فَخُلِعَ وقُتِلَ، ثم المُعْتَزُ والمُهْتَدِي والمُعْتَمِدُ والمُعْتَضِدُ والمُكْتَفِي، ثم المُقْتَدِرُ فَخُلِعَ، ثم أُعِيدَ فَقُتِلَ، ثم القاهِرُ، والرَّاضِي، والمُتَّقِي، والمُسْتَكْفِي، والمُطِيعُ، ثم الطائِعُ فَخُلِعَ، ثم القادِرُ والقائِمُ والمُقْتَدِي والمُسْتَظهِرُ والمسْتَرشِدُ، ثم الراشدُ، فَخُلِعَ وقُتِلَ.

أنوشِرْوانُ بنُ خالدِ بنِ محمدٍ القاشَانِيُّ الفِينِيُّ، من قَرْيَة فِينَ منْ قاشانَ، الوزيرُ أبو نَصْرٍ، وزَرَ للسُلطانِ محمودٍ وللخليفَةِ المسْتَرشِد، وكان عَاقلاً، مَهِيبًا، عَظِيمَ الخِلْقَةِ، وهو الذي ألْزَمَ أبا محمدٍ الحَرِيريَّ بتكْمِيلِ المَقامَاتِ، وكان سَبَبَ ذلك أنَّ أبا محمدٍ الحَرِيريَّ كانَ جَالِسًا ذاتَ يومٍ في مسجدِ بنِي حرَامٍ، مِن مَحَالِ البَصْرَةِ، فَدَخَلَ عليهم شيخٌ ذو طِمْرَيْنِ، فقالُوا: مِن أنتَ؟ قال: أنا رجلٌ مِن سَرُوجَ، يُقالُ لي: أبو زيدٍ. فَعَمِلَ الحَرِيريُّ المَقَامةَ الحَرَامِيَّةَ، واشْتُهِرَتْ في الناسِ، فلمَّا طالَعَها الوزيرُ أنوشِرْوانُ أُعْجِبَ بها، وكَلَّفَ أبا محمدٍ أنْ يَزِيدَ عليها غيرَها فعَمِلَ معها تَمَامَ خمسينَ مقامةً، فهي هذه المَشْهُورَةُ المُتَدَاوَلَةُ بينَ الناسِ، وقد كانَ الوزيرُ كريمًا مُحَمَّدًا غيرَ أنَّه كان يُنْسَبُ إلى التَّشَيُّعِ.
وقد مَدَحَه الحَرِيريُّ فقال:

ألا ليتَ شِعْرِي والتَّمنِّي تَعِلَّةٌ ... وإنْ كانَ فيه رَاحَةٌ لأخي الكَرْبِ
أتَدْرُونَ أنِّي مُذْ تَنَاءَتْ ديارُكُم ... وشَطَّ اقْتِرابِي مِن جَنَابِكُمُ الرَّحبِ
أُكابِدُ شَوْقًا ما يَزَالُ أُوارُه ... يُقَلِّبُني بالليلِ جَنْبًا على جَنْبِ
وأذْكُرُ أيامَ التَّلاقِي فأنْثَنِي ... لتَذْكَارِها بادِي الأسَى طائرَ اللُّبِّ
ولي حَنَّةٌ في كلِّ وَقْتٍ إليكمُ ... ولا حَنَّةُ الصَّادِي إلى البارِد العَذْبِ
فواللَّه لو أنِّي كَتَمْتُ هواكمُ ... لَمَا كانَ مكتُومًا بشرقٍ ولا غَرْبِ
ومِمَّا شَجَا قَلْبِي المُعَنَّى وشَفَّه ... رِضاكُم بإهْمَالِ الإجابةِ عن كُتْبِي
وقد كنتُ لا أخْشَى مع الذَّنْب جَفْوَةً ... فقد صِرْتُ أخْشَاها وما لِيَ من ذَنْبِ
ولَمَّا سَرَى الوَفْدُ العِراقِيُّ نَحْوَكُمْ ... وأعْوَزَنِي المَسْرَى إليكم مع الرَّكْبِ
جَعَلْتُ كتابِي نائِبِي عن ضَرُورةٍ ... ومن لم يجِدْ ماءً تَيَمَّمَ بالتُّرْبِ
ونَفَّذتُ أيضًا بَضْعَةً من جَوارِحِي ... لتُنْبِئَكُم عن شَرْحِ حالي وتَسْتَنْبِي
ولستُ أرَى إذْكارَكُم بعدَ خُبْرِكم ... بمَكْرُمَةٍ حسْبِي اهْتِزَازُكم حسْبِي

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

فيها: كانت زَلْزَلَةٌ عظيمةٌ بمدينة جَنْزَة، ماتَ بسببها مائتا ألفٍ وثلاثون ألفًا، وصارَ مكانُها ماءً أسودَ، عَشَرَةَ فَرَاسخ في مثلها، وزُلْزِلَ أهلُ حَلَبَ في ليلةٍ واحدةٍ ثمانينَ مرَّةً.

وفيها: وَضَعَ السلطانُ مسعودٌ مُكوسًا كثيرةً عن الناس، وكثُرَتْ الأدْعيَةُ له.

وفيها: كانت وقعةٌ عظيمةٌ بينَ السلطان سَنْجَرَ وخُوَارزم شاه، فهزَمَه سَنْجَرُ، وقُتل في المعْرَكة ولدُه، فحزِنَ عليه والدُه حُزنًا شديدًا.

وفيها: قُتِلَ صاحبُ دمَشْقَ شهابُ الدين محمودُ بنُ تاج المُلُوك بُوري بن طُغْتكين، قتَلَه ثلاثةٌ من خَوَاصِّه ليلاً، وهرَبُوا من القَلْعَة، فأُدْرِكَ اثْنان فصُلِبا وأفْلَتَ واحدٌ. وملَكَ بَعْدَه أخُوه كمالُ الدين محمدُ بنُ تاج المُلُوك، وكانَ بِبَعْلَبَكَّ قبلَ ذلك، فمَلَكَ بعدَه بَعْلَبَكَّ عمادُ الدين زَنْكي، واسْتَنَابَ عليها الأميرَ نَجْمَ الدين أيوبَ والد المَلِكِ صلاح الدين والمَلِكِ العادلِ أبي بكرٍ وذُرِّيَّتهما.

وفيها: صُرِفَ اليَهُودُ والنَّصَارَىٰ عن المُبَاشَرَاتِ ثم أُعيدُوا قبلَ شَهْرٍ. وحجَّ بالناسِ فيها نظرٌ الخادمُ، أثابه اللَّهُ تعالىٰ.

وممَّنْ تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

زَاهِرُ بنُ طاهر بن محمد، أبو القاسم بنُ أبي عبد الرحمن بن أبي بكر الشَّحَّاميُّ المُحَدِّثُ المُكْثِرُ، الرَّحَّالُ الجَوَّالُ، سمع الكثيرَ، وأمْلىٰ بجامع نَيْسَابُورَ ألفَ مَجلسٍ، ويقالُ: إنَّه كان به مَرَضٌ يُكْثِرُ بسببه الجَمْعَ بينَ الصَّلَوات. فتكلَّمَ فيه أبو سعدٍ السَّمْعَانيُّ، وقال: إنَّه كان يُخِلُّ بالصَّلَوات. وقد رَدَّ ابنُ الجَوْزيُّ علىٰ السَّمْعَانيِّ بعُذْرِ المَرَضِ، فاللَّهُ أعْلمُ.

بلَغَ خَمْسًا وثمانينَ سنَةً، وكانت وفَاتُه بنَيْسَابُورَ في ربيعٍ الآخرِ، ودفِنَ بمَقْبَرَةِ يَحْيَىٰ بنِ يَحْيَىٰ.

عليُّ بنُ أفْلَحَ، أبو القاسم الكَاتبُ، وقد خَلَعَ عليه المُسْتَرْشِدُ، ولَقَّبَه جمالَ المُلْك، وأعْطَاه أرْبَعَةَ دُورٍ، وكانت له دارٌ إلىٰ جانبِهنَّ فهَدَمَهُنَّ كلَّهُنَّ، واتَّخَذَ مَكَانَهنَّ دارًا هائلَةً، طُولُها سِتُّونَ ذِرَاعًا في عرضِ أربَعينَ، وأطْلَقَ له الخليفةُ أخْشَابًا وآجُرًّا وذَهَبًا، فبنَاها، وغَرِمَ عليها ابنُ أفْلَحَ مالاً جزيلاً، وكَتَبَ علىٰ أبوابِها وطَرَازَاتِها أشْعَارًا حَسَنَةً من نَظْمه، ونَظْمِ غَيْره، فمن ذلك ما هو علىٰ باب الدار:

إن عَجِبَ الرَّاءُونَ من ظاهري ... فباطني لو عَلِمُوا أعْجَبُ
شَيَّدَني مَن كَفُّه مُزْنَةٌ ... يحمل منها العَارِضُ الصَّيِّبُ
ودبَّجتْ رَوْضَةُ أخلاقِه ... فيَّ رِيَاضًا نورُها مُذْهَبُ
صدرٌ كسا صدْرِيَ من نُوره ... شَمْسًا علىٰ الأيام لا تَغْرُبُ

وعلى الطُّرُزِ مكتوبٌ:

ومن المُروءة للفتى ما عاش دارٌ فاخرَهْ
فاقنعْ من الدُّنيا بها واعملْ لدارِ الآخرَهْ
هاتيكَ وافيةٌ بما وعدتْ وهذي ساحرَهْ

وفي مَوْضعٍ آخرَ مكتوبٌ:

ونادٍ كأنَّ جِنانَ الخُلُود أعارتْه من حُسنِها رَونَقا
وأعطَتْه من حادثاتِ الزَّما نِ أنْ لا تُلِمَّ به مَوْبِقا
فأضحى يَتِيه على كلِّ ما بُني مَغْرِبًا كانَ أو مَشْرِقا
تَظَلُّ الوفودُ به عُكَّفًا وتُمْسي الضُّيوفُ به طُرَّقا
بقيتَ له يا جَمالَ المُلُو كِ والفضلِ مهما أردتَ البَقا
وسالمَه فيكَ ريبُ الزمان ووُقِّيتَ منه الذي يُتَّقى

فما صَدَقَتْ هذه الأماني، بل عَمَّا قريبٍ - بعدَ نَيْلِها - اتَّهمَ الخليفةُ ابنَ أفْلَحَ بأنَّه يُكاتبُ دُبيسًا، فأمرَ بتخريبِ هذه الدار، فلم يَبْقَ فيها جدارٌ، وصارتْ خَرابةً بعدَ ما كان قد حَسُنَ منها المُقامُ والقَرارُ، وهذه حِكْمَةُ من يُقَلِّبُ الليلَ والنَّهارَ، وتَجْري بمَشيئَته الأقْدارُ.

وقد أورَدَ ابنُ الجَوْزيِّ أشياءَ حَسَنَةً من نَظْمِه، ونَثْرِه، فمِن ذلك:

دَعِ الهَوى لأناسٍ يُعْرَفُونَ به قد مارَسُوا الحُبَّ حتى لانَ أصْعَبُهُ
بَلَوْتَ نَفْسَكَ فيما لَسْتَ تَخْبُرُهُ والشيءُ صَعْبٌ على مَن لا يُجَرِّبُهُ
اقْنِ اصْطِبارًا وإنْ لمْ تَسْتَطِعْ جَلَدًا فرُبَّ مُدْرِكِ أمرٍ عَزَّ مَطْلَبُهُ
أحْنى الضُّلُوعَ على قلبٍ يُحَيِّرُني في كلِّ يومٍ يُعَنِّيني تَقَلُّبُهُ
تَنَاوُحُ الريحِ مِن نَجْدٍ يُهَيِّجُهُ ولامِعُ البَرْقِ مِن نُعْمانَ يُطْرِبُهُ

ومن ذلك قَوْلُه:

هذه الخَيْفُ وهاتيكَ مِنَى فَتَرَفَّقْ أيُّها الحادي بنا
واحْبِسِ الرَّكْبَ علينا ساعَةً نَنْدُبُ الرَّبْعَ ونَبْكي الدِّمَنا
فلِذا الموقفِ أعْدَدْنا البُكا ولِذا الدَّمْنِ دُمُوعي تُقْتَنَى
زَمَنًا كانُوا وكنَّا جِيرةً لا أعادَ اللهُ ذاكَ الزَّمَنا
بيْنُنا يومَ أُثَيْلاتِ النَّقا كانَ عن غيرِ تَراضٍ بيْنَنا

* * *

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

فيها: حاصرَ زَنْكي دمشقَ، فحصَّنَها الاتابك مُعينُ الدينِ أَنُرُ مملوكُ طُغْتكينَ، فاتَّفقَ مَوْتُ مَلِكِها جمال الدين محمدُ بنُ بُوري بنِ طُغْتكينَ، فأرسَلَ مُعينُ الدينِ إلى أخيه مُجيرُ الدينِ أَبَقَ، وهو ببَعْلَبَكَّ فملَّكه دمشقَ، فذهبَ زَنْكي إلى بَعْلَبَكَّ، فأخَذَها واستَنَابَ عليها نجمَ الدينِ أيُّوبَ.

وفيها: دَخَلَ الخليفةُ المكتفي لأمر الله على الخاتُونِ فاطمةَ أُختِ السلطانِ مَسعودٍ، وأُغْلقَتْ بَغْدَادُ أيامًا، وكانَ وقتًا مَشْهُودًا.

وفيها: تَزَوَّجَ السلطانُ ببنتِ أميرِ المؤمنينَ، وكانَ يومًا مَشْهُودًا.

وفيها: نُودِيَ للصلاة على رَجلٍ صالحٍ، فاجْتَمَعَ الناسُ بمدرَسَةِ الشيخِ عبدِ القادرِ، ثم اتَّفَقَ أنَّ الرجل عَطَسَ فأفاقَ، وحَضَرَتْ جنَازَةٌ آخرُ فَصلَّى عليه.

وفيها: نَقَصَتِ المياه من سائرِ الدُّنيا. وفيها وُلِدَ صاحبُ حَمَاةَ، تَقِيُّ الدِّينِ عمرُ بنُ شَاهنشاه بنِ أيُّوبَ بنِ شَاذي.

وممَّنْ تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ جَعْفَرِ بنِ الفَرَجِ، أبو العبَّاسِ الحَرْبيُّ، أحدُ العُبَّادِ الزُّهَاد، سمعَ الحديثَ، وكَانتْ له أحْوَالٌ، حتى كان يُقالُ: إنَّه كان يُرَى في بعضِ السنينَ بعرَفاتٍ، ولم يكُنْ حجَّ في تلك السنَة.

عبدُ السلام بنُ الفَضْلِ، أبو القاسم الجيليُّ، سمع الحديثَ وتَفَقَّه على إلْكيا الهَرَّاسيِّ، وبرَعَ في الأُصولِ والفُرُوعِ، وغير ذلك، ووَلِيَ قَضَاءَ البَصْرَةِ، وكان من خيارِ القُضاةِ، رَحِمَه اللَّهُ.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

فيها: وَصَلَت البُرْدَةُ والقَضيبُ إلى بَغْدَادَ، وكانا قد أُخِذَا مع المُسْتَرْشِدِ سنَةَ تسْعٍ وعشْرِينَ، فحَفِظَهما السلطانُ سَنْجَرُ عندَه حتى رَدَّهما في هذه السنَة.

وفيها: كَملَت المَدْرَسَةُ الكَماليَّةُ ببَغْدَادَ المَنْسُوبَةُ إلى كمال الدين أبي الفُتُوحِ حمزَةَ بنِ طَلْحَةَ، صاحبُ المَخزَنِ، ودرَّسَ فيها الشيخُ أبو الحَسَنِ بنُ الخلِّ، وحَضَرَ عندَه الأعيانُ والرُّؤساءُ، رحمَه اللَّهُ تعالى.

وممَّنْ تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

إسماعيلُ بنُ محمدِ بنِ الفَضْلِ بنِ عليِّ بنِ أحمدَ، أبو القاسم الطَّلْحيُّ الأصْبَهَانيُّ، سمع الكثيرَ، ورَحَلَ وكَتَبَ وأمْلَى بأصْبَهَانَ قريبًا من ثلاثة آلاف مجلسٍ، وكان إمامًا في الحديثِ والفقه والتَّفسيرِ واللغَة، حافظًا مُتقنًا، تُوُفِّيَ ليلةَ عيدِ الأضْحَى وقد قاربَ الثمانينَ، ولَمَّا أرادَ الغَاسلُ تَنْحيَةَ الخِرْقَةَ عن فَرْجِه ردَّها بيده.

محمدُ بنُ عبدِ الباقي بنِ محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ محمدِ بنِ عبدِ الرحمن بنِ الربيعِ بنِ ثابتِ بنِ وَهْب

ابن مَشْجَعَةَ بن الحارث بن عبد اللَّه بن كَعْب بن مالك الأنصاريُّ، سمع الحديثَ، وتفرَّدَ عن جماعةٍ من المشايخ، وأملىٰ الحديثَ في جامع القصرِ، وكان مُشارِكًا في علومٍ كثيرةٍ، وقد أُسِرَ في صغرِه في أيدي الرُّوم، فأرادُوه علىٰ أنْ يتكلَّمَ بكلمةِ الكُفْرِ فلم يَفْعَلْ، وتعلَّمَ منهم خطَّ الرومِ، وكان يَقُولُ: مَنْ خَدَمَ المَحَابِرَ خَدَمَتْه المَنَابِرُ. ومن شعرِه الذي أورَدَه ابنُ الجَوْزِيِّ عنه وسمِعَه عنه قولُه:

احْفَظْ لسانَكَ لا تَبُحْ بثلاثةٍ ... سِنٍّ ومالٍ ما استطعْتَ ومَذْهَبِ
فعلىٰ الثلاثةِ تُبْتَلَىٰ بثلاثةٍ ... بمُكَفِّرٍ وبحاسدٍ ومُكَذِّبِ

ومن ذلك قولُه:

لي مُدَّةٌ لا بُدَّ أبلُغُها ... فإذا انقَضَتْ وتصرَّمَتْ مِتُّ
لو عَانَدَتْني الأُسْدُ ضاريةً ... ما ضَرَّني ما لم يَجِي الوقتُ

ومن ذلك قولُه:

بَغْدَادُ دارٌ لأهلِ العلمِ طيِّبةٌ ... وللمَفَالِيسِ دارُ الضَّنْكِ والضِّيقِ
ظَلَلْتُ حَيْرانَ أمشي في أزقَّتِها ... كأنَّني مُصْحَفٌ في بيتِ زِنديقِ

قال ابنُ الجَوْزِيِّ: بَلَغَ من العُمْرِ ثلاثًا وتسعينَ سنةً، لم تتغيَّرْ حواسُّه ولا عقلُه. وكانت وفاتُه ثانيَ رجبٍ من هذه السنة، وحضَرَ جنازتَه الأعيانُ والناسُ، ودُفِنَ قريبًا من قبرِ بِشْرٍ.

يوسفُ بنُ أيوبَ بنِ يوسفَ بنِ الحسنِ بنِ وَهْرَةَ، أبو يعقوبَ الهَمَذَانيُّ[1]، تفقَّه بالشيخِ أبي إسْحاقَ، وبرعَ في الفقهِ والمناظرةِ، ثم اشتغلَ بالتَّعَبُّدِ، وصحبِ الصالحين، وأقام بالجبالِ، ثم عادَ إلىٰ بغدادَ فوعَظ بها، وحصَلَ له قَبُولٌ. توفِّي في ربيعٍ الأوَّلِ ببَعْضِ قُرَىٰ هَرَاةَ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمائة

فيها: كانت حروبٌ كثيرةٌ بينَ السلطانِ سَنْجَرَ وبينَ السلطانِ خُوَارِزْم شاه، فاستَحوذَ خُوارِزْم شاه علىٰ مَرْوَ بعدَ هزيمةِ سَنْجَرَ، فقُتِلَ بها، وأساءَ التدبيرَ بالنسبةِ إلىٰ الفقهاءِ الحَنَفيَّةِ الذين بها، وكان جيشُ خُوَارِزْم شاه ثلاثَمائة ألفِ مقاتلٍ.

وفيها: كَمَلَ عملُ شَقِّ النهروانِ، وخلَع بِهْرُوزُ الشِّحنةُ ببغدادَ علىٰ الصُّنَّاعِ جِبابَ الحريرِ الروميِّ، وركِب هو والسلطانُ مسعودٌ في سفينةٍ في ذلك النهرِ، وفرِح السلطانُ بذلك، وكان قد صرَفَ السلطانُ علىٰ ذلك النهرِ سبعينَ ألفَ دينارٍ.

وفيها: حجَّ كمالُ الدينِ بنُ طَلْحَةَ، صاحبُ المخْزنِ، وعادَ فتزَهَّد، وترَك العملَ ولزِم دارَه.

وفيها: عُقِدتِ الجُمُعةُ بمسجدِ العباسيِّين بإذْنِ الخليفةِ. وحجَّ بالناسِ نَظَرٌ الخادمُ.

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٠/ ٦٦-٦٩).

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

إسماعيلُ بنُ أحمدَ بن عمرَ بن أبي الأشْعَث، أبو القاسم بنُ أبي بكر السَّمَرْقَنْديُّ، الدِّمَشْقيُّ، ثم البَغْداديُّ، سمع الكثيرَ، وتفرَّد بمشايخَ، وكانَ سماعُه صحيحًا، وأمْلَى بجامع المنصور مجالسَ كثيرةً نحوَ ثلاثمائة مجلسٍ، وكانت وفاتُه في هذه السنة وقد جاوَزَ الثمانين، رحمه اللَّهُ.

يحيى بنُ عليِّ بن محمد بن عليٍّ، أبو محمد بنُ الطَّرَّاحِ المُديرُ، وُلد سنةَ تسعٍ وعشرين وأربعمائةٍ، وسمع الكثيرَ وأسْمَعَ، وكان شيْخًا مَهيبًا كثيرَ العبادَةِ والخير، وكانت وفاتُه في رمضانَ من هذه السنةِ عن مائةٍ وسبعِ سنينَ، رحمه اللَّهُ تعالى، ورضي عنه آمين.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

فيها: ملَك عمادُ الدين زَنْكي الحَديثَةَ، ونقَل آلَ مُهَارِش منها إلى المَوْصِل، ورتَّب فيها نُوَّابًا من جهته.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

فيها: تجهَّز السلطانُ مسعودٌ؛ ليأخُذَ المَوْصِلَ والشامَ من عمادِ الدين زَنْكي، فصالَحه على مائةِ ألف دينارٍ، فدفَع إليه منها عشرين ألفَ دينارٍ، وأطْلَق له الباقيَ، وسبَبُ ذلك أنَّ ابْنَه سيفَ الدين غازي كان لا يزالُ في خدمةِ السلطان.

وفيها: ملكَ عمادُ الدين زَنْكي بعضَ بلادِ بكْرٍ. وفيها حصَرَ الملكُ سَنْجَرُ خُوارزم شاه، ثم أخَذ منه مالاً وأطْلَقَه.

وفيها: وُجد رجلٌ يفسُقُ بصَبِيٍّ، فأُلْقي من رأسِ مَنارَةٍ. وفي ليلة الثلاثاء الرابع والعشرين من ذي القَعْدَة زُلْزِلَت الأرضُ. وحجَّ بالناس نَظَرٌ الخادمُ، أثابه اللَّهُ تعالى.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

عبدُ الوهاب بنُ المُبارَك بن أحمدَ، أبو البركات الأنْماطيُّ[1]، الحافظُ سمع الكثيرَ وحدَّث، كان ثقةً دَيِّنًا وَرِعًا، طليقَ الوَجْه، سَهْلَ الأخلاق، تُوُفِّي في المحرَّم عن ستٍّ وتسعين سنةً.

عليُّ بنُ طِرَاد بن محمد بن عليٍّ الزَّيْنَبيُّ، الوزيرُ العبّاسيُّ، أبو القاسم نقيبُ النُّقَباء على الطائفتَيْن، في أيام المسْتَظْهِر، ووَزَر للمسْتَرْشِد المُقْتَفي، ثم عُزِل وأُعيدَ، ولم يلِ الوزارةَ من العباسيِّين غيرُه،

(١) ترجمته في «السير» (٢٠/ ١٣٤-١٣٧).

وقد سمع الكثيرَ وأسمَع، وتُوفِّي في رمضانَ عن ستٍّ وسبعين سنةً، رحمه اللَّهُ.

الزَّمَخْشَرِيُّ، محمودُ بنُ عمرَ بن محمدِ بنِ عمرَ، أبو القاسم الزَّمَخْشَرِيُّ[1]، صاحبُ «الكَشَّاف» في التفسيرِ، و«المُفَصَّل» في النحوِ، وغيرِ ذلك من المصنَّفات المُفيدَة، وقد سمع الحديثَ، وطافَ البلادَ في طلبِ العلمِ، وجاوَرَ بمَكَّةَ مدَّةً، وكان يُظْهِرُ مذهبَ الاعتزالِ، ويُصَرِّحُ بذلك في تفسيرِه، ويُناظِرُ عليه، ثم كانتْ وفاتُه بخُوارِزْم ليلةَ عرَفَةَ من هذه السنةِ، عن ستٍّ وسبعين سنةً.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فيها: أخَذ العمادُ زَنْكِي الرُّهَا، وغيرَها من حصُونِ الجزيرةِ من أيْدي الفرنْجِ، وقتَل منهم خلقًا كثيرًا، وغنِم أموالاً جزيلةً، وأزاح عن المسلمين كُرَبًا شديدةً كثيرةً، جزاه اللَّهُ خيرًا. وحجَّ بالناسِ أميرُ الجيوشِ نَظَرٌ الخادمُ وتنافَس هو وأميرُ مكةَ، فنُهِب الحجيجُ وهم يطُوفون.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

إبْراهيمُ بنُ محمدِ بنِ منصورِ بنِ عمرَ، أبو البَدْرِ الكَرْخيُّ، تفَقَّه بالشيخِ أبي إسْحاقَ، وأبي سعدٍ المُتولِّي، حتى صارَ أوْحدَ زمانِه فقْهًا وصلاحًا، وماتَ في هذه السنةِ.

سعيدُ بنُ محمدِ بنِ عمرَ، أبو منْصُورٍ الرَّزَّازُ، سمع الحديثَ، وتفَقَّهَ بالغَزَّاليِّ والشَّاشيِّ، والمُتَولِّي، وإلْكِيا الهَرَّاسيِّ، وأسعدَ الميهَنِيِّ، ووَلِي تدريسَ النِّظَامِيَّة، وكان له سَمْتٌ حسَنٌ، ووَقارٌ وسكونٌ، وكان يومُ جنازتِه مشْهُودًا، ودُفِن عندَ الشيخِ أبي إسْحاقَ.

عمرُ بنُ إبْراهيمَ بنِ محمدِ بنِ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ حمزةَ بنِ يحيى بنِ الحسينِ بنِ زيدِ بنِ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالب، القُرَشيُّ العَلَويُّ، أبو البركاتِ الكُوفيُّ، ثم البَغْداديُّ[2]، سمع كثيرًا، وكتَب كثيرًا، وأقامَ بدمشقَ مدَّةً، وكانت له معرفةٌ جيِّدَةٌ بالفقهِ والحديثِ والتفسيرِ واللغةِ والأدبِ، وله تصانيفُ في النحوِ، وكان خَشِنَ العيشِ، صابرًا مُحْتَسِبًا، تُوفِّي في شعبانَ من هذه السنةِ عن سَبْعٍ وتسعين سنةً، رحمه اللَّهُ تعالى.

* * *

(١) ترجمته في «السير» (٢٠/ ١٥١-١٥٦).
(٢) ترجمته في «السير» (٢٠/ ١٤٥-١٤٦).

ثم دخلت سنة أربعين وخمسمائة

فيها: حصرَ عليُّ بنُ دُبَيسٍ أخاه محمدًا، ولم يزَلْ يحاصرُه حتى اقْتلَعَ من يَدِه الحِلَّةَ وملَكَها، وفي رجَبٍ دخَل السلْطانُ مسعودٌ إلى بَغْدادَ؛ خوفًا من اجْتماعِ عباسٍ صاحبِ الرَّيِّ، ومحمد شاه بنِ محمودٍ، ثم خرَج منها في رمضانَ. وحجَّ بالناسِ قايْماز الأُرجوانيُّ مملوكُ أميرِ الجيوشِ نَظَر بسبَبِ ما كان وقَع بينَ نَظَرٍ وأميرِ مكَّةَ في السنةِ الماضيةِ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمد بن الحسَنِ بن عليِّ بن أحمدَ بن سُلَيمانَ، أبو سَعْد الأَصْبهانيُّ، ثم البَغْداديُّ، سمعَ الحديثَ وكان على طريقَةِ السلفِ، حُلْوَ الشمائلِ، مُطَّرِحًا الكُلْفَةَ، رُبَّما خرَج إلى السوقِ بقميصٍ وقَلَنْسُوَةٍ. وحجَّ إحدَى عشْرَةَ حَجةً، وكان يُمْلي الحديثَ، ويكثرُ الصومَ، تُوفِّي بنَهاوَنْدَ في ربيعٍ الأولِ من هذه السنةِ، وقد قاربَ الثمانينَ.

عليُّ بنُ أحمدَ بن الحُسَيْن بن أحمدَ، أبو الحسَنِ اليَزْديُّ، تفَقَّهَ بأبي بكرٍ الشَّاشيِّ، وسمعَ الحديثَ وأسْمَعه، وكان له ولأخيه قميصٌ وعمامةٌ؛ إذا خرَج هذا جلَس الآخرُ في البيتِ، وكذا الآخرُ.

مَوْهوبُ بنُ أحمدَ بن محمد بن الخَضِر، أبو منْصور الجَواليقيُّ، شيخُ اللغةِ في زمانِه، باشرَ مشْيخَةَ اللغةِ بالنِّظاميَّةِ بعدَ شيْخِه أبي زكَريَّا التِّبْريزيِّ مدَّةً، وكان يؤمُّ بالمُقْتفي، وربَّما قرَأ عليه الخليفةُ شيئًا من الكتبِ، وكان عاقلاً، متواضعًا في ملْبَسِه، طويلَ الصَّمْتِ، كثيرَ التفكُّرِ، وكانتْ له حَلْقةٌ بجامعِ القصرِ أيامَ الجُمَعِ، وكانت فيه لُكْنَةٌ، وكان يجلسُ إلى جانبِه المغْرِبيُّ مُعَبِّرُ المَناماتِ وكان فاضلاً لكنَّه كان كثيرَ النُّعاسِ في مجلسِه، فقال فيهما بعْضُ الأدباءِ:

بَغْـــدادُ عندي ذَنْبُــهـــا لنْ يُغْـــفَـرا	وعُـــيـــوبُهـــا مكْشُـــوفـــةٌ لـن تُسْـتَـرا
كـــونُ الجـــواليـــقيِّ فـيـهـــا مُـمْليًـا	لغـــةً وكـــونُ المغـــربيِّ مُـــعَــبِّـــرا
مـــاســـورُ لُكْـنـه يقـــولُ فـــصـــاحـــةً	ونئُـــومُ يـقظتِـــه يعـــبِّـــرُ في الكَرَى

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

في مُسْتَهَلِّ ليلةِ ربيعٍ الأوَّلِ احْتَرَقَ القصرُ الذي كان بنَاه المسترشدُ، وكان في غايةِ الحسْنِ، وكان الخليفةُ المُقْتفي قد انتقلَ بجواريه وحظاياه إليه ليقيمَ فيه ثلاثةَ أيامٍ، فما هو إلا أنْ نامُوا حتى احْتَرقَ عليهمُ القصرُ، بسببِ أنَّ جاريةً أخذَتْ في يَدِها شمعةً فعلِق لهَبُها ببَعْضِ الأخشابِ فاحْتَرقَ القصرُ، وسَلَّمَ اللَّهُ الخليفةَ وأهلَه، فأصبحَ فتصدَّقَ بأشْياءَ كثيرةٍ، وأطْلَقَ خلقًا من المُحْبَسِين.

وفي رجَبٍ وقَع بينَ الخليفةِ وبينَ السلطانِ مسعودٍ واقعٌ، فبعَث الخليفةُ إلى الجوامعِ والمساجدِ فأُغْلقَتْ ثلاثةَ أيامٍ حتى اصْطلَحا.

وفي يوم الجُمعة المنتصف من ذي القَعْدَة جلَس ابنُ العَبَّاديِّ الواعظُ، فتكلَّمَ والسلطانُ مسعودٌ حاضرٌ، وكان قد وضَع على الناسِ مَكْسًا في البَيْع فاحشًا، فقالَ في جملة وعْظه: يا سلطانَ العالَم، أنتَ تطلقُ في بعْضِ الأحْيان للمُغَنِّي إذا طربْتَ قريبًا ممَّا وضَعْتَ على المسلمينَ من هذا المَكْسِ، فهَبْني مُغَنِّيًا وقد طربْتَ، فهَبْ لي هذا المَكْسَ لنعَم اللّه عليكَ وأسقطْه عن الناسِ. فأشارَ السلطانُ بيَده أنْ قد فعَلْتُ، فضجَّ الناسُ بالدُّعاء له، وكُتِب بذلك سجلاتٌ، ونُودِيَ في البلدِ بإسْقاطِ ذلك المَكْسِ، ففرحَ الناسُ بذلك، وللّه الحمدُ والمِنَّةُ.

وفي هذه السنة قلَّ المطَرُ جدًّا، وقلَّتْ مياهُ الأنهارِ، وانْتَشَرَ جرادٌ عظيمٌ، وأصابَ الناسَ داءٌ في حلُوقِهم، فماتَ بذلك خلائقُ كثيرةٌ، فإنا للّه وإنا إليه راجعونَ.

وفيها: قُتِلَ الملكُ عمادُ الدينِ زَنْكي بنُ قَسِيمِ الدولة آقْ سُنْقُرَ التركيُّ، صاحبُ المَوْصلِ وحَلَبَ وغيرها من بلادِ الشام والجزيرةِ، وكان محاصِرًا قلعةَ جَعْبَر، وفيها سالمُ بنُ مالكٍ العُقيليُّ، فبَرْطَلَ بعْضَ مماليكِ زَنْكي حتى قتَلُوه في الليلة الخامسةِ من ربيعِ الأوَّلِ من هذه السنة. قال العمادُ الكاتبُ: وكان سكْرانَ. فاللّهُ أعلمُ.

وقد كان من خيارِ المُلوكِ وأحْسَنِهم سيرةً وشكْلاً، وكان شُجاعًا مقدامًا حازمًا، خضَعتْ له مُلُوكُ الأطْرافِ، وكان من أشدِّ الناسِ غَيرةً على نساء الرعيَّة، وأجْوَدَ المُلوكِ مُعاملَةً، وأرْفَقَهم بالعامَّة، وملَك من بعده بالمَوْصِلِ ولَدُه سيفُ الدينِ غازي، وبحَلَبَ ولدُه نُورُ الدينِ محمودٌ، فاستَعادَ نُورُ الدينِ هذا مدينَةَ الرُّهَا، وكان أبوه قد فتَحَها. ثم عصَوْا فقهَرهم.

وفي هذه السنة ملَكَ عبدُ المُؤمنِ صاحبُ المغربِ جزيرةَ الأنْدلُس، بعدَ حروبٍ طويلةٍ.

وفيها: ملَكَتِ الفرنْجُ، لعنَهم اللّهُ، مدينةَ طرَابُلُسَ الغرب. وفيها استَعادَ صاحبُ دمشقَ مدينةَ بَعْلَبَكَّ وفيها الأميرُ نَجْمُ الدينِ أيُّوبُ من جهة زَنْكي، فسلَّمه القلعةَ، وأعْطاه إمرتَه عندَه بدمشقَ.

وفيها: قتَل السلطانُ مسعودٌ حاجبَه عبدَ الرحمنِ طغايُركَ وقتَلَ عبَّاسًا صاحبَ الرَّيِّ، وألقَى رأسَه إلى أصحابه، فانزعَج الناسُ ونهَبُوا خيامَ عباسٍ، وقد كان عباسٌ هذا من الشجعانِ المشْهُورينَ، قتَلَتِ الباطنيةُ مخدومَه جَوْهَرًا، فلم يزَلْ يقتُلُ منهم حتى بنَى مِئْذنةً من رءوسهم بمدينة الرَّيِّ.

وفيها: ماتَ نقيبُ النقباء ببَغْدادَ محمدُ بنُ طِرَادٍ الزَّيْنَبِيُّ، فولِي بعدَه عليُّ بنُ طلحةَ الزَّيْنَبِيُّ.

وفيها: سقَط جدارٌ على ابنَةِ الخليفةِ، وكانت قد بلغَتْ مبالغَ النساء، فماتَتْ، فحضَر جنازَتها الأعيانُ. وحجَّ بالناسِ نَظَرٌ الخادمُ. وحجَّ في هذه السنة نظامُ الدينِ بنُ جَهِيرٍ الوزيرُ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

زَنْكي بنُ آقْ سُنْقُرَ تقدَّم ذكرُ شيءٍ من ترجمته في الحوادث، وقد أطْنَبَ الشيخُ شهابُ الدينِ، أبو شامةَ في «الرَّوْضَتينِ» في ترجَمته، وما قيلَ فيه من نظمٍ ونثرٍ، رحمه اللّهُ.

سعدُ الخيرِ بنُ محمد بن سهل بن سعد، أبو الحسَن المغربيُّ الأندلُسيُّ الأنصاريُّ، رحَل من الأندلسِ إلىٰ الصين، وسمع الحديثَ وتفقَّه بالغزَّاليِّ، وحصَّل كتبًا نفيسةً، وروىٰ عنه ابنُ الجوزيِّ وغيرُه، وقد أوصَىٰ عندَ وفاته ببغدادَ أن يصلِّيَ عليه الغزنَويُّ، وأنْ يُدفَنَ إلىٰ جانبِ قبرِ عبدِ اللَّه بنِ الإمام أحمدَ، وحضَر جنازتَه خلائق من الناس.

شافعُ بنُ عبد الرشيد بن القاسم، أبو عبد اللَّه الجيليُّ الشافعيُّ، تفَقَّهَ علىٰ إلكيا الهَرّاسيِّ وعلىٰ الغزَّاليِّ، وكان يسكنُ الكَرخَ، وله حلْقَةٌ بجامعِ المنصورِ في الرِّواق.

قال ابنُ الجوزيِّ: وكنتُ أحضُرُ حلْقتَه.

عبدُ اللَّه بنُ عليِّ بن أحمدَ بن عبد اللَّه، أبو محمد سِبْطُ أبي منصور الزاهد، قرأ القراءات وصنَّف فيها، وسمع الحديثَ الكثيرَ، واقْتنَىٰ الكتبَ الحسنةَ، وأمَّ في مسجده نَيِّفًا وخمسينَ سنةً، وعلَّم خلقًا القرآنَ.

قال ابنُ الجوزيِّ: ما سمعْتُ أحدًا أحسنَ قراءةً منه، وحضَر جنازتَه خلقٌ كثيرٌ.

عباسٌ شِحْنَةُ الرَّيِّ، توصَّلَ إلىٰ أنْ ملَكَها، ثم قتَله السلطانُ مسعودٌ، كما ذكَرنا، وقد كان كثيرَ الصدقات والإحسان إلىٰ الرعيَّة، وقتَل من الباطنيَّة خلقًا، وابتنَىٰ من رُءوسِهم منارةً بالرَّيِّ، وتأسَّفَ الناسُ عليه، رحمه اللَّهُ.

محمدُ بنُ طِرَاد بن محمد الزَّيْنَبيُّ، أبو الحسَن نقيبُ الهاشميِّين، وهو أخو عليِّ بنِ طِرادٍ الوزير، سمعَ الكثيرَ من أبيه وعمِّه أبي نصرٍ وغيرِهما، وقاربَ السبْعينَ.

وَجيهُ بنُ طاهر بن محمد، أبو بكر الشَّحَّاميُّ، أخو زاهرٍ، وقد سمعَ الكثيرَ من الحديث، وكانت له معرفةٌ به، وكان شيخًا حسنَ الوَجْهِ، سريعَ الدَّمعةِ، كثيرَ الذِّكْرِ، صحيحَ السَّماعِ، صدوقَ اللهْجَةِ. تُوفِّي ببَغْدادَ في هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

فيها: مَلَكَت الفرنْجُ عدةَ حصونٍ من جزيرةِ الأندلُس.

وفيها: ملَكَ نُورُ الدينِ محمودُ بنُ زَنْكي عدةَ حصونٍ من أيدي الفرنْجِ بالسواحلِ وغيرِها.

وفيها: خُطب للمُسْتَنْجِدِ باللَّه بولاية العهد من بعد أبيه المُقْتَفي.

وفيها: وَلِي عونُ الدينِ يَحْيَىٰ بنُ هُبَيْرَةَ كتابةَ ديوانِ الزمامِ، ووَلِيَ زعيمُ الدينِ يَحْيَىٰ بنُ جعفرٍ صَدريَّةَ المخزنِ المعمور.

وفيها: اشتدَّ الغَلاءُ بإفريقيَّةَ، فهلكَ بسببه أكثرُ الناسِ حتىٰ خلَت المنازلُ، وأقفرَت المعاقلُ.

وفيها: تزوَّج سيفُ الدينِ غازي بنتَ صاحب مَارْدِينَ حسامِ الدينِ تَمُرْتاشَ بنِ أُرْتُقَ، بعدَ أنْ حاصَره فصالَحه علىٰ ذلك، فحُملَتْ إليه إلىٰ المَوْصلِ بعدَ سنتَيْن، وهو مريضٌ قد أشرَف علىٰ الموتِ، فلم يدخُلْ بها حتىٰ مات، فوَلِي بعدَه أخوه قطبُ الدينِ مودودٌ فتزَوَّجَها.

قال ابنُ الجوزيِّ: وفي صفرٍ رأى رجلٌ في المنامِ قائلاً يقولُ: مَن زارَ قبرَ أحمدَ بنِ حنبلٍ غُفِرَ له. قال: فلم يَبْقَ خاصٌّ ولا عامٌّ إلا زارَه.

قال ابنُ الجوزيِّ: وعقَدْتُ يومَئذٍ مجلسًا فاجْتمَع فيه ألوفٌ من الناسِ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيانِ:

أسعدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ الصَّمدِ بنِ المُهْتدي باللهِ، أبو منصورٍ، سمعَ الكثيرَ، وكان خيِّرًا دَيِّنًا صالحًا ممتَّعًا بحواسِّه وقُواه إلى حينِ الوفاةِ. وقد جاوزَ المائةَ بنحوٍ من سبعِ سنينَ.

أبو محمدٍ عبدُ اللهِ بنُ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ خلفِ بنِ أحمدَ بنِ عمرَ اللَّخْميُّ الأنْدَلُسيُّ، الرُّشَاطيُّ الحافظُ، مصنِّفُ كتابِ «اقْتِباسِ الأنوارِ والْتِماسِ الأزْهارِ»، في أنْسابِ الصحابةِ ورُواةِ الآثارِ، وهو من أحسنِ المصنَّفاتِ الكبارِ، قُتِل شهيدًا صبيحةَ يومِ الجمعةِ العشْرينَ من جُمادَى بالمَرِيَّةِ.

نصرُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ عبدِ القَويِّ، أبو الفتحِ اللاذِقيُّ المَصِّيصيُّ الشافعيُّ، تفقَّهَ بالشيخِ نَصْرِ بنِ إبراهيمَ المَقْدِسيِّ، بصُورَ، وسمعَ بها منه ومن أبي بكرٍ الخطيبِ، وسمع ببغدادَ والأنبارِ، وكان أحدَ مشايخِ الشامِ، فقيهًا في الأُصولِ والفُروعِ، وكانت وفاتُه في هذه السنةِ وقد جاوزَ التسعينَ بأربعِ سنينَ.

هِبَةُ اللهِ بنُ عليِّ بنِ محمدِ بنِ حَمْزَةَ، أبو السَّعاداتِ، ابنُ الشَّجَريِّ النَّحْويُّ، وُلِدَ سنةَ خمسينَ وأربعِمائةٍ، وسمعَ الحديثَ، وانتهَتْ إليه رياسةُ النحاةِ. قال: ما سمِعتُ بَيْتًا في الذَّمِّ أبلغَ من قولِ مِسْكَوَيْه:

وما أنا إلاَّ المِسْكُ قد ضاعَ عندَكُم ... يضيعُ وعندَ الأكثرينَ يضُوعُ

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

فيها: استَغاثَ مُجيرُ الدينِ بنُ أتابكِ دِمَشْقَ بالمَلِكِ نُورِ الدينِ صاحبِ حَلَبَ على الفرنجِ، فركِبَ سريعًا فالْتَقى معهم بأرضِ بُصْرَى فهزَمهم، ورجَع فنزَل على الكُسْوَةِ، وخرَج ملكُ دِمشقَ مجيرُ الدينِ أَبَقُ فخدَمه واحْترَمه، وشاهَد الدَّماشقةُ حُرْمَةَ نورِ الدينِ.

وفيها: ملَكَتِ الفرنْجُ المَهْدِيَّةَ وهرَب منها صاحبُها الحسنُ بنُ عليِّ بنِ يَحْيَى بنِ تميمِ بنِ المُعِزِّ بنِ باديسَ بنِ منصورِ بنِ يوسُفَ بنِ بُلُكِّينَ بنِ زيري بأهْلِه وما خفَّ من أموالِه، فتمَزَّق في البلادِ، وأكَلَتْهُمُ الأقْطارُ، وكان آخرَ مُلوكِ بني باديسَ، وقد كان ابْتِداءُ مُلْكِهم في سنَةِ خمسٍ وثلاثينَ وثَلاثِمائةٍ، فدخَل الفرنجُ إليها، وخزائنُها مشحونةٌ بالحواصلِ والأموالِ والعُدَدِ وغيرِ ذلك، فإنَّا للهِ وإنا إليه راجعونَ.

وفيها: حاصَرتِ الفرنْجُ - وهم في سَبْعينَ ألفَ مقاتلٍ، ومعَهم ملكُ الألمانِ في خلقٍ لا يعلَمُهم

إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ - دمشقَ وعليها مُجيرُ الدين أَبَقُ وأتابكُه مُعينُ الدين، وهو مُدَبِّرُ المَمْلكة، وذلك يومَ السبتِ سادسَ ربيعٍ الأول، فخرَج إليهم أهلُها في مائة وثلاثين ألفًا، فاقْتتلُوا معهم قتالاً عظيمًا، وقُتل من المسلمينَ في أول يوم نحوٌ من المائتين، ومن الفرنج خلقٌ كثيرٌ لا يُحْصَونَ، واستمرَّت الحربُ مدَّةً، وأُخرجَ مصحفُ عثمانَ إلى وسَط صَحْن الجامع، واجْتَمعَ الناسُ حولَه يدْعُون اللَّهَ عزَّ وجلَّ، والنساءُ والأطفالُ مُكَشَّفي الرءوس يدعونَ ويتَباكَونَ، والرمادُ مفروشٌ في البلد، فاسْتَغاثَ أَبَقُ بالملك نورِ الدين محمودٍ صاحب حَلَبَ وبأخيه سيفِ الدين غازي صاحبِ المَوْصل، فقصَداه سريعًا في نحوٍ من سَبْعينَ ألفًا بمَن انْضافَ إليهم من المُلوك وغيرهم، فلمَّا سمِعَت الفرنجُ، قبَّحهم اللَّهُ، بقُدوم الجيوش نحوَهم أجْلَوْا عن البلد، فلَحِقَهمُ الجيشُ فقتَلُوا منهم خلقًا كثيرًا، وجَمًّا غفيرًا، وقتَلُوا فيمن قتَلوا معهم قسِّيسًا اسمُه إلْيَاسُ، وهو الذي أغْرَاهم بدمشقَ، وذلك أنَّه افْترىٰ منَامًا عن المسيح أنَّه وعدَه فَتْحَ دمشقَ، فقُتل، لعنَه اللَّهُ، وقد كادُوا يأخذونَ البلدَ، ولكنَّ اللَّه سلَّم، وحمَاها بحوْله وقوته. قال اللَّهُ تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] ومدينةُ دمشقَ لا سبيلَ للأعْداء من الكفرة عليها، لأنَّها المحلَّةُ التي أخْبَرَ رسولُ اللَّه ﷺ أنَّها معقلُ الإسْلام عندَ الملاحم والفتن، وبها ينزلُ عيسَىٰ بنُ مريمَ.

وقد كانَ الفرنْجُ قتَلوا خلقًا كثيرًا من أهلِ دمشقَ، وممَّنْ قتَلُوا الفقيهُ الكبيرُ المُلَقَّبُ حُجَّةُ الدين. شيخُ المالكيَّة بها، أبو الحجَّاج يوسُفُ بنُ دوناسَ الفنْدَلاويُّ، بأرْض النَّيْرَب، ودُفنَ بمقابر باب الصَّغير، وقد صالَح معينُ الدين الفرنجَ عن دمشقَ ببَانْيَاسَ، فرحَلُوا عنها وتسلَّمُوا بانْياسَ.

وفيها: وقَع بينَ السلطان مسعودٍ وأمرائه ففارقُوه، وقصدُوا بَغْدادَ فاقْتَتلُوا مع العامَّة، فقَتلُوا خلْقًا كثيرًا منهم، من الصِّغار والكبار، ثم اجْتَمعُوا قُبَالَةَ التاج فقبَّلُوا الأرضَ واعْتَذَروا إلى الخليفة ممَّا وقَع، وسارُوا نحوَ النَّهْرَوان فتفرَّقُوا في البلاد، ونهَبُوا أهلَها، فغلَت الأسعارُ بالعراق بسبَب ذلك.

وفيـها: وَلِيَ قضاءَ القضاة ببغدادَ أبو الحسن عليُّ بنُ أحمدَ بن عليِّ بن الدَّامَغانيِّ، بعدَ وفاة الزَّيْنَبِيِّ.

وفيها: ملَكَ سوريُّ بنُ الحسَين - ملكُ الغُور - مدينةَ غَزْنَةَ، فذهَبَ صاحبُها بَهْرام شَاه بنُ مسْعودِ بن إبراهيمَ من أولاد سُبُكْتكينَ إلى الهند فاستجاشَ ملكَها، فجاءَ بجيوشٍ عظيمةٍ فاقْتلَعَ غَزْنَةَ من يد سوريٍّ، وأخذَه أسيرًا فصَلَبَه، وقد كان كريمًا جوادًا، كثيرَ الصدقات.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

إبْرَاهيمُ بنُ محمدَ بن نَبْهانَ بن محْرز الغَنَويُّ الرَّقِّيُّ[١]، سمع الحديثَ وتفقَّهَ بالشَّاشيِّ والغَزَّاليِّ،

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٠/ ١٧٠-١٧٦).

وكتَب شيئًا كثيرًا مِن مصنَّفاته، وقرأها عليه، وصحبَه كثيرًا، وكان حسنًا مهيبًا كثيرَ الصمْتِ بهيَّ السمت، توفِّي في ذي الحجَّة من هذه السنة وقد جاوزَ الثمانينَ.

شاهَنْشاه بنُ أيوبَ بن شاذي، استُشْهِدَ مع نُورِ الدينِ، وهو والدُ الستِّ عَذْراءَ، واقفةِ العذراويَّةِ، وتقيِّ الدينِ عمرَ واقفِ التَّقَوِيَّةِ وغيرِ ذلك.

عليُّ بنُ الحسين بنِ محمد بن عليٍّ الزَّيْنَبِيُّ، أبو القاسم، الأكمَلُ بنُ أبي طالبٍ نورِ الهُدَىٰ بنِ أبي الحسنِ نظامِ الحَضْرَتَيْن، ابنِ نقيبِ النقباءِ أبي القاسمِ ابنِ القاضي أبي تمامٍ العبَّاسيُّ، قاضي القُضاةِ ببَغدادَ والعراقِ وغيرِ ذلك، سمع الحديثَ، وكان فقيهًا رئيسًا، وقورًا حسنَ الهيئةِ والسَّمْت، قليلَ الكلامِ، سافَر مع الخليفةِ الراشدِ إلى المَوْصِلِ، وجرتْ له فصولٌ، ثم عادَ إلى بغدادَ، فماتَ بها في هذه السنةِ، وقد جاوَزَ الستِّين، وكانتْ جنازتُه حافلةً، رحمه اللَّهُ رحمةً واسعةً.

أبو الحَجَّاجِ يوسفُ بنُ دوناسَ الفنْدلاويُّ، شيخُ المالكيَّةِ بدمشقَ، قُتِل يومَ السبتِ سادسَ ربيعٍ الأوَّلِ - قريبًا مِن الرَّبْوَةِ مِن أرضِ النَّيْرَبِ - هو والشيخُ عبدُ الرحمنِ الحَلْحُوليُّ، أحدُ الزُّهادِ، قُتِلا معًا، رحمَهما اللَّهُ تعالى.

ثم دخلتْ سنةُ أربعٍ وأربعين وخمسمائةٍ

فيها: كانتْ وفاةُ القاضي عياضِ بنِ موسى بنِ عياضِ بنِ عمرِو بنِ موسى بنِ عياضِ بنِ محمدِ بنِ موسى بنِ عياضٍ اليَحْصُبيُّ السَّبْتيُّ، قاضيها، أحدُ مشايخِ العلماءِ المالكيَّةِ، وصاحبُ المصنَّفاتِ الكثيرةِ المفيدةِ، الشهيرةِ؛ منها «الشِّفا»، و«شرحُ مسلمٍ»، و«مشارقُ الأنوارِ»، وغيرُ ذلك، وله شعرٌ حسنٌ، وكان إمامًا في علومٍ كثيرةٍ، كالفقهِ واللغةِ والأدبِ وأيامِ الناسِ، وُلِد سنةَ ستٍّ وسبعين وأربعمائةٍ، وتوفِّي يومَ الجُمُعةِ في جُمادَى الآخرةِ، وقيلَ: في رمضانَ من هذه السنةِ، بمدينةِ سَبْتَةَ، رحمه اللَّهُ تعالى.

وفيها: غزَا الملكُ نورُ الدينِ محمودُ بنُ زَنْكي - صاحبُ حَلَبَ - بلادَ الفرنجِ، فقَتَلَ منهم خلقًا كثيرًا، وكان في جملةِ مَن قُتِل البرنسُ صاحبُ أنطاكيَةَ، وفتَح شيئًا كثيرًا مِن قلاعِهم، وللَّه الحمدُ والمنَّةُ. وكان قد استَنْجَدَ بمُعِينِ الدينِ بنِ أتابك دمشقَ، فأرسَل إليه بفريقٍ مِن جيشِه صُحْبَةَ الأميرِ مُجاهدِ الدينِ بنِ بُزَّانَ بنِ مَامِينَ، نائبِ صَرْخَدَ، فأبْلَوا بلاءً حسنًا، وقد قال الشعراءُ في هذه الغَزْوةِ أشعارًا كثيرةً؛ منهم ابنُ القَيْسَرانيِّ وغيرُه، وقد سرَدَها أبو شامةَ في «الرَّوْضَتَيْنِ».

وفي يومِ الأربعاءِ ثالثَ ربيعٍ الآخرَ استُوْزِرَ للخلافةِ أبو المُظَفَّرِ يَحْيَى بنُ محمدِ بنِ هُبَيْرَةَ، ولُقِّبَ عونَ الدينِ، وخُلِعَ عليه.

وفي رَجَبٍ قَصَدَ ملكْشاه بنُ محمودٍ بَغْدَادَ ومعه خَلْقٌ مِن الأمراءِ؛ منهم عليُّ بنُ دُبَيْسٍ وجَمَاعةٌ مِن التُّرْكُمانِ وغيرِهم، وطَلَبُوا مِن الخليفةِ أنْ يُخْطَبَ له، فامْتَنَعَ مِن ذلك، وتَكَرَّرَتْ المُكاتباتُ،

وأرسلَ الخليفةُ إلى السلطانِ مسعودٍ يستحثُّه في القُدُوم، فتمادَىٰ عليه وضاقَ عليه النِّطاقُ، واتَّسعَ الخَرْقُ على الرَّاقعِ، وكتبَ الملكُ سَنْجَرُ إلى ابنِ أخيه مسعودٍ يستحثُّه إنْ لم يسرعْ المَشْيَ إلى الخليفةِ، فما جاء إلا في أواخرِ السنَة، فانْقَشَعَتْ تلك الشُّرُورُ كلُّها، وتبدَّلَتْ سُرُورًا أجْمَعُها.

وفي هذه السنَة زُلْزِلَت الأرْضُ زِلْزالاً شديدًا، وتمَوَّجَت الأرْضُ عَشْرَ مَرات، وتقَطَّعَ جَبلُ بحُلْوانَ، وانهَدَمَ الرِّباطُ البهْروزي، وهلَكَ خَلْقٌ كثيرٌ بالبِرْسام، لا يتكَلَّمُ المَرْضَىٰ حتى يمُوتُوا.

وفيها: ماتَ سيفُ الدينِ غازي بنُ زَنْكي صاحبُ المَوْصِلِ، وملَكَ بعدَه أخُوه قُطْبُ الدينِ مودودُ ابنُ زَنْكي، وتزَوَّجَ بامرأةِ أخيه التي لم يَدْخُلْ بها الخاتُونُ بنت تَمُرْتاش بن إيلْغازي بن أُرْتُقَ صاحبُ مارِدِينَ، فولَدَتْ له أولادًا، كلُّهم ملَكُوا المَوْصِلَ، وكانت هذه الخاتُونُ تضعُ خِمارَها بحَضْرةِ خَمْسَةَ عَشرَ ملكًا.

وفيها: سارَ الملكُ نورُ الدينِ محمودُ إلى سنْجارَ ففتحَها، فجهَّزَ له أخوه قُطْبُ الدينِ مَوْدُودٌ جيشًا ليَرُدَّه عنها، ثم اصْطَلَحا، فعَوَّضَه منها الرَّحبَةَ وحمصَ، واسْتَمرتْ سنْجارُ لقُطْبِ الدينِ، وعادَ نورُ الدينِ إلى بلده، وغَزَا في هذه السنَة الفرنْجَ فقتَلَ منهم خلقًا وأسرَ البرنسَ صاحبَ أنْطاكيَّةَ، فمَدَحَه الشُّعراءُ منهم الفَتْحُ القَيْسَرانيُّ بقَصيدةٍ طَنَّانَةٍ يقولُ في أولها:

هذي العَزائمُ لا ما تدَّعي القُضُبُ ... وذي المَكارمُ لا ما قالت الكُتُبُ
وهذه الهِمَمُ اللاتي متى خُطِبَتْ ... تعثَّرتْ خلفَها الأشْعارُ والخُطَبُ
صافَحْتَ يا ابنَ عمادَ الدين ذِرْوتَها ... براحةٍ للمَساعي دونَها تَعَبُ
ما زالَ جدُّكَ يَبْني كلَّ شاهقةٍ ... حتى بَنَى قُبَّةً أوتادُها الشُّهُبُ

وفيها: فَتَحَ نورُ الدينِ حِصْنَ أفامِيَةَ وهو قريبٌ من حَمَاةَ.

وفيها: ماتَ صاحبُ مصْرَ الحافظُ لدين اللَّه عبدُ المَجيدِ بنُ أبي القاسمِ محمدِ بنِ المُسْتَنْصرِ، فقامَ بالأمرِ من بعده وَلَدُه الظَّافرُ إسماعيلُ، وقد كانَ أحمدُ بنُ الأفْضَلِ ابنُ أميرِ الجُيُوشِ قد اسْتَحْوَذَ على الحافظِ وخَطَبَ في مصْرَ للقائمِ آخرِ الزَّمان، وأذَّنَ بـ حيَّ على خيرِ العَمَلِ. وللحافظِ وُضعَ طَبْلُ القُولَنْجِ الذي إذا ضربه من به القُولَنْجُ يخرجُ منه القُولَنْجُ والريحُ الذي به.

وخرَجَ بالحَجيجِ الأميرُ نَظَرٌ الخادمُ فمَرِضَ بالكُوفَة، فرَجع واسْتَخْلَفَ علي الحجيجِ مَوْلاه قايْماز، وحينَ وُصُوله إلى بَغْدادَ تُوُفِّيَ - رحمَه اللَّهُ - بعدَ أيام، وطَمِعَت العربُ في الحجيجِ، فوَقَفُوا لهم في الطَّريقِ وهم راجعونَ، فضَعُفَ قايْمازُ عن مُقاومَتِهم، فأخذَ لنَفْسه أمانًا وهَرَبَ وأسْلَمَ إليهم الحجيجَ، فقتَلُوا أكثَرَهم وأخذُوا أموالَ الناسِ، وقلَّ مَن سَلِمَ ممن نَجا، فإنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعونَ.

وفيها: ماتَ مُعينُ الدينِ أُنُرُ أتابكُ العساكرِ بدمَشْقَ، وكانَ أحدَ مماليك طُغْتكِينَ، ثم كان بعدَ ذلك أتابكَ الملوكِ بدمَشْقَ، وهو والدُ الستِّ عصْمَةِ الدينِ خاتُونَ زوجةِ الملكِ نورِ الدينِ، وهو واقفُ المَدْرسَةِ المُعينيَّةِ، داخلَ بابِ الفَرَجِ، وقَبْرُه في قُبَّةٍ قِبْليَّ الشاميَّةِ البرَّانيَّةِ، بمَحلَّةِ العُوَيْنَةِ، عندَ دارِ

البِطِّيخ، رَحِمَه اللَّهُ.

ولمَّا ماتَ مُعِينُ الدينِ قَوِيت شَوْكَةُ الوزيرِ الرئيسِ مُؤَيِّد الدولة عليِّ بنِ الصُّوفيِّ وأخيه زَيْنِ الدولة حَيْدَرَةَ، ووقَعَتْ بينَهما وبينَ الملك مُجيرِ الدين أَبَق وَحْشَةٌ، اقْتَضَتْ أنَّهما حَشَدَا مِن العامَّةِ والغَوْغاءِ ما يُقاوِمُه، فاقتتَلُوا وقُتِلَ خَلْقٌ مِن الفَرِيقَيْنِ، ثم وَقَعَ الصُّلْحُ بعدَ ذلك، وامْتَدَحَه الشُّعَراءُ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ نظامِ المُلْك الحسنُ بنُ عليٍّ، أبو نصر[1] الوزيرُ للمُسْتَرْشِدِ، والسلطانِ محمودٍ، وقد سمعَ الحديثَ، وكان مِن خيارِ الوزراءِ، رَحِمَه اللَّهُ.

أحمدُ بنُ محمد بن الحسين الأرَّجانيُّ، قاضي تُسْتَرَ، رَوَىٰ الحديثَ، وكان له شعرٌ حَسَنٌ يَبْتَكِرُ مَعَانيَ حَسَنَةً، فمن ذلكَ قولُه:

ولمَّا بَلَوْتُ الناسَ أطلبُ منهمُ	أخا ثقةٍ عندَ اعْتراضِ الشَّدائدِ
تَطَمَّعْتُ في حالَيْ رَخاءٍ وشِدَّةٍ	ونَادَيْتُ في الأحياءِ هل من مُساعِدِ
فلمْ أرَ فيما سَاءَني غيرَ شامتٍ	ولم أرَ فيما سَرَّني غيرَ حَاسِدِ
تمتَّعْتُما يا ناظِرَيَّ بنَظْرَةٍ	وأوردتُما قلبي أمَرَّ المَوَارِدِ
أعَيْنَيَّ كُفَّا عن فُؤادِيَ فإنَّه	من البَغْيِ سَعْيُ اثْنَيْنِ في قَتْلِ واحدِ

عيسى بن هِبَة اللَّه بن عيسى، أبو عبد اللَّه النَّقَّاشِ، سمع الحديثَ، ومَوْلِدُه سَنَةَ سبعٍ وخَمْسينَ وأربَعمائةٍ.

قال ابنُ الجَوْزِيِّ: وكان ظَرِيفًا خَفِيفَ الرُّوحِ له نَوَادِرُ حَسَنَةٌ، قد رأَىٰ الناسَ وعَاشَرَ الأكْيَاسَ، وكانَ يَحْضُرُ مَجْلِسِي ويُكَاتِبُني وأُكَاتِبُه، كَتَبْتُ إليه مرَّةً فعَظَّمْتُه في الكتابَةِ، فكَتَبَ إليَّ:

قد زِدْتَني في الخطابِ حتى	خَشِيتُ نَقْصًا من الزِّيادَهْ
فاجْعَلْ خِطابِي خِطابَ مِثْلي	ولا تُغَيِّرْ عليَّ عَادَهْ

وله:

إذا وَجَدَ الشيخُ في نفسِه	نَشَاطًا فذلك موتٌ خَفِي
أَلَسْتَ تَرَىٰ أنَّ ضَوْءَ السِّراجِ	له لَهَبٌ قبلَ أنْ يَنْطَفِي

غَازِي بنُ آقْ سُنْقُر[2] المَلِكُ سيفُ الدينِ صاحبُ المَوْصِلِ، وهو أخو نُورِ الدينِ محمودٍ صاحبِ حَلَبَ، ثم دمَشْقَ فيما بعدُ، وقد كان سيفُ الدينِ هذا مِن خِيارِ المُلُوكِ وأحْسَنِهم سِيرَةً، وأجْوَدِهم سَرِيرَةً، وأصْبَحِهم صورةً، شُجَاعًا كريمًا، يذبَحُ كلَّ يومٍ لجيشِه مائةً مِن الغَنَمِ، ولمماليكِه ثلاثينَ رأسًا في يومِ العيدِ ألفَ رأسٍ سِوَىٰ البَقَرِ والدَّجَاجِ، وهو أوَّلُ مَن حُمِلَ على رأسِه سَنْجَقٌ مِن مُلُوكِ

(١) ترجمته في «السير» (٢٠/ ٢٣٦).

(٢) ترجمته في «السير» (٢٠/ ١٩٢).

الأطراف، وأمر الجند ألا يركبوا إلا بسيف ودبوس، وبنى مدرسة بالموصل، ورباطًا للصوفية، وامتدحه الحيص بيص فأعطاه ألف دينار عينًا، وخلعة.

ولما توفي بالحمى في جمادى الآخرة من هذه السنة دفن في مدرسته المذكورة، وله من العمر أربعون سنة، وكانت مدة ملكه بعد أبيه ثلاث سنين وخمسين يومًا، رحمه الله.

نظرٌ الخادم، أمير الحاج مدة عشرين سنة وأكثر، وسمع الحديث وقرأ على ابن الزاغوني، وكان يحب العلم والصدقة والبر، وكان الحاج معه في غاية الدعة والأمن، وذلك لشجاعته ووجاهته عند الخلفاء والملوك والأمراء.

توفي ليلة الثلاثاء الحادي عشر من ذي القعدة، ودفن بالرصافة.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وخمسمائة

فيها: فتح نور الدين محمود حصن أفامية، وهو من أحصن القلاع وأوسع البقاع، وقيل في السنة التي قبلها.

وفيها: قصد دمشق فلم يتسن له أخذها، فخلع على ملكها مجير الدين أبق، وعلى وزيره الرئيس ابن الصوفي، وتقرر الحال على الخطبة له بها بعد الخليفة والسلطان، وكذلك السكة.

وفيها: فتح نور الدين حصن عزاز، وأسر ملكها ابن جوسلين، ففرح المسلمون بذلك كافة، ثم أسر بعده والده جوسلين الملك الإفرنجي، فكانت الفرحة أعظم، وفتح بعد أسره من بلاده شيئًا كثيرًا من الحصون، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

وفي المحرم حضر يوسف الدمشقي تدريس النظامية، وخلع عليه، وحضر عنده الأعيان، ولما لم يكن ذلك بإذن الخليفة، بل بمرسوم السلطان، وابن نظام الملك منع من ذلك، فلزم بيته ولم يعد إلى المدرسة بالكلية، وولي بعده الشيخ أبو النجيب بإذن الخليفة ومرسوم السلطان.

قال ابن الجوزي: وفي هذه السنة وقع باليمن مطر كله دم، حتى صبغ ثياب الناس.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الحسن بن ذي النون بن أبي القاسم بن أبي الحسن، أبو المفاخر النيسابوري، قدم بغداد فوعظ، وجعل ينال من الأشعرية فأحبه الحنابلة، ثم اختبروه فإذا هو معتزلي، ففتر سوقه، وجرت بسببه فتنة ببغداد، وقد سمع منه ابن الجوزي شيئًا من شعره، من ذلك:

ماتَ الكرامُ ومرّوا وانقضَوا ومضَوا ... ومات من بعدهم تلك الكراماتُ
وخلّفوني في قومٍ ذوي سفهٍ ... لو أبصروا طيفَ ضيفٍ في الكرى ماتوا

عبد الملك بن عبد الوهاب الحنبلي، القاضي بهاء الدين، كان يعرف مذهبي أبي حنيفة وأحمد، ويناظر عنهما، ودفن مع أبيه وجده بقبور الشهداء.

عبدُ المَلك بنُ أبي نَصْر بن عمرَ، أبو المَعالي الجيليُّ، كان فَقيهًا صالحًا دينًا مُتعَبِّدًا فقيرًا، ليس له بيتٌ يَسكُنُه، وإنَّما يبِيتُ بالمَساجدِ المَهجُورَة، و قد خَرَجَ مع الحَجِيج، فأقامَ بِفَيْدَ، فكان أهلُها يُثْنُونَ عليه خيرًا.

الفقيهُ أبو بكرِ بنُ العَربي[1] المالكيُّ، شارحُ «التِّرمذيِّ»، كان فَقيهًا عالمًا، وزاهدًا عابدًا، وسمع الحديثَ بعدَ اشتغاله في الفقه، وصَحِبَ الغزاليَّ، وأخذَ عنه، وكان يَتهِمُه برأيِ الفلاسفَة، ويَقُولُ: دخلَ في أجْوَافِهم فلم يَخرُجْ منها. واللَّهُ سبحانَه أعلَمُ.

ثم دخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة

فيها: أغارَ السلطانُ على بلادِ الإسماعيلية، فَقتَلُوا خلقًا ورَجَعُوا سالمِينَ.

وفيها: حاصَرَ نُورُ الدينِ دِمَشْقَ شهرًا، ثم رَحلَ عنها إلى دَاريَّا، وكان الصُّلْحُ على يدَي البُرْهانِ البَلْخِيِّ، رَحمَه اللَّهُ.

وفيها: اقتَتلَ الفِرنْجُ وجَيشُ نُورِ الدينِ محمودٍ فانْهَزَمَ المُسلمونَ، وقُتِلَ منهم خَلْقٌ، فإنَّا للَّه وإنَّا إليه رَاجِعُونَ، ولمَّا وَقَعَ هذا الأمرُ شَقَّ ذلك على نُورِ الدينِ وهَجَرَ اللَّذَّةَ والتَّرَفُّه حتى يأخُذَ بالثَّأْرِ، وأغرَىٰ بهم جماعَةً من التُّرْكُمَانِ، فتَرَصَّدُوا لمَلِكِهم جُوسلينَ الإفرنْجيِّ، فلم يزَالُوا به حتى أسَرُوه في بعضِ مُتَصيَّدَاته، فأرْسَلَ نُورُ الدينِ، فكَبَسَ التُّرْكُمانَ وأخَذَ منهم جُوسلينَ أسيرًا، وكان من أعْتَى الكَفَرَة، وأعْظَمِ الفَجَرَة، لَعَنَه اللَّهُ، فأوْقَفَه بينَ يدَيْه في أذَلِّ حالٍ، ثم سَجَنَه، وسَارَ نُورُ الدينِ إلى بلادِه فأخَذَها كلَّها بما فيها.

وفي ذي الحَجَّة جلَس ابنُ العَبَّاديِّ في جامعِ المَنصُورِ وتكَلَّمَ، وعندَه جَماعةٌ من الأعْيانِ، فكادت الحَنابلَةُ يُثيرُونَ فتنَةً ذلك اليومَ؛ لكَوْنِه غيرَ حَنبَليٍّ.

وحَجَّ بالناسِ فيها قايْمَازُ الأُرْجُوانيُّ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الشيخُ بُرْهَانُ الدينِ أبو الحسنِ عليٌّ البَلْخيُّ، شيخُ الحَنَفيَّة بدمَشْقَ، درَّسَ بالبَلْخيَّة، ثم بالخَاتُونيَّة البَرَّانيَّة، وكان عالمًا عاملاً، ورِعًا زَاهدًا، ودُفِنَ بمَقابرِ بَابِ الصَّغيرِ.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

فيها: تُوُفِّي السلطانُ مسعودٌ، وقامَ بالأمرِ من بعده ابنُ أخيه مَلكْشاه بنُ محمودٍ، ثم جاء السلطانُ محمدٌ فأخَذَ المُلْكَ واستَقرَّ له، وقَتَلَ الأميرَ خاصَّ بَك، وأخَذَ أموالَه وألقاه للكلاب فاختَبَطَتْ بَغْدَادُ، واضْطَرَبَتْ الأمورُ، وتَغَيَّرَتْ القواعدُ، وبلَغَ الخليفَةَ أنَّ واسطًا قد تَخَبَّطَتْ أيضًا، فرَكِبَ إليها

(١) ترجمته في «السير» (٢٠/ ١٩٧ - ٢٠٤).

في الجيش في أُبَّهةٍ عظيمةٍ، وأصلَحَ شأنَها، وكرَّ على الكُوفةِ والحِلَّةِ، ثم عادَ إلى بَغْدادَ مؤيَّدًا مَنصُورًا؛ فزُيِّنَتْ له البلدُ، ولله الحمدُ.

وفيها: مَلَكَ عبدُ المُؤمنِ صاحبُ بلادِ المَغربِ بِجَايَةَ، وهي بلادُ بني حَمَّادٍ، فكانَ آخرُ مُلُوكِهم يَحْيَى بنُ عبدِ العَزيزِ بنِ حَمَّادٍ، ثم بَعَثَ جَيْشًا إلى صِنْهَاجَةَ فحَاصرَها، وأخذَ أموالَها.

وفيها: كانت وَقْعةٌ عظيمةٌ بينَ نورِ الدينِ محمودٍ وبينَ الفِرنْجِ، فكَسَرَهم وقتَلَ منهم خَلْقًا كثيرًا، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وفيها: اقْتتَلَ سَنْجَرُ ومَلِكُ الغُورِ علاءُ الدينِ الحُسَيْنُ بنُ الحسينِ أوَّلُ مُلوكِهم، فكسَره سَنْجَرُ وأسَرَه، فلمَّا أحْضَره بينَ يَدَيْه قال له: ماذا كنتَ تصنَعُ بي لو أسَرْتَني؟ فأخرَجَ قَيْدًا من فضَّةٍ وقال: كنتُ أُقَيِّدُكَ بهذا. فعَفَا عنه وأطْلَقه إلى بلاده، فسارَ إلى غَزْنَةَ فانْتزَعَها من يَدِ صاحبِها بَهْرامَ شاه السُّبُكْتكيني، واسْتَخلفَ عليها أخاه سيفَ الدينِ فغدَرَ به أهلُ البلدِ، وسلَّموه إلى بَهْرَام شاه فصلَبَه، وماتَ بَهرامُ شاه قريبًا، فسارَ إليها علاءُ الدينِ فهرَبَ خُسْرُو بنُ بَهْرامْ شاه عنها، فدخَلها علاءُ الدين فنَهبَها ثلاثةَ أيامٍ، وقتَل من أهْلِها بشَرًا كثيرًا، وسخَّرَ أهلَها، فحمَّلُوا تُرابًا في مَخالِ إلى محلَّةٍ هناك بعيدةٍ عن البلدِ، فعمَّرَ من ذلك الترابِ قلعةً معْرُوفةً إلى الآنَ، وبذلك انْقَضَتْ دولةُ بني سُبُكْتكِينَ عن بلادِ غَزْنَةَ وغيرِها. وقد كان ابْتداءُ أمْرِهم في سنَةِ ستٍّ وستِّينَ وثلاثمائةٍ، وكانوا من خيارِ المُلوك، وأكْثَرِهم جهادًا في الكفَرة، وأكثرِهم أموالاً ونساءً وعَددًا وعُدَدًا، قد كسَروا الأصنامَ، وأبادُوا الكفَّارَ، وجمَعوا من الأموالِ ما لم يجمَعْ غيرُهم من الملوك، مع أن بلادَهم من أطيبِ البلادِ وأكثرِها ريفًا ومياهًا ففَنِيَ جميعُه، وزال عنهم؛ ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ٢٦]. ثم مَلَكَ الغُورَ والهِنْدَ وخُرَاسَانَ، واتَّسعَتْ ممالكُهم وعظُمَ سلْطانُهم.

وحكَى ابنُ الجوزيِّ في «المنتظَم» أنَّ في هذه السنةِ باضَ ديكٌ بيضةً واحدةً، ثم باضَ بازٍ بيْضتَيْنِ، وباضَتْ نعامةٌ ليس لها ذكَرٌ، وهذا شيءٌ عجيبٌ.

وممَّنْ تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

المُظَفَّرُ بنُ أرْدَشيرَ، أبو منصورٍ العبَّاديُّ، الواعظُ، سمعَ الحديثَ، ودخَلَ بَغدادَ فأمْلَى بها ووعَظَ، وكان يكتُبُ ما يعظُ الناسَ به، فاجتمعَ له من ذلك مجلَّداتٌ. قال ابنُ الجوزيِّ: لا تكادُ تجِدُ في المجلَّد خمسَ كلماتٍ جيدةٍ. وتكلَّم فيه، وأطالَ الحطَّ عليه، واسْتَحْسنَ من كلامه قولَه: وقد سقَطَ مطَرٌ وهو يعظُ الناسَ، ففرَّ الناسُ إلى ما تحتَ الجدْرانِ، فقال: لا تَفِرُّوا من رشاشِ ماءِ رحمةٍ، قَطَرَ من سحابِ نعمةٍ، ولكن فِرُّوا من شَرارِ نارٍ اقْتُدح من زِنادِ الغضَب. تُوفِّي وقد جاوَزَ الخمسينَ بقليلٍ.

مسعودٌ السلْطانُ بنُ محمدِ بنِ مَلِكْشاه بنِ ألْب أرسَلانَ بنِ داودَ بنِ ميكائيلَ بنِ سَلجوقَ التركيُّ السَّلجوقيُّ، صاحبُ العراقِ وغيرِها، حصَلَ له من التَّمكُّنِ والسعادةِ شيءٌ كثيرٌ لم يحصُلْ لغيره،

وجرت له خطوبٌ كثيرةٌ، وحروبٌ طويلةٌ، وقد أسَرَ في بعضِ تلك الحروبِ الخليفةَ المُسترشدَ، كما تقدَّم، تُوفِّي يومَ الأربعاء سلْخَ جُمادَىٰ الآخرة من هذه السنة.

يَعْقُوبُ الخَطَّاطُ الكاتبُ، تُوفِّي بالنِّظاميَّة، فجاءَ ديوانُ الحشْريَّة؛ ليأخذُوا ميراثَه لبيت المال، فمنَعهمُ الفقهاءُ، فجرَتْ فتنةٌ عظيمةٌ، آل الحالُ إلىٰ عَزْلِ مدرِّسِها الشيخ أبي النَّجِيب، وضَرْبه بالديوانِ تعْزيراً.

ثم دخلت سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة

فيها: وقَعت الحربُ بينَ السلطانِ سَنْجَرَ وبينَ الأتراكِ ببلادِ بَلْخ، فقتَلُوا من جيشِه خلقًا كثيراً جداً بحيثُ بَقِيتِ القَتْلَىٰ مثلَ التلالِ العظيمة، وأسَرُوا السلطانَ سَنْجَرَ، وقتَلُوا مَن كانَ معه من الأمراء صَبْراً، ولما استَحْضَرُوه قبَّلُوا الأرضَ بينَ يديه، وقالُوا: نحنُ عبيدُك، وكانوا عدَّةً من الأمراء الكبار، فأقامَ عندَهم شهرَيْنِ ثم جاءوا معه، فدخلُوا مَرْوَ، وهي كُرْسِيُّ مَمْلَكَةِ خُرَاسَانَ، فسأَلَه بعضُهم أنْ يجْعَلَها له إقْطاعًا، فقالَ: هذا لا يمكنُ؛ هذه كُرْسِيُّ المَمْلَكَة. فضَحِكُوا منه وأضرَط به بعضُهم، فنزَل عن سريرِ المَمْلكة، ودخَل خانقاه، وصار فقيراً من جملة أهْلِها، وتاب عن المُلك، واستَحْوذَ أولئك الأتراكُ علىٰ البلادِ فنَهبُوها، وتركُوها قاعًا صفصَفًا، وأقامُوا سليمانَ شاه مَلِكًا، فلم تَطُلْ مدَّته حتىٰ عزَلُوه، وولَّوا ابنَ أختِ سَنْجَرَ الخاقانَ محمودَ بنَ محمد بنِ كوخانَ، وتفرَّقَت الأمورُ واسْتَحوذ كلُّ إنسانٍ علىٰ ناحيةٍ من تلك الممالك، وصارَت الدولةُ دُوَلاً.

وفيها: كانت حروبٌ كثيرةٌ بينَ عبدِ المؤمنِ وبينَ العربِ ببلادِ المغرب. وفيها أخذَت الفرنجُ مدينةَ عَسْقَلانَ من السواحلِ. وفيها خرَج الخليفةُ إلىٰ واسِطٍ في جَحْفَلٍ فأصلَح شأنَها وعادَ إلىٰ بَغْدادَ. وحجَّ بالناسِ فيها قايْمازُ الأُرْجوانيُّ.

وفيها كانتْ وفاةُ الشاعِرَيْنِ القرينَيْنِ المُشَبَّهَيْنِ في الزمانِ الأخيرِ بالفَرَزْدَق وجَرِير، وهما أبو الحسين أحمدُ بنُ مُنِير الجُونيُّ بحَلَبَ، وأبو عبد اللَّه محمدُ بنُ نَصْرِ بن صَغِير القَيْسَرانيُّ الحَلَبيُّ بدمشقَ، رحمَهما اللَّهُ.

وعليُّ بنُ السَّلَّار الملقَّبُ بالعادل، وزيرُ الظافرِ صاحبِ مصْرَ، وهو باني المدرسةِ بالإسْكَنْدريَّة للشافعيَّة؛ للحافظ أبي طاهرٍ السِّلَفيِّ، رحمه اللَّهُ، وقد كان العادلُ هذا ضِدَّ اسْمه؛ كان ظَلُومًا غَشُومًا حَطُومًا، وقد ترجَمه ابنُ خَلِّكَانَ.

ثم دخلت سنة تسعٍ وأربعين وخمسمائة

فيها: ركِب الخليفةُ المُقْتَفِي في جيشٍ كثيفٍ إلىٰ تَكْرِيتَ فحاصَر قلْعتَها، والتقَىٰ جَمْعًا هنالك من الأتراك والتُّرْكُمانِ، فأظفَرَه اللَّهُ بهم، وهزَمهم له، وأعلىٰ كلمتَه عليهم، ثم عادَ إلىٰ بغدادَ مؤيَّدًا منصوراً.

وجاءت الأخبارُ بأنَّ مصرَ قد قُتِلَ خليفَتُها الظافرُ، ولم يَبْقَ منهم إلا صبيٌّ صغيرٌ ابنُ خمسِ سنين، قد ولَّوه عليهم ولقَّبوه الفائزَ، فكتَبَ الخليفةُ عَهْدًا للملكِ نورِ الدينِ محمودِ بنِ زَنْكي على البلادِ الشاميةِ والديارِ المِصْريَّةِ وأرسَلَه إليها.

وفيها: هاجَتْ ريحٌ شديدةٌ بعدَ العشاء فيها نارٌ، فخاف الناسُ أنْ تكونَ الساعةَ، وزُلْزِلتِ الأرضُ، وتغيَّرَ ماء دِجْلَةَ إلى الحُمْرةِ. وظَهَر بأرضِ واسطٍ مِن الأرضِ دمٌ لا يُعْرفُ سببُه. وجاءتِ الأخبارُ بأنَّ الملكَ سَنْجَرَ في أَسْرِ الترك، في غاية الذُّلِّ والإهانة، وأنَّه يبْكي على نفْسه في كلِّ وقتٍ.

وفيها: انْتَزَعَ الملكُ نورُ الدينِ محمودُ بنُ زَنْكي دمشقَ من يَدِ مَلِكِها مُجيرِ الدينِ أَبَقَ بنِ محمدِ بنِ بُوري بنِ طُغْتكينَ، وذلك لسوءِ سيرته وضَعْفِ دولته، ومُحاصرةِ العامَّة له في القلْعَة غيرَ مرَّةٍ، مع وزيره الرئيسِ مؤيِّدِ الدولة المُسَيَّبِ بنِ الصوفيِّ، وتغَلُّبِ الخادمِ عَطاءٍ على المَمْلَكة مع ظُلْمه وغَشْمه، فكان الناسُ يدْعُون اللَّهَ ليلاً ونهاراً أن يُبدلَهم بالملكِ نورِ الدينِ، واتَّفَق مع ذلك أنَّ الفرنجَ أخذُوا عسْقَلانَ، فتحرَّق الملكُ نورُ الدينِ على ذلك، ولا يمكنُه الوصولُ إليهم؛ لأنَّ دمشقَ بينَهم وبينَه، ويخْشَى أنْ يُحاصِرَ دمشقَ بعَسْفٍ؛ فيَنْبَعِثَ مَلِكُها إلى الفرنجِ فيَنْجِدُونه كما جرَىٰ غيرَ مرَّةٍ؛ لأن الفرنجَ لا يُريدُون أنْ يملكَ نورُ الدينِ دمشقَ؛ لأنه يقوَىٰ بها عليهم ولا يُطيقُونه، فأرسَل بينَ يدَيْه الأميرَ أسدَ الدينِ شيركُوه في ألفِ فارسٍ في صفَةِ طلَبِ الصلحِ، فلم يلتفتْ إليه مُجيرُ الدينِ، ولا خرَج إليه أحَدٌ من أهلِ البلدِ، فكتَب إلى نورِ الدينِ بذلك، فركب الملكُ نورُ الدينِ في جيْشه، فنزَل عُيونَ الفاسَرْيا من أرضِ دمشقَ، ثم انتقَل إلى قريبٍ من البابِ الشرقيِّ، ففتَحها قَهْرًا ودخَل البلدَ بعدَ حصارِ عشَرةِ أيامٍ، وكان دُخولُه يومَ الأحد عاشرَ صفَرٍ من هذه السنة، وتحصَّنَ مجيرُ الدينِ في القَلْعَة فأنْزَله منها، وعوَّضَه مدينةَ حِمْصَ، ودخَل نورُ الدينِ القَلْعَةَ، واستقرَّتْ يدُه على دِمَشْقَ، ولِلَّه الحمدُ، فنادَىٰ في البلد بالأمان، وأنَّه يُبشِّرُ الناسَ بالخير، فرفَع عنهمُ المُكوسَ، وقُرِئتِ التَّواقيعُ بذلك على المِنْبرِ، ففرح المسلمون وأكْثَرُوا الدعاءَ له، وكتَب مُلوكُ الفرنجِ إليه يُهَنِّئونَه ويتقَرَّبُونَ إليه، ويخضَعُونَ له.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الرئيسُ مُؤيِّدُ الدولة المُسَيَّبُ بنُ الصوفيِّ، وزيرُ دِمَشْقَ لِمُجيرِ الدينِ، وقد ثار على المَلِكِ غيرَ مرَّةٍ، ويَسْتَفْحِلُ أمرُه، ثم يقَعُ الصلحُ بينَهما، كما تقدَّم.

عَطَاءٌ الخادمُ أحدُ أمراءِ دِمَشْقَ، وقد تغلَّبَ على الأمورِ أيامَ مُجيرِ الدينِ، وكان ينوبُ ببَعْلَبَكَّ في بعضِ الأحيانِ، وكان ظالمًا غاشمًا وهو الذي يُنْسَبُ إليه مسجدُ عَطاءٍ خارجَ بابِ شرقيٍّ.

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

فيها: خرَج الخليفةُ المقتفي لأمرِ اللَّه في تجمُّلٍ عظيمٍ إلى دَقُوقا فحاصرَها، فخرَج إليه أهلُها فسألوه أنْ يرحَل عنهم؛ فإنَّ أهلَها قد هلَكُوا بينَ الجيْشَيْنِ، فأجابَهم، ورحَل عنهم، وعادَ إلى بغدادَ بعدَ شَهْرَيْنِ ونصفٍ، ثم خرج نحوَ الحِلَّةِ والكُوفَةِ، والجيشُ بينَ يدَيْه، وقال له سُلَيمان شاه: أنا وَلِيُّ عهدِ

سَنْجَرَ، فإنْ قرَّرتَ لي ذلك وإلا فأنا كأحَدِ الأمراء. فوعَده خيْرًا، وكان يحملُ الغاشيَةَ بينَ يدَي الخليفة على كاهله، فمهَّدَ الأمورَ ووطَّدها، وسلَّم على مَشْهَدِ عليٍّ إشارةً بأُصْبُعَيه وكان قد عزَم على دخولِ المشهدِ، فنهاه الوزيرُ ابنُ هُبَيْرَةَ عن ذلك كأنَّه خافَ عليه من غائلةِ الرَّوافضِ، واللَّهُ أعلمُ.

وفيها: افْتَتح نورُ الدينِ بَعْلَبَكَّ عَوْدًا على بَدْءٍ؛ وذلك أنَّ نجمَ الدينِ كان نائبًا على البلدِ والقلعة، فسلَّمه إلى رجلٍ يقالُ له: الضَّحَّاكُ البِقاعيُّ. فكاتَب نجمُ الدينِ لنورِ الدينِ، ولم يزَلْ نورُ الدينِ يتلطَّفُ حتى أخذَ القلْعَةَ أيضًا، واسْتَدْعَى بنَجْمِ الدينِ إليه إلى دمشقَ فأقْطَعه إقطاعًا، وأكرَمَه من أجلِ أخيه أسَدِ الدينِ؛ فإنَّه كانتْ له اليَدُ الطُّولَى في فَتْحِ دمشقَ للملكِ العادلِ نورِ الدينِ، وجعَل الأميرَ شمسَ الدولةِ تُورانْشَاه بنَ نجمِ الدينِ شِحْنَةَ دمشقَ ثمَّ من بعده جعَل أخاه صلاحَ الدينِ يُوسُفَ هو الشِّحْنَةَ، وجعَله من خواصِّه لا يُفارقُه حضرًا ولا سفرًا؛ لأنَّه كان حسنَ الشكلِ، حسنَ اللَّعِبِ بالكرةِ، وكان نورُ الدينِ يحبُّ لعبَ الكرةِ؛ لتمرينِ الخَيْلِ وتَعْلِيمِها الكَرَّ والفَرَّ، وفي شِحْنَكِيَّةِ صلاحِ الدينِ يُوسُفَ يقولُ عَرْقَلَةُ الشاعرُ:

رُوَيْدَكُمُ يا لُصوصَ الشامِ ... فإنِّي لكم ناصِحٌ في مَقالِ
فإيَّاكُم وسَمِيَّ النبيِّ ... يُوسُفَ ربِّ الحِجَا والجَمالِ
فذاك مُقَطِّعُ أيْدي النساءِ ... وهذا مُقَطِّعُ أيْدي الرجالِ

وقد ملَك أخوه تورانْشَاه هذا بلادَ اليمنِ فيما بعدَ ذلك، وكان يلقَّبُ شمسَ الدولة.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

محمدُ بنُ ناصرِ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ عمرَ الحافظُ، أبو الفَضْلِ البَغْداديُّ[1]. وُلدَ ليلةَ النصفِ من شعبانَ سنةَ سَبْعٍ وستِّينَ وأرْبَعِمائةٍ، وسمع الكثيرَ، وتفرَّد بمشايخَ، وكان حافظًا، ضابطًا، مُكْثِرًا، من أهلِ السنةِ، كثيرَ الذِّكْرِ، سريعَ الدَّمْعَةِ. وقد تخرَّج به جماعةٌ؛ منهم الشيخُ أبو الفَرَجِ ابنُ الجوزيِّ، سَمِع بقراءَتِه «مُسْنَدَ الإمامِ أحمدَ»، وغيرَه من الكُتُبِ الكبارِ، وكان يُثْني عليه كثيرًا، وقد رَدَّ على أبي سَعْدٍ السَّمْعانيِّ في قولِه في محمدِ بنِ ناصرٍ: يحبُّ أنْ يقَع في الناسِ.

قال ابنُ الجوزيِّ: والكلامُ في الجَرْحِ والتَّعْديلِ ليسَ من هذا القَبيلِ، وإنَّما ابنُ السَّمْعانيِّ يحبُّ أنْ يتعصَّبَ على أصحابِ الإمامِ أحمدَ، نعوذُ باللَّهِ من سوءِ القَصْدِ والتَّعَصُّبِ. وكانت وفاةُ محمدِ بنِ ناصرٍ ليلةَ الثلاثاءِ الثامنَ عشَرَ من شعبانَ من هذه السنةِ، عن ثلاثٍ وثمانينَ سنةً، وصلِّيَ عليه مرَّاتٍ، ودُفِن ببابِ حربٍ، رحمه اللَّهُ.

مُجَلِّي بنُ جُمَيْعِ بنِ نجا، أبو المَعالي المَخْزُوميُّ الأَرْسُوفيُّ، ثم المصْريُّ قاضيها، الفقيهُ الشافعيُّ، مصنِّفُ «الذَّخائرِ» في المذهبِ، وفيها غرائبُ كثيرةٌ، وهي من الكتبِ المفيدة، رحمه اللَّهُ.

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٠/ ٢٦٥ـ ٢٧١).

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

في المحرَّم منها دخَل السلطانُ سُلَيمان شَاه بنُ محمد بن مَلِكْشَاه بن ألب أرسَلانَ السَّلجُوقيُّ إلى بغدادَ وعلى رأسه الشَّمْسيَّةُ، فتلقَّاه الوزيرُ ابنُ هُبَيرةَ، وأدْخَله على الخليفة، فقبَّل الأرضَ وحلَّفه على الطاعة وصفاء النِّيَّة والمُناصَحَة والمَوَدَّة، وخلَع عليه خِلَعَ المُلوك، وتقرَّرَ أنَّ للخليفة العراقَ ولسُلَيمان شَاه ما يفتَحُه من خُرَاسانَ، ثم خُطِبَ له ببَغْدادَ بعدَ الملك سَنْجَرَ، ثم خرَج منها في ربيع الأوَّل فاقْتَتل هو والسلطانُ محمدُ بنُ محمودِ بنِ مَلِكْشاه، فهزَمه محمدٌ وهزَم عسكرَه، فذهَبَ هاربًا فتلَقَّاه نائبُ قُطْبِ الدينِ مودودِ بنِ زَنْكي، صاحبِ المَوْصِل، فأسَره وحبَسه بقلْعَة المَوْصِل، وأكْرَمَه مدَّةَ حبْسِه وخدَمه، وهذا من أغرب الاتِّفاقات.

وفيها: ملَكت الفرنجُ المَهْدِيَّةَ من بلاد المغرب بعدَ حصارٍ شديد. وفيها فتَح نورُ الدينِ محمودُ بنُ زَنْكي قلعة تلِّ حارِمٍ واقْتَلَعها من أيْدي الفرنج، وكانتْ من أحْصَن القلاع وأمْنَع البِقاع، وذلك بعدَ قتالٍ عظيمٍ ووقْعَةٍ هائلة كانتْ من أكبر الفُتوحات، وقد امتدَحَه الشعراءُ عندَ ذلك.

وفيها: هرَب الملكُ سَنْجَرُ من الأسر وعادَ إلى مُلْكه بمَرْوَ، وكان له في أيْديهم نحوٌ من خَمْسِ سنينَ.

وفيها: استعمَل عبدُ المؤمن أوْلادَه على بلاده؛ استَنابَ كلَّ واحدٍ في بلَدٍ كبير.

ذكر حصار بغداد

وسبَبُ ذلك أنَّ السلْطانَ محمدَ بنَ محمود بن مَلِكْشَاه أرسَل إلى الخليفة المُقْتَفِي يطلُبُ منه أن يُخطَبَ له ببغدادَ، فلم يُجِبْه إلى ذلك، فسارَ من هَمَذانَ إلى بَغْدادَ ليُحاصِرَها، فانْجَفَل الناسُ، وحصَّنَ الخليفةُ البلدَ، وجاءَ السلطانُ محمدٌ فحصَر بَغْدادَ، ووقَف تُجاهَ التاجِ من دارِ الخلافة في جَحْفَلٍ عظيم، ورَمَوْا نحْوَه بالنُّشَّاب، وقاتَلت العامَّةُ قتالاً عظيمًا بالنِّفْط وغيره، واستمرَّ القتالُ إلى مدَّة، فبيْنَما هم كذلك إذ بلَغ السلطانَ أنَّ أخاه قد خلفَه في هَمَذانَ، فانْشَمَر عن بغدادَ راحلاً إلى هَمَذانَ في ربيعٍ الأوَّل من سنة اثْنَتيْن وخَمْسينَ، وتفرَّقَت العساكرُ الذين كانُوا معه في البلاد، وأصابَ الناسَ بعدَ هذا القتالِ مرضٌ شديدٌ، وموتٌ ذَريعٌ، واحْترقَتْ محالٌّ كثيرةٌ من بغدادَ، واستمرَّ ذلك فيها مدَّةَ شهْرَيْن.

وفيها: أُطْلِقَ أبو البَدْرِ ابنُ الوزير ابنِ هُبَيْرَةَ من قلعة تَكْريتَ، وكان له فيها، مُعتقَلاً، ثلاثُ سنينَ، فتلقَّاه الناسُ إلى أثناء الطريق، وامْتَدَحَه الشعراءُ، فكان في جملَتِهم الأبْلَهُ الشاعرُ، أنْشَد الوزيرَ قصيدةً يقولُ في أوَّلها:

بأيِّ لسانٍ للوُشاة ألامُ ... وقد علِموا أنِّي سهِرْتُ وناموا

إلى أن قال:

ويَسْتكثِرُون الوَصْلَ لي منك ليلةً وقد مَرَّ عامٌ بالصُّدود وعامُ

فطرِبَ الخليفةُ عندَ ذلك. وخلَع عليه ثِيابَه وأطْلَقَ له خمسينَ دِيناراً، وحجَّ بالناسِ قَايْمازُ.

وممَّنْ تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

عليُّ بنُ الحُسَيْن، أبو الحسَنِ الغَزْنَويُّ الواعظُ، كان له قَبُولٌ كثيرٌ من العامَّة، وبنَتْ له الخاتونُ زَوْجَةُ المُسْتظهرِ رِباطًا ببَابِ الأزَجِ، ووقَفتْ عليه أوْقافًا كثيرةً، فحصَل له جاهٌ عريضٌ وزارَه السلطانُ. وكان حسَنَ الإيرادِ مليحَ الوَعْظِ، يحضُرُ مجلسَه خلقٌ كثيرٌ، وجَمٌّ غفيرٌ من أصْنافِ الناسِ. وقد استملَح ابنُ الجوزيِّ أشياءَ من وَعْظِه، قال: وسمعتُه يومًا يقولُ: حُزْمَةُ حُزْنٍ خيْرٌ من أعْدالِ أعْمالٍ. ثم أنشَدَ:

كم حَسْرَةٍ لي في الحشَا مِنْ ولَدٍ إذا نَشَا

أمَّلْتُ فيه رُشْدَهُ فَما نشا كما أشَا

قال: وسمعتُه يومًا ينشدُ:

يحسُدُنِي قومِي على صَنْعَتِي لأنَّني في صنْعَتِي فارسُ

سهِرْتُ في لَيْلِي واسْتَنْعَسُوا هل يسْتَوِي السَّاهِرُ والناعسُ؟

قال: وكان يقولُ: تَوَلَّونَ اليهودَ والنصارَىٰ فيسُبُّونَ نبيَّكم في يوم عيدِهم ويصْبِحونَ يجلسُونَ إلىٰ جانبِكم؟! ثمَّ يقولُ: ألا هل بلَّغتُ؟ قال: وكان يتشيَّعُ، ثم سُعِيَ في منْعِه من الوعْظ، ثم أُذِنَ له، ولكنْ ظهَر للناسِ ابنُ العبَّاديِّ، فكان كثيرٌ من الناسِ يمِيلُونَ إليه، وقد كان السلْطانُ مسعودٌ يعظِّمُه ويحضُرُ مجْلسَه، فلمَّا ماتَ السلطانُ مسعودٌ ذُلَّ الغزْنَويُّ بعدَه، وأُهِينَ إهانةً بالغةً، فمرِضَ وماتَ في المحرَّمِ من هذه السنة.

قال ابنُ الجوزيِّ: وبلَغنِي أنَّه كان يعرَقُ في نَزْعِه ثم يفيقُ وهو يقولُ: رِضًا وتَسْليمٌ. ولمَّا ماتَ دُفِنَ في رِباطِه الذي كان فيه.

محمودُ بنُ إسْماعيلَ بنِ قادُوسَ، أبو الفتح الدِّمْياطيُّ، كاتبُ الإنشاءِ بالديارِ المصْريَّة، وهو شيخُ القاضي الفاضلِ، وكان يُسمِّيه ذا البلاغتَيْنِ، وذكَره العِمادُ الكاتبُ في «الخريدة» وأثنَىٰ عليه، ومِن شعرِه فِيمَنْ يكرِّرُ التكْبيرَ في أوَّلِ الصلاةِ:

وفاترِ النِّيَّةِ عِنِّينِها مع كَثْرَةِ الرِّعْدَةِ والهَزَّهْ

يُكبِّرُ سبعينَ في مَرَّةٍ كأنَّهُ صلَّىٰ علىٰ حَمْزَهْ

الشيخُ أبو البيَان، نبا بنُ محمد المعْروفُ بابنِ الحَوْرانيِّ، الفقيهُ الزاهدُ العابدُ الفاضلُ الخاشعُ، قدَّسَ اللَّهُ رُوحَه، قرأَ القرآنَ وكتابَ «التَّنْبيه» علىٰ مذْهبِ الشافعيِّ، وكان حسَنَ المعرفةِ باللغةِ، كثيرَ المُطالعَةِ، وله كلامٌ يؤثَرُ عنه، ورأيْتُ له كتابًا بخَطِّه فيه النظائمُ التي له، يقولُها أصْحابُه وأتْباعُه بلهْجَةِ

غريبة، وقد كان من نشأته إلى أن توفي على طريقة صالحة، وقد زاره الملكُ نورُ الدين في رباطه داخلَ درب الحَجَر، ووقفَ عليه شيئًا، وكانت وفاته في يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأول من هذه السنة، ودُفنَ بمقابر باب الصغير، وكان يومًا مشهودًا. وقد ذكرتُه في «طبقات الشافعيَّة» رحمه اللَّهُ.

عبدُ الغافر بنُ إسماعيلَ بن عبد الغافر بن محمد بن عبد الغافر بن أحمدَ بن سعيد الفارسيُّ الحافظُ، تفقَّهَ بإمام الحرمَيْن وسمعَ الكثيرَ على جدِّه لأمِّه أبي القاسم القُشَيْريِّ، ورحَل إلى البلاد وأسمَع الكثيرَ، وصنَّفَ «المُفْهِمَ في غريب مسلم» وغيره، ووَلِيَ خطابةَ نَيسَابورَ، وكان فاضلاً بارعًا دَيِّنًا حافظًا.

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة

استَهلَّتْ هذه السنةُ ومحمدُ شاه بنُ محمودٍ محاصرٌ بَغْدادَ، والعامَّةُ والجندُ من جهة الخليفة المُقْتَفي يقاتلُون أشدَّ القتال، والجُمُعةُ لا تُقامُ لعُذْرِ القتال، والفتنةُ كبيرةٌ، ثم يسَّر اللَّهُ بذَهاب السلطان، كما تقدَّم ذكْرُ ذلك في السنة التي قبلَها، وقد بسَط ذلك ابنُ الجوزيِّ في هذه السنة فطوَّلَ.

وفيها: كانتْ زلزلَةٌ عظيمةٌ بالشام، هلَك بسبَبِها خلقٌ كثيرٌ لا يعلَمُهم إلا اللَّهُ، وتهدَّمَ أكثرُ حَلَبَ وحَمَاةُ وشَيْزَرُ وحِمْصُ وكَفَرْ طابَ وحصْنُ الأكراد واللاَّذقيَّةُ والمَعَرَّةُ وأفاميَةُ وأنْطاكيَةُ وطَرَابُلُسُ.

قال ابنُ الجوزيِّ: وأما شَيْزَرُ فلم يسْلَمْ منها إلا امرأةٌ وخادمٌ لها، وهلَكَ الباقونَ، وأمَّا كَفَرْ طابَ فلم يسلمْ منها أحدٌ، وأمَّا أفاميَةُ فساخَتْ قلْعتُها، وتلٌّ جَرَّانَ انقسَم نصفَيْن، فأبْدَىٰ نواويسَ وبُيوتًا كثيرةً في وسَطه. قال: وهلَكَ من مدائن الإفرَنْج شيءٌ كثيرٌ، وتهدَّم أسوارُ أكثر مُدُن الشام من ذلك، حتى إنَّ مكْتَبًا بحَمَاةَ انهدَم على الصِّبيان فهلكُوا عن آخرهم، فلم يجئْ أحدٌ يسألُ عن أحدٍ منهم. وقد ذكَر هذا الفصلَ الشيخُ أبو شامةَ في كتاب «الروضتَيْن» مُسْتَقْصًى، وذكَر ما قالَه الشعراءُ في ذلك.

وفيها: ملَك السلطانُ محمودُ بنُ زَنْكي حصْنَ شَيزرَ بعدَ حصار، وأخَذ مدينةَ بَعْلَبَكَّ، وكان بها الضَّحَّاكُ البِقاعيُّ، وقد قيلَ: إنَّ ذلك كانَ في سنَة خمسينَ، كما تقدَّم واللَّهُ أعلمُ. وفيها مرِضَ نورُ الدين فمرِضَ الشامُ بمرَضه ثم عُوفي ففرحَ المسلمون بذلك فرحًا شديدًا، واستَوْلَى أخوه قطبُ الدين مودودٌ على جزيرة ابن عمرَ.

وفيها: عملَ الخليفةُ بابًا للكَعْبَة مُصَفَّحًا بالذهب، وأخَذ بابَها الأولَ فجعلَه لنفْسه تابُوتًا. وفيها أغارَت الإسْماعيليَّةُ على حُجَّاج خُرَاسانَ فلم يُبقُوا منهم على أحدٍ، لا زاهدٍ ولا عالمٍ. وفيها كان غلاءٌ شديدٌ بخُرَاسانَ حتى أكلُوا الحشَرات، وذبَح إنسانٌ رجلاً علَويًّا فطبَخه وباعَه في السوق، فحينَ ظُهِرَ عليه قُتِل.

وذكَر أبو شامةَ أنَّ فتحَ بانْيَاسَ كان في هذه السنة على يد الملك نور الدين بنفْسه، وقد كان مُعينُ الدين سلَّمها إلى الفرنج صلحًا عن دمشقَ، فعوَّضَهم بها، وقتَل ملِكَها وغنِم شيئًا كثيرًا، وللَّه الحمدُ.

وفيها: قدمَ الشيخُ أبو الوَقْتِ عبدُ الأوَّلِ بنُ عيسَىٰ بنِ شُعَيْبٍ السِّجْزِيُّ، فسُمع عليه «البُخاري» في دارِ الوزيرِ ببَغدادَ. وحجَّ بالناسِ قايْمَازُ.

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ عمرَ بنِ محمد بنِ أحمدَ بنِ إسْماعيلَ، أبو الليْثِ النَّسَفِيُّ، مِن أهلِ سَمَرْقَنْدَ، سمعَ الحديثَ وتفَـقَّهَ ووَعظَ، وكـان حسنَ السَّمْتِ، قدمَ بغْـدادَ فوَعظ، ثم عـادَ إلىٰ بلده فـقتَله قُطَّاعُ الطريقِ، رحمه اللَّهُ تعالىٰ.

أحمدُ بنُ بَخْتَيَارَ بنِ عليِّ بنِ محمد، أبو العباسِ، المَنْدائيُّ الواسطيُّ قاضيها، سمعَ الحديثَ وكانتْ له معرفةٌ تامَّةٌ بالأدبِ واللغةِ، وصنَّفَ كتُبًا في التاريخِ وغيرِ ذلك، وكان ثقةً صدُوقًا، تُوفِّي ببَغدادَ وصُلِّي عليه بالنِّظاميَّةِ.

السلطانُ سَنْجَرُ بنُ ملكشاه بنِ ألب أرْسَلان بنِ داودَ بنِ ميكائيلَ بنِ سَلجوقَ، أبو الحارثِ؛ واسمُه أحمدُ، ولُقِّبَ بسَنْجَرَ، مولدُه في رجَبٍ سنةَ تسْعٍ وسبعِينَ وأربعمائةٍ، وأقام في المُلْك نَيِّفًا وستِّين سنةً، مِن ذلك استقلالاً إحدىٰ وأربعين سنةً، وقد أسَره الغُزُّ نحوًا مِن خمسِ سنين، ثم هرب منهم فعَاد إلىٰ مُلْكِه بمَرْوَ، ثم كانت وفاتُه في ربيعٍ الأوَّلِ مِن هذه السنةِ، ودُفِنَ في قُبَّةٍ بناها سمَّاها: دارَ الآخرةِ، رحمه اللَّهُ.

محمدُ بنُ عبدِ اللطيف بنِ محمدِ بنِ ثابت، أبو بكرٍ الخُجَنْديُّ الفقيهُ الشافعيُّ، وَلِيَ تدريسَ النِّظاميَّةِ ببغدادَ، وكان يناظرُ حَسَنًا ويعظُ الناسَ وحولَه السيوفُ مُسلَّلَةٌ.

قال ابنُ الجوزيِّ: ولم يكُنْ ماهرًا في الوعظِ، حالُه أشْبَهُ بالوزراءِ مِن العلماءِ وتقدَّم عندَ السلاطينِ حتىٰ كانوا يَصْدُرونَ عن رأيه، تُوفِّي بأَصْبهانَ فجأةً.

محمدُ بنُ المُبارَكِ بنِ محمد بنِ الخَلِّ، أبو الحسَنِ بنُ أبي البَقَاء، سمع الحديثَ، وتفقَّهَ علىٰ الشَّاشيِّ، ودرَّس وأفتىٰ، وتُوفِّي في محرَّم هذه السنةِ، وتُوفِّي أخوه الشيخُ أبو الحُسَيْنِ بنُ الخَلِّ الشاعرُ في ذي القَعْدَةِ منها.

يحيىٰ بنُ عيسىٰ بنِ إدريسَ، أبو البركات الأنْبَاريُّ الواعظُ، قرأ القرآنَ وسمع الحديثَ، وتفَقَّه ووعَظ الناسَ علىٰ طريقة الصالحين، وكان يبْكي مِن أوَّلِ صُعوده إلىٰ حينِ نزوله، وكان عابدًا زاهدًا ورِعًا آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، ورُزِقَ أولادًا صالحين سمَّاهم بأسماءِ الخلفاءِ الأربعةِ؛ أبو بكرٍ، وعمرُ، وعُثْمانُ، وعليٌّ، وحفَّظَهمُ القرآنَ كلَّهم، وختَّمَ خلقًا كثيرًا، وكان هو وزَوْجتُه يصُومان الدهرَ، ويقُومان الليلَ، ولا يفْطِران إلا بعدَ العشاءِ، وكانت له كراماتٌ ومناماتٌ صالحةٌ. ولمَّا مات قالت زوجتُه: اللهمَّ لا تُحْيِني بعدَه. فماتت بعدَه بخمسةَ عشَرَ يومًا، وكانت مِن الصالحاتِ، رحمهما اللَّهُ تعالىٰ.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

فيها: كثُرَ فسادُ التُّرْكُمانِ من أصحابِ بُرْجُمِ الإيوائيِّ، فجُهِّزَ إليهم منكورسُ المُسْتَرْشِديُّ في جيشٍ كثيفٍ، فالْتَقَوا معهم فهزَموهم أقبحَ هزيمةٍ، وجاءوا بالأُسارىٰ والرءوسِ إلىٰ بغدادَ.

وفيها: كانت وقْعةٌ عظيمةٌ بينَ الغُزِّ وبينَ الملكِ محمودٍ، فكسَرُوه وقتَلوا من أصحابِه وغيرِهم خلْقًا كثيرًا ونهَبُوا البلادَ، وأقامُوا بمَرْوَ، ثم إنَّهم طلَبُوه إليهم فخاف علىٰ نفسِه، فأرسَل ولدَه بينَ يدَيه فأكرَموه، ثم قدِم عليهم فاجْتمَعوا عليه وعظَّموه.

وفيها: وقَعت فتنةٌ كبيرةٌ بمَرْوَ بينَ فقيهِ الشافعيةِ المُؤيَّدِ بنِ الحُسَينِ، وبينَ نقيبِ العلويِّين بها أبي القاسمِ زيدِ بنِ الحسنِ، فقُتِل بينَهم خلقٌ كثيرٌ، واحترَقَت المساجدُ والمدارسُ والأسواقُ، وانهزَم المُؤيَّدُ الشافعيُّ إلىٰ بعضِ القِلاعِ.

وفيها: وُلِدَ الناصرُ لدينِ اللَّهِ أبو العباسِ أحمدُ بنُ المُسْتَضِيءِ بأمرِ اللَّهِ، وفيها خرَج المُقْتَفِي نحوَ الأنبارِ مُتَصَيِّدًا وعبَرَ الفُراتَ وزارَ الحسينَ، ومضَىٰ إلىٰ واسطٍ وعاد إلىٰ بغدادَ، ولم يكُنْ معه الوزيرُ.

وفيها: كسَر جيشُ مصرَ الفرنجَ بأرضِ عَسْقَلانَ كَسرةً فظيعةً صُحْبَةَ الملكِ الصالحِ أبي الغاراتِ، فارسِ الدينِ طلائعِ بنِ رُزِّيكَ، وامتدَحه الشعراءُ.

وفيها: قدِمَ الملكُ نورُ الدينِ من حَلَبَ إلىٰ دمشقَ، وقد شُفِي من المرضِ ففرِح به المسلمون، وخرَج إلىٰ قتالِ الفرنجِ، فانهزَم جيشُه، فبقِي هو وشِرْذِمَةٌ من أصحابِه في لُجَّةِ العدوِّ، فرمَوهم بالسِّهامِ الكثيرةِ، ثم خافوا أن يكونَ وقوفُه في هذه الشِّرْذِمةِ القليلةِ؛ خديعةً لمجيءِ كمينٍ إليهم، ففَرُّوا منهزِمين، وللَّهِ الحمدُ. وحجَّ بالناسِ فيها قايْمَازُ الأُرجوانيُّ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيانِ:

عبدُ الأوَّلِ بنُ عيسى بنِ شُعيبِ بنِ إبراهيمَ بنِ إسحاقَ، أبو الوقتِ السِّجْزيُّ الصُّوفيُّ الهَرَويُّ، راوي «البُخاريِّ» و«مُسْنَدِ الدَّارِميِّ»، و«المُنْتَخَبِ من مُسْنَدِ عبدِ بنِ حُمَيْدٍ»، قدم بَغْدادَ فسمع عليه الناسُ هذه الكتبَ، وكان من خيارِ المشايخِ وأحسنِهم سمتًا، وأصبرِهم علىٰ قراءةِ الحديثِ.

قال ابنُ الجوزيِّ: أخبَرني أبو عبدِ اللَّهِ محمدُ بنُ الحسينِ التَّكْريتيُّ الصوفيُّ، قال: أسنَدتُه إليَّ فمات، فكان آخرَ ما تكلَّم به أن قال: ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

نصرُ بنُ منصورِ بنِ الحسينِ بنِ أحمدَ بنِ عبدِ الخالقِ العَطَّارُ، أبو القاسمِ الحرَّانيُّ، كان كثيرَ المالِ، يعملُ من صدَقاتِه المعروفَ الكثيرَ من أنواعِ القُرُباتِ الحسنَةِ، ويُكثِرُ تلاوةَ القرآنِ، ويحافظُ علىٰ الصلواتِ في الجماعةِ، ورُوِيَت له مناماتٌ صالحةٌ، وقارَب الثمانين.

يحيىٰ بنُ سَلامةَ بنِ الحسينِ بنِ محمد، أبو الفضلِ الشَّافعيُّ، الحَصْكَفيُّ؛[١] نسبةً إلىٰ حِصْنِ كَيْفَا، كان إمامًا في علومٍ كثيرةٍ مِن الفقهِ والأدبِ، ناظمًا ناثرًا، غيرَ أنَّه كان يُنسَبُ إلىٰ الغُلُوِّ في التَّشَيُّعِ، وقد أوردَ له ابنُ الجوزيِّ قطعةً مِن نظمِه، فمِن ذلك قولُه في جملةِ قصيدةٍ له:

تقاسَمُوا يومَ الوداعِ كَبِدي ... فليسَ لي منذُ تولَّوا كَبِدُ
علىٰ الجُفونِ رحَلُوا وفي الحَشَا ... تَقَيَّلُوا وماءَ عَيْنِي وَرَدُوا
فأدْمُعِي مَسْفُوحةٌ وكَبِدي ... مقْرُوحةٌ وغُلَّتي لا تَبْرُدُ
وصَبْوَتي دائمةٌ ومُقْلَتي ... داميَةٌ ونَوْمُها مُشَرَّدُ
تَيَّمَنِي منهم غَزَالٌ أغْيَدُ ... يا حَبَّذَا ذاك الغزالُ الأغْيَدُ
حُسَامُه مجرَّدٌ وصَرحُه ... مُمَرَّدٌ وخَدُّهُ مُوَرَّدُ
وصدغه فوق احمر ارخده ... مُبَلبلٌ مُعَقْرَبٌ مُجَعَّدُ
كأنَّما نكْهَتُهُ وريقُهُ ... مِسْكٌ وخَمرٌ والثَّنَايَا بَرَدُ
يُقْعِدُه عندَ القيامِ رِدْفُه ... وفي الحَشَا منه المُقيمُ المُقْعِدُ
له قَوامٌ كقَضِيبِ بانةٍ ... يهْتَزُّ قَصْدًا ليسَ فيه أَوَدُ

وهي طويلةٌ جدًّا، ثم خرَجَ مِن هذا التَّغزُّلِ إلىٰ مدحِ أهلِ البيتِ والأئمةِ الاثْني عشَرَ، رضِيَ اللَّهُ تعالىٰ عنهم، ونفَعنا بهم، حيثُ يقولُ:

وسائلي عن حُبِّ أهلِ البيت هل ... أُقِرُّ إعلانًا به أم أجْحَدُ
هيهاتَ مَمْزُوجٌ بلَحْمي ودَمي ... حُبُّهمُ وهو الهُدَىٰ والرَّشَدُ
حَيْدَرَةُ والحَسَنَان بعدَهُ ... ثم عليٌّ وابنُه محمدُ
وجَعْفرٌ الصادقُ وابنُ جَعْفَرِ ... مُوسَىٰ ويتلُوه عليٌّ السيدُ
أعنِي الرِّضَا ثم ابنَه محمدٌ ... ثم عليٌّ وابنُه المسدّد
والحَسَنُ التَّالِي ويتلُوا تلوَهُ ... محمدُ بنُ الحسَن المُفْتَقَدُ
فإنَّهم أئمَّتي وسادَتي ... وإنْ لَحَاني مَعْشَرٌ وفنَّدُوا
أئمةٌ أكْرِمْ بهم أئمةً ... أسْماؤُهم مسْرودةٌ تَطَّرِدُ
هم حُجَجُ اللَّه علىٰ عبادِه ... وهم إليه منهجٌ ومقْصِدُ
قومٌ لهم فضلٌ ومجْدٌ باذخٌ ... يعرِفُه المُشْرِكُ والموحِّدُ
قومٌ لهم في كلِّ أرضٍ مشْهَدٌ ... لا بل لهم في كلِّ قلبٍ مشهدُ
قومٌ منًىٰ والمَشْعَران لهم ... والمَرْوَتانِ لهم والمسجدُ
قومٌ لهم مكَّةُ والأبْطَحُ والْـ ... ـخِيفُ وجَمعٌ والبَقِيعُ الغَرْقَدُ

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٠/ ٣٢٠-٣٢١).

ثم ذكَر مقتلَ الحُسينِ بالطَّفِّ إلى أن قال:

يا أهلَ بيتِ المصطَفى يا عُدَّتي   ومَن على حبِّهم أعتَمِدُ
أنتم إلى الله غداً وسيلَتي   وكيف أخشى وبكم أعتَضِدُ
وَلِيُّكُم في الخلدِ حيٌّ خالدٌ   والضِّدُّ في نارِ لظًى مخلَّدُ
ولستُ أهْواكُمْ بِبُغضِ غيرِكُمْ   إنِّي إذًا أشْقَىٰ بكم لا أسْعَدُ
فلا يظُنُّ رافضيٌّ أنَّني   وافَقْتُهُ أو خارجيٌّ مفْسِدُ
محمدٌ والخلفاءُ بعدَهُ   أفضَلُ خلقِ اللَّه فيما أجِدُ
هم أسَّسُوا قواعدَ الدينِ لنا   وهم بنَوا أرْكانَهُ وشيَّدُوا
ومَن يَخُنْ أحمدَ في أصحابِه   فخَصْمُهُ يومَ المعادِ أحمدُ
هذا اعْتقادي فالزَمُوهُ تُفْلحُوا   هذا طريقي فاسْلُكوهُ تَهْتَدُوا
والشافعيُّ مذهَبِي مذْهَبُهُ   لأنَّهُ في قولِه مُؤيَّدُ
أتْبعُهُ في الأصلِ والفرعِ معًا   فَليَتَّبِعْني الطالبُ المسترْشِدُ
إنِّي بإذْنِ اللَّهِ ناجٍ سابِقٌ   إذا وَنَىٰ الظالمُ والمقْتَصِدُ

وله أيضًا:

إذا قلَّ مالي لم تجِدْني ضَارِعًا   كثيرَ الأسَىٰ مُغرًىٰ بعضِّ الأناملِ
ولا بَطِرًا إنْ جدَّدَ الله نعْمةً   ولو أنَّ ما أُوتِي جميعُ الأنَامِ لِي

تُوفِّي، رحِمه اللَّهُ، في ربيعٍ الأوَّلِ مِن هذه السنةِ بميَّافارِقينَ.

ثم دخلت سنة أربعٍ وخمسين وخمسمائة

فيها: مرِضَ الخليفةُ المُقْتَفِي مرضًا شديدًا، ثم عُوفِي منه فزُيِّنَتْ له بَغْدَادُ أيامًا، وتَصدَّقَ بِصدَقاتٍ عظيمةٍ كثيرةٍ. وفيها اسْتَعَادَ عبدُ المؤمنِ مدينَةَ المَهْدِيَّةِ مِن أيدي الفِرنْجِ، وقد كانُوا أخَذُوها مِن المسلمينَ في سنَةِ ثلاثٍ وأربَعِينَ، وقاتَلَ خلقًا كثِيرًا ببلادِ المَغْرِبِ حتىٰ صارتْ عِظامُ القتلَىٰ هنالكَ كالتلِّ العظيمِ، فإنَّا للَّه وإنا إليه راجعُون.

وفي صَفَرَ سَقَطَ بَرَدٌ بالعراقِ كِبارٌ، زِنَةُ البَرَدَةِ قريبٌ مِن خمسةِ أرْطالٍ، ومنها ما هو تسعةُ أرْطالٍ بالبَغْدَادِي، فَهلَكَ بذلك شيءٌ كثيرٌ مِن الغلاتِ، وخَرَجَ الخليفَةُ إلىٰ واسطٍ فاجْتَازَ بسُوقِها ورأَىٰ جامِعَها، وسَقَطَ عن فرَسِه فشُجَّ جَبِينُه ثم عُوفِيَ.

وفي ربيعِ الآخرَ زادتْ دِجْلَةُ زِيادَةً عظِيمَةً، فغرِقَتْ بسببِ ذلك محالٌّ كثيرة مِن بَغْدَادَ، حتىٰ صارَ أكْثَرُ الدورِ بها تُلُولاً، وغَرِقَت تربَةُ الإمامِ أحمدَ، وتَخَسَّفَتْ هنالِكَ القُبُورُ، وطَفَت المَوْتَىٰ علىٰ وجهِ الماءِ، قاله ابنُ الجَوْزِيِّ.

وفي هذه السَنَة كثُرَ المَرَضُ والمَوْتُ، وفيها أقبَلَ مَلِكُ الرُّوم في جَحَافِلَ قاصِدًا بلادَ الشام، فرَدَّه اللَّهُ خائبًا خاسرًا، وذلك لِضيقِ حالِهم مِن المِيرَة، وأسَرَ المسلمونَ ابنَ أخته، ولِلّه الحمدُ والمِنَّة. وحجَّ بالناسِ في هذه السنَة قايْمازُ الأُرجوانيُّ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ معالي بن بَرَكَةَ الحَرْبِيُّ، تفقَّه بأبي الخطَّابِ الكَلْوذانيُّ، وبرَعَ في النظَر، ودرَّسَ وأفتَى، ثم صارَ شافعيًّا ثم عادَ حنبَليًّا، ووعظَ ببغْدادَ، وتُوُفِّي في هذه السنَة؛ دَخَلَتْ به دابَّته في مكانٍ ضَيِّقٍ، فدَخَلَ قرَبُوسُ سَرْجِه في صَدْرِه.

السلطانُ محمدُ شاه بنُ محمود بن محمد بن مَلَكْشاه، بن ألب أرسلانَ لمَّا رَجَعَ من مُحاصرَة بَغْدادَ إلى هَمَذانَ، أصابَه مَرَضُ السُّلِّ، فلَمْ يَنجعْ منه، بل تُوُفِّي في ذي الحِجَّة من هذه السنَة، وقبلَ وفاته بأيامٍ أمَرَ أنْ يُعْرَضَ عليه جَميعَ مايَمْلِكُه ويَقْدِرُ عليه، وهو جَالسٌ في المَنْظَرَة، فرَكِبَ الجَيشُ بكَماله وأُحْضِرَت أمْوالُه كلُّها، ومَماليكُه حتى جَوارِيه وحَظَاياه، فجَعَلَ يَبْكِي ويَقُولُ: هذه العَساكِرُ لا يَدْفَعُونَ عنِّي مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، ولا يزيدُونَ في عُمري لَحْظَةً، ثم تأسَّفَ على ما كان منه إلى الخليفَة المُقْتَفِي، وأهْلِ بَغْدادَ وحصارِهم وأذيَّتِهم، ثم فرَّقَ شيئًا كثيرًا من تلك الحَواصِلِ والأموالِ، وتُوُفِّيَ عن وَلَدٍ صَغيرٍ، واجْتَمَعَت العساكرُ والأمَراءُ على عمِّه سليمانَ شاه بن محمدِ بن مَلَكْشاه، وكانَ مَسْجُونًا بالمَوْصِلِ فأُفرِجَ عنه، وانْعَقَدَتْ السَلْطَنَةُ له، وخُطِبَ له على تلكَ البلادِ، سِوى بَغْدادَ والعِراقِ.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة

فيها: كانت وَفَاةُ المُقْتَفِي لأمرِ اللَّهِ، أبي عبد اللَّه محمد بنِ المُستظهر باللَّه،[1] وأمُّه نَسيمُ، المَدْعُوَةُ ستَّ السادَةِ، سمراءُ مِن خِيارِ الجَوارِي، مَرِضَ بالتَّراقِي، وقيلَ: بدُمَّلٍ خَرَجَ في حَلْقه. فماتَ ليلَةَ الأحدِ ثاني ربيعِ الأوَّلِ من هذه السنَة عن ستٍّ وستينَ سنَةً، إلا ثمانيَةً وعشْرينَ يومًا، وكانت خلافَتُه أرْبَعًا وعشْرينَ سنَةً وثلاثةَ أشهرٍ وستَّةَ عَشَرَ يومًا، ودُفِنَ بدارِ الخلافَة، ثم نُقِلَ إلى التُّرَب، وقد كانَ شَهْمًا شُجَاعًا مقْدَامًا، يُباشِرُ الأمورَ بنَفْسه، ويُشاهِدُ الحروبَ ويَبْذُلُ الأمْوالَ الكثيرَةَ لأصْحَابه الأخْيارِ، وهو أوَّلُ مَن اسْتَبَدَّ بالعِراقِ منفردًا عن السلاطينِ، مِن أوَّلِ أيامِ الدَّيْلَمِ إلى أيامه، وتَمَكَّنَ في الخلافَةِ وحَكَمَ على العَسْكَرِ والأمَراءِ، وقد وافَقَ أباه في أشْياءَ؛ مِن ذلك مَرَضُه بالتَّراقِي، ومَوتُه في ربيعِ الأوَّلِ، وتَقَدَّمَ مَوتُ السلطانِ محمد شَاه قَبْلَه بثلاثة أشهرٍ، وكذلك المُستَظهرُ ماتَ قَبْلَه محمدٌ بثلاثةٍ، وبعدَ غَرَقِ بَغْدادَ بسنَةٍ مات القائمُ، وكذلك هذا. قال عَفيفٌ النَّاسخُ: رَأيتُ في المَنَام قائلا يقولُ: إذا اجْتَمَعَتْ ثلاثُ خاءَاتٍ مات المُقْتَفِي. يعني: خمسًا وخمسين وخمْسَمائة.

---

(١) ترجمته في «السير» (٢٠/ ٣٩٩-٤١١).

خلافة المستنجد بالله
أبي المظفر يوسف بن المقتفي

لمَّا تُوُفِّي أبوه، كما ذكرنا، بُويعَ له في صبيحة يوم الأحد ثاني ربيع الأوَّل من هذه السنة، بايَعَه أشرافُ بني العبَّاس، ثم الوزيرُ والقُضاةُ والعُلَماءُ والأمراءُ وعُمْرُه يومئذٍ خمسٌ وأربعونَ سنةً، وكان رَجُلا صالحًا، وكان وَلِيَ عَهْدِ أبيه من مُدَّةٍ مُتطاولةٍ، ثم عُمِلَ عزاءُ أبيه، ولمَّا خُطِبَ له يومَ الجُمُعَةِ نُثِرَتْ الدَّراهمُ والدَّنانيرُ على الناسِ، وفرحَ به المُسلمونَ بعدَ أبيه، وأقرَّ الوزيرَ ابنَ هُبَيْرَةَ على مَنصبِه ووَعَدَه بذلك إلى المَمات، وعزَلَ قاضي القضاة ابنَ الدَّامَغَاني، وولَّى مكانَه أبا جعفر عبدَ الواحد الثَّقَفيَّ، وكان شيخًا كبيرًا، له سَماعٌ بالحديث، وبَاشَرَ الحُكْمَ بالكُوفَةِ مُدَّةً، فتُوُفِّي في ذي الحجة من هذه السنة، فولِّي مكانَه ابنُه جعفرٌ.

وفي شوَّال من هذه السنة اتَّفَقَ الأتراكُ بباب هَمَذَانَ على خَلْعِ سُليمان شاه، وخَطَبُوا لأرْسَلانَ ابنَ طُغْرُلَ.

وفيها تُوُفِّي الفائزُ بنَصْرِ اللَّه الفاطميُّ صاحبُ مصرَ، وهو أبو القاسم عيسى بنُ إسماعيلَ الظافرِ، وكانت وفاتُه في صَفَرٍ وعُمْرُه يومئذٍ إحدى عَشْرَةَ سنةً، ومدَّةُ ولايتِه من ذلك ستُّ سنينَ وشهرانِ، وكان مُدبِّرَ دولتِه أبو الغارات، ثم قامَ بعدَه العاضدُ آخرُ خُلَفائهم، وهو أبو محمد عبدُ اللَّه بنُ يوسف ابنِ الحافظ، ولم يكنْ أبوه خليفةً، وكانَ يومئذٍ قد ناهزَ الاحتلامَ، فقامَ بتَدْبيرِ مملكته الملكُ الصالحُ طلائعُ بنُ رُزِّيكَ الوزيرُ، أخَذَ له البَيْعَةَ وزوَّجَه بابنتِه، وجَهَّزَها بأمرٍ عظيمٍ، وقد عُمِّرَتْ بعدَ زوجِها العاضد، ورأتْ زوالَ دولةِ الفاطميِّينَ على يد الملك صلاح الدين يوسفَ بن أيوب بن شاذي، في سنة أربَعٍ وستِّينَ، كما سيأتي مُفصَّلًا إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى.

وفيها: كانت وفاةُ السلطان الكبير صاحب غَزْنَةَ **خُسْرُو شاه بن بَهْرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سُبُكْتكين،** من بيتِ مُلْكٍ ورياسةٍ باذخةٍ، يَرِثُونَها كابرًا عن كابرٍ، وكان من سادات المُلوك وأحْسَنِهم سيرةً يُحبُّ العلمَ وأهلَه. وكانت وفاتُه في رجبٍ من هذه السنة، وقامَ من بعده وَلَدُه مَلِكْشاه، فسارَ إليه علاءُ الدين الحسينُ مَلِكُ الغُورِ، فحاصَرَ غَزْنَةَ مدَّةً فلم يَقْدِرْ عليها، فرَجَع خائبًا.

وفيها مات مَلِكْشاه بنُ السلطان محمود بن محمد بن مَلِكْشاه بن ألْبَ أرْسَلانَ السَّلْجُوقيُّ، بأصبَهانَ مَسْمُومًا، يُقالُ: إنَّ الوزيرَ عونَ الدين بنَ هُبَيْرَةَ دَسَّ إليه مَن سَقَاه إيَّاه، واللَّهُ أعلَمُ.

وفيها مات أميرُ الحاجِّ قايْمازُ بن عبد اللَّه الأُرجوانيُّ سَقَطَ عن فرَسِه وهو يَلْعَبُ بالكُرَةِ بميدان الخليفة، فسالَ دماغُه من أُذُنه، فماتَ من ساعته، رحمه اللَّهُ، وقد كانَ من خيار الأمراء، فتأسَّفَ الناسُ عليه، وحَضَرَ جنازتَه خَلْقٌ كثيرٌ. ماتَ في شعبانَ من هذه السنة، فحجَّ بالناس فيها الأميرُ

أرْغَشُ مُقْطَعُ الكُوفَة، وحَجَّ في هذه السنَة الأميرُ الكبيرُ شِيرِكُوه بنُ شاذي، مُقَدَّمُ عساكرِ الملكِ نُورالدين محمود بنُ زَنْكي، وتَصدَّقَ بأموالٍ كثيرةٍ.

وفيها: اسْتَعْفَى القاضي زكيُّ الدينِ أبو الحسن علي بنِ محمدِ بنِ يَحْيَى القُرَشيُّ مِن القضاء بدمَشْقَ، فأعْفَاه الملكُ نُورُ الدين، وولَّى مكانَه القاضي كمالَ الدينِ محمدَ بنَ عبد اللّه الشَّهْرَزُورِيَّ، وكان مِن خيارِ القُضاة وأكثَرِهم صدَقةً، وله صدَقاتٌ جاريةٌ بعدَه، وكان عالمًا، بارعًا، وإليه يُنْسَبُ الشُّبَّاكُ الكَمَاليُّ الذي يجلِسُ فيه الحكَّامُ في الجامعِ بعدَ صلاة الجُمُعَة.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الأميرُ مُجاهدُ الدين بُزَانُ بنُ مَامينَ الكُرْديُّ، أحدُ مُقدَّمي جَيشِ الشام قبل الملك نُورِ الدين وبعدَه وقد نابَ في مَدينَةِ صَرْخَدَ مدةً، وكان شَهْمًا، شُجَاعًا، كثيرَ البِرِّ والصدقات والصِّلات، وهو وَاقفُ المَدْرَسةِ المُجَاهديَّة التي داخلَ بابِ الفَراديسِ البَرَّانيِّ، وبها قَبْرُه، وله السُّبعُ المُجَاهديُّ داخلَ بابِ الزِّيادَةِ مِن الجَامعِ بمَقْصُورَةِ الخَضِرِ. وكانت وفاتُه بدارِه في هذه السنَة، فَحُمِلَ إلى الجامعِ وصُلِّيَ عليه، ثم أُعِيدَ إلى مَدْرَسَته، ودُفِنَ بها داخلَ بابِ الفَراديسِ، وتأسَّفَ الناسُ عليه، رَحِمَه اللّهُ.

الشيخُ عَدِيُّ بنُ مُسافرِ بن إسماعيلَ بن مُوسى بن مَرْوَانَ بن الحسن بن مَرْوَانَ الهَكَّاريُّ، شيخُ الطائفَة العَدَويَّة، أصلُه مِن البِقَاعِ غَرْبيِّ دِمَشْقَ، مِن قَرْيَة بيت فار، ثم رَحَلَ إلى بَغْدَادَ فاجْتَمَعَ فيها بالشيخ عبدِ القادرِ، والشيخ حَمَّادِ الدَّبَّاسِ، والشيخ عَقِيلٍ المَنْبَجيِّ، وأبي الوفاءِ الحُلْوانيُّ، وأبي النَّجيبِ السَّهْرَوَرْديِّ وغيرِهم، ثم انْفَرَدَ عن الناسِ وتَخَلَّى بجَبَلِ الهكَّاريَّة وبَنَى له هنالك زَاويَةً واعْتَقَدَ فيه أهلُ تلك النَّاحيَة اعْتقادًا بَليغًا، حتى إنَّ منهم مَنْ يَغْلُو فيه غُلُوًّا كبيرًا مُنْكرًا. ثم كانت وفاتُه في هذه السنَة بزَاويتِه وله تِسْعُونَ سنَةً.

عبدُ الواحد بنُ أحمدَ بن محمد بن حَمْزَةَ، أبو جَعْفَر الثَّقَفيُّ، قاضي قضاة بَغْدَادَ، وَلِيها بعدَ أبي الحَسَنِ الدَّامغَانيِّ في أوَّل هذه السنَة، وقد كان قَاضيًا بالكُوفَة قبلَ ذلك، ثم كانت وَفَاتُه في ذي الحِجَّة مِن هذه السنَة وقد نَاهَزَ الثَّمانينَ، ووَلِيَ بعدَه ابنُه جَعْفَرٌ.

الفائزُ صاحبُ مصرَ، تقدَّمَ في الحَوادث.

قايْمَازُ الأُرجوانيُّ، تقدَّمَ أيضًا.

الخَليفةُ المُقْتَفي أبو عبد اللّه محمدُ بنُ أبي العبَّاس أحمدَ المُستَظهر تَقَدَّمَتْ تَرْجمتُه عندَ وَفاته.

محمدُ بنُ يَحْيَى بن عليِّ بن مُسلمٍ، أبو عبد اللّه الزبَيديُّ، وُلِدَ بمَدينَة زَبيدَ باليَمَنِ سنَةَ ثمانينَ، وقَدِمَ بَغْدَادَ سنَةَ تسعٍ وخمسمائة، فوَعَظَ، وكانت له مَعْرِفَةٌ بالنَّحْوِ والأدَبِ، وكان صَبُورًا على الفَقْرِ لا يشْكُو حالَه إلى أحد، وكانت له أحْوالٌ صالحةٌ، رَحِمَه اللّهُ تعالى.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

فيها قُتلَ السلطانُ سُلَيْمانُ شاه بنُ محمد بن مَلَكْشاه، وكان عندَه تَهوُّرٌ وقلّةُ مبالاةٍ بالدين، يُدْمِنُ شُرْبَ الخَمْرَ حتى في رمضانَ، فثارَ عليه مُدبِّرُ مملكتِه كُردبازُو الخادمُ فقَتَلَه، وبَايَعَ بعدَه السلطانَ أرْسَلان شاه بنُ طُغْرُلَ بن محمد بن مَلَكْشاه.

وفيها قُتِلَ المَلِكُ الصالحُ فارسُ الدين أبو الغارات طلائعُ بنُ رُزِّيكَ الأرْمَنيُّ، وزيرُ العاضدِ صاحبِ مصرَ، ووالدُ زَوْجَتِه، وكانَ قد حَجَرَ على العاضدِ لصغرِه واسْتَحْوَذَ على الأُمورِ، فقَتَلَتْه الحاشيَةُ، ووَزَرَ بعدَه وَلَدُه رُزِّيكُ، ولُقِّبَ بالعادل، و قد كانَ أبوه الصالحُ كريمًا أديبًا، يُحبُّ أهْلَ العلمِ ويُحْسنُ إليهم، كان من خيارِ المُلوكِ والوُزَراء، وقد امْتَدَحَه غيرُ واحدٍ من الشُّعراءِ.

قال القاضي ابنُ خَلِّكَان: كانَ أوَّلًا مُتَوَلِّيًا بمُنْيَةِ بني خصيبٍ، ثم آلَ به الحالُ إلى أنْ وَزَرَ للفائز، وذَهَبَتْ له وَزَارَةُ عباسٍ في سنَة تسعٍ وأربَعينَ، ثم لَمَّا هلَكَ في هذه السنَة قامَ في الوزارَة بعدَه ولدُه العادلُ رُزِّيكُ بنُ طلائعَ فلم يَزَلْ فيها حتى انتَزَعَها شاورٌ، كما سيأتي. قال: والصالحُ هذا هو باني الجامع عندَ باب زُوَيلَةَ ظاهرَ القاهرَة. قال: ومنَ العَجَائب أنَّه وَلِيَ الوَزَارَةَ في تاسعَ عشَرَ شهرٍ، وقُتِلَ في تاسعَ عشَرَ شهرٍ، ونُقِلَ من دارِ الوزارَة إلى القَرَافَة في تاسعَ عشَرَ شهرٍ آخرَ، وزَالَتْ دَوْلَتُهم في تاسعَ عشَرَ شهرٍ آخرَ. قال: ومن شعْرِه ما روَاه عنه الواعظُ زينُ الدينِ عليُّ بنُ نَجَا الحنبليُّ، وهو قولُه:

مَشيبُكَ قد نَضَا صِبْغَ الشبابِ ... وحلَّ البازُ في وَكْرِ الغُرابِ
تَنامُ ومُقلَةُ الحَدَثَانِ يَقْظَى ... وما نابَ من النوائبِ عنكَ نابِ
وكيفَ بَقَاءُ عُمرِكَ وهو كَنْزٌ ... وقد أنْفَقْتَ منه بلا حِسابِ

وقولُه:

كم ذا يُرِينا الدَّهرُ من أحداثِه ... عِبَرًا وفينا الصَّدُّ والإعْراضُ
نَنْسَى المماتَ وليسَ يجْرِي ذكْرُهُ ... فينا فتُذْكِرُنا به الأمراضُ

ومن شعرِه الجيِّدِ أيضًا قولُه:

أبَى اللَّهُ إلا أنْ يَدُومَ لنا الدَّهرُ ... ويخدُمَنا في مُلْكِنا العِزُّ والنَّصْرُ
عَلِمْنا بأنَّ المالَ تَفْنَى أُلوفُهُ ... ويَبْقَى لنا من بعدِه الأجْرُ والذِّكْرُ
خلَطْنا النَّدَى بالبأسِ حتى كأنَّنا ... سحَابٌ لديه البَرْقُ والرعْدُ والقَطْرُ

وله أيضًا، وهو مما نظَمَه قبلَ موتِه بثلاث ليالٍ:

نحنُ في غفْلَةٍ ونَوْمٍ وللمَوْ ... تِ عُيونٌ يَقْظَانَةٌ لا تَنامُ
قد رحَلْنا إلى الحِمَامِ سنِينًا ... ليتَ شِعْرِي متَى يكونُ الحِمَامُ

ثم قتَله غلمانُ العاضد في النَّهارِ غيلةً وله إحدَىٰ وستُّونَ سنةً، وخُلِعَ علىٰ ولده العادل بالوزارة، ورثاه عُمارةُ اليَمَنيُّ بقصائدَ حِسانٍ، ويومَ نُقِلَ إلىٰ تُربَتِه بالقرافة سارَ العاضدُ معه حتَّىٰ وصَل إلىٰ قبرِه في التابوت.

قال القاضي ابنُ خَلِّكانَ: فعمِل الفقيهُ عُمارةُ في ذلك قصيدةً طويلةً أجاد فيها، فمِن ذلك في صفةِ التابوت قولُه:

وكــــأنَّه تـابوتُ مُـــوسىٰ أُودِعَتْ ... في جــانِبَيْــه سَكِينَةٌ ووقــارُ

وفيها: أوقَعَتْ بنو خَفاجةَ بأهلِ الكوفةِ وقعةً عظيمةً، فقتَلُوا خلقًا، منهمُ الأميرُ قَيصَرُ وجرَحُوا أميرَ الحاجِّ أَرْغَشَ جراحاتٍ، فنهَضَ إليهم وزيرُ الخلافةِ عَوْنُ الدِّينِ بنُ هُبَيرَةَ في جيشٍ، فتَبِعَهم حتىٰ أوْغَلَ في البرِّيَّةِ، فبعثُوا يطلبونَ العفوَ.

وفيها: وَلِيَ مَكَّةَ الشريفُ عيسَىٰ بنُ قاسم بنِ أبي هاشمٍ، وقيلَ: قاسمُ بنُ فُليتةَ بنِ قاسمِ بنِ أبي هاشمٍ.

وفيها: أمَرَ الخليفةُ المستنجدُ بإزالةِ الدَّكاكينِ التي تُضيِّقُ الطُّرقات، وأنْ لا يجلسَ أحدٌ من الباعَةِ في عَرْصَةِ الطرقات، لئلاَّ يضُرَّ ذلك بالمارَّة. وفيها وقَع رُخصٌ عظيمٌ ببَغْدادَ جدًّا.

وفـيهـا: فُتِحت المدرسةُ التي بنَاها ابنُ الشَّمحلِ في المأمُونيةِ، ودرَّس فيها أبو حكيمٍ إبْراهيمُ بنُ دينارٍ النَّهْروانيُّ الحنْبَليُّ، وقد تُوفِّي مِن آخرِ هذه السنة، ودرَّس بعدَه فيها أبو الفرَجِ ابنُ الجوزيِّ، وقد كان عندَه مُعيدًا، ونزَل له عن تدْريسٍ آخرَ ببابِ الأزَجِ عندَ موْته.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

حَمْزَةُ بنُ عليِّ بنِ طَلْحَةَ، أبو الفتُوحِ الحاجبُ، كان خصِّيصًا عندَ المُسترْشِدِ والمُقْتَفي أيضًا، وقد بنَىٰ مدرسةً إلىٰ جانبِ دارِه، وحجَّ فرجَع متزهِّدًا، فلزِمَ بيْتَه مُعَظَّمًا نحوًا من عشرينَ سنةً، وكانت وفاتُه في هذه السنة، وقد امْتدحَه بعضُهم فقال:

يا عَـــضُــدَ الإسْــلام يـا مَنْ سَــمَتْ ... إلا العُــــلاَ همَّـــتُـــهُ الفـــاخِـــرَهْ
كــانتْ لـكَ الدُّنْيــا فـلم ترْضَـهــا ... مُـلـكًا فـــأخَـلَدْتَ إلى الآخِـــرَهْ

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

فـيهـا: دخَلت الكُرْجُ بلادَ المسلمينَ، فقتَلُوا خلقًا من الرجالِ وأسَرُوا من الذَّراريِّ أممًا؛ فاجْتَمع لحربِهم ملوكُ تلكَ الناحية؛ إيلدكزُ صاحبُ أَذْرَبِيجانَ، وابنُ سُكْمانَ صاحبُ خلاطَ، وابنُ آقْ سُنْقُرَ صاحبُ مَراغةَ، وساروُا إلىٰ بلادهم في السَّنة الآتيةِ فنهَبُوها، وأسَرُوا ذَراريَّهم، والْتَقوا معهم فكسرُوهم كسرةً ذريعةً فظيعةً منكرةً، مكثُوا يقتلُونَ فيهم ويأسِرُونَ ثلاثةَ أيامٍ.

وفي رجب أُعيدَ يوسفُ الدِّمَشْقيُّ إلى تدريس النِّظاميَّة بعدَ عَزْلِ ابن نظام الملك بسبب أنَّ امرأةً ادَّعتْ أنَّه تزوَّجَها فأنكَرَ، ثم اعترفَ، فعُزِلَ عن التدريس.

وفيها: كمَلَت المدرسةُ التي بناها الوزيرُ ابنُ هُبَيْرَةَ بباب البصرة، ورتَّبَ فيها مدرِّسًا وفقيهًا. وحجَّ بالناس أميرُ الكُوفَةِ أَرْغَشُ.

وممَّنْ تُوفِّيَ فيها من الأعيان:

شُجاعٌ، شيخُ الحَنَفيَّة بمشْهَدِ أبي حنيفةَ، وكان جيِّدَ الكلام في النَّظَرِ، أخَذ عنه الحنفيَّةُ، ودُفِن عندَ المشهد.

صَدَقَةُ بنُ وزير الواسطيُّ، دخَل بَغْدادَ ووعَظ بها وأظهرَ تقَشُّفًا، وكان يميلُ إلى التشيُّع وعلْمِ الكلام، ومع هذا كلِّه راجَ على العوامِّ وبعضِ الأمراء، وحصَل له فتوحٌ كثيرةٌ، ابْتَنَى منه رباطًا ودُفِنَ فيه، سامَحه اللَّهُ تعالى.

زُمُرُّدُ خاتُون بنتُ جاولي أختُ الملك دُقَاقِ بنِ تُتُشَ لأُمِّه، وهي بانيَةُ الخاتُونيَّة ظاهرَ دمشقَ عندَ قريةِ صَنْعاءَ بمكانٍ يُقالُ له: تلُّ الثعالب. غربيَّ دمشقَ، على جانب الشرقِ القِبْليِّ بصَنْعاءِ الشام، وهي قريةٌ معروفةٌ قديمًا، وأوْقَفَتْها على الشيخ بُرْهان الدين عليِّ بن محمدٍ البَلْخيِّ الحنفيِّ المتقدِّم ذكْرُه، وكانتْ زوْجةَ الملك بوري بن طُغْتكينَ، فولدَتْ له ابْنَيْه شمسَ المُلوك إسماعيلَ المذكُورَ، وقد مَلَكَ بعدَ أبيه وسارَ سيرتَه، ومالأَ الفرَنْجَ على المسلمين، وهَمَّ بتَسْليم البلَدِ والأموالِ إليهم، فقَتلُوه وتملَّك أخوه وذلك بعدَ مُراجعَتها ومُساعَدتها، وقد كانتْ قرأت القرآنَ، وسمعت الحديثَ، وكانتْ حَنَفيَّةَ المذهب تُحبُّ العلماءَ والصالحينَ، وقد تزوَّجَها الأتابكيُّ زَنْكي صاحبُ حَلَبَ؛ طمعًا في أنْ يأخُذَ بسببها دمشقَ، فلم يظفرْ بذلك، بل ذهبَتْ إليه إلى حَلَبَ، ثم عادَتْ إلى دمشقَ بعدَ وفاته، وقد دخلَتْ بغدادَ وسارَتْ من هناك إلى الحجَازِ، وجاورتْ بمكَّةَ سنةً، ثم جاءَتْ فأقامَتْ بالمدينة النبويَّة حتى ماتَتْ بها، ودُفنَتْ بالبَقيع في هذه السنة، وقد كانتْ كثيرةَ البرِّ والصَّدقاتِ والصلاة والصوم.

قال السِّبْطُ: ولم تَمُتْ حتى قلَّ ما بيَدها، فكانت تُغَرْبِلُ القمحَ والشَّعيرَ وتتقَوَّتُ بأُجْرَته، وهذا من تمام الخيرِ والسَّعادة وحُسْنِ الخاتمة، رحمَها اللَّهُ تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

فيها: ماتَ صاحبُ المغربِ عبدُ المؤمن بنُ عليٍّ تلميذُ ابن التُّومرت وخليفتُه من بعده في المُلْك بمدينة سَلَا، حضره ابنُه يوسفُ، وحمَله إلى مَرَّاكُشَ في صفَة أنَّه مريضٌ، فلمَّا وصلَها أظهرَ موْتَه، فعزَّاه الناسُ وبايَعُوه على المُلْك من بعده، ولقَّبوه أميرَ المؤمنين، وقد كان عبدُ المؤمن هذا حازمًا، شُجاعًا، جَوَادًا، معظِّمًا للشَّريعة، وكان مَن لا يحافظُ على الصلوات في زمانه يُقْتَلُ، ولكنْ كان سفَّاكًا للدِّماء، حتى على الذَّنْب الصغير، فاللَّهُ يحكمُ فيه بما يشاءُ.

وفيها: قُتِلَ الملكُ سيفُ الدينِ محمدُ بنُ علاء الدين الغُوريُّ، قتلَه الغُزُّ، وكان عادلًا.

وفيها: كبَسَت الفرنجُ نورَ الدين وجَيْشَه، فانهزم المسلمونَ لا يلْوِي أحدٌ على أحَد، ونهَض الملكُ نورُ الدين فركب فرسَه والشَّبحةُ في رِجْله، فنزَل رجلٌ كُرْديٌّ فقطَعها حتى سار السلطانُ نورُ الدين فنَجَا، وأدركت الفرنجُ الكُرْديَّ فقتلُوه، رحمه اللَّهُ، فأحْسنَ نورُ الدين إلى ذُرِّيَّته، وكان لا ينْسَى ذلك له.

وفيها: أمَر الخليفةُ بإجْلاء بني أسَد عن الحِلَّة، وقتلِ مَن تخلَّفَ منهم، وذلك لإفْسادهم ومُكاتبَتِهم السلطانَ محمد شاه، وتحريضِهم له على حصار بَغدادَ، فقتَل من بني أسَد أربعةَ آلاف، وخرَج الباقونَ منها، وتسلَّم نُوَّابُ الخليفة الحِلَّةَ المَزْيَديَّةَ. وحجَّ بالناس في هذه السنة الأميرُ أَرْغَشُ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

السلطانُ الكبيرُ أبو محمد عَبْدُ المُؤْمن بنُ عليٍّ القيسيُّ الكُوميُّ، تلميذُ ابن التُّومرت، كان أبوه يعملُ في الطِّين فاعلاً، فحينَ وقَع نظرُ ابن التُّومرت عليه أحبَّه، وتفرَّسَ فيه أنَّه سعيدٌ، فاستَصْحَبَه فعَظُمَ شأنُه، والْتفَّت عليه العساكرُ التي جمعَها ابنُ التُّومرت من المَصامدة وغيرِهم، وحاربُوا صاحبَ مَرَّاكُش عليَّ بنَ يوسفَ بن تاشْفينَ، مَلكَ المُلَثَّمينَ، فاستَحوذَ عبدُ المؤمن على وَهْرانَ وتلمْسَانَ وفاسَ وسَلاَ وسَبْتَةَ، ثم حاصرَ مَرَّاكُشَ أحدَ عشَرَ شهراً، فافْتَتحَها في سنَة ثِنْتَيْن وأربعين وخَمْسمائة، وتمهَّدَتْ له الممالكُ، وصفَا له الوقتُ. وكان عاقلاً، حازمًا، وقوراً، شكلاً، حسَنًا، وكانت وفاتُه سنةَ ثمانٍ وخمسين، وله في المُلك ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً، وكان يُسمِّي نفسَه أميرَ المؤمنينَ.

طَلْحَةُ بنُ عليِّ بن طراد، أبو أحمدَ الزَّيْنَبيُّ، نقيبُ النقَباء، ماتَ فجأةً، رحمَه اللَّهُ، ووَلِيَ النِّقابةَ من بعده ولدُه أبو الحسَن عليٌّ، وكان أمرَدَ فعُزِلَ وصُودرَ في هذه السنة.

محمدُ بنُ عَبْد الكَريم بن إبْراهيمَ بن عبد الكريم، أبو عبد اللَّه بن الأنْباريِّ[١]، كاتبُ الإنشاء ببَغدادَ، كان شيْخًا، حسَنًا، ظريفًا، وانفردَ بصناعَة الإنشاء، وبُعثَ رسولاً إلى الملك سَنْجرَ وغيره، وخدَمَ الملوكَ والخلَفاءَ، وقاربَ التسعينَ. ومن شعره قولُه:

يا مَنْ هجَرْت فَما تُبالي	هل ترجعُ دَولةُ الوصالِ
ما أطمَعُ يا عذابَ قلبي	أنْ ينْعَمَ في هَواك بالي
الطَّرْفُ كما عهدت باكٍ	والجسمُ كما ترَيْنَ بالِ
ما ضَرَّكَ أنْ تُعَلِّليني	في الوَصْل بمَوْعدٍ مُحالَ
أهواك وأنت حظُّ غيري	يا قاتلَتي فما احْتِيالي
أيامُ عَنائيَ فيك سُودٌ	ما أشْبَهَهُنَّ باللَّيالي
العُذَّلُ فيك يعْذلُوني	عن حُبِّك ما لَهُم ومالي
يا مُلْزمي السُّلُوَّ عنها	الصَّبُّ أنا وأنتَ سالي
والقولُ بتَرْكها صوابٌ	ما أحْسَنَهُ لو اسْتَوَى لي
طلَّقْتُ تجَلُّدي ثلاثًا	والصَّبْوةُ بعْدُ في خيالي

(١) ترجمته في «السير» (٢٠/ ٣٥٠-٣٥١).

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

فيها: قدمَ شاورُ بنُ مُجيرُ الدينِ، أبو شُجاعِ السَّعْديُّ الملقَّبُ بأميرِ الجيوشِ، وهو إذْ ذاك وزيرُ الديارِ المصريةِ بعدَ آلِ رُزِّيكَ، لمَّا قُتلَ الناصرُ رُزِّيكُ بنُ طلائعَ، وقامَ في الوزارةِ بعدَه، واستَفحلَ أمْرُه فيها، فثار عليه أميرٌ يقالُ له: الضِّرْغامُ بنُ سَوَّارٍ. وجمعَ له جُموعًا كثيرةً، واستَظهرَ عليه، وقتَل ولَدَيْه طيًّا وسليمانَ، وأسَرَ الثالثَ وهو الكاملُ بنُ شاور، فسجَنَه ولم يقتُلْه؛ ليَدٍ كانت لأبيه عندَه، واستَوْزرَ ضِرْغامٌ بعدَه ولُقِّبَ بالمنْصُورِ، فخرَج شاورٌ من الديارِ المصريةِ هاربًا من العاضدِ وضِرْغامٍ، مُلْتجئًا إلى نورِ الدينِ محمودٍ، فأمَر له نورُ الدينِ بجَوْسَقِ الميْدانِ الأخْضَرِ، وأحسنَ ضيافتَه وكرامتَه، وطلَب منه شاورٌ عسْكَرًا يكونون معه؛ ليفْتَحَ بهم الديارَ المصريَّةَ، ويكونَ لنورِ الدينِ ثُلُثُ مُغلِّها، فأرسلَ معه جيشًا عليهم أسَدُ الدينِ شِيرَكُوه بنُ شاذي، فلمَّا دخَلوا بلادَ مصرَ خرَج إليهم الجيشُ الذين بها، فاقْتتَلُوا أشدَّ القتالِ، فهزَمهم أسدُ الدينِ، وقتَل منهم خلقًا، وقُتِلَ ضِرْغامُ بنُ سَوَّارٍ، وطِيفَ برأسِه في البلادِ، واستقرَّ أمرُ شاورٍ في الوزارةِ، وتمهَّدَ حالُه، ثم اصْطَلَحَ العاضدُ وشاورٌ على أسَدِ الدينِ، ورجَع شاورٌ عمَّا كان عاهَدَ عليه نورَ الدينِ، وأمَر أسدَ الدينِ بالرجوعِ، فلم يقبَلْ منه، وعاثَ في البلادِ، وأخَذ أموالًا كثيرةً، وافتَتح بُلْدانًا كثيرةً من الشرْقيَّةِ وغيرِها، فاستَغاثَ شاورٌ عليهم بملكِ الفرنجِ الذي بعَسْقَلانَ، واسمُه مُرِّي، فأقبَل إليه في خلقٍ كثيرٍ فتحوَّلَ أسدُ الدينِ إلى بُلْبَيسَ، وقد حصَّنَها وشحَنَها بالعُدَدِ والآلاتِ، وغيرِ ذلك، فحصَرُوه فيها ثمانيةَ أشهرٍ، وامْتنَعَ أسدُ الدينِ وأصحابُه أشدَّ الامْتناعِ، فبينما هم على ذلك إذ جاءتِ الأخْبارُ بأنَّ الملك نورَ الدينِ قد اغْتَنَم غَيْبَةَ الفرنجِ فسارَ بالعساكرِ إلى بلادِهم فقتَل منهم خلقًا كثيرًا، وفتَح حارمًا وقتَل من الفرنجِ خلقًا، وسارَ إلى بانْيَاسَ، فضَعُفَ أمرُ الفرنجِ بديارِ مصرَ عندَ ذلك، وطلَبُوا من أسدِ الدينِ المُصالحةَ فأجابَهم إلى ذلك، وقبَض من شاورٍ ستِّينَ ألفَ دينارٍ، وخرَج أسدُ الدينِ وجيشُه فساروا إلى الشامِ في ذي الحجَّةِ منها.

وقعة حارم

كان فتحُ حارمٍ في رمضانَ من هذه السنة، وذلك أنَّ نورَ الدينِ استَغاثَ بعساكرِ المسلمين - فجاءوا من كلِّ فجٍّ عميقٍ - ليأْخُذَ ثأرَه من الفرنجِ، فالْتَقى معهم بتلِّ حارمٍ فكسَرهم كسْرةً عظيمةً، وأسَر البِرِنْسَ صاحبَ أنْطاكيَةَ، والقُومِصَ صاحبَ طَرابُلُسَ، والدُّوكَ مقدَّمَ الرومِ، وابنَ جُوسلينَ، وقتَل منهم عشَرةَ آلافٍ، وقيلَ: عشْرينَ ألفًا.

وفي ذي الحجَّةِ منها فتَح نورُ الدينِ مدينةَ بانْيَاسَ، وقيلَ: إنَّما كان فتحُه لها في سنَةِ ستِّينَ. فاللَّهُ أعلمُ. وكان معه أخوه نُصْرةُ الدينِ أميرُ أميرانَ، فأصابَه سَهْمٌ في إحْدَىٰ عيْنَيْه فأذْهَبَها، فقال له الملكُ نورُ الدينِ: لو نظَرْتَ إلى ما أعدَّ اللَّهُ لكَ من الأجْرِ في الآخرةِ لأحْبَبْتَ أن تذهَبَ الأخْرَىٰ. وقال

لابنِ مُعينِ الدينِ أُنَرَ: إنَّه اليومَ قد بردَتْ جِلْدَةُ والدِكَ مِن نارِ جَهنَّمَ؛ لأنَّه كان سلَّمها إلى الفرنجِ، صُلْحًا عن دمشقَ.

وفي شهرِ ذي الحجَّةِ من هذه السنة احترقَ قصرُ جَيْرُونَ حريقًا عظيمًا، فحضرَ في تلك الليلة الأمراءُ؛ **منهم أسدُ** الدينِ شيركُوه، بعدَ رجُوعه مِن الديارِ المصرية، وسعَى سعيًا عظيمًا في إطفاءِ هذه النارِ **وصَوْنِ حَوْزَةِ** الجامعِ منها، جزاه اللَّهُ خيرًا، وأثابَه دارَ القرارِ.

وممَّنْ تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

جمالُ الدينوزيرُ صاحبِ المَوْصِلِ، محمدُ بنُ عليِّ بنِ أبي منصورٍ، أبو جعفرٍ الأصبهانيُّ الملقَّبُ بالجَوادِ وزيرُ قُطْبِ الدينِ مودودِ بنِ زَنْكي، كان كثيرَ المعْروفِ والصَّدقاتِ، وقد أثَّر آثارًا حسَنةً بمكَّةَ والمدينةِ؛ من ذلك أنَّه ساقَ عَيْنًا إلى عرَفاتٍ، وعمِلَ هناك مصانعَ، وبنَى مسجدَ عرفاتٍ ودرَّجَه وأكمَلَ أبوابَ الحرَمِ، وبنَى مسجدَ الخَيْفِ، وبنَى الحِجْرَ، وزخرَف الكعبةَ وذهَّبها، وعملها بالرُّخامِ، وبنَى على المدينةِ النبويَّةِ سُورًا، وبنَى جسرًا على دِجْلَةَ عندَ جزيرةِ ابنِ عُمرَ بالحجَرِ المنْحُوتِ، والحديدِ والرَّصاصِ، وبنَى الرُّبُطَ الكثيرةَ، وكان يتصدَّقُ كلَّ يومٍ على بابِه بمائةِ دينارٍ، ويفْتَدي من الأُسارَى في كلِّ سنَةٍ بعشَرةِ آلافِ دينارٍ، ولا تزالُ صدَقاتُه وافدةً إلى الفقهاءِ والفقراءِ؛ حيثُ كانوا من بغدادَ وغيرِها من البلادِ، وقد حُبِسَ في سنَةِ ثمانٍ وخمسين، فذكَر ابنُ السَّاعي في «تاريخه» عن شخصٍ كان معه في السِّجْنِ أنَّه نزَل إليه طائرٌ أبيضُ قبلَ موْتِه فلم يزَلْ عندَه وهو يَذْكُرُ اللَّهَ عزَّ وجلَّ حتى تُوفِّيَ في شعبانَ من هذه السنة، ثم طارَ عنه، ودُفِنَ في رباطٍ بَناه لنفسِه بالمَوْصِلِ، وقد كان بينَه وبينَ أسَدِ الدينِ شيركُوه بنِ شاذي مُؤاخاةٌ وعهدٌ، أيُّهما ماتَ قبلَ الآخرِ أن يحمِلَه إلى المدينةِ النبويَّةِ، فاستأجَرَ له أسدُ الدينِ شيركُوه رجالاً فنقَلُوه إلى المدينة، فما مرُّوا به على بلْدَةٍ إلا صلَّوا عليه، وترحَّمُوا عليه، وأثْنَوْا خيرًا، فصلُّوا عليه بالمَوْصِلِ وتكْرِيتَ وبغدادَ والحِلَّةِ والكُوفَةِ وفَيْدَ ومكَّةَ، وطِيفَ به حولَ الكعبةِ، ثم نُقِلَ إلى المدينةِ النبويَّةِ فدُفِنَ برِباطٍ بَناه شرقيَّ المسجدِ النبويِّ.

قال ابنُ الجوزيِّ وابنُ السَّاعي: ليس بينَه وبينَ حرمِ النبيِّ ﷺ وقبْرِه سوى خمسةَ عشرَ ذراعًا.

قال ابنُ السَّاعي: ولمَّا صلَّوا عليه بالحِلَّةِ صعِدَ شابٌّ نَشْزًا فأنشَدَ يقولُ:

سَرَى نعشُهُ فوقَ الرقابِ وطالَما ... سَرَى جُودُهُ فوقَ الرِّكابِ ونائلُهْ
يمُرُّ على الوادي فتُثْني رِمالُهُ ... عليه وبالنادي فتُثْني أرامِلُهْ

وممَّنْ تُوفِّيَ فيها بعد الخمسين:

ابنُ الخازنِ الكاتبُ، أحمدُ بنُ محمدِ بنِ الفَضْلِ بنِ عبد الخالقِ،أبو الفَضْلِ المعْروفُ بابنِ الخازنِ، الكاتبُ البغداديُّ الشاعرُ، كان يكتُبُ جيدًا فائقًا، اعتنَى بكتابةِ الخَتَماتِ، وأكثَر ابنُه أبو الفتحِ نَصْرُ اللَّهِ من كتابةِ المَقاماتِ، وجمَع لأبيه ديوانَ شعرٍ أوْرَدَ منه ابنُ خَلِّكانَ قطعةً كبيرةً.

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

في صفر منها وقعت بأصبهان فتنةٌ عظيمةٌ بين الفقهاء بسبب المذاهب دامت أيامًا، وقُتل فيها خلقٌ كثيرٌ.

وفيها: كان حريقٌ عظيمٌ ببغداد فاحترقت محالُّ كثيرةٌ جدًّا، وذكر ابنُ الجوزيِّ أنَّ في هذه السنة ولدت امرأةٌ ببغداد أربع بناتٍ في بطنٍ واحدٍ. وحجَّ بالناس في هذه السنة الأميرُ أرغشُ الكبيرُ، أثابه اللَّهُ تعالى.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

عمرُ بنُ بهليقا الطَّحَّانُ الذي جدَّد جامع العُقَيبة ببغداد، واستأذن الخليفة في إقامة الجُمعة فيه، فأذن له في ذلك، وكان قد اشترى ما حوله من القُبور فأضاف ذلك إليه، ونبش الموتى منها، فقيَّض اللَّهُ له من نبشه من قبره بعد دفنه، جزاءً وفاقًا، وما ربُّك بظلَّامٍ للعبيد.

محمدُ بنُ عبد اللَّه بن العبَّاس بن عبد الحميد، أبو عبد اللَّه الحرَّانيُّ، كان آخر من بقي من الشُّهود المقبولين عند أبي الحسن الدامغانيِّ، وقد سمع الحديث، وكان لطيفًا ظريفًا، جمع كتابًا سمَّاه «روضة الأدباء»، فيه نُتَفٌ حسنةٌ.

قال ابنُ الجوزيِّ: زُرتُه يومًا فأطلتُ الجلوس عنده، فقلتُ: أقومُ فقد ثقَّلتُ، فأنشدني:

لئن سمَّيتَ إبرامًا وثُقلًا	زيارات رفعتَ بهنَّ قدري
فما أبرمتَ إلا حبلَ ودِّي	ولا ثقَّلتَ إلا ظهرَ شُكري

مرجانُ الخادمُ كان يقرأُ القرآن، وتفقَّه لمذهب الشافعيِّ، وكان يتعصَّبُ على الحنابلة ويكرهُهم، ويُعادي الوزير ابن هُبَيرة، وابن الجوزيِّ مُعاداةً شديدةً، ويقولُ لابن الجوزيِّ: مقصُودي قلعُ المذهب. ولمَّا مات ابنُ هُبَيرة قوي أمرُه على ابن الجوزيِّ، وخافه ابنُ الجوزيِّ، فلمَّا تُوفِّي في هذه السنة فرح ابنُ الجوزيِّ فرحًا شديدًا، وكانت وفاتُه في ذي القَعدة منها.

ابنُ التلميذ الطبيبُ الماهرُ الحاذقُ، اسمُه هبةُ اللَّه بنُ صاعدٍ. كانت وفاتُه في هذه السنة عن خمسٍ وتسعين سنةً، وكان مُوسَّعًا عليه في الدنيا، وله عند الناس وجاهةٌ كبيرةٌ، وقد تُوفِّي، قبَّحه اللَّهُ، على دينه، ودُفن بالبِيعة العتيقة، لا رحمه اللَّهُ إن كان مات نصرانيًّا، فإنه كان يزعُمُ أنه مسلمٌ، ثم مات على دينه.

الوزيرُ ابنُ هُبَيرة، يحيى بنُ محمد بن هُبَيرة، أبو المُظفَّر الوزيرُ للخلافة المعظَّمة، مصنِّفُ كتاب «الإفصاح»، قرأ القراءات، وسمع الحديث، وكانت له معرفةٌ جيدةٌ بالنحو واللغة والعَروض، وتفقَّه على مذهب الإمام أحمد، وصنَّف كتبًا جيدةً مفيدةً؛ من ذلك «الإفصاحُ» في مجلَّداتٍ، يشرحُ فيه

الأحاديثَ، ويتكلَّمُ على مَذهبِ العلماءِ، وكان على مذهبِ السَّلَفِ في الاعتقادِ، وقد كان فقيرًا لا مالَ له، ثم تعرَّض للخِدْمَةِ، فتقدَّم إلى أن وزَر للمقْتَفِي ثم لابنه المُسْتَنْجِدِ، وكان من خيارِ الوُزراءِ وأحْسَنِهم سيرةً، وأبْعَدِهم عن الظُّلْمِ، وكان لا يلبَسُ الحريرَ، وكان المُقْتَفِي يقولُ: ما وزَر لبني العباسِ مثلُه. وكذلك ابنُه المُستنجدُ، وكان مُعْجَبًا به، قال مَرْجانُ الخادمُ: سمعتُ أميرَ المؤمنين المُستنجدَ يُنشدُ لابنِ هُبَيْرَةَ وهو بينَ يدَيْه من شعرِه:

صفَتْ نعْمتَانِ خصَّتَاكَ وعمَّتا ... فذكرُهما حتى القيامةِ يُذْكَرُ
وجُودُكَ والدنيا إليكَ فقيرةٌ ... وجُودُكَ والمعروفُ في الناسِ يُنْكَرُ
فلو رامَ يا يحيى مكانَكَ جعفرٌ ... ويحيى لكَفَّا عنه يحيى وجعفرُ
ولم أرَ مَنْ ينوي لكَ السُّوءَ يا أبا الـ ... ـمُظَفَّرِ إلا كنتَ أنتَ المظفَّرُ

وقد كان يبالغُ في إقامةِ الدولةِ العباسيَّةِ، وحسَمَ مادَّةَ المُلوكِ السَّلجوقيَّةِ عنهم بكلِّ مُمكنٍ، حتى استقرَّتِ الخلافةُ في العراقِ كلِّه؛ ليس للملُوكِ معهم حكمٌ بالكُلِّيَّةِ، ولِلَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ.

وكان يعقدُ في دارِه للعلماءِ مجْلسًا للمناظرَةِ يبحثُون فيه، ويَتناظَرُونَ عندَه وبينَ يدَيْه، ويسْتَفِيدُ منهم، ويستفيدُون منه، فاتَّفقَ يومًا أنَّه كلَّم رجلاً من الفقهاءِ كلمةً فيها بشاعةٌ؛ قال له: يا حمارُ. ثم ندِمَ وقال: أريدُ أن تقولَ لي كما قلتُ لك. فتمنَّعَ ذلك الفقيهُ، فصالَحه على مائتَيْ دينارٍ. وكانت وفاتُه فجأةً، ويقالُ: إنَّه سمَّه طبيبٌ، فسُمَّ ذلك الطبيبُ بعدَ ستَّةِ أشهرٍ، فكان يقولُ: سمَمْتُه فسُمِمْتُ. ماتَ يومَ الأحدِ الثاني عشَرَ من جُمادَى الأولى من هذه السنة، عن إحدى وستِّين سنةً، وغسَّلَه ابنُ الجوزيِّ، وحضرَ جنازَتَه خلقٌ كثيرٌ جدًّا، وغُلِّقَت الأسواقُ، وتَباكَى الناسُ عليه، ودُفِن بالمدرسةِ التي أنْشأها ببابِ البصرةِ رحمَه اللَّهُ. وقد رثَاه الشعراءُ بمراثٍ كثيرةٍ.

وأبو القاسم، عُمرُ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ عِكرمةَ البَزْرِيُّ الجَزَرِيُّ، شيخُ الشافعيَّةِ بها، وكان يلقَّبُ زينَ الدينِ جمالَ الإسلام، دخَل بغدادَ، فأخَذَ عن إلْكِيا الهَرَّاسيِّ، والغَزَّاليِّ، والشَّاشيِّ صاحبِ «المُسْتَظهري»، وجمَع كتابًا على «المُهَذَّب»، وذَكر فيه إشكالاتِ ما سِواه، وأسماءَ رجالِه ولغتَه، وهو في مجلدٍ، على ما ذكَره ابنُ خَلِّكان، ورحَلَتْ إليه الطلبةُ من كلِّ ناحيةٍ، وكان أحفظَ الناسِ في وقتِه لمذهبِ الشافعيِّ. توفِّي في هذه السنة.

* * *

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

فيها: فتح الملكُ نورُ الدينِ محمودُ بنُ زَنْكي حِصْنَ المُنَيْطِرَةِ، وقتل عنده خلقًا كثيرًا من الفرنج، وغَنم أموالاً جزيلةً.

وفيها: هرَب عزُّ الدينِ ابنُ الوزيرِ ابنِ هُبَيْرَةَ من السِّجنِ، ومعَه مملوكٌ تُرْكيٌّ، فنُودِيَ عليه في البلد: مَن رَدَّه فله مائةُ دينارٍ، ومَن وُجِدَ عندَه هُدِمَتْ دارُه وصُلِبَ على بابِها، وذُبِحَتْ أولادُه بينَ يدَيْه، فَدَلَّهم رجلٌ من الأعرابِ عليه، فَأُخِذَ من بَسْتَانٍ، فضُرِبَ ضَرْبًا شديدًا مُنْكَرًا، وأُعِيدَ إلى السجن وضُيِّقَ عليه.

وفيها: أظهَرَ الرَّوافضُ سَبَّ الصحَابَةِ وتَظَاهَرُوا بأشياءَ مُنْكَرَةٍ، ولم يَكُونُوا يتَمكَّنُونَ منها في هذه الأعْصَارِ المُتَقَدِّمَةِ؛ خوْفًا من ابنِ هُبَيْرَةَ، ووقَع بينَ العَوامِّ كلامٌ فيما يتَعَلَّقُ بخَلْقِ القرآنِ. وحَجَّ بالناسِ أرْغَشُ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الحَسنُ بنُ العباسِ بن أبي الطيب بن رُسْتُمَ، أبو عبدِ اللَّه الأصْبَهَانيُّ الرُّسْتُميُّ، كان من كِبَارِ عبادِ اللَّه الصالحينَ والبَكَّائينَ، قال: حضَرتُ يومًا مَجْلسَ ابنِ ماشَاذَه وهو يتَكَلَّمُ على الناسِ، فَرأيتُ رَبَّ العزَّةِ في تلْكَ الليلةِ وهو يَقُولُ لي: وَقَفْتَ على مُبْتَدِعٍ وسَمِعْتَ كلامَه؟ لأحْرِمَنَّكَ النَّظَرَ في الدُّنْيا. قال: فأصْبَحَ لا يُبْصِرُ وعَيْناه مَفْتُوحَتان كأنَّه بَصيرٌ.

عبدُ العَزيزِ بنُ الحُسين بن الجَبَّاب الأغْلَبيُّ السَّعْديُّ القاضي، أبو المَعَالي المِصْريُّ، المَعْرُوفُ بالجَليسِ؛ لأنَّه كان يُجالِسُ صاحبَ مصْرَ، وقد ذكَرَه العمادُ في «الخَرِيدَة» قال: وله فَضْلٌ مشْهُورٌ وشعْرٌ مأْثُورٌ، فمن ذلك قولُه:

ومن عَجَبٍ أنَّ السُّيُوفَ لَدَيْهِمُ ... تَحِيضُ دماءً والسُّيُوفُ ذُكُورُ
وأعْجَبُ من ذا أنَّها في أكُفِّهِمْ ... تأجَّجُ نارًا والأكُفُّ بُحُورُ

الشيخُ عبدُ القادرِ الجيليُّ، عبدُ القادر ابنُ أبي صالح أبو محمد الجيليُّ، وُلِدَ سَنَةَ سبعينَ وأرْبَعمائةٍ، ودَخَلَ بَغْدَادَ فسمعَ الحَديثَ، وتَفَقَّهَ على أبي سعيدٍ المُخَرِّميِّ الحَنْبَليِّ، وكَانَ قد بَنَى مَدْرَسَةً ففَوَّضَها إلى الشيخِ عبد القادرِ، فكان يَتَكَلَّمُ على الناسِ بها، ويَعِظُهم، وانتَفَعَ به الناسُ انتفاعًا كثيرًا، وكان له سَمْتٌ حَسَنٌ، وصَمْتٌ عن غيرِ الأمرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عن المُنْكَرِ، وفيه زُهْدٌ كَبِيرٌ، وله أحْوالٌ ومُكَاشَفاتٌ، ولأتْبَاعِه وأصْحابِه فيه مَقالاتٌ، ويَذْكُرُونَ عنه أقْوَالاً وأفْعَالاً ومُكَاشَفاتٍ أكْثَرُها مُغالاةٌ، وقد كان صالحًا ورِعًا، وقد صَنَّفَ كتابَ «الغُنْيَة»، و«فُتُوحُ الغَيْبِ»، وفيهما أشْياءُ حَسَنَةٌ، ولَكنْ ذَكَرَ فيهما أحَاديثَ كثيرةً ضَعِيفَةً ومَوْضُوعَةً، وبالجُمْلَة كان من ساداتِ المَشَايخِ الكِبَارِ، قدَّسَ اللَّهُ رُوحَه ونَوَّرَ ضَرِيحَه. كانت وَفَاتُه ليلةَ السبتِ ثامنَ ربيعِ الآخرِ من هذه السنةِ وله تسعونَ سَنَةً، ودُفِنَ بالمَدْرَسَةِ التي كانت له.

ثم دخلت سنة ثنتين وستين وخمسمائة

فيها: أقبلَتْ الفرنْجُ في جَحَافِلَ كثيرةٍ إلى الدِّيارِ المِصْرِيَّةِ، وساعَدَهم المِصْرِيُّونَ فتَصرَّفُوا في بعضِ البلادِ، فَبَلَغَ ذلك أسدَ الدينِ شيركوه بنَ شاذي، فاستأذَنَ الملكَ نورَالدينِ في العَوْدِ إليها، وقد كَثُرَ الحَنَقُ على الوزيرِ شاورٍ، فأذِنَ له فسارَ إليها في ربيعٍ الآخرَ، ومَعه ابنُ أخيه صلاحُ الدينِ يوسُفُ بنُ أيُّوبَ، وقد وقعَ في النُّفُوسِ أنَّه سيَمْلِكُ الدِّيارَ المِصْرِيَةَ، وفي ذلكَ يقُولُ عَرْقَلَةَ المُسَمَّى بحَسَّانَ الشَاعِرَ:

أقُولُ والأتراكُ قد أزمَعَتْ ... مصْرَ إلى حَرْبِ الأعاريبِ
رَبِّ كَمَا مَلَّكْتَها يُوسفَ الصِّـ ... ـدِّيقَ من أوْلاد يَعْقُوبَ
يَمْلكُها في عَصْرِنا يُوسفُ الصَّـ ... ـادقُ من أوْلاد أيُّوبَ
مَن لم يَزَلْ ضَرَّابَ هامِ العِدَا ... حقًّا وضَرَّابَ العَرَاقيبِ

ولَمَّا بَلَغَ الوَزيرَ شاورًا قدومُ أسَدِ الدينِ والجَيشُ معه، بَعَثَ إلى الفِرنْجِ فجاءُوا مِن كلِّ فجٍّ عَميقٍ، ولَمَّا بَلَغَ أسَدَ الدينِ ذلك مِن شأنِهم - وإنَّما معه ألْفَا فارسٍ - فاستَشَارَ مَن معه مِن الأمراءِ، فكلُّهم أشارَ عليه بالرُّجُوعِ إلى الملكِ نُورِ الدينِ؛ لكَثْرَةِ الفِرنْجِ، إلا أميرًا واحدًا يُقالُ له: شَرَفُ الدينِ بُزْغُشُ؛ فإنَّه قالَ: مَن خافَ القَتْلَ والأسر فَلْيَقْعُدْ في بَيْتِه عندَ زَوْجَتِه، وَمن أكَلَ مِن أمْوالِ المُسْلِمِينَ فلا يُسَلِّمُ بِلادَهم إلى العَدُوِّ. وقال مثلَ ذلك ابنُ أخيه صلاحُ الدينِ يوسُفُ بنُ نجمُ الدينِ أيُّوبَ بنِ شاذي، فَعَزَمَ اللَّهُ لهم فساروُا نَحْوَ الفِرنْجِ، فاقْتتَلُوا هم وإيَّاهم قِتالاً عَظِيمًا، فَكَسَرُوا الفِرنْجَ، وهزَمُوهم، وقَتَلُوا منهم خَلْقًا كثِيرًا لا يَعْلَمُهم إلا اللَّهُ، عزَّ وَجلَّ، وللَّهِ الحمدُ والمِنَةُ على كلِّ حالٍ.

فتحُ الإسكندريَّة
على يدِ أسدِ الدين شِيركوه

ثم سارَ أسدُ الدينِ شِيركوه بعدَ أنْ كَسَرَ الفِرنْجَ والمِصْرِيينَ إلى الإسْكَنْدَرِيَّةِ، فملَكَها وجَبَى أمْوالَها، واستَنابَ عليها ابنَ أخيه صلاحَ الدينِ يوسُفَ، وعادَ إلى الصَعِيدِ فَمَلَكه، وجَمَعَ منه أموالاً جَزِيلَةً جدًّا، وللَّهِ الحمدُ والمِنَةُ. ثم إنَّ الفِرنْجَ والمِصْرِيينَ اجْتَمَعُوا على حصارِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ ثلاثةَ أشهرٍ؛ لِيَنْتَزِعُوها من يدِ الملِكِ صلاحِ الدينِ ، وذلك في غَيْبَةِ عَمِّه في الصعيدِ، وامْتَنَع بها صلاحُ الدينِ ومَن معه أشَدَّ الامتناعِ، لكن ضاقَتْ عليهم الأقواتُ وضاق الحالُ جدًّا، فسارَ إليهم أسدُ الدينِ شِيركوه، أيَّدَه اللَّهُ، فصالَحَه شاورٌ الوزيرُ عن الإسْكَنْدَرِيَّةِ بخَمسينَ ألْفَ دينارٍ، فأجَابَه إلى ذلك، وخَرَجَ صلاحُ الدينِ منها وسَلَّمَها إلى المصريينَ، وعادَ إلى الشامِ في مُنْتَصَفِ شَوَّال وذي القَعْدَةِ، وقرَّرَ شاور للفِرنْجِ على مِصْرَ في كلِّ عامٍ مائةَ ألْفِ دينارٍ، وأن يَكُونَ لهم شِحْنَةٌ بالقاهِرَةِ، وعاد

الفرنج إلى بلادهم بعدَ أنْ كَان المَلكُ نورُ الدين محمودُ بنُ زَنْكي قد عَقَّبَهم في بلادِهم، وافتتحَ حُصُونًا كثيرة من بلادهم، وقَتَلَ خَلْقًا من رجالهم، وأسَرَ أُمَمًا من نسائهم وأطْفالهم، وغَنِمَ شيئًا كثيرًا من أمْتعتِهم وأمْوالهم، ولله الحمدُ. وكان معه أخوه قُطْبُ الدين مَوْدُودٌ فأطلَقَ له الرَّقَّةَ، فسارَ فتَسلَّمَها.

وفي هذه السنَة في شعْبانَ منها كان قدوم العمَادُ الكاتب من بَغْدادَ إلى دمشقَ، وهو أبو حامدٍ محمدُ بنُ محمد الأصْبَهانيُّ، صاحبُ «الفتح القُدْسيِّ»، و«البَرْق الشاميِّ»، و«الخريدَة»، وغيرُ ذلك من المُصنَّفَات، وأنزَلَه قاضي القضاة كمال الدين الشَّهْرَزُوريُّ بالمَدْرَسَة النُّوريَّة الشافعيَّة داخلَ باب الفرَج، فنُسبَتْ إليه لسُكْناه بها، فيُقالُ لها: العمَاديَّةُ. ثم ولِيَ تدريسَها في سنَة سبعٍ وستِّين بعدَ الشيخ الفقيه ابن عَبْدٍ، وأوَّلُ من جاءَ للسلام عليه نجمُ الدين أيُّوبُ وكانتْ له به مَعْرفَةٌ من تكْريتَ، فامْتَدحه العمَادُ بقَصيدَة ذكَرها الشيخُ شهابُ الدين أبو شامَةَ، وكان أسدُ الدين شيركوه وصلاحُ الدين يوسفُ بمصْرَ، فَبشَّرَه فيها بولايَة صلاح الدين الدِّيارَ المصْريَّةَ حيثُ يَقولُ:

ويَسْتَقِرُّ بمصْرَ يوسفُ وبه ... تَقَرُّ بعدَ التَّنائي عَيْنُ يَعْقُوبِ
ويَلْتقي يوسفٌ فيها بإخْوتِه ... واللَّهُ يَجْمَعُهم من غير تَثْريبِ

ثم ولِيَ العمَادُ كتابَةَ الإنشَاء للمَلك نور الدين، رحمَه اللَّهُ.

وممَّنْ تُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

أرْغَشُ أميرُ الحاجِّ سنينَ متعَدِّدَةً كان مُقَدَّمًا على العساكر، خرَجَ من بَغْدادَ لقتال شُمْلَةَ التُّرْكُمَاني فسَقَطَ عن فَرَسه فماتَ.

أبو المَعَالي الكاتبُ محمدُ بنُ الحَسَن بن محمد بن عليِّ بن حَمْدُونَ، صاحبُ «التَّذْكرَة الحَمْدُونيَّة»، وقد ولِيَ ديوانَ الزِّمام مدَّةً، وكانت وفَاتُه في ذي القَعْدَة، ودُفن بمَقابر قريش.

الرَّشيدُ الصُّوفيُّ كان يَجْلسُ بينَ يَدَي العَبَّاديِّ على الكُرْسيِّ، كانت له شَيْبَةٌ حَسَنَةٌ، وسَمْتٌ ووقَارٌ، وكان يُدْمن حُضُورَ السماعات، فاتَّفَقَ أنَّه مات وهو يَرْقُصُ في بعض السماعات، سامَحَه اللَّهُ سبحانَه وتَعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

في صَفَرٍ منها وصَلَ شَرَفُ الدين أبو جَعْفَر بنُ البلديِّ من واسطَ إلى بَغْدادَ، فَخرَجَ الجيشُ لتَلَقِّيه والنَّقيبَان والقاضي، ومَشَى الناسُ بينَ يَدَيْه إلى الديوان، فَجلَسَ في دَسْت الوزَارَة، وقُرئَ عهدُه، وكان يَوْمًا مَشْهُودًا، ولُقِّبَ بالوَزير شرَف الدين، جلال الإسْلام، مُعزِّ الدَّوْلَة، سيِّد الوزراء، صَدْر الشرْق والغَرْب.

وفيها أفسَدَتْ خَفَاجَة في البلادِ ونَهَبُوا القُرَىٰ، فَجُهِّزَ إليهم جَيشٌ مِن بَغْدَادَ فَهَرَبُوا في البَرَارِي فانْحَسَرَ الجيشُ عنهم خَوْفًا مِن العَطَشِ، فَكَرُّوا علىٰ الجَيْشِ فَقَتَلُوا منهم خَلْقًا وأسَرُوا آخَرِينَ، وكان قد أَسَرَ الجيشُ منهم خَلْقًا فَصُلِبُوا علىٰ الأَسْوارِ. وفي شَوَّالَ وَصَلَتْ امْرَأَةُ المَلِكِ نورِ الدينِ محمودِ بنِ زَنْكِي إلىٰ بَغْدَادَ تريدُ أنْ تَحُجَّ مِن هناكَ، وهيَ السِّتُّ عِصْمَتُ الدينِ خاتُون بنتُ مُعينِ الدينِ أُنُر، فَتَلَقَّاها الجَيشُ، ومعهم صَنْدَلٌ الخادمُ، وحُمِلَتْ لها الإقاماتُ وأُكْرِمَتْ غايةَ الإكْرَام.

وفيها مَاتَ قاضي قُضَاةِ بَغْدَادَ جَعْفَرٌ الثَّقَفِيُّ، فَشَغَرَ البلدُ عن حاكمٍ ثلاثةً وعِشْرِينَ يومًا، حتىٰ وُلِّيَ رَوْحُ بنُ الحَدِيثِيِّ قاضي القُضَاةِ في رابعِ رَجَبٍ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

جَعْفَرُ بنُ عبدِ الواحدِ، أبو البَرَكَاتِ الثَّقَفِيُّ، قاضي القُضاة ببَغْدَادَ بعدَ أبيه، وُلِدَ سَنَةَ تِسْعَ عشْرَةَ وخمسمائَةٍ، وكانت وَفَاتُه في هذا العام، وسببُ وفاتِه أنَّه طُلِبَ منه مَالٌ وكلَّمَه الوَزيرُ ابنُ البَلَدِيِّ كَلامًا خَشِنًا فخَافَ فرمَىٰ الدَّمَ وماتَ، رَحمَه اللَّهُ.

أبو سعد السَّمْعَاني، عبدُ الكريم بنُ محمد بن مَنصُور، أبو سعد السَّمْعَاني، رَحَلَ إلىٰ بَغْدَادَ فسمع بها وذَيَّلَ علىٰ تاريخها، للخَطيبِ البَغْدَاديِّ، وقد نَاقَشَه ابنُ الجَوْزِيِّ في «المُنْتَظم»، وذكَرَ عنه أنَّه كان يَتَعَصَّبُ علىٰ أهلِ مَذْهَبِه، ويَطْعَنُ في جَمَاعَةٍ منهم، وأنَّه يُتَرْجِمُ بِعبارةٍ عاميَّةٍ، مثلَ قَوْلِه عن بعضِ الشَّيْخات: إنَّها كانت عَفِيفَةً. وعن الشاعرِ المَشْهُورِ بالحَيص بَيْص: إنَّه كانتْ له أختٌ يُقَالُ لها: دَخَلَ خَرَجَ، وغيرِ ذلك.

عبدُ القاهرِ بنُ محمد بن عبد اللَّه بن عَمُّويَه أبو النَّجيب السُّهْرَوَرْدِيُّ، كان يَذْكُرُ أنَّه من سُلالَةِ أبي بكر الصِّدِّيق، سمع الحديثَ وتَفَقَّهَ وأفْتَىٰ ودرَّسَ بالنِّظَاميَّةِ وابْتَنَىٰ لنَفْسه مَدْرَسَةً ورباطًا، وكان مع ذلك مُتَصَوِّفًا يعظُ الناسَ، ودُفِنَ بمَدْرَسَته.

محمدُ بنُ عبد الحَميد بن أبي الحَسَن أبو الفَتْح الرَّازِيُّ، المعْرُوفُ بالعَلاء العالِم، وهو من أهلِ سَمَرْقَنْدَ، وكان من الفُحُولِ في المُناظَرَة، وله طَرِيقَةٌ في الخلاف والجَدَل، ويُقالُ لها التَّعْليقَةُ العالميَّةُ. قالَ ابنُ الجَوْزِيِّ: وقد وردَ بَغْدَادَ وحَضَرَ مجْلسي، وقال أبو السَّعْد السَّمْعَانيُّ: كان يُدْمِنُ الخَمْرَ، وكان يَقُولُ ليسَ في الدُّنْيا أطْيَبَ من كتاب أُطالعُه وبَاطِيَةٍ من الخَمْرِ أشْرَبُ منها. قالَ ابنُ الجَوْزِيِّ: ثم بَلَغَني أنَّه أقْلَعَ عن شُرْبِ الخَمْرِ والمُنَاظَرَة، وأقْبَلَ علىٰ التَّنَسُّكِ والخَير، رَحمَه اللَّهُ.

يُوسُفُ بنُ عبد اللَّه بن بُنْدَارَ الدِّمَشْقِيُّ، مدرسُ النِّظَاميَّة ببَغْدَادَ، تَفَقَّهَ علىٰ أسْعَدَ الميهَنِيِّ، وبرَعَ في المُناظَرَة، وكان يَتَعَصَّبُ للأشْعَرِيَّة، وقَد بُعِثَ رسولاً في هذه السنَة إلىٰ شَمْلَةَ التُّرْكُمانيِّ، فمات في تلك البلاد، رَحمَه اللَّهُ.

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

فيها: كان فتحُ مصرَ على يدِ الأمير أسَدِ الدينِ شيركُوه، وفيها طَغَتْ الفِرنْجُ بالدِّيارِ المِصْرِيَّة؛ وذلك لَمَّا جُعِلَ لهم شِحْنَةٌ بها، وتَحكمُوا في أبْوابِها، وسكَنَها أكْثَرُ شجْعَانِها، ولم يَبْقَ شيءٌ مِن أنْ يَسْتَحْوِذُوا عليها ويُخْرِجُوا منها أهلَها مِن المسلمِينَ، فعندَ ذلك رَكِبَ أمَدادُ الفِرنْجِ من كلِّ ناحيَةٍ وساروا صُحْبَةَ مُرِّي ملكِ عَسْقلانَ في جحَافِلَ هائلَةٍ، فأوَّلُ مَا أخذُوا مَدينَةَ بُلْبَيس، فقَتَلُوا منها خَلْقًا وأَسَرُوا آخَرينَ، ونَزَلُوا بها وتَركُوا فيها أثْقَالَهم، وجعَلُوها موئِلاً ومَعْقِلاً، ثم جاءُوا فَنَزَلُوا على القاهِرَةِ من ناحيَةِ بابِ البرقيَّة، فأمَرَ الوزيرُ شاورُ الناسَ أنْ يحرِقُوا مصْرَ، وأنْ يَنْتَقِلَ الناسُ منها إلى القاهِرَة، فَنُهِبَ البلدُ وذَهَبَ للناسِ أمْوالٌ كَثيرةٌ جداًّ، وبَقِيَتِ النارُ تَعْمَلُ في مِصْرَ أرْبَعةً وخَمسينَ يومًا، فعندَ ذلك أرْسَلَ الخَلِيفَةُ العاضِدُ يسْتَغيثُ بالمَلِك نُورِ الدينِ، وبَعثَ إليه بشُعُورِ نسَائِه يقولُ: أدْرِكْنِي واسْتَنْقِذْ نِسَائي مِن أيْدِي الفِرنْجِ. والْتَزَمَ له بثُلُثِ خَرَاجِ مِصْرَ، على أنْ يَكُونَ أسدُ الدينِ مُقِيمًا عندَهم، ولهم إقْطَاعاتٌ زائدَةٌ على الثُّلُث، فَشَرَعَ نُورُ الدينِ في تَجْهِيزِ الجُيُوشِ إلى الدِّيارِ المِصْرِيَّة، فلمَّا اسْتَشْعَرَ الوزيرُ شَاورُ بوُصُولِ المسلمِينَ، أرْسَلَ إلى مَلِكِ الفِرنْجِ يقُولُ له: قد عَرَفْتَ مَحَبَّتِي ومَودَّتِي، ولكنَّ العاضِدَ والمسلمِينَ لا يُوَافِقُونَنِي على تَسْلِيمِ البلَدِ. وصالَحَهم ليَرْجِعُوا عامَهم ذلك عن البلدِ بألْفِ ألْفِ دينَارٍ، وعَجَّلَ بهم مِن ذلك بمِائَةِ ألْفِ دينَارٍ، فأخَذُوها وانْشَمَرُوا راجعِينَ إلى بلادِهم خَوْفًا مِن وصُولِ المَلِكِ نُورِ الدينِ، وطَمَعًا في العَوْدَةِ إليها مَرَّةً ثانيةً ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]. ثم شَرَعَ الوزيرُ شاورُ في مُطالَبَةِ الناسِ بتَحْصِيلِ الذَهَبِ الذي صالَحَ الفِرنْجَ عليه، وضَيَّقَ على الناسِ مَع مَا نالَهم مِن الحَرِيقِ والخَوْفِ، فَجَبَرَ اللَّهُ مُصَابَهم وأحْسَنَ مآبَهم، واسْتَدْعَى الملكُ نورُ الدينِ الأميرَ أسَدَ الدينِ شيركُوه من حِمْصَ إلى حَلَبَ فسَاقَ في يومٍ واحدٍ، مِن حِمْصَ فدَخَلَ حَلَبَ في ذلك اليومِ، فسُرَّ بذلك نورُ الدينِ وتَفَاءَلَ به، فَقَدَّمَه على العساكِرِ التي قد جَهَّزَها إلى الدِّيارِ المِصْرِيَّة وأنْعَمَ عليه بمِائَتَي ألْفِ دينارٍ وأضافَ إليه مِن الأُمَراءِ والأعْيَانِ جَمَاعَةً، كلٌّ منهم يَبْتَغِي بمَسِيرِه ذلك رضا الرحمنِ، وكان في جُمْلَتِهم ابنُ أخيه صلاحُ الدين يوسُفُ بنُ أيُّوبَ بنِ شاذِي، ولم يَكُنْ مُنْشَرِحًا لخُرُوجِه هذا بلْ كانَ كارِهًا له، وقد قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وأضافَ إليه ستَّةَ آلافٍ مِن التركُمان، وسارَ هو وإياه مِن حَلَبَ إلى دمشقَ، ثم جَهَّزَه إلى الدِّيارِ المِصْرِيَّة بمَن مَعَه، ولَمَّا وَصَلَتْ الجيُوشُ النُّورِيَّةُ إلى الدِّيارِ المِصْرِيَّة وَجَدُوا الفِرنْجَ قد انْشَمَرُوا عن القاهِرَة راجعِينَ إلى بلادِهم بالصَّفْقَةِ الخاسِرَة، وكان وصولُه إليها في سابعِ ربيعٍ الآخِرِ، فدَخَلَ الأميرُ أسَدُ الدينِ على العاضِدِ في ذلك اليومِ، وخَلَعَ عليه خِلْعَةً سَنِيَّةً فلَبِسَها، وعادَ إلى مُخَيَّمِه بظاهِرِ البلدِ، وفَرِحَ المسلمُونَ بقُدُومِه إليهم، وأُجْرِيَتْ عليهم الخَيْرَاتُ، وحُمِلَتْ إليهم التُّحَفُ والكَرَامَاتُ، وخَرَجَتْ

وجُوهُ الناسِ إلىٰ مُخَيَّمِ أسدِ الدينِ خِدْمَةً له، وكان فيمَن جاءَ إليه المُخَيَّمَ الخليفةُ العاضدُ متنكِّرًا، فأسَرَّ إليه أمُورًا مُهِمَّةً منها قَتْلُ الوزيرِ شاورٍ، وقَرَّرَ معَه ذلك، وعَظُمَ أمرُ أسدِ الدينِ بمصرَ، ولم يَقْدِرِ الوزيرُ شاورٌ علىٰ مَنْعِ شيءٍ مِن ذلك لكَثْرَةِ الجَيْشِ الذينَ مع أسدِ الدينِ، ولكنْ شَرَعَ يُماطِلُ فيما كانَ تَقَرَّرَ لهم وللمَلِكِ نورِ الدينِ ممَّا كانُوا الْتَزَمُوا له ولهم، وهو مَعَ ذلكَ يَتَرَدَّدُ إلىٰ الأميرِ أسدِ الدينِ ويَرْكَبُ مَعَه، وعَزَمَ علىٰ عملِ ضِيافَةٍ له، فنَهاهُ أصْحَابه عن الحضُورِ خَوْفًا عليه مِن غَائلَته، وشَاوَرُوه في قَتلِ شاورٍ، فلم يُمَكِّنْهم الأميرُ أسدُ الدينِ مِن ذلك، فلمَّا كان في بعضِ الأيامِ جَاء شاورٌ إلىٰ مَنزلِ الأميرِ أسدِ الدينِ، فَوَجَدَه قد ذَهَبَ لِزيارةِ قَبرِ الشافعيِّ، وإذا ابنُ أخيه صلاحُ الدينِ هنالكَ، فعندَ ذلكَ أمَرَ صلاحُ الدينِ بالقبضِ عليه، ولم يُمْكِنه قَتْلَه إلا بعدَ مُشاوَرَةِ عَمِّه، وانهزَمَ أصْحابُه فأعْلَمُوا العاضِدَ لعلَه يَبْعَثُ يُنْقِذُه، فأرْسَلَ إلىٰ الأميرِ أسدِ الدينِ يَطْلُبُ مِنه رَأْسَه، فقُتِلَ شاورٌ وأرسلوا رأسه إلىٰ العاضد في سابعَ عَشَرَ ربيعِ الآخرِ، ففرِحَ المسلمُونَ بذلك.

وأمَرَ الأميرُ أسدُ الدينِ بِنَهْبِ دارِ شَاوَر، فَنُهِبَتْ، ودَخَلَ أسدُ الدينِ علىٰ العاضِدِ فاسْتَوْزَرَه وَخَلَعَ عليه خِلْعَةً عَظِيمَةً، ولَقَّبه المَلِكَ المنصورَ، فسكَنَ دارَ شَاورٍ وعَظُمَ شأنُه هنالك. قال ابنُ أبي طيٍّ: ولَمَّا بَلَغَ نورَالدينِ خَبَرُ فَتْحِ مِصرَ فرِحَ بذلك وقَصَدَتْه الشُّعَراءُ بالتَّهْنِئَةِ، غيرَ أنَّه لم يَنْشَرِحْ لِكَونِ أسدِ الدينِ صارَ وَزِيرًا، وكذلك لَمَّا انْتَهَتْ الوِزَارَةَ إلىٰ ابنِ أخيه صلاحِ الدينِ وشَرَعَ في إعْمَالِ الحِيلَةِ في إزَالَةِ ذلك فلم يَتَمَكَّنْ، ولا قَدَرَ عليه، ولا سِيَّمَا حينَ بَلَغَه أنَّ صلاحَ الدينِ اسْتَحْوَذَ علىٰ خزَائِنِ العاضِدِ كما سيأْتِي بيانُه، واللَّهُ أعْلَمُ.

وأرْسَلَ أسدُ الدينِ إلىٰ القَصْرِ يطْلُبُ كَاتِبًا، فأَرْسَلُوا إليه بالقاضِي الفاضِلِ، رَجَاءَ أنْ يَقْبَلَ منه إذا قال، وأفَاضَ فيما كَانُوا يُؤَمِّلُونَ، وبَعَثَ العُمَّالَ في الأعْمَالِ وأقْطَعَ الإقْطَاعَاتِ، ووَلَّىٰ في الوِلاياتِ، وفَرِحَ بنَفْسِه أيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، فأدْرَكَه حِمَامُه يومَ السبتِ الثانِي والعشْرِينَ مِن جُمَادَىٰ الآخرةِ مِن هذه السنَةِ، فَكَانت وِلايتُه شَهْرَيْنِ وَخَمْسَةَ أيامٍ، فلمَّا تُوُفِّيَ أسدُ الدينِ شيركوه، رَحِمَه اللَّهُ، أشارَ الأمَراءُ الشَّامِيُّونَ علىٰ العاضِدِ بتَوْلِيَةِ صلاحِ الدينِ يُوسُفَ الوِزَارَةَ بعدَ عمِّه، فَوَلَّاه الوِزَارَةَ وخلَعَ عليه خِلْعَةً سَنِيَّةً، ولَقَّبَه المَلِكَ الناصِرَ.

صِفَةُ الخِلْعَةِ التي لَبِسَها صلاحُ الدينِ يومَئذ فيما ذَكَرَه الشيخُ شِهابُ الدِّينِ في «الرَّوْضَتَيْنِ»:

عِمَامَةٌ بَيْضَاءُ تِنِّيسِيٌّ بِطَرَفِ ذَهَبٍ، وثَوْبٌ دَبِيقِيٌّ بِطَرَازِ ذَهَبٍ، وجُبَّةٌ بِطَرَازِ ذَهَبٍ، وطَيْلَسَانٌ بِطَرَازٍ مُذَهَّبَةٍ، وعَقْدُ جَوهَرٍ بعَشْرَةِ آلافِ دِينارٍ، وسَيْفٌ مُحَلًّىٰ بخَمْسَةِ آلافِ دِينارٍ، وحِجْرٌ بثمانِيَةِ آلافِ دِينارٍ، وعليها طَوْقُ ذَهَبٍ وسرفسار ذَهَبٍ مُجَوهَرٌ، وفي رَأْسِها مائَتَا حَبَّةِ جَوهَرٍ، وفي قَوائمِها أرْبَعَةُ عُقُودِ جَوهَرٍ، وفي رَأْسِها قَصَبَةُ ذَهَبٍ، وفي رَأْسِها مشدَّةٌ بَيْضَاء بأَعْلامٍ بيضٍ، ومع الخِلْعَةِ عِدَّةُ بُقَجٍ، وخيلٌ وأشْياءُ أُخَرُ، ومنشُورُ الوِزَارَةِ مَلْفُوفٌ بثَوبٍ أطْلَسَ أبيضَ، وكَان ذلك في يومِ الإثْنَيْنِ الخَامِسِ والعِشْرِينَ مِن جُمَادَىٰ الآخِرَةِ، مِن هذه السنَةِ، وكان يَومًا مَشْهُودًا، وسَارَ الجَيْشُ بكَمَالِه في

خدْمَته، ولم يتخلّفْ عنه سوىٰ عين الدولة اليَارُوقي؛ قال: لا أخدُمُ يوسُفَ بعدَ نورِ الدين، ثم سارَ بجَيْشه إلى الشام، فلامَه نورُ الدين على ذلك، وأقامَ الملكُ صلاحُ الدين بمصرَ بصفَةِ نائب للمَلك نورِ الدين، يَخْطبُ له على المنابر بالدِّيار المصْريَّة، ويُكاتِبُه الأميرُ نورُ الدين بالأمير الأسْفَهْسلارَ صلاحِ الدين ويتَواضعُ له صلاحُ الدين في الكتب والعلامَة، لكنْ قد الْتَفَّتْ عليه القلُوبُ، وخَضَعَتْ له النُّفوسُ، واضْطُهِدَ العاضدُ في أيّامه غايَةَ الاضْطهاد، وارْتَفعَ قدرُ صلاح الدين بينَ العبادِ بتلك البلاد، وزَادَ في إقْطَاعَات الذينَ معه فأحبُّوه واحترَموه وخَدَمُوه، وكَتَبَ إليه نورُ الدين يُعَنِّفُه على قبُولِ الوزارَة بدُون مَرْسُومه، وأمَرَه أنْ يُقيِّمَ حسَاب الدِّيار المصْريَّة، فلم يَلْتَفتْ صلاحُ الدين إلى ذلك وجَعَلَ نورُ الدين يقولُ في غُبُون ذلك: مَلَكَ ابنُ أيُّوبَ. وأرْسَلَ إلى المَلك نورِ الدين يطلبُ منه أهْلَه وإخْوتَه وقرابتَه، فأرْسَلَهم إليه وشرَطَ عليهمُ السَّمْعَ والطاعةَ له، فاستقرَّ أمْرُه هنالك وحفظ دولَتَه بذلك، وكَمَلَ أمْرُه وتمكَّنَ سلْطانُه وقويَتْ أرْكانُه.

وقد قال بعضُ الشعراء في قَتْلِ صلاح الدين لشاور الوزير:

هَنيئًا لمصْرَ حوزَ يُوسُفَ مُلكَها ... بأمر من الرحمن كان مُوقُّوتًا
ومَا كان فيها قتلُ يوسُفَ شاورًا ... يُماثلُ إلا قتلَ داودَ جالُوتَا

قال أبو شامَةَ: وقتلَ العَاضدُ في هذه السنَة أوْلادَ شاور، وهم: شُجاعٌ المُلَقَّبُ بالكامل، والطاري المُلَقَّبُ بالمُعَظَّم، وأخُوهما الآخرُ المُلَقَّبُ بفارسِ المسلمينَ، وطيفَ برُءُوسهم ببلادِ مصْرَ.

ذكرُ قتلِ الطَّواشيِّ مؤتمنِ الخلافة، وأصحابه على يد الملك صلاح الدين

وذلك أنَّه كَتبَ من دارِ الخلافَة بمصرَ إلى الفرنْج ليَقْدُمُوا إلى الدِّيارِ المصْريَّة ليُخرجُوا منها الجُيُوشَ الإسْلاميَّةَ الشَّاميَّةَ والعساكرَ النُّوريَّةَ، وكان الذي نَفَذَ الكتابَ إليهم الخَادمُ مؤتَمَنُ الخلافَة، مُقَدَّمُ العسَاكر بالقَصْر، وكان حَبَشيًّا، وكان قد أرْسَلَه مع إنْسانٍ أمنَ إليه، فَصَادَفَه في بعضِ الطَّريق مَن أنْكَرَ حالَه، فَحَمَلَه إلى المَلك النَّاصرِ صلاحِ الدِّين، فَقَرَّرَه، فأخْرَجَ الكتابَ، ففهِمَ منه صلاحُ الدِّين الحالَ فَكَتَمَ، واسْتَشْعَرَ مؤتَمَنُ الخلافَة الخَادمُ أنَّ المَلكَ صلاحَ الدِّين قد اطَّلَعَ على الأمْر، فلازَمَ القَصْرَ مُدَّةً طَويلَةً خَوْفًا على نَفْسه، ثم عَنَّ له في بعضِ الأيام أنْ خَرَجَ إلى الصَّيْد، فأرْسَلَ المَلكُ صلاحُ الدِّين إليه مَن قَبَضَ عليه وقَتَلَه وحَمَلَ رأسَه إليه.

ثمَّ عَزَلَ جَميعَ الخُدَّام الذينَ يَلُونَ خدْمَةَ القَصْر، واسْتَنَابَ على القَصْرِ عوَضَهم بهاءَ الدين قَرَاقُوشَ، وأمَرَه أنْ يُطالعَه بجَميع الأمُور، صغَارها وكبَارها.

وَقْعَةُ السُّودَان

وذلكَ أنَّه لمَّا قُتِلَ الطَّواشِيُّ مؤتَمَنُ الخلافَةِ الخادمُ الحَبَشيُّ، وعُزِلَ بَقيَّةُ الخُدَّام، غَضِبُوا لذلك واجتَمعُوا قريبًا من خَمْسينَ ألفًا، فاقْتتلُوا هم وجيشُ المَلِكِ صلاحِ الدِّينِ بينَ القَصْرَيْنِ، فقُتِلَ خَلْقٌ كثيرٌ من الفَريقَيْنِ، وكان العَاضِدُ يَنظُرُ من القَصْرِ إلى المَعْرَكَة، وقد قُذِفَ الجيشُ الشَّاميُّ من القَصْرِ بحجَارَةٍ، وجاءَهم منه سِهامٌ، فقيلَ: كان ذلك بأمْرِ العَاضِدِ، وقيلَ لم يَكُنْ بأمْرِه. ثم إنَّ أخا النَّاصرِ شمسَ الدولَةِ تُورَانْشاه ـ وكان حاضرًا للحَرْبِ قد بَعَثَه نُورُ الدينِ إلى أخيه ليَشُدَّ أَزْرَه ـ أمَرَ بإحْرَاقِ مَنْظَرَةِ العاضِدِ، ففُتِحَ البابُ ونُودِيَ: إنَّ أميرَ المُؤْمنينَ يأمُرُكم أنْ تُخرِجُوا هؤلاءِ السُّودَانَ من بينِ أظْهُرِكُم، ومن بلادكُم، فَقَوِيَ الشَّاميُّونَ وضَعُفَ جَأْشُ السُّودَانِ جدًّا، وأرْسَلَ المَلِكُ النَّاصرُ إلى مَحلَّتِهم المَعْرُوفَةِ بالمَنْصُورَةِ، التي فيها دُورُهم وأهْلُوهم ببابِ زَوِيلَةَ فأحْرَقَها، فَوَلَّوا عندَ ذلك مُدْبِرِينَ، ورَكِبَهم السَّيْفُ فَقَتَلَ منهم خَلْقًا كثيرًا، ثمَّ طَلَبُوا الأمَانَ من المَلِكِ صلاحِ الدِّينِ، فأجَابَهم إلى ذلك، وأخْرَجَهم إلى الجيزَةِ، ثم خَرَجَ إليهم شمسُ الدولَةِ تُورَانْشاه أخُو المَلِكِ صلاحِ الدِّينِ فَقَتَلَ أكْثَرَهم أيضًا، ولم يُبْقِ منهم إلا القَليلُ، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

وفيها: افْتَتَحَ المَلِكُ نُورُ الدينِ بنُ مَحْمودِ بنِ زَنْكي قَلْعَةَ جَعْبَر، وانتزَعَها من يدِ صاحبِها شهابِ الدينِ مالكِ بنِ عليِّ بنِ مَالكٍ العُقَيْليِّ، وكانت في أيديهم من أيامِ السلْطانِ مَلِكْشاه.

وفيها: احتَرَقَ جَامعُ حَلَبَ فَجَدَّدَه نُورُ الدينِ.

وفيها: مَاتَ يارُوقُ الذي تُنْسَبُ إليه المحلَّةُ بظاهرِ حَلَبَ.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

سعدُ اللَّه بنُ نَصْرِ بنِ سعيد، الدَّجَاجيُّ، أبو الحَسَن، الواعظُ الحَنْبَليُّ، وُلِدَ في سنَةِ ثمانينَ وأرْبعمائةٍ، وسمع الحديثَ وتَفَقَّه ووعَظَ، وكانَ لَطيفَ الوَعْظِ، وقد أثْنَى عليه ابنُ الجَوْزِيِّ في ذلك، وذَكَرَ أنَّه سُئِلَ مَرَّةً عن أحاديثِ الصفاتِ، فَنَهَى عن التَّعرُّضِ لذلك، وأنْشَدَ:

أبى العـاتبُ الغَضْبَانُ يا نفسُ أن يَرْضَى ... وأنت التي صَيَّرَت طاعَتَه فَرْضَا
فـلا تَهْجُري من لا تُطيقينَ هَجْرَه ... وإنْ هَمَّ بالهِجْرَانِ خَدَيك والأرْضا

وذكرَ ابنُ الجَوْزِيِّ عنه أنَّه قال: خفتُ مَرَّةً من الخَليفَةِ، فَهَتَفَ بي هاتِفٌ في المَنَامِ وقال: اكْتُبْ:

ادْفَعْ بصَبْرِكَ حَادثَ الأيامِ ... وتَرَجَّ لُطفَ الواحدِ العلامِ
لا تَيأسَنَّ وإنْ تَضَايَقَ كَرْبُها ... ورَمَاكَ رَيْبُ صُرُوفِها بِسِهامِ
فلَهُ تعالى بينَ ذلك فُرْجَةٌ ... تَخْفَى على الأبْصارِ والأوْهَامِ
كَمْ من نَجَا من بينِ أطرَافِ القَنَا ... وفَريسَةٍ سلمَتْ من الضِّرْغَامِ

تُوُفِّيَ في شَعْبَانَ من هذه السنَةِ عن أربعٍ وثمَانِينَ سنَةً، ودُفِنَ إلى جَانب رِبَاطِ الزُّوزنيِّ، ثم نُقِلَ إلى مَقْبَرَةِ الإمَامِ أحمدَ.

شاورُ بنُ مُجير، أبو شُجَاع السَّعْديُّ، المُلَقَّبُ أميرَ الجُيوش، وزيرُ الدِّيارِ المصْريَّةِ أيَّامَ العَاضِد، وهو الذي انتَـزَعَ الوزَارَةَ من يَدَيْ رُزِّيكَ، وهو أوَّلُ مَن اسْتكْتَبَ القَاضي الفَاضل، اسْتَدْعَىٰ به من إسْكَنْدريَّةَ من باب السِّدْرَة، فَحَظِيَ عندَه وانْحصَرَ منه الكُتَّابُ بالقَصْرِ، لما رأَوْا من فَضْلِه وفَضِيلَتِه. وقد امْتَدَحَه الشعراءُ؛ فمنهم عُمَارَةَ اليَمَنيُّ حيثُ يقُولُ:

ضَجِرَ الحديدُ من الحديدِ وشاورٌ ... في نَصْرِ دينِ محمدٍ لم يَضْجَرِ
حَلَفَ الزَّمانُ لَيَأتِيَنَّ بمثلِه ... حَنِثَتْ يَمِينُكَ يا زمانُ فَكَفِّرِ

ولم يَزَلْ أمْرُه قائمًا إلى أنْ ثارَ عليه الأميرُ ضِرْغَامُ بنُ سَوَّارٍ، فالْتَجأَ إلى الملكِ نورِ الدينِ فأرْسَلَ معه الأميرَ أسَدَ الدينِ شيركُوه فنَصَرُوه على عَدُوِّه، فنَكَثَ عَهْدَه، فلم يَزَلْ أسدُ الدينِ حَنِقًا عليه حتى كان قَتْلُه في هذه السنة، على يَدي ابنِ أخيه صلاح الدينِ يوسُفَ، ضَرَبَ عُنُقَه بينَ يَديه الأميرُ جُرْديكُ في السابعِ عَشَرَ من ربيعٍ الآخرِ، واسْتَوْزَرَ بعدَه أسَدَ الدينِ شيركُوه كما ذَكَرْنا فلم تَطُلْ مُدَّتُه بعدَه إلا شَهْرَيْنِ وخمْسَةَ أيَّامٍ.

قال ابنُ خَلِّكَان: هو أبو شُجاع شاورُ بنُ مُجيرِ الدينِ بنِ نزَارِ بنِ عَشَائرَ بنِ شأسِ بنِ مُغيثِ بنِ حبيبِ بنِ الحارثِ بنِ رَبيعَةَ بنِ يخْنَسَ بنِ أبي ذُؤَيْبٍ عبدِ اللَّه؛ وهو والدُ حَليمَةَ السَّعْديَّة. كذا قال، وفيما قال نَظَرٌ لقِصَرِ هذا النَّسبَ بالنِسْبَة إلى بُعد المُدَّة، واللَّهُ أعْلَمُ.

شيركُوه بن شاذي، أسدُ الدينِ الكُرْديُّ الرَّواديُّ، وهم أشْرَفُ شُعُوبِ الأكْرَادَ، وهو من قَرْيَةٍ يُقالُ لها دُوَيْنُ من أعْمَالِ أذْربيجَانَ، خَدَمَ هو وأخُوه نجمُ الدينِ أيُّوبُ -وكان الأكبرَ- الأميرُ مُجاهدُ الدينِ بِهْرُوزَ الخَادمَ شِحْنَةَ العِرَاقِ، فاسْتَنَابَ نجمَ الدينِ أيُّوبَ على قَلْعَةِ تكْريتَ، فاتَّفَقَ أنْ دَخلَها عمادُ الدينِ زَنْكي هاربًا من قَرَاجَا السَّاقي، فأحْسَنا إليه وخَدَماه، ثمَّ اتَّفَقَ أنْ قتلَ رَجلاً من العَامَّةِ في تأديبٍ، فأخْرَجَهما بِهْرُوزُ من القَلْعَةِ فصارا إلى زَنْكي بحَلَبَ، فأحْسَنَ إليهما، ثمَّ حَظِيا عندَ وَلَدِه نورِ الدينِ محمودٍ، فاسْتَنَابَ أيُّوبَ على بَعَلَبَك، وأقَرَّه ولَدُه نورُ الدينِ، وصارَ أسدُ الدينِ عندَ نُورِ الدينِ أكْبَرَ أُمَرَائه وأخَصَّهم عندَه وكان قد أقْطَعه الرَّحْبَةَ وحِمْصَ مع ما له عنده من الإقْطاعَات، وذلك لشَهَامَتِه وشَجاعَتِه وصَرامَتِه وجِهَاده في أعْدَاء اللَّه الفرنْجِ وغَيْرِهم، في أيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ووقَعَاتٍ مُعْتَبَرَاتٍ، ولاسيَّمَا يومَ فَتْحِ دِمَشْقَ، وأعْجَبُ من ذلكَ ما فَعلَه بديارِ مِصْرَ، بلَّ اللَّهُ بالرَّحْمَةِ ثَرَاه وجَعَلَ الجَنَّةَ مَأوَاه.

كانت وفَاتُه يومَ السَّبْتِ فَجْأَةً بخَانُوقٍ حَصَلَ له، وذلك في الثاني والعشْرينَ من جُمَادَىٰ الآخرَةِ من هذه السنَةِ، رَحِمَه اللَّهُ. قال أبو شَامَةَ: وإليه تُنْسَبُ الخَانقاه الأسَديَّةُ داخلَ بابِ الجَابيَةِ بدربِ الهاشِميِّينَ، والمَدْرَسَةُ الأسَديَّةُ بالشرفِ القِبْليِّ. ثمَّ آلَ الأمْرُ من بَعْدِه إلى ابنِ أخيه صلاحِ الدينِ

يوسُفَ، ثم استَوْسَقَ له المُلْكُ وأطاعتْه المَمالكُ هُنالكَ، ولله الحمدُ.

محمدُ بنُ عبد الباقي بن أحمَدَ بن سَلْمَانَ، المَعْرُوفُ بابنِ البَطِّيِّ، سمعَ الحديثَ الكثيرَ، وأسْمَعَ ورُحِلَ إليه. وقارَبَ التِّسْعِينَ، رَحِمَه اللَّهُ.

محمدٌ الفَارِقيُّ، أبو عبد اللَّه، الواعظُ، يُقالُ: إنَّه كان يحفَظُ «نَهْجَ البلاغَة» ويُغَيِّرُ ألفَاظَه، وكان فَصيحًا بليغًا يُكْتَبُ كلامُه ويُرْوَىٰ عنه كتابٌ يعْرَفُ بـ«الحِكَمِ الفارقيَّة».

مَعْمَرُ بنُ عبد الواحد بن رَجَاء، أبو أحْمَدَ الأصْبَهَانيُّ، أحدُ الحُفَّاظ الوعَّاظ، رَوَىٰ عن أصْحَابِ أبي نُعَيمٍ، وكانت له مَعْرِفَةٌ جَيِّدَةٌ بالحَديث، تُوُفِّيَ وهو ذَاهِبٌ إلى الحَجِّ بالباديَة، رَحِمَه اللَّهُ.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

في صَفَرٍ منها حَاصَرَت الفِرنْجُ مدينَةَ دِمْيَاطَ من بلادِ مِصْرَ خَمْسينَ يومًا، بحَيْثُ ضَيَّقُوا على أهْلِها، وقَتَلُوا أممًا كثيرةً؛ جاءُوا إليها منَ البَرِّ والبحْرِ؛ رَجَاءَ أنْ يَمْلكُوا الدِّيارَ المِصْريَّة، وخَوْفًا من استيلاء المُسْلمينَ على القُدْسِ، فَكَتَبَ المَلكُ صلاحُ الدينِ إلى المَلكِ نورِ الدين يَسْتَنْجِدُه عليهم، ويَطْلُبُ منه أنْ يُرْسلَ إليه بأمْدَادٍ من الجُيُوشِ؛ فإنَّه إنْ خَرَجَ من مِصْرَ خَلَفَه أهْلُها بسوءٍ، وإنْ قَعَدَ عن الفِرنْجِ أخَذُوا دِمْياطَ وجعلُوها معقلاً لهم يَتَقَوَّونَ به على أخْذِ مِصرَ، فأرْسَلَ إليه نُورُ الدين ببُعُوثٍ كثيرةٍ يَتْبَعُ بَعْضُها بَعْضًا. ثمَّ إنَّ نورَ الدينِ اغْتَنَمَ غَيْبَةَ الفِرنْجِ عن بلادهم فَصَمَدَ إليهم في جُيوشٍ كثيرةٍ فجَاسَ خلالَ ديارِهم، وغَنِمَ من أمْوَالهم، وقَتَلَ من رِجَالهم، وسَبَىٰ من نسائهم وأطْفَالهم شيئًا كثيرًا. وكان من جُمْلَةِ مَنْ أرْسَلَ إلى صلاحِ الدينِ أبوه الأميرُ نَجْمُ الدينِ أيوبُ في جَيشٍ من تلكَ الجُيُوشِ، ومعه بقيَّةُ أوْلاده، فتَلَقَّاه الجيشُ من مِصْرَ في رجبٍ، وخرَجَ العَاضدُ لتَلَقِّيه إكْرامًا لوَلَده صلاح الدينِ، وأقْطَعَه الإسْكَنْدَريَّةَ ودِمْيَاطَ والبُحَيْرَةَ، وكذلك بقيَّةُ أوْلاده، وقد أمَدَّ العَاضدُ صلاحَ الدينِ في هذه الكائنَة بألْف ألْف دينارٍ حتى انْفَصَلَت الفِرنْجُ عن دِمْيَاطَ.

وأجلَت الفِرنْجُ عن دِمْيَاطَ؛ لأنَّه بلَغَهم أنَّ المَلكَ نورَ الدينِ قد غَزَا بلادَهم، وقَتَلَ خَلْقًا من رِجَالهم، وسَبَىٰ كثيرًا من نسائهم وأطْفَالهم، وغَنِمَ مَالاً جزيلاً من أمْوَالهم، فَجَزَاه اللَّهُ عن المسلمينَ خيْرًا. ثم سارَ نورُ الدينِ في جُمَادَىٰ الآخرَة إلى الكَرَك، فحَاصَرَها - وكانت من أمْنَعِ البلاد - وكادَ أنْ يَفْتَحَها، ولكن بَلَغَه أنَّ مُقَدَّمَيْنِ من الفِرنْجِ قد أقْبلا نحوَ دمَشْقَ، فَخَافَ أنْ يَلْتَفَّ عليهما الفِرنْجُ، فَتَرَكَ الحصارَ وأقْبَلَ نحوَ دمَشْقَ فَحَصَّنَها، ولمَّا انْجلَت الفِرنْجُ عن دِمْيَاطَ فَرحَ نورُ الدين والمسلمونَ فَرَحًا شديدًا، وأنشدَ الشُّعَراءُ كلٌّ منهم قَصيدًا وقد كان المَلكُ نورُ الدينِ شديدَ الاهْتمَام، قَويَّ الاغْتمَام بذلكَ، حتى إنَّه قَرَأَ عليه بعضُ طَلَبَة الحديث جزءًا فيه حديثٌ مسلسلٌ بالتَّبَسُّم، فَطَلَبَ منه أنْ يَتَبَسَّمَ؛ ليتَّصِلَ التَسلسلُ، فامْتَنَعَ من ذلكَ، وقال إنِّي لأسْتَحْيِي منَ اللَّه أنْ يَرَاني مُتَبَسِّمًا والمسلمُونَ تُحَاصِرُهم الفِرنْجُ بثغرِ دِمْيَاطَ.

وقد ذَكَرَ الشيخُ أبو شامَةَ أنَّ إمَامَ مسجدِ أبي الدَّرْدَاءِ بالقَلْعَةِ المَنْصُورةِ رأى في تلكَ الليلة التي أجلى فيها الفرنْجُ عن دمْياطَ رسولَ اللَّه ﷺ وهو يقولُ له: سلِّمْ على نورِ الدين، وبشِّرْه بأنَّ الفرنْج قد رَحَلُوا عن دمْياطَ. فقُلْتُ: يارسولَ اللَّه، بأيِّ علامَةٍ؟ فقال: بعلامَةِ ما سَجَدَ يومَ تَلِّ حَارِمٍ وقال في سُجُوده: اللَّهُم انصُرْ دينَكَ، ولا تَنْصُرْ مَحْمُودا، ومَن هو محمودٌ الكَلْبَ حتى يُنصَرَ؟ فلمَّا صَلَّى نورُ الدينِ عندَه الصُّبحَ بَشَّرَه بذلك وأعْلَمَه بالعَلامَةِ، وكَشَفُوا تلكَ الليلَةَ فإذا هي هي.

قال العمَادُ الكاتبُ: وفي هذه السنَةِ عَمَّرَ الملكُ نورُ الدينِ جامعَ داريَّا، وعَمَّرَ مَشْهَدَ الشيخ أبي سُلَيْمَانَ الدَّارَانيِّ بها، وشَتَّى بدمَشْقَ.

وفيها: حَاصَرَ نورُ الدينِ الكَرَكَ أربَعَةَ أيَّامٍ، وفَارَقَه نَجْمُ الدينِ أيوبُ والدُ صلاحِ الدينِ مُتَوَّجِهًا إلى ابنه بمصْرَ، وقد وَصَّاهُ الملكُ نورُ الدينِ أنْ يَأْمُرَ ابنَه صلاحَ الدينِ أنْ يَخْطُبَ بمصرَ للخَليفَةِ المُسْتَنْجِدِ باللَّه العبَّاسيِّ، وذلكَ أنَّ الخَليفَةَ بعثَ إليه يُعَاتِبُه في ذلك.

وفيها: قدمَ الفرنْجُ مِن السَّواحِلِ؛ ليَمْنَعُوا الكركَ مع قَرِيبِ بنِ الرقيقِ وابنِ هَنْفَرَى، وكَانَا أشْجَعَ فرْسانِ الفرنْجِ، فَقَصَدَهما نورُ الدينِ ليَلْقَاهما فَحَادَا عن طَرِيقِه.

وفيها: كَانت زَلْزَلَةٌ عَظيمَةٌ بالشَّامِ والجزيرَةِ وعَمَّتْ أكْثَرَ الأرضِ، فَتَهَدَّمَتْ أسْوارٌ كَثيرَةٌ بالشَّامِ، وسَقَطَتْ دُورٌ كَثيرَةٌ على أهلها، ولا سيِّمَا بدمَشْقَ وحمْصَ وحماة وحَلَبَ وبَعْلَبَكَ؛ سَقَطَتْ أسْوَارُها وأكْثَرَ قَلْعَتِها، فَجَدَّدَ الملكُ نورُ الدينِ عمَارَةَ أكْثَرَ ما سَقَطَ بهذه الزَّلْزَلَةِ.

وفيها تُوفِّي:

الملكُ قُطْبُ الدِّينِ مَوْدُودُ بنُ زَنْكي، أخُو نور الدينِ محمودٍ صاحبِ المَوْصِلِ، وله مِن العُمْرِ أرْبَعُونَ سَنَةً، ومُدَّةُ مُلْكه منها إحْدَى وعُشْرُونَ سَنَةً، وكَان مِن خيارِ المُلُوك، مُحَبَّبًا إلى الرَّعيَّةِ، عَطُوفًا عليهم، مُحْسِنًا إليهم، حسَنَ الشكلِ. وتَملَّكَ مِن بعدِه ولَدُه سيفُ الدينِ غازي مِن السِّتِّ خاتُونَ بنت تَمُرْتاشَ بنِ إيلغازي بنِ أُرْتُقَ أصْحابِ مارِدِينَ، وكان مُدبِّرَ مملكته والمُتَحَكِّمَ فيها فَخْرُ الدينِ عبدُ المسيحِ، وكان ظالمًا غاشمًا.

وفيها: كانتْ حروبٌ كثيرةٌ بينَ مُلوكِ الغربِ بجزيرةِ الأنْدَلُس، وكذلك كانتْ حروبٌ كثيرةٌ بينَ مُلوكِ الشرقِ أيضًا.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنة، والتي قبلَها الأميرُ أرْغَشُ الكبيرُ.

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

فيها: كانت وفاةُ المُسْتَنْجِد وخلافَةُ ابنه المُسْتَضِيءِ، وذلك أنَّ الخليفةَ المستنجدَ كان قد مرضَ في أوَّل هذه السنة، ثم عُوفيَ فيما يبدو للناس، فعُملت ضيافةٌ عظيمةٌ بسبَبِ ذلك، وفرح الناسُ بذلك، ثم أدخلَه الحكيمُ إلى الحمَّامِ وعندَه ضعفٌ شديدٌ فماتَ في الحمام، رحمه اللَّهُ. ويقالُ: إنَّ ذلك كان

بإشارة بعض الدولة على الطبيب؛ استعجالاً لموته، وكانت وفاتُه يومَ السبت بعدَ الظهر ثامنَ ربيع الآخر عن ثمانٍ وأربعين سنةً، وكانت مدَّةُ خلافته إحدَى عشْرَةَ سنةً وشهراً، وكان من خيار الخلفاء وأعْدَلهم وأرفقِهم بالرَّعايا، وضع عنهم المُكُوسَ والضرائبَ، ولم يتْرُكْ بالعراق مَكْسًا، وقد شفَعَ بعضُ أصحابه في رجلٍ شرِّيرٍ، وبذَلَ فيه عشَرَةَ آلافِ دينارٍ، فقال له الخليفةُ: أنا أُعْطيكَ عشَرَةَ آلافِ دينارٍ وائْتِني بمِثْلِه؛ لأُريحَ المسلمين من شرِّه.

وكان المستنجدُ أسْمَرَ، طويلَ اللحْيةِ، وهو الثاني والثلاثونَ من العباسيِّينَ، وذلك في الجُمَّلِ لامٌ باءٌ، ولهذا قال فيه بعضُ الأدباء:

أصْبَحَتْ لُبُّ بني العباسِ كُلِّهمُ	إنْ عُدِّدتْ بحِسَابِ الجُمَّلِ الخُلَفَا

وكانَ أماراً بالمَعْرُوفِ، نَهَّاءً عن المُنْكرِ، رَحِمَه اللهُ، وقد رَأَىٰ في مَنامِه رَسُولَ الله ﷺ غيرَ مَرَّةٍ، فكانت آخرُهنَّ قبلَ أنْ يَلِيَ بأرْبَعَةِ أيامٍ وهو يقول له: «قُلْ: اللَّهُم اهْدِني فيمَن هَدَيْتَ، وعَافِني فيمَن عَافَيْتَ». دُعَاءَ القُنُوتِ بتَمامِه.

وصُلِّيَ عليه يومَ الأحدِ قبلَ الظُّهْرِ، ودُفِنَ بدارِ الخلافَةِ، ثم نُقِلَ إلى التُّرَبِ من الرُّصافَةِ.

خلافة المستضيء

وهو أبو محمدٍ الحَسَنُ بنُ يوسفَ المُسْتَنْجِدِ بنِ المُقْتَفِي، وأُمُّه أرْمَنِيَّةٌ تُدْعَىٰ غَضَّةَ، وكان مَوْلِدُه في شعبانَ سَنَةَ ستٍّ وثلاثينَ وخَمْسمِائةٍ. بُويعَ بالخلافَةِ يومَ مَاتَ أبوه وحُبِسَ، بُكْرَةَ الأحدِ تاسعَ ربيعٍ الآخرَ، وبايَعَه الناسُ ولم يَلِ الخلافَةَ أحدٌ اسمُه الحَسَنُ بعدَ الحَسَنِ بنِ عليٍّ غيرَ هذا، ووافَقَه في الكُنْيَةِ أيضًا. وخَلَعَ يومئذٍ على الناسِ أكْثَرَ من ألفِ خلْعَةٍ، وكان يومًا مَشْهُودًا، وولَّى قضاءَ قُضاةِ بغْدادَ لرَوْحِ بنِ الحَديثيِّ يومَ الجُمُعَةِ رابعَ عشرَ ربيعٍ الآخرِ، وخَلَعَ على الوزيرِ خلْعَةً عَظيمَةً وهو الأسْتَاذُ عَضُدُ الدينِ. وضُرِبَتْ على بابِه نَوْبَةٌ في ثلاثِ أوْقاتٍ؛ الفَجْرِ والمَغْربِ والعشاءِ، وأمَّرَ سبعَةَ عشرَ أميرًا من المَماليكِ، وأُذِنَ للوُعاظِ فتَكَلَّمُوا بعدَما كانُوا قد منعُوا مدةً طويلةً، ثم كَثُرَ احْتجَابُه بعدَ ذلك، وممَّا نَظَمَه العمادُ الكَاتِبُ حينَ جَاءَتْهم البشارةُ بخلافةِ المُسْتَضِيءِ وهم بأرْضِ الموْصِلِ:

قَدْ أضاءَ الزَّمَانُ بالمُسْتَضِيِّ	وارثِ البُرْدِ وابنِ عَمِّ النَّبيِّ
جاءَ بالحَقِّ والشَّرِيعَةِ والعَدْ	لِ فَيَا مَرْحَبًا بهذا المجِيِّ
فَهَنِيئًا لأهلِ بَغْدَادَ فازُوا	بَعْدَ بُؤْسٍ بكلِّ عَيْشٍ هَنِيِّ
ومُضِيٌّ إنْ كانَ في الزَّمَنِ المُظْـ	ـلمِ فالعَوْدُ في الزَّمَانِ المُضِيِّ

وفيها: سارَ المَلِكُ نورُ الدينِ محمودُ بنُ زَنْكِي إلى الرَّقَّةِ فأخَذَها، وكذلك نَصِيبِينَ والخابُورَ وسِنْجَارَ، وسَلَّمَها إلى زوجِ ابْنَتِه ابنِ أخيه عمادِ الدينِ زَنْكِي بنِ مَوْدُودٍ، ثم سارَ إلى المَوْصِلِ فأقامَ بها

أربعَةَ وعشرِينَ يومًا، وأقرَّها على ابنِ أخيه سيفِ الدينِ غَازِي بنِ قطبِ الدينِ مَوْدُودٍ، مع الجَزِيرَةِ، وزَوَّجَه ابنتَه الأخرَىٰ، وأمَرَ بعِمارَةِ جامعِها وتَوْسعَتِه، ووقَفَ علىٰ تأسِيسِه بنفسِه، وجَعَلَ له خَطِيبًا ودرسًا للفقْهِ، وولَّىٰ التَدْرِيس للفقيهِ أبي بكرٍ النَوْقَانِيِّ، تلمِيذِ محمدِ بنِ يَحْيىٰ تلمِيذِ الغَزَّالِيِّ، وكَتَبَ له مَنْشُورًا بذلكَ، ووقفَ علىٰ الجَامعِ قَرْيَةً مِن قُرَىٰ الموْصِلِ، وذلك كلُّه بإشارَةِ الشيخِ الصالحِ العابِدِ عمرَ المَلاَّءِ، وقد كانت له زَاوِيَةٌ يُقْصَدُ فيها، وله في كلِّ سنَةٍ دَعْوَةٌ في شهرِ المَوْلِدِ، يَحْضُرُ عندَه المُلوكُ والأمَراءُ والعُلمَاءُ والوزَرَاءُ، ويُحْتَفلُ بذلك، وقد كان الملكُ نورُ الدينِ صاحِبَه، وكان يَسْتَشِيرُه في أمُورِه، ومَا يعتَمدُه في المُهِمَّاتِ وهو الذي أشارَ عليه في مُدَّةِ مُقامِه بالمَوْصلِ بجَمِيعِ ما فَعلَه مِن الخَيرَاتِ، فلهَذَا حَصَلَ بقُدُومِه كلَّ مَسَّرَةٍ، وانْدَفَعَتْ عنهم المَصائِبُ، وأسَقَطَ عنهم المُكُوس والضَّرَائبَ، وأخْرَجَ مِن بينِ أهلِها الظالِمَ الغَاشِمَ عبدَ المَسِيحِ، وسَمَّاه عبدَ اللَّهِ، وأخَذه معه إلىٰ دِمَشْقَ، فأقْطَعَه إقْطاعًا حسَنًا، فَجزَاه اللَّهُ خَيْرًا.

وقد كان عبدُ المَسِيحِ هذا نصْرَانيًّا، فأظْهَرَ الإسلامَ، وكان يُقالُ إنَّ له كَنِيسَةً في جوْفِ دارِه. وكان سَيِّءَ السيِرَةِ في حقِّ العُلَمَاءِ وخَاصَّةً المُسلمينَ، ولَمَّا دَخَلَ نورُ الدينِ المَوْصلَ كانَ الذي اسْتَأْمَنَ له الشيخُ عمرُ المَلاَّءِ وحينَ دخَلَ نورُ الدينِ علىٰ المَوْصلِ خرَجَ إليه ابنُ أخيه، فَوقَفَ بينَ يدَيْه فأكْرَمَه وأحْسَنَ إليه، وألْبسَه خلعَةً جَاءَتْه من الخليفةِ، فدخَلَ بها إلىٰ البلدِ في أُبَّهَةٍ عظِيمَةٍ، ولم يدَخُلْ نورُ الدينِ المَوْصلَ حتىٰ قَوِيَ الشِّتَاءُ، فأقامَ بها، كما ذكَرْنَا، أربعَةً وعشرِينَ يومًا، فلمَّا كانتْ آخرُ ليلةٍ أقامَ بها رأَىٰ رسول الله في المَنَامِ يقول له: «**طابَتْ لك بلدُكَ وتَركْتَ الجهادَ وقتالَ أعْدَاء اللَّه!**». فَنَهَضَ مِن فَوْرِه إلىٰ السَّفَرِ، ومَا أصْبَحَ إلا وهو سَائِرٌ إلىٰ الشَّامِ، واسْتَقْضَىٰ الشيخَ شرَفَ الدينِ بنَ أبي عَصْرونَ وكان معه علىٰ سِنجَارَ ونَصِيبِينَ والخابُورِ، فاستَنَابَ بها ابنُ أبي عَصْرونَ نُوَّابًا وأصْحَابًا.

وفيها: عَزَلَ المَلِكُ صلاحُ الدينِ يوسفُ قضاةَ مِصْرَ لأنَّهم كانُوا شيعَةً، ووَلَّىٰ قَضَاءَ القُضَاةِ لصَدْرِ الدينِ عبدِ الملكِ بنِ دِرْباسٍ المَارانِيِّ الشَّافِعِيِّ، واسْتَنَابَ في سائِرِ الأعْمَالِ الشَّافِعِيَّةِ، وبَنَىٰ مَدْرَسَةً للشَّافِعِيِّةِ، وأُخْرَىٰ للمالكيَّةِ. واشْتَرَىٰ ابنُ أخيه تَقِيُّ الدينِ عمرُ بنُ شَاهِنْشَاه دارًا كانت تُعْرَفُ بمَنَازِلِ العِزِّ، وجعَلَها مَدْرَسَةً للشَّافِعِيِّةِ، وأوْقَفَ عليها الرَّوْضَةَ وغَيْرَها.

وعَمَّرَ المَلِكُ صلاحُ الدينِ أسْوَار البَلَدِ، وكذلك أسْوَار إسْكَنْدَرِيَّة، وأحْسَنَ إلىٰ الرَّعَايَا إحْسَانًا كثيرًا، ورَكِبَ فَأغَارَ علىٰ بلادِ الفِرنْجِ بنَواحِي عَسْقَلانَ وغَزَّةَ، وخَرَّبَ قَلعةً كانت لهم علىٰ أيْلَةَ، وقَتلَ خلْقًا كَثيرًا مِن مُقَاتِلَتِهم. وتَلقَّىٰ أهلَه وهم وَارِدُونَ مِن الشامِ، واجْتَمَعَ شَمْلُه بهم بعدَ فُرْقَةٍ طَوِيلَةٍ.

وفيها: قَطَعَ صلاحُ الدينِ الأذانَ بـ«حَيَّ علىٰ خَيرِ العَمَلِ» مِن دِيارَ مِصْر كلِّها، وشَرَعَ في تَمْهِيدِ الخُطْبَةِ لبِنِي العبَّاسِ علىٰ المَنَابِرِ.

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعيان:

طاهرُ بنُ محمد بن طاهر أبو زُرْعَةَ المَقْدِسيُّ الأصلِ، الرَّازيُّ المولدِ، الهَمَذانيُّ الدار، وُلِدَ سَنَةَ إحْدَىٰ وثمانينَ وأربعمائةٍ، وأسْمَعَهُ والدُه الحافظُ محمدُ بن طاهر الكبيرُ، ومِمَّا كان يَرْويه «مُسْنَدُ الشافعيِّ»، وكانت وفاتُه بهَمَذانَ يومَ الأربعاء، سابعَ ربيعٍ الآخرِ، وقد قاربَ التِّسْعينَ.

يوسُفُ القاضي، أبو الحَجَّاجِ بن الخَلَّالِ، صاحبُ ديوان الإنشاء بالدِّيارِ المصريَّة، وهو شيخُ القاضي الفاضلِ في هذا الفنِّ، اشتغلَ عليه فيه، وبرعَ حتى قُدِّرَ أنَّه صارَ مكانَه حينَ ضعُفَ الشيخُ عن القيامِ بأعباءِ الوظيفةِ لكِبَرِه، فكانَ القاضي الفاضلُ يقُومُ به وبأهلِه حتى ماتَ، ثم كانَ كثيرَ الإحسانِ إلى أهلِه، رحمهم اللهُ.

يوسُفُ الخليفةُ المُسْتَنْجِد باللهِ بن المُقْتفي بن المُستظهِر، تقدَّمَ ذكرُ وفاته وترجمته في الحوادث، وقد تُوُفِّيَ بعدَه عمُّه أبو نَصْرٍ بنُ المُستظهِرِ بأشهُرٍ، ولم يَبْقَ بعدَه أحدٌ من ولدِ المُستظهِرِ، وكانت وفاتُه يومَ الثلاثاءِ الثامنَ والعشرينَ من ذي القَعْدَةِ.

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

فيها كانت وفاةُ العاضد. في أوَّلِ جُمُعةٍ منها أمرَ المَلِكُ صلاحُ الدينِ بإقامةِ الخُطْبةِ لبني العبَّاسِ بمصْرَ، وفي الجُمُعة الثانيةِ بالقاهرةِ، وكان ذلك يومًا مشهودًا، ولمَّا انتهَى الخبرُ إلى المَلِكِ نورِ الدينِ بالشامِ أرسلَ إلى الخليفةِ يُعلِمُه مع ابنِ أبي عَصْرُونَ وهو شهابُ الدينِ أبو المعالي المُطَهَّرُ، فزُيِّنَتْ بغدادُ، وغُلِّقَتِ الأسواقُ، وعُمِلَتِ القِبابُ، وفرِحَ المسلمون فرحًا شديدًا، وكانت الخُطْبةُ قد قُطِعَتْ من ديارِ مصرَ سنةَ تسعٍ وخمسينَ وثلاثمائةٍ في خلافةِ المُطيعِ العبَّاسيِّ، حينَ تغلَّبَ الفاطميُّونَ عليها أيامَ المُعِزِّ الفاطميِّ، باني القاهرةِ، إلى هذا الأوانِ، وذلك مائتا سنةٍ وثماني سنينَ.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: وقد ألَّفتُ في ذلك كتابًا سمَّيتُه «النَّصْرَ على مصرَ».

موت العاضد آخر خلفاء العُبَيْديين

والعاضدُ في اللُّغةِ القاطعُ: «لا يُعْضَدُ شجرُها» فبه قُطِعَتْ دولتُهم، واسمُه عبدُ اللهِ، ويُكنَى بأبي محمدٍ بن يوسفَ الحافظِ بنِ محمدِ بنِ المُستنصرِ بنِ الظاهرِ بنِ الحاكمِ بنِ العزيزِ بنِ المُعِزِّ بنِ المنصورِ بنِ القائمِ بنِ المَهْديِّ أوَّلِ مُلوكِهم، كان مَوْلدُ العاضدِ في سنةِ ستٍّ وأربعينَ، فعاشَ إحْدَىٰ وعشرينَ سنةً، وكانت سيرتُه مذمومةً، وكان شيعيًّا خبيثًا، لو أمكَنَه قتلَ كلَّ مَن قدَرَ عليه من أهلِ السُّنَّةِ، واتَّفقَ أنَّه لمَّا استقَرَّ أمرُ المَلِكِ صلاحِ الدينِ رسَمَ بالخُطْبةِ لبني العبَّاسِ عن مرسومِ الملكِ نورِ الدينِ له بذلك؛ لمُعاتبةِ الخليفةِ المُستنجدِ إيَّاه قبلَ وفاتِه، وكان المُستنجدُ إذ ذاك مُدْنَفًا مريضًا، فلمَّا ماتَ تولَّى بعدَه ولدُه، فكانت الخُطْبةُ بمصرَ له، ثم إنَّ العاضدَ مرضَ، فكانت وفاتُه في يومِ عاشوراءَ، فحضرَ

المَلكُ صلاحُ الدينِ جنازَتَه، وشَهِدَ عزاءَه، وبَكَىٰ عليه وتأسَّفَ، وظَهرَ منه حُزْنٌ، وقد كان له مُطيعًا فيما يأمُرُه به، وكان العاضِدُ كَريمًا جَوَادًا مُمَدَّحًا، سامَحَه اللَّهُ تعالىٰ. ولَمَّا ماتَ اسْتَحْوَذَ المَلِكُ صلاحُ الدينِ علىٰ القَصْرِ بما فيه، وأخْرَجَ منه أهلَ العَاضِدِ إلىٰ دارٍ أفْرَدَها لهم، وأجْرَىٰ عليهم النَّفَقَات والأرزَاقَ الهَنِيَّةَ، والعِيشَةَ الرَّضِيَّةَ، عِوَضًا عمَّا فاتَهم مِن الخلافَةِ، وكان يتَنَدَّمُ علىٰ إقامَةِ الخُطْبَةِ لبَنِي العبَّاسِ بمصرَ قبلَ وَفَاته، وهلاَّ صَبَرَ بها إلىٰ بعدِ مَمَاتِه، ولكن كان ذلك قَدَرًا مَقْدُورًا، وفي الكتابِ مَسْطُورًا، ومِمَّا نظَمَه العِمَادُ الكَاتِبُ في ذلك:

تُوُفِّي العَاضِدُ الدَّعيُّ فَما ... يفتَحُ ذو بدْعَةٍ بمصْرَ فَمَا

وعَصْرُ فرعَونِها انقَضَى وغَدَا ... يُوسُفُها في الأُمُورِ مُحْتَكِما

وانطفأتْ جَمْرَةُ الغُواة وقد ... باخَ مِن الشِّرْكِ كلُّ ما اضْطرَما

وصارَ شَمْلُ الصَّلاحِ مُلْتَئِمًا ... بها وعقْدُ السَّداد مُنْتَظِما

لَمَّا غَدَا معلنًا شعَارُ بني الـ ... ـعَبَّاسِ حقًّا والباطلُ اكتَتما

وباتَ داعي التَّوحيد مُنْتَصرًا ... ومِن دُعَاة الإشْرَاك مُنْتَقِمَا

وظَلَّ أهلُ الضلال في ظُلَلٍ ... داجيَةٍ من غَيَابَة وعَمَى

وارتَبَك الجَاهلُونَ في ظُلَمٍ ... لَمَّا أضَاءتْ منابرُ العَلَمَا

وعَادَ بالمُسْتَضِيءِ مُمْتَهِدًا ... بنَاءُ حَقٍّ قد كان مُنْهَدِما

واعتَلَت الدولَةُ التي اضْطَهَدَتْ ... وانتَصَرَ الدينُ بعدَما اهْتُضِمَا

واهتزَّ عطفُ الإسْلام من جَذَلٍ ... وافتَرَّ ثغرُ الاسْلامِ وابتَسَما

واستَبْشَرَتْ أوجُه الهُدَى فَرَحًا ... فليَقْرَعِ الكُفرُ سنَّه نَدَمَا

عادَ حَرِيمُ الإعْدَاء مُنْتَهَكَ الْـ ... ـحِمَى وفيءُ الطُّغَاة مُقْتَسَمَا

قُصُورُ أهلِ القُصورِ أخْرَبَها ... عَامِرُ بيت من الكَمَال سَمَا

أزْعَجَ بعدَ السُّكُونِ ساكِنَها ... ومَاتَ ذُلاًّ وأنفُه رَغِمَا

ومِمَّا قِيلَ من الشِّعْرِ ببَغْدَادَ يُبَشَّرُ به الخليفَةُ المُسْتَضِيءُ بأمْرِ اللَّهِ بالخطْبَةِ له بمِصْرَ:

ليهنكَ يا مَولاي فَتْحٌ تتَابَعَتْ ... إليكَ به خوصُ الرَّكَائب تُوجفُ

أخَذت به مصْرًا وقد حالَ دونَها ... من الشِّرْكِ بأسٌ في لَهَى الحَقِّ يُقْذُفُ

فعادتْ بحَمْد اللَّه باسمِ إمَامِنا ... تَتيه على كُلِّ البلادِ وتشْرُفُ

ولا غَرْوَ أنْ ذَلَّتْ ليُوسُفَ مِصْرُهُ ... وكانت إلى عَلْيَائه تَتَشَوَّفُ

تَمَلَّكَهَا من قَبْضَة الكُفْرِ يوسُفٌ ... وخَلَّصَها من عُصْبَةَ الرَّفْضِ يُوسُفُ

يُشابِهُهُ خَلقًا وخُلُقًا وعِفَّةً ... وكلٌّ عن الرَّحمنِ في الأرْضِ يَخْلُفُ

كَشَفْتَ بها عن آلِ هاشمٍ سُبَّةً ... وعارًا أبَى إلا بِسَيْفِكَ يُكْشَفُ

وقد ذكَرَها الشيخُ شِهاب الدينِ أبو شامَةَ في الرَّوْضَتَيْنِ، وهي أطْولُ مِن هذه، وذكَرَ أنَّ أبا الفَضائلِ الحُسَينَ بنَ مُحمدِ بنِ تُرْكَانَ حاجبَ ابنِ هُبَيْرَةَ أنْشَدَها للخليفةِ المستنجدِ قبل موته عند تأويل مَنَامٍ رآه بعضُ الناس للخَليفةِ في هذا المعنَىٰ، وأراد بيُوسُفَ الثاني الخليفةَ المستنجدَ، وهكذا ذكَر هذه القصيدةَ في حياةِ المُستَنْجدِ ابنُ الجوزيِّ وغيرُه، ولم يخْطَب إلاَّ لولَدِه المُسْتَضِيء، فجرَىٰ المقالُ باسْم الملكِ الناصر صلاحِ الدينِ يُوسُفَ بنِ أيُّوبَ، رحِمَه اللَّهُ، وقد أرسَل الخليفةُ المسْتَضِيءُ بأمر اللَّه إلىٰ الملكِ نُور الدينِ خِلْعَةً سَنيَّةً سُنِّيَّةً، وكذلك للملكِ صلاحِ الدينِ إلىٰ الديارِ المصريَّةِ ومعها أعلامٌ سُودٌ، ولواءٌ معْقُودٌ، ففُرِّقَت علىٰ الجوامعِ بالشامِ وبلادِ مصْرَ، فللَّه الحَمْدُ علىٰ ما منَحَ مِن العزِّ والنَّصْرِ. قال ابنُ أبي طيٍّ في «كتابه»: ولمَّا تفرَّغَ الملكُ صلاحُ الدينِ الملكُ الناصرُ مِن توْطيدِ المملكَةِ وإقامَةِ الخُطْبةِ العبّاسيَّةِ والتعْزِيةِ بانقضاءِ الدَّولةِ العُبَيْديّةِ الزَّاعِمةِ أنَّها فاطِميَّةٌ، استَعرض حواصِلَ القصْرَيْنِ، فوجَدَ فيهما مِنَ الحواصِلِ والأمتعةِ والآلاتِ والثيابِ والملابسِ والمَفارشِ شيئًا باهرًا، وأمْرًا هائلاً، فمن ذلك سَبْعُمائَةِ يتيمَةٍ من الجواهرِ، وقَضِيبُ زُمُرُّدٍ طولُه أكثرُ من شِبْرٍ وسُمْكُه نحوُ الإبهامِ، وحبْلٌ مِن ياقُوتٍ، ووُجِد فيه إبْريقٌ عظيمٌ مِنَ الحجَرِ المانعِ، وطَبْلٌ للقولَنْجِ إذا ضرَب عليه أحَدٌ يحصلُ له خروجُ ريحٍ مِن دُبُرِه، ينْصَرِفُ عنه ما يجدُه مِن القوْلَنْجِ، فاتَّفَق أنَّ بعضَ أمراءِ الأكْرادِ أخَذه في يَدِه، ولم يَدْرِ ما شأنُه، فلمَّا ضرَب عليه حبَق فألْقاه مِن يَده علىٰ الأرضِ فكسَره فبَطَلَ أمْرُه. وأمَّا القضيبُ فإنَّ السُّلْطَانَ كسَره ثلاثَ فِلَقٍ فقسَمه بينَ نسائه، وقسَم بين الأمراءِ شيئًا كثيرًا من قِطَعِ البَلخشِ والياقوتِ والذَّهَبِ والأثاثِ، وغيرِ ذلك، واستمرَّ البيعُ فيما كان هُنالكَ مِن الأثاثِ والأمتعةِ نحْوًا مِن عَشْرِ سنينَ، وأرسَل إلىٰ الخليفةِ ببَغدادَ هدايَا عَظيمةً سَنيَّةً، وكذلكَ إلىٰ الملكِ نُور الدينِ، أرسَل جانبًا كبيرًا صالحًا، وكان لا يدَّخِرُ لنفْسِه شيئًا ممَّا يحصُلُ له من الأموالِ والغَنائمِ، بل يُعْطِي ذلك كلَّه لمن حولَه مِن الأمراءِ والوزراءِ والملوكِ والأصحابِ، رحِمَه اللَّهُ، وكان ممَّا أرسَلَه إلىٰ نورِ الدين ثلاثُ قِطَعِ بَلخَشٍ زنَةُ الواحدَةِ أحَدٌ وثلاثُون مِثْقالاً، والأخْرَىٰ ثمانِيَةَ عشَرَ مِثْقالاً، والثالثةُ دونَهما، مع لآلِئ كثيرةٍ، وستُّونَ ألفَ دينارٍ، وعِطرٌ لم يُسْمَعْ بمثْلِه، ومِن ذلك حمارَةٌ عتَّابيَّةٌ وفيلٌ عظيمٌ جدًّا، فأُرْسِلَتِ الحمارةُ إلىٰ الخليفةِ في جملةِ هدايا وتُحَفٍ هَائلةٍ. قال ابنُ أبي طيٍّ: ووجَد خِزَانةَ كتُبٍ ليسَ في مَدائنِ الإسلام لها نظيرٌ، تشتمِلُ علىٰ نحوِ ألْفَيْ ألفِ مجلدٍ، قال: ومِن عجائب ذلك أنَّه كان بها ألْفٌ ومائَتانِ وعشرونَ نسْخَةً مِن تاريخِ الطَّبَرِيِّ. كذا قال العمادُ الكاتبُ: كانت الكُتُبُ قريبةً مِن مائةٍ وعشْرِينَ ألفَ مجلَّدٍ، وقال ابنُ الأثيرِ: كان فيها من الكتبِ بالخطوطِ المنسوبَةِ مائةُ ألفِ مجلَّدٍ، وقد تسلَّمها القاضي الفاضلُ، فأخَذ منها شيئًا كثيرًا ممَّا اخْتارَه وانتَخَبَه، قال: وقسَمَ القَصْرَ الشماليَّ بينَ الأمراءِ فسكَنوه، وأسكَنَ أباه نجَمَ الدينِ أيُّوبَ في قصرٍ عظيمٍ علىٰ الخليجِ، يقالُ له: اللُّؤْلُؤَةُ، الذي فيه بُسْتَانُ الكافُورِيِّ، وسكَن أكْثرُ الأمراءِ في دُورِ مَنْ كان ينتَمِي إلىٰ الفاطميِّينَ، لا يَلْقَىٰ أحدٌ مِن الأتْراكِ أحدًا مِن أولئكِ الذين كانُوا بها إلاَّ شَلَّحُوا ثيابَه، ونهَبُوا دارَه، حتىٰ تمزَّقَ

كثيرٌ منهم في البلاد، وتفرَّقُوا شَذَرَ مَذَرَ، وصارُوا أيادِيَ سَبَا. وقد كانت مدةُ مُلك الفاطميِّينَ مائتَيْنِ وثمانينَ سنةً وكَسْرًا، فصارُوا كأمْسِ الذَّاهبِ وكأنْ لم يَغْنَوا فيها، وكانَ أوَّلُ مَن ملكَ منهم المَهديَّ، وكان من أهلِ سَلَمِيَّةَ حدَّادًا، اسمُه سَعيدٌ، وكان يهُوديًّا، فدخَل بلادَ المغرب وتسمَّى بعُبَيْد اللَّه، وادَّعَى أنَّه شريفٌ علَويٌّ فاطميٌّ، وقال: إنَّه المَهْديُّ، وقد ذكَر هذا غيرُ واحدٍ من ساداتِ العُلَماءِ الكُبَراء كالقاضي أبي بَكْرٍ الباقلَّانيِّ والشيخِ أبي حَامدٍ الإسفرايينيِّ وغيرِ واحدٍ من سَاداتِ الأئمة بعدَ الأرْبَعمائة، كما بَسَطْنا ذلك فيما تقدَّمَ، والمقصودُ أنَّ هذا الدَّعِيَّ المُدَّعِيَ الكذَّابَ راجَ له ما افتَراه في تلك البلاد، ووازَرَه جماعةٌ من جَهَلَة العُبَّاد، وصارت له دولةٌ وصوْلةٌ فتمكنَ إلى أنْ بَنَى مدينةً سمَّاهَا المهديَّةَ نسبةً إليه، وصارَ مَلِكًا مُطاعًا، يُظْهرُ الرَّفضَ وينْطَوِي على الكفرِ المحْضِ.

ثم كان من بعده ابنُه القائمُ، ثم المنصورُ، ثم المُعِزُّ - وهو أوَّلُ مَن دخَل مِصْرَ منهم، وبُنِيَتْ له القاهرةُ - ثم العَزِيزُ، ثم الحاكمُ، ثم الظاهرُ، ثم المُسْتَنْصِرُ، ثم المُسْتَعْلِيُّ، ثم الآمرُ، ثم الحافظُ، ثم الظافرُ، ثم الفائزُ، ثم العاضدُ وهو آخرُهم، فجمْلَتُهم أربعَةَ عشرَ مَلكًا، ومدَّتُهم مائتان ونَيِّفٌ وثمانونَ سنةً، وكذلك عِدَّةُ خُلَفاء بني أميَّةَ أربعَةَ عشرَ أيضًا، ولكن كانتْ مدتُهم نَيِّفًا وتسعين سنةً، وقد نظَمتُ أسماءَ هؤلاء بأرجوزة تابعة لأرجوزة بني العبَّاسِ عندَ انقضاء دولتِهم ببغدادَ في سنة ستٍّ وخمسين وستِّمائة، كما سيأتي، وقد كان الفاطميُّون أغنَى الخُلفاء وأكثرَهم مالاً، وكانوا من أعتَى الخُلفاء وأجبرِهم وأظلمهم، وأنجسِ المُلوك سيرةً، وأخْبثِهم سريرةً، ظهَرَت في دولَتهمُ البدَعُ والمُنْكَراتُ وكَثُرَ أهلُ الفساد، وقلَّ عندَهم الصالحون من العلماء والعُبَّاد، وكثُرَ بأرضِ الشام النُّصَيْريَّةُ، والدَّرْزيةُ والحُشيشيَّةُ، وتغلَّب الفرنْجُ على سواحلِ الشام بكماله، حتى أخَذُوا القُدْسَ الشَّريفَ ونابُلُسَ وعَجْلُونَ والغَوْرَ وبلادَ غَزَّةَ وعسقلانَ وكرَكَ الشَّوبَك وطَبَرِيَّةَ وبانياسَ وصُورَ وعَثليثَ وصَيْدَا وبَيْرُوتَ وعكَّا وصَفَدَ وطَرَابُلُسَ وأنطاكيَةَ جميعَ ما وَالَى ذلك، إلى بلاد آيَاسَ وسِيسَ، واستحوَذوا على بلاد آمد والرُّهَا ورأسِ العين وبلادٍ شتَّى، وقتَلُوا خَلقًا لا يعلَمُهم إلاَّ اللَّهُ، وسَبَوْا من ذَرَاريِّ المسلمين من النساء والوِلْدان ما لا يُحَدُّ ولا يوصَفُ، وكادُوا أنْ يتَغَلَّبوا على دمَشْقَ، ولكن صانَها اللَّهُ بعنايته وسلَّمها برعَايته، وحينَ زالتْ أيامُهم وانتقَضَ إبرامُهم أعادَ اللَّهُ هذه البلادَ كُلَّها على أهلِها من السَّادة المسلمينَ، وردَّ اللَّهُ الكفَرةَ خائبين، وأرْكَسَهُم بما كَسَبُوا في هذه الدنيا ويومَ الدينِ، وقد قال حسانُ الشاعرُ المدعُوُّ بعَرْقَلَةَ:

أصبَحَ المُلكُ بعدَ آل عليٍّ	مُشْرقًا بالملوك من آل شاذي
وغَدا الشرقُ يحْسُدُ الغربَ للقو	م ومِصْرٌ تزْهُو على بغْداذ
مَا حَوَوْها إلاَّ بحَزمٍ وعَزمٍ	وصَليلِ الفُولاذِ في الفُولاذِ
لا كَفِرْعَونَ والعزيزِ ومَن كا	نَ بها كالخَصيبِ والأسْتاذِ

قال الشيخُ شهابُ الدين أبو شامةَ، رحمه اللَّهُ: يعني بالأستاذ كافورَ الإخشيديَّ، وقوله بعدَ: آلَ عليٍّ. يعني الفاطميِّين، ولم يكونُوا فاطميينَ، وإنَّما كانوا أدعياءَ يُنْسَبُونَ إلى عُبَيْدٍ، وكان اسمُه سعيداً، وكان يهوديًّا حداداً بسَلَمْيَةَ، ثم ذكَر ما ذكَرنا من كلامِ الأئمة فيهم وطَعنهم في نسبِهم. قال: وقد استَقْصَيْتُ الكلامَ في ذلك في مختَصرِ تاريخِ دِمَشقَ في ترجمةِ عبد الرحيم بنِ إلياسَ، ثم ذكَرَ في «الروْضتَيْن» في هذا الموضعِ أشياءَ كثيرةً من قبائحهم، وما كانوا يجْهَرُونَ به في بعضِ الأحيانِ مِن الكُفْرِيّاتِ والمصَائبِ المعُظَّماتِ، لعَنهم اللَّهُ. وقد ذكَرتُ أنا أشياءَ كثيرةً في عُبُونِ ما مشقَتُه من سيرتِهم في السنين المتقدِّمة ممَّا يسدُّ الأسْماعَ، ويُنفِّرُ الطِّباعَ. قال أبو شامةَ: وقد أفرَدْتُ كتابًا سمَّيْتُه «كشْفَ ما كانَ عليه بنو عُبَيْدٍ مِنَ الكُفْرِ والكَذبِ والمكْرِ والكَيْدِ». وكذا صنَّفَ العلماءُ في الردِّ عليهم كتُبًا كثيرةً، مِن أجَلِّ ما وُضِعَ في ذلك كتابُ القاضي أبي بكرٍ البَاقلاَّنيِّ، الذي سمَّاه «كَشْفَ الأسْرَارِ وهَتْكَ الأسْتارِ». وما أحْسَنَ ما قالَه بعضُ الشعراءِ في بني أيُّوبَ يمدَحهم على ما فعلُوه بديارِ مصْرَ:

ألَسْتُم مُزيلي دولةِ الكُفْرِ من بني	عُبَيْدٍ بمصْرَ إنَّ هذا هو الفَضْلُ
زَنادقَةٌ شِيعيَّةٌ باطنِيَّةٌ	مَجُوسٌ وما في الصالحينَ لهم أصْلُ
يُسِرُّونَ كُفْراً يُظْهِرونَ تَشَيُّعًا	ليَستَتِروا شيئًا وعَمَّهمُ الجَهْلُ

وفي هذه السنة أسْقَط الملكُ صلاحُ الدين عن أهلِ مصْرَ المُكوسَ والضرائبَ، وقُرِئَ المنشُورُ بذلك على رُءوسِ الأشْهادِ يومَ الجُمُعة بعدَ الصلاةِ ثالثَ صَفَر. وفيها حصَلَتْ نُفْرةٌ بينَ الملكِ نورِ الدينِ والملكِ الناصرِ صلاحِ الدينِ، وذلك أنَّ الملكَ نورَ الدينِ غَزَا في هذه السنةِ بلادَ الفرنجِ في السواحلِ، فأحلَّ بهم بأسًا شديداً، وقرَّرَ في أنفسهم منه نقمةً ووعيداً، ثم عزَم على محاصرةِ الكركِ وكتبَ إلى صلاحِ الدينِ أن يلتقيَه بالعساكرِ المصرية إلى بلادِ الكرك؛ ليجتمعا هنالك على المصالحِ فيما يعود نفعُه على المسلمينَ، فتوهَّمَ من ذلك الملكُ صلاحُ الدينِ، وخافَ أنْ يكونَ لهذا الأمرِ غائلةٌ يزولُ بها ما حصَل له مِن التمكينِ، ولكنَّه مع ذلك ركِبَ في جيْشِه من الديارِ المصريّةِ ليقصدَ امتثالَ المرْسُومِ، فسارَ أيامًا، ثم كرَّ راجعًا مُعْتَلاً بقلَّةِ الظَّهْرِ، والخوف على اختلالِ الأمورِ إذا بعُد عن مصرَ واشْتَغَل عنها، وأرسَل يعتذرُ بذلك إلى السُّلْطانِ الملكِ العادلِ نورِ الدينِ، فوقَعَ في نفْسه منه، واشتدَّ غَضبُه عليه، وعزَم على الدخولِ إلى الديارِ المصريّةِ وانتزاعِها من صلاحِ الدينِ وتوْليةِ غيرِه فيها، ولمَّا بلَغ هذا الخبرُ صلاحَ الدينِ ضاقَ بذلك ذَرْعُه، وذكَره بحَضْرةِ الأمراءِ والكبراءِ، فبادَر ابنُ أخيه تقيُّ الدينِ عمرُ فقال: واللَّهِ لو قصَدَنا نورُ الدينِ لنُقاتلَنه، فشَتَمَه الأميرُ نجمُ الدينِ أيُّوبُ والدُ الملكِ صلاحِ الدينِ وأسْكتَه، ثم قال لابنه: اسمَعْ ما أقولُ لكَ، واللَّهِ ما هَهُنا أحدٌ أشْفَقُ عليْك منِّي ومِن خالِكَ هذا - يعني شِهَابَ الدينِ الحارميَّ - ولو رأيْنَا الملكَ نورَ الدينِ لبادَرْنا إليه، ولقبَّلْنا الأرضَ بينَ يدَيْه، وكذلك بقيةُ هؤلاءِ الأمَراءِ، ولو كتَب إليَّ أنْ أبْعثَكَ مع نجَّابٍ لفعَلْتُ، ثم أمَر مَنْ هُنالكَ بالانْصرافِ والذَّهابِ، فلمَّا خلا بابنِه قال له: أمَا لكَ عَقْلٌ؟ تذْكُرُ مثْلَ هذا بحَضْرةِ هؤلاءِ، فيقولُ عمرُ مثْلَ هذا

الكلام، فتُقرُّه عليه، فلا يبقَى عندَ نُورِ الدينِ أهمُّ مِن قصدِك وقتالِك ولو قد رآه هؤلاءِ لم يبقَ معك منهم أحدٌ، ولكن ابعثْ إليه، وترفَّقْ له، وتواضعْ عندَه، وقلْ له: وأيُّ حاجةٍ إلى مجيءِ مولانا؟ ابعثْ إلى نجَّابٍ حتَّى أجيءَ معه إلى بينِ يديك فلمَّا سمعَ نورُ الدينِ مثلَ هذا لانَ قلبُه، وانصرفَتْ همَّتُه عنه، واشتغَل بغيرِه، وكان أمرُ اللَّهِ قدرًا مقدُورًا.

وفيها: اتَّخَذ نورُ الدينِ الحمَامَ الهَوادِيَ، وذلك لامتدادِ مملكتِه واتِّساعِها؛ فإنَّه ملَك مِن حدِّ النُّوبةِ إلى همَذانَ، لا يتخلَّلُها إلا بلادُ الفرنْجِ، لعَنهم اللَّهُ، وكلُّهم تحتَ قَهْرِه وهُدْنَتِه، فلذلك اتَّخَذ في كلِّ قلعةٍ وحصْنٍ الحمامَ التي تحملُ الرسائلَ إلى الآفاقِ في أسرعِ مدةٍ، وأيسرِ عُدَّةٍ، وما أحسنَ ما قال فيهنَّ القاضي الفاضلُ: الحَمامُ ملائكةُ الملوكِ. وقد أطْنَبَ في ذلك العمادُ الكاتبُ، وأطْرَبَ وأعْجَبَ وأغْرَبَ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

عبدُ اللَّهِ بنُ أحمدَ بن أحمدَ، أبو محمد بنُ الخشَّاب، قرأ القرآنَ، وسمع الحديثَ، واشتغَل بالنَّحوِ واللُّغةِ حتى سادَ أهلَ زمانِه فيهما، وشرَح «الجُمَل» لعبدِ القاهرِ الجُرْجانيِّ، وكان رجلاً صالحًا متطوِّعًا، وكانت وفاتُه في شعبانَ من هذه السنةِ، ودُفِن قريبًا مِن الإمامِ أحمدَ، ورُئِيَ في المنامِ فقيل له: ما فعَل اللَّهُ بك؟ فقال: غفَر لي، وأدْخلَني الجنةَ، إلا أنَّه أعرَض عنِّي وعن جماعةٍ مِن العلماءِ تركُوا العمَلَ.

قال القاضي ابنُ خَلِّكانَ: كان مُطَّرِحَ الكُلْفةِ في مأكلِه وملْبَسِه، رحمه اللَّهُ تعالى.

محمدُ بنُ محمد بن محمد، أبو المُظَفَّرِ البَرَوِيُّ، تفقَّه على محمدِ بنِ يحيى تلميذِ الغَزَّاليِّ، وناظَر ووعَظَ ببغدادَ، وكان يُظْهِرُ مذهبَ الأشعَرِيِّ، ويتكلَّمُ في الحنابلةِ، ومات في رمضانَ منها.

ناصرُ بنُ الخُوَيِّي الصُّوفيُّ كان يَمْشي في طلبِ الحديثِ حافيًا، تُوفِّي ببغدادَ، رحمه اللَّهُ تعالى.

قال الشيخُ شهابُ الدينِ أبو شامةَ: وفيها تُوفِّي **نَصرُ اللَّهِ بنُ عبدِ اللَّهِ، أبو الفتُوحِ الإسْكَنْدَرِيُّ** المعروفُ بابنِ قَلاقِسَ الشاعرُ، بعَيْذابَ عن خمسٍ وثلاثين سنةً.

والشيخُ أبو بكرٍ يحيى بنُ سَعْدُون القُرْطُبيُّ، نزيلُ المَوْصِلِ المُقْرِئُ النحْويُّ، رحمه اللَّهُ.

قال: وفيها وُلِدَ العزيزُ والظاهرُ ابْنا صلاحِ الدينِ، والمنصورُ محمدُ بنُ تقيِّ الدينِ عمرَ.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

فيها: أرسَل الملكُ نورُ الدينِ إلى الملكِ صلاحِ الدينِ، المُوَفَّقَ خالدَ بنَ القَيْسرانيِّ؛ ليُقِيمَ له حسابَ الديارِ المصريَّةِ، ولأنَّه استقلَّ الهَدِيَّةَ التي أرسَلَ إليه مِن خزائنِ العاضدِ. ومقصودُه أنْ يقرِّرَ على الديارِ المصريةِ خَراجًا يُحملُ إليه في كلِّ عامٍ.

وفيها: حاصَر الملكُ صلاحُ الدينِ الكَرَكَ والشَّوْبَكَ، فضَيَّقَ على ساكنِيها، وخرَّبَ أماكنَ كثيرةً مِن معاملاتِها، ولكن لم يظْفَرْ بها عامَه ذلك.

وفيها: اجْتمعَتِ الفرنجُ بالشامِ لقَصْدِ مدينةِ زُرْعَ، فوصلُوا إلى سمكينَ، فبرزَ إليهم نورُ الدينِ، فهربُوا منه إلى الفوارِ، ثم إلى السَّوادِ، ثم إلى الشلالة، فبعثَ سريةً إلى طَبَريَّةَ، فعاثُوا هناكَ وسَبَوْا وقتلَوا وغنمُوا وعادُوا وقد سلَّمهمُ اللَّهُ، ورجَعتْ الفرنجُ خائبين، لعَنهمُ اللَّهُ أجمعين، وقد امتدَحه العمادُ الكاتبُ بقصيدةٍ في هذه الغزوة.

فتحُ بلادِ النوبةِ

وفيها: أرسَل الملكُ صلاحُ الدينِ أخاه شمسَ الدولة تُورانْشاه إلى بلاد النوبة فافْتَتَحَها، واستحوذَ على معْقلِها، وهو حِصْنٌ يقالُ له: إبْرِيمُ. ولمَّا رآها بلدًا قليلةَ الجدْوَى لا يَفِي خَرْجُها بكُلْفَتِها، استخلَف على الحِصْنِ المذْكُورِ رجلاً من الأكْرادِ يقالُ له: إبراهيمُ. فجعلَه مقدَّمًا مُقرًا بحِصْنِ إبْرِيمَ، وانْضافَ إليه جماعةٌ من الأكرادِ البَطَّالِينَ، فكثُرتْ أموالُهم، وحسُنَتْ حالُهم هُنالك، وشنُّوا الغاراتِ، وحصَّلُوا على الغنائمِ والمسراتِ، وللَّهِ الحمدُ الذي بنعمته تتمُّ الصالحاتُ.

وفيها: كانت وفاةُ الأميرِ نَجْمِ الدينِ أيُّوبَ والدِ الملكِ صلاحِ الدينِ، سقَطَ عن فرَسِه فماتَ، وستأْتي ترجمتُه في الوفيات، إن شاء اللَّهُ.

وفيها: سارَ الملكُ نورُ الدينِ إلى بلادِ عزِّ الدينِ قِلجَ أرْسَلان بنِ مسعودِ بنِ قِلجَ أرْسَلان بنِ سُلَيْمانَ السَّلجوقيِّ، ملكِ الرومِ، وافتقَد في طريقه بلادَه، وأصْلَح ما وجَده فيها من الخَلَلِ. ثم سارَ فافْتَتَحَ مَرْعَشَ وبَهْسَنَا، وعمِل في كلٍّ منهما بالحُسْنَى.

قال العمادُ الكاتبُ: وفي هذه السنة وصَل الفقيهُ الإمامُ الكبيرُ قُطبُ الدينِ النَّيْسَابُورِيُّ، وهو فقيهُ عصْرِه ونَسِيجُ وحْدِه، فسُرَّ به نورُ الدينِ وأنْزَله بحَلَبَ بمدرسةِ بابِ العراقِ، ثم أطلَعه إلى دمشقَ، فدرَّسَ بزاويةِ الجامعِ الغربيَّةِ المعْروفةِ بالشيخِ نَصْرٍ المَقْدسيِّ، ونزَل بمدرسةِ الجاروخية، وشرَعَ نُورُ الدينِ في إنشاءِ مدرسةٍ كبيرةٍ للشافعيَّةِ، فأدْرَكَه الأجلُ قبلَ ذلك.

قال أبو شامَةَ: هي العادليَّةُ الكبيرَةُ التي عمَّرَها بعدَه الملكُ العادلُ أبو بَكْرِ بنُ أيُّوبَ.

وفيها: عادَ شهابُ الدينِ بنُ أبي عَصْرُونَ من بَغْدادَ حين سارَ بالهناءِ بالخُطْبَةِ العباسيَّةِ بالديارِ المصرية، ومعه توقيعٌ من الخليفةِ بإقْطاعِ درْبِ هارونَ وصَرِيفِينَ للملكِ نورِ الدينِ، وقد كانَتا قديمًا لأبيه عمادِ الدينِ زَنْكِي، فأرادَ الملكُ نورُ الدينِ أنْ يبنيَ ببغدادَ مدرسةً على دِجلةَ، ويجعلَ هذَيْنِ المكانَيْنِ وَقْفًا عليها، فعاقَه القدَرُ عن ذلك، رحمه اللَّهُ.

وفيها: جرَتْ بناحيةِ خُوارَزْمَ حروبٌ كثيرةٌ بينَ سلطانْ شاه وبينَ أعْدائه، تقصَّاها ابنُ الأثيرِ وابنُ السَّاعي.

وفيها: هزَمَ ملكُ الأرْمَنِ مليحُ بنُ ليونَ عساكِرَ الرومِ، وغنم منهم شيئًا كثيرًا، وبعَث إلى نورِ الدينِ بأموالٍ كثيرةٍ من ذلك، وبثلاثين رأسًا من رءوسِهم، فأرْسَلَها نورُ الدينِ إلى الخليفةِ المُسْتَضِيءِ بأمرِ اللَّهِ العباسيِّ.

وفيها بعَث الملكُ صلاحُ الدينِ سَرِيَّةً صُحْبَةَ قراقُوشَ مملوكِ تقيِّ الدينِ عمرَ بنِ شَاهِنْشَاه إلى بلادِ إفرِيقِيَّةَ، فملَكُوا طائفةً كثيرةً منها، مِن ذلك مدينةُ طَرابُلُسَ الغربِ، وعدَّةُ مُدنٍ معها.

وممَّنْ تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

إيلْدكزُ التركيُّ الأتابكيُّ، صاحبُ أذْرَبِيجَانَ وغيرِها، كان مملُوكًا للكَمالِ السُّمَيْرميِّ وزيرِ السلطَانَ محمودٍ، فلما قتَله محمودٌ حظِي إيلْدِكزُ هذا عندَ السطانِ، ثم علاَ أمْرُه وتمكَّنَ حتى ملَك أذْرَبِيجَانَ وبلادَ الجَبَلِ وغيرَها، وكان عادِلاً، منصفًا، شجاعًا، محسِنًا إلى الرعِيَّةِ، رحِمه اللَّهُ، تُوفِّي في هذه السنة.

الأميرُ نَجْمُ الدينِ أبو الشُّكْرِ أيُّوبُ بنُ شاذِي والدُ الملوكِ بني أيوبَ، الكرديُّ الرَّوَاديُّ - وهم خيارُ الأكرادِ - الدُّوِينيُّ؛ نسبةً إلى دُوِينَ شماليَّ بلادِ أذْرَبِيجَان مما يلي الكُرْجَ، ومنهم مَن يقولُ: أيوبُ بنُ شاذِي بنِ مَرْوانَ، وزادَ بعْضُهم بعدَ مَرْوانَ بنَ يَعْقُوبَ، والذي عليه الجمهورُ أنَّه لا يعْرَفُ بعدَ شاذِي أحدٌ في نسَبِهم، وأغرَب بعْضُهم فزعَم أنَّه مِن سُلالَةِ مَرْوانَ بنِ محمدٍ الجَعْديِّ آخرِ خلفاءِ بني أُمَيَّةَ، وهذا ليس بصحيحٍ، والذي نُسِبَ إليه ادِّعاءُ هذا هو الملكُ أبو الفداءِ إسْماعيلُ بنُ طُغْتكِينَ بنِ أيُّوبَ ابنِ شاذِي ويُعْرَفُ بابنِ سيفِ الإسْلامِ، وقد ملَكَ اليمنَ بعدَ أبيه فتَعاظَمَ في نفْسِه وادَّعَى الخلافةَ وتلَقَّبَ بالإمامِ الهادِي بنُورِ اللَّهِ، المعزِّ لدينِ اللَّهِ، أميرِ المؤمنين، وزعَم أنَّه أُمَويٌّ، ومدَحه الشُّعراءُ وأطرَوه ولهَجُوا بذلك، وقال هو في ذلك أيضًا:

وإنِّي أنا الهادِي الخليفةُ والذي ... أدُوسُ رقابَ الغُلْبِ بالضُمَّرِ الجُرْدِ
ولابُدَّ مِن بَغْدادَ أطْوِي رُبُوعَهَا ... وأنشُرُها نشْرَ السَّماسِرِ للبُرْدِ
وأنصبُ أعْلامِي على شُرُفَاتِها ... وأُحْيِي بها ما كان أسَّسه جدِّي
ويُخْطَبُ لي فيها على كلِّ مِنْبَرٍ ... وأُظْهِرُ دينَ اللَّهِ في الغَوْرِ والنَّجْدِ

وهذا الادِّعاءُ ليسَ بصحيحٍ، ولا أصلَ له يَعتمدُ عليه، ولا سندَ يستندُ إليه.

والمقصودُ أنَّ الأميرَ نجمَ الدينِ كان أسَنَّ مِن أخيه أسَدِ الدينِ شِيركُوه، وُلِدَ بأرْضِ المَوْصِلِ. وكان الأميرُ نجمُ الدينِ شجاعًا باسلاً، يخْدُمُ الملكَ محمدَ بنَ مَلَكْشَاه، فرأى فيه شهامةً وأمانةً؛ فولَّاه قلعةَ تَكْرِيتَ، فحكمَ فيها فعدَلَ، فكان مِن أكرمِ الناسِ، ثم أقْطَعها الملكُ مسعودٌ لمُجاهدِ الدينِ بِهْروزَ شِحْنَةِ العراقِ، فاستمرَّ به فيها، فاجْتازَ به في بعضِ الأحْيانِ الملكُ عمادُ الدينِ زَنْكِي مُنْهَزِمًا مِن قُراجا السَّاقِي فآوَاه وخدَمَه خدمةً تامَّةً، وداوَى جِراحَه وأقامَ عندَه خمسةَ عشَرَ يومًا، ثم ارْتَحَل إلى بلَدِه المَوْصلِ. ثم اتَّفَق أنَّ نجمَ الدينِ أيُّوبَ عاقَب رجلاً نَصْرانيًّا فقتلَه، وقيلَ: إنَّما قتَله أخوه أسَدُ الدينِ شِيرَكُوه. وهذا الذي ذكَره القاضي ابنُ خلِّكانَ قال: رجَعتْ جارِيَةٌ مِن بعْضِ الخدَمِ، فذكَرتْ أنَّه تعرَّضَ لها إسفهسلارُ الذي ببَابِ القلْعةِ، فخرَج إليه أسدُ الدينِ شِيرَكُوه، فطعَنه بحَرْبةٍ فقتلَه، فحبَسه

أخوه نجمُ الدينِ أيوبُ، وكتبَ إلى مُجاهد الدين بِهْروزَ يخبرُه بصُورَة الحال، فكتَب إليه يقولُ: إنَّ أباكُما كانتْ له عليَّ خدمةٌ. وكان قد استَنابَه في هذه القَلْعَة قبلَ أبيه نجمِ الدينِ أيُّوبَ. وإنِّي أكرَهُ أنْ أسُوءَكُما، ولكنِ انْتَقِلا منها. فأخرجَهُما بِهْروزُ من قلْعَته، وفي ليلة خُروجه منها وُلدَ له الملكُ الناصرُ صلاحُ الدينِ يُوسُفُ. قال: فتشاءَمْتُ به؛ لفَقْدي بلَدي ووَطَني، فقال لي بعضُ الناسِ: قد تَرَىٰ ما أنتَ فيه مِن التشاؤم بهذا المولُود، فما يُؤمِّنُكَ أنْ يكونَ هذا المولودُ مَلكًا عظيمًا له صيتٌ كبيرٌ؟ فكانَ كذلك، فاتَّصَلا بخدْمَة الملك عماد الدينِ زَنْكيّ، ثم كانَا عندَ ابنه نُور الدينِ محمود الملك العادل وتقدَّما عندَه، وعظُمَا، فاستنابَه الملكُ نُورُ الدينِ ببَعْلَبَكَّ، ولمَّا سُلِّمت إليه أقامَ بها مدةً طويلةً، ووُلد له بها أكثرُ أوْلاده، ثم كان مِن الأمرِ ما ذكَرْناه في دخوله الديارَ المصرية، وصيرورة الأمير نجم الدين إلى ابنه بها في سنة أربع وستِّين، ثم اتَّفَق أنَّه في ذي الحِجَّة سقطَ عن فرَسه وماتَ بعدَ ثمانية أيام في اليوم السابع والعشْرينَ من ذي الحِجَّة مِن هذه السنة، وكان ابنُه الملكُ صلاحُ الدينِ محاصرًا للكَرَك والشَّوْبك، فلمَّا وصلَه الخبرُ تألَّمَ لعدم حضُوره ذلك، وأرسَل يتحرَّقُ، ثم أنشَدَ يقولُ:

وتخطَّفَتْه يدُ الرَّدَى في غَيْبَتي ... هَبْني حضَرْتُ فكنتُ ماذا أصْنَعُ

وقد كان نَجْمُ الدينِ أيُّوبُ كثيرَ الصلاة والصيام والصدقة، كريمَ النفسِ، جَوادًا مُمدَّحًا. قال القاضي ابنُ خَلِّكانَ: وله خَانقاه بالديارِ المصْريَّة، ومسجدٌ وقناةٌ خارجَ باب النَّصْرِ في القاهرة، وقَفَها في سنة ستٍّ وستِّينَ، وله بدمشقَ خَانقَاه أيضًا، تعرفُ بالنَّجْميَّة. وقد استَنَابَه ابنُه على الديارِ المصرية حينَ خرَج إلى الكَرَك، وحكَّمه في الخزائنِ، فكان مِن أكرمِ الناسِ، وقد امْتدَحه الشعراءُ كالعماد الكاتب وعرقلةَ وعُمارةَ اليمنيِّ وغير واحد، ورثَوه حينَ ماتَ بمَراثٍ كثيرة، وقد ذكَر ذلك مُسْتَقْصًى الشيخُ شهابُ الدينِ أبو شامةَ في كتابه «الروْضَتَيْن»، ولما ماتَ دُفِنَ مع أخيه أسَد الدينِ شِيرَكُوه بدارِ الإمارة، ثم نُقِلا إلى المدينة النبويَّة في سَنة ثمانين، فدُفِنَا بتُرْبَة الوزير جمالِ الدينِ المَوْصليِّ، الذي كان مُؤاخيًا لأسَد الدينِ شيرَكُوه.

قال شهابُ الدين أبو شامةَ: وفي هذه السنة تُوفِّي ملكُ النُّحاة الحسَنُ بنُ صافي.

يَزْدنُ التُّرْكيُّ، كان مِن أكابرِ أُمراء بَغْدادَ المُتحكِّمين في الدولة، ولكنَّه كان رافضيًّا خَبيثًا مُتعصِّبًا للروافض، وكانُوا في خفارته وجَاهه، حتى أراحَ اللَّهُ المسلمين منه في هذه السنة في ذي الحِجَّة منها، ودُفِن بداره، ثم نُقِلَ إلى مقابرِ قريشٍ، فللَّه الحمدُ. وحينَ ماتَ فرح أهلُ السُّنَّة بموته، وغَضِبَ الشيعةُ مِن ذلك، وكان بسببِ ذلك فتنةٌ. وذكَر ابنُ السَّاعي في «تاريخه» أنَّه كان في صِغَره شابًّا حسَنًا مليحًا، قال: ولشَيْخنا أبي اليُمْنِ الكِنْديِّ فيه وقد رمدَتْ عينُه:

بكلِّ صباحٍ لي وكلِّ عَشيَّةٍ ... وقوفٌ على أبوابكُم وسَلامُ
وقد قيلَ لي يشْكو سَقامًا بعَيْنِه ... فها نحنُ منها نشْتَكي ونُضَامُ

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

قال ابنُ الجَوْزيُّ في «المُنتَظم»: إنَّه سقَط عندَهم بَرَدٌ كبارٌ كالنَّارنْج، ومنه ما وَزْنُه سَبْعَةُ أرْطالٍ، ثم عَقِبَ ذلك زيادةٌ عظيمةٌ بدجْلةَ، لم يُعْهَدْ مثلُها أصلاً، فخرَّبت شيئًا كثيرًا من العُمْرانِ والقُرَىٰ والمَزارعِ حتىٰ القبورِ، وخرَجَ الناسُ إلىٰ الصَّحْراءِ، وكثُرَ الضَّجيجُ والابْتهالُ في الدعاءِ حتىٰ فرَّجَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ، وتناقَصَتْ زيادَةُ الماءِ، فللَّه الحمدُ ربِّ الأرضِ والسماءِ، وأمَّا المَوْصِلُ فإنَّه كان بها نحوٌ مما كان ببغدادَ وأكثرُ، وانهدَمَ بالماءِ نحوٌ من ألفَيْ دارٍ؛ واسْتُهدِمَ بسبَبِه مثلُ ذلك، وهلَكَ تحتَ الهدْمِ خلقٌ كثيرٌ، وكذلك الفُراتُ زادَتْ زيادةً عظيمةً أيضًا، فهلَكَ بسبَبِها شيءٌ كثيرٌ من القُرَىٰ، وغلَت الأسْعارُ بالعِراقِ في هذه السنةِ في الزُّروعِ والثِّمارِ؛ ووقَع الوباءُ في الغنَم، وأُصيبَ شيءٌ كثيرٌ ممَّنْ أكَل منها بالعراقِ وغيرِها.

قال ابنُ السَّاعي: وفي رمضانَ توالَت الأمْطارُ بديارِ بَكْرٍ والمَوْصِلِ أربعين يومًا وليلةً لم يرَوا الشمسَ فيها سوَىٰ مرَّتَيْنِ؛ لحظتَيْنِ يسيرتَيْنِ، فتهدَّمَتِ البُيوتُ والمساكنُ علىٰ أهْلِها، وزادَت دِجْلَةُ بسبَبِ ذلك زيادةً عظيمةً، وغرِقَتْ كثيرٌ من مساكنِ بَغدادَ والمَوْصِلِ، ثم تناقَص الماءُ بإذْنِ اللَّهِ، عزَّ وجلَّ.

قال ابنُ الجَوْزيُّ: وفي رجَبٍ وصَل ابنُ الهَرَويِّ من نُورِ الدينِ ومعه ثيابٌ مصريةٌ، وحمارةٌ ملوَّنةٌ؛ جلْدُها مُخَطَّطٌ مثلُ الثوبِ العتَّابيِّ. قال: وعُزِلَ ابنُ الشَّاشيِّ من تدْريسِ النِّظَاميَّةِ ووَلي أبو الخَيْرِ القَزْوينيُّ. قال: وفي جُمادَىٰ الآخرة اعْتُقِلَ المُجيرُ الفقيهُ ونُسِبَ إلىٰ الزَّنْدَقَةِ والانْحلالِ وتَرْكِ الصَّلاةِ والصَّومِ، ثم تعصَّبَ له أُناسٌ وزكَّوه فأُخْرِجَ. وذكَرَ أنَّه وعَظَ بالحَرْبيةِ ذاتَ يومٍ فاجْتَمَعَ عندَه قريبٌ من ثلاثين ألفًا.

قال ابنُ السَّاعي: وفيها سقَط أبو العباسِ أحمدُ بنُ أميرِ المؤمنين المُسْتَضيءِ من قُبَّةٍ شاهقةٍ إلىٰ الأرضِ فسَلِمَ وللَّه الحمدُ، ولكنْ نَبَتْ يدُه اليُمنَىٰ وساعدُ يدِه اليُسْرَىٰ، وانْسلَخ شيءٌ من أنفِه، وكان معه خادمٌ أسْوَدُ يقالُ له: نجاحٌ. فلمَّا رأىٰ سيِّدَه قد سقَط، ألقىٰ هو نفْسَه أيضًا، وقال: لا حاجَةَ لي بالحياةِ بعدَه. فسَلِمَ أيضًا، فلمَّا صارَت الخلافةُ إلىٰ أبي العباسِ الناصرِ - وهو هذا الذي قد سقَط - لم ينسَهَا لنجاحٍ هذا، فحكَّمه في الدولةِ وأحْسَن إليه.

وفيها سارَ الملكُ نُورُ الدينِ نحوَ بلادِ الرومِ وفي خدْمَتِه الجيشُ وملكُ الأرْمَنِ وصاحبُ مَلَطْيَةَ، وخلقٌ من المُلوكِ والأمراءِ، وافْتتحَ عدَّةً من حصُونهم، وللَّه الحمدُ، وحاصَرَ قلْعَةَ الرومِ فصالَحه صاحبُها بخَمْسين ألفَ دينارٍ؛ جزْيةً، ثم عادَ إلىٰ حَلَبَ وقد وجَد النجاحَ في كلِّ ما طلَبَ، ثم عادَ إلىٰ دِمشقَ مؤيَّدًا منصورًا مسرُورًا مَحْبُورًا.

وفي هذه السنةِ كان فتحُ بلادِ اليمنِ للملكِ صلاحِ الدينِ يُوسُفَ بنِ أيوبَ، وكان سببَ ذلك أنَّه

بلَغه أنَّ بها رجُلاً يقالُ له: عبدُ النبيِّ بنُ مَهْدِيٍّ. قد تغلَّبَ عليها ودَعَا إلى نفسه وتسمَّى بالإمام، وزعَم أنَّه سيَملِكُ الأرضَ كلَّها، وقد كان أخوه عليُّ بنُ مَهْديٍّ قد تغلَّبَ قبلَه على اليمن، وانتزَعَها مِن أيْدي أهلِ زَبِيدَ، ومات سنةَ ستِّين فملَك بعدَه أخُوه هذا، وكلٌّ منهما كان سيِّئَ السيرةِ والسَّريرَة، فعزَم الملكُ صلاحُ الدين، لكثْرةِ جيْشِه وقُوَّتِه، على إرسالِ سَرِيَّةٍ إليه، وكان أخوه الأكبرُ شمسُ الدولة شُجاعًا مَهِيبًا بطَلاً، وكان ممَّنْ يُجالِسُ عُمارةَ اليَمنيَّ الشاعرَ، فكان ينْعَتُ له بلادَ اليَمنِ وحُسْنَها وكثْرَةَ خَيْرِها، فحدَاه ذلك على أنْ خرَج في هذه السَّرِيَّةِ في رجَبٍ من هذه السنة، فورَد مكَّةَ، شرَّفها اللَّهُ، فاعْتمَر بها ثم سار منها إلى زَبِيدَ، فخرَج إليه عبدُ النبيِّ فقاتَلَه فهزَمه تُورانشاه، وأسَره وأسَر زَوْجتَه الحُرَّةَ، وكانتْ ذاتَ أموالٍ جزيلة فاستَقرَّها على أشياءَ نفيسة، وذخائرَ جليلة، ونهَب الجيشُ زَبِيدَ، ثم سار إلى عَدَنَ فقاتَله ياسرٌ مَلِكُها فهزَمه تورانشاه وأسَره، وأخَذ البلدَ بيَسيرٍ من الحصارِ، ومنَع الجيشَ مِن نَهْبِها، وقال: ما جئْنَا لنخرِّبَ البلادَ، وإنَّما جئْنَا لعمارتِها ومُلْكِها. ثم سارَ في الناسِ سيرةً حسنةً عادلةً فأحبُّوه، ثم تسلَّمَ بقيةَ الحصُونِ والمعاقلِ والمخاليفِ، واستَوْسَقَ له مُلْكُ اليَمنِ بحَذافيرِه وأَلْقى إليه بأفلاذ كبده ومَطاميره، وخطَب فيها للخليفة العباسيِّ أبي محمد الحسنِ المستضيءِ، وقَتل الدَّعِيَّ المسمَّى بعبدِ النبيِّ، وصفَتِ اليمنُ من أكْدارِها، وعادَتْ إلى ما سبَق من مضمارِها، وكتَب بذلك إلى أخيه الملكِ الناصرِ صلاحِ الدين يُخبِرُه، بما فتَح اللَّهُ عليه، وأحْسَنَ إليه، فكتَب الملكُ صلاحُ الدين بذلك إلى نورِ الدين، فأرسَل نُورُ الدين بذلك إلى الخليفةِ يبشِّرُه بفتحِ اليمنِ والخُطْبَةِ بها له.

وفيها: خرَج الموفَّقُ خالدُ بنُ القَيْسَرانيِّ من الديارِ المصْريَّة، وقد أقامَ له الملكُ الناصرُ حسابَ الدِّيارِ المصريَّةِ وما خرَج مِن الحواصلِ حسبَما رسَمَ به الملكُ نورُ الدين كما تقدَّم، وقد كادَ الملكُ الناصرُ - لمَّا جاءَته الرسالةُ بذلك - يُظْهِرُ شَقَّ العصَا ويُكاشِرُ بالمُخالفَةِ والإباء، ولكن عادَ إلى طِباعِه الحسنَة وأظْهَر الطَّاعةَ المُسْتَحْسَنَة، وأمَر بكتابَةِ الحسابِ وتحريرِ الكتاب فامتثَل ذلك جماعةُ الدَّواوينِ والحسابِ والكُتَّاب، وبعَث مع ابنِ القَيْسَرانيِّ بهَديَّةٍ سَنِيَّةٍ وتُحَفٍ هائلةٍ هَنِيَّة، فمِنْ ذلك خمسُ ختَماتٍ شريفاتٍ مغطَّاتٍ بخُطوطٍ مستوياتٍ، ومائةُ عِقْدٍ مِن الجواهرِ النَّفيساتِ، خارجًا مِن قِطَعِ البلخشِ والياقوتِ، والفُصوصِ والثيابِ الفاخراتِ، والأواني والأباريقِ والصِّحافِ الذهبيَّاتِ والفضيَّاتِ، والخُيولِ، والغِلْمانِ والجواري الحسانِ والحسناتِ، ومن الذهبِ عشَرَةُ صناديقَ مُقفَلاتٍ مختوماتٍ، ممَّا لا يُدرَىٰ كم عدَّةُ ما فيها مِن مِئينَ أُلوفٍ من الذهَبِ المصريِّ المُعَدِّ للنَّفقات. فلمَّا فصَلَتِ العيرُ من الديارِ المصريَّةِ لم تَصِلْ إلى الشَّامِ حتى كانت وفاةُ الملكِ نورِ الدين، رحمه اللَّهُ، فأرسَلَ الملكُ الناصرُ مَنْ ردَّها عليه وأعادَها إليه، ويقالُ: إنَّ منها ما عُدِيَ عليه، وعلِم بذلك حينَ وُضِعَت بينَ يَدَيه.

مقْتَلُ عُمَارَةَ بن أبي الحسن بن زَيْدانَ الحَكَميِّ، مِن قَحْطَانَ، أبي محمدٍ الملَقَّب بنَجْمِ الدين، اليمنيِّ الشاعرِ الفقيهِ الشافعيِّ. وسببُ قتْلِه أنَّه اجْتَمَع جماعةٌ مِن رُءوسِ الدولةِ الفاطميَّةِ الذين كانوا حُكَّامًا

فاتَّفَقُوا فيما بيْنَهم أنْ يعيدوا الدولةَ الفاطمِيَة، فكتبُوا إلى الفرنجِ يَسْتَدْعُونهم إليهم، وعينوا خليفةً من ذُرِّيَّة الفاطميِّين ووزيراً وأمراءَ، وذلك في غَيْبة السلْطان ببلاد الكرَك، ثم، اتَّفقَ مَجيئُه فحرَّضَ عمارةُ اليمنيُّ شمسَ الدولة تورانشاه على المسير إلى اليمَن؛ ليَضْعُفَ بذلك الجيشُ عن مُقاومَة الفرنج إذا قدمُوا لنُصْرَة الفاطميِّين، فخرَج تُورانشاه ولم يخرُجْ معه عمارةُ، بل أقامَ بالقاهرة يُفيضُ في هذا الحديث، ويُدَاخِلُ المُتكلِّمين فيه، وكان من أكابر الدُّعاة إليه والمُحرِّضين عليه، وقد أدخلُوا معهم في هذا الأمرِ مَن يُنْسَبُ إلى المَلك الناصر؛ وذلك من قلَّة عقلِهم وكثرة جهلِهم، فخانَهم أحْوَج ماكانُوا إليه؛ وهو الشيخُ زَيْنُ الدين عليُّ بنُ نَجا الواعظُ، جاءإلى السلطان فأخبرَه بما تمالأ القومُ عليه، وبما انتهَى أمرُهم إليه، فأطلَقَ له االسلْطانُ أموالاً جزيلةً، وأفاضَ عليه حُللاً جميلةً، ثم استَدْعاهمُ السلْطانُ واحدًا واحدًا فقرَّرهم فاقرُّوا له بذلك، فاعْتقلَهم ثم استَفْتى الفقهاءَ في أمرِهم فأفْتَوه بقَتْلِهم وتبديد شملِهم، فعندَ ذلك أمَر بصَلْب رُءوسِهم وأعْيانِهم، دونَ أتْباعِهم وغِلْمانِهم، وأمَرَ بنَفْيِ مَن بَقِيَ من جيشِ العُبَيْديِّين إلى أقصى البلاد، وأفرَد ذُرِّيَّةَ العاضد وأهلَ بيْته في دار، فلا يصِلُ إليهم إصْلاحٌ ولا إفْسادٌ، وأجرَى عليهم من الأرْزاق كفايتَهم، وقد كان عمارةُ مُعاديًا للقاضي الفاضل، فلمَّاأُحضر بينَ يدَي السلْطان، ليَشْفَعَ فيه عندَهُ، فتوهَّمَ عُمارةُ أنَّه تكلَّم فيه فقال: يا مَولانا السلطانَ قامَ القاضي الفاضلُ فاجتَمَعَ بالسلطانَ لا تَسْمَعْ منه. فغضبَ القاضي الفاضلُ وخرَج من القصر، فقال له السلطانُ: إنَّه كان قد شفَع فيك. فندم ندمًا عظيمًا. ولمَّا ذُهِبَ به ليُصْلَبَ مَر بدارِ القاضي فطلَبَه فتغيَّبَ عنه فأنشدَ:

عبدُ الرحيم قد احتجَبْ إنَّ الخلاصَ هو العَجَبْ

قال ابنُ أبي طيٍّ: وكان الدينَ صُلِبُوا؛ المفضَّلَ بنَ القاضي، وهو أبو القاسم هبةُ اللَّه بنُ عبد اللَّه بن كاملٍ قاضي قضاة الديار المصْريَّة زمنَ الفاطميِّين، ويلقَّبُ بفَخْر الأُمناء، وكان أوَّلَ مَن صُلِبَ فيما قالَه العمادُ الكاتبُ، وقد كان يُنْسَبُ إلى فضيلة وأدب، وله شعرٌ رائقٌ، فمنْ ذلك قولُه في غلامٍ رَفَّاءٍ:

يا رافيًا خَرْقَ كلِّ ثوبٍ ويا رَشًا حُبُّه اعتقادي
عسَى بكفِّ الوصال ترفُو ما مَزَّقَ الهجرُ مِن فُؤادي

وابنَ عبد القَوِيِّ داعيَ الدُّعاة، وكان يعْلَمُ بدفائن القصر فعُوقِبَ ليُعْلِمَ بها، فامْتَنَعَ من ذلك فمات واندَرَسَتْ. والعُوريسَ الذي كان ناظرَ الديوان، وتولَّى مع ذلك القضاءَ. وشُبْرُما كاتبَ السرِّ. وعبد الصَّمد القشةَ أحدَ أمراء المصْريِّينَ. ونجاحَ الحمَّاميَّ، ورجلاً مُنجِّمًا نصرانيًّا أرمنيًّا كان قد بشَّرَهم بأنَّ هذا الأمرَ يتِمُّ بعلْمِ النجوم،و عُمارةَ اليَمَنيَّ الشاعرَ، وقد كان شاعرًا مُطَبِّقًا بليغًا فصيحًا، لا يُلْحَقُ شأْوُه في هذا الشأن، وله ديوانٌ مشهورٌ وقد ذكَرْتُه في «طبقات الشافعيَّة»؛ فإنَّه كان يشتغلُ بمذْهب الشافعيِّ، وله تصنيفٌ في الفرائض، وكتابٌ «الوزراء الفاطميِّين»، وكتابٌ جمَع فيه سيرةَ نفيسةَ التي

كان يعتقدُها عوامٌّ مصر، وقد كان أديبًا فاضلاً فقيهاً فصيحًا، غيرَ أنَّه كان يُنسَبُ إلى مُوالاةِ الفاطميِّين، وله فيهم وفي وزرائِهم وأمرائِهم مدائحُ كثيرةٌ جدًّا، وأقلُّ ما نُسِبَ إلى الرفضِ، وقد اتُّهِمَ باطنُه بالكُفرِ المَحْضِ.

وذكَر العمادُ في «الخريدَة» أنَّه قال في قصيدتِه التي يقولُ في أوَّلها:

العِلمُ مُذ كان مُحتاجٌ إلى العَلَمِ ... وشفرةُ السيفِ تستغني عن القَلَمِ

وهي طويلةٌ جدًّا فيها كفرٌ وزَنْدَقةٌ كثيرةٌ، قال فيها:

هذا الذي سبقَ من رجُلٍ ... سعَى إلى أن دعَوهُ سيِّدَ الأُمَمِ

قال العمادُ: فأفتَى علماءُ مِصْرَ بقتلِه، وحرضوا السلطانَ على المُثْلَةِ بِمِثْله.

قال: ويجوزُ أنْ يكونَ هذا البيتُ مَعْمُولاً عليه. فاللَّهُ أعلَمُ. وقد أوْرَدَ ابنُ الساعي شيئًا مِن رقيقِ شعْرِه، فمنْ ذلك قولُه يمدَحُ بعضَ الملُوكِ:

ملكٌ إذا قابَلتُ بِشْرَ جبينِه ... فارقْتُهُ والبِشْرُ فوقَ جَبيني
وإذا لثَمْتُ يمينَهُ وخرَجْتُ مِن ... أبوابِه لَثَمَ الملُوكُ يَميني

ومِن ذلك قولُه يتغزَّلُ:

لي في هوَى الرَّشَأِ العُذْرِيِّ أعذارُ ... لم يَبْقَ لي مُذ أقرَّ الدمعُ إنكارُ
لي في القُدودِ وفي لَثْمِ الخُدودِ وفي ... ضَمِّ النُّهودِ لُبَاناتٌ وأوْطَارُ
هذا اختياري فوافِقْ إنْ رَضِيتَ به ... أوْ لا فَدَعْني لِمَا أهْوَى وأخْتارُ

ومِمَّا أنشدَه تاجُ الدينِ الكِنْديُّ في عُمارةَ اليمنيِّ حينَ صُلِب:

عُمارةُ في الإسلامِ أبدَى خيانةً ... وبايَعَ فيها بَيْعَةً وصَليبا
وأمسَى شَريكَ الشِّرْكِ في بُغضِ أحمدٍ ... فأصبَحَ في حُبِّ الصَّليبِ صَليبا
وكانَ خبيثَ المُلتقَى إن عجَمتَهُ ... تجِدْ منهُ عُودًا في النفاقِ صَليبا
سيَلقَى غدًا ما كانَ يسْعَى لأجلِه ... ويُسْقَى صَديدًا في لَظَى وصَليبا

قال الشيخُ شهابُ الدينِ: فالأوَّلُ صليبُ النصارَى، والثاني بمعنَى مصلُوبٍ، والثالثُ بمعنَى القويِّ، والرابعُ ودَكُ العظامِ.

ولَمَّا صلَب الملكُ الناصرُ هؤلاءِ - وكان ذلك يومَ السبتِ الثاني من شهرِ رمضانَ مِن هذه السنة بينَ القَصْرَيْنِ مِن القاهرةِ - كتَب إلى الملكِ نُورِ الدينِ يُعْلِمُه بما وقَع منهم وما أوقَع بهم مِن الخِزْيِ والنكالِ، قال العمادُ: فوصَل الكتابُ بذلك يومَ تُوفِّي المَلِكُ نورُ الدينِ، رحمه اللَّهُ تعالى. وكذلك قتَل الملكُ صلاحُ الدينِ رجلاً مِن أهلِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ يقالُ له: قُدَيدٌ القفاصُ. قد افْتَتَنَ به الناسُ، وجعَلُوا له جُزْءًا

من اكْسابِهم، حتى النساءُ من أموالِهِنَّ، فأُحيطَ به فأرادَ الخلاصَ، ولاتَ حينَ مَناصٍ. فقُتِلَ أُسوةَ بمَن سلَفَ، ولقد كان بئسَ الخَلَفُ، ولله الحمدُ والمِنَّةُ، وبه التوفيقُ والعصمةُ.

ومما وُجِدَ من شعرِ عُمارةَ يَرثي العاضدَ ودولتَه وأيامَه:

أسَفي على زَمَنِ الإمامِ العاضدِ ... أسفَ العَقيمِ على فِراقِ الواحدِ
جالَسْتُ من وُزَرائه وصَحِبتُ مَنْ ... أُمرائه أهلَ الثناءِ الماجدِي
لَهْفي على حُجُراتِ قَصْرِكَ إذْ خلَتْ ... يا ابنَ النبيِّ من ازْدِحامِ الوافدِ
وعلى انفرادِكَ من عساكِرِكَ الذي ... كانوا كأمْواجِ الخِضَمِّ الراكدِ
قلَّدْتَ مُؤْتَمَنَ الخلافةِ أمرَهمْ ... فكبَا وقصَّرَ عن صلاحِ الفاسدِ
فعسى الليالي أنْ تَرُدَّ عليكُمُ ... ما عَوَّدَتْكُم من جميلِ عوائدِ

وله من جملة قصيدة:

يا عاذلي في هوَى أبناءِ فاطمةٍ ... لكَ الملامَةُ إنْ قصَّرتَ في عَذَلي
باللهِ زُرْ ساحةَ القَصْرَيْنِ وابْكِ مَعِي ... عليهما لا علَى صِفِّينَ والجَمَلِ
وقلْ لأهلِهما واللهِ ما التَحَمَتْ ... فيكم قُروحي ولا جُرْحَى بمُنْدَمِلِ
ماذا ترَى كانتِ الإفرنجُ فاعلةً ... في نسلِ آلِ أميرِ المؤمنين علي

وقد أوردَ الشيخُ أبو شامةَ في «الروْضتَين» من أشعارِ عُمارةَ اليمنيِّ ومدائحِه في الخلفاءِ الفاطميِّين وذويهم شيئًا كثيرًا، وكذا القاضي ابنُ خلِّكانَ.

ابنُ قُرْقُول إبراهيمُ بنُ يوسفَ بن إبراهيم بن عبد الله بن باديسَ بن القائد الحَمْزيُّ أبو إسحاقَ بنُ قُرْقُول الأندلُسيُّ،[1] صاحبُ كتابِ «مطالعِ الأنوارِ» الذي وضَعه على مثالِ كتابِ «مشارقِ الأنوارِ» للقاضي عياضٍ، وكان من علماءِ بلادِه وفُضلائِهم المشهُورين، ماتَ فجأةً بعدَ صلاةِ الجُمُعةِ سادسَ شوَّالٍ من هذه السنةِ عن أربعٍ وستِّين سنةً؛ قاله ابنُ خلِّكانَ.

* * *

(١) ترجمته في «السير» (٢٠/ ٥٢٠-٥٢١).

فصلٌ في وفاةِ الملكِ العادلِ نورِ الدينِ محمود بن زنكِي بن آق سُنقرَ التركيِّ السَّلجوقيِّ في هذه السنة وذكرُ شيءٍ من سيرتِه العادلةِ وأيامِه الكاملةِ

هو الملكُ العادلُ نورُ الدينِ، أبو القاسم محمودُ بنُ الملكِ الأتابِكِ قسيمِ الدولةِ عمادِ الدينِ أبي سعيدٍ زَنْكي، الملَقَّبِ بالشهيدِ بنِ الملكِ آقْ سُنْقُر الأتابِكِ الملقَّبِ بقَسيمِ الدولةِ أيضاً، التركيُّ السَّلْجوقيُّ مولاهُم، وُلِد وقتَ طُلوعِ الشمسِ يومَ الأحدِ السابعَ عشرَ مِن شَوَّالٍ سنةَ إحْدَىٰ عشْرَةَ وخمسَمائةٍ بحلَبَ، ونشَأ في كَفالةِ والدِه صاحبِ حَلَبَ والمَوْصِلِ وغيرِهما مِن البلدانِ الكثيرة، وتعلَّم الفروسيةَ والرَّمْيَ، وكان شهْمًا شُجاعًا، ذا همةٍ عاليةٍ، وقصْدٍ صالحٍ، وحُرْمَةٍ وافرةٍ، وديانةٍ مَتينةٍ، فلمَّا قُتِل أبوه سنة إحْدَىٰ وأربعين وهو محاصرٌ جَعْبَرَ، كما ذكَرنا، صارَ الملكُ بحلَبَ إلىٰ ابنه هذا، وأعْطَاه أخوه سيفُ الدينِ غازِي المَوْصِلَ، كما تقدَّم.

ثم افْتتَح الملكُ نورُ الدينِ دِمَشقَ في سنةِ تسعٍ وأربعين، فأحسَن إلىٰ أهْلِها وبنَىٰ لهم المدارسَ والمساجدَ والرُّبُطَ، ووسَّعَ الطريقَ والأسواقَ، ووَضَع المُكوسَ بدارِ البِطِّيخِ، والغنمِ، والعَرْصَةِ، وغيرِ ذلك، وكان حنفيَّ المذْهبِ، يُحبُّ العلماء والفقراءَ، ويكرِمُهم ويحترِمُهم، ويحسنُ إليهم، ويقومُ في أحْكامِه بالمَعْدلة الحسنة، واتِّباعِ الشرعِ المُطَهَّرِ، ويعقِدُ مجالسَ العَدْلِ، ويتولَّاها بنفْسه، ويجتَمعُ إليه القاضي والفقهاءُ والمُفْتون مِن سائرِ المذاهبِ، ويجلِسُ في يومِ الثلاثاء بالمسجدِ المُعلَّقِ، الذي بالكشكِ؛ ليصلَ إليه كلُّ أحدٍ مِن المسلمين وأهلِ الذِّمَّة، وأحاطَ السُّورَ علىٰ حارةِ اليهودِ، وكان خَرابًا، وأغلَق بابَ كَيْسانَ، وفتح بابَ الفرَجِ، ولم يكُنْ قبلَه هناك بابٌ بالكُلِّيَّة، وأظهَر ببلاده السُّنَّةَ، وأماتَ البِدْعَةَ، وأمَر بالتأْذينِ بحيَّ علىٰ الصلاةِ، حيَّ علىٰ الفَلاحِ، ولم يكُنْ يُؤَذَّنُ بهما في دوْلَتَيْ أبيه وجدِّه، وإنما كان يُؤَذَّنُ بحي علىٰ خيرِ العملِ؛ لأنَّ شعارَ الروافضِ كان ظاهراً بها. وأقامَ الحدودَ وفتحَ الحصُونَ، وكسَر الفِرنْجَ غيرَ مرةٍ، واسْتَنقَذ مِن أيْدِيهم مَعاقِلَ كثيرة مِن الحصُون المنيعةِ، التي كانُوا قد اسْتَحوَذُوا عليها مِن بلادِ المسلمين، كما تقدَّم بَسْطُ ذلك في السنين المتقدِّمَة في أيامه.

وأقطَع أمراءَ العربِ إقطاعاتٍ؛ لِئَلاَّ يتعرَّضُوا للحَجيجِ، وبنَىٰ بدِمَشق مَارَسْتَانًا حسنًا لم يُبْنَ في الشامِ قبلَه مثلُه ولا بعدَه أيضاً، ووَقَفَ وَقْفاً علىٰ من يعلِّم الأيتامَ الخَطَّ والقرآنَ، وجعَل لهم نفقةً وكِسوةً، وعلىٰ مَن يُقْرِئُ الأيتامَ، وعلىٰ المجاورِين بالحرَمَيْنِ.

وكان الجمعُ داثِرًا، فولَّىٰ نظَرَه القاضيَ كمالَ الدين محمدَ بنَ عبدِ اللَّه الشَّهْرَزُورِيَّ المَوْصِليَّ، الذي قُدِم به فولَّاه قضاءَ القُضاة بدِمَشقَ، فأصلَح أمورَه وفتَح المشاهِدَ الأربعَةَ، وقد كانتْ حواصِلُ الجامعِ بها مِن حين احْترَق سنةَ إحْدَىٰ وستِّين وأربعِمائةٍ، وأضافَ إلىٰ أوقافِ الجامعِ المعلُومَةَ الأوْقافَ التي لا يُعْرَفُ واقِفُوها، ولا يُعرَفُ شرُوطُهم فيها، وجعَلها قلَماً واحداً، وسمَّاه مالَ

المصالح، فرتَّب عليه لذَوي الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام، وما أشْبَهَ ذلك وشاكَلَه.

وقد كان الملكُ نورُ الدين حسنَ الخَطِّ، كثيرَ المُطالعة للكتُب الدينية، مُتَّبِعاً للآثار النبويَّة، مُحافظاً على الصَّلَوات في الجماعات، كثيرَ التلاوة، محبًّا لفعْل الخيرات، عفيفَ البَطْن والفَرْج، مُقْتَصِداً في الإنْفاق علَى نفْسه وأهله وعياله في المَطْعَم والملْبَس، لم تُسْمَعْ منه كلمةُ فُحْشٍ في غضَبٍ ولا رضًا.

قال ابنُ الأثير: لم يكُنْ في ملوك الإسلام بعدَ عمرَ بن عبد العزيز مثلُ الملَك نور الدين، ولا أكثرُ تحرِّياً للعدل والإنْصاف منه، كان قد استفْتَى العلماءَ في مقدار يَحِلُّ له في بيت المال، فكان يتناولُه لا يزيدُ عليه. وكانتْ له دَكاكينُ بحِمْصَ قد اشْتَراها ممَّا يخصُّه من المغانم، فزاد كِراءَها لامرأته على نَفَقَتِها حينَ استقلَّتْها عليها.

وكان يكثرُ اللَّعِبَ بالكرة، فعاتَبه بعضُ الصالحين في ذلك، فقال: إنما أُريدُ تَمْرِينَ الخيل، وتعْليمَها الكَرَّ والفَرَّ. وكان لا يلْبَسُ الحريرَ، ويأكُلُ من كَسْب يده، رحمه اللَّهُ.

وركِب يوماً مع بعض أصْحابه والشمسُ في ظُهورهما، وظلُّها بينَ أيْديهما لا يدْرِكانه، ثم رجَعا فصارَ الظل وراءَهم، فَساقَ الملكُ نورالدين وجعَل يلتَفتُ وظلُّه يَتْبَعُه، ثم قال لصاحبه: قد شَبَّهْتُ ما نحنُ فيه بالدنيا، تَهْرُبُ ممَّن يطلُبُها، وتطلُبُ مَن يَهْرُبُ منها. وقد أنشَد بعضُهم في هذا المعنَى:

مَثَلُ الرِّزْق الذي تطلُبُه	مَثَلُ الظلِّ الذي يمْشِي معَكْ
أنتَ لا تُدْرِكُه مُتَّبِعًا	فإذا ولَّيْتَ عنه تَبِعَكْ

وكان فَقيهاً علَى مذْهب أبي حنيفةَ، وسمع الحديثَ وأسمَعه، وكان كثيرَ الصلاة بالليل من وقت السَّحَر إلى أنْ يركَبَ:

جمَعَ الشجاعةَ والخشوعَ لديِّه	ما أحْسَنَ المحْرابَ في المحْراب

وكذلك كانتْ زوجتُه عصمتُ الدين خاتُون بنتُ الأتابك مُعين الدين أُنُرَ، تُكثِرُ قيامَ الليل، فنامَتْ ذاتَ ليلة عن ورْدها، فأصبَحَتْ وهي غَضْبَى، فسألها عن أمْرها، فذكَرَتْ ما حصَل لها من النوم الذي قطَعها عن ورْدها، فأمَر بضرْب طَبْلخَانة في القَلْعَة وقْتَ السَّحَر؛ ليُوقظَها وأمثالَها من النوم لقيام الليل:

وألْبَس اللَّهُ هَاتِيكَ العظامَ وإنْ	بلين تحت الثرى عفْواً وغفرانًا
سقَى ثَرًى أُودعُوه رَحْمَةً مَلأتْ	مثوى قُبورهم روحًا وريحانا

وذكَر ابنُ الأثير أنَّ الملكَ نورَ الدين بينَما هو يوماً يلعَبُ بالكرة إذْ رأَىٰ رجلاً يحدِّثُ آخرَ ويومئُ إليه، فبعَث الحاجبَ؛ ليسْألَه ما شأنُه، فإذا هو رجلٌ معه رسولٌ من جهة الحاكم، وهو يزعُمُ أنَّ له

على الملكِ نورِ الدينِ حقًّا يريد خَلْوتَه وإيَّاه إلى القاضي، فلمَّا أعْلَمه الحاجبُ بذلك ألقى الجوكَانَ من يَدِه، وأقبَل مع خَصمِه إلى القاضي كمال الدينِ الشَّهْرَزُورِيِّ، وقد أرسَل إليه من أثناءِ الطريقِ أن لا تعامِلْني إلاَّ معاملةَ الخصومِ، فحينَ وصَلاَ وقَف نورُ الدينِ مع خَصمه حتى انفصَلَت الحُكومةُ، ولم يثْبتْ للرجلِ حقٌّ، بل ثبَت الحقُّ للسلطانِ، فلمَّا تبيَن ذلك قال السلطانُ: إنَّما جئتُ معه؛ لئلاَّ يتخلَّفَ أحدٌ عن الحضورِ إلى الشَّرْعِ، فإنَّما نحنُ شِحْنَكِيةٌ بينَ يَدَيه، وأنا أعلَمُ أنَّه لا حقَّ له عندي، ومع هذا أُشْهِدُكُم أنِّي قد ملَّكْته ذلكَ ووَهَبْتُه له.

وأرسَل القاضي تاجُ الدينِ رسولاً من جهتِه يقالُ له: سويدٌ. ليُحْضِرَ الملكَ نورَ الدينِ إلى مجلسِ الحُكمِ لسماعِ دَعوىً مِن رجلٍ عليه، فبَلَّغ سويدٌ الرسالةَ إلى الحاجبِ، فدَخَل عليه وهو يضحَكُ ويقولُ: ليقُمِ المَوْلى إلى القاضي لسماعِ دعوى. وكأنَّه يَستهزئُ بذلك، فقال له الملكُ: وما لكَ تستهزئُ بذلك! ثم قال: ائتوني بفرسِي. فنَهَض وهو يقولُ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]. وذهَب إلى الحاكمِ وكان يوماً مَطِراً، كثيرَ الوَحلِ، رحمه اللَّهُ تعالى.

قال ابنُ الأثيرِ: وهو أول مَن ابْتَنى داراً للعدلِ، فكان يجلِسُ فيها في الأسبوعِ يومين، وقيل: أربعة وقيل: خمسةً. ويحضُرُ القاضي والفقهاءُ من المذاهبِ، ولا يحجُبُه يومَئذٍ حاجبٌ بل يصِلُ إليه القويُّ والضعيفُ، فيُكلِّمُ الناسَ، ويستَفْهِمُهم ويخاطِبُهم بنفْسِه، فيكشِفُ الظالمَ، ويُنْصِفُ المظلومَ مِن الظالمِ، قال: كان سبَبَ ذلك أنَّ أسدَ الدينِ شيرَكُوه بنَ شاذي كان قد عَظُم شأنُه، حتى صارَ كأنَّه شريكُه في المملكةِ، واقْتَنى الأمْلاكَ والأموالَ والمزارعَ والقُرَى، فربَّما ظلَم نُوَّابُه جيرانَهم في الأراضِي، وكان القاضي كمالُ الدينِ يُنْصِفُ كلَّ مَن استَعْدَاه على جميع الأمراءِ إلاَّ أسدَ الدينِ هذا، فلمَّا ابْتَنَى الملكُ نورُ الدينِ دارَ العدلِ تقدَّمَ أسدُ الدينِ إلى نُوَّابِه أنْ لا يدعوا لأحدٍ عنده ظلامةً وإن كان عظيمًا فإنَّ زوالَ مالِه أحبُّ إليه من أن يراه نورُ الدينِ بعينِ ظالمٍ، أو يوقِفه مع خصمٍ من العامَّة، ففعلوا ذلك فلمَّا جلس نورُ الدين بدارِ العَدْلِ مدةً مُتطاوِلَةً لم يرَ أحداً يَسْتَعْدي على أسَدِ الدين، فسأل القاضِيَ عن ذلك، فأعْلَمه بصُورَةِ الحالِ، فسَجد نورُ الدينِ عندَ ذلك شكْراً للَّهِ، وقال: الحمدُ للَّهِ الذي جعَل أصْحابَنا ينْصِفون من أنفُسِهم.

وأمَّا شجاعتُه فكان يقالُ: إنَّه لم يُرَ على ظهرِ الفرَسِ أحسنُ ولا أثبتُ منه. وكان يُحسِنُ اللعبَ بالكرةِ وربَّما ضربَها ثم يسوقُ وراءَها ويأخُذُها من الهواءِ بيَدِه، ثم يرمِيها إلى آخرِ الميدانِ، ولم يُرَ جُوكَانُه يعْلُو على رأسِه، ولا يُرَى الجُوكانُ في يدِه؛ لأنَّ الكُمَّ ساترٌ لها، ولكنَّه استِهانةٌ بلعبِ الكرة.

وكان شُجاعاً صبُوراً في الحربِ، يُضرَبُ المثلُ به في ذلك، وكان يقول: قد تعرَّضْتُ للشهادةِ غيرَ مرةٍ فلم يَتَّفِقْ لي ذلك. وقال له يوماً الفَقيهُ قطبُ الدينِ النَّيْسَابوريُّ: باللَّهِ يا موْلانا السلطانَ لا تُخاطِرْ بنَفْسِكَ؛ فإنَّك لو قُتلتَ قُتِل جميعُ مَن معكَ، وأُخذَتِ البلادُ. فقال: اسكُتْ يا قُطبَ الدينِ من هو

محمودٌ؟ مَن كان يحفَظُ البلادَ قبْلي؟ اللَّهُ لا إله إلاَّ هو . قال : فبكَى مَن حضَر .

وقد أسَر بنفسه في بعض الغزَوات بعْضَ ملوكِ الفرنج، فاستَشار الأمراءَ فيه هل يقتُله أو يأخُذُ منه ما يبْذُلُ له من المالِ في الفداء؟ فاختَلفوا عليه، ثم حسُنَ في رأيه إطلاقُه، وأخْذُ الفداء، فحينَ جهز بَعْثَ الفداءِ مات ببلَده، فأعْجَب ذلك نورَ الدينِ وأصْحابَه، وابتَنَى نورُ الدينِ من ذلك المالِ البيمارَسْتانَ الذي بُني بدمشقَ، وهو أحسنُ ممَّا بُني من البيمارَسْتانات بالبلاد، ومن شَرْطِه أنَّه على الفقراءِ والمساكينِ وإذا لم يوجَدْ بعضُ الأدويةِ التي يعزُّ وجودُها إلاَّ فيه فلا يُمْنَعُ منه الأغنياءُ، ومَن جاءَ مستوصِفاً فلا يُمْنَعُ من شَرابه، ولهذا جاء إليه نورُ الدينِ وشرِب من شرابِه، رحمه اللَّهُ .

قلتُ: ويقولُ بعضُ الناسِ: إنَّه لم تَخْمُدْ منه النارُ منذُ بُنِي إلى زمانِنا هذا، فاللَّهُ أعلمُ .

وقد بنَى الخاناتِ في الطرقِ، والأبْراجَ، ورتَّب الخُفراءَ في الأماكنِ المخُوفَة، وجعَل فيها الحمَامَ الهواديَ التي تطالِعُ الأخبارَ في أسرعِ مدةٍ، وبنَى الرُّبُطَ والخانقاهاتِ، وكان يجمَعُ الفقهاءَ عندَه للبحثِ، والمشايخَ والصوفيَّةَ للزيارةِ، ويكرِمُهم ويعظِّمُهم، وقد نالَ بعضُ الأمَراءِ عندَه مَن بعضِ العلماءِ، وهو قطبُ الدينِ النَّيْسَابُوريُّ، فقالَ له نورُ الدينِ: وَيْحَكَ! إنْ كانَ ما تقولُ حقًّا فله منَ الحسناتِ الكثيرةِ ما ليس عندَك ممَّا يكفِّرُ عنه سيئاتِ ما ذكَرْتَ إنْ كنتَ صادقاً، على أنِّي واللَّهِ لا أُصَدِّقُكَ، وإنْ عُدْتَ ذكَرْتَه أو أحداً غيرَه بسُوءٍ لأُدَبِّبَنَّكَ . قال : فكفَّ عنه ولم يذْكُرْه بعدَ ذلك .

وابْتَنَى بدمَشْقَ داراً لسَماعِ الحديثِ وإسْماعِه، قال ابنُ الأثيرِ : وهو أوَّلُ مَن بنَى دارَ حديثٍ، وقد كان مَهيباً وقُوراً شديدَ الهيْبَةِ في قلُوبِ أمرائه، لا يَتَجاسَرُ أحدٌ أنْ يجلِسَ بينَ يدَيْه إلاَّ بإذْنِه، ولم يكُن أحدٌ من الأمراءِ يجلِسُ بلا إذنٍ سوى الأميرِ نجمِ الدينِ أيُّوبَ، وأمَّا أسدُ الدينِ شيرِكُوه ومَجْدُ الدينِ ابنُ الدَّايَةِ نائبُ حلَبَ والأكابرُ وغيرُهم، فكانُوا يقِفُون بينَ يدَيْه، ومع هذا إذا دخَل أحدٌ من الفقهاءِ والفقراءِ قامَ له ومشى له خُطُواتٍ، وأجْلَسه معه على سَجَّادَتِه وشرَع يحادثُه في وقارٍ وسُكونٍ، وإذا أعطَى أحداً منهم يقولُ : هؤلاءِ لهم في بيتِ المالِ حقٌّ أضعافُ ما أُعْطِيهم، فإذا رَضُوا منَّا ببعضِه فلَهُمُ المِنَّةُ علَينا .

وقد سُمع عليه جزءُ حديثٍ وفيه : «فخرَج رسولُ اللَّهِ ﷺ متقلِّداً السيفَ» . فجعَل يتعجَّبُ من تغْييرِ عاداتِ الناسِ، وكيفَ يربُطُ الأجْنادُ السيوفَ في أوساطِهم ولا يفْعَلُون هذا، ثم أمَر الجندَ بأنْ لا يحملُوا السيوفَ إلاَّ مُتَقَلِّديها، ثُم خرَج في اليومِ الثاني إلى المواكبِ وهو مُتَقَلِّدٌ السيفَ وجميعُ الجيشِ كذلك، يريدُ به الاقتداءَ برسولِ اللَّهِ ﷺ .

وقصَّ عليه وزيرُه موفَّقُ الدينِ خالدُ بنُ محمدِ بنِ نصرِ بنِ صغيرٍ، بنُ القَيْسَرانيِّ الشاعرُ أنَّه رأى في منامِه أنَّه يغسِلُ ثِيابَ الملكِ نُورِ الدينِ، فأمَرَه أنْ يكتُبَ مَناشيرَ بوَضعِ المُكوسِ والضرائبِ عن البلادِ، وقال : هذا تفسيرُ رُؤياكَ .

وكتَب إلى الناسِ يستعجلُ منهم في حِلٍّ ممَّا كان أخَذ منهم، ويقولُ : إنَّما صُرِف في قتالِ أعدائكُم

مِن الكَفَرةِ، قبَّحهمُ اللَّهُ ولعَنهم.

وكَتَب بذلك إلىٰ سائرِ ممالكه وبُلْدانِ سُلْطانه، وأمَر الوُعَّاظَ أنْ يَسْتَحِلُّوا له مِن التُّجارِ لنورِ الدينِ، وكان يقولُ في سُجودِه: اللَّهُمَّ ارْحمِ العَشَّارَ المَكَّاسَ.

وقيلَ: إنَّ بُرْهانَ الدينِ البَلْخِيَّ أنكَر علىٰ الملكِ نورِ الدينِ اسْتعانَتَه في الحروبِ بأمْوالِ المكوسِ، وقال: كيف تنصَرون وفي عساكِرِكُم الخمورُ والطُّبولُ والزُّمورُ؟! ويقالُ: إنَّ سبَبَ وضْعِه المكُوسَ عن الناسِ أنَّ الواعِظَ أبا عثمانَ المُنْتَجَبَ بنَ أبي محمدٍ الواسِطِيَّ - وكان مِن الصالحِين الكبارِ - أنشَد نورَ الدينِ:

مثّلْ وقوفَك أيُّها المغرورُ ... يومَ القيامةِ والسماءُ تَمُورُ
إنْ قيلَ نورُ الدينِ رُحْتَ مُسلِّمًا ... فاحْذَرْ بأنْ تبْقَى وما لَكَ نورُ
أنَهَيْتَ عن شُربِ الخمورِ وأنتَ من ... كأسِ المظالمِ طافحٌ مَخْمورُ
عطَّلتَ كاسَاتِ المُدامِ تعَفُّفا ... وعليكَ كاساتُ الحرامِ تدورُ
ماذا تقولُ إذا نُقِلتَ إلى البِلى ... فَرْدًا وجاءَكَ منكَرٌ ونكيرُ
وتعلَّقَتْ فيكَ الخُصومُ وأنتَ في ... يومِ الحسابِ مُسَحَّبٌ مجرورُ
وتَفَرَّقَتْ عنك الجنودُ وأنتَ في ... ضِيقِ اللُّحودِ مُوسَّدٌ مقْبُورُ
ووددْتَ أنكَ ما ولِيتَ ولايةً ... يومًا ولا قالَ الأنامُ أميرُ
وبقِيتَ بعدَ العزِّ رَهْنَ حُفَيْرةٍ ... في عالمِ الموتَى وأنتَ حقيرُ
وحُشِرْتَ عُرْيانًا حزينًا باكيًا ... قَلِقًا وما لكَ في الأنامِ مُجيرُ
أرَضِيتَ أنْ تحْيَا وقلبُكَ دارسٌ ... عافِي الخَرابِ وجِسْمُكَ المعمُورُ
أرَضِيتَ أنْ يَحْظَى سِواكَ بقُربِه ... أبدًا وأنتَ مبَعَّدٌ مهجورُ
مهِّدْ لنفسِكَ حُجَّةً تنجُو بها ... يومَ المَعادِ لعلَّكَ المعذورُ

فلمَّا سمِعها الملكُ نورُ الدينِ بكَىٰ، وأمَر بوضْعِ المكوساتِ والضرائبِ في سائرِ بلادِه.

وكتَب إليه الشيخُ عمرُ المَلاَّءُ مِن المَوْصلِ، وكان قد أمَر الولاةَ بها أنْ لا يَفْصِلُوا بها أمرًا حتىٰ يُعْلِمُوه، فما أمرَهم به مِن شيءٍ امْتَثَلُوه - وكان مِن الصالحِين الزاهدين، وكان نورُ الدينِ يَسْتَقْرِضُ منه في كلِّ شهرِ رمضانَ ما يُفطِرُ عليه، فكان يرسِلُ إليه بفَتِيت ورقاقٍ، فيُفطِرُ عليه - كتَب إليه: إنَّ المُفْسِدين قد كَثُروا، ويُحتاجُ إلىٰ نوعِ سياسةٍ، ومثلُ هذا لا يجيءُ إلاَّ بقتلٍ وصَلْبٍ وضربٍ، وإذا أُخِذ مالُ إنسانٍ في البرِّيَّةِ مَن يجيءُ فيشهَدُ له؟ فكتَب الملكُ نورُ الدينِ علىٰ ظهرِ الكتابِ: إنَّ اللَّهَ خلَق الخَلْقَ، وشرَع لهم شريعةً، وهو أعلَمُ بما يُصْلِحُهم، ولو علِم أنَّ في الشريعةِ زيادةً في المصلحةِ لشرَعَها، فما لنا حاجةٌ إلىٰ الزيادةِ علىٰ ما شَرَعَه اللَّهُ تعالىٰ. قال: فجَمَع الشيخُ عمرُ الملاَّءُ جمْعَ الناسِ بالمَوْصِلِ وأقرَأهمُ الكتابَ ويقولُ: انظُروا إلىٰ كتابِ الزاهدِ إلىٰ الملكِ، وكتابِ الملكِ إلىٰ الزاهدِ!

وجاءَ إليه أخو الشيخ أبي البَيان يستَعْديه على رجلٍ أنَّه يسبُّه ويَرميه بأنه مُراءٍ مُتَنامسٌ، وجعَل يبالغُ في شكايتِه منه، فقال له السلطانُ: أليس اللَّهُ تعالى يقولُ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. فسكَت الشيخُ ولم يُحِرْ جوابًا.

وقال الفقيهُ أبو الفَتْح الأَشْتَريُّ معيدُ النِّظاميَّةِ ببَغْدادَ، وكان قد جمَع سيرةً مختصرةً لنورِ الدين، قال: وكان يحافظُ على الصلواتِ في أوْقاتِها في جماعةٍ بتَمامِ شُروطِها وأركانِها ورُكوعِها وسجُودِها، وكان كثيرَ الصلاةِ بالليلِ، والابتهالِ إلى اللَّه، عزَّ وجلَّ، في أموره كلِّها.

قال: وبلَغَنا عن جماعةٍ من الصوفيَّةِ ممَّن يُعْتَمَدُ على قولِهم أنَّهم دخَلوا بلادَ القدسِ للزيارةِ أيامَ الفرَنْجِ، فسمِع الكفارُ يقولُون: ابنُ القَسيمِ يعْنُونَ نورَ الدينِ له مع اللَّهِ سرٌّ؛ فإنَّه ما يظْفَرُ علينا بكَثْرةِ جُنْده وجيْشه، وإنَّما يظفَرُ علينا بالدعاءِ وصلاةِ الليلِ، فإنَّه يصلِّي بالليلِ، ويرفَعُ يدَه إلى اللَّهِ ويدْعُو، فاللَّهُ سبحانَه وتعالى، يستَجيبُ له دعاءَه ويُعْطيه سُؤْلَه، وما يرُدُّ يدَه خائبةً، فيظفَرُ علينا. قال: فهذا كلامُ الكفارِ في حقِّه، رحمه اللَّهُ.

وحكَى الشيخُ شهاب الدين أنَّ الملك نورَ الدينِ وقَف بُسْتانَ المَيْدانِ - سوَى الغَيْضَةِ التي تَليه - نصْفَه على تَطْييبِ جامعِ دمشقَ، والنصفُ الآخرُ يُقْسمُ أحدَ عشرَ جزءًا؛ جزآن منها على تَطْييبِ المدرسةِ التي أنشَأها للحنفيَّةِ، والتسعةُ أجْزاءِ الباقيةُ على تَطْييبِ المساجد التسْعَةِ؛ وهي جامعُ الصالحين بجبَلِ قاسيُونَ، وجامعُ القلعَة، ومسجدُ عطيَّةَ، ومسجدُ ابنِ لَبيدٍ بالفسقارِ، ومسجدُ الرمَّاحين، والمسجدُ العباسيُّ، والمسجدُ المُعلَّقُ بالصاغةِ، ومسجدُ دارِ البطِّيخِ المعلَّقُ، والمسجدُ الذي جدَّدَه نورُ الدينِ جوارَ بِيعَةِ اليهودِ، لكلٍّ من هذه المساجدِ جزءٌ من أحَدَ عشَرَ جزءًا من النصف.

ومناقبُه ومآثرُه ومحاسنُه كثيرةٌ جدًّا، وقد ذكَرْنا نُبْذَةً من ذلك يُستدلُّ بها على ما عَداها.

وقد ذكَر الشيخُ شهابُ الدينِ في أوَّلِ «الرَّوْضَتَيْنِ» شيئًا كثيرًا من ذلك، وذكَر ما مُدح به من القصائد، وقد أوردْنا في غضونِ دولته طرَفًا صالحًا من عدْله وقصْده الصالحِ، وذكَرنا أنَّه لمَّا فتَح أسدُ الدينِ الديارَ المصريةَ ثم مات، ثم تولَّى صلاحُ الدينِ همَّ بعَزْلِه عنها واسْتنابةِ غيرِه فيها غيرَ مرَّةٍ، ولكنْ يعوقُه عن ذلك القدرُ، ويصدُّه اقترابُ أجله وفراغُ عمله، ولكن كان في هذه السنة - سنةَ تسعٍ وستِّين - وهي آخرُ مدَّته، قد صمَّم على الدُّخولِ إلى الديارِ المصرية، وأرسَل إلى عساكرَ من بلادِ المَوْصِلِ وغيرِها؛ ليكونُوا ببلادِ الشامِ ويركَبُ هو في جمهورِ جيشِه إلى مصرَ، وقد خافَ منه الملكُ صلاحُ الدينِ خوفًا شديدًا. فلمَّا كان يومُ عيدِ الفطرِ من هذه السنَةِ وهو في المَيْدانِ الأخضرِ القِبْليِّ، وصلَّى به الخطيبُ فيه صلاةَ العيد، وكان ذلك يومَ الأحدِ، ورمَى القبقَ في المَيْدانِ الأخْضَرِ الشماليِّ، والقَدرُ يقولُ له: هذا آخرُ الأعْياد. ومدَّ يومَ العيدِ سماطًا حافلاً، وأمَر بانْتهابِه على العادة، وطهَّر ولدَه الملكَ الصالحَ إسماعيلَ في هذا اليوم، وزُيِّنَ له البلدُ، وضُربتْ البشائرُ للعيدِ وللختانِ، وركب يومَ الإثنينِ في المَوْكبِ على العادةِ، ثم لعِب بالكرةِ في يومِه، فحصَل له غيظٌ من بعْضِ الأمراء، ولم

يكُنْ ذلك مِن سجيَّتِه، فبادَر إلى القلعة وهو كذلك في غاية الغضب، وحصَل له انزعاجٌ، ودخَل في حيْرة سوءِ المِزَاج، واشتَغَل بنفسه وإزعاجه، وتنكَّرتْ عليه جميعُ حواسِّه وطباعه، واحتَبس أسبُوعًا عن الناس، والناسُ في شغلٍ عنه بما هم فيه مِن اللعب والانْشراح بالزِّينة التي قد نصَبُوها، فهذا يجودُ برُوحِه، وهذا يروحُ بجوده، وانعكَسَتْ تلك الأفراحُ بالأتْراح، ونسَخ الجِدُّ ذلك المزاحَ، وحصَلَتْ للملك خَوانيقُ في حلْقه منَعَتْه مِن أداء المنطق، وهذا شأنُ أوْجاع الحَنَق، وكان قد أُشيرَ عليه بالفَصْد فلم يفعَلْ، وكان أمْرُ اللَّه قدَرًا مقْدُورًا، وكان ذلك في الكتاب مسطورًا.

فلمَّا كان يومُ الأرْبعاء الحادي عشرَ مِن شوَّالٍ مِن هذه السنة قُبِضَ إلى رحمة اللَّه تعالى عن ثمانٍ وخمسين سنةً، وله في المُلْك ثمانٍ وعشرون سنةً، رحمه اللَّهُ، وصُلِّي عليه بجامع القلعة بدمشقَ، ودُفِنَ بها حتى حُوِّل إلى تُربةٍ بُنِيتْ له بباب المدرسة التي أنشأها للحنفيَّة، رحِمه اللَّهُ، وبلَّ بالرحْمة ثَراه، وجعَل الجنةَ مأواه.

وقد رثَاه الشُّعراءُ بمراثٍ كثيرةٍ قد أوْرَدها أبو شامةَ في «الروضتَين». وما أحسَنَ ما قال العمادُ:

عـجـبْتُ من الموت كـيف اهتَـدَى	إلى مَلِك في سَـجـايَا مَلَكْ
وكـيفَ ثَوَى الفَلَكُ المُسْتَـديـ	ـرُ فـي الأرض وسْطَ الفَـلَـكْ

وقال حسَّانُ الشاعرُ الملقَّبُ بالعَرْقَلة في مدرسة نور الدين حين دُفِن فيها:

ومـدرسـة سَـيَـدْرُسُ كلُّ شيء	وتبْـقَى في حِـمَى علمٍ ونُسْك
تَضَـوَّعَ ذكْـرُها شـرقًا وغـربًا	بنُور الدين محـمـود بن زَنْكي
يـقـولُ وقـولُه حقٌّ وصـدقٌ	بغـيـرِ كنايَة وبغـيـرِ شَكِّ
دمـشـقٌ في المدائن بيتُ مُلْكي	وهَـذي في المدارس بيتُ مِـلْكي

وقبرُه مشهورٌ بدمشقَ يُزَارُ، ويُخَلَّقُ شُبَّاكُه، فيَطَّيَّبُ بريحه كلُّ مارٍّ، وإنَّما يقولُ الناسُ: نورُ الدين الشهيدُ. لِمَا حصَل له في حلْقه مِن الخَوانيق، وكذا كان يُقالُ لأبيه: الشهيدُ. ويُلقَّبُ بالقَسِيم، وكانت الفِرنْجُ يقولُون له: ابنُ القَسِيم.

صفة الملك نور الدين، رحمه اللَّهُ تعالى

كان طويلَ القامة، أسمرَ اللون حُلْوَ العيْنَيْن واسعَ الجبين، حسنَ الصورة، تُرْكيَّ الشكلِ، ليس له لحيةٌ إلا في حنَكِه، مَهيبًا متواضعًا، عليه جلالةٌ ونورُ الإسلام وتعظيمُ قواعد الشرع، رحمه اللَّهُ.

فصل

فلمَّا ماتَ الملكُ نورُ الدينِ في شَوَّالٍ مِن هذه السنة بُويعَ مِن بعده بالمُلْك لولَدِه الملك الصالحِ إسماعيلَ، وكان صغيرًا، وجعلَ أتابكَه الأميرَ شمسَ الدينِ بنَ مقدَّمٍ، فاختَلَفَ الأمراءُ وحارَتِ الآراءُ وظهرَتِ الشرورُ، وكثُرَت الخمورُ، وانْتَشَرتِ الفواحِشُ حتى إنَّ ابنَ أخيه سيفَ الدينِ غازِي ابنَ مودودٍ صاحبَ المَوْصِلِ لمَّا تحقَّقَ موتَ عَمِّه - وكان محْصُورًا منه - نادَىٰ منُادِيه بالبلدِ بالمُسامحَةِ في اللَّعبِ و اللَّهوِ والشُّربِ والطَّرَبِ، ومع المنادِي دُفٌّ وقَدَحٌ ومِزْمارٌ، فإنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعونَ. وقد كان ابنُ أخيه هذا وغيرُه مِن الملوكِ والأمراءِ الذين له حُكْمٌ عليهم، لا يستطيعُ أحدٌ منهم أن يفعَلَ شيئًا مِن المناكرِ والفَواحشِ، فلمَّا ماتَ مَرِجَ أمْرُهم وعاثُوا في الأرضِ فسادًا وتحقَّقَ حينَئذٍ قولُ الشاعرِ:

ألاَ فاسْقِني خَمرًا وقُلْ لي هي الخمرُ ... ولاتَسْقِني سِرًّا إذا أمْكَنَ الجَهْرُ

وطمِعَتِ الأعْداءُ مِن كلِّ جانبٍ في المسلمين، وعزَم الفرِنجُ علىٰ قَصْدِ دمشقَ وانْتِزاعِها مِن أيدي المسلمين، فبرَزَ إليهمُ ابنُ مقدَّمٍ الأتابِكُ، فواقَعَهم عندَ بانْيَاس فضَعُفَ عن مُقاومَتِهم، فهادَنَهم مدةً، ودفَع إليهم أموالاً جزيلةً عجَّلَها لهم، ولولا أنه خوَّفَهم بقدومِ الملكِ صلاحِ الدينِ لَمَا هادَنُوه. ولمَّا بلَغ ذلك السطانَ الملكَ الناصرَ صلاحَ الدينِ بنَ أيوبَ صاحبَ الديارِ المصريةِ كتَب إلىٰ الأمراءِ - وخاصَّةً إلىٰ ابنِ مقدَّمٍ - يلُومُهم علىٰ ما صنَعُوا مِن المُهادَنَةِ ودفْعِ الأمْوالِ إلىٰ الفرنجِ، وهم أقلُّ وأذَلُّ، وأخبرَهم أنَّه عزَم علىٰ قصدِ البلادِ الشاميَّةِ ليَحْفَظَها مِن الفرنجِ، فرَدُّوا إليه كتابًا فيه غِلْظَةٌ، وكلامٌ فيه بشاعةٌ، فلم يلتفِتْ إليهم. ومِن شدةِ خوفِهم منه كتَبُوا إلىٰ سَيْفِ الدينِ غازِي صاحبِ المَوْصِلِ ليملِّكُوه عليهم؛ ليدفَعوا به الملكَ الناصرَ صاحبَ مصرَ، فلم يفعَلْ؛ لأنَّه خافَ أن يكونَ مكيدةً منهم له، وذلك أنَّه كان قد هرَب منه الطَّواشِيُّ سعدُ الدولةِ كُمُشْتكِينُ الذي كان قد جعَله عندَه الملكُ نُورُ الدينِ عَيْنًا عليه، وحافِظًا له مِن تَعاطِي ما لا يليقُ مِن الفَواحِشِ والخمرِ واللعبِ واللهوِ، فلمَّا ماتَ نورُ الدينِ ونادَىٰ في الموصلِ تلك المُناداةَ القبيحَةَ خافَ منه الطَّواشِيُّ المذْكورُ أن يُمسِكَه فهرَب منه سِرًّا، فحينَ تحقَّق غازِي موتَ عمه تعِب في طَلَبِ الخادمِ ففاتَه، فاستَحوَذ علىٰ حواصِلِه، ودخَل الطواشِيُّ حلَبَ، ثم سارَ إلىٰ دمشقَ فاتَّفقَ مع الأمراء علىٰ أنْ يأخُذَ ابنَ أستاذِه الملكِ الصالحِ إسماعيلَ إلىٰ حلَبَ فيُربِّيَه هُنالك، وتكونُ دمشقُ مسلَّمةً إلىٰ الأتابَكِ شمسِ الدولةِ بنِ مقدَّمٍ، والقلعةُ إلىٰ الطواشِيِّ جمالِ الدينِ ريحانٍ. فلمَّا سارَ الملكُ الصالحُ مِن دمشقَ خرَج معه الأمراءُ والكُبَراءُ مِن دمشقَ إلىٰ حلَبَ، وذلك في الثالثِ والعشرين مِن ذي الحِجَّةِ من هذه السنة، وحينَ وصَلُوا حَلَبَ جلَس الصبيُّ علىٰ سريرِ مملكتِها واحْتاطُوا علىٰ بَنِي الدايةِ؛ شمسُ الدينِ عليُّ بنُ الدايةِ - أخو مَجْدِ الدينِ الذي كان رَضِيعَ نُورِ الدينِ - وإخْوتُه الثلاثَةُ، وقد كان شمسُ الدينِ عليُّ بنُ الدايةِ

يظُنُّ أنَّ ابنَ نورِ الدينِ يُسلِّمُ إليه فيُربِّيه؛ لأنَّه أحقُّ الناسِ بذلك، فخيَّبوا ظنَّه وسجَنُوه وإخوتَه في الجُبِّ، فكتَب الملكُ صلاحُ الدينِ إلى الأمراءِ يلُومُهم على نَقْلِ الولدِ من دمشقَ إلى حلَبَ، ومن سَجنِهم لبَني الداية وقد كانوا من خيارِ الأمراءِ ورُءوسِ الكُبَراءِ، ولِمَ لا يسلِّمون الولدَ إلى مَجْدِ الدينِ ابنِ الدايةِ الذي هو أحظَى الناسِ عندَ نورِ الدين وعندَ الناسِ منهم؟! فكتَبوا إليه يسيئون عليه الأدبَ، وكلُّ ذلك ممَّا يَزِيدُه حَنَقًا عليهم، ويحرِّضُه على القُدومِ بجيشِه إليهم، ولكنَّه في هذا الوقتِ في شُغْلٍ شاغلٍ لِمَا دهَم بلادَه من الأمرِ الهائلِ، كما سيأتي بَيانُه إن شاءَ اللَّهُ تعالى في أوَّلِ السنةِ الآتيةِ.

وممَّن تُوُفِّيَ فيها من الأعْيان:

الحَسَنُ بنُ أحمدَ بنِ الحسنِ بنِ أحمدَ بنِ محمدِ العَطَّار، أبو العلاءِ الهَمَذانيُّ الحافظُ، سمِع الكثيرَ ورحَل إلى بُلْدانٍ كثيرةٍ، اجْتَمَع بالمشايخِ وقدِم بغدادَ وحصَّلَ الكُتُبَ الكثيرةَ، واشْتَغَل بعلمِ القراءاتِ واللغةِ، حتى صار أوْحَدَ زمانِه في علْمَيِ الكتابِ والسُّنَّةِ، وصنَّفَ الكتبَ الكثيرةَ المفيدةَ، وكان على طريقَةِ السَّلَفِ مَرْضِيَّ الطريقةِ، سخيًّا عابدًا زاهدًا، صحيحَ الاعْتِقادِ حسنَ السَّمْتِ، له ببلَدِه المكانةُ والقَبُولُ التامُّ، وكانت وفاتُه ليلةَ الخميسِ الحادي عشَرَ من جُمادَى الآخرةِ من هذه السنةِ، وقد جاوَزَ الثمانين بأربعةِ أشهرٍ وأيَّامٍ.

قال ابنُ الجوزيِّ: وقد بَلَغَني أنَّه رُئِيَ في المنامِ أنَّه في مدينةٍ جميعُ جُدرانِها كتبٌ وحولَه كتبٌ لا تُحَدُّ، وهو مشتغلٌ بمُطالَعتِها، فقيلَ له: ما هذا؟ فقال: سألتُ اللَّهَ أن يشْغَلَني بما كنتُ أشتغلُ به في الدنيا فأعْطاني.

الأهْوازيُّ خازنُ كتُبِ مَشْهَدِ أبي حنيفةَ ببغدادَ، تُوُفِّيَ فجأةً في ربيعٍ الأوَّلِ من هذه السنةِ، وكذلك تُوُفِّيَ أبوه وأخوه فجأةً كما مات، رحمهمُ اللَّهُ تعالى.

محمودُ بنُ زَنْكي بنِ آقْ سُنْقُرَ، السلطانُ الملكُ العادلُ نُورُ الدينِ، صاحبُ بلادِ الشامِ وغيرِها من البُلْدانِ الكثيرةِ، وقد تقدَّم في ذكرِ الحوادثِ، رحمه اللَّهُ.

قال ابنُ الجوزيِّ: انتزَع نورُ الدينِ محمودُ بنُ زَنْكي، رحمه اللَّهُ تعالى، من أيْدِي الكفارِ نَيِّفًا وخمسين مدينةً، وقد كان يُكاتِبُني وأكاتبُه، رحمه اللَّهُ تعالى. قال: ولمَّا حضرَتْه الوفاةُ أخَذ العهدَ على الأمراءِ من بعدِه لولَدِه -يعني الصالحَ إسماعيلَ- وجدَّدَ العهدَ مع صاحبِ طَرابُلُسَ أن لا يُغيرَ على الشامِ في المدةِ التي كان مادَّه عليها، وذلك أنَّه كان قد أسَرَه في بعضِ غزواتِه وأسَر معه جماعةً من أهلِ دولتِه، فافْتَدَى نفسَه منه بثلاثمائةِ ألفِ دينارٍ وخمسمائةِ حصانٍ وخمسمائةِ زَرَدِيَّةٍ، ومثْلُها أتراسٌ وقنطورياتٌ، وخمسمائةِ أسيرٍ من المسلمينَ، وعاهَدَه أن لا يُغيرَ على بلادِ المسلمين إلى مدةِ سبْعِ سنينَ وسبعةِ أشهرٍ وسبعةِ أيامٍ، وأخَذ منه رهائنَ على ذلك؛ مائةً من أولادِ أكابرِ الفرنجِ وبَطَارقتِهم، فإن نكَث أراقَ دماءَهم، وكان قد عزَم على فتحِ بيتِ المَقْدسِ، شرَّفه اللَّهُ، فوافَتْه المَنِيَّةُ في شوَّالٍ من هذه السنةِ. وكانت ولايتُه ثمانٍ وعشرين سنةً وأشهرًا، وقد تقدَّم ذلك. وهذا مُقْتَضَى ما ذكَره ابنُ الجوزيِّ ومعْناه.

الخَضرُ بنُ نَصْرِ بنِ عقيلِ بنِ نَصْرٍ الإرْبِليُّ الفقيهُ الشافعيُّ، أولُ مَن درَّس بإرْبلَ في سنة ثلاثٍ وثلاثين وخمسمائة، وكان فاضلاً ديِّناً، انتفَع به الناسُ، وكان قد اشتَغَلَ على إلْكِيا الهَرَّاسيِّ وغيره ببغدادَ، وقدم دمشقَ فأرَّخَه ابنُ عساكرَ، وترْجَمه القاضي ابنُ خَلِّكانَ في «الوفيات»، وقال: قبرُه يُزارُ، وقد زُرْتُه غيرَ مرةٍ رحمه اللَّهُ تعالى.

وفيها: هلَك ملكُ الفرنجِ مُرِّي لعنَه اللَّهُ، وأظنُّه ملكَ عَسْقَلانَ ونحوَها من البلادِ، وقد كان قارَبَ أن يملِكَ الديارَ المصريةَ لولا فضلُ اللَّهِ ورحمتُه بعبادِه المؤمنين.

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

اسْتَهَلَّتْ هذه السنةُ والسلطانُ الملكُ الناصرُ صلاحُ الدينِ يوسفُ بنُ أيُّوبَ قد عزَم على الدخول إلى بلاد الشام لأجْلِ حفْظِه مَن أيدي الفرنجِ المخذول، ولكنْ قد دهَمَه أمرٌ شغَلَه عنه؛ وذلكَ أنَّ الفرنجَ قدمُوا إلى الساحلِ المصريِّ في أسطولٍ لم يُسْمَعْ بمثلِه في كثرة مراكبِه وما فيه من آلات الحصارِ، وكثرة الرجالِ والمُقاتلة؛ من جُملة ذلك مائتا شِينِيٍّ، في كلٍّ منها مائةٌ وخَمْسُونَ مُقَاتِلاً، وأرْبَعُمائَةِ قطْعَةٍ أُخرَى، وكان قُدومُهم من صَقلِّيَةَ إلى ظاهرِ إسْكَنْدَريَّةَ قبلَ رأسِ السنَة بأربعة أيام، فنصبُوا المَنْجَنيقات والدبَّابات حولَ البلد، وبرَزَ إليهم أهلُها فقاتَلوهم دونَها قتالاً شديداً، واستمرَّ القتالُ أياماً، وقُتل من كلا الفريقَيْن خلقٌ كثيرٌ، ثم اتَّفَقَ أهلُ البلَد على تحريقِ ما نصَبوه من المَنْجَنيقات والدبابات، ففعَلوا ذلك، فأضعَف ذلك قلُوبَ الفرنجِ، ثم كبَسَهمُ المسلمونَ في منازلِهم فقتَلوا منهم جماعةً وغنمُوا منهم ما أرادُوا، فانهزَم الفرنجُ في كلِّ وَجْهٍ، ولم يكن لهم ملجأٌ إلاَّ البحرُ أو القتلُ أو الأسْرُ، واستَحوَذَ المسلمونَ على أموالِهم وأثقالِهم وخُيولِهم وخيامِهم وبالجملة قتَلُوا خلقاً من الرجالِ وغنموا شيئاً كثيراً من الأموال وركِبَ مَن بَقِي منهم في الأسطول راجعين إلى بلادهم خائبين.

وممَّا عوَّقَ الملكَ الناصرَ عن الشام أيضاً أنَّ رجُلاً يُعْرَفُ بالكنزِ سمَّاه بعضُهم عبَّاسَ بنَ شادي وكان من مقدَّمي الديارِ المصريَّة ومن الدولة الفاطمية وإنما هي العُبَيْديَّة كان قد انتزَح إلى أُسوانَ، وجعَلَ يَجمَعُ عليه الناسَ، فاجْتَمَعَ عليه خلْقٌ كثيرٌ من الرَّعاعِ من الحاضرَةِ والعُرْبان، وكان يَزْعُمُ لهم أنَّه سيُعيدُ الدولةَ الفاطميَّةَ، ويدْحَضُ الأتابكيةَ التركيةَ، فالتَفَّ عليه خلقٌ كثيرٌ وجمٌّ غفيرٌ، ثم قصَد قوصَ وأعمالَها، وقتَلَ طائفةً من أمرائِها ورجالِها، فجرَّدَ إليه الملكُ صلاحُ الدينِ طائفةً من الجيشِ المصريِّ وأمَّرَ عليهم أخاه الملكَ العادلَ سيفَ الدينِ أبا بكرٍ الكُرْديَّ، فلمَّا الْتَقيَا هزَمه أبو بكرٍ وأسَرَ أهلَه وقتلَه، كما جرَى لمقدَّمِ بَني حنيفةَ، ولهذا جَعَلَ اللَّهُ دولةَ بني أيُّوبَ عاليةً منيفةً.

فصل

لَمَّا تمهَّدَت الديارُ المصريَّةُ ولم يَبْقَ بها رأسٌ من بقيَّة الدولة العُبَيْديَّة برَزَ السلطانُ الملكُ الناصرُ صلاحُ الدينِ يوسُفُ في الجيوشِ التركيةِ قاصداً البلادَ الشاميَّةَ، وذلك حينَ ماتَ سلْطانُها نورُ الدينِ محمودُ بنُ زَنْكي، وأُخيفَ سكَّانُها وتضَعْضعَتْ أرْكانُها، واختلَفَ حُكَّامُها، وفسَدَ نقْضُها وإبرامُها،

وقَصْدُه، رَحمه اللَّه، جَمْعُ شملها والإحسانُ إلى أهلها، وأمْنُ سهلها وجبلها، ونُصْرةُ الإسْلام ودَفْعُ الطَّغام، وإظْهارُ القرآن، وإخفاءُ سائر الأديان، وتكسيرُ الصُّلْبان ورضَا الرحمن، وإرْغامُ الشيطان، فخرَج من الديار المصريَّة إلى البِرْكَة في مُسْتهَلِّ صفَر، وأقامَ بها حتى اجْتَمَعَ إليه العسكرُ، وقد اسْتَنابَ على مصرَ أخاه سيفَ الدين أبا بكر، ثم سارَ إلى بُلْبَيْسَ في الثالثَ عشرَ من ربيع الأوّل، ثم ساق حتى اجتازَ بمدينة بُصْرَى، فسار في خدْمته صاحبُها صديقُ بنُ جَاوَليٍّ، فدخَلَ مدينةَ دمَشْقَ في يوم الإثنين سلْخ ربيع الأوّل، ولم ينْتَطحْ فيها عَنْزان، ولا اخْتلَفَ عليه سيْفان؛ وذلكَ أنَّ نائبَها شمسَ الدين بنَ مقدَّم، كان قد كتَبَ إليه أوّلاً فأغْلظَ له في الكتاب، فلمَّا رأى أمْرَه متوجِّهاً جعَل يُكاتبُه ويستَحثه على القُدوم إلى دمَشْقَ، ويَعدُه بتَسْليم البلد، فلمَّا رأى الجدَّ لم يمكنْه المُخالفةُ، فسلَّمَ البلدَ إليه بلا مدافَعة، فنزَلَ السلطانُ أوّلاً في دار والده؛ وهي دارُ العَقيقيِّ التي بُنيَتْ مدرسةً للملك الظاهر، وجاء القاضي وأعْيانُ الدَّماشقة للسَّلام على السلطان فرأوْا منه غايةَ الإحْسان، وكان في القلعة إذْ ذاك الطواشيُّ جمالُ الدين رَيْحانُ الخادمُ، فلم يزَلْ يُكاتبُه، ويفتلُ له في الذِّروة والغارب حتى استَماله، وأجزَل ثوابَه، فسلمها إليه، ووفَد عليه، ومثَل بينَ يدَيْه، فأكْرمَه واحْترَمه وأحسنَ إليه، وأظهَر الملكُ الناصرُ أنهُ أحقُّ الناس بتَرْبيَة ولد نُورَ الدين؛ لَما لنور الدين عليهم منَ الإحْسان المتين، وذُكر أنَّه خُطب لنور الدين بالديار المصرية، و ضُرب باسمه السكَّةُ، ثم عامَل الناسَ بالإحْسان، وأمَر بإبْطال ما أُحْدثَ بعدَ نور الدين منَ المُكوس والضرائب، وأقامَ الحدودَ وأمرَ بالمعروف ونهى عن المنكرَ، وللَّه عاقبةُ الأمور.

فصــل

فلمَّا استقرَّتْ له دمَشْقُ بحَذافيرها لم يلبَثْ أن نهَض إلى حلَبَ مسرعاً؛ لَما فيها منَ التَّخْبيط والتَّخليط، واسْتَنابَ على دمَشْقَ أخاه طُغْتكينَ بنَ أيُّوبَ، الملقَّبَ بسَيْف الإسْلام، فلمَّا اجْتازَ بحمْصَ أخَذَ رَبَضَها، ولم يشتغلْ بقَلْعتها لعلمه بحصولها، ثم سارَ إلى حَمَاةَ فتسلَّمَها من صاحبها عزِّ الدين جُرْديكَ، وسأله أنْ يكونَ سفيرَه بينَه وبينَ الحلَبيِّينَ، فأجابَه إلى ذلك، فسارَ إليهم فحذَّرَهم بأسَ صلاح الدين فلم يَلْتَفتُوا إليه، ولم يُعوِّلوا عليه، بل أمَرُوا بسَجْنه واعْتقاله، فجَمَعوا بينَه وبينَي الدايَة في البئر الذي هم فيه فأبْطأ الجوابُ على صلاح الدين، فكتَبَ إليهم كتاباً بليغاً يلُومُهم فيه على ما هم فيه من الاخْتلاف، وعدَم الائتلاف، فردُّوا عليه أسوأَ جَواب، وأحدَّ من الحراب، فأرسَل إليهم يذكِّرُهم أيامه وأيام أبيه وعمِّه في خدْمة نُور الدين في المواقف المحْمودَة التي يشْهَدُ لهم بها أهلُ الدِّين، ثم سارَ إلى حلَبَ فنزَل على جبَل جَوْشنَ، فخاف من سطوته كلُّ ذي جَوْشنٍ، فنُودي في أهل حلَبَ بالحضُور في ميْدان باب العراق، فاجتَمعُوا، فأشرَفَ عليهم ابنُ الملك نُور الدين فتَوَدَّدَ

إليهم، وتَباكَىٰ لدَيْهم، وحرَّضَهم علىٰ قتالِ صلاحِ الدينِ، وذلك عن إشارةِ الأمراءِ المُقَدَّمِينَ، فأجابَه أهلُ البلدِ بوجوبِ طاعته علىٰ كلِّ أحدٍ، واشترَط عليه الروافِضُ منهم أن يُعادَ الأذانُ بحيَّ علىٰ خيرِ العمَلِ، وأنْ يُذْكَرَ في الأسواقِ، وأنْ يكونَ لهم في الجامعِ الجانبُ الشرقيُّ، وأنْ يُذْكَرَ أسماءُ الأئمةِ الاثْنَي عشَرَ بينَ يدَيِ الجنائزِ، وأنْ يكبِّرُوا علىٰ الجنازةِ خَمْسًا، وأنْ تكونَ عقُودُ أنكحَتِهم إلىٰ الشَّريفِ الطاهرِ أبي المكارِمِ حَمْزَةَ بنِ زُهرةِ الحُسَيْنيِّ، فأُجِيبُوا إلىٰ ذلك كلِّه، فأُذِّنَ في الجامعِ وغيرِه بسائرِ البلدِ بحيَّ علىٰ خيرِ العَملِ، وعجَزَ أهلُ البَلدِ عن مقاومةِ الناصرِ، وأَعْمَلُوا في مكيدته كلَّ خاطرٍ، فأرْسَلُوا أوَّلاً إلىٰ سِنانٍ صاحبِ الحشيشة، فأرْسَلَ نفراً مِن أصْحَابِه إلىٰ الناصرِ؛ لِيَقْتُلُوه فلم يَظْفَرُوا منه بشيءٍ، بل قَتَلُوا بعضَ الأمراءِ، ثم ظُهِرَ عليهم فقُتِلُوا عن آخرِهم، فللهِ الحمدُ والمِنَّةُ، فراسَلوا عندَ ذلك القُومَصَ صاحبَ طرابُلُسَ الفرَنْجِيَّ، ووَعَدوه بأموالٍ جزيلة إنْ هو رحَّلَ عنهم السلطانَ الملكَ الناصرَ، وكان هذا القُومصُ قد أسَرَه نورُ الدينِ، وهو مُعْتَقَلٌ عندَه مدةَ عَشْرِ سنِين، ثم افْتدَىٰ نفْسَه بمائة ألفِ دينارٍ وألفِ أسيرٍ مِن أُسارَىٰ المسلمين، فكان لا ينْساها لنورِ الدينِ، رَحِمه اللَّهُ، فركِب القُومَصُ لعَنه اللَّهُ من بلدِه طَرابُلُسَ في جيشِه، فلم يتجاسَرْ علىٰ مُقاتلةِ السلطانِ، بل قصَدَ حِمصَ ليأخُذَها بغْتَةً، فركَبَ إليه السلْطانُ الناصرُ، وقد أرسَل سريَّةً إلىٰ بلدِه فقتَلوا منها وأسَرُوا وغنِمُوا، فلمَّا اقْتَرَبَ السلْطانُ منه نكَصَ علىٰ عقِبَيْه وكرَّ راجعاً إلىٰ بلَدِه، ورأَىٰ أنَّه قد أجابَهم إلىٰ ما أرادوا منه، فلمَّا رجَع صلاحُ الدينِ إلىٰ حِمْصَ لم يكُنْ قد أخذَ قلْعتَها في ذَهابِه، فتصَدَّىٰ لأخْذِها، فنصَبَ عليها المَنْجَنِيقاتِ التي ملَّكَتْه إياها قسْرًا، وقهَرتْ ساكنيها قهراً، ثم كر راجعاً إلىٰ حلَبَ، فأنالَه اللَّهُ في هذه الكرَةِ ما طلَبَ.

وكتَبَ إليهم القاضي الفاضلُ علىٰ لسانِ السلْطانِ كتاباً بليغًا فصيحًا رائقًا فائقًا، علىٰ يدَي الخطيبِ شمسِ الدينِ يقولُ فيه : فإذا قضَىٰ التسليمُ حقَّ اللقاءِ، واستَدْعَىٰ الإخلاصُ جهْدَ الدعاءِ، فليَعُدْ وليُعِدَّ حوادِثَ ما كانت حديثاً يُفْتَرَىٰ، وجَواريَ أمورٍ إن قال فيها كثيراً، فأكْثَرُ منه ما قد جرَىٰ، ولْيشرَحْ صَدْراً منها لعله يشرَحُ منّا صَدراً، وليوضِّحِ الأحْوالَ المُسْتَسِرَّةَ فإنَّ اللَّهَ لا يُعبَدُ سِرًّا:

ومن الغرائبِ أن تسيرَ غرائبٌ ... في الأرضِ لم يعلَمْ بها المأمُولُ
كالعيسِ أقْتَلُ ما يَكونُ لها الصَّدَىٰ ... والماءُ فوقَ ظهورِها محمُولُ

فإنَّا كنَّا نقتبسُ النارَ بأكُفِّنا وغيرُنا يستَنيرُ ونستنبطِ الماء بأيْدينا وسِوانا يستَميرُ، ونَلْقَىٰ السِّهامَ بنُحورِنا وغيرُنا يعتمدُ التَّصْويرَ، ونُصافِحُ الصِّفَّاحَ بصدورِنا، وغيرُنا يدَّعِي التصديرَ، ولابُد أنْ نستردَّ بَضاعتَنا بمَوْقِفِ العَدْلِ الذي تُرَدُّ به الغُصوبُ، وتَظهَرَ طاعتُنا فنأخُذَ بحظٍّ الألسُنِ كما أخَذْنا بحظٍّ القلوبِ، وكان أوَّلَ أمْرِنا أنَّا كُنَّا في الشامِ نفتَحُ الفتوحَ مباشِرين بأنفُسِنا، ونجاهِدُ الكفارَ متقدِّمين بعساكِرِنا نحنُ ووالدُنا وعمُّنا، فأيُّ مدينةٍ فُتِحتْ أو مَعْقِلٍ مُلِكَ أو عسكرٍ للعدُوِّ كُسِر أو مصافٍ للإسْلامِ معه ضُرِبَ ولم نكُنْ فيه؟ فما يجْهَلُ أحدٌ صُنْعَنا، ولا يجْحَدُ عدوُّنا أنَّا نصْطَلِي الجمرةَ ونملِكُ الكرَّةَ، ونتقدَّمُ

الجماعةَ ونرتِّبُ المُقاتِلةَ، ونُدبِّرُ التَّعْبِئةَ، إلىٰ أنْ ظهَرَتْ في الشامِ الآثارُ التي لنا أجْرُها، ولا يَضرُّنا أنْ يكونَ لغيرِنا ذكْرُها. ثم ذكَرَ ما صنَعُوا بمِصْرَ مِن كسرِ الكُفْرِ وإزالةِ المنكرِ وقَمْعِ الفرنجِ وهَدْمِ البِدَعِ التي كانت هنالك، وما بُسِطَ منِ العدلِ ومُدَّ مِن الفضلِ، وما أقامه مِن الخُطَبِ العباسيَّةِ ببلادِ مِصْرَ واليمنِ والنُّوبةِ وإفْرِيقيَّةَ وغيرِ ذلك، بكلامٍ بسيطٍ حسَنٍ.

فلمَّا وصَلَهمُ الكتابُ أساءوا الجوابَ، وقد كانوا كاتَبُوا صاحِبَ المَوْصِلِ؛ سيفَ الدينِ غازِيَ بنَ مَوْدُودٍ أخي نورِ الدينِ محمودِ بنِ زَنْكِي، فبعَثَ إليهم أخاه عزَّ الدينِ في عساكرِه، وأقبلَ عليهم في دساكرِه، فانْضافَ إليهمُ الحَلَبِيُّون، وقصَدُوا حَماةَ في غيبةِ الناصرِ واشْتغاله بقلعةِ حِمْصَ وعمارَتِها، فلمَّا بلَغَه خبرُهم سارَ إليهم في قُلٍّ مِنَ الجيشِ، فانْتَهىٰ إليهم وهم في جَحافلَ كثيرة، فواقَفُوه وطمِعُوا فيه لقلَّةِ مَن معه، وهمُّوا بمُناجزَتِه فجعَلَ يُدارِيهم ويدْعوهم إلىٰ المُصالَحَةِ لعلَّ الجيشَ يلْحَقُونَه، حتىٰ قالَ لهم في جملةِ ما قال: أنا أقْنَعُ بدمَشْقَ وحدَها وأقيمُ بها الخُطْبَةَ للملكِ الصالحِ إسْماعيلَ، وأترُكُ ما عداها مِن أرضِ الشامِ. فامتَنَع مِنَ المُصالَحةِ الخادِمُ سعدُ الدينِ كُمُشْتِكِين، إلاَّ أنْ يجعَلَ لهم الرَّحبَةَ التي هي بيدِ ابنِ عمِّه ناصرِ الدينِ بنِ أسَدِ الدينِ، فقالَ: ليسَ لي ذلك، ولا أقْدِرُ عليه. فأبَوُا الصُّلْحَ، وأقْدَمُوا علىٰ القتالِ، فجَعَلَ جيشه كُرْدُوسًا واحداً، وذلك يومَ الأحدِ التاسعَ عشَرَ مِن شهرِ رمضانَ عندَ قرونِ حَماةَ، وصبَرَ صبْراً عظيماً، وجاءَه في أثْناء الحالِ ابنُ أخيه تَقيُّ الدينِ عمرُ بنُ شاهنْشَاه ومعه أخوه فرُّوخْشاه في طائفة مِن الجيشِ، وقد ترجَّحَ دَسْتُه عليهم، وخلَصَ رعْبُه إليهم، فولَّوا هُنالك هاربين، وتولَّوْا مُنْهَزِمين، فأُسِر مَن أُسِرَ مِن رُءوسِهم، ونادىٰ أن لا يُتْبَعَ مُدْبِرٌ ولا يُذَفَّفُ علىٰ جريحٍ، ثم أطلَقَ مَنْ وقعَ في أسرِه، وسارَ علىٰ الفورِ إلىٰ حلَبَ، وقد انعكَسَ عليهمُ الحالُ وآلَوا إلىٰ شرِّ مآلٍ؛ فبالأمسِ كان يطلُبُ منهم المُصالحةَ والمُسالَمَةَ، وهم اليومَ يطلُبُون منه أن يكُفَّ عنهم ويرجعَ، علىٰ أنَّ المعَرَّةَ وكَفَرْطابَ وبارِين له زِيادة علىٰ ما بيَدِه مِن أراضي حَماةَ وحِمْصَ وبعلَبَكَّ مع دمَشقَ، فقبِلَ ذلك، وكفَّ عنهم، وحلَفَ علىٰ أنْ لا يغْزُوَ بعدَها الملكَ الصَّالحَ، وأنْ يدْعُوَ له علَىٰ سائرِ منابرِ بلادِه وممالكه، وشفَعَ في بني الدايةِ أخوه مَجْدُ الدينِ، أنْ يُخْرَجُوا مِن السِّجنِ، ففعَلَ ذلك ثم رجَعَ مؤيَّداً منْصُوراً مسلَّماً محبوراً.

فلمَّا كان بحَماةَ وصَلتْ إليه رسُلُ الخليفةِ المُستَضِيءِ بأمرِ اللَّهِ ومعهم الخِلَعُ السَّنِيَّةُ والتشْرِيفاتُ العباسِيَّةُ والأعلامُ السودُ وتوقيعٌ مِنَ الديوانِ بالسلْطَنَةِ ببلادِ مصْرَ والشام، وأُفِيضَتِ الخِلَعُ علىٰ أهْلِه وأقاربه وأصحابِه وأصهارِه وأعوانه وأنصارِه، وكان يوماً مشْهُوداً، واستَنابَ علىٰ حَماةَ ابنَ خالَه وصِهْرَه الأميرَ شهَابَ الدينِ محموداً، ثم سارَ إلىٰ حِمصَ فأطْلَقَها إلىٰ ابنِ عمِّه ناصرِ الدينِ، كما كانتْ مِن قبْلِه لأبيه شِيركُوه أسَدِ الدينِ، ثم إلىٰ بَعْلَبَكَّ، ثم إلىٰ البِقاعِ، ورجَعَ إلىٰ دمَشْقَ في ذي القَعْدَة.

في هذه السنة ظهَرَ رجلٌ مِن قرْيَةِ مَشْغَرَا مِن مُعاملَةِ دِمَشْقَ وكان مغْرِبيًّا فادَّعَىٰ النبوَّةَ، وأظهَرَ شيئاً مِنَ المخاريقِ والمخاييلِ والشعْبَذَةِ والأبْوابِ النيرنجيَّةِ، فافْتَتَنَ به طوائفُ مِن أهلِ تلك الناحيةِ مِن

الطَّغام والهَمَج والعَوام، فتطلَّبَه السلطانُ، فهرَبَ في الليلِ من مَشْغَرا إلى معاملة حَلَب، فالتفَّ عليه كلُّ مقطوع الذَّنَب، وأضلَّ خلقاً من الفلاَّحينَ لا المُفلحين، وتزوَّجَ امرأة أحبَّها، وكانت من أهلِ تلك البطاح، فعلَّمَها أن ادَّعت النبوَّة، فأشبَها قصَّةَ مُسَيلمةَ وسَجَاح، فلَعَنَهما اللهُ كلَّما غَبَّ الحَمَامُ وهَدَرَ، وكلَّما صَبَّ الغَمَامُ وقَطَرْ.

وفيها: هربَ وزيرُ الخليفة ونُهبَتْ دارُه.

وفيها: درَّسَ أبو الفَرجِ بنُ الجوْزيِّ بمدرَسة أُنشئَتْ للحنابلة، فحضرَ عندَه قاضي القُضاةِ أبو الحسَنِ ابنُ الدامَغانيِّ، والفقهاءُ والكبراءُ، وكان يوماً مشْهُوداً، وخُلِعَتْ عليه خِلْعَةٌ سَنيَّةٌ.

وتُوفِّيَ فيها من الأعْيان:

رَوْحُ بنُ أحمدَ، أبو طالب الحَديثي قاضي القضاة ببَغْدادَ في بعضِ الأحيانِ، وكان ابنُه بأرضِ الحجاز، فلمَّا بلَغَه موتُ أبيه مرِضَ بعدَه فماتَ بعدَ أيام، وكان يُنْبَذُ بالرَّفْض.

شَمْلَةُ التُّرْكُمانيُّ كان قد تغلَّبَ على بلادِ فارسَ واستَحدثَ قلاعاً، وتغلَّبَ على السَّلْجوقيَّة، وانتَظَمَ له الدَّسْتُ نحواً من عِشْرين سنةً، ثم إنَّه حارَبَه بعضُ التُّركمانِ فقتَلُوه.

قايْمازُ بنُ عبد الله قطبُ الدين المُسْتَنْجديُّ، وزَر للخليفة المُستَضيء، وكان مقدَّماً على العساكرِ كلِّهم، ثم إنَّه خرَجَ على الخليفة، وقصَدَ أنْ ينْهَبَ دارَ الخلافة، فصعَدَ الخليفةُ فوقَ سطْحٍ في دارِه، وأمرَ العامَّةَ بنَهبِ دارِ قايْمازَ فنُهبَتْ، وكان ذلك بإفْتاءِ الفقهاءِ، فهرَبَ فهلَكَ، وهلَكَ مَن كان معه في المَهامِ والقِفَار.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

فيها: طلَبَ الفرنْجُ منَ السلْطانِ صلاحِ الدين وكان قد أقامَ بدمَشقَ في مرجِ الصُّفَّر أنْ يُهادنَهم فأجابَهم إلى ذلك؛ لأنَّ الشامَ كان مُجْدِباً ويحتاجُ إلى ذلك. وأرسَلَ جيْشَه صُحْبةَ القاضي الفاضلِ إلى الديارِ المصْريَّة؛ ليسْتَغلُّوا المغلَّ ثم يقْبِلُوا، وعزمَ هو على المُقامِ بالشام، واعتَمَد على كاتبِه العمادِ عوَضاً عن أفصحِ العبادِ بتلك البلاد، وهو القاضي الفاضلُ قدوةُ العلماءِ والأفاضلِ، ورُحْلَةُ الطالبين، وزينُ المحافلِ زينُ الإسلام، ومَن لسانُه أحدُّ من حُسام، ولكنِ احتاجَ السلطانُ إلى إرسالِه إلى الديارِ المصريَّة ليكونَ عيناً وعوناً له بها، ولساناً فصيحًا يعبِّرُ عنها، فاحتاجَ إلى أن يتعوَّضَ عنه، ولم يكُنْ أحدٌ أعزَّ عليه ولا أحبَّ إليه منه:

وما عَنْ رِضا كانتْ سُلَيمى بديلةً	بليلى ولكن للضَّرُوراتِ أحكامُ

وكانت إقامتُه ببلادِ الشامِ وإرسالُ الجيشِ صحبةَ القاضي الفاضلِ غايةَ الحَزْمِ والتدْبيرِ والاهتمام؛ ليَحْفظَ ما استَجدَّ منَ المَمالك خوفاً عليه مَن سطوةِ من هُنالكَ.

فلمَّا أرسَلَ الجيوشَ إلى مِصْرَ وبقِيَ هو في طائفةٍ قليلةٍ من عسكرِه، واللّهُ قد تكفَّلَ له ولهم بالنصرِ، كتبَ صاحبُ الموصلِ سيْفُ الدينِ غازي بنُ أخي نُورِ الدين إلى جماعةِ الحَلبيِّين يلومُهم على ما وقَعَ بيْنَهم وبينَ الملكِ صلاحِ الدينِ منَ المُصالحَة، وقد كان إذْ ذاكَ مشْغُولاً بمحاصَرةِ أخيه

عمادِ الدينِ زَنْكي بسِنْجَار وليسَتْ هذه بفِعْلَةٍ صالحةٍ وما كان سبَبَ قتاله لأخيه إلا انتماؤه إلى طاعة الملك الناصرِ وذويه، فاصْطَلَحَ مع أخيه حينَ عرَفَ قوّةَ الناصرِ وناصريه، ثم حرَّضَ الحلَبِيِّينَ على نبذ العهود إلى الملك صلاحِ الدينِ، فأرسَلُوا إليه بالعُهودِ التي عاهَدُوه عليها ودَعَوه إليها، فاسْتَعانَ عليهم باللّه وأرسَلَ إلى الجيوشِ المصرِيَّةِ ليقْدَموا إليه، فأقبَلَ صاحِبُ المَوْصِلِ في عساكرِه ومشاريه ودساكره. واجْتَمعَ بابنِ عمِّه الملكِ الصالحِ عِمادِ الدينِ إسْماعيلَ، وسارَ في عِشْرِينَ ألفَ مُقاتِلٍ على الخيولِ الضُّمَّرِ الجُرْدِ الأبابِيلِ، وسارَ نحْوَهم الناصرُ وهو كالهِزَبْرِ الكاسِرِ، وإنَّما معه ألْفُ فارِسٍ من الحُماة و﴿كم من فئَةٍ قَليلَةٍ غَلَبَت فئَةً كَثيرَةً بإذنِ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ولكنَّ الجيوشَ قد خرَجت مِن الديارِ المصرية في جَحافل كالجبَال وعُدَّةٍ وعَددٍ كالرمالِ، فاجْتَمَعَ الفريقانِ وتَداعَوا للنِّزَالِ، وذلك في يومِ الخميس العاشرِ مِن شوَّالٍ، فاقْتتَلُوا قِتالاً هائلاً، حتى حمَلَ السلطانُ بنفْسه الكريمةِ، فكانتْ بإذْنِ اللَّه الهزيمةُ، فقتَلُوا خلقاً مِنَ الحلَبِيِّينَ والموَاصِلةِ، وأخذُوا مضارِبَ الملك سَيْفِ الدينِ غازي وحواصله، وأسروا جماعة من رءوسهم فأطلقهم السلطان بعدما أفاض الخلع على أبدانهم ورءوسهم وقد كانوا استعانوا بجماعة من الفرنج في حال القتال وليس هذا من صنيع الصناديد الأبطال. وقد وجد السلطان في مخيم السلطان غازي شيئاً مِن الأقفاص التي فيها الطيورُ المطرِبَةُ وذلكَ في مجْلِس شرابِه المُسْكِرِ، وكيف مَن كان هذا مسْلَكَه ومذهبَه يَنْتَصِرُ؟! فأمَرَ السلطانُ بردِّها عليه وتَسْيِيرِها إليه، وقال للرسولِ: قُلْ له بعدَ وصُولِكَ إليه وسَلامكَ عليه: اشْتغالُكَ بهذه الطُّيورِ أحَبُّ إليْكَ مِن الوقوعِ فيما رأيتَ مِن المحذُور. وغنِمَ السلطانُ مِن أموالِهم شيئاً كثيراً ففرَّقَه على أصحابِه وأحبابه وأنصارِه غُيَّباً كانوا أو حُضُوراً، وأنعمَ بخَيْمَةِ الملِك سيفِ الدين غازِي على ابنِ أخيه عِزِّ الدينِ فَرُّوخْشاه بنِ شاهنشاه بنِ نجْمِ الدينِ، وردَّ ما كان في وطاقِه منِ الجوارِي والمغنِّيات، وقد كان معه أكثرُ مِن مائةِ مغنيةٍ، وردَّ الأقفاصَ وآلاتِ اللعبِ إلى حَلَبَ، وقال: قُولُوا له: هذا أحبُّ إليكَ مِنَ الحربِ. ووَجَدَ عسْكَرَ المواصِلَةِ كالحانَةِ مِن كثرةِ الخمورِ، والبرابِطِ والملاهِي، وهذه سبِيلُ مَن هو عن طريقِ الخيرِ ساهٍ لاهٍ.

فصلٌ

لما رجَع الحلبيُّون إلى حَلَبَ وقد انْقلَبُوا شرَّ مُنْقلَبٍ، وندِمُوا على نقضِهم الأيمانَ ومخالفتهم طاعةَ الرحمنِ وشَقِّهِم العَصَا على السلطانِ فحصَّنُوا البلدَ، خوفاً مِنْ وُثوب الأسَدِ، وأسرَعَ صاحبُ المَوْصِلِ فوَصَلَها، وما صدَّقَ حتى دخَلَها، وأما السلطانُ صلاحُ الدينِ فإنَّه لَمَّا فرَغ من قسمة ما غَنِم مما تركه مَن عطب ومَن سلِم، أسرَع السيرَ إلى حَلَبَ الشهباءِ وهو في غايةِ السَّطوةِ والقُوَّةِ والعِزَّةِ القَعْساءِ، فوجَدهم قد حصَّنُوها، والقلعةَ قد أحكَموها فقالَ: مِن المصْلَحَةِ أنْ نبادرَ إلى فتحِ الحصُونِ التي حولَ البلدِ، ثم نعودُ إليهم فلا يمْتَنِعُ علينا منهم أحدٌ. فشرَع يفتحُ الحصونَ حصْناً حصناً، ثم يعودُ إليهم ويَهْدِمُ من أرْكانِ دولَتِهم رُكْناً ركناً، ففتَح بُزاعَةَ ومَنْبِجَ، ثم سارَ إلى عَزَازَ فأرسَلَ الحلبيُّونَ

إلىٰ سنان، فأرْسَلَ جماعةً مِن أصحابِه ليقتُلوا صلاحَ الدينِ، فدخَل طائفةٌ منهم في جيْشِه في زِيِّ الجُندِ فقاتَلُوا أشدَّ القتالِ، حتىٰ اختَلَطُوا بهم فوجَدُوا فرصةً ذاتَ يومٍ والسلْطانُ ظاهرٌ للناسِ، فحمَلَ عليه واحدٌ منهم فضربَه بالسكين علىٰ رأسه فإذا هو مُحْتَرِسٌ منهم باللَّأمَةِ، فسلَّمه اللَّهُ، غيرَ أنَّ السكينَ مرَّتْ علىٰ خدِّه فجرَحَتْه جُرحاً هيِّناً، ثم أخَذَ الفداويُّ رأسَ السلْطانِ فوضَعَه علىٰ الأرضِ ليذبحَه، ومَن حولَه قد أخذَتْهُم دهشةٌ، ثم ثابَ إليهم عقْلُهم فبادَرُوا إلىٰ الفداويِّ فقَتَلُوه وقطَّعُوه، ثم هجَم آخرُ في الساعة الراهنَة علىٰ السلطانِ فقُتِلَ، ثم هجَمَ آخرُ علىٰ بعضِ الأمراءِ فقُتِلَ أيضاً، وهربَ الرابعُ، فأُدْرِكَ فقُتِلَ، وبطَلَ القتالُ ذلك اليومَ. ثم صمَّمَ السلطانُ علىٰ البلَدِ ففَتَحه وأقطَعه ابنَ أخيه تقيَّ الدينِ عمرَ بنِ شاهنشاه بنِ أيُّوبَ، وقد اشتدَّ حَنَقُه علىٰ أهلِ حَلَبَ لما فعلوا ولما أرسَلُوا مِنَ الفداويَّةِ إليه وإقْدامِهم عليه، فجاءَ فنزَلَ تُجاهَ البلَدِ علىٰ جبَلِ جَوْشَنَ، وضُرِبتْ خيْمَتُه علىٰ رأسِ البادوقيَّة، وذلك في خامسَ عشرَ ذي الحِجَّةِ، وجَبَىٰ الأموالَ وأخَذ الخَراجَ مِنَ القُرَىٰ، ومنَع أنْ يَدْخُلَ البلدَ شيءٌ أو يخرُجَ منه شيءٌ، واستمرَّ حصارُه إيَّاها حتىٰ انْسَلَخَتِ السنةُ.

وفي ذي الحِجَّةِ مِن هذه السنَةِ عادَ شمسُ الدولة تُورانْشاه أخو السلطانِ من بلادِ اليَمنِ، وذلك من كثرة اشتياقه إلىٰ أخيه وذويه وإلىٰ الشامِ وطيبِه وظلالِه؛ لأنَّه ضجِر مِن حرِّ اليمنِ، وإن كان قد حصَلَ علىٰ أموالٍ جزيلةٍ مِن مالِه، ففرِحَ به أخوه الملكُ الناصرُ، واشتدَّ أَزْرُه بسببِه، ولمَّا اجتمَعا قال الناصرُ الناصحُ البرُّ الوفيُّ: أنا يُوسُف وهذا أخي، وقد استْنابَ شمسَ الدينِ علىٰ بلادِ اليمنِ، وإنما استناب علىٰ مخاليفِها مَن لا يخالفُه مِن ذي قراباته ومن له سالفُ المِنَنِ، فلمَّا استقرَّ عندَ أخيه استْنابَه علىٰ دمَشْقَ وأعمالِها، وقيلَ: إنَّ قدومَه كان قبلَ وقعةِ المواصلَةِ، وكان مِن أكبرِ أسْبابِ الفتحِ والنصرِ؛ لشهامته وشَجاعته وفروسيَّته وبسالته.

وفيها: أنفَذَ تَقيُّ الدينِ عمرُ بنُ أخي السلطانِ مملُوكَه بهاءَ الدينِ قراقُوشَ في جيْشٍ إلىٰ بلاد المغربِ، ففتَحَ بلاداً كثيرةً هنالك، وغنِمَ أموالاً جزيلةً، ثم عادَ إلىٰ مِصْرَ وطابَت له وترَكَ تلك البلادَ.

وفيها: قدِمَ إلىٰ دمَشْقَ الواعظُ الكبيرُ أبو الفُتوحِ عبدُ السلامِ بنُ يُوسُفَ بنِ محمدِ بنِ مقلّدٍ التَّنُوخيُّ الدِّمشقيُّ الأصْلِ، البَغْداديُّ المَنْشأ، ذكَره العمادُ في الخريدَةِ، قال: وكان صاحِبي، وجلَس للوعظِ، وحضَرَ عندَه السلطانُ صلاح الدينِ. وأوْرَدَ له مُقطَّعاتِ أشعارٍ، فمِن ذلك ما كان يقولُ في مجلسِه:

يا مالكاً مُهْجَتي يا مُنتهى أمَلي ... يا حاضراً شاهداً في القلْبِ والفكْر
خلَقْتَني من تراب أنتَ خالقُه ... حتي إذاَ صِرْتُ تِمْثالاً من الصورِ
أجْريْتَ في قالَبي رُوحاً منوَّرَةً ... تمرُّ فيه كجَرْيِ الماءِ في الشجرِ
جمعتَ بين صَفا رُوحٍ مُنَوَّرَة ... وهَيْكَلٍ صُغْتَهُ من معدن كدرِ
إنْ غبتُ فيك فيَا فَخري ويا شرَفي ... وإنْ حضَرتُ فيا سَمْعي ويا بصَري
إن احْتَجبْتَ فسرٌّ فيكَ في وَلَه ... وإنْ خطَرتَ فقَلْبي منكَ في خطَرِ
تبدو فتمحو رسومي ثم تثبتها ... وإنْ تَغَيْبْتَ عنِّي عِشتُ بالأثرِ

وفيها تُوفِّيَ من الأعيان: الحافظُ أبو القاسمِ بنُ عساكرَ:

عليُّ بنُ الحسَنِ بنِ هبَةِ اللَّهِ بنِ عساكرَ، أبو القاسمِ الدِّمَشْقِيُّ، أحدُ أكابرِ حُفَّاظِ الحديثِ ومَن عُنِيَ به سماعاً وجَمْعاً وتصنيفاً واطِّلاعاً، وحِفْظاً لأسانيدِه ومُتونِه، وإتقاناً لأساليبِه وفُنونِه، صنَّف «تاريخَ الشامِ» في ثمانين مجلدةً، فهي باقيةٌ بعدَه مخلَّدَةً، وقد برزَ على مَن تقدَّمه منَ المؤرِّخين، وأتعبَ من يجيءُ بعدَه من المتأخِّرينَ، فحازَ فيه قصَبَ السِّباقِ، وجاز حدا يأمَنُ فيه اللحاقِ، ومَن نظَرَ فيه وتأمَّله ورأىٰ ما وصفَه فيه وأصَّله، حكَم بأنَّه فريدٌ في التواريخِ، وأنه في الذِّروةِ العُلْيَا من الشَّماريخِ، هذا مع ما له في علُومِ الحديثِ من كتب مفيدةٍ، وما كان مشتملاً عليه من العبادةِ والطَّرائقِ الحميدةِ، فله: «أطرافُ الكتُبِ الستَّة»، والشيوخُ النُّبَلُ»، و «تَبيينُ كذِبِ المفتَرِي على أبي الحسَنِ الأشْعَرِي»، وغيرُ ذلك من المصنَّفاتِ الكبارِ والصغارِ، والأجزاءِ والأسْفارِ، وقد أكثرَ في طلَبِ الحديثِ منَ التَّرحالِ والأسْفارِ، وجاب المُدنَ والأقاليمَ والأمْصارَ، وجمَع منَ الكتُبِ ما لم يجْمَعْه أحدٌ من الحفَّاظِ، نَسْخاً واستِنْسَاخاً ومقابلةً وتصْحيحاً للألفاظِ، وكان من أكابرِ بيوتاتِ الدِّمَاشقَةِ، ورياستُه فيهم عاليةٌ باسقَةٌ من ذوِي الأقْدارِ والهيْئاتِ، والأموالِ الجزيلةِ والصلاتِ، كانت وفاتُه في الحادي عشَرَ من رجبٍ، وله منَ العُمرِ ثنتانِ وسبعونَ سنةً، وحضَر السلطانُ صلاحُ الدينِ جنازَتَه، ودُفِنَ بمقابرِ باب الصغيرِ، رحِمهُ اللَّهُ تعالَىٰ وكان الذي صَلَّىٰ عليه الشيخُ قُطْبُ الدينِ النَّيْسَابُورِيُّ. قال ابنُ خَلِّكانَ: وله أشعارٌ كثيرةٌ منها قولُه:

أيا نفسُ ويحَكِ جاءَ المشيبُ ... فماذا التَّصَابي وماذا الغزَلْ؟

تولَّى شبابي كأنْ لم يكُنْ ... وجاءَ المشيبُ كأنْ لم يزَلْ

كأنِّي بنفسي على غِرَّةٍ ... وخطْبُ المنُونِ بها قد نزَلْ

فياليتَ شِعْري ممَّنْ أكونُ ... وما قدَّرَ اللَّهُ لي في الأزَلْ

قال: و قد التَزم فيها ما لا يلْزَمْ؛ وهو الزَّاي قبلَ اللاَّمِ. قال: وكان أخوه صائنُ الدينِ هبةُ اللَّهِ بنُ الحسَنِ محدِّثاً فقيهاً، اشْتغلَ ببَغدادَ على أسعدَ الميهَنِيِّ، ثم قدِمَ دمشْقَ فدرَّس بالغَزَّاليَّةِ، وتُوفي بها في سنةِ ثلاثٍ وستِّينَ رحمهما الله تعالىٰ وإيانا بمنِّه.

* * *

فهرست الجزء الثاني عشر